

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم: التاريخ



جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية قسنطينة

رقم التسجيل:

رقم التسلسلي:

مصادر البيان المغرب في أخبار الأندلس
والمغرب
لابن عذاري المراكشي - دراسة نقدية-

أطروحة مقدمة لنيل شهاده دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية

التخصص: تاريخ وحضارة إسلامية المدينة والحياة الحضارية في الغرب الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد فرقاني

اعداد الطالب:

بارش بوعزة

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
إبراهيم بن مهية	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	رئيسا
محمد فرقاني	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة-	مشرفا مقررا
عبد المالك بكاي	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02	ممتحنا
نصيرة عزرودي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	ممتحنا
مسعود بركة	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02	ممتحنا
الطاهر طويل	أستاذ	جامعة الحاج لخضر باتنة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1444-1445هـ / 2023 - 2024م



شكر تقدير

أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد فرقاني الذي تابع بحثي هذا بالتقويم والتصحيح والتوجيه ومنحني من وقته وجهده الكثير، ولم يبخل علي بمعلومة أو توجيه أو نصيحة، كما فتح لي صدره وبيته، فأدركت بأنه بمثابة والدي الذي لم تشأ الأقدار أن يعيش معي مرحلة الدراسة لما بعد التدرج، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى لجنة المناقشة كل باسمه لتفضلها وتكرمها بقبول مناقشة الرسالة، كما يطيب لي أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كل الطاقم العلمي والإداري بجامعة الأمير عبد القادر الذين يسروا لنا كل سبل النجاح، فكل أستاذ ومسؤول وموظف لكم مني الشكر والتقدير.

الإهداء

إلى من حملتني وهنأ على وهن أمني العزينة أطل الله في عمرها
والى الذى تمنيت أن يكون حاضرًا بجانبى فى مثل هذه المناسبات

إلى روح والدى الطاهرة رحمه الله

إلى من شاركتنى طعام الحياة فى حلوها ومرها وكانت خير سند لى فى كل شىء، زوجتى

الغالية

والى أولادى قرة عيني ونور فؤادى، وسيم، يوسف، رؤى، أحمد أطل الله فى أعمارهم

وسدد خطاهم بالخير والبركة

المقدمة

المقدمة:

يعتبر علم التاريخ مرآة عاكسة لنشاط الإنسان لمختلف مظاهر حياته في الماضي البعيد والقريب في الزمان والمكان، وعلاقته بالبيئة المحيطة به سلبيًا أو إيجابًا، ومن ثم يعد التاريخ الحامل لتجربة هذا الإنسان للأجيال القادمة موفرا لها رصيذا من المعارف لتوظيفها في بناء حاضرها بعيدا عن تكرار المحاولة والخطأ توفيراً لوقتها وجهدها، ويدفعها هذا الماضي إلى الاعتزاز بما كان لأسلافهم من حضور في تعمير الأرض وما قدمت من خدمة لهذا الإنسان، وتعد الأمة الإسلامية من بين الأمم التي اهتمت بتجربة أول الأمة ونقلتها لأبنائها من بعدها الذين انتشروا في الآفاق مشرقا ومغربا منها بلاد المغرب والأندلس الذين كان لهم إشعاع وهاج تعدت فائدته إلى غيرهم، تفرغ لكتابة تاريخ هذا الإقليم رجال كثر قاموا بتدوين تاريخه، موفرين بذلك مادة مهمة جدا تعددت مظاهرها واتجاهاتها المختلفة نذكر منهم على سبيل الإيجاز: محمد بن حبيب الأندلسي-174-234هـ- ابن عذاري مرورا بأسرة الرازيين الذين كانت لهم إسهاماتهم المرموقة في التاريخ وجغرافية الإقليم ((ثم تذكر نماذج من المؤرخين مرورا بابن حيانوالرقيق القيرواني وغيره حتى تصل إلى ابن عذاري)).

فكان هؤلاء المؤرخين الجليل الذي سبق المؤرخ ابن عذاري الذين دونوا تاريخ المغرب والأندلس الإسلاميين عاملين على إبراز مظاهر شخصيتهما الحضارية التي وفرت لنا هذه التواريخ مادة علمية شاملة عن جوانب الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية والتيارات الدينية من سنة وخوارج وشيعة ونصارى ويهود في بلاد الغرب الإسلامي كانت كتابات هؤلاء المؤرخين بالخصوص الأندلسيين منهم على مختلف تخصصاتهم المعرفية واتجاهاتهم وميولهم الفكرية والمذهبية شاهدة على تقدم هذين الإقليمين وفي الوقت نفسه على تفككهما وتدهورهما السياسي التي أودت سياسات الحكام المفككة لوحده السياسية وتمزيق ألفته الاجتماعية، خاصة الأندلس إلى ضعفها وزوال مجد المسلمين بها في النهاية، وعزز من هذا

المصير السيئ ضعف بلاد المغرب التي كانت هي الأخرى في وضع لا يختلف كثيرا عن حال وضع بلاد الأندلس من ناحية الشقاق والاختلاف والتراعات السياسية فذهبت قوته التي كانت الظهير لقوة الأندلس في فترة ما قبل سقوط الموحدين، فما ضعف وتفكك سياسيا تيقن كل حلیم مصيرها المأسوي الذي آلت إليه ولم ينفعمهم ذلك الثراء المعرفي في تأجيل السقوط، لأن هؤلاء الحكام وأعوانهم ولا نبرئ حتى مجتمع الغرب الإسلامي مما آل إليه الوضع العام الذين لم يعملوا بهذا العلم الذي كان في النهاية وبالاً عليهم.

ومما سبق ذكره ولمزيد من التعمق في معرفة معالم تاريخ هذين الإقليمين من خلال تاريخ أحد مؤرخيه الذي كان شاهدا على عصر التفكك والضعف والوهن والشغب السياسي الذي كان لا طائل من ورائه، ألا وهو ((البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لمؤلفه: ابن عذاري المراكشي)).

1. دوافع اختيار الموضوع:

بعد بحث وفحص طويل لما كتب من أبحاث عن بلاد المغرب والأندلس وملاءمة مع عنوان التخصص الذي جرت وفقه مسابقة الماجستير لفت نظري من خلال القراءات العديدة، وبتشجيع من المشرف أهمية كتاب: "البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي"، إذ يعتبر من المصادر المهمة والأولية في تاريخ المغرب والأندلس، ورغم أنه كتب في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين إلا أنه مما أغراني كذلك - اعتماداً على كثير من المصادر السابقة عليه أو القريبة من الأحداث التاريخية أو عاصرتها كثيرا فكلها تعتبر في حكم المفقود، فهو إذاً بذلك قد احتفظ لنا بنصوص عديدة من هذه المصادر، وأنه تاريخ شامل للمغرب الإسلامي، مع عرضه للحقائق بالحيادية إلى حد كبير، إضافة إلى موثوقية ما ذكر.

وعليه في حدود علمي لم يفرد هذا المصدر ومؤرخه ببحث شامل للكاتب والكتاب من قبل الباحثين العرب المعاصرين وفق ما جاء في بحثي هذا.

2. الدراسات السابقة:

وقبل أن يستقر عزمي على الكتابة في موضوع كتاب ابن عذارى، أود أن أشير فقط إلى أن حظ الموضوع من الدراسات السابقة كان قليلا ومختصرا في بعض الأحيان، فلم يظهر لي كتابا ولا رسالة جامعية ولا دراسة واسعة تناولت كتاب البيان المغرب، وعرفت به بصفة علمية مفصلة أو تناولت منهجية المؤرخ في الكتابة التاريخية، ولا حتى توثيقه للمادة التاريخية وكيفية تعامله معها بدراسة نقدية، ولم أعرف - رغم الحرص في البحث وسؤال المختصين في ذلك - غير:

✓ بحثين للدكتور عبد الواحد ذنون طه الأول بعنوان:

- " موارد تاريخ ابن عذارى في شمال إفريقيا"، نشره في مجلة المجمع العلمي العراقي ببغداد في الجزء الرابع، المجلد السادس والثلاثون، 1406هـ/1985م.

- الثاني: " موارد تاريخ ابن عذارى عن الأندلس في الفتح إلى نهاية عصر الطوائف"، نشره ضمن كتابه دراسات في التاريخ الأندلسي 1987م.

✓ الدراسة التي كتبها -أيضا-الدكتور عبد الواحد ذنون طه ابن عذارى المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي، نشرت ضمن مجموعة دراسات بعنوان: دراسات في التاريخ الأندلسي، الطبعة الأولى، 1987/2004م، حيث أحصى فيه ما أحصى من المصادر العامة التي تعرض لها ابن عذارى في تاريخه.

✓ إضافة إلى كتاب الدكتور محمد علي دبور تحت عنوان: " منهج ابن عذارى المراكشي ومصادره" فلم تكن هذه الدراسة سوى بحث منشور في مجلة " ندوة التاريخ الإسلامي" ويصدرها قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية العلوم جامعة القاهرة العدد 21/ 1428هـ - 2001م وهو إحصاء لأهم المصادر المشرقية والمغربية الأندلسية التي نهل

منها ابن عذاري المراكشي، مع نماذج لنصوص مختارة من المصادر، فقد تناول هذا البحث إذا المصادر التي استقى منها ابن عذاري معلوماته وأخباره عبر التاريخ.

✓ ومن جانب آخر وجدنا رسالة كتبت باللغة الفرنسية، إذ نوقشت في جامعة ليون بفرنسا، قدمها المستشرق إيميل أفريكو (Emile Fricaud) وعنوانها:

Ibn Idari AL Marrakushi- Bila d'un siecle et demi de recherches,sural-Baynal- Mugrib...

ابن عذاري المراكشي، إحصاء لاهتمامات الباحثين بكتاب البيان المغرب طيلة قرن ونصف، فلم تكن هذه الرسالة سوى إحصاء دقيق لاهتمامات الباحثين بكتاب البيان المغرب طيلة قرن ونصف، فقد تناولت هذه الرسالة مخطوطاته وطبعاته وترجماته واعتماده من طرف الباحثين في بحوثهم المتعلقة بالمغرب والأندلس دون أن تتناول منهجية المؤلف ولا درست مصادره ولا عرفت بمحتواه وموضوعاته ولا تتبع خصائصه.

✓ دون أن ننسى الرسالة الثانية: فقد كتبت باللغة العربية، ونوقشت بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه قدمها الطالب عبد الله بن محمد بن علي عنوانها: كتاب البيان المغرب لابن عذاري ومنهجه التاريخي 1418-1419هـ، والتي تقع في 420 صفحة، حيث كانت عبارة عن إحصاء للمصادر وترجمة للمؤلفين الذين نهل منهم ابن عذاري.

3. الأهداف:

ومن هنا تأتي أهداف اختياري لهذا الموضوع حيث يمكنني أن أصوغها فيما يلي:

- تتبع المنهجية التاريخية لابن عذاري، وإبراز التمايز بينه وبين المؤرخين الرواد الذين سبقوه في التدوين التاريخي؛ من أجل تلمس رؤية جديدة في دراسة التاريخ ومنهجه.

- التعرف على مصادر ابن عذاري وأسلوبه في الكتابة التاريخية، والاستفادة من ذلك في التعامل مع الخبر التاريخي في الحاضر والمستقبل، بالتدقيق في معايير النقد في تلقي الأخبار وإثباتها، وبيان مدى التزامه بتطبيق تلك المعايير على كتابه.
- رصد أوجه الاختلاف بين ابن عذاري والمؤرخين في منهج الكتابة من خلال استحضار القرائن وإيجاد تفسير لهذه الفروقات. بما يوضح المعايير التي تتحكم في طبيعة الكتابة التاريخية.
- رغبتني في إيجاد تفسيرات للاختلاف المنهجي بين المؤرخين، ومنه تبيان المؤثرات التي تساهم في بناء الذات التاريخية للمؤرخ وعوامل رسم توجهاته في المنهج والأسلوب.
- الكشف عن أهمية المادة العلمية التاريخية كمصدر من مصادر تاريخ الإقليم والسماط التي طغت عليها، التي رصدها ابن عذاري في كتابه هذا الذي لخصها في عنوانه

4. الإشكالية:

- وانطلاقاً مما سبق ذكره أمكن تحديد إشكالات هذا البحث في الآتي:
- ما الذي أدى بابن عذاري إلى كتابة بيانه المغرب هذا؟ وما غايته من وراء ذلك؟
 - بماذا امتاز ابن عذاري عن غيره من المؤرخين في كتابة هذا التاريخ، منهجا ورصدا للمعلومات وتوثيقها وتوزيعها على محاور الكتاب؟
 - إلى أي مدى يمكن أن نعد كتابه "البيان المغرب" مصدرا يتمتع بأصالة ومكانة فريدة بين مؤرخي المغرب والأندلس، بما أمدنا من معلومات عن الإقليمين؟ وبم اختلف به عن غيره المؤرخين الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده.

- ما موقفه الشخصي من الأحداث السياسية وكذا من الفرق والنحل الماضية منها وتلك التي عاصرها وكان شاهدا عليها في كل من المغرب والأندلس؟
- معرفة معالم الكتابة التاريخية خلال القرنين السابع والثامن الهجري من خلال مصدر البيان المغرب؟ والعوامل التي ساهمت في نمو شخصية ابن عذاري؟
- ما هي المصادر التي اعتمد عليها ابن عذاري في كتابة البيان المغرب؟ وهل حقا رجع إلى تلك المصادر التي استقى منها معلوماته في عهده، والتي تعتبر في حكم المفقود؟
- الكشف عن طريقته في انتقاء المادة التاريخية والنقل ورواية الأخبار ورصدها وتقويمه للمصادر ونقده لمعلوماتها.

5. المنهج المتبع:

أما المنهج الذي اتبعته في الدراسة، فهو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يعتمد على قراءة النصوص والكتابات لمعرفة مواضيعها ومناهجها وأساليبها، وتحليل عباراتها لكشف رؤية المؤرخين التاريخية، ونظرتهم للأحداث، وفي هذا الخصوص قمت بقراءة جميع كتابات المؤرخين المنشورة حسب ما توفر لنا، أما بالنسبة للكتابات المفقودة فقد رجعنا إلى النصوص المحفوظة عند المصادر التي اقتبست منها، وحاولت قراءتها وتحليلها.

6. خطة الدراسة:

- وقد قسمنا الدراسة إلى خمسة فصول، تتبعها الخاتمة، ثم ثبت المصادر والمراجع، فكانت
- المقدمة وبينت فيها دوافع اختياري لهذا البحث وأهدافه وإشكالياته التي سعت إلى معرفتها
- الفصل الأول: التعريف بابن عذاري، ولحة عامة عن عصره وقيمة كتابه التاريخية.

- **الفصل الثاني:** فتناولت فيه أهم المصادر التي اعتمدها ابن عذاري وطريقته في الكتابة، وهي مرتبة حسب أهميتها وقيمتها: المصادر المغربية والأندلسية، التاريخية المشرقية، كتب التراجم، المسالك والرحلات والروايات الشفوية ومصادر أخرى متنوعة.

- **الفصل الثالث:** فكان الحديث فيه عن منهج ابن عذاري في النقل وتوثيق المادة التاريخية، فقد أبرزنا أسس انتقائه للمادة التاريخية وطريقته في عرضها، والتعليق عليها.

- **الفصل الرابع:** فقد أبرزنا فيه نزاهة ابن عذاري في النقل وعرض الحقائق، وكذا موقفه من المنشقين والثائرين عن السلطة المركزية، وإلى أي مدى كان ابن عذاري ملتزما في النقل وعرض الحقائق.

- **الفصل الخامس:** فقد أبرزنا فيه منهج ابن عذاري في نقد وتقويم الأحداث والوقائع، وذلك من خلال تقديمه المصادر ونقده للأخبار سندا ومتنا، وللمواقف والتصرفات، وربط الأسباب بمسبباتها، ومنها استخلاص العبر والعظات، إضافة إلى موقفه من رجال السلطة في عصره، وكذا من النحل والتيارات الفكرية والفرق المذهبية.

- **الخاتمة:** وأبرزت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

- فهرس المصادر والمراجع.

7. دراسة نقدية لأهم مصادر البحث:

لقد أورد ابن عذاري في مقدمة كتابه قائمة مطولة عن الموارد التي اعتمدها، والبعض اليوم -وللأسف- مفقود، ولا نعرف عنه شيئا، كما أشار في طيات كتابه إلى مصادر أخرى، وهي -أيضا- كتب متنوعة في التاريخ والجغرافية، والمدن وغيرها، وفيما يأتي تصنيف هذه الموارد على سبيل الإشارة إلى أهميتها ومدى استخدام المؤلف لها، وقد استبعدنا الكلام عن الموارد بحسب العصور التي تناولها ابن عذاري.

1. كتاب التاريخ لعبد الملك بن حبيب السليمي (ت 238هـ / 852م): ابتداء عبد الملك

حبيب كتابه بقصة الخلق والأنبياء، وحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وخصص بعض فصوله لتاريخ الأندلس، وتوجد في هذا الكتاب نسخة فريدة محفوظة في مكتبة اليودليانا في أوكسفورد، وقد قام الدكتور محمود علي مكي بدراسة وافية لابن حبيب وكتابه، كما نشر الجزء الخاص بتاريخ الأندلس في هذا المخطوط، وقد نقل مؤرخنا ابن عذاري بعض الأحداث المتعلقة بمعاملة الخليفة سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير بعد فتح الأندلس، ومن الجدير بالذكر أن ابن عذاري يورد نصوصا كثيرة عن أخبار موسى بن نصير وفتوحه، وما أفاء الله عليه من الغنائم في الأندلس ومعظم هذه الروايات المذكورة في كتاب عبد الملك بن حبيب، وهي في مجموعها تشكل جزءا من الروايات التي راجت في أعقاب فتح الأندلس عن بعض التابعين الذين ساهموا في حملة موسى بن نصير، ثم عادوا إلى شمال إفريقية، وحدثوه بما شاهدوه من أحداث الفتح، ومن المرجح أن عبد الملك بن حبيب أخذ هذه الروايات عن شيوخه المصريين في أثناء إقامته بمصر، فضممتها في كتابه التاريخ، ونقلها عنه ابن عذاري.

2. كتاب أخبار ملوك الأندلس لأحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت 344هـ / 955م):

على الرغم من أن مؤلفنا لم يذكر الرازي في قائمة مصادره التي أشار إليها في مقدمته للجزء الأول من البيان المغرب، فإنه اعتمد رواياته كثيرا، وأشار إلى اسمه صراحة في كثير من الأحيان، وفي مناسبات أخرى نقل العديد من رواياته بصورة غير مباشرة، عن طريق أخذها من كتاب المقتبس لابن حيان، أي أنه لم يحفل كثيرا بالإشارة إلى اسم الرازي، أو حتى إلى ابن حيان، وبذلك فإنه الحقبة التي تعود إليها النصوص التي أشار ابن عذاري إلى اعتمادها فيها على الرازي، تبدأ من أحداث الفتح، وتستمر خلال عصر الولاة، ثم عصر

الإمارة الأموية، وتنتهي بعصر الناصر لدين الله وهذه المدة الزمنية تقابل في الواقع معظم الحقبة التي يغطيها كتاب أخبار ملوك الأندلس.

3. كتاب تاريخ افريقية والأندلس لعريب بن سعد القرطبي (ت 370هـ / 980م): اعتمد ابن عذاري على مؤرخ قرطبي، يدعى عريب بن سعد أو سعيد، في نقل بعض الأخبار عن شمال افريقية والأندلس، ويبدو أن ابن عذاري قد حصل على كتابه ونقل منه معلومات خاصة بشمال افريقية والأندلس، وهذا ما يدل على أن الكتاب كان موجودا حتى بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي وتعد المعلومات التي نقلها ابن عذاري من هذا الجزء محدودة عن شمال إفريقيا، ولعل أهم النصوص، هو النص الخاص بافتتاح الخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله ستيه، بحيث يؤرخ عريب بن سعد، وهو المعاصر للأحداث، فتح هذه المدينة باليوم والشهر والسنة، ويبين أهميتها العسكرية بالنسبة إلى الأمويين في الأندلس، كما ينقل ابن عذاري عن عريب أيضا روايات عن افريقية في عهد الآغالية.

4. مؤلفات أبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ / 1063م): اشتهر هذا العالم بمؤلفاته الكثيرة التي شملت مواضيع شتى، من أهمها: كتاب جمهرة أنساب العرب، أسماء الخلفاء والولاة وذكر عددهم، ورسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، إذا اعتمد عليها مؤرخنا ابن عذاري من حيث المعلومات التاريخية التي تتسم بدرجة كبيرة من الثقة والملكة النقدية عند ابن حزم، ويبدو أن ابن عذاري قد أدرك هذه الأهمية فركز عليها، واستفاد منها في كتابه.

5. كتاب العبر لأبي بكر أحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن أبي الفياض (ت 459هـ / 1066م): يبدو من النصوص المتوافرة لدينا من هذا الكتاب أنه يختص بتاريخ الأندلس بالدرجة الأولى، إذ يتطرق إلى الفتح وعصر الولاة، والإمارة والخلافة إلى القرن

الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ولذا فيحتمل أن ابن أبي الفياض قد تطرق ضمنا إلى تاريخ العرب في شمال أفريقية إضافة إلى الأندلس وما يؤيد هذا الاحتمال أن ابن عذاري ينقل عنه بعض النصوص في أثناء كلامه عن عقبة ابن نافع الفهري وحملته على السوس الأقصى.

6. مؤلفات حيان ابن خلف بن حسين ابن حيان (ت 469هـ/1079 م): يعد ابن حيان من أبرز مؤرخي الأندلس لما قدمه من معلومات بأسلوب نقدي بارع، وبما يتميز به من حس تاريخي مرهف، وهو من غير شك أعظم مؤرخ أنجبته العصور الوسطى على الصعيدين الإسلامي والمسيحي، كما أشار ابن عذاري في مقدمة كتابه في الجزء الأول إلى اعتماده على ابن حيان، وحدد ذلك بالقول إنه نقل من: " أخبار الدولة العامرية لابن حيان"، لكن نظرة واحدة إلى اقتباسات ابن عذاري عن ابن حيان، تظهر أنه لم يقتصر على الكتاب المذكور في المقدمة بل أخذ من معظم مؤلفات ابن حيان، ولاسيما المقتبس، وأخبار الدولة العامرية، والمتين، فهناك نصوص كثيرة من عصر الإمارة والخلافة، ثم الفتنة في قرطبة، وسقوط الخلافة، وعصر الطوائف، ولقد كان اعتماده على ابن حيان محدودا بالنسبة إلى شمال إفريقية، وهو لا يتعدى بعض الأخبار عن الأحداث والعلائق التي حدثت، كما تميزت طريقة ابن عذاري في النقل عن المقتبس بالإيجاز وأحيانا بالإيجاز الشديد.

7. كتابالمن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ت أواخر القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي): لم يصل إلينا من كتب ابن صاحب الصلاة سوى الشطر الثاني من كتاب المن بالإمامة، الذي يتألف من ثلاثة أسفار، وقد اعتمد مؤرخنا ابن عذاري هذا الكتاب بأسفاره الثلاثة، كما أشار مرة واحدة إلى كتابه الآخر " ثورة المريدين" الذي أسماه " تاريخ المريدين الثوار"، ولقد كان ابن عذاري من أكثر المؤرخين اعتمادا على كتاب المن

بالإمامة، بحيث أشار إلى مؤلفه في بداية كتابه المغرب، ثم استمر ينقل عنه، ويكاد في بعض المواضيع يذكر بالنص ما كتبه ابن صاحب الصلاة، وهو يشير إليه في كثير من الأحيان، لكنه لا يذكره في أحيان أخرى، وكأنه بحسب تعبير عبد الهادي التازي، كان ينجل من كثرة ترديده، وأغلب الظن أن مؤرخنا لم يكن يقصد هذا، بل هو منهجه الذي سار عليه، وطبقه على معظم من أخذ عنهم.

8. كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيرواني (ت بعد 417 هـ/1026م): من

المؤرخين الذين اعتمد عليهم ابن عذارى، وتوضح أهمية كتابه باعتباره أحد الموارد الرئيسية التي اعتمدها ابن عذارى في نواح كثيرة منها: أن الرقيق احتفظ لنا بروايات كثيرة لرواة ومؤرخين قداماء، منهم من عاصر الأحداث، أو كان قريب الصلة بها، ثم جاء ابن عذارى ونقل الكثير من هذه الروايات مسندة إلى أصحابها، وإن لم يقل أحيانا بالإشارة إلى أنه أخذها من كتاب الرقيق، والأهمية الأخرى لاعتماد ابن عذارى على الرقيق تتجلى في أن الرقيق كان شاهد عيان لكثير من الأحداث التي سجلها حين كان يعمل في البلاط الصنهاجي، وأنه كان يدون ملاحظاته عن الحوادث التاريخية التي يراها ويسمعها، أما الأهمية الثالثة لاعتماد ابن عذارى على روايات الرقيق فتظهر في الدقة المتناهية التي كان يتبعها الرقيق في إيراد أخباره تلك التي تتعلق بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية، ولا تقتصر أهمية كتاب الرقيق على النسبة إلى تاريخ شمال إفريقية فحسب، بل تمتد هذه الأهمية لتشمل تاريخ الأندلس أيضا.

9. كتاب نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف في أخبار الزمان لابن القطان: والحق أن

ابن عذارى كان ينتقي ما يريد من روايات من كتاب ابن القطان، ويختصر في بعض الأحيان الوقائع التي يرى أن تفصيلها يخل بكتابه، أو أنه زائد عن اللزوم، إضافة إلى أن ابن عذارى كان لا يجاري ابن القطان في اتجاهه، ويأخذ عنه مختصرا للأحداث، ولاحظنا

كذلك أنه يقلل من الأخذ عنه في أحداث السنوات التي يشير فيها أمور خاصة بالموحدين، كما يتحاشى استخدام ألفاظه القوية لوصف المرابطين وغيرهم.

10. كتاب المقياس في أخبار المغرب وفاس لأبي مروان عبد الملك ابن موسى الوراق: يعد ابن عذاري من أكثر المؤرخين الذين اعتمدوا كتاب الوراق، الذي أسماه باسم (المقياس في أخبار فاس)، وقد نقل عنه روايات كثيرة تتعلق بتاريخ شمال إفريقية والأندلس، والمرابطين.

11. أما فيما يخص الأندلس: فقد استفاد ابن عذاري من كتاب الوراق أيضا ومما لاشك فيه أن روايات الوراق عن عهد علي ابن يوسف ابن تاشفين على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه كان معاصرا لهذه الحقبة. وقد أدرك ابن عذاري ذلك، فستشهد به كثيرا لتعزيز موارده عن أواخر عهد الدولة المرابطية.

12. كتاب الذيل لابن شرف الجزامي القيرواني (460هـ/1067م): مؤلفات ابن شرف على الأغلب أدبية شعرية، أمّا كتاب الذيل، الذي اعتمده ابن العذاري، فلا نعلم عنه إلا من اقتباسات ابن عذاري منه، ولم يذكر ابن عذاري على من ذيل ابن شرف كتابه هذا، كما لم يذكر اسم الكتاب إلا في المقدمة فقط. أما النصوص المتبقية من هذا الكتاب، كما أوردها ابن عذاري فهي جميعا عن الأحداث التي تمت في عهد المعز ابن باديس، ويبدو أن ابن شرف كان يكتب بإسهاب وهو ما دعى ابن عذاري لأخذ كلامه باختصار في بعض الحالات، وإن كتاب الذيل يدل دلالة قاطعة على ملكة تاريخية، وحس نقدي في تسجيل الأحداث لدى ابن شرف.

13. كتاب تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الزمان لمحمد ابن سعدون القروي (ت 485 هـ / 1092م): من حسن الحظ أن ابن سعدون يتحدث عن محتويات كتابه، كما نقلها ابن عذاري، وهذه المحتويات تدور حول دعوة

الفاطميين، وأصلهم، وكيفية تمكنهم في شمال إفريقيا، وأعمالهم في القيروان وغيرها. ويعتمد ابن عذاري هذا المؤرخ في روايته عن الفاطميين والأحداث التي جرت في عهدهم. ولاحظنا أن ابن عذاري يلخص ما جاء في الكتاب عنهم.

14. كتاب أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق أواخر السادس للهجرة: يعد هذا الكتاب

من الكتب القيمة جدا عن دولة الموحدين، لأن مؤلفه كان من أتباع المهدي محمد ابن تومرت الزعيم الروحي للموحدين، ومؤسس دولتهم. اعتمد هذا الكتاب كل من ابن عذاري، وابن القطان، لكنه فقد بعد ذلك، وضاعت منه أوراق كثيرة إلى أن اهتدى إلى ما تبقى منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال سنة 1924م، في مكتبة ديرسان لورانثو في مدينة الإسكوريال فنشره ضمن مجموعة وثائق موحدية أخرى في باريس سنة 1928م، وأعاد تحقيقه ونشره عبد الوهاب ابن منصور في الرباط سنة 1971. وقد استفاد ابن عذاري من هذا الكتاب استفادة كبيرة. ولاسيما في تدوين الصراع، والمعارك التي جرت بين المرابطين والموحدين في عهد عبد المؤمن ابن علي وتاشفين ابن علي. كما تبين لنا أن النصوص التي أخذها ابن عذاري عن البيذق كانت بتصرف.

15. كتاب مسالك افريقية وممالكها لمحمد ابن يوسف الوراق (ت 363 هـ / 973 م):

استفاد ابن عذاري عن غيره من هذا التأليف فائدة كبيرة، وقد لخص العديد منها في كتابه. لكن يبدو أن منهج ابن عذاري في الاختصار ضيع عليه فرصة الالتفات إلى أهمية إيراد الأخبار كاملة حيث نجده يأتي بالأخبار في صورة مشوهة وناقصة عكس البكري الذي احتفظ لنا بها كاملة، وكان يفترض بابن عذاري أن يهتم بهذا النص أكثر من البكري، لأنه مؤرخ، وهذا أكثر علاقة باختصاصه.

16. كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت 487 هـ / 1094 م): يعد كتاب

المسالك والممالك قمة أعمال البكري في مجال المؤلفات الجغرافية، وهو وإن كان كتاب

جغرافية، لكنه يحتوي - أيضا- على بعض المعلومات التاريخية، أما بالنسبة لمؤرخنا فقد استفاد من كتاب المسالك والممالك، واعتمد عليه اعتمادا كبيرا، ولاسيما في ذكر المسائل الجغرافية، إلا أن اللافت للانتباه وعند مقارنتنا لبعض النصوص التي نقلها ابن عذاري عن البكري ومقابلتها بالنص المطبوع وجدنا بعض الاختلافات في الشكل والمضمون، وقد تعود بعض هذه الاختلافات إلى منهج ابن عذاري في الاختصار، لكن بعضها يحمل أخطاء ومعلومات مغايرة للنص الأصلي، وهنا -أيضا- لا يمكننا الجزم بمسؤولية ابن عذاري الكاملة.

17. كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشتريني (ت 542 هـ/1147م):

وقد اعتمد ابن عذاري على هذا الكتاب اعتمادا كبيرا، فأخذ منه نصوصا، نسب معظمها إلى ابن بسام، لكنه أغفل نسبة بعضها الآخر، والملاحظ أيضا أن ابن عذاري لم يلتزم في بعض الأحيان بالتسلسل الذي يورده ابن بسام للنصوص، فيختصر منها بشكل قد يخل بالمعنى، وعلى كل حال فقد انحصرت بقية النصوص التي أخذها ابن عذاري عن ابن بسام في عصر الطوائف، ويكاد مؤلف البيان المغرب يتابع ما ورد في الذخيرة أولا بأول.

8. الصعوبات :

وعلى الرغم من علمي المسبق بدقة الموضوع واتساعه وبأنني سأجد فيه صعوبة أكيدة يلاقيها الباحثون في أمثال هذه المواضيع التي تتناول منهجيات العلماء في مؤلفاتهم وكذا لما يتطلبه البحث فيها من تتبع واستقراء وتحليل واستنتاج، قلت على الرغم من كل ذلك عقدت العزم على المضي في ذلك، مع صعوبة التوفيق بين البحث والمهنة التي أمارسها والتي نالت مني كل الجهد والوقت، فحسبه وحده الميسر حل جلاله أن يسر لي بداياته الصعبة، وسهل لي مراحل المتتالية، وأكرمني بإنجازها وإنهائه على صورته الحالية.

وبعد فقد بذلت قصارى جهدي في سبيل إخراج هذا البحث في صورة مرضية، فإن كنت وفقت فذلك من الله وحده وله الحمد والشكر، وأسأله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ولا يجرمني ثوابه، ولإن كنت قصرت وأخطأت فيه فذلك مني وحسبي أنني بذلت كل ما أستطيع من جهد، وأنا على استعداد للتراجع والتصويب عن كل فكرة أو رأي عرضته في البحث ثم تبين لي بالدليل أنه مخالف للحقيقة.

وأخيرا أسأل الله أن يتقبل منا خالص هذا العمل، وأن ييسر النفع به وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول:

التعريف بابن عذارى المراكشي ولمحة عامة عن عصره وقيمة كتابه التاريخية.

أولاً- التعريف بابن عذارى المراكشي.

أ. لمحة عامة عن حياة ابن عذارى.

ب. اسمه ونسبه.

ج. دراسته وسعيه في طلب العلم.

د. وفاته.

ه. مؤلفاته.

ثانياً- لمحة عامة عن عصر ابن عذارى المراكشي.

أ. الأوضاع السياسية والثقافية لعصر ابن عذارى المراكشي.

ب. معالم الكتابة التاريخية بالمغرب والاندلس خلال القرنين 7 و 8 هـ.

ثالثاً- القيمة التاريخية لكتاب البيان المغرب.

أ. التعريف بكتاب البيان المغرب (مخطوطاته، طبعاته، ترجماته، محتوى الكتاب).

ب. أهم المصادر التي اعتمدت البيان المغرب ونقلت عنه.

ج. منهجه في تدوين وتوثيق المادة التاريخية.

تمهيد:

كان التاريخ المحلي أو الإقليمي أحد اتجاهات الكتابة التاريخية التي سيطرت على كتابات المؤرخين منذ فترة مبكرة، ويتضح من خلال هذا المصطلح، أن هذا النوع من التأريخ يفرد تاريخاً للقطر أو الإقليم الذي ينتمي إليه المؤرخ، معبرا كاتبه بذلك عن انتمائه لهذه الناحية وحبه لإقليمه، ومسقط رأسه، منوها به مفاخرها به غيره بما أنجزه سياسيه وعلمائه كل في مجاله، ولا شك أن حب مكان النشأة ومرتع الصبا وموطن طلب العلم كان أحد الدوافع للكتابة في هذا النوع من الكتابة التاريخية.

وقد ازداد الاتجاه نحو هذا النوع من الكتابة التاريخية بصفة خاصة بعد أن حلت الانتكاسات السياسية بالعالم الإسلامي في المغرب والمشرق، مثل سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ/1258م، وكذا التجزئة السياسية التي ضربت المغرب العربي والأندلس، بعد سقوط دولة الموحدين، والتي تمثلت بظهور عدة دويلات تتزعمها أسر مختلفة، مثل بني مرين بالمغرب، وبني عبد الواد بتلمسان، وبني حفص في تونس وبجاية، وبني الأحمر في الأندلس.

ولكن على الرغم من كل هذا، فإن هذا العصر يمثل انعطافا إيجابيا بالنسبة الى انتعاش الحركة العلمية والثقافية، ولاسيما في المغرب الإسلامي، حيث برز علماء أفاضل، كانت لهم مكانة مرموقة بين نوابغ الفكر العربي الإسلامي، ومن هؤلاء في هذا المجال: ابن عبد الملك المراكشي، وابن أبي زرع الفاسي، لسان الدين ابن الخطيب السلماي، وابن خلدون، وابن بطوطة، وابن عذارى وغيرهم...¹

وكان لهؤلاء جميعهم حضور قوي وفعال في مجال الثقافة العربية الإسلامية، الأمر الذي يشير الى قوة هذه الأمة وحيويتها، وأنها وإن كانت قد تأثرت في هذا العصر بالتجزئة السياسية والتعرض الى الأخطار الخارجية، فإنها نبغت في مجال العلوم والثقافة، فكان هناك توازن دقيق

(1) عبد الواحد ذنون طه، ابن عذارى المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي، ص7.

لصالح هذه الأمة، وأنها لا يمكن أن تتجرد في يوم من الأيام من تفوقها، سواء أكان ذلك التفوق على المستوى السياسي أم الثقافي.

ويتبوأ ابن عذارى المراكشي مكانة مرموقة بين أولئك النوابغ الذين أنجبتهم الأمة خلال ذلك العصر العصيب، فقد ظلت النهضة العلمية وحركة التأليف مستمرة، إذ شجعت دولة بني مرين العلم والعلماء كمبدأ لازم منذ نشأتها. فكان العلم عاملاً مشتركاً في كل حوادث العصر هذه الدولة واستنفد أغلب الطاقات والمجهودات، حتى قيل في ملوكها أنهم لم يوفقوا في السياسة، كما توفقوا في نشر العلم.

إذن فلقد عاش ابن عذارى في هذا العصر، وتشرب الثقافة العربية الإسلامية التي كانت سائدة في المشرق والمغرب، واهتم بهذه الثقافة، واطلع على أصولها، فكان حصيلة ذلك كله، وعصارة فكره النير، سفراً جليلاً قدمه للأجيال التالية، ليكون نبراساً في التعرف إلى تاريخ المغرب العربي، بل الشمال الإفريقي كله، بالإضافة إلى الأندلس التي بقيت بها إمارة غرناطة تصارع الزحف النصراني بين الثبات والهزيمة وبين الأمن والقلق وبين الهدوء والصراع أو الاضطراب خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف¹.

أولاً- التعريف بابن عذارى المراكشي:

ابن عذارى المراكشي مؤرخ مغربي عاش وكتب في أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن، فقد عاصر انهيار دولة الموحدين وقيام دولة بني مرين، غير أننا لا نملك -حسب ما أمدتنا به المصادر- معلومات وافية عن هذا المؤرخ، فتعريف المصادر به شحيحة، ولا ندري السبب الذي جعل المؤرخين يهملون هذا المؤرخ، ولا يعرفون به، ما عدا النقل عن تاريخه المفيد في عدة مناسبات، وابن عذارى نفسه أهمل في الأجزاء المعروفة من تاريخه الإشارة إلى أسرته ونشأته وحياته عامة، باستثناء بعض الإشارات إلى بعض من استفاد منهم من أهل العلم

⁽¹⁾ عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص78.

والصلاح، وآخر سنة أشار إليها في كتابه هي سنة 712هـ/1312م التي كان يكتب فيها بعض أجزاء كتابه واسمه.

أ. نحة عامة عن حياة ابن عذارى المراكشي:

إن الباحث أو الدارس لحياة ابن عذارى لا يجد أو يلقى شحا في الاخبار بل وانعداماً حتى للمعلومات التي تمكننا من إعطاء أو تقديم ترجمة وافية لشخصيته، وهذا ربما يعود الى مجموعة من الأسباب التي تضافرت لتجعل ترجمته خفية والمعلومات عن حياته غير معروفة لحد الساعة.

ومما يلاحظ عن شخص ابن عذارى أننا لم نجد له حتى كتابة هذه السطور ترجمة واحدة وردت في مصادر قديمة، حيث لا تعرف ولم تعرف من كتابات الأقدمين ترجمة لابن عذارى في ذكر اسمه وكنيته وبعض النقول من تأليفه للبيان المغرب.

فنحن لا نعرف شيئاً عن عائلته أو عن ولادته ولا عن طفولته وحتى شبابه وكذا حياته العلمية والوظائف التي تقلدها ولا عن شيوخه، ولو إشارة من أحد المؤرخين يمكن أن تدلنا على أن أحد المؤلفين في التاريخ يمكن أن يكون من شيوخه، ولا نعرف شيئاً عن تلاميذه ولا عن مؤلفاته غير كتابين ذكر ابن عذارى نفسه أهما له، أحدهما مفقود والثاني هو موضوع بحثنا هذا.

وبحق إذا كنا لم نجد ترجمة لابن عذارى عند المؤرخين القدماء، فإنه بلا شك ستكون هناك ملامح أو معلومات ستقدم لنا صورة تقريبية لابن عذارى، فمن ذلك توجد ثلاث مصادر قديمة مع نقل بعض النصوص القليلة المحدودة في كتب ثلاث هي:

1. نقل لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة نصوصاً عدة لابن عذارى من البيان

المغرب ولم يذكر اسمه كاملاً ولا عنوان الكتاب نذكر منها: قال في موضع: [قال

ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب¹، وقال في موضع آخر: [تنظر في كتاب البيان المغرب]²، قال: [ابن عذاري المراكشي في كتابه المسمى بالبيان المغرب]³، قال: [صاحب البيان]⁴، قال: [ابن عذاري في تاريخه]⁵.

2. وجاء ذكر ابن عذاري في كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع ثلاث مرات بما نصه: [هذا الفصل من البيان المغرب لأبي العباس العذري وغيره]، [نقل من العذاري]، [ذكر هذا الفصل من العذاري]⁶.

3. وجاء ذكر اسمه وعنوان كتابه في كتاب نزهة الحادي لليفرني: [والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب وهو الشيخ أبو عبد الله بن عذاري الاندلسي حسبما رأيت في السفر الثاني]⁷.

وهكذا يمكن القول هذا ما يمكن معرفته من مصادر ذكرت ابن عذاري وكتابه، أما الكتب التي اهتمت بتراجم رجال القرن الثامن للهجرة، مثل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، وجدوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس، ودرة المجال في أسماء الرجال، لأحمد بن محمد المعروف بابن القاضي. وكل ما كتب عنه من قبل كتاب التراجم المتأخرين، لا يعدو سطورا قليلة، شحيحة جدا فهي تركز على كتاب البيان المغرب.

(1) ابن الخطيب، ج1، ص314.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص414.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص438.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص439.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص477.

(6) الورقات 169ب، 174أ، 174ب، نقلا عن رسالة أفريكو ص19، 20، الذي نقلها عن مخطوطة بون التي توجد منها صورة بالمكتبة الوطنية بباريس برقم (Q4030)، وقد تمت مراجعة النسخة التي صدرت عن دار المنصور 1392هـ/1972م، ولكن لم يوجد من هذه النصوص شيئا.

(7) محمد اليفرني، نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي، ص192.

ولهذا فليس مستغرباً أن تجد عباس ابن إبراهيم المراكشي قد عرف به مرتين: الأولى باسم أحمد، والثانية في الحمديين¹، وفي هذه الترجمة الأخيرة، أشار الى نبوغ ابن عذارى في أواخر القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، ثم تحدث عن كتابه، وقسمه الى ثلاثة أقسام، دون أن يتطرق الى التعريف به، وعند مراجعة الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية²، يتبين أنها لا تضيف شيئاً جديداً إلى ما ذكره صاحب كتاب الأعلام بمن حل بمدينة مراكش وأغمات من الأعلام، كذلك لم تضيف بقية التراجم أي معلومات يمكن أن نستد إليها في العرف على حياته³.

ومما يجب التنويه به أن المستشرقين أولوا عناية كبيرة بان عذارى وكتابه من سنة 1265هـ/1848م، والتي دامت أكثر من مائة سنة، بل وإلى يومنا هذا، ومع ذلك فإنهم لم يجدوا شيئاً يذكر عن ترجمة الرجل، وتوالت الاعترافات من قبلهم بالعجز عن كتابة أي شيء في الموضوع أن آنخل بالثيا قال: [ليس بين أيدينا من المعلومات إلا نزر يسير]⁴.

ثم جاء بعدهم الباحثون المسلمون مجال دراسة كتاب [البيان المغرب] وصاحبه. فكانت من قبلهم إضافات محدودة والمرتبطة أساساً باسم ابن عذارى أو تتلمذه لأحد الشيوخ أو تقديم تاريخ تقريبي لتاريخ وفاته، وكل ذلك اعتماداً منه على الدراسة والتحليل للنص والاستنتاج منها.

ومما يكون أن ننوه به هنا أن كتب التراجم الحديثة قدمت ترجمات محدودة المادة وأهم ما

عرفنا منها:

(1) الأعلام بمن حل بمدينة مراكش وأغمات من الأعلام، ج1، ص366، ج3، ص194195.

(2) عبد العزيز بن عبدالله، المغرب، ج2، ص51.

(3) إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين، ص138؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص100، ابن سودة، دليل مؤرخي المغرب، ج1، ص132؛ خيرالدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص314.

(4) آنخل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص249.

ما ذكره المستشرق دوزي في مقدمة نشرها لكتاب [البيان المغرب]، وكذا ترجمة له بايجاز إسماعيل باشا البغدادي (ت 1339 هـ/1930م) في كتابه [هدية العارفين]¹، وذكر كتاب البيان المغرب في كتابه إيضاح المكنون²، ويوسف إلياس سركيس في كتابه [معجم المطبوعات العربية]³، وروينياسيه في [دائرة المعارف الإسلامية] (باللغة الفرنسية ط1)⁴، وبركلمان في كتابه [تاريخ الآداب العربية] (بالغة الألمانية)⁵، وعباس بن إبراهيم (توفي 1373هـ/1559م) في كتابه [الأعلام بمن حل بمدينة مراكش وأغمات من الأعلام]⁶، وآنخل بالثيا في كتابه [تاريخ الفكر الأندلسي]⁷، وعبد السلام بن سودة في كتابه [دليل مؤرخ المغرب الأقصى]⁸، وخيرالدين الزركلي في كتابه [الأعلام]⁹، وعمر كحالة في كتابه [معجم المؤلفين]¹⁰، وبوش فيلا في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية سنة 1388هـ/1968م، وعبد الواحد دنون طه في بحثه بعنوان [موارد ابن عذارى المراكشي]¹¹، ولطفة بن حلول العروي في كتابها [المكتبات في المغرب] (بالفرنسية سنة 1411هـ/1990م)، وكذا إميل فريكو سنة 1414هـ/1994م في رسالته التي عنوانها [ابن عذارى المراكشي: إحصاء لاهتمامات الباحثين بكتاب البيان المغرب طيلة قرن ونصف].

(1) إسماعيل باشا البغدادي، المرجع السابق، ج2، ص138.

(2) البغدادي، ج1، ص207.

(3) يونس سركيس، ج1، ص172.

(4) روينياسيه، ج2، ط1، 1926، ص412413.

(5) الملحق الأول، ص577.

(6) عباس بن إبراهيم، ج4، ط2، ص284.

(7) آنخل بالثيا، ص249.

(8) ابن سودة، ج1، ص132133 (الترجمة 468).

(9) خيرالدين الزركلي، ج7، ص95.

(10) عمر كحالة، ج3، ص71.

(11) مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 36، ج4، سنة 1406هـ/1985م.

ب. اسمه ونسبه:

الحقيقة أنه مما يؤسف له أننا لا نملك تعريف واف عن ابن عذارى، يمدنا بتفاصيل عن حياته، ورحلاته العلمية وشيوخه، وكل ما نعرفه أنه ما يزال الاستقراء والبحث والتنقيب جارياً إلى الآن للكشف عن حقيقة وشخصية ابن عذارى المراكشي مؤلف كتاب: [البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب]، الذي كان يعيش كما يظهر مما كتبه أوائل القرن الثامن الهجري والرابع عشر ميلادي.

والحقيقة أنه ما تزال المعلومات تظهر وتدون حول أجزاء مدونته التاريخية مما يقع العثور عليه منها في الخزائن والمكتبات العامة والخاصة، وفي هذا السبيل سجلت مساع ومشاركات مشكورة قدمت من طرف المهتمين بالدراسات المغربية والأندلسية منذ أكثر من قرن.

ولكن شخصية المؤرخ ابن عذارى ظلت محجوبة عنا إلى الآن رغم أن اسمها يتردد في كل دراسة تتعلق بالأندلس والمغرب فيما قبل القرن الثامن هجري والرابع عشر ميلادي، فابن عذارى من المؤرخين الذين نسوا أنفسهم فلم يشر في الأجزاء المعروفة في كتابه لحد الآن إلى شيء من الأشياء المتعلقة بمعالم شخصيته أو أسرته أو وظيفته أو أفكاره أو مشاغله باستثناء بعض الإشارات القصيرة إلى بعض من استفاد منهم من أهل العلم والصلاح.

ثم نسيه الناس وفيهم من استفاد من كتابه ونقل أقواله والمعلومات التي دونها عن دول المغرب والأندلس، وهناك حالات ذكر فيها وأخرى أهمل فيها. الحقيقة أن شخصيته طمست من البيئة الخاصة التي عاش فيها، وتاريخ ميلاده ووفاته وشيوخه ولقاءاته بعلماء عصره¹.

ولكن يظهر أن الرجل كان نائياً بنفسه عن الاحتكاك بعلماء عصره زاهداً في الشهرة، التي كثيراً ما تجر على أصحابها النكبات والويلات، خاصة وأن الزمن الذي عاش فيه زمن زوال الدولة الموحدية، ومجيء الدولة المرينية التي لم تستحكم قوتها وتفرض نفوذها على المناطق،

⁽¹⁾ تاريخ ابن عذارى المراكشي، عبد القادر زمامة، مجلة المناهل، ص 213214.

إضافة إلى تراجع دور مدينة مراكش إن كانت حقاً مسقط رأسه والتي بقي فيها إلى غاية وفاته التي لم تصبح قاعدة الحكم المريني.

بل إن الاسم الذي اشتهر به بين الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً صار يقرأ ويكتب بصيغ متعددة كلها تعود إلى التقدير والحدس والاجتهاد الشخصي، من غير رجوع إلى صيغة محققة متفق عليها بين الناس، فهو ابن: عذارى بفتحات ثلاث، وهو ابن عذارى بفتحتين ثم كسر ...، وهو ابن عذارى بفتحة بين كسرتين، وهو ابن العذارى بألف ولام، وكل هذه الصيغ ترجع كما قلنا -سالفاً- إلى الحدس والتقدير والاجتهاد ولم تخرج بطائل من ذلك.

ولكن بناء على الاستقراء ورصد ما كتب عنه لا يمكن أن نختار صيغة خاصة وبالأحرى لا نستطيع الجزم بصحة واحدة منها، ونجعل ما سواها خطأً ينبغي العدول عنه ...! بل الأمر يبقى محل جدل إذ أنه ومن المحتمل أن تكون هناك نصوص محجوبة عنا الآن، قد ضبطت الاسم وصححت صيغته الحقيقية، كما أنه من المحتمل أيضاً أن يكون هذا الاسم يرجع إلى أصل آخر عربي أو غير عربي وحول أو حرف أو صحف حتى صار إلى ما صار إليه على الألسنة والأقلام. وعلى كل حل فالمؤرخ بعد هذا الذي ذكرنا عن صيغ اسمه هو منسوب كذلك إلى مراكش ونواحيها من حيث الانتماء والاستيطان والدراية الشخصية بالمنطقة وسكانها ومعالمها¹.

وتشير دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الثانية، إلى أن ابن عذارى كان قائداً في مدينة فاس. وهذا مستبعد لكون المصادر المتوفرة لدينا لم تشر إلى ذلك، كما لم يذكر هو نفسه في طيات كتبه ذلك لا من قريب ولا من بعيد، ولو كان كذلك لاشتهر عند الناس، ولكن يمكن القول: إن الرجل كان في مدينة مراكش، وأن نسبه إلى هذه المدينة لم يختلف عليها احد، وأنه ألف كتاب البيان المغرب فيها، أو في المنطقة الجبلية القريبة منها في حدود سنة 712هـ/1312-

(¹) المرجع نفسه، ص214215.

1313م، وذلك حسبما يشير هو نفسه الى هذا التاريخ، في أثناء حديثه عن أولاده الخليفة الموحد المرتضى¹.

أما اسمه فهو من المرجح: أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي: وذلك بالاستناد على ما قيده السيد الحاج الخياط القادري الفاسي، ونقله عنه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، حيث نشر الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب الخاص بدول الطوائف في الأندلس².

ومما نستشفه من هذا النص أن هذا المستشرق نقل هذه النسبة لمن خط السيد الحاج القادري الفاسي، ولكن كاتب هذه العبارة لا نعرف اسمه ولا زمن كتابته للنص، والمرجح أن هذه الأوصاف التي وصف بها ابن عذارى هي من استعمالات عصر القادري، وبداية القرن الرابع عشر الهجري تقريبا.

أما لقبه العائلي الذي اشتهر به [ابن عذارى]، فهو -فيما يظهر- نسبه الى عذار -ربما- يكون اسما لجده عذار، أو الى قبيلة عذرة بطن من الأشعرين وبالضم والسكون الى عذرة قبيلة من قضاة³.

كما هو شأن الكتاب القدماء في التعريف بالعلماء يذكرهم لأجدادهم وقبائلهم، وموطن استقرارهم، وان كان الانتساب اليها مستبعدا لاشتهاره بذكر [ابن عذارى] الذي يدل على اسم في عائلة المؤلف ولعله أحد أجداده.

كما اشتهرت تسميته [بأبي عبد الله] التي ذكرها اليفرنى، فمنذ أن ظهرت المخطوطات الأولى، والطبعة الأولى عرف ابن عذارى بأنه أبو عبد الله محمد وهي تسمية ظهرت عند دوزي Dozy وسركيس والزركلي وعباس بن إبراهيم وكحاله وغيرهم.

⁽¹⁾ ابن عذارى، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب/قسم الموحدين، ص454، ويقارن: مقدمة ليفي بروفنسال لـ "نص جديد عن فتح العرب للمغرب" صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد2، 1954، ص195، 200201.

⁽²⁾ باريس، 1930، وقد أعادت دار الثقافة نشره، بيروت.

⁽³⁾ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، لب اللباب في تحرير الانساب، ص177.

فقد ترجمه يوسف سر كيس فقال: [ابن العذاري المراكشي هو أبو عبد الله محمد المراكشي نبغ في أواخر القرن السابع للهجرة صنف كتاب البيان المغرب الآتي ذكره وله مصنف آخر في تاريخ المشرق ذكره في الجزء الأول في كتاب البيان لم يتيسر لنا معرفة أكثر من ذلك من ترجمته¹]

كما ذكره بروكلمان تحت اسم: [ابن عذارى المراكشي] ولم يورد اسمه ولا كنيته ونسب إليه كتاب البيان المطبوع في ليدن².

كما ذكره عباس ابن إبراهيم المراكشي تحت اسم: [محمد بن عذارى المراكشي صاحب تاريخ الاندلس وشمال افريقية، نبغ في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري]³. في حين ذكره عبد السلام بن سوادة، فقال عنه: [أبو عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن عذارى بفتح العين كان حيا سنة 769هـ/1270م]⁴.

كما ترجم له الزركلي فقال: [محمد أو أحمد بن محمد المراكشي، أبو عبد الله المعروف بابن عذارى، مؤرخ أندلسي الأصل، من أهل مراكش] لم نظفر له بترجمة⁵. وذكره عمر رضا كحالة: [محمد المراكشي المعروف بابن عذارى (أبو عبد الله) مؤرخ أندلسي الأصل من أهل مراكش]⁶.

ولكن بعد العثور على مخطوطات جديدة من الكتاب تحمل اسما جديدا هو: [أبو العباس أحمد بن محمد] منها مخطوطة تحتفظ بها خزانة الحسينية بالرباط رقم 334، الذي كتب في أوله: [بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. قال:

(1) سر كيس، معجم المطبوعات العربية والمعرية، ج1، ص172.

(2) بروكلمان، تاريخ الآداب العربية، الملحقات، ج1، ص577.

(3) عباس بن ابراهيم، الاعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام، ج4، ص284.

(4) بن سوادة، دليل مؤرخ العرب، ج1، ص132.

(5) خير الدين الزركلي، الاعلام، ج7، ص95.

(6) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص710.

الشيخ الأجل الأثير الأكمل الرواية المطلع الحسيب الأفضل أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى رحمه الله¹، إلا أنه لم تحدد سنة نسخ المحفوظ.

وكذلك ما ورد في نسخة أخرى من نفس الخزانة تحت رقم 777، حيث كتب اسم المؤلف على الغلاف بخط غير واضح وذكر الاسم كالتالي: [أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى]².

وقد ذكر محمد بن عبد الله عنان أنها نسخت سنة 1226هـ/1811م³.

فمنذ ظهور هذه النسخ من المخطوطات اشتهر ابن عذارى باسم [أحمد بن محمد] وبكنيته أبي العباس، حيث درج كل الباحثين على هذه التسمية من عهد المستشرق بالنيثا الذي سماه [أبو العباس أحمد بن عذارى المراكشي] في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي دون أن نعرف مصدره في ذلك⁴.

وعلى كل فليس هذا المؤرخ هو الوحيد الذي تعرض اسمه وترجمته للإهمال فهناك الكثيرون من أرخوا للناس فنسيهم العلماء، وأقرب مثال لدينا في هذا الكتاب هو مؤرخ المغرب ومدينة فاس خاصة، المعروف بابن زرع صاحب كتاب [الأنيس المطرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس] فقد أهملت ترجمته، بل وقع الشك والتشكيك في نسبة هذا التاريخ إليه، مما جعل الأقوال تتضارب حول اسمه وترجمته وتاريخ وفاته.

ج. دراسته وسعيه في طلب العلم:

عندما أتحدث هنا عن التكوين العلمي فلا أقصد به التكوين العلمي العام، بل التكوين المسهم في نوعية الكتابة التاريخية لدى ابن عذارى؛ حيث لا نجد ترجمة وافية له تمكننا من

⁽¹⁾ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب (مخطوط) محفوظ بالمكتبة الملكية تحت رقم 334.

⁽²⁾ ابن عذارى، البيان المغرب، الخزانة الملكية، محفوظ تحت رقم 777.

⁽³⁾ عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، "قسم التاريخ والرحلات"، المجلد الأول، ص 80.

⁽⁴⁾ أنخل بالنيثا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 249.

الإحاطة بكل ظروف نشأته العلمية وما يحيط بملاسات حياته¹، إذ ليس بين أيدينا من المعلومات منه إلا نزر يسير متمثل في الإشارات التي تقدم بذكرها هو نفسه في مقدمة كتابه، الذي يعتبر ذو قيمة تاريخية كبيرة لما يجويه من فقرات هامة من مؤلفات أخرى عبثت بها يد الزمان².

ويتبين لنا من خلال كتابه أنه واسع الاطلاع على مختلف التأليف المشرقية والمغربية مثل تاريخ الطبري والبكر والرقيق القيرواني ونظم الجمان في أحبار الزمان لابن القطان، بالإضافة إلى ولوعه بمجالسة العلماء ومذاكرة الأدباء والفضلاء والأخلاء من ذوي العلم، ومما يدل أيضا على ثقافته الواسعة والمتنوعة اتقانه اللغة اللاتينية والعبرية واستخدامه لكتب العجم واطلاعه عليها³. كما يظهر أن التكوين العلمي لابن عذارى المراكشي تكوين مستمد من مجالسة العلماء والمناظرات في حلق الدرس، دون أن يتعدى قطر المغرب الأقصى مما يشي بأن تكوينه مغربي أصيل، وذلك بالاستناد إلى ما وصلنا عنه من إشارات قليلة لا تسمح حتى بفتح باب التأويلات لنشأته العلمية الأولى في بواكير عمره، والتي ساهمت في توجيهه لمجال الكتابة التاريخية وساهمت في رسم منهجه وأسلوبه فيها.

فكما أشار ابن عذارى إلى ما شغل به نفسه في حفظ الأخبار ومجالسة الأدباء يدل على تمكنه من علوم شتى، منها الأدب إذ كان ذو مستوى عالي في التمكن من اللغة والأسلوب

(¹) يعتبر ابن عذارى المراكشي ابن المدرسة التاريخية في مراكش، ونظرا لمكان هذه المدينة من مكانة سياسية كونها حاضرة في العهدين المرابطي والموحدي جعلها محطة يتوافد عليها العلماء من أنحاء بلاد المغرب والاندلس وإفريقيا مشكلين بذلك ما يمكن أن نطلق عليه المدرسة المراكشية في التاريخ والتي بدأت بوادها في الظهور مع دولة المرابطين وازدادت نشاطا في العهد الموحد في سياق تشجيع الموحدين للنشاط العلمي بوجه عام، وتأسيس المدارس وتعمير المعاهد واستقطاب العلماء وتنظيم المظاهرات والدفع بحركة تدوين الكتب مما سمح بظهور كتابات لمؤرخين مقربين من دواليب السلطة، وقد استمرت هذه المدرسة حتى قيام المرينيين التي ميزها ظهور الموسوعات التاريخية التي وضعها مثقفوا العصر. ينظر "محمد بن شريفة، مقدمة التحقيق لكتاب الذيل والتكملة"، ج3، ص77.

(²) أنخل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تح: حسن مؤنس، ص243.

(³) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، صص34.

وتحيز الألفاظ، وهذه النبذة المختصرة عن تكوينه العلمي مستمدة من خلال نتف المعلومات الواردة في "البيان المغرب" وتنطبق تماما على منهجه وخلفيته في الكتابة التاريخية¹.

وعندما نأتي إلى البحث في تأثير نشأته العلمية واسهامها في كتابته التاريخية فعلينا الرجوع لكتابه "البيان المغرب" لنستخلص بعضه، فمن خلال توجهه في الكتابة التاريخية يمكن أن نستنتج أسبابها لما ذكرها ضمن فاتحة كتابه في قوله: [ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء بالبلاد الشرقية والمغربية وما والاها من الأقطار، وولعت بالمنظرة في ذلك مع الفضلاء والأخلاء ذوي الأقدار والأخطار] وهذا كان ولوع ابن عذارى بهذا النوع من النشاط الثقافي الذي لم يكن ليعوضه عنه شيء في حالة عدم توفره إلا مطالعة كتاب يتخذه جليسا وهذا ما ساهم في تكوينه التاريخي².

ويبدو أن ابن عذارى لما دون كتابه [البيان المغرب] كان مضطرا كما أشار في مقدمة كتابه: [... طلب بعضهم إلي، ممن يجب إكرامهم علي أن أجمع له كتابا مفردا في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار ولازمي في طلبه مرارا فلم يمكنني التوقف في ذلك ولا الاعتذار، وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار...]³.

فقد كتبه بناء على طلب ملح من أحد أصدقائه الفضلاء من بين العلماء الأخبار العديدين الذين تعود على مجالستهم⁴.

د. وفاته:

اتفق كل الباحثين والكتاب عن ابن عذارى على أنه لا يمكنهم تقديم تاريخ محدد لوفاته ولكنهم اختلفوا في كر السنة التي كان يعيش فيها.

(1) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص3.

(2) عبد الواحد ذنون طه: "موارد تاريخ ابن عذارى المراكشي..."، ص210.

(3) ابن عذارى، المصدر السابق، صص34.

(4) عبد الواحد ذنون طه: "موارد تاريخ ابن عذارى المراكشي..."، ص210.

المتبع لما ورد في البيان المغرب يدرك-بما لا يدع مجالاً للشك-أنه عاش أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حيث أدرك العقد الثاني منه حيث كان حياً في هذه الفترة وبالتحديد سنة 712هـ/1312م.

ومن المؤكد أنه عاش بعد ذلك مدة لا نعلمها على وجه التحديد، فعندما حرر ابن عذارى المراكشي كتابه [البيان المغرب] القسم الخاص بالموحدين وتحدث ذلك بنوع من الإيجاء والتلميح من خلال عدة روايات منها:

- فقد وجد ضمن كتاب البيان المغرب نصان يقدمان إيضاحات من الفترة التي عاش فيها ابن عذارى، فقد جاء في كتاب [البيان المغرب]، [ذكر المهديّة والقيروان وأوصافها] يقول ابن عذارى: [فكانت -أي القيروان- أعظم مدن المغرب طراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً. وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي عن الشبهات واجتناب المحارم، إلى أن توالى الدمار عليها بدخول العرب عليها، على ما سيأتي ذكره في موضعه، فلم يبق بها إلا أطلال دارسة، وآثار طامسة ويذكر أنها ستعود إلى ما كانت عليه، وهي الآن في وقتنا هذا وهو آخر المائة السابعة قد ابتدأت بالعمارة]¹.

- والنص الآخر ذكره ابن عذارى في خبر مزار الخليفة أبي حفص المرتضى الموحدى ومقتله قال: [وأما أولاده -أي الخليفة المرتضى- فنثقتهم أبو دبوس طول مدته إلى أن أخرجهم الأمير أبو يوسف من ثقافته في عام ثمانية وستين إلا كبيرهم أبو محمد عبد الله فإن أبو دبوس قتله في السجن بمسلة أدخلها تحت إبطه مات منه رحمه الله تعالى].
ولما أخرجهم أبو يوسف -رحمه الله- من السجن توجهوا إلى الأندلس وحصلوا عند ألفنش بإشبيلية أعوما عديدة ثم انتقلوا منها إلى غرناطة وحصلوا تحت طاعة أميرها ابن الأحمر.

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص208.

ويشير ابن عذاري أنهم كانوا يتسلمون فيها مرتبات شهرية في الوقت الذي كتبت فيه هذه الأخبار، كما ذكر أيضا أن أحاهم أبا يزيد وصل من الأندلس إلى السوس عام 648هـ/1285م، [وهو الآن بقيد الحياة في جبل سكساوة يعيش من النسخ وأخوه محمد بغرناطة في وقتنا هذا وهو عام اثني عشر وسبعمائة] ¹.

فهذان النصان يدلان دلالة واضحة على تحديد العصر الذي عاش فيه ابن عذاري وهو النصف الثاني من القرن الثامن الهجريين وأنه على قيد الحياة بالتحديد في سنة 712هـ/1312م. كما يتضمن في كتابه إشارة أخرى مفادها أن الرجل كان في مدينة مراكش وأن نسبه إلى هذع المدينة لم يختلف عليها أحد، وأنه ألف كتابه البيان المغرب فيها، أو في المنطقة الجبلية القريبة منها، في حدود 712هـ/1312-1313م، وذلك بحسب ما يشير هو إلى هذا التاريخ في أثناء حديثه عن أولاد الخليفة الموحد المرتضى ².

إذا لا تتوافر لدينا المعلومات عن تاريخ وفاته، ولهذا فقد اصطلح على أنه توفي بعد سنة 712هـ، التي هي آخر سنة تمت الإشارة إليها في كتابه.

هـ. مؤلفاته:

اشتهر ابن عذاري بكتابه المعروف لبيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب. وعلى الرغم من تأخر زمن تأليفه [أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة]؛ فإنه يتضمن أخبارا كثيرة وروايات نادرة، تجعله يرقى إلى مرتبة الأصول الأولى التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة تاريخ المغرب والأندلس. وذلك لاعتماده على الموارد القديمة والمعاصرة، أو القريبة من الأحداث التاريخية التي يتناولها في كتابه.

وعلى هذا فلا نعرف لابن عذاري غير ثلاثة مؤلفات وصلة لكتاب البيان المغرب وعي:

(¹) البيان المغرب، ج5، ص447.

(²) ابن عذاري، نفسه، القسم الثالث الخاص بتاريخ الموحدين، ص454؛ ويقارن بما جاء في: مقدمة ليفي بروفينسال لـ "نص جديد عن فتح العرب للمغرب"، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثمانين سنة 1954م، صص195، 200، 201.

1. [البيان المشرق في أخبار المشرق].

2. [أخبار يزيد ابن معاوية].

3. [البيان المغرب في أخبار المغرب].

4. [صلة البيان المغرب].

أولاً: أما الكتاب الأول فلا تشير المصادر إلا لكتاب البيان المغرب، ولكنه يذكر في ثنايا هذا الكتاب انه قام بتأليف تاريخ عن المشرق أسماه بـ: البيان المشرق في أخبار المشرق¹. لكن هذا الكتاب لم يصل إلينا، أما الإحالات القليلة التي أشار فيها ابن عذارى الى كتابه هذا، فتتضمن معلومات هي كما يلي:

- قال ابن عذارى [وفي سنة 30هـ سقط الخاتم من يد عثمان رضي الله عنه في بئر أريس، وقد ذكرنا خبر سقوطه في كتابنا البيان المشرق في أخبار المشرق]².
- وقال [وفي سنة 38هـ قتل محمد بن أبي بكر الصديق بمصر، قتله معاوية بن حديج بأمر من معاوية بن أبي سفيان، وقد ذكرنا شرح مقتله في اللبيان المشرق في أخبار المشرق]³.
- وعن أحداث سنة (137هـ/754م) قال: [وفيها قتل المنصور أبا مسلم، وكيفية ذلك في تاريخ أخبار المشرق]⁴.
- قال ابن عذارى: [وفي سنة 158هـ ولي الخلافة المهدي؛ ببيع يوم مات أبو جعفر بمكة بعهد أبيه، وذلك يوم السبت لست خلون لذي الحجة، واستقل بالملك والخلافة في هذه السنة. وكان أديباً، جواداً، محباً لأهل الأدب والشعر وقد ذكرنا بعض أشعاره وأخباره في تاريخ المشرق، والغرض هنا ذكر أخبار المغرب الأقصى والأوسط]⁵.

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص14.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص14، وينظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص15.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص66.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص80.

- وكذلك عند حديثه عن ولاية الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار. قال: [فولى الإمارة بمصر العزيز بالله نزار، المكنى بأبي المنصور، ابن معد المكنى بأبي تميم، ولد بالمهدية في محرم سنة 344هـ، وولى العهد بمصر في العاشر لربيع الأول سنة 365هـ، وسترت وفاة أبيه، وسلم عليه بأمير المؤمنين. وقد ذكرنا بعض أخباره في أمراء مصر في أخبار المشرق]¹.

هكذا ذكر ابن العذري كتابه المفقود [البيان المشرق في أخبار المشرق] وعليه يمكن أن نسجل بعض الملاحظات أبرزها:

1. أن المؤلف نقل عن كتابه هذا بعضاً من أخبار الحوادث المشرقية التي وردت في كتابه البيان المغرب، والتي لها علاقة بالتاريخ المغربي، حيث أثبت أنه في تأليفه.

قال ابن عذارى: [وفي سنة 30هـ — سقط الخاتم من يد عثمان رضي الله عنه في بئر أريس، وقد ذكرنا خبر سقوطه في كتابنا المسمى البيان المشرق في أخبار المشرق].

2. أنه لا نعرف معرفة واضحة محتوى الكتاب ولا شيئاً عن الموضوعات التي تناولها الكتاب، غير أنه تناول فيه أخبار المشرق إلى منتصف القرن الرابع الهجري [سنة 365هـ].

فلا ندري هل واصل فيه كتابة التاريخ الإسلامي بالمشرق إلى عصره أي نهاية القرن السابع الهجري وبداية الثامن؟ فقد تناول ابن عذارى في كتابه البيان المغرب أخباراً كثيرة متعلقة بالمشرق ولكنه لا يحيل على كتابه المتعلق بأخبار المشرق. وهذا لا يجعلنا نجزم بأن كتابه عن المشرق يقف عند حدود منتصف القرن الرابع، وإنما يمكن أن يكون المؤلف اعتمده ولم يحل عليه.

(¹) المصدر نفسه، ج 1، 229.

3. كتاب البيان المشرق ألفه ابن عذارى سابقا عن تأليفه لكتاب البيان المغرب بناء على أنه نقل عنه نصوصا وأحال عليه، من بداية تأليفه لكتاب البيان المغرب، ومعنى ذلك أنه ألفه في المرحلة الأولى من حياته العلمية.

4. أن المؤلف ذكر كتابه البيان المشرق بعناوين ثلاثة مختلفة اختلافا بسيطا:

- ذكره أولا بعنوانه الأصلي الكامل وهو [البيان المشرق في أخبار المشرق] وذلك في أول نقل عنه عند عرض أخباره سنة 30هـ/650م.

- ذكره ابن عذارى بعنوان [أخبار المشرق]، وذلك في عرضه لأخبار سنة 38هـ/658م وسنة 137هـ/754م وسنة 365هـ/975م.

- ذكره ابن عذارى أيضا بعنوان [تاريخ المشرق]، وذلك في إخباره عن سنة 158هـ.

5. أن المؤلف أشار إلى كتابه هذا إشارة خفية في مقدمة كتابه البيان إذ قال: [ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء بالبلاد المشرقية والمغربية وما والاهما من الأقطار، وولعت بالمنظرة في ذلك مع الفضلاء والأحلاء ذوي الأقدار والأخطار، طلب بعضهم إلي ممن يجب إكرامه على، أن أجمع له كتابا مفردا في أخبار ملوك البلاد الغربية عبي سبيل الإيجاز والاختصار، ولازمي في طلبه مرارا، فلم يمكنني التوقف في ذلك ولا الاعتذار، وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار، فجمعت له في هذا الكتاب نبذا ولعا من عيون التاريخ والأخبار، مما أجرى الله به تصاريف الأقدار فيما من الكتب الجليلة مقتضيا من غير اسهاب وإكثار، فاقتطفت عيونها، واقتضبت فنونها، ووصلت الحديث بالقديم، والقديم بالحديث لأنه اذا اتصل يستظرف ويستحلى، كما قال بعضهم:

وسئمت كل مآربي فكان أطيبها خبيث

إلا الحديث فإنه منذ اسمه أبدا حديث¹.

ثانيا: تأليف في أخبار يزيد بن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

ورد ذكره في الجزء الأول من كتاب البيان المغرب بما نصه: [وتولى الخلافة من بعده يزيد ابنه، وتلقب بالمستنصر بالله في بعض الأقوال، وكنيته أبو خالد، وقد ذكرنا أخباره في التأليف]².

وفي هذا بلا شك يدل على أنه أفرد تأليفا خاصا بأخبار يزيد بن معاوية³.

ثالثا: كتابه المعروف: [البيان المغرب] وسنخسه بكل تفصيل ودراسة في مختلف أبواب وفصول هذه الرسالة التي تناول فيها الكتاب والمنهج التاريخي لابن عذارى فيه.

فمعظم الذين ترجموا لابن عذارى ذكروا كتابه المشهور [البيان المغرب]، لكن اختلفت تسمياته عندهم، فقد ذكره عباس بن إبراهيم باسم [البيان المغرب في أخبار المغرب] أو [البيان المغرب في أخبار المغرب] ثلاثة أجزاء⁴.

وقد ذكره ابن سودة باسم [البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب] أو [البيان المغرب في أخبار المغرب] يقع في عدة أسفار⁵.

أما الزركلي فذكره باسم [البيان المغرب في اختصار ملوك المغرب] ثلاثة أجزاء⁶.

وكحالة ذكره باسم [البيان المغرب في أخبار المغرب] ثلاثة أجزاء⁷.

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص2.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص23.

(3) لا نعرف ذكرا لهذا الكتاب في كل ما طالعناه من المصادر والمراجع، غير أن د. عبد الواحد ذنون طه، قال في بحثه عن نوارذ تاريخ ابن عذارى عن شمال افريقية، ص211: ولعله يقصد البيان المشرق.

(4) الاعلام بمن حل بمدينة مراكش وأغمات من الاعلام، ج4، ص284.

(5) دليل مؤرخ الأقصى، ج1، ص132.

(6) الاعلام، ج7، ص95.

(7) معجم المؤلفين، ج3، ص710.

وذكر في كتاب إيضاح وهدية العارفين باسم: [البيان المغرب في أخبار المغرب] مجلدين مطبوعين في ليدن¹.

وذكره يوسف سر كيس وبالنثيا باسم: [البيان المغرب]².

وفي الحقيقة أن العنوان الصواب الصحيح هو الذي أورده المؤلف في مقدمة الكتاب وهو: [البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب]، كما ورد في طبعة دار الثقافة بيروت بتحقيق: كولان وليفي بروفنسال³.

رغم أن أكثر طبعات الكتاب أوردت العنوان مخالفاً لذلك وهو [البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب]، ولم يرد العنوان مطابقاً لما ذكره المؤلف في مقدمته إلا في طبعة تطوان التي حققها ميراندا ومحمد بن تاويت، ومحمد إبراهيم الكتاني.

رابعاً: [صلة البيان المغرب]، وهذا الكتاب لم يصل إلينا ولا نعرف حتى له نسخة مخطوطة، ولم تقرأ لأي باحث معاصر ذكراً لهذه الصلة، إلا أنني وبعد مطالعة الجزء الخامس [الخاص بالموحدين] عثرت على نص لابن عذارى ذكر فيه هذه الصلة عند عرضه لأخبار أبي القاسم الغرقي صاحب سبته فقال: [فكانت مدته نحو ثلاثين سنة على ما يأتي ذكره في صلة هذا الكتاب- إن شاء الله]⁴.

وفي ذلك دلالة على أن ابن عذارى قرر وضع صلة لكتابه البيان المغرب، ولكن لا يمكن الجزم بأنه كتبه وأجزه بعد اكتمال تأليف الأصل.

(1) إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، ج1، ص207، هدية العارفين، ج2، ص138.

(2) معجم المطبوعات، ج1، ص172، تاريخ الفكر الأندلسي، ص249.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، ج5، ص399.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، ج5، ص399.

ثانيا- نحة عامة عن عصر ابن عذاري المراكشي:

أ. الأوضاع السياسية والثقافية لعصر ابن عذاري المراكشي:

لقد كان ابن عذاري المراكشي على درجة عالية من الثقافة، نتيجة لمخالطته للعلماء والاعخبار في عصره ويشير في البيان المغرب، الى مدى اهتمامه بمجالسة العلماء والأدباء، لأن في مجالستهم ومذاكرتهم تنويرا للأفكار وسحرا للذهن.

وكما يبدو أيضا- فإن ثقافته كانت مرتكزة على قراءات مستمرة في الكتب المتوافرة في عصره. فكان لا ينتقل من مجالسة العلماء والأدباء، إلا لقراءة كتاب يتخذه جليسا، ويسامد منه معلوماته التي كون منها ثقافته التي تظهر واضحة للعيان عند الاطلاع على كتابه. ويشير ابن عذاري واصفا وقفه من هذه المسألة بقوله: [وإن أولى ما رضينا به النفوس البشرية بمجالسة العلماء والأخبار، ومذاكرة الأدباء ذوي الهمم وعلو المقدار، ففي مجالستهم ومذاكرتهم ما يسحر الذهن وينور الأفكار، فإن فقدت مجالستهم فلا عوض منها غير كتاب يتخذه جليسه، ويجده في كل وقت أنيسه، ويتنسمه روضا يانع الأزهار.

وإذا نظر اللبيب بفطنته إلى أصناف العباد، ومختلف الآباد، أغناه ذلك عن المشاهدة، وقام له الاستماع مقام المعاينة والاستخبار]¹.

وقد تركز اهتمام ابن عذاري على أخبار الخلفاء والأئمة والأمراء في المشرق والمغرب. وكان يناظر زملاؤه من العلماء الذين يشاطرونه ذات الاهتمام. فعرف بشدة ولعه بهذا الموضوع، لهذا فقد طلب إليه أحد هؤلاء العلماء المقربين لديه أن يؤلف كتابا في هذا الموضوع بالنظر إلى طول باعه، واطلاعه على الأصول الأولى التي تستند إليها هذه الأخبار.

وعليه فكان على ابن عذاري أن يجمع ويؤلف كتابا مفردا في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار حمل اضطراب لا اختيار².

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان وليفي بروفينسال، ليدن، 1948، ج1، ص12.

(2) المصدر نفسه، ص12.

ولا يمكن فصل هذا الاهتمام من ابن عداري وزملائه بالثقافة والعلو والمعرفة عن طبيعة العصر الذي كانوا يعيشون فيه، فقد عاش ابن عداري في ظل دولة ابن ماريين التي حكمت المغرب منذ زوال حكم الموحدين سنة 667هـ/1268م إلى سنة 875هـ/1470م.

وقد شجعت هذه الدولة العلم والعلماء، وسلكت طريق المعرفة كمبدأ لازم منذ نشأتها. فكان العلم عاملاً مشتركاً في كل حوادث عصر هذه الأمة، واستنفدت أغلب مجهودات ملوكها، حتى قيل: [إنهم لم يوفقوا في السياسة كما توفقوا في نشر العلم]¹.

وكانت مدينة فاس عاصمة المرينيين من أفضل مدن المغرب من حيث العران والترف، ومستوى المعيشة. وكانت في نظر المؤرخ ابن خلدون²، وهو معاصر للحقبة التي نتحدث عنها، أرقى حضارة وعمرانا من بقية المدن الأخرى.

خلفت دولة بن مرين الدولة الموحدية في المغرب، ومع هذا فقدت شهدت بداية الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وجود دويلات أخرى صغيرة تتقاسم حكم المغرب. فإلى جانب بني مرين في المغرب كان هناك بنو عبد الواد في تلمسان وبنو حفص في تونس وبجاية، هذا بالإضافة إلى دولة بني الأحمر التي تحكم في الأندلس. وكانت لها علاقات وثيقة مع هذه الدويلات الصغيرة في المغرب.

وعلى الرغم من هذه التجزئة والاستقلال الذي عاشته هذه الدويلات فإن أواخر القرن السابع والقرن الثامن في كل من المغرب والأندلس كان عهد رخاء مادي، ونبوغ فكري، وازدهار حضاري شامل. وقد برزت دولة بني مرين دون غيرها من هذه الدول في القوة العسكرية والاعداد الحربي. وكانت سياسة سلاطينها محصورة بشكل عام في محاولة جمع الكلمة في المغرب العربي أسوة بما كان عليه الحال في عهد الموحدين، كذلك توجهوا نحو الجهاد في

(1) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، بيروت، 1975، ص274.

(2) مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت)، ص361؛ وينظرا أيضا: لسان الدين ابن خطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شيانة، المغرب، مطبوعات صندوق إحياء التراث الإسلامي، مطبعة فضالة، 1976، ص172.

الأندلس لنصرة بني الأحمر الذين كانوا يطلبون نجدتهم لرد خطر الدول الإسبانية المتحالفة ضدهم، وقد أبلى المرينيون بلاء حسنا في الجهاد في بلاد الأندلس وسادوا على بني عبد الواد في تلمسان، وبني حفص في تونس وبجاية مرات عديدة. لكن ظروف المغرب السياسية في ذلك الوقت لم تفسح لهم المجال لإعادة توحيد المغرب والأندلس والرجوع بهذه البلاد كما كانت عليه أيام المرابطين والموحدين.

وإن كان ابن مرين لم يتفوقوا في إعادة توحيد المغرب من الناحية السياسية، فإنهم وفقوا في هدفهم الآخر وهو تشجيع نشر العلوم والمعارف، بعد أن ضعفت بضعف الموحدين وبتوالي الفتن حتى كاد يقضى عليها في المغرب. وقد ساعد الدولة المرينية على تنفيذ هذه السياسة طول مدتها في الحكم فقد استمرت نحو أكثر من قرنين من الزمن¹.

وكان من بين ملوك هذه الدولة من نال نصيبا من الثقافة والمعرفة، ولا سيما أبي الحسن علي عثمان (731-749هـ/1331-1348م)، وأبي عنان فارس بن أبي الحسن (749-759هـ/1348-1357م)، وأبي سعيد عثمان بن أحمد (800-823هـ/1397-1420م).

وقد تميز أبو الحسن وولده أبو عنان بالمجالس العلمية والأدبية التي كانت تعقد في بلاطهما، الأمر الذي يدل على توافر هؤلاء العلماء، وتنوع اختصاصاتهم، ومدى انتشار الثقافة في المغرب في ذلك العصر الذي كثر فيه الفقهاء والأدباء فاشتدت العناية بعلوم اللغة العربية، وهو ما يؤكده عروبة أصل بني مرين².

وكان أيضا-أبو الحسن المريني يصطحب معه العلماء في رحلاته ويستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه³، كما تميز ببناء المدارس والزوايا في فاس

(1) محمد الفاسي، نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الأدبية، مجلة البنية، العدد 8، السنة الأولى، الرباط، 1962، ص22.

(2) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، دار الكاتب اللبناني 1961م، ص183. وما بعدها؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984م، ج2، ص141؛ مزاحم علاوي محمد، الدولة المرينية في عصر أبي الحسن علي بن عثمان/دراسة حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 1985م، ص25، 114.

(3) ابن خلدون، كتاب التعريف بابن خلدون، منشور مع كتاب العبر، بيروت، 1956م، ج7، ص812815، 839.

وغيرها من مدن المغرب¹، وكذلك اشتهر أبو عنان فارس باشتغاله بالعلم ومراسلاته مع العلماء²، ويعقد مجالس المناظرة كل يوم بعد صلاة الصبح³.

كما عرف أيضا بعمارته للمدارس والزوايا بفاس، وبقيّة المدن الأخرى⁴، ولم يقتصر الأمر على هاذين العاهلين -فحسب- بل إن عصر بني مرين تميز بالازدهار الثقافي بشكل عام، ولاسيما العصر المريني الأول الذي يمتد منذ بداية الحكم المريني عام 668هـ/1268م الى وفاة السلطان أبي الحسن عام 731هـ/1331م، وهذا العصر الذي يهمننا، لأنه العصر الذي عاش فيه ابن عذارى، ويمكن تلخيص بعض العوامل المهمة للازدهار الثقافي في هذا العصر كما يأتي⁵:

- إن بعض سلاطين وأمراء هذه الحقبة كانوا على جانب من الثقافة وتشجيع العلم، وبناء المدارس، وخزائن الكتب، والانفاق على العلماء والطلبة.
- عدم تدخل المرينيين في توجيه الفكر المغربي، وتركوا للفقهاء حرية اختيار المذهب، فاختاروا المذهب المالكي، الذي ازدهر فقهه في هذه الحقبة.
- حرص المرينيين على إقامة الصلوات مع المشرق الإسلامي، بواسطة الوفود والحج، والرحلات، للتعرف إلى مناهج ومعارف المسلمين في المشرق⁶.

(1) محمد مرزوقي التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981، ص407، 409؛ أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، ج3، ص11112، 175.

(2) إسماعيل بن الأحمر، نثر فوائد الجمال في نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1967م، ص288289؛ إسماعيل بن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1962م، ص28.

(3) أبو عبد الله محمد بن ابراهيم العواتي المعروف بابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، 1964، ص661.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص664؛ لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب عن علالة الاغتراب، تحقيق: أحمد مختار العيادي، دار الكاتب العربي، القاهرة (د.ت)، ص170؛ السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص206؛ علي حامد الماحي، المغرب في عهد السلطان أبي عثمان المريني، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1986م، ص198.

(5) محمد المنوني، ورقات من الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، 1979، ص193197.

(6) محمد المنوني، علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني الأول، مجلة دعوة الحق، السنة الثامنة، العدد الخامس، ص6164.

- نزوح العديد من الأندلسيين ولاسيما بعد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، إذ توزعوا في المغرب، وساعدوا في رقي النشاط الثقافي للبلاد¹.
- ظهور بعض المراكز المتميزة، ولاسيما في منطقة الجنوب الغربي لمدينة مراكش. والواقع أن الفضل يعود إلى بني مرين في بقاء المذهب المالكي وانتشاره العلمي في المغرب، وذلك بعد الجهود التي بذلها المرابطون قبلهم. ولقد نشطت حركة التأليف في هذا العصر نشاطا عظيما في مختلف فروع المعرفة البشرية وازدادت الثقافة انتشارا بشكل يفوق ما كان عليه الأمر في عهد الموحدين. ويدل على ذلك كثرة انتشار المدارس والمكتبات العلمية الموقوفة على الجامع والمدارس، وتبني الدولة للتعليم من طريق إيجاد الكتب والمعاهد، وضممان رواتب الأساتذة وإيواء الطلاب².

وهكذا نالت مختلف العلوم النقلية والعقلية نصيبا من الاهتمام في العصر المريني، فكثر التأليف في الفقه والعلوم الدينية، ونالت علوم اللغة اهتمام الطلاب والأساتذة، فكثر فيها كذلك التصانيف، إضافة إلى ازدياد الاهتمام بالعلوم العقلية التي أخذت دورها الكامل في هذا العصر، وتميزت بظهور علماء نالوا شهرة واسعة نتيجة انشغالهم بها. وأهم هذه العلوم هي: الطب، الفلك، الكيمياء، الرياضيات والموسيقى.

وإن كنا قد تحدثنا عن مختلف العلوم التي ازدهرت في عصر الدولة المرينية بشيء من الاختصار، فلا بد أن نخرج إلى الحديث عن علم التاريخ وازدهاره في هذا العصر، فهو يرتبط ارتباطا مباشرا بموضوع مؤلفنا هذا إضافة إلى علم الرحلات. ولم يكن ابن عذارى وحده الذي اهتم به، فهو ابن عصره، وهذا العصر بحق كان عصر المؤرخين النوابغ على غرار: المراكشي، وابن أبي زرع، وابن جزى الغرناطي، وأبو الحسن الجزنائي، وابن الخطيب، وابن مرزوق

⁽¹⁾ أحمد بن محمد المغربي، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: احسان عباس، بيروت، 1968م، ج3، ص152.

⁽²⁾ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984م، ج2، ص142.

التلمساني، وابن خلدون، وإسماعيل ابن يوسف ابن الأحمر...، فهؤلاء اهتموا بتاريخ المغرب العربي منذ الفتح الإسلامي إلى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد.

ومن المميزات الثقافية لهذا العصر-أيضا-اهتمام أدباء المغرب بتدوين أخبار رحلاتهم. وقد برز في هذه الحقبة عدة رجال، ويأتي في مقدمة هؤلاء الرحالة القاضي الخطيب المعروف بابن بطوطة (ت779هـ/1381م) وقد حظي هذا الأخير بعناية السلطان أبي عنان المريني، حيث ضمه إلى مجالسه العلمية¹.

ومن الرحلات الشهيرة الأخرى التي تمت في العصر المريني الرحلة المغربية التي قام بها أبو عبد الله محمد بن علي العبدري سنة 688هـ/1289م².

وكذلك رحلة أبي عبد الله محمد بن عمر الفهري المعروف بابن رشيد (ت721هـ/1321م)

يظهر من هذا العرض السريع لبعض جوانب الحياة السياسية والفكرية في عهد الدولة المرينية، أهمية العصر الذي عاش فيه ابن عذارى، وكثرة المشتغلين بالعلوم على مختلف أنواعها. وقد كان للرحلات كما أسلفنا الذكر دور مهم في توافر المعلومات عن مختلف شؤون البلدان الإسلامية المعروفة في ذلك الوقت، فكثرت اذن المؤلفات التي نالت تشجيع ملوك هذا العصر واهتماماتهم، فأهدى عدد من المؤرخين معظم مؤلفاتهم إلى الحكام والأمراء، مثل ابن أبي زرع، الجزنائي، ابن الخطيب، ابن خلدون...

أما ابن عذارى، فقد أهدى كتابه تاريخه زمن السلطان عثمان بن أبي يعقوب يوسف المريني، بحيث كان لا يزال يكتب، بحسب قوله إلى سنة 712هـ³. ولكنه لم يقدمه-فيما يبدو-إلى

⁽¹⁾ للمزيد من التفصيلات عن أهمية هذه الرحلة؛ ينظر إلى المقدمة التي كتبها الباحث العلامة المغربي عبد الهادي التازي، بين أيدينا تحقيقه الرائع للرحلة، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997م، ج1، ص9146.

⁽²⁾ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص286288؛ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص154155.

⁽³⁾ ابن عذارى، البيان المغرب/القسم الموحد، ص454. وينظر الكتاب نفسه، تحقيق محمد بن إبراهيم الكتاني وجماعته، بيروت، دار الغرب الإسلامي ودار الثقافة (الدار البيضاء)، 1985م، ص447.

أحد ملوك المرينيين، وإن دل فإنما يدل على أنه لم يكن كغيره من المؤرخين الذين حفل بهم ذلك العصر، يخالط الحكام أو يتقرب إليهم. ويدل على هذا -أيضا- ذلك الغموض الذي يحيط به وبنشأته وحتى باسمه.

ب- معالم الكتابة التاريخية بالمغرب والأندلس خلال القرنين السابع والثامن الهجري:

يمثل الفكر التاريخي أحد أهم جوانب الفكر والثقافة الإسلامية، لعلاقته الوثيقة بجميع أوجه الفكر الإنساني، واستيعابه كثيرا من العلوم والمعارف، ولذلك حظي باهتمام العديد من المفكرين قديما وحديثا.

لقد كانت بداية تدوين العلوم عند المسلمين مبكرة منذ القرن الأول خاصة الحديث والتفسير والسيرة والمغازي والأدب واخبار الفتوح، لنقل تجربة أول الأمة للأجيال اللاحقة والذي يهمننا من هذا جمع هذه الأخبار التي تعد البداية الأولى للتأليف في التاريخ الذي تطور تطورا متلاحقا في تتبع المادة التاريخية بجمعها وترتيبها باعتماد منهج المحدثين في توثيقها خاصة في القرن الثالث الهجري وما تلاه، الذي نمت فيه المعرفة التاريخية نموا مذهلا وتطورت سواء من ناحية المنهج أو العرض، أو الأنماط أو أنواع التأليف بظهور عدد من المؤرخين الكبار كالواقدي وابن عبد الحكم وخليفة بن خياط والبلاذري وابن قتيبة وأبو حنيفة الدينوري، واليعقوبي ومحمد بن حبيب البغدادي والمسعودي والطبري، ومسكويه، وابن عساكر والخطيب البغدادي وابن الأثير، وكل هؤلاء في المشرق¹.

أما بلاد المغرب والأندلس فنسجت تقريبا على منوال الشرق، فظهر بهما العديد من المؤرخين أغلب مؤلفاتهم ضائعة إلا ما جاءت الإشارة إليها في مؤلفات من جاء بعدهم، وسيأتي ذكر الكثير ممن اعتمد عليهم ابن عذارى في البيان المغرب، ولكن لا بد من ذكر لحة وجيزة عما قدمته بلاد المغرب والأندلس من إنتاج فكري تاريخي.

(¹) عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 143.

تطورت الكتابة التاريخية في بلاد المغرب الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين، كما ونوعا، حيث ازداد عدد المؤرخين، وتنوعت ثقافتهم أكثر من السابق، وبرز مؤرخون متخصصون بكتابة التاريخ العربي، وكانت لهم اسهاماتهم المميزة، وكثير من هذه الكتابات تعتبر بحكم المفقودة، ولكن اعتمد عليها مؤرخون كبار ممن جاء بعدهم، فحفظوا لنا بعض من تلك النصوص والروايات، والتي يمكن عن طريقها أن ندرس الكتابة التاريخية المغربية والأندلسية في هذه المرحلة، وذلك عند مختلف الفرق والمذاهب المعروفة آنذاك في بلاد المغرب.

وبالنسبة للكتابة التاريخية عند جميع المؤرخين، فإنها تطورت كثيرا عن السابق من حيث الموضوعات التي تناولها المؤرخون، وحجم المؤلفات، ومناهجها المتعددة، وبرز فيهم مؤرخون كبار لهم شهرتهم على مستوى المؤرخين المسلمين.

إذ لم تعد الكتابة التاريخية في هذا العصر محصورة على الفقهاء وعلماء الشريعة، بل ظهرت اسهامات من مؤرخين متخصصين، قدموا انتاجا معرفي تاريخي مهم، وكل هؤلاء المؤرخين من طبقات متعددة، مثل الأطباء والأدباء وغيرهم.

إلا أننا في هذا العصر أمام مؤرخين كثيرين، بعضهم ولد في بلاد المغرب، ولكن استوطن غيرها منهم [محمد بن حارث الخشني ت 361هـ/971م] الذي نشأ بالقيروان ثم هاجر الى الأندلس، نتيجة مضايقات الفاطميين لعلماء المالكية، وصنف الخشني مؤلفا يتعلق بعلماء بلده افرريقية سماه [طبقات علماء افرريقية]، ومنهم أيضا [محمد بن يوسف الوراق ت 362هـ/972م]، الذي ولد في الأندلس واستوطن القيروان مدة، ثم عاد الى الأندلس، وفيها كتب عدة مؤلفات عن مسالك المغرب وتاريخه، فبعض المؤرخين المحدثين بعدهم مغاربة¹، وبعض المؤرخين من القدامى والمحدثين بعدهم اندلسيين².

(1) محمد إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الأزهار، 4، الفكر التاريخي، ص 66.

(2) ينظر: تراجم الخشني، والوراق في جذوة المقتبس، ص 53، 97، بغية المنتسب، ص 71141، شجرة النور الزكية، ص 94.

وقد تجاهلت كثير من الدراسات الحديثة التي خصصت لدراسة الفكر التاريخي الإسلامي ببلاد المغرب هذا الأمر، مقارنة بالدراسات والأبحاث الكثيرة التي اهتمت بدراسة مؤرخي المشرق، وإن تناولت بعض الدراسات الفكر التاريخي بالمغرب لاحظنا أنها ركزت على كتابات مؤرخي المغرب المتأخرين مثل ابن عذارى المراكشي (ت أواخر القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، وابن خلدون (ت808هـ/1406م).

وموسوعة الدكتور شاكر مصطفى [التاريخ والمؤرخون العرب] -على سبيل المثال- لم تتناول مؤرخي المغرب والأندلس ضمن هذه الدراسة وكان جل تركيزها على مؤرخي المشرق، علما بأنني لم يقع في يدي الجزء الرابع من هذه الموسوعة ولعله خصصه لمؤرخي بلاد الأندلس، كذلك لم تحض كتابات مؤرخي المغرب باهتمام عند كلود كاهن في كتابه "مصادر التاريخ الإسلامي" وتعرض لأهمها بشكل موجز هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن اغلب الأبحاث والدراسات التي صدرت في هذا الموضوع اهتمت بعرض تراجم تعرف بمؤرخي المغرب في القرون الهجرية الخمسة الأولى، دون التطرق الى دراسة منهجهم ورؤاهم في الكتابة التاريخية. أما عن حظ الموضوع من الدراسات خلال القرنين السابع والثامن الهجريين فقد استهل تحت حكم الدولة الموحدية 515-668هـ/1121-1269م التي كان لها دور كبير في الدفاع عن أراضي الدولة الإسلامية خاصة في الأندلس.

وبالرغم من ذلك كله فقد تعرضت دولة الموحدين لهزة عنيفة كانت بدايتها بالهزيمة في موقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م، فتبعه ذلك تفكك الدولة الموحدية وسقوط العاصمة مراكش سنة 668هـ/1269م، وخلفهم في الحكم بنو مرين في مراكش سنة 592-831هـ/1195-1427م، وبنو زيان بالمغرب الأوسط سنة 632-736هـ/1234-1335م، وبنو حفص في تونس سنة 625-932هـ/1227-1525م¹.

(1) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج2، ص166 وما بعدها.

أما على مستوى الأندلس فقد أدى هذا الضعف الى ضعف المقاومة أمام قوى اسبانيا النصرانية المتحدة، فانحسرت أراضي المسلمين فيها الى بني هود بسرقسطة 225-633هـ/1227-1235م، ودولة بني نصر بغرناطة سنة 635-897هـ/1237-1491م¹.

بالرغم من هذه التقلبات السياسية وتعاقب الدول في المغرب والاندلس خلال القرنين السابع والثامن الهجري، فقد ظلت النهضة العلمية وحركة التأليف مستمرة؛ حيث شجعت دولة بني مرين العلم والعلماء كمبدأ لازم منذ نشأتها، فكان العلم عاملا مشتركا في كل حوادث عصر هذه الامة واستنفد أغلب الطاقات والمجهودات، حتى قيل في ملوكها: (أنهم لم يوفقوا في السياسة كما توفقوا في نشر العلم، وكانت فاس عاصمة المرينيين من أفضل مدن المغرب العربي من حيث العمران والترف ومستوى المعيشة)²

أما بلاد الأندلس والتي بقيت لها إمارة غرناطة تصارع الزحف النصراني (وتتردد بين القوة والضعف وبين الثبات والهزيمة وبين الأمن والقلق، وبين الهدوء والاضطراب خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف... في هذه الظروف استطاعت أن تواكب السير الحضاري وأن تقدم ألوانا عديدة من الإنجازات العلمية)³.

في مجال الكتابة التاريخية ظهر في هذه الفترة المذكورة مؤرخون وكتاب أثروا في هذا المجال وظهر تأثيرهم من خلال مؤلفاتهم التي سندكرها⁴.

والجدير بالذكر أن الحركة العلمية في بلاد المغرب وفي بلاد الأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين كانت مرتبطة مع بعضها وذلك بسبب التلازم السياسي بينها من جهة، ثم هجرة علماء الأندلس إلى المغرب إثر سقوط المدن الأندلسية في ايدي النصارى.

(1) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 511 وما بعدها.

(2) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذارى عن شمال افريقية، ص 206.

(3) عبد الرحمن علي الحجي، المرجع السابق، ص 559560.

(4) لم نتطرق ضمن هذه المؤلفات التاريخية لما الف في التراجم، والشعر، والجغرافيا، والرحلات، الفهارس، كتب النوازل، وان كانت مما يعتمد عليه في تاريخ المغرب والأندلس.

وبالنسبة للكتابة التاريخية عند جميع المؤرخين الذين سندكرهم لاحقا على سبيل المثال لا الحصر، فإنها تطورت كثيرا عن السابق من حيث الموضوعات التي تناولها المؤرخون، وحجم المؤلفات ومناهجها المتعددة، حيث برز فيهم مؤرخون كبار لهم شهرتهم على مستوى المؤرخين المسلمين.

1- تاريخ افتتاح الأندلس: من تأليف أبي بكر القوطية (ت367هـ/977م)، وهو تأليف يؤرخ فيه صاحبه لافتتاح الأندلس، وأخبار الولاة فيها وأمرائها وفقهائها، وثوارها... والمتغلبين بها منذ الفتح الإسلامي الى أواسط عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وهو من رواية ابن القوطية، وتدوين أحد تلامذته فيما هو مرجح¹، ويمتاز برواية تاريخية محدودة مع البسط والاستيفاء منها، وبنبرة قومية أندلسية فيما ذكره العبادي². وقد أفادنا في عدة مواضع من دراستنا كان أهمها في الفصل الثاني، حيث اعتمدناه في المقابلة بين نصوصه ونصوص ابن حيان عنه في سبيل استجلاء الموافقات والمخالفات بينهما، كما اعتمدناه في مقابلة بعض الروايات التاريخية الأخرى.

2- أخبار مجموعة لمؤلف مجهول: وهو تأليف أندلسي لشخص أو أشخاص مجهولي العين، يؤرخ فيه لأخبار الأندلس من الفتح الإسلامي الى أخبار عبد الرحمن الناصر لدين الله، أكثر فيه من أخبار الفتح، وفتح مدن الأندلس، وفتح الأندلسيين زمن الولاية، وأخبار عبد الرحمن الداخل الأموي وحروبه، مع نزعة من مؤلف في ترك الروايات الأسطورية، واهتمام بالأخبار الحربية والسياسية³، وأخبار البيت مرواني والعرب على وجه العموم⁴، مع نظرة نقدية ذات حس تاريخي في بعض المسائل.

وقد أفادنا هذا الكتاب في معارضة روايات أخبار ابن حيان برواياته، وفي تمييز ومعرفة متروك الروايات عند أبي مروان، وبعض جوانب النقد التاريخي عند صاحبه.

(1) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص315.

(2) نفسه، ص314.

(3) بالثيا أنخل خيثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ص199.

(4) نفسه، ص202.

3- كتاب الغزوات: من تأليف المحدث المؤرخ الخطيب أبي القاسم ابن حبيش (584هـ/1188م) فهذا الأخير تبقى المعلومات عنه في المصادر وحتى المراجع شحيحة. قال الذهبي: "ابن حبيش القاضي الإمام، العالم الحافظ الثبت"، له كتاب المغازي مجلدات، ويظهر أهمية كتابه في اقتباسه من مصادر مفقودة في الردة والفتوح أهمها كتاب الردة للواقدي، وكتاب يعقوب بن محمد الزهري، وكتاب فتوح العراق منذ أيام أبي بكر وإلى آخر أيام عمر للمدائني¹.

4- كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: من تأليف علي بسام الشنتري (ت542هـ/1147م)، فالمعلومات عنه في المصادر قليلة جدا وهذا شيء غريب، إذ انه ترجم وعرف بأعلام من الأدباء والمؤرخين الأندلسيين في مؤلفه هذا، في حين لا توجد إلا إشارات عابرة عنه، بل إن بعض المصادر ضربت صفحا عن ترجمته حتى لكأنه ليس من المشاهير. ورغم ذلك فقد أفادنا هذا الأخير من حيث أن أغليته كتب التراجم والتاريخ الأدبي التي ألقت في العصور التالية لابن بسام قد اعتمدت على كتابه الذخيرة، فكان مرجعها الأساسي ومصدرها الأول في اغلب ما تروي من "أخبار وأدب رجال المائة الخامسة في الأندلس"² وبذلك فقد حفظ ابن بسام في كتابه الذخيرة: "الكثير من المعلومات التاريخية القيمة عن ملوك الأندلس وأمرائها ووزرائها وأعيانها وعلمائها وأدباءها وشعرائها في المئة الخامسة للهجرة"³

كما أن مؤرخنا-ابن عذارى المراكشي-اعتمد عليه اعتمادا كثيرا، حتى انه جعله ضمن المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه⁴، كما أخذ منه نصوصا، نسب معظمها الى ابن

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص118.

(2) علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي: الذخيرة، ص19.

(3) د. سعد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص401.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص3، 2.

بسام، لانه أغفل نسبة بعضها الآخر، حيث يكون قد تصرف في بعض الروايات وحذف واختصر بعض العبارات الإنشائية، وهذا بلا شك منهج ابن عذارى في التدوين¹.

5- الاكتفاء في مغازي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-والثلاثة الخلفاء: لمؤلفه أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري (ت634هـ/1237م)، فضلا عن كونه قاض، فهو مؤرخ أيضا ولا شك أنه عاش في حقبة تاريخية اشتدت فيها الحرب بين المسلمين (الأندلسيين والمغاربة) من جهة، وبين الممالك الإسبانية في شمال الأندلس ومن تحالف معها من دول أوروبا من جهة أخرى، ولهذا فقد أفادنا من حيث منهجه الذي يركز على أسلوب يطاوع كاتبه من خلال كلمات معبرة² (السجع)، حيث انتهج منهجا مغايرا لما ألفته المصادر التي سبقته عند عرضها حوادث السيرة، إذ لم يكن مقلدا لها بل كان صاحب نهج مستقل³. إضافة الى حضور الجانب العاطفي وبشكل كبير، فقد غاب الجانب العلمي، إذ لم نجد نقدا لرواية أو نص أو تعليق على حادثة، إضافة الى عدم تكرار الروايات المشتركة في سياق حوادث عديدة وذلك من خلال عرض الروايات بشكل مختصر، ومن ثم إحالة القارئ الى صفحات من الكتاب إما صفحة سابقة أو صفحة لاحقة وسوف يقوم بتوضيح الرواية بشكل أكبر وأوضح عند الوصول الى حادثة ما مرتبطة بالرواية⁴. كما أنه اعتمد على المصادر المكتوبة والابتعاد عن الروايات الشفوية.

6- الاكتفاء بأخبار الخلفاء: من تأليف ابن الكردبوسي (توفي نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع للهجرة)، حيث كانت افادته لنا تتمثل في أنه دون الكثير من الأحداث التاريخية في المشرق والمغرب الإسلامي وبلاد الأندلس حتى منتصف القرن السادس الهجري لذلك فإن ابن

(1) المصدر نفسه، ج1، ص245.

(2) الاكتفاء، ج1، ص34، 34، 4344، 144145.

(3) نصار، عمار عبودي محمد حسن، تطور كتابة السيرة النبوية لدى المؤرخين المسلمين حتى نهاية العصر العباسي، دار الشؤون الثقافية العامة،

بغداد، 2005م، ص343348.

(4) الاكتفاء، ج1، ص96، 113، 135، 155، 212.

الكردبوسي اتبع في تدوينه على مناهج مختلفة وهي في الأصل مناهج للمؤرخين الذين سبقوه، ومن الطرق التي اتبعها في تدوين كتابه هي طريقة الحوليات¹، أي أنه أرخ للأحداث سنة بعد سنة وهذه الطريقة اعتمدها مؤرخنا، وهي طريقة لها مزايا جيدة، حيث أنها تتضمن تسلسل الترتيب الزمني للأحداث، إضافة إلى الطريقة الأخرى المتمثلة في اعتماد تسلسل العهود، أي تدوين الأحداث خليفة بعد خليفة فقد نظر ابن الكردبوسي في كل المناهج السابقة، ورأى أن بعضها يكمل بعضها، وحتى يصبح كتابه هذا من اجمع الكتب التي تناولت تاريخ الاسلام².

7-الجمان في أخبار الزمان: لأبي عبد الله الشطبي(ت963هـ)، لم تسعنا كتب التراجم بأخبار شافية ومفصلة عن شخصية الشطبي، ولولا كثرة مؤلفاته التي تقف شاهدة عليه لعفا الزمان عنه ذكره ولأصبح نسيا منسيا.

يتضمن مؤلفه ثلاثة فصول كفصل من بدء الدنيا إلى مولد رسول الله، وقسم ظهوره إلى وفاته، وتطرق في الفصل الثالث إلى حياة الخلفاء الراشدين وبيعة أبي بكر، وسيرة عمر وعثمان وعلي، وتاريخ الأمويين والعباسيين، وذيل هذا الفصل بنبذة عن فضائل الأندلس ودخول المولى ادريس إلى المغرب، وأعطى لمحة مختصرة عن المرابطين والموحدين.

وأول ما يلفت النظر في مؤلفات الشطبي أنها مازالت مخطوطة مكونة في رفوف الخزائن العامة والخاصة، والسمة الغالبة في كتبه تتمثل في التلخيص والتقريب، وولوع صاحبها بالقصص وخاصة حكايات الزهاد ومناقبهم، والشطبي التزم بحق وإلى حد كبير بما ذكره في خطب كتبه وسار على منهج واحد هو تلخيص آراء السابقين وتقديمها على أحسن وجوه الترتيب والتبويب، جاعلاً لأولئك فضل السبق والتفوق، وللمتأخرين ميزة الانتقاء والاختيار³.

⁽¹⁾ تاريخ الحولي: وهو أحد المناهج التي اتبعها بعض المؤرخين المسلمين نذكر منهم: محمد ابن جرير الطبري في كتابه الرسل والملوك، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.

⁽²⁾ ابن الكردبوسي، الاكتفاء، مقدمة المحقق، ج1، ص88.

⁽³⁾ محمد بوطوش، "من أعلام التصوف الغربي أبو عبد الله الشطبي ت963هـ"، مجلة الأحياء، العدد15.

8-نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب: لأبي العباس المقرئ (ت1041هـ-1631م)، وهو تاريخ موسوعي تراجمي أدبي، أرخ فيه صاحبه لبلاد الأندلس وجغرافيتها، وأخبار علمائها وأمرائها وأدباءها، مع الامعان في اخبار الأدباء، وذكر طرف من آدابهم، وهذا في جزئه الأول الذي جعله مدخلا لجزئه الثاني مقصودة الأول الذي جعله ترجمة يسرية أدبية للوزير لسان الدين ابن الخطيب السلماني الذي ابتدأه به وسماه: "عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب".

وقد أفادنا هذا التأليف من خلال ما جمعناه من نثف المادة التاريخية الحياتية التي حوا نصيبا وافرا منها، وبخاصة فيما يتعلق بمادة الأجزاء الأولى من كتاب المقتبس المفقودة، رازية مهمة أفادتنا في بعض جوانب المعارضة بين المادتين في الكتابين فضلا عن بعض المسائل المطروحة حول شخص ابن حيان وأخبار عصره.

وهكذا-يبدو- من خلال الاستعراض السابق لأبرز المؤرخين المسلمين في المغرب والاندلس الذين برزت مؤلفاتهم وتدويناتهم التاريخية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، تظهر مكانة كتاب "البيان المغرب" الذي ألف في نفس الفترة الزمنية ومن خلال تتبع مؤلفات المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ المغرب والأندلس نلاحظ أنه لم يوجد كتب عن تاريخها لسنوات طويلة قبل ابن عذارى، ومما يميز كتاب "البيان المغرب" الذي نحن بصدد دراسته أنه حاول جمع أخبار المغرب والاندلس منذ الفتح حتى عصره أي على امتداد سبعة قرون متواصلة، ثم جاء بعده مؤرخون أمثال ابن خلدون وغيره ساروا على نهجه واعتمدوا على "البيان المغرب" وأصبحوا عالة عليه.

فكل من ألف في تاريخ المغرب والأندلس بعد ابن عذارى أصبح محتما أو لزاما عليه الرجوع إليه، فكان كتابه مصدرا هاما من بين المؤلفات التي أرخت للتاريخ المغربي والأندلسي ومصدرا أساسيا لمن جاء بعده ممن كتب في تاريخ الإقليمين.

ثالثا- القيمة التاريخية لكتاب البيان المغرب:

أ-التعريف بكتاب البيان المغرب (مخطوطاته، طبعاته، ترجماته، محتوى الكتاب):

اشتهر ابن عذارى بكتابه البيان المغرب في (تلخيص) أخبار الأندلس والمغرب الذي يعد من أشمل الكتب التاريخية التي وصلتنا عن تاريخ شمال إفريقيا والأندلس. وعلى الرغم من تأخر زمن تأليف هذا الكتاب [أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة]، فإنه يتضمن أخبارا كثيرة، وروايات نادرة، تجعله يرقى إلى مرتبة الأصول الأولى التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة تاريخ المغرب والأندلس. وذلك لاعتماده على الموارد القديمة المعاصرة، أو القرية من الأحداث التاريخية التي يتناولها في كتابه. وما يزيد من قيمة هذه الاقتباسات، أن أصولها فقدت، ولم يعد بإمكان الباحثين مراجعتها، إلا من خلال الكتاب المذكور. ولهذا سنخصص المبحث الثالث من الفصل الأول من هذه الرسالة للتعرف الى مخطوطات الكتاب وطبعاته وأهم الترجمات مع إعطاء تفاصيل حول مضمون الكتاب.

أ-1 مخطوطات كتاب البيان المغرب:

على الرغم من الأهمية الكبرى لكتاب البيان المغرب لابن عذارى في إثراء تاريخ بلاد المغرب والأندلس فإن نسخ الكتاب ظلت مبعثرة مفرقة مجهولة طيلة قرون من الزمن. ومنذ ذلك الحين ظل الباحثون المختصون في تاريخ المغرب والأندلس من مستشرقين وغيرهم يكتشفون من الكتاب قطعاً وأجزاء مما جعل الكتاب اليوم تاماً مطبوعاً محققاً بين أيدي طلاب العلم¹.

وبعد أكثر من قرن ونصف من البحث أمكن أن يتعرف الباحثون على جملة من المخطوطات المختلفة الحجم والأهمية وأرى من الواجب المفيد أن أذكر بها مرتبة على الترتيب

⁽¹⁾ لقد استفدت كثيراً من الفصل الأول من الرسالة من أطروحة الدكتور عبد الله بن محمد بن علي بن حيدر التي عنوانها: "كتاب البيان المغرب لابن عذارى ومنهجه التاريخي، نوقشت في جامعة أم القرى بالسعودية. وللعلم أن هذا الأخير تحصل على إذن الاستفادة من رسالة إميل أفريكو التي عنوانها: ابن عذارى المراكشي: إحصاء لاهتمامات الباحثين بكتاب البيان المغرب طيلة قرن ونصف نوقشت في جامعة ليون بفرنسا، والذي تعذر علينا الوصول إليه أو الحصول على عنوانه رغم المحاولات المتكررة.

الزمي لاكتشافها متناولا أماكن تواجدها وأرقامها حسب ذكر كل محقق دون التطرق إلى القياسات، ولا وصف خطها أ أي أشياء تتعلق بالمخطوطة.

مخطوط ليدن: هو المخطوط رقم 67 المحفوظ بالمكتبة الجامعية بليدن.

مخطوطة كوبنهاغن: هو المخطوط رقم 76 في المكتبة الملكية بكوبنهاغن بالدنمارك
Royale of copenhagen bibliothèque

مخطوطة مدريد: هو المخطوط رقم 5351 بالمكتبة الوطنية بمدريد.

مخطوطة الشيخ الكتاني: في سنة 1341هـ/1922م اكتشف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني في مكتبته الخاصة بفاس قطعة من كتاب البيان المغرب لابن عذارى وسلمها الى المستشرق ليفي بروفنسال.

قطعة من البيان المغرب: هي قطعة صغيرة من الكتاب حفظت بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 784.

مجموعتان من الأوراق المختلطة:

المجموعة الأولى: محفوظة بمكتبة القرويين بفاس تحت رقم 1272هـ/1855م.

المجموعة الثانية: وهي مجموعة أوراق كالسابقة¹.

مخطوطة باريس: هو ليس محفوظا في مكتبة عامة بباريس وإنما مشتره الأخير كان سيسكن مدينة باريس. ولذلك عرف في دراسات المستشرقين باسم مخطوط باريس²

مخطوط لندن: هي نسخة محفوظة بالمتحف البريطاني³

مخطوط تاجروث: محفوظ بالخزانة العامة بالرباط برقم 200ق.⁴

⁽¹⁾ ينظر إلى علي بن حيدر ص38 نقلا عن اميل فريكو.

⁽²⁾ مقدمة الجزء الأخير من البيان المغرب (قسم الموحدين)، طدار الغرب الإسلامي، ص78.

⁽³⁾ وهذا ما ذكره ميرندا في مقدمة تحقيق الجزء الثالث من كتاب البيان ص78، من طبعة تيطوان سنة1958.

⁽⁴⁾ ذكره ميرندا في بحثه الذي نشره في مجلة الأندلس رقم 24 سنة1959م من ص6384، بالإضافة الى ما كتبه ميرندا نفسه في مقدمة طبعة

للجزء الثالث من كتاب البيان المغرب الصادرة بتيطوان ص9؛ وينظر: الى مقدمة المحققين للجزء الأخير (قسم الموحدين) من كتاب البيان المغرب طبعة دار الغرب الإسلامي، ص5.

ورقتان من كتاب البيان المغرب: محفوظتان في مكتبة القرويين بدون رقم.

سبع مخطوطات في الخزانة الملكية بالرباط: ذكرها جميعا الأستاذ محمد عبد الله عنان في
فهارس الخزانة الملكية قسم التاريخ من ص 80-82.

المخطوط رقم: 334، المخطوط رقم 10301، المخطوط رقم 2150، المخطوط رقم 336،
المخطوط رقم 6158¹، المخطوط رقم 777، المخطوط رقم 5212.

الورقات الأخيرة في كتاب البيان المغرب:

عثر عليها في مكتبة القصر الملكي بالرباط كما ذكر الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني،
فحققها ونشرها في تيطوان²

فهذه هي النسخ المخطوطة التي عرفت من كتاب البيان المغرب بعد أكثر من قرن ونصف
من البحث اشترك فيه كثير من اهل الاختصاص في تاريخ المغرب والأندلس.

ولعله من المفيد أن أعرض ملاحظة والتي ظهرت لي بعد النظر في قائمة مخطوطات كتاب
البيان المغرب المذكورة سابقا.

فمن الملاحظ أن جميع مخطوطات كتاب البيان المغرب مغربية الأصل كتبت لافي المغرب
الأقصى بخط مغربي أو أندلسي.

كما تأكدنا أيضا أن المستشرقين يطلقون على أغلب المخطوطات أسماء مدتهم الأوروبية،
فهناك مخطوط ليدن ومخطوطة كوبنهاغن، ومخطوطة مدريد، ومخطوطة باريس، ومخطوطة لندن.

أ-2- طبعات كتاب البيان المغرب:

نظرا للقيمة التاريخية لكتاب البيان المغرب لابن عذارى في تاريخ الجناح الغربي من العالم
الإسلامي، فقد اهتم الباحثون والمحققون بتحقيقه وطبعه ونشره بين الناس ليكون من أهم
مصادر البحث.

(1) وكذلك هذه النسخة، فإن محمد إبراهيم الكتاني لم يذكرها في بحثه المذكور في مجلة تيطوان العدد 9 سنة 1964م، ص 167171.

(2) مجلة تيطوان، العدد 10، سنة 1965م، ص ص 237244.

فعل أول طبعاته كانت في حدود سنة 1265هـ/1848م، وآخرها سنة 1406هـ/1988م، حيث كان الباحثون يحققون ويطبعون ما توفر لديهم من اجزائه المتفرقة التي لم تظهر مخطوطاتها في وقت واحد، وإنما كان ظهور هذه الأجزاء المخطوطة ظهوراً متفرقاً يمتد على مدة تقارب القرن والنصف من الزمن.

واللافت أنه عند ذكرنا لمخطوطات الكتاب للتعريف بها، تبين مباشرة السبب في عدم ظهور الكتاب في طبعة واحدة جامعة لكل نصوصه واجزائه.

فإن أول طبعة لكتاب البيان المغرب هي تلك التي قام بها المستشرق دوزي ونشرها بريل، الذي كان الطابع لبحوث الجامعة الهولندية، حيث حققها دوزي اعتماداً على مخطوطة ليدن رقم 67، وأضاف عليها نصوصاً من مختصر عربي لتاريخ الطبري.¹

طبعها بعنوان: [Histoire de l'Afrique et de l'Espagne تاريخ افريقيا واسبانيا]

ووضع دوزي لطبعته هذه مقدمة اشتملت على دراسة مستفيضة في قرابة المائة صفحة باللغة الفرنسية، وعلق على النص بهوامش علمية هامة ثم ألحقها بكشاف² صدرت الطبعة في جزأين: الجزء الأول: يتناول أخبار الدولة الإسلامية في المغرب من سنة 20هـ إلى سنة 602هـ.

الجزء الثاني: يتناول أخبار الدولة الإسلامية في الأندلس من سنة 27هـ إلى سنة 387هـ.

- وفي سنة 1917 نشر المستشرق ميراندا قطعة هامة من كتاب البيان المغرب اعتماداً على مخطوطة مدريد، طبعت في مائة وثمانية وستين صفحة بمدينة بلنسية بإسبانيا سنة 1336هـ/1917م من صفحة 01 إلى صفحة 168.

- وفي سنة 1930م طبع المستشرق ليفي بروفنسال الجزء الثالث من كتاب بتحقيقه تحت عنوان "البيان المغرب"، وذلك في باريس، نشره جوتتر، اعتمد فيه على مخطوطة الشيخ

⁽¹⁾ هو عربي بن سعد القرطي (ت369هـ/980م)، مؤرخ أندلسي اختصر تاريخ الطبري، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس؛ ينظر: بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 206207.

⁽²⁾ لم تتمكن من الرجوع إلى هذه الطبعة، وهذا يعود إلى ندرتها، وعدم وجود نسخ منها في المكتبات التي حاولنا التواصل معها عن طريق الوسائل الحديثة مثل: القاهرة، تونس، المغرب.

محمد عبد الله الكتاني التي تحتوي على اخبار الأندلس من سنة 393هـ/1003م الى سنة 460هـ/1068م.

- وفي سنة 1365 هـ/1948م، صدر الجزء الأول من الكتاب في طبعة جديدة، والجزء الثاني في سنة 1371هـ/1951م، اعتمادا على طبعة دوزي بتحقيق المستشرقين كولان وبروفنسال وتمت طباعتهما بمطبعة ليدن عن مؤسسة بريل brill.

- وفي سنة 1370هـ/1950م صدر جزآن من كتاب البيان المغرب عن دار صادر بلبنان، وهي طبعة منقولة حرفيا عن طبعة دوزي دون ذكر المحقق، وقد وصفها الباحثون من اهل الاختصاص بأنها طبعة تجارية سقيمة¹.

- وفي سنة 1376هـ/1956م ظهرت اول طبعة للقسم الخاص بالموحدين من كتاب البيان المغرب وذلك بتحقيق المستشرق ميراندا، طبعته المطبعة الحسنية بتيطوان.

- وفي سنة 1381هـ/1961م أصدر ميرندا النص العربي للقسم الخاص بالموحدين من كتاب البيان المغرب وذلك بمجلة هسبريس تمودا في قرابة السبعين صفحة، العدد الثاني، السنة 1961م، من ص 43 الى ص 111.

- وفي سنة 1383هـ/1963م صدرت الطبعة الثانية للقسم الخاص بالموحدين، وقد أعاد تحقيقه ميرندا بالتعاون مع الاستاذين محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، ونشرته كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بتيطوان. فأصلحت هذه الطبعة أخطاء الطبعة السابقة، بحيث اعتمدت على النسخة التي عثر عليها آنذاك في مكتبة الزاوية الناصرية بتمجروت.

- وفي سنة 1387هـ/1967م صدرت طبعة جديدة في أجزاء أربعة من كتاب البيا المغرب، نشرته دار الثقافة في بيروت، وهذه الأجزاء الأربعة هي:

⁽¹⁾ من بينهم احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني في ثبت المصادر والمراجع الذي وضعناه لكتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب، ص284285، طبعة الدار البيضاء، سنة1964م.

الجزء الأول: مصور عن الجزء الأول الذي حققه كولان وبروفنسال وصدر سنة 1368هـ/1948م بمطبعة بريل بهولندا.

الجزء الثاني: مصور عن الجزء الثاني الذي حققه كولان وبروفنسال وصدر سنة 1371هـ/1951م في بريل.

الجزء الثالث: مصور عن الجزء الذي حققه ونشره بروفنسال وحده، وطبعه في باريس سنة 1349هـ/1930م، فكان ينبغي أن ترتب طبعات الكتاب من أول طبعة الى آخر طبعة.

الجزء الرابع: طبع بتحقيق الدكتور احسان عباس¹، وهو الجزء المتعلق بتاريخ المرابطين، وهو النص الذي كان حققه ميرندا ونشره في مجلة هسبريس تمودا سنة 1961م.

الجزء الخامس: في سنة 1985/1406م، صدرت الطبعة الثالثة للقسم الموحدى من كتاب البيان المغرب، بتحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، ونشر بالاشتراك بين دار الغرب الإسلامي ببلنار ودار الثقافة بالمغرب².

أما آخر تحقيق لهذا الكتاب لحد اعداد هذا البحث هو تحقيق: بشار عواد معروف وابنه محمود بشار عواد معروف الذي استدرك فيه ما حصل من نقص واخطاء التي جاءت في بقية الطبعات والذي وضع له العنوان الذي وضعه عليه مؤلفه: [البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب]³ للمؤرخ المغربي المراكشي أبي العباس أحمد بن محمد ابن عذارى المتوفى بعد

⁽¹⁾ نشر د. احسان عباس خمسة ملحقات هامة في تاريخ الأندلس في نفس الفترة بمؤلفين مختلفين غير ابن عذارى، وقد استبعدت هذه الملحقات نظرا الى انها ليست من تأليف ابن عذارى موضع الرسالة.

⁽²⁾ وقد استعملت هذا الجزء باسم الجزء الخامس وذلك لتمييزه عن بقية الأجزاء، والملاحظ أنه لم يذكر في طبعات قسم الموحدين تعيين للجزء، بل عرف أنه الجزء الخاص بالموحدين.

⁽³⁾ يؤكد المحقق بشار عواد معروف أن هذا هو العنوان الصحيح الذي نص عليه المؤلف في المقدمة التي كتبها لكتابه واتفقت عليه النسخ، ومن ثم فإن الاعتماد على ما ورد في عناوين المخطوطات لا قيمة له.

سنة 712هـ وهو التاريخ الذي ألف فيه هذا الكتاب¹، والذي لم نقف على ترجمة له سوى ما ورد من معلومات نزره عنه في هذا الكتاب².

ويضيف المحقق ان ابن عداري قد جعل كتابه هذا في ثلاثة أجزاء، تناول في الجزء الأول تاريخ شمال افريقية منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى ظهور المرابطين والموحدين، وخصص الجزء الثاني لأخبار الأندلس منذ فتحها، وعصر الولاة، ثم العصر الأموي، وقيام الدولة العامرية، فظهور ملوك الطوائف وحتى دخول المرابطين الى الأندلس سنة 478هـ³.

أما الجزء الثالث فهو عودة إلى تاريخ المغرب إذ أتى فيه على أخبار الدولة المرابطية اللمتونية وما كان من شأنها في المغرب والأندلس، ثم أخبار الدولة الموحدية وما عاصرها من أخبار اليهوديين والحفصيين والنصريين، ثم الدولة المرينية وانتصارها واستيلائها على مراكش في أواخر سنة 667هـ.

كما يضيف-أيضا- أنه وصل إلينا أكثر من هذا الذي ذكره المؤلف من أجزاء الكتاب، فنشر المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الجزء الأول وقسما من الجزء الثاني الخاص بالأندلس الى سنة 387هـ، وذلك في السنوات 1848-1851م معتمدا مخطوطة في ليدن محفوظة في الرقم (67)، وطبع الجزأين بمدينة ليدن، وكتب له مقدمة مفصلة بالفرنسية، ولكنه خلط النص بنصوص كثيرة من كتاب "صلة تاريخ الطبري" لعريب بن سعيد القرطبي، فأساء الى الكتاب إساءة بالغة في الوقت الذي سعى فيه جاهدا الى تقديم مادة أكثر دسامة وتفصيلا، ولكن هذا في علم تحقيق النصوص مما لا يجوز فعله.

(1) يشير المحقق الى أن ما ملح اليه ابن عداري، أي هذا التاريخ، وهو يتكلم عن أولاد المرتضى الموحدي. ينظر: بشار عواد معروف، المجلد 3، ص585.

(2) يميلنا المحقق الى الدراسة الماتعة للدكتور عبد الواحد ذنون طه الموصلي عن ابن عداري وكتابه "البيان المغرب" والتي عنوانها: "ابن عداري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي"، كان قد نشر أكثرها ... في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم أعاد النظر فيها ونشرها بكتاب مستقل (بيروت، دار المدار الإسلامي 2004م).

(3) يؤكد المحقق على ان الذي وصل إلينا منه إلى سنة 460هـ، فبقي القيم المتضمن للسنوات 460-478هـ ينظر: مقدمة المحقق، المجلد 1، ص5.

ثم قام كل من كولان وليفي بروفنسال في إعادة نشر هذين الجزأين في ليدن في السنوات 1948-1951م، ولكنهما للأسف أبقيا على الزيادات التي أقحمها دوزي في النص من كتاب عريب القرطي، ولا ندري-يقول المحقق-كيف سوغا هذا الصنيع المخالف لمناهج البحث العلمي وتحقيق النصوص.

ونشر ليفي بروفنسال النص الخاص بدول الطوائف في الأندلس في باريس سنة 1930م على أنه الجزء الثالث من "البيان المغرب"، وزاد في آخره قطعة مجهولة المؤلف مبتورة الطرفين، فجاء الجزء من 368 صفحة من ضمنها الفهارس.

وعشر ليفي بروفنسال على قطعة خاصة بعصر المرابطين في المغرب والأندلس في خزانة جامع القرويين بفاس تنتهي في أوائل سنة 541هـ، ونشر منها القسم الخاص باستيلاء السيد الكبيوطور على بلنسية، ثم قام الأستاذ هويسي ميرندا بنشر سائرهما في مجلة هيسبريس سنة 1960م والمخطوطة التي وقف عليها بروفنسال قد احتجتها ولم يعدها ولا يعلم اليوم أي خير عنها. ثم أعاد نشر هذه القطعة-كما يؤكد محققنا-العلامة الأستاذ احسان عباس يرحمه الله في دار الثقافة استنادا الى نشره ميرندا، وعلق عليها بعض تعليقات مفيدة أفادنا منها، كما أصلح بعض أخطائها ولم يكن بوسع غير ذلك-يشير المحقق-بعد ضياع الأصل الذي نشر عليه ميرندا ما نشره، وكانت دار الثقافة في بيروت قد أعادت طبع الأجزاء الثلاثة التي نشرها كولان وبروفنسال في ثلاثة أجزاء بالتصوير.

وفي سنة 1960م ظهر الجزء الخاص بالموحدين بتيطوان بتحقيق هويسي ميرندا ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد بن إبراهيم الكتاني¹.

⁽¹⁾ كما ورد في المقدمة التي كتبها بشار عواد معروف، وجعلها في أول طبعته لكتاب البيان، ص5 وما بعدها.

واكتشف الأستاذ عبد القادر زمامة قطعة من تاريخ الموحدين تشمل على (26) صفحة لم ترد في طبعة تيطوان سنة 1960م نشرها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية سنة 1980م ثم أعاد نشرها في مجلة كلية الآداب والعلوم بفاس سنة 1980-1981 (العددان 4 و5).

وفي سنة 1985 ظهر الجزء الكامل الخاص بالموحدين، وقد أضيفت إليه القطع الجديدة التي عثر عليها وكتب على غلافها انها من تحقيق: محمد بن إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر، وعبد القادر زمامة، وكان جل اعتمادهم على نشرة ميرندا.

وهكذا يتضح- كما يشير المحقق- أن الكتاب يكاد يكون كاملا لولا ما اعتوره من نقص يسير، الأول في الجزء الثاني، حيث لم تصل إلينا السنوات 460-478هـ، وهو القسم الخاص بالأندلس، والثاني أوائل القطعة المتعلقة بالمرابطين، وهي التي نشرها ميرندا ثم أعاد نشرها العلامة احسان عباس- يرحمه الله-.

أما نحن- يقول المحقق- فقد قسمنا الكتاب كما قسمه مؤلفه ابن عذارى الى ثلاثة أجزاء، إذ لا معنى لكل التقسيمات السابقة، ولا سيما بعد وقوفنا على مخطوطات جديدة من الكتاب أتحفنا بها صديقنا العلامة الأستاذ بشير البكوش، وصديقنا الأستاذ المحقق العالم أحمد بنين جزاهما الله خيرا.

وقد أعدنا- يشير المحقق- مقابلة النص بالمخطوطات الكثيرة التي توفرت عندنا، وأثبتنا الاختلافات ورجحنا القراءة الصحيحة التي رأيناها مناسبة، فضلا عن الإحالة على الموارد التي اقتبس منها مؤلف الكتاب مما وقفنا عليه ومما استطعنا الى ذلك سبيلا.

ثم كان من أهم وكدنا تخلص النص من الزيادات التي أقحمها دوزي في نص "البيان المغرب" وقد قاسينا من أجل ذلك الكثير، ذلك أن دوزي كان يتصرف في النص تصرفا عجيبا، وكأنه يؤلف تاريخا جديدا.

وضبطنا ما يشكل من النص بالشكل ليقرأ قراءة سليمة، وبالضبط إنما يقوم على دعامتين رئيسيتين اولاهما: حسن قراءة المخطوطات والإدمان على خطوطها وأساليب رسمها، وثانيهما: المعرفة بموضوع الكتاب، أما الأسماء فهي من أولى الأشياء بالضبط، فإنه شيء لا يدخله القياس ولا سيما في الأسماء الأعجمية؛ الإسبانية والامازيغية التي ترسم بأشكال متنوعة، وقد استعنا بخبرتنا-يقول المحقق-وبكل وسيلة لإتقان هذا الضبط؛ إيماننا بأن نشر مثل هذه النصوص من غير ضبط مخالف لأصول التحقيق الدقيق الذي نسعى من اجل الوصول إليه¹.

ولا أراني بحاجة إلى ذكر منهجي في التحقيق، يقول المحقق أنه مدون في كتي المؤلف في هذا الشأن، وفي المقدمات التي كتبتها لعشرات الكتب التي عنيت بتحقيقها.

وقد شاركني في تحقيق هذا الكتاب كما يؤكد المحقق ولدي المؤرخ البارع الأستاذ محمد بشار عواد الذي تشرب هذا العلم، فبرع فيه وأجاد، فكان أكثر الحمل عليه، وفي مقابلة النسخ الخطية الذي صار من اميز المحققين في قراءة الخطوط المغربية والأندلسية العسيرة، وفي الإشارة إلى مناجم النصوص والمقابلة بينها.

ولست في هذه المقدمة الوجيزة-كما يضيف المحقق- في معرض انتقاد ما نشر في هذا الكتاب، فقد أشرت إلى إساءة دوزي بإقحام نصوص من كتاب عريب القرطي وإدخالها في نص "البيان المغرب" مما أربك النص الأصلي الذي كتبه ابن عذارى، ثم إبقاء كولان وبروفنسال هذه الإساءة على حالها، لعله ظنا منهم أنهم يصنعون خيرا للدراسات المغاربية والأندلسية، فضلا عن قراءات معوجة لكثير من النصوص، ولا سيما عند انعدام النسخ الخطية المتقنة، وقياسهم بالنشر يومئذ على نسخ فريدة، فضلا عن عجمتهم التي أدت في كثير من الأحيان إلى قراءات غير دقيقة، استدرك بروفنسال بعضها مما يتصل بالجزء الثالث المنشور في باريس سنة 1930م فاستدرك الكثير منها.

¹كما ورد في المقدمة التي كتبها بشار عواد معروف، ص6 وما بعدها.

ومع ذلك فإن مثل هؤلاء- كما يشير المحقق- يستحقون كل تقدير وثناء لما قاموا به من جهود محمودة لنشر التراث العربي الإسلامي في وقت كانت فيه الأمة العربية في سبات عميق وجهل مدقع، إذ كانوا روادا لنشر أمهات الكتب التراثية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

إنما العتب- كما يضيف المحقق- على أبناء هذه الأمة التي كان أكثر تحقيقاتها لا يتعدى في كثير من الأحيان اجترار هذه الاعمال وإعادة نشرها من غير تحقيق دقيق ومقابلة صحيحة بأصول المخطوطات.

ومن ذلك القسم الخاص بالموحدين التي وضعت على غلافه أسماء لامعة في الدراسات المغاربية فإنه لم يكن بالمتزلة التي عرفت عن هذه الأسماء، فالقراءات غير دقيقة في كثير من الأحيان.

وكنت حريصا- يقول المحقق- على بيان ما وقع من تصحيف وتحريف وسقط في هذا الجزء المهم من الكتاب¹.

ثم توقفت عن ذلك برهة لم تتجاوز المئة صفحة لعدم إحالة ذلك على سبب من الأسباب سوى متابعة نشره هويسي ميرندا السقيمة، فالسقط كثير قد تجاوز الحد المعقول، والتحريف والتصحيف يكثر في كل صفحة، وربما تركوا نص المخطوطات وراحوا ينقلون من المصدر الذي ينقل منه المؤلف، كما في كثير من النصوص المنقولة من كتاب "المن بالإمامة"، وهو أمر غريب عجيب في تحقيق النصوص لم نعهده عند أحد قبلهم².

وبعد النظر في طبعات كتاب البيان المغرب يتبين لنا ان الكتاب وجد عناية فائقة من المستشرقين على اختلاف جنسياتهم من دوزي الهولندي وكولان وبروفنسال الفرنسيان، وميرندا الاسباني، فقد طبعوه كاملا في أجزاء أو أقسام خمسة بداية من سنة 1265هـ/1848م

⁽¹⁾ كما وردت في المقدمة التي كتبها المحقق، ص7 وما بعدها.

⁽²⁾ كما وردت في المقدمة التي كتبها المحقق، ص7 وما بعدها.

إلى سنة 1381هـ/1961م، وظلت الأجزاء الثلاثة الأولى هي نفس الطبقات القديمة بخيرها وشرها، في حين ان القسم الخاص بالمرابطين أعاد تحقيقه الدكتور حسين مؤنس سنة 1384هـ/1964م، والقسم الخاص بالموحدين أعاد تحقيقه نخبة من خيار الباحثين والمحققين من اهل المغرب سنة 1406هـ/1985م اعتمادا على مخطوطات حديثة الظهور.

كما يمكن ان نلاحظ بأن الأجزاء الثلاثة الأولى المطبوعة والمتوافرة بين أيدي الباحثين هي قد تم تحقيقها وطبعها في السنوات 1349، 1368، 1371هـ/1930، 1948، 1951م.

في حين نجد المخطوطات التي اكتشفت لهذا الكتاب بعد ظهور هذه الطبقات كثيرة جدا تشمل على إضافات وإصلاحات هامة جدا وخاصة المخطوطات أو النسخ الخطية التي عثر عليها في الخزانة الملكية بالرباط والورقات التي اكتشفها الباحثان محمد إبراهيم الكتاني وعبد القادر زمامة.

فهل من الطبيعي ان يبقى الباحثون يعتمدون هذه الطبقات القديمة التي حققت قديما من طرف مستشرقين لم تكن العربية لغتهم ولم تعرف من العلماء من تتبع هذه التحقيقات بالمقابلة والنقد والتدقيق؟

وهذا ما جعلنا نعبر عن آمالنا -في مرحلة التدرج-والعام النظري من مرحلة ما بعد التدرج أن يقيض الله جماعة من المحققين من أصحاب الاختصاص في تاريخ المغرب والأندلس حتى يجمعوا مخطوطات هذا الكتاب ويعيدوا تحقيقه بعد مقابلة مختلف النسخ ويطلع بهوامش علمية مفيدة وفهارس دقيقة ليكون مصدرا صالحا يثري الدراسات الأندلسية والمغربية.

ولابد لنا ان ننوه بفضل المحقق بشار عواد معروف الذي كان السبب في تحقيق آمالنا وطموحاتنا التي نأمل أن تسر كل محب لتراث الأمة حريص عليه، وبعد مخاض عسير صور لنا هذا المحقق إشراقة جديدة وأتفنا بما طبع من الكتاب وما قدمه من اقتراحات لتحقيق الكتاب دلت على فهم عميق ودراية بالتراث المغربي. كما لا ننسى أن نشي على كل من كان له

الفضل في دفع هذا المحقق إلى جمع ونشر التراث العربي الإسلامي في وقت كانت فيه الأمة العربية في سبات عميق، إذ كانوا بلا شك روادا لنشر أمهات الكتب التراثية في مطلع القرن الحادي والعشرين في أحسن صورة.

أ-3- ترجمات كتاب البيان المغرب إلى اللغات الأجنبية:

مما لا شك فيه أن نصوص كتاب البيان المغرب قد ظلت من إحدى المصادر الرئيسية لدراسات المستشرقين التي تناولت تاريخ المغرب والأندلس، فلذلك بذلوا جهودهم في ترجمة أجزاء وأقسام عديدة منه إلى لغاتهم، فكانت أهم هذه التراجم الجزئية عبر لغات عدة وهي كالتالي:

- ترجمة الكتاب إلى اللغة الإسبانية: إن أول ترجمة للكتاب كانت في سنة 1277هـ/1860م من قبل المستشرق غونزاليز فيرنانديز Gonzalez Fernandez والذي ترجم قطعة من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الإسبانية تحت عنوان: [تاريخ الأندلس لابن عذارى المراكشي، ترجمة مباشرة من اللغة العربية ونشر النص المترجم مع هوامش ودراسة نقدية] Historias de Al- andalus [...]

طبع بغرناطة في 335 صفحة.

- وفي سنة 1336هـ/1917م ترجم هويسبي ميرندا إلى اللغة الإسبانية قطعة من كتاب البيان المغرب متناولة تاريخ الموحدين، ظانا منه أنها من كتاب تاريخ مجهول المؤلف بعنوان: Elanonimo de madrid، طبع في بلنسية في 203 صفحة¹.

- وفي سنة 1369هـ/1949م ترجم المستشرق سانثيز ألبرنس عشرين صفحة من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الإسبانية ونشرها في مجلة علمية صدرت في بيونس أيرس بالأرجنتين².

(1) عبد الله محمد حيدر، "كتاب البيان المغرب لابن عذارى ومنهجه التاريخي"، رسالة دكتوراه، ص49.

(2) عبد الله محمد حيدر، "كتاب البيان المغرب لابن عذارى ومنهجه التاريخي"، رسالة دكتوراه، ص49.

- وفي سنة 1372هـ/1952م ترجم ميرندا إلى اللغة الإسبانية بعض النصوص القصيرة من كتاب البيان المغرب ضمن مجموعة دراساته التي نشرها في مجلتي "الأندلس" و"هيسبريس"¹.
 - وفي سنة 1373 و1374هـ/1953 و1954م ترجم ميرندا الجزء الأول ثم الجزء الثاني من البيان المغرب إلى اللغة الإسبانية وطبعهما بتيطوان بالمغرب.
 - وفي سنة 1383هـ/1963م ترجم ميرندا القسم الخاص بالموحدين من كتاب البيان المغرب وطبعه في بلنسية تحت عنوان: "نصوص من القرون الوسطى" « textos medivales ».
 - وفي سنة 1383هـ/1963م ترجم ميرندا قطعة من كتاب البيان المغرب متعلقة بالمرابطين والموحدين تحت عنوان:
- [Ibn Idari: Albayan: Neurosfragmentos Almoravi des yAlmohades]
- طبع في بلنسية في 488 صفحة.
- وفي سنة 1392هـ/1972م ترجم فيرناندو دي لا جرانجا الجزء الثالث من البيان المغرب، وهي ترجمة إلى اللغة الإسبانية تقع في 397 صفحة، لم تطبع لكن استفاد منها بعض الباحثين الإسبان.
 - وفي سنة 1401هـ/1980م ترجم المستشرق إميليو مولينا لوبيز قطعة صغيرة من الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الإسبانية، وهو القسم الخاص ببني صمادح بالميرية ونشرها بمجلة Andalusia Islamica بغرناطة من ص 123 إلى ص 140.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 49.

- وفي سنة 1404هـ/1983، ترجم المستشرق فيليب مايو سلغادو قطعة من الجزء الثالث من البيان المغرب إلى اللغة الإسبانية متعلقة بملوك الطوائف، وطبعها ضمن مطبوعات جامعة سلمنكا بإسبانيا.
- كما تقوم حاليا المستشرقة الإسبانية ماريّا خيسوس بيغيرا بالإعداد لترجمة الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب، حسبما وقعت الإشارة إليه في مجلة الأندلس مجلد سنة 1413هـ/1992م.¹
- إضافة إلى ما قدمته من حديث عن الترجمات إلى اللغة الإسبانية، فإن العديد من الباحثين الإسبان ترجموا الصفحة والصفحتين من نصوص كتاب البيان المغرب، ونشروها ضمن بحوثهم حول تاريخ الأندلس الإسلامية.
- الترجمات إلى اللغة الفرنسية:
- في سنة 1266هـ/1849م ترجم دوزي صفحة واحدة من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الفرنسية ونشرها ضمن كتابه [بحوث حول تاريخ آداب العرب بإسبانيا في القرون الوسطى] باللغة الفرنسية، وهو صفحة متعلقة بأخبار الجرمان (النصارى) وهجومهم على مدينتي لشبونة واشبيلية خلال سنة 220هـ/835م.
- وفي سنتي 1368-1371هـ/1848-1851م ترجم دوزي عددا من النصوص القصيرة التي نشرها ضمن بحوثه ودراساته التي صدرت له في المجالات التاريخية.
- وفيما بين سنتي 1319-1322هـ/1901-1904م ترجم المستشرق الفرنسي فانيان إلى اللغة الفرنسية كامل الجزأين الأول والثاني من كتاب البيان المغرب وطبعهما في الجزائر² في 1059 صفحة بعنوان:
- .Histoire de l'Afrique et de l'Espagne intitulée Albayan Almugrib

(1) رسالة عبد الله محمد علي حيدر، ص 51.

(2) سر كيس، معجم المطبوعات العربية، ص 172.

ويعد هذا المستشرق من بين المستشرقين المتحاملين على المسلمين وتاريخهم، إضافة إلى أن معرفته باللغة العربية تبقى محدودة، حيث كانت الترجمة غير أمينة ولا دقيقة، وقد كتب حول المستشرق الألماني شوارتز نقد طويلا وإصلاحات عديدة نشرها في مجلة
Mitteilungen des siminars fur orientalischesprachen..Zu Berlin 1907
المجلد العاشر، العدد الثاني، ص242-281.

- وفيم بين سنتي 1349-1376هـ/1930-1956م ترجم ليفي بروفنسال العديد من النصوص القصيرة من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الفرنسية، ونشرها في مختلف المجالات العلمية ضمن دراسات للتاريخ الأندلسي والمغربي، وهي كثيرة جدا لا نرى فائدة كبيرة في عرضها.
-الترجمات إلى اللغة الإنجليزية:

- في سنة 1368هـ/1948م قام المستشرق البريطاني فلتن بترجمة قسم من البيان المغرب متعلق بالموحدين إلى اللغة الإنجليزية، وهي تقع في ستين صفحة اطلع عليها بروفنسال ولم تطبع.

- وفي سنة 1399هـ/1981م ترجمت نصوص من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الإنجليزية بعناية المستشرقين Levitzion و Hipkins، ونشرت في كمبردج ضمن كتاب جامع لبعض نصوص من المصادر العربية عنوانه:¹

.Corpusof earlyarabic sources for west african history

(1)رسالة عبد الله محمد علي حيدر، ص52.

-ترجمة الكتاب إلى اللغة الإيطالية:

- في سنة 1366هـ/1946م ترجم المستشرق الإيطالي ليفي دي لافيدا نصا قصيرا من كتاب البيان المغرب إلى اللغة الإيطالية ونشره في مجلة علمية صدرت في مدينة بيونس آيرس¹.

أ-4- ترتيب خطة الكتاب ودواعي تأليفه:

تركز اهتمام ابن عذارى على اخبار الخلفاء والأئمة والأمراء في المشرق والمغرب، وكان يناظر زملاءه من العلماء الذين يشاطرونه ذات الاهتمام فعرف بشدة ولعه بهذا الموضوع، لهذا فقد طلب إليه أحد هؤلاء العلماء المقربين لديه أن يؤلف كتابا في هذا الموضوع، بالنظر إلى طول باعه، واطلاعه على الأصول الأولى التي تستند عليها هذه الأخبار.

ويشير ابن عذارى إلى هذا الأمر قائلا: [ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء بالبلاد المشرقية والمغربية، وما والاها من الأقطار، طلب بعضهم إلي، ممن يجب إكرامه علي، أن أجمع له كتابا مفردا في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار، ولازمي في طلبه مرارا، فلم يمكنني التوقف في ذلك ولا الاعتذار، وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار]²

لقد رتب ابن عذارى كتابه على وفق خطة أشار إليها في مقدمته إذ قال: [ولما كمل قيده وجرده على ثلاثة أجزاء كل جزء كتاب قائم بنفسه ليكون لمطالعه أوضح البيان، وأسهل مرام لدى العيان وسميته بالبيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب].

وحيثما نشر المستشرق الهولندي دوزي الكتاب غير العنوان فنشر الجزء الأول بعنوان: [تاريخ إفريقية الشمالية من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري] في ليدن سنة

(1) رسالة عبد الله محمد علي حيدر، ص52.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر ص12.

1265هـ/1848م، ونشر الجزء الثاني بعنوان: [تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري] أيضا بليدن سنة 1266-1268هـ/1849-1851م¹.

كما نشر الجزء الثالث بتحقيق كولان، وليفي بروفنسال بعنوان [تاريخ الأندلس من حين انقراض الدولة الأموية إلى آخر ملوك الطوائف] في باريس سنة 1349هـ/1930م وقامت دار الثقافة بإعادة طبع الأجزاء الثلاث وأضافت إليها قطعة صغيرة تتعلق بتاريخ المرابطين إلى ولاية العهد لتاشفين بن علي بتحقيق د. إحسان عباس واعتبرته جزءا رابعا². ونشرته بعنوان: [البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب].

كما نشر السفر الأخير من الكتاب وموضوعه (عصر الموحدين إلى نهاية دولتهم)، نشر بتطوان عام 1383هـ/1963م في 490ص تصديرا وفهرسا، بتحقيق الأستاذ هويثي ميرندا الإسباني ومساهمة الأستاذين: محمد بن تاويت ومحمد بن إبراهيم الكتاني³.

ونشر بعنوان: [البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب] (قسم الموحدين)⁴.

وقد قسم ابن عذارى كتابه "البيان المغرب" إلى ثلاثة أقسام، وذكر ذلك في مقدمة كتابه⁵

وهي:

الجزء الأول: قال: [اختصرت فيه أخبار إفريقية من حين الفتح الأول، في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان-رضي الله عنه-؛ ثم أخبار أمرائها من ولاة الخلفاء الأمويين، ومن دخل المغرب منهم، ومن قام بإفريقية من الصفرية والإباضية؛ ثم قام فيها بالدولة العباسية، ومن ملكها من بني

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 03.

(2) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج 1، ص 6667.

(3) محمد المنوني، نفسه، ج 1، ص 67.

(4) ومن الإضافات الجديدة لكتاب البيان المغرب نص نشره الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني بعنوان 'العثور على الورقات الأخيرة من البيان المغرب لابن عذارى المراكشي'، مجلة تيطوان، العدد 10، ص 237244، ونص ثان نشره الأستاذ عبد القادر زمامة بعنوان 'اكتشاف نص جديد من كتاب البيان المغرب في اختصار أخبار وملوك الأندلس والمغرب يتعلق بتاريخ الموحدين'، مجلة العهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 20، ص 77102؛ ينظر: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج 1، ص 67.

(5) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 1، ص 35.

الأغلب وأخبار بني عبيد الشيعة؛ وأخبار زناته والصنهاجيين وغيرهم، وكل ما اشتهر من امرهم، إلى حين انتقال العبيدية إلى البلاد المصرية، واستخلافهم صنهاجة على إفريقية، ثم خلع صنهاجة لهم، واستيلائهم على إفريقية، ونذكر فتنة العرب وأسبابها، ودخولهم إلى القيروان وخرايها، وتنقل أمراء صنهاجة إلى المهديّة، ومن ملكها منهم، وما اشتهر في ذلك من الأخبار عنهم من ملوك المناديين، والحماديين، على حين ظهور الموحدين، ولخصت في ذلك كله أخبار أمراء البلاد الغربية، ومن دخلها من أخبار الدولة العبيدية، وذكرت أخبار المدراريين السجلماسيين، والأمراء الإدريسيين وأخبار البرغواطيين والزناتيين، ومن ملك فاسا من زناته المغراويين، ومن ولاية الخلفاء الأندلسيين الأمويين، على أن أخبار المغرب الأقصى أكثر من أن تحصى؛ لكنني نسقتها نسق الأسلاك وسقت من كان فيه على الولاء من الأملاك من حين فتحه الأول إلى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطية].

الجزء الثاني: [اقتصرت فيه أخبار جزيرة الأندلس، وأملاكها الغابرين الدرر، من حين الفتح الأول، ثم وليها من الأمراء للخلفاء الأمويين بالمشرق؛ ثم من قام بها من العرب الفهريين، على حين دخول الخلفاء الأمويين في ابتداء أمرهم، ومن قام عليهم من الثوار الأندلسيين. وذكرت بعض أخبارهم وآثارهم في غزواتهم وحركاتهم، إلى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجاجهم العامريين وماآثرهم إلى حين انقضاء الدولة العامرية، وقيام الفتنة البربرية. وذكرت فيه أخبار ملوك الطوائف، بعد انقضاء دولة الخلفاء، من الحموديين، والهوديين، والجمهوريين، والعباديين، وفتيان العامريين، والصمادحيين، والزناتيين، والبكريين، والأفطسيين، والصنهاجيين، وغيرهم من الرؤساء الأندلسيين، وكل ذلك على حين دخول لمتونة إلى الأندلس سنة 478هـ/1085م].

الجزء الثالث: قال: [اقتصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللمتونية، وخروجهم من صحرائهم في ابتداء أمرهم، واستيلائهم على مملكة أمراء المغرب والأندلس، وخلعهم لجمعهم، وتغلبهم

على مملكة كل منهم، وما تسنى لهم فيها من الفتوحات والمنوحات، إلى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم، ونبذ من أحوالهم وأمورهم ثم ما كان بين امراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات، وحصر من حصر، ونصر من نصر-سمح الله لهم- وذلك إلى حين انقراض الدولة المرابطية، وابتداء الدولة الموحدية، ثم ما تخلل بعد ذلك للموحدين من النصر والتأييد، ومن فتوح ومنوح، وصنع عجيب في البلاد الإفريقية والأندلسية، إلى حين انقراض دولتهم، وذلك بسبب أحداث حدثت عليهم، وأحوال نسبت إليهم، وذكرت الدولة الحفصية الموحدية الهتاتية، في البلاد الإفريقية، والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الأحمرية، في البلاد الأندلسية، والدولة السعيدة المرينية في البلاد الغربية، اختصرت من ذلك كله ما اشتهر أمره، وأمكنني ذكره. ذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانيات، وما تعلق بها، وكان بسببها من الوقائع المذكورات، والأمور المشهورات، وذلك إلى انقضاء الدولة الموحدية، واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرهم المراكشية، وذلك على مرور السنين إلى عام 667هـ/1268م¹.

وهكذا أصبحت أجزاء هذا الكتاب بحسب ترتيب نشرها الحديث خمسة أجزاء، ويعد القسم الموحدية من أهم هذه الأجزاء تقريبا التي يتألف منها كتاب البيان المغرب، فهو يتميز بتقديم رواية كاملة تقريبا للدولة الموحدية منذ قيامها حتى سقوطها، باستثناء السنوات الأولى لظهور الموحدية.

لكن هذه الحقيقة قد توضحت-أيضا-نتيجة العثور على مصادر قيمة، مثل أخبار المهدي بن تومرت للبيدق، ونظم الجمان لابن القطان، كما يتميز القسم الموحدية أيضا باحتوائه على أخبار كثيرة عن نهاية المرابطين، والصراع بينهم وبين الموحدية في عهد آخر سلاطين المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (537-539هـ/1142-1144م).

⁽¹⁾البيان المغرب، ج1، ص35.

فلقد كانت هذه الحقيقة غامضة، ولم يكن لدينا من أخبارها إلا النذر القليل والمتناثر في بعض أمهات الكتب الأخرى، أو في مجموعات الرسائل الأدبية لكتاب الدولة المرابطية. أما رواية ابن عذارى-الحالية-فتأتي بسرد تسلسل الأحداث، إذ يعيش القارئ في الوقوف على أحوال المغرب والأندلس في مرحلة انتقال السلطة من المرابطين إلى الموحدين¹.

ب- أهم المصادر التي اعتمدت على البيان المغرب ونقلت عنه:

سبق وأن ذكرنا أننا لم نجد للمؤرخ ابن عذارى المراكشي و[كتابه البيان المغرب]، ذكرا في التراجم والطبقات سواء من معاصريه أو ممن تلاهم من المؤرخين سوى ثلاثة مؤرخين وهم: لسان الدين ابن الخطيب السلماي(ت776هـ/1365م)، وعلي بن أبي زرع الفاسي (كان حيا قبل 726هـ/1325م)، ومحمد بن احمد اليفرنى (ت1150هـ/1640م)، وقد نقل هؤلاء المؤرخين نصوصا من كتاب ابن عذارى "البيان المغرب". فقد ذكر ابن الخطيب ابن عذارى وكتابه في خمسة مواضع من كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة)، حيث ذكر في موضعين اسمه واسم كتابه²، ونقل عنه في ثلاثة مواضع نصوصا من كتابه "البيان المغرب"، وقال ابن الخطيب في أخبار بلكين بن باديس الصنهاجي: قال ابن عذارى المراكشي في كتابه المسمى بالبيان المغرب: (باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نغالة اليهودي، وعمالا متصرفين من اهل ملته، فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين)³.

وذكر في خبر مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل ابن نغالة الإسرائيلي، قال صاحب البيان: (وترك ابنا له يسمى يوسف لم يعرف ذله الذمة، ولا قدر اليهودية، وكان جميل الوجه، حاد الذهن، فاخذ في الاجتهاد في الأحوال، وجمع المال، واستخراج الأموال، واستعمال اليهود

⁽¹⁾ ينظر ما كتبه محمود علي مكي غي عرضه للقسم الموحدى من البيان المغرب في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد 9 و10، 1961-1962م، ص376380.

⁽²⁾ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص314414.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج1، ص438.

على الأعمال، فرادت منزلته عند أميره، وكانت له عيون في قصره، من سناء وفتيان، يشملهم بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك.

ووقع ما تقدم ذكره، في ذكر بلكين من اتهامه باسمه، وتوليه التهمة به عند أبيه، للكثير من جواريه وخدامه، وفتك هذا بقريب له، تلو له في الخدمة والوجاهة، يدعى بالقائد، شعر منه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة، واستهدف للناس فشغلت به ألسنتهم، وملئت غيظا عليه صدورهم، وذاعت قصيدة الزاهد أبي إسحاق الإلبيري، في الإغراء بهم، واتفق أن أغارت على غرناطة بعوث صماحية تقول إنهما باستدعائه، ليصير الأمر الصنهاجي إلى مجهزها الأمير بمدينة ألميرية، وباديس في هذه الحال منغمس في بطالته، عاكف على شرابه. ونما هذا الأمر إلى رهطه من صنهاجة، فراحوا إلى دار اليهود مع العامة، فدخوا عليه فاختفى، زعموا في بيت فحم، وسود وجهه، يروم التنكير فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة، وقتل اليهود في يومه، مقتلة عظيمة، ونهبت دورهم، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة. وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلا من اليهود ينقلونه بتواتر عندهم، أمام باب البيرة، على غلوة، يعترض الطريق، على لحده حجارة كدان جافية الجرم، ومكانه من الترفه والترف والظرف والأدب معروف، وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمنع ذكره في أعلام الأدباء والأفراد إلا تحلته¹.

كما نقل ابن الخطيب في أخبار حبوس بن ماكشبن زيريين مناد الصنهاجي قوله: قال ابن عذارى في تاريخه: [فانحازت صنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبوس بن ماكش، وقد كان أخوه حباسة هلك في الفتنة، وبقي منهم معه بعد انصراف زاوي إلى إفريقيا جماعة عظيمة، وانحازوا إلى مدينة غرناطة، وأقام حبوس بها ملكا عظيما وحامي رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله فقامت رياسته]².

(¹) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص439440.

(²) المصدر نفسه، ج1، ص17.

ونقل محمد بن أحمد الوافرائي في كتابه: (نزهة الحاوي بأخبار ملوك القرن الحادي) عن ابن عذارى في موضع واحد قال: (والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب وهو الشيخ أبو عبد الله بن عذارى الأندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني أن أول من أنشأ التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين، قال: وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهي وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيوننا كثيرة).

قال بن اليسع: (وما خرجت أنا من مراكش في ستة ثلاثة وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيوته، وفواكه ثلاثين ألف دينار مؤمنة على رخص الفواكه بمراكش، ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها وأفاض سجلال الحياة على ميت غراسها، وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وينوه بقدره¹).

ج- منهجه في تدوين وتوثيق المادة التاريخية:

يعد المؤرخ ابن عذارى المراكشي واحدا من أشهر مؤرخي المغرب الإسلامي خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ويتميز بالدقة الشديدة في إيراد الأحداث التاريخية لهذه الفترة العصبية من تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس، ويظهر التزامه الدقيق بمنهج محدد وضعه لنفسه من بدايات الكتاب حتى نهايته، وسنحاول خلال هذا البحث الآتي أن نتعرف على عناصر منهجه التاريخي، وتتضح هذه العناصر من خلال معرفته بالمدارس التاريخية وأساليب الكتابة التي سادت قبله، والتي يأتي في مقدمتها:

⁽¹⁾ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، ص12.

ج-1-أسلوب الحوليات:

لقد كانت طريقة ابن عذارى في معالجة الأحداث التاريخية وهي الطريقة الحولية، حيث يؤرخ للأحداث على السنين، كما ذكر هو في مقدمة كتابه، فقال بعد أن ذكر تقسيم الكتاب إلى أجزاء ثلاثة: (وذلك على مرور السنين إلى عام 667هـ)¹.

فقد كان حريصا على الالتزام الشديد بهذا المنهج التاريخي، فإذا ما انتهى من أحداث سنة معينة لفت انتباه القارئ إلى ما حدث بعد ذلك إشارة مقتضية، ثم ينوه إلى أنه سيذكر ذلك في موضعه، فيقول مثلا: [...إلى أن كان من كذا ما أذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى]²، أو: [وكان لكذا... خير طريق يذكر في موضعه]³، أو: [...على حسب ما يأتي ذكره في موضعه]⁴، أو: [...على حسب ما يأتي ذكره في موضعه]⁵، أو: [...فذكر ذلك يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى]⁶، أو: [...حسبما أذكره في موضعه إن شاء الله عزوجل...]⁷، أو: [...على ما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى]⁸.

ومن أوضح عبارات الكتاب التي تدل دلالة قاطعة على التزامه بهذا المنهج في التأريخ مع حرصه على منهجه-أيضا-في الإيجاز والاختصار. ولعل هذا النسق الذي أطلق عليه اسم [نسق التاريخ]⁹، لكنه طور في هذا الأسلوب ليجعله ملائما للتدوين، فمزجه بالأسلوبين، إذ خدمته

(1) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص5. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، ص12.

ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص5.

(2) المصدر نفسه، قسم الموحدين، ص367.

(3) نفسه، ج1، ص312.

(4) نفسه، ج3، ص92.

(5) نفسه، ج3، ص127.

(6) ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص233.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص242.

(8) نفسه، ج4، ص103. وينظر: قسم الموحدين، ص48، 406.

(9) نفسه، ج1، ص8.

هذه الطريقة في عرض الاحداث بشكل أفضل، ومن أوضح العبارات على سبيل المثال قوله: [و...ومما حدث...من الوقائع ما أذكرها ملخصا مؤرخا بأوقاتها]¹. ومما يؤكد التزامه بهذا المنهج أيضا قوله وهو يتحدث عن عمر بن حفصون وأخباره التي شغلت فترة طويلة من تاريخ الأندلس: [وقد تقدم ذكره وتأتي بقية أخباره بحسب السنين]²، وإذا لم تتوفر لديه المعلومات الكافية لتفصيل الأحداث في كل سنة، كان يضطر إلى إجمالها واختصارها وقد أشار إلى ذلك عند إيراده غزوات عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/681م، لأنه كما يقول لا يعلم [هل كانت متصلة في هذا العام وحده، أو فيه وفيما بعده من بقية أيام يزيد بن معاوية، فرأيت إيراد غزواته هنا مجموعة مختصرة، لئلا ينقطع خيرها، إذ مبدؤها في هذه السنة وفي ولاية يزيد، فهو منسوب إليه]³.

كما أشار-أيضا-عند إيراده لأحداث سنة 151هـ وأحداث 153هـ، حيث قال: [ولم يعط تفصيل هذه السنين من سنة 151هـ إلى 153هـ بعدها سنة بسنة، فأجملت أمرها هنا اجمالا مختصرا يعني عن إعادتها في كل واحدة منها]⁴، وإذا ما جاءت أحداث سنة من السنوات التي أجملها كان يقول: [وفي سنة كذا كان ما تقدم ذكره على الجملة...]⁵.

ولكن رغم ذلك فقد كان سياق الأحداث يضطره إلى خرق المنهج الحولي وتجاوز السنة التي يتحدث عنها-كما أشرنا-فيذكر بعض الأحداث المتعلقة بالخبر الذي يتحدث عنه، أو ما يكمله-رغم وقوعها في سنة أخرى-على سبيل الإيجاز والاختصار-التزاما بمنهجه-ثم يذكر أن الحديث عنها سيأتي بالتفصيل فيما بعد، وكان يختم هذا الإيجاز بقوله: [على ما يأتي

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 304.

(2) نفسه، ج 2، ص 133.

(3) نفسه، ج 1، ص 24.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 76.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 77.

مفسرا...]¹، أو: [على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى...]²، أو: [على ما أذكره بعد هذا في بعض أخباره إن شاء الله تعالى...]³، أو: [حسبما أذكره]⁴، أو: [على ما سيأتي]⁵، أو: [على ما أذكره إن شاء الله تعالى]⁶، أو: [على ما أصفه إن شاء الله تعالى]⁷، وهذا بلا شك كثير في كتابه.

إضافة إلى ذلك حرصه الشديد على الالتزام بالتقسيم الذي وضعه لكتابه، ولما كان قد خصص الجزء الثاني من هذا الكتاب لتاريخ جزيرة الأندلس أشار إليه إشارة موجزة، ثم ينوه إلى أن هذه الأحداث سيأتي خبرها وتفصيلها في موضعه من تاريخ الأندلس. ومن هذا هذه الإشارات قوله عن بعض الأحداث: [يقع ذكرها إن شاء الله في الجزء الثاني من هذا الكتاب في فتح الأندلس]⁸.

أو قوله في محاولة تفسير بعض الأحداث: [لسبب أشرحه في الجزء الثاني إن شاء الله وهو موضعه في أخبار الأندلس]⁹، أو قوله: [وقد شرحنا أمره في أخبار الأندلس في الجزء الثاني]¹⁰، أو في قوله: [و... وسأذكر خبره في أخبار الأندلس إن شاء الله]¹¹.

(1) البيان المغرب، ج 1، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 232، وينظر قسم الموحدين ص ص 122، 293، 327، 367.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 230.

(4) المصدر نفسه، قسم الموحدين، ص ص 33، 62، 74.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 174. وينظر: قسم الموحدين، ص 243.

(6) المصدر نفسه، قسم الموحدين، ص ص 293، 365، 372، 401.

(7) المصدر نفسه، ص 417.

(8) المصدر نفسه، ج 1، ص 43.

(9) ابن عذارى، ج 1، ص 56.

(10) المصدر نفسه، ج 1، ص 56.

(11) المصدر نفسه، ج 1، ص 58.

أو قوله: [...حسبما أذكر ذلك في أخبار الأندلس إن شاء الله¹، أو قوله: [...وسياتي ذكره وخبره في خبر الأندلس إن شاء الله²، أو: [على ما يأتي ذكره في أخبار الأندلس³. وفي بعض السنوات كان لا يجد أخبارا يذكرها، أو لم يتحقق من صحة بعض ما لديه من الأخبار ليذكرها في هذه السنة أو تلك، فكان يقول في مثل هذه الحالة: [ولم أتحقق خبرا أذكره في سنة كذا...]، وقد حدث ذلك عدة مرات في كتابه.

منها ما يتعلق بأحداث سنة 228هـ، حيث قال-نقلا عن عريب بن سعد-: [لم يكن في إفريقية في هذه السنة خبر يذكر، ولا في السنتين بعدها⁴.

وكذلك ما يتعلق بأحداث سنة 253هـ، حيث قال-نقلا عن ابن القطان-: [عريت هذه السنة من أخبار إفريقية، فلم يكن فيها مشهور يجتلب⁵، وما يتعلق بأحداث سنتي أربع عشرة وستمائة وخمس عشرة وستمائة، بحيث قال: [ولم أتحقق خبرا أذكره في سنة أربع عشرة وخمس عشرة...]⁶.

وإن كان لهذا من دلالة فهو يدل-بالدرجة الأولى-على دقة ابن عذارى وأمانته في إيراد أخباره.

ج-2-قطع الأحداث والعودة إليها:

كان ابن عذارى يدرك بحاسته التاريخية أن هناك بعض الأخبار التي تتصل اتصالا وثيقا بالحدث الذي يتحدث عنه، وبالتالي فقد كان يلجأ إلى قطع الأحداث بإيراد بعض أخبار تفصيلية عن موضوع معين، أو مدينة معينة أو جماعة خاصة (كأسرة حاكمة مثلا)، حيث يذكر معلوماته على شكل رواية متصلة. فبعد ان ينهي حديثه عن حوادث سنتي 49هـ/669م

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 62.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 62.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 232.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 108.

(5) ابن عذارى، ج 1، ص 115.

(6) المصدر نفسه، قسم الموحدين، ص 266.

و50هـ/670م، يورد عنوانا تفصيليا هو: [ذكر ولاية عقبة بن نافع على إفريقية وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان]¹. وبعد أن ينتهي من ذكر المعلومات المتعلقة بعقبة بن نافع، ودوافعه لبناء مدينة القيروان، واختيار موقعها، يرجع إلى طريقة الحوليات فيقول: [رجع الخبر وفي سنة 51هـ شرع عقبة-رضه- في ابتداء بناء مدينة القيروان وأجابه العرب إلى ذلك...]². ويفعل الشيء نفسه بعد حوادث سنة 62هـ/681م، وتعيين عقبة على ولاية إفريقية والمغرب كله للمرة الثانية في خلافة يزيد بن معاوية، فيذكر في رواية تفصيلية مطولة، الأحداث المهمة لهذه الولاية تحت عنوان: [ذكر فتح المغرب الأقصى على يد عقبة بن نافع-رضه-وغزواته]، وينتهيها بعنوان آخر: [ذكر وفاة عقبة بن نافع-رضه-]، ويورد ضمن هاذين الموضوعين معلومات تفصيلية عن جغرافية وتاريخ بعض المدن المهمة في الشمال الإفريقي، مثل مدينة تيهرت، طنجة، تهودا، ثم يرجع على أحداث سنة 64هـ/683م³. وقد تكرر ذلك في كتابه كثيرا، وقد يطيل في أحداث بعض السنوات فتستغرق أحداث سنة واحدة خمس صفحات أو يزيد، وأحيانا يوجز في بعض الأحداث، فتستوعب صفحة واحدة أحداث خمس سنوات. ولا شك أن هذا يتوقف على كم المعلومات لدى المؤرخ. فكلما كانت المعلومات وفيرة كانت الأحداث مفصلة وفيها كثير من الإسهاب، وكلما كانت المعلومات قليلة كانت الأحداث مختصرة وموجزة.

وبعد أحداث سنة 352هـ/964م يقطع ابن عذارى التسلسل الزمني لأخباره، ليذكر تفاصيل مشوقة عن جماعة برغواطة، بعنوان خاص هو، [خبر برغواطة]، حيث يتطرق فيه إلى هذه المجموعة البربرية التي اعتنقت ديانة غربية، وادعى بعض أمرائها النبوة ثم ينهي حديثه عنها بالرجوع إلى النظام الحولي قائلا: [رجعنا إلى نسق التاريخ]⁴.

(1) البيان المغرب، ج 1، ص 18.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 20.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 2330.

(4) البيان المغرب، ج 1، ص 223227.

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الطريقة، ما أورده بعد أحداث سنة 391هـ/1000م، المنتهية بوفاة زيري بن عطية الزناتي [صاحب فاس والمغرب كله]، فيضع عنوانا مناسباً لموضوع استطرادي هو: [بعض أخبار زناتة ودولهم بالغرب إلى حين ظهور المرابطين]، يتحدث فيه عن أخبار قبيلة زناتة البربرية، وعلاقتها بالأندلس، ودورها في المغرب إلى حدود سنة 460هـ/1067م، ويعود بعد ذلك إلى طريقته الأولى بقوله: [رجع الخبر إلى نسق التاريخ، وفي سنة 392هـ...]¹.

كما كان يقطع أحداث المغرب ليذكر بعض أخبار الأندلس المناسبة للحدث الذي يتحدث عنه، أو المتصلة به، أو الموافقة للسنة التي يتحدث عنها، فقد سار ابن عذارى في تقديمه لأخبار الأندلس على هذه الطريقة، فذكر الحوادث مرتبة على السنين مع الإيجاز، وفصل في مسائل كثيرة كان يراها يتطلب التفصيل والخروج عن الترتيب الحولي، ويبدو هذا واضحاً في روايات دول الطوائف، بحيث تحدث بشكل رواية مستمرة عن بعض الأسر الكبيرة، مثل بني جهور في قرطبة Cordoba، والعباديين في اشبيلية Sevilla، وفي حين أنه خص الدويلات الصغرى بأخبار موجزة، يغلب عليها النظام الحولي، ويبدو أنه كان يجذب أسلوب الرواية الطويلة، ولاسيما أنه تعود إيراد نقولات طويلة من المؤرخين الذين سبقوه.

وكان يرجع على خلفية الأحداث، أو يتقدم بالإشارة إلى نتائجها، عندما يتطلب السياق ذلك، ولم يكن ليتاح له هذا لو اقتصر على تنظيم كتابه في الحوليات فقط².

كذلك اتبع ابن عذارى الطريقة نفسها في روايته لأخبار المرابطين والموحدين، وهي تصنيف الرواية إلى فصول، وأحياناً إلى حوليات سنوية، وسرد الأحداث ضمن سياق زمني، ثم يردف هذا السرد بذكر الأحداث نفسها مرة أخرى، مع إيراد روايات في صميم الأحداث.

(¹) البيان المغرب، ج 1، ص 252256.

(²) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذارى المراكشي عن الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، مجلة الجمع العراقي، الجزء الرابع/ المجلد السابع والثلاثون، بغداد، 1986، ص 315.

فهذه الطريقة تتيح للمؤرخ عدم التمييز في الكتابة لفريق ضد آخر، عندما تكون هنا روايتان لحقيقة تاريخية واحدة، وهو بهذا يترك للقارئ أن يكون الرأي الذي يعتقد أنه أكثر اتفاقاً مع الحقيقة¹.

وقد يكون لدى ابن عذارى أحيانا أكثر من مصدر واحد، فينقل عنهم جميعاً، وربما يئنه إلى أحد هذه المصادر، أو أكثر في أثناء السرد، ويترك البقية دون تنويه.

كما يستخدم أحيانا التعميم في الإشارة إلى بعض المصادر، كأن يقول حين يتحدث عن وفاة زعيم المرابطين الديني، عبد الله بن ياسين: [قال بعض المؤرخين لدولتهم...]².

أو يقول حين يذكر نسب أمراء الدولة المرابطية: [قال ذوو العلم بأخبارهم...]³. وعندما يشير إلى وصية الخليفة الموحدى يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1194م) يقول: [وها أنا أذكر وصيته على نحو ما وقعت وصححها قرابته والمؤرخون لدولته...]⁴.

واللافت أن ابن عذارى المراكشي كان يقطع أحداث المغرب ليذكر بعض أخبار الأندلس المناسبة للحدث الذي يتحدث عنه، أو المتصلة به، أو الموافقة للسنة التي يتحدث عنها، فيتحدث عن أخبار الأندلس تحت عنوان: [بعض أخبار الأندلس]⁵، أو يقول: [ومما وقع من الأحداث بالأندلس في هذه السنة...]⁶.

ثم يعود مرة أخرى إلى أحداث المغرب بقوله: [رجع الخبر إلى كذا...]⁷؛ ليواصل الحديث عما كان بصدده من الأحداث المغربية، وفي بعض الأحيان كان يفعل العكس، حيث

⁽¹⁾ ينظر على سبيل المثال الروايات التي ساقها عن سبب الوفاة الخليفة أبي يعقوب المنصور، البيان المغرب، القسم الموحدى، طبعة تيطوان، ص 137، 179.

⁽²⁾ البيان المغرب، ج 4، ص 16.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج 4، ص 17.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، القسم الموحدى، طبعة تيطوان، ص 207.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، قسم الموحدى، ص 330.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ج 4، ص 137.

⁽⁷⁾ البيان المغرب، قسم الموحدى، ص 331.

يستطرد في ذكر الأحداث الأندلسية، ثم يقطعها ليذكر بعض أخبار المغرب المتصلة بها، ثم يعود إلى أخبار الأندلس مرة أخرى فيقول: [رجع الخبر إلى بعض أخبار الأندلس...]¹.

ج-3-الاهتمام بإيراد المكتبات والرسائل:

كان لابن عذارى اهتماما كبيرا بإيراد المكتبات والرسائل والبيعات والكتب الصادرة من الخلفاء والسلاطين إلى عمالهم في مختلف الأقطار، مما أضفى على كتابه أهمية خاصة، حيث يحوي بين دفتيه عددا كبيرا من الوثائق التي لا تتوفر في غيره من المصادر التاريخية التقليدية. وقد ذكر اهتمامه بذلك في مقدمة كتابه فقال: [... وذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانيات وما تعلق بها، وكان بسببها من الوقائع المذكورات والأمور المشهورات...]².

ولكن بعض هذه الرسائل والمكتبات قد تعرض للاختصار والاجترار منه، فكان أحيانا ينص على هذا الاختصار، فيقول مثلا: [هذه الرسالة التي أذكرها هنا مختصرة إن شاء الله تعالى...]³، وعند إيراد شيء من هذه المكتبات كان يذكر من العبارات ما يشير إلى هذا الاختصار فيقول: [فصل من الرسالة كذا...]⁴، أو يقول عند إشارته إلى رسالة معينة: [فصل من ذلك]⁵، أو: [فصل منها]⁶، أو [فصول من الرسالة التي كذا...]⁷، أو: [فصول من ذلك...]⁸.

(1) المصدر نفسه، ص330.

(2) ينظر ص5 من مقدمة الكتاب.

(3) ليبيا المغرب، قسم الموحدين، ص378.

(4) المصدر نفسه، ص261.

(5) المصدر نفسه، ص ص268، 263، 270، 278.

(6) المصدر نفسه، ص267.

(7) المصدر نفسه، ص419.

(8) المصدر نفسه، ص379.

ج-4- منهجه في إيراد التراجم:

أما فيما يتعلق بالتراجم، فقد اهتم اهتماما كبيرا بالترجمة للشخصيات السياسية والعلمية رفيعة الشأن، لكن اهتمامه بالترجمة للخلفاء والسلطين كان بلا شك يفوق اهتمامه بالترجمة لغيرهم، فكان بعد الانتهاء من ذكر الاحداث التاريخية في عهد أي خليفة من الخلفاء والتي كانت تنتهي غالبا بوفاته والبيعة لغيره، فيختم هذه الأحداث أو هذا العهد بذكر أخبار هذا الخليفة عبي الجملة [بصورة مجملة] وشيء من سيرته تحت عنوان: [ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره تعالى]، أو تحت عنوان: [بعض أخبار... فلان على الجملة ووصيته وما ذكر الناس في موته]، أو: [بعض أخباره على الجملة]، أو: [بعض أخباره وسيره]¹.

وغالبا ما نجد ابن عذارى يبدأ الترجمة بذكر الصفات الخلقية للخليفة، ثم يذكر نسبه، وكنيته، ومدة خلافته، وصفته، ووزراءه، وقضاته، وكتابه، وقواده، وحجابه، ونقش خاتمه، وأحيانا نجده يذكر اخوته الأشقاء وأولاده من الذكور والإناث على حد سواء، ويعرج في بعض الأحيان على عباداته وصدقائه واعمال الخير البر التي كان يجتهد فيها، إضافة إلى علاقته بربه، وعلاقته برعيته، وسيرته بينهم، وكذا الأعمال العمرانية والمنشآت المعمارية في عهده، وفتوحاته، وفضائله ومآثره، كما أنه يذكر أحيانا رأس مكاتباته لعماله على الأقاليم، وكان يختم هذه السيرة بقوله: [انتهى ما اختصر من أخبار فلا- تعالى...]²، أو يقول: [تمت أخباره]³.

ويمكن أن نسجل هنا طرافة في منهج ابن عذارى أنه كثيرا ما يذكر توضيحا لكثير من الاخبار التي يوردها ولعله يقصد بهذا التوضيح مزيدا من التفاصيل التي تحيط بجوانب الخير ليقف

(1) البيان المغرب، ج 21، ص 78، ج 3، ص 122، 139، ج 4، ص 46، ينظر: قسم الموحدين ص ص 79، 164.

(2) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 79، 164.

(3) المصدر نفسه، ص 235.

القارئ على كل ما يتعلق بهذا الخبر من معلومات وبيانات وأسماء وعلاقات مختلفة، وكان عنجد إirاده لهذا الإيضاح يقول: [إيضاح الخبر عن كذا...]¹.

ج-5-اهتمامه بذكر الوفيات ومنهجه في ذلك:

كان من مفردات منهج ابن عذارى اهتمامه الشديد بذكر الوفيات في نهاية بعض السنوات بعد الانتهاء من ذكر أهم ما كان فيها من الأحداث، وأحيانا يبدأها بذكر الوفيات، ولكن ما يميز ابن عذارى في هذا الجانب أنه لم يهتم بحصر كل وفيات السنة، بل كان يركز على وفيات الشخصيات المرموقة، سواء كانت شخصيات سياسية، من أمراء أو وزراء أو كتاب²، أو شخصيات علمية أندلسية أو مشرقية³، وإن كان تركيزه وحرصه الأكبر على الشخصيات التي لها باع في مجال العلوم والمعارف⁴.

لا شك أن اهتمامه بوفيات الشخصيات المغربية والأندلسية كان في المقام الأول، ويركز على ما كان يعود في أصله إلى قریش⁵، لكنه بالإضافة إلى ذلك اهتمامه بإيراد وفيات بعض الشخصيات العلمية الشرقية المرموقة والمشهورة مثل وفاة أبي علي القالي⁶.

كما نجد في بعض الأحيان يورد خير الوفيات دون ذكر الأسماء، خشية الإطالة، ومحافظة على منهج الاختصار الذي التزمه منذ البداية، ومن ذلك ما ذكره عن أحداث سنة (303هـ/915م)، حيث قال في نهايتها: [ومات في هذا العام بقرطبة جملة من وجوهها وبياض أهلها يطول الإخبار عنهم والاجتلاب لهم، إلى من مات في الكوز والمواضع البعيدة ممن لم

(1) المصدر نفسه، ص162.

(2) البيان المغرب، ج2، ص ص 165، 166، 167، 168.

(3) ينظر: البيان، ج1، ص66 'وفاة أبي العباس السفاح'، ج1، ص254 'وفاة جوهر الصقلي'، ج1، ص275 'وفاة الخليفة الفاطمي الظاهر'، ج1، ص276 'وفاة الجرجاني'.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص188، 189، 190، 192، 185، 199، 201، 206، 209، 228، 237، 245، 259، 260، 312.

وينظر: ج2، ص ص 148، 180.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص ص 184، 199.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص250.

يأخذه إحصاء ولا عد...¹]، كما اهتم أيضا بذكر وفيات غير المغريين وبخاصة من كانوا في عداد الفقهاء، كالفقهاء العراقيين²، وكذلك الفقهاء المدنيين³.

ج-6-اهتمامه بأحداث المشرق الإسلامي:

لقد كان لابن عذارى اهتمام كذلك بذكر بعض الأحداث التاريخية المرتبطة بالمشرق الإسلامي، والتي غالبا ما تكون هي الأحداث المهمة في تاريخ المسلمين بالمشرق، حيث تكرر ذلك من كتابه مرات عديدة، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يتعلق بأحداث سنة ثلاث وثمانين وخمسائة، حيث قال: [وفي هذه السنة كان استيلاء يوسف بن أيوب (صلاح الدين الأيوبي) على ما كان بيد الروم من بلاد الشام وغلبته على بيت المقدس...]⁴.

وعن أحداث سنة ست وثمانين وخمسائة ذكر شيئا من أخبار المشرق فقال: [وفي هذه السنة وصل ابن منقذ رسولا من صاحب الشام والديار المصرية يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين، فكان وصوله أولا إلى إفريقية]⁵، وفي بعض الأحيان كان يجيل القارئ-فيما يختص بأخبار المشرق- إلى كتابه-وقد سبق أن تحدثنا عنه. فمن ذلك قوله وهو يتحدث عن الخليفة العباسي المهدي: [وقد ذكرنا بعض أشعاره وأخباره في (تاريخ المشرق) والغرض هنا ذكر أخبار المغرب الأقصى والأوسط]⁶.

وكذلك قوله وهو يتحدث عن الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار: [وقد ذكرنا بعض أخباره في أمراء مصر في (أخبار المشرق)]⁷.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص169.

(2) المصدر نفسه، ج1، صص185، 162.

(3) المصدر نفسه، ج1، صص162، 168.

(4) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص197.

(5) المصدر نفسه، ص209.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص80.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص229.

ج-7-نقده لبعض الأحداث وتفسيره لها:

مما يجب التنويه به في منهج ابن عذارى أنه لم يكن يقف موقفا سلبيا من بعض الأحداث التي يتعرض لها، إذ لم يكن مجرد ناقل فحسب لهذه الأحداث، بل كان له موقف من بعضها، حتى أنه كان يعلق على بعضها، ويفسر البعض الآخر، ويلجأ إلى تصحيح بعضها أو يصحح بعض التواريخ، وباختصار فقد كان مما يميز المنهج عند ابن عذارى موقفه النقدي من الأحداث التاريخية التي يوردها في كتابه، ومن أهم الأحداث التي عرض لها بالنقد نجد:

- موقفه من تخميس "عمر بن عبد الله المرادي"-عمل طنجة-للبربر وآثاره السياسية المدمرة، حيث تحدث عن السياسة السيئة لهذا الوالي، مبينا أنه أساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين؛ حيث يرفض ابن عذارى هذا الموقف جملة وتفصيلا، ويعلق عليه بقوله: [وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام]، ثم بين الآثار الخطيرة لهذه السياسة السيئة وهذا الفعل الذميم، فيقول: [فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله]¹.

- موقفه كذلك من ثورة الريض الثانية سنة (202هـ/817م)، حيث أنه بدأ في البحث عن أسباب هذه الثورة، مبينا أنه لم تكن لها ضرورة، إذ كان الناس في عافية ورخاء، ولم تفرض عليهم وظائف ولا مغارم ولا شيء آخر يكون سببا في خروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشرا وبطرا، وملا لا للعافية-على حد تعبيره-وطبعا جافيا، وعقلا غيبا، وسعيا في هلاك أنفسهم².

(1) البيان المغرب، ج1، ص5152.

(2) البيان المغرب، ج2، ص7576.

- موقفه من خروج يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق المريني على عمه السلطان يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة (658هـ/1260م)، حيث تحدث عن محاولته الاستعانة بالنصارى ليصير الملك إليه، وما قام به من خداع أهل سلا، فدخلوها وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا، فكان تعقيب ابن عذارى على هذه السياسة بقوله: [فكان تدبيرا خاليا من السداد والصلاح مع قضاء الله تعالى وقدره]¹.

ومن هنا فقد سقنا هذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر، إذ الأمثلة على ذلك كثيرة.

ج-8-اهتمامه بالأحوال الاقتصادية والظواهر الطبيعية:

يبدو ان مؤلفنا كان له اهتمام-أيضا-بالأحوال الاقتصادية وما يتعلق بها من ارتفاع الأسعار وحدوث القحط والغلاء والمجاعات والأوبئة، وما يترتب عن ذلك من فتن في المغرب والأندلس²، كما أنه اهتم كذلك برصد الوجه الآخر للأحوال الاقتصادية، وهي حالة الخصب والرخاء، ورخص الأسعار³، كما انه اهتم برصد السيول⁴، والحرائق⁵، وهبوب الرياح العاتية في كلا القطرين وآثارها الاقتصادية المدمرة⁶، ورصد الظواهر الطبيعية مثل ظهور المذنبات⁷، والصواعق⁸، والزلازل⁹، وكسوف الشمس¹⁰، وغير ذلك.

(1) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 417.

(2) عن القحط والغلاء والمجاعات والأوبئة وارتفاع الأسعار، ينظر: ج 1، ص 116، 117، 181، 255، 256، 257، 294، 300، 302، 307/ ج 2، ص 37، 38، 39، 119، 124، 236/ ج 4، ص 45، وينظر قسم الموحدين، ص 16، 126، 266، 267، 325، 326، 339، 351، 435.

(3) عن الخصب والرخاء ورخص الأسعار، ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 257، 275، 302، قسم الموحدين، ص 347، 357. (4) عن السيول وآثارها المدمرة اقتصاديا ومعماريا، ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 113، ج 2، ص 70، 89، 102، 139، 167، 192، 199، 213، ج 3، ص 105، ج 4، ص 96، قسم الموحدين، ص 140، 239.

(5) عن الحرائق ونتائجها الخطيرة، ينظر: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 257، 258.

(6) عن هبوب الرياح الشديدة العاتية ونتائجها المدمرة، ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 276، ج 2، ص 211.

(7) عن ظهور المذنبات ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 133، 138، 237، 303، ج 2، ص 210، ج 3، ص 10، 14، ج 4، ص 45.

(8) عن الصواعق، ينظر: البيان المغرب، ج 3، ص 1213.

(9) عن الزلازل وآثارها، ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 89، 166، 305، ج 2، ص 104، 105، 211، 220.

(10) عن كسوف الشمس ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 140، 182، 237، 301، ج 2، ص 83، 84، 85، ج 3، ص 10.

ويمكن أن نستنتج مما تقدم أن طريقة ابن عذارى في التأليف اعتمدت أسلوب الرواية في المجالات التي يتوافر فيها معلومات كثيرة، ويتضح هذا من العناوين التي كان يضعها، والتفرعات المتعددة لتفصيل الأحداث، وخلال رواياته هذه كان يقوم-أيضا-بتسجيل الأخبار حسب السنين. وهذه الطريقة المزدوجة في تسجيل التاريخ سمحت له بأن يتقدم معلومات مختصرة من أحداث أقل أهمية، ولا تتوافر لديه عنها روايات كافية، فخصها بسطر، أو ببضعة أسطر، أو أكثر، على الطريقة الحولية، في حين أنه أسهب في الأحداث الأخرى بشكل روائي تفصيلي، حيث توافرت له المادة الكافية لذلك.

د- قيمته التاريخية:

يعتبر كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا من تراث ابن عذارى، وتتجلى أهمية الكتاب من خلال محتواه العلمي الذي ساهم وبشكل كبير في إثراء المكتبة التاريخية.

إذ يعدّ كما قال الزركلي: [... وهو أعظم المراجع وأوثقها في موضوعه...]¹، كما أنه يعد واحدا من أهم المصادر التاريخية وأوسعها وأشملها، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ المغرب والأندلس، ولربما ترجع هذه الأهمية إلى سببين أراهما أساسيين وهما:

أولاً: ما نقله من نصوص تاريخية كثيرة عن مؤرخين كبار لم نعثر على مؤلفاتهم إلى حد كتابة هذه الأسطر، وبعضهم الآخر لا نجد لهم ذكرا إلا عند العودة إلى كتاب ابن عذارى، فعدد المؤرخين الذين ورد ذكرهم عن ابن عذارى ونقل عنهم يفوق بكثير ما ورد عند غيره من المؤرخين الكبار.

⁽¹⁾ وهذا التاريخ من التواريخ المعتمدة التي حازت الشهرة في الآفاق شرقا وغربا ومن نقل عنه ابن الخطيب السلماي في مواضع من الإحاطة، اليفرنى الزهية ونقله في الاستقصا، ينظر: خير الدين بن محمود بن محمد علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ص15، ص284.

ثانياً: تعليقاته الكثيرة على الأحداث، إذ لم يكن ابن عذارى مجرد ناقل أو كاتب للأحداث التاريخية فحسب، حتى أنه كان يضع رأيه في الحادثة. بمجرد أن تتاح له الفرصة، ويجد ذلك من المناسب والمفيد، وهذا إضافة إلى إيراده كثيراً من التفاصيل الدقيقة لهذه الأحداث.

وبلا شك فإن ابن عذارى من هذا كله كانت له رؤية علمية عميقة وشاملة للأحداث ووقائع تاريخية كثيراً ما كان يدعمها بروايات ونصوص وشواهد لا يزال المؤرخون والدارسون يستفيدون منها إلى يومنا هذا¹.

كما كان هذا الكتاب محل اهتمام العديد من المحققين وترجم ذلك من خلال تسابق العديد منهم على العناية بالكتاب وضبطه والاهتمام بمنهجه ومحتواه.

وفي النهاية نجد كتاب البيان المغرب من أهم المؤلفات التي تناولت تاريخ بلاد المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي حتى انقضاء الدولة الموحدية، أي أوسع المصادر التاريخية حول عصري المرابطين والموحدين.

(1) محمد علي دبور، منهج ابن عذارى المراكشي ومصادر في البيان المغرب، رسالة دكتوراه، جامعة مدريد المركزية، اسبانيا، د، س، ص 34.

الفصل الثاني:

مصادر ابن عذاري في البيان المغرب وطريقته في التعامل معها.

أولاً: قائمة المصادر المكتوبة وبيان أهميتها.

1-أ: كتب المغاربة والأندلسيين.

1-ب: الكتب التاريخية المشرقية.

ثانياً: كتب التراجم.

ثالثاً: كتب المسالك الجغرافية.

رابعاً: الروايات الشفوية.

خامساً: كتب الحديث.

سادساً: نصوص متنوعة.

سابعاً: شخصيات لم نجد لها تراجم وافية فيها تيسير لنا من مصادر.

أولاً- قائمة المصادر المكتوبة وبيان أهميتها:

لا شك أن كتاب [البيان المغرب] يعد واحداً من أهم المصادر التاريخية وأوسعها وأشملها، خاصة وأن صاحبه قد اطلع على الكثير من المؤلفات التي سبقته، والتي كانت متوفرة في عهده، سواء المشرقية منها أم المغربية، وبذلك يكون ابن عذاري قد عرفنا بالعديد من الموارد التي استخدمها في كتابه، ضف إلى ذلك نجد أن هذه الموارد المذكورة في التأليف تبرز لنا مدى ما تمتع به هذا المؤرخ من العمق في التفكير والتأثر بمنهج العلماء الحريصين على ذكر مصادرهم.

وهذا مما ساعده على اختيار موارده التي استعان بها في تأليف كتابه، فقد أظهر منهجه في تناول هذه الموارد مدى أمانته العلمية، ودقته الشديدة إلى حد كبير.

ضف إلى ذلك حرصه على ذكر موارده في كل خير نقله أو سمعه، إذ يقدم لنا خدمة عظيمة في دراسة مصادر معلوماته والتعرف على منهجه في استخدام هذه المصادر دون الوقوع في لبس أو غموض، فهو إذا كان على معرفة بالمدارس التاريخية وأساليب الكتابة التي سادت قبله من حيث الحرص بتنويع المصادر، مما جعل كتابه [البيان المغرب] يحتل مرتبة متقدمة في مصادر تاريخ المغرب والأندلس في القرون الأولى.

كما عرفنا ابن عذاري بالعديد من الموارد التي استخدمها في كتابه، إلا أنه ترك لنا مجموعة أخرى بدون تعريف، ومن محاسنه أنه كان يذكر في معظم الأحوال والمطان التي اعتمدها، ويحيل الروايات التي أوردها إلى أصحابها، مع الإشارة إلى كتبهم وآثارهم التي أخذ منها، ولكن هذه الإشارات تبدو في بعض الحالات مبتورة أو ناقصة كأن يشير إلى المؤلف بلقبه فقط، أو بكنيته، أو باسم أبيه، أو نسبه إلى مدينته، أو بالكلمة الأولى من اسم كتابه.

وربما كانت هذه الإحالات واضحة لمعاصري ابن عذاري ومن بعده بفترة وجيزة، لتوفر هذه المؤلفات، واشتهار أصحابها بين المثقفين والدارسين، ولكن بعد مضي مئات السنين، وفقدان مؤلفات العديد من هؤلاء، أصبحت بعض ألقابهم غريبة علينا مما يصعب التوصل إلى معرفة أسمائها الأصلية،

لاسيما إذا لم نجد لهم ذكرا في كتب التراجم، ولا نجد لمؤلفاتهم أثرا في فهارس الكتب المعتمدة التي وصلت إلينا⁽¹⁾.

ويبدو أن هذه الفهارس أو القائمة يجب أن توجه إلى قارئ من عصره، أي معاصر للمكتبة العربية المغربية في منتصف القرن السابع⁽²⁾.

أورد ابن عذاري في مقدمة كتابه قائمة مطولة عن المصادر التي اعتمدها⁽³⁾، بالإضافة إلى طريقتين لتقولاته، والتي من خلالها يمكن أن تصنف إلى ما يأتي:

الأولى: الكتب وهي بلا شك تشكل حجر الزاوية في موارده، وقد نص على أسماء المصادر والكتب التي اعتمدها ثم قال [ومن كتاب وجدته أو تعليق]⁽⁴⁾، أي من غير الكتب المذكورة.

الثانية: الروايات أو النقول الشفوية، والتي تناقلها الناس عبر العصور، أو كما قال ابن عذاري⁽⁵⁾ [ومن شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق]، وبالتالي تلك النقول التي يمكن أن تتصل بشهود العيان للحادثة التاريخية.

وبالعودة إلى مقدمة كتابه نجد ابن عذاري قد ذكر سبعة وعشرين مصدرا من المصادر والكتب، وهذه قائمة بما حسبما أوردها في المقدمة. وتنقسم الكتب إلى قسمين:

أ- كتب المغاربة والأندلسيين، وبدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- الكتب التاريخية.

- كتب التراجم.

- كتب المسالك والجغرافية.

(1) د/ عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري، عن شمال إفريقية، ص 215.

(2) رسالة فريكو، ج2، ص 276.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 23.

(4) يذكر ابن عذاري اسم المصدر، وأحيانا اسم المؤلف، وأحيانا أخرى شهرته، وقد أكملت المعلومات الناقصة من خلال دراستي للموارد إلا ما لم أحده في المصادر.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 3.

ب- كتب المشاركة.

هذا فيما يتعلق بالمصادر التي ذكرها في المقدمة على الإجمال، فقال: [جمعت ذلك من الكتب الجليلة، مقتضبا من غير إسهاب ولا إكثار، فاقتطفت عيونها، واقتضيت فتونها، ووصلت الحديث بالقديم، والقديم بالحديث، لأنه إذا اتصل يستظرف ويستحلى... فنقلت. والله ولي التوفيق. من تأريخ الطبري، والبكري، والريفيق، والقضاعي، ومن كتاب "الذيل" لابن شرف، ومن كتاب ابن أبي الصلت، ومن "المجموع المفترق"، ومن كتاب "هجة النفس وروضة الأنس"، ومن كتاب "المقباس"، و"المقتبس"، و"القبس"، ومن مختصري عريب وابن حبيب، ومن "درر القلائد وعرر الفوائد"، ومن "القلائد" و"المطمح" لابن خاقان، ومن كتاب ابن حزم، و"ذخيرة" لابن بسام، ومن "أخبار الدولة العامرية" لابن حيّان، ومن كتاب "تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء"، ومن كتاب "الأنوار الجليلة في الدولة المرابطية"، ومن "نظم الجمان في أخبار الزمان" لابن القطان، ومن كتابي الأشيري والبيدق، وكتاب يوسف الكاتب، وكتاب ابن صاحب الصلاة أبي مروان، ومن كتاب ابن رشيق، ومن كتاب وجدته أو تعليق، ومن شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق، والله الهادي إلى سواء الطريق].

وبعد قراءة كتاب البيان المغرب كاملا، قمنا باستخراج جميع المصادر والموارد ثم قمنا بترجمة موجزة لشخصية صاحب المصدر، وتوضيح اسم كتابه المقتبس منه وذكر مواضع النقول في كتاب البيان بالجزء والصفحة وموضوعاتها.

وقد قسمنا المصادر التي اعتمدها ابن عذاري حسب الموضوعات، أي بمعنى آخر حسب الأهمية ومدى استخدام المؤلف لها.

وقد تم استبعاد الكلام عن المصادر حسب العصور التي تناولها الكتاب، حيث أن ابن عذاري يستخدم موارد معينة يأخذ منها معلومات عن أكثر من عصر واحد، أما المصادر التي يعتمد عليها بدرجة أقل، ولفترة تاريخية محدودة، فقد تم التركيز عليها حسب الأهمية.

أما موارده عن شمال إفريقيا من الفتح إلى قيام المرابطين، فيمكن أن تصنف إلى ما يأتي:

أ- كتب المغاربة والأندلسيين:

أ-1- الكتب التاريخية:

1. كتاب تاريخ إفريقية، لإبراهيم بن القاسم القيرواني المعروف بالرقيق (ت نحو 425هـ/1043م) ومؤلف هذا الكتاب يعد من المؤرخين والأدباء من أهل القيروان، فقد اعتمد عليه ابن عذاري في تأليفه.

أما عن شخص الرقيق القيرواني فلا نكاد نجد له ترجمة وافية في كتب التراجم أي معلومات عن سنة مولده وأصله أو نشأته، سوى أنه عاش في النصف الثاني من القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر للميلاد، وتولى رئاسة ديوان الرسائل بالبلاد الصنهاجي في القيروان مدة تزيد على عشرين عاما في عهد أبو الفتح المنصور بن يوسف (373-386هـ/983-996م)، ونصير الدولة أبو مناد باديس بن أبي الفتح المنصور (386-406هـ/996-1016م) والمعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور (بداية من سنة 406هـ/1016م)، ثم توفي بعد سنة (425هـ/1033م)، وهذا اعتمادا على ما أورده ابن رشيقي في الأتمودج ضف إلى ذلك كما رجح د. عبد الله الزيدان، ود. عز الدين موسى في تحقيقهما لكتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق كما نقلنا رأي حسن حسني عبد الوهاب⁽¹⁾.

نقل ياقوت الحموي⁽²⁾ مدح ابن رشيقي للرقيق قال: [هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه، قليل صنعة الشعر، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحذق الناس]. كما يضع ابن خلدون الرقيق في منزلة واحدة مع ابن حيان، مؤرخ الأندلس، من حيث اهتمامه بتدوين تاريخ بلده⁽³⁾. وللرقيق مؤلفات عديدة حتى غلب عليه اسم الكاتبة كما ذكر ابن خلدون، وقد ذكر معظم الذين تحموا له مؤلفاته، ومما عرف منها:

(1) المقدمة، صفحة ط. ي.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص 137.

(3) مقدمة ابن خلدون، ص 5.

كتاب «تاريخ إفريقية والمغرب» فهو أشهر تصانيف الرقيق، ويعد أوفى وأشمل ما كتب عن بلاد إفريقية والمغرب، تناول فيه الأحداث من الفتح الإسلامي حتى أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد⁽¹⁾، ثم أصبح هذا التأليف، لاسيما بعد القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد، عمدة ومرجعا لمعظم المؤرخين الذين كتبوا عن هذه البلاد، وقد فقدت أجزاء كثيرة من هذا الكتاب الذي كان يتألف من عدة مجلدات⁽²⁾.

والجدير بالإشارة إليه أنه قد عثر مؤخرا على قطعة من هذا التاريخ نسب للرقيق⁽³⁾، تؤرخ لفترة قرن وربع، وهي لا تشكل إلا جزءا يسيرا من المجلدات التي كتبها إبراهيم الرقيق عن تاريخ إفريقية والمغرب.

إضافة إلى هذا التأليف نجد: كتاب «النساء» في مجلد كبير، وكتاب «الراح والارتياح»، وكتاب «نظم السلوك في مسامرة الملوك» أربع مجلدات⁽⁴⁾، وكتاب «قطب السرور في الأنبذة والخمور» مجلدان كبيران⁽⁵⁾، وكتاب «الاختصار البارع للتاريخ الجامع» عدة مجلدات، وكتاب «الأغاني»، مجلد⁽⁶⁾. وكتاب «معاقره الشراب»، ذكره المقرئ⁽⁷⁾، وكتاب فيه أخبار زيري بن مناد وابنه أبي الفتوح يوسف بن بلكين وأبي الفتح المنصور بن يوسف الصنهاجيين⁽¹⁾. وللعلم فإن هذه التصانيف مفقودة باستثناء التأليف الأخير، الذي مازالت المكتبة الوطنية بباريس تحتفظ بنسخة فريدة منه⁽²⁾.

(1) د/ عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 218.

(2) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 216.

(3) د. عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 218، وقد نشر القطعة المذكورة د. المنجي الكعبي بتونس سنة 1968م، في حين أنكر نسبتها د. محمد طالبي، وأكد على أهميتها د. حسين مؤنس، كما شكك فيها محمود محفوظ ولم يؤيد نسبتها، وحققت القطعة مرة أخرى ونشرها د. عبد الله الزيدان وعز الدين موسى. ينظر مقدمتها في تحقيق الكتاب نشر دار المغرب الإسلامي ببيروت.

(4) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 137.

(5) الصغري، الوافي بالوفيات، ج6، ص 92.

(6) المصدر السابق، ج6، ص 92، وذكر الأول إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، ج1، ص 47، ولم يذكرهم د. عبد الواحد ذنون طه ضمن كتب الرقيق.

(7) المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص 132.

(1) مقدمة كتاب تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق د. عبد الله الزيدان وعز الدين موسى صفحة ل.

(2) تاريخ إفريقية والمغرب، مقدمة المحقق، ص 23.

- كما يعد كتاب «تاريخ إفريقية والمغرب» من أشهر تصانيف الرقيق لأنه أحد المصادر الرئيسية التي اعتمدها ابن عذاري وذكرها في مقدمته⁽¹⁾، ولأن أهميته تكمن في:
- أن التأليف يعد الأوفى والأشمل على ما كتب عن بلاد إفريقية والمغرب، أي بالمعنى تناول فيه الأحداث من الفتح العربي الإسلامي حتى أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد.
 - أن الرقيق احتفظ لنا بروايات عديدة لمؤرخين قدماء منهم من عاصر الأحداث أو كان ذي صلة بها من ثم جاء ابن عذاري ونقل الكثير من هذه الروايات مسندة إلى أصحابها، وإن لم يفضل أحيانا بالإشارة إلى أنه أخذها من كتاب الرقيق.
 - الأهمية الثانية اعتماد ابن عذاري على الرقيق تتجلى في أن الأخير كان شاهد عيان لكثير من الأحداث التي سجلها، حينما كان يعمل في البلاط الصنهاجي وأنه كان يدون ملاحظاته عن الحوادث التاريخية التي يراها ويسمعاها.
 - الأهمية الثالثة لاعتماد ابن عذاري على روايات الرقيق، فنلمس من خلالها الدقة المتناهية التي كان يتبعها الرقيق في إيراد أخباره، لاسيما تلك التي تتعلق بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية.
 - أما مواضع نقل ابن عذاري عن الرقيق فقد بلغت ثمانية وثلاثين موضعا وهي تقولات مطابقة تقريبا للقطعة التي حققها السيد المنجي الكعبي، كما نجد فيه أخبارا أخرى منسوبة إلى الرقيق، خارج الفترة التاريخية لهذه القطعة⁽²⁾
- فمثلا حين:
- يتحدث عن أوضاع إفريقية منذ مقتل عبد الرحمن بن حبيب، والأحداث اللاحقة.
 - الحروب التي حلت بالبلاد إلى ولاية عمرو بن حفص بن قبيصة (سنة 101هـ/768م) واشتداد الفتنة بإفريقية.
 - ذكر ولاية عقبة بن نافع على إفريقية وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 32.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 17، 19، 133.

- أخبار موسى بن نصير وعودته بالأحوال التي حملها معه في الأندلس إلى شمال إفريقيا.
- من أخبار ولاية يزيد بن حاتم على إفريقيا والمغرب.
- كيفية وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب.
- رواية تتعلق بهرثمة بن أعين، وبنائه للقصر الكبير المعروف بالمنستير.
- من أخبار إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلّب.
- من أخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي.
- نقل ابن عذاري عن الرقيق أنه ذكر سيرة أبي الفتح المنصور بن أبي الفتوح في كتاب مفرد.
- من أخبار الرقيق مع يوسف بن أبي محمد صاحب الخراج من قبل المنصور بن يوسف بن زبيري.
- أخبار الغلاء الذي وقع بإفريقية سنة 395هـ/1004م.
- خبر ظهور أموال حماد بن باديس بعد هزيمته أمام نصير الدولة باديس صاحب إفريقيا.
- خبر القبض على يوسف بن أبي حبوس أمير الجيوش بإفريقية بأمر نصير الدولة والتمثيل به ثم انتحاره.
- وصف الرقيق للأخبار التي وقعت في وادي شلف.
- إعراض ابن عذاري عن ذكر تفاصيل عرس المعز شرف الدولة الذي قد شرحها الرقيق في كتابه.
- خبر وصف زواج السيدة أم العلو بنت نصير الدولة أخت شرف الدولة.
- خبر ابتداء عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول حكمه بالخلاعة والمجانة.
- استمرار عبد الرحمن بن أبي عامر بعدما تم له ما أراد في ولاية العهد في الفسوق والانتهاك والزنا.

- خبر تقريب عبد الرحمن بن أبي عامر سفال أهل قرطبة، وظهور محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر بقرطبة.
- من أخبار محمد بن هشام وانتزاعه الخلافة من هشام بن الحكم وانتهاج العامة مدينة الزاهرة.
- من أخبار مقتل عبد الرحمن بن أبي عامر على يد محمد بن هشام بن عبد الجبار، وما وقع من الفتن وإعلان وفاة هشام بن الحكم المؤيد بالله وانقراض الدولة العامية.
- من أخبار الفتنة التي وقعت بين محمد بن هشام الملقب بالمهدي وهشام بن سليمان بن الناصر الملقب بالرشيد سنة 399هـ/1008م.
- خبر دولة سليمان بن حكم المستعين بالله وما جرى بينه وبين ابن عبد الجبار.
- خبر قصة رجل البادية وابنته أيام الفتنة.
- ما وقع على أهل قرطبة من الشدة والتعصب على البربر حتى رفضوا الصلح معهم.
- خبر تسليم أهل قرطبة الحصون للنصارى لمساعدتهم ضد البربر.
- خبر السيل العظيم الذي هدم أجزاء كبيرة من قرطبة سنة 401هـ/1010م.
- خبر الثائر الذي قام بشرق الأندلس من بين أمية.
- مقتل هشام المؤيد.

2. كتاب نظم الجمان ووضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان لابن القطان.

وهو أحد المصادر الرئيسية التي اعتمدها مؤرخنا ابن عذاري، وقد نص عليها في مقدمة كتابه، ومؤلف هذا الكتاب من مشاهير البربر، وهو أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي المراكشي⁽¹⁾ المعروف بأبي القطان، اشتغل بطلب العلم منذ شبابه، وتلمذ على عدد كبير من الشيوخ

(1) مجهول، مؤلف، مفاخر البربر، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، ص 65.

الكبار، فبرز في عدة علوم يأتي في مقدمتها علم التاريخ، وقد تحدث الدكتور محمود علي مكّي بالتفصيل عن حياته وجهوده العلمية وتأليفه بما يغني عن إعادته هنا⁽¹⁾.

فكتاب "نظم الجمان" موسوعة تاريخية ضخمة تتناول تاريخ المغرب والأندلس ولكنه في معظمه -وللأسف الشديد- مفقود، ولم يصلنا منه سوى الجزء السادس والذي يتناول أخبار ثلاثة وثلاثين عاما (أي من سنة 500هـ/1106م) إلى (سنة 532هـ -1137م)، فهذا الكتاب يعد من أبرز المصادر التي تناولت تاريخ الموحدين⁽²⁾، وترجع أهميته كونه:

أ- معاصرة المؤلف لأحداث هذه الدولة، فضلا عن موالاته لحكامها، واشتغاله في ديوان الرسائل مما مكّنه من الاطلاع على كثير من الوثائق الرسمية للدولة، فأضفى ذلك على كتابه ومادته أهمية تاريخية خاصة.

ب- ما نقله من نصوص تاريخية كثيرة عن كتب ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في هذا الكتاب مثل كتاب «فضائل المهدي» لأبي القاسم المؤمن المغربي، وكتاب «المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب» لليسع بن حزم، وكتاب لابن الراعي لم نعرف عنوانه⁽³⁾، وغيرها. وقد ذكر ابن عذاري عنوانين لكتاب ابن القطان الذي نقل عنه، فذكره مرة بعنوان «نظم الجمان في أخبار الزمان»⁽⁴⁾، وقد ذكر هذا العنوان في مقدمة كتاب «البيان المغرب» في معرض ذكره للكتب التي اعتمدها في تحرير مؤلفه⁽⁵⁾.

(1) ينظر إلى المقدمة القيمة التي وضعها بين يدي تحقيقه ونشره للجزء السادس من كتاب "نظم الجمان" لابن القطان، وراجع د. محمد المتولي: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 57.

(2) نشر الكتاب لأول مرة ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بمدينة الرباط بالمملكة المغربية، وبمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، تحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث، المطبعة المهدية، تطوان، سنة 1964م، ثم نشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت في طبعته الثانية سنة 1990م.

(3) ينظر، ابن القطان، نظم الجمان، مقدمة المحقق، يراجع: د. حسن علي حسن: "دراسة في بعض مصادر التاريخ العربي الإسلامي بالمغرب"، القسم الثاني، ص 1213.

(4) هذا العنوان ذكره أيضا ابن سودة، ينظر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص 184.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص3.

وذكر مرة أخرى بعنوان «نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان»، وقد ذكر هذا العنوان في معرض حديثه عن الكتب التي ألفها ابن القطان للخليفة الموحي المرتضي⁽¹⁾

أما مواضع نقل ابن عذاري عن ابن القطان فقد بلغت خمسة وثلاثين موضعا من كتابه، ولا شك أن كثرة النقول عن هذا الكتاب يدل على مدى أهميته، وكان من أهم الأخبار التي نقلها عنه⁽²⁾.

- فمن المقدمة الجغرافية ينقل عنه صفة مدينة تيهرت - على ما ذكره ابن القطان -، فتحدث عن موقعها...⁽³⁾، ثم بعدد أبوابها وميزاتها، وأهم القبائل البربرية الساكنة في جوارها. وبعد ذلك نجده يتحدث عن مدن أخرى مغربية، مثل طنجة، ومدن السوس، وغيرها⁽⁴⁾.

- خبر عن غزوات «عقبة بن نافع» في المغرب وعودته إلى إفريقية ثم استشهاده، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: "قال ابن القطان..."⁽⁵⁾.

- خبر يؤكد فيه ابن القطان أن عزل «حسان بن النعمان» عن ولاية إفريقية وتولية «موسى بن نصير» مكانه كان بأمر عبد العزيز بن مروان دون أمر أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان ولا مشورته، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر ابن القطان أن...]⁽⁶⁾

من خلال عرضنا لبعض النصوص يظهر بنا جليا اعتماد ابن القطان على الروايات الشفوية بدليل ترديده لعبارات مثل: [وذكر] و[الأكثرين يقولون] و[اختلف الناس]، و[أخبرت]،... فهي تدل على النقل الشفوي، وهذه الطريقة نجد ابن عذاري يستعملها بنفسه أحيانا. وكذلك خبر عن عبد الله

(1) البيان، قسم الموحيين، ص 446.

(2) ذكر الأستاذ الدكتور محمود علي مكي النصوص التي نقلها ابن عذاري عن كتاب ابن القطان في مقدمة تحقيقه للجزء المتبقي من هذا الكتاب، ينظر: مقدمة المحقق، ص 4044.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 25.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص ص 2627.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 28.

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 39.

الشيعة والخلاف في نسبه وكذبه، وقد ختم ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [هكذا ذكر ابن القطان في نسبه] (1).

لعل الذي يلفت انتباهنا في هذه المسألة ما أشيع أو ما يشاع في أخبار المحدثين أو أقوال وآراء الباحثين أو ما وجدنا وما نجده أن ابن القطان يشير إلى تعصبه للدولة الموحدية، ويعطي صبغة مذهبية واضحة لكتاب الجمان. ونجد فيما نقله ابن عذاري عن ابن القطان تحاملا واضحا على الخلافة الفاطمية في مصر (2).

وطعنا بالنسب العلوي لعبيد الله المهدي الفاطمي، ويورد عدة روايات لإثبات وجهة نظره هذه ينقلها ابن عذاري، ولكنه يضع عهدتها على ابن القطان.

كما يدل أيضا على محاولة ابن عذاري في الوقوف على الحياد في هذه المسألة، وعدم الانسياق وراء ابن القطان في اتهاماته واستنتاجاته.

والثابت أن ابن عذاري كان ينتقي ما يريد من روايات من كتاب ابن القطان، ومن ثمة نجده يختصر في بعض الأحيان الوقائع التي يرى أن تفصيلها يخل بكتابه.

3. كتاب المقياس في أخبار المغرب وفاس، لأبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق:

وهو من رجال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وكان حيا في سنة 555هـ/1160م، كما يتضح ذلك من خبر نقله علي الجزنائي (3) كثيرا وسماه بصاحب «المقياس»، وابن أبي زرع (4) والذي اعتمد عليه أيضا في «روض القرطاس»، وأسماه في كتابه هذا ونقله قوله: [قال أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق... (5)]، وبالإضافة إلى هذين المؤرخين، فقد نقل عن أبي مروان

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 159.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 287.

(3) الجزنائي، جني زهر الأسم في بناء مدينة فاس، ص 27، 41، 40.

(4) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 24، 42، وينظر أيضا: ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج 1، ص 59، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1958، ج 6، ص 192.

(5) المصدر السابق، ص 24.

الوراق مؤرخون آخرون من أمثال ابن الخطيب⁽¹⁾، والمؤلف ابن القطان⁽²⁾، وابن خلدون⁽³⁾، والمجهول لكتاب مفاخر البربر⁽⁴⁾.

وقد نقل ابن عذاري المراكشي في كتابه «البيان المغرب» عن الوراق وذكره في قائمة مصادره وسمى كتابه «المقياس»⁽⁵⁾، ويشير ابن عذاري في نص له أن الوراق قد ذكره وشرحه شرحا كافيا⁽⁶⁾.

ونقل ابن عذاري المراكشي في كتابه «البيان المغرب» عن الوراق، وذكره من خلال تتبعنا

لنقولاته في ثلاثة عشر موضعا:

فمرة يذكره بقوله [ذكر الوراق]، وهو في موضعين⁽⁷⁾ أو يقول [قال الوراق] وهو في موضعين

كذلك⁽⁸⁾، ويقول [قال الوراق في مقياسه]، وهو في أربعة مواضع⁽⁹⁾، ويقول [قال أبو مروان الوراق]،

وهي في ثلاثة مواضع⁽¹⁰⁾، ومرة واحدة فقط قال: [قال أبو مروان في كتاب المقياس]⁽¹¹⁾، ثم يذكره

بكنيته واسمه ويسمي كتابه فيقول [ذكر عبد الملك بن موسى الوراق في كتابه المقياس في أخبار

فاس]⁽¹²⁾ وذلك مرة واحدة.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 446.

(2) ابن القطان، نظم الجمان، ص 144.

(3) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 439.

(4) مجهول، مفاخر البربر ص37، 53، نقلا عن موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا ص 232، وينظر محمد المتولي، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 47.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص 132، 311.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 253، ج4، ص 80.

(8) المصدر السابق، ج3، ص 228، 258.

(9) المصدر السابق، ج1، ص 311، ج3، ص 249، ج4، ص 78، 97.

(10) المصدر السابق، ج3، ص 272، ج4، ص 99، 101.

(11) المصدر السابق، ج1، ص 5.

(12) المصدر السابق، ج1، ص 255.

وقد أسقط د/عبد الواحد ذنون طه في بحثه⁽¹⁾، ذكر الروايات الخمس التي أوردها ابن عذاري في الجزء الرابع الذي حققه د. إحسان عباس⁽²⁾.

فالنصوص الثلاثة عشر التي نقلها ابن عذاري عن الوراق هي:

ج1: 253-«بعض أخبار زناتة ودولتهم بالمغرب إلى حين ظهور المرابطين» وفيه خبر علاقة المعز بن زيري بن عطية بالمظفر بن أبي عامر ثم وفاة المظفر بن أبي عامر وتقديم أخيه عبد الرحمن لحجابه هشام المؤيد الذي جدد العهد للمعز بولاية الغرب كلها إلا دينة سجلماسة وبقاء المعز أميراً عليها حتى انقرضت الدولة العامرية والمروانية.

وقد أشار ابن عذاري إلى أن الوراق قد «شرحه شرحاً وافياً»⁽³⁾

ج2: 255-«تابع لأخبار زناتة»، وفيه خبر الأحداث التي وقعت سنة 459هـ/1066م في مدينة فاس وما حولها من دخول إبراهيم ابن مليح الجزنائي مدينة فاس وأخرجه معنصر بن حما والي الشرق.

: 311- خبر اعتقال الأمر بالله الفاطمي (الأمير أبو علي المنصور 495-524هـ/1101-1130م)

ج3: 228- خبر إرسال علي بن مجاهد بمركب كبير مملوء طعاماً إلى بلاد مصر بسبب الجوع الذي وقع عام 447هـ/1055م.

: 249- خبر إظهار المعتضد بن عباد سنة 451هـ/1059م موت هشام المؤيد، وكان هذا الإعلان الثالث لموت المذكور.

: 258- خبر تغلب عبد الملك بن جهور على أخيه عبد الرحمن وسجنه بمنزله وتسلطه على قرطبة وذلك سنة 456هـ/1014م.

: 272- خبر مقاتلة المعتضد بن عباد بنو يريثيان أصحاب شذونة ومراكش وزعيمهم محمد بن خزرون وهزيمتهم.

(1) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 231، 232.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 78، 80، 97، 99، 101.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 253254.

ج4: 78-خبر عزم علي بن يوسف بن تاشفين تولية ابنه سير ولاية العهد وأخذه البيعة له من أهل الحل والعقد.

: 80-خبر عزل علي بن يوسف ابنه تاشفين عن الأندلس.

: 97-خبر وفاة سير ولي عهد يوسف بن تاشفين وولاية العهد لتاشفين ابن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

: 99-خبر خلع علي بن يوسف بن تاشفين ابنه تاشفين من ولاية العهد وتولية ابنه الأصغر إسحاق.

: 101-تأريخ وفاة علي بن يوسف بن تاشفين.

ويتضح جليا أن نطاق كتاب عبد الملك بن موسى الوراق، لا يمكن بأية حال من الأحوال تحديده بشكل دقيق، وربما ذلك يعود إلى قلة النصوص التي وصلتنا، فهي لا تسمح لنا إلا بالافتراض بأن كتابه كان يتناول الأحداث في المغرب والأندلس، ولاسيما في منطقة مدينة فاس منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إلى وفاته في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، هذا إضافة إلى بعض أخبار المشرق، لاسيما عن مصر في عهد الفاطميين.

4. كتاب القبس أو المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس:

لمؤلفه الشيخ أبو عبد الله محمد بن حمادة السبتي، صاحب كتاب «القبس أو المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس» من مؤرخي المغرب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ولا نعرف تاريخ وفاته بالضبط.

كما لا توجد في المصادر معلومات كثيرة عن حياته، فقد ذكره مؤلفه الشيخ أبو عبد الله محمد بن حمادة السبتي، صاحب كتاب "القبس أو المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس" من مؤرخي المغرب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ولا نعرف تاريخ وفاته بالضبط.

كما لا توجد في المصادر معلومات كثيرة عن حياته، فقد ذكره صاحب مفاخر البربر ونقل عنه في عدة مواضع، وذكر كتابه واسمه⁽¹⁾ حيث يطلق عليه المؤلف المجهول لكتاب مفاخر البربر اسم الفقيه الحافظ التاريخي أبو عبد الله محمد بن حمادة السبتي البرنوسي، نسبة إلى برنوس من بربر البرانس⁽²⁾، وهذا إن دل فإنما يدل أن يكون ابن حمادة قد ألف أيضا كتابين آخرين مفقودين، الأول باسم: «تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة»، والثاني: «النبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة»⁽³⁾

كما ذكره المقرئ⁽⁴⁾ وأورد له من شعر

فكل جبار إذا ما طغى وكان في طغيانه يسرف

أرسله الله إلى سبته فكل جبار بما يقصف

وعلى أي حال فإن كتابه المعروف بالقبس أو المقتبس، يعد أيضا من الكتب المفقودة، ولم يبق منه سوى بعض النصوص التي انتفع بها صاحب كتاب مفاخر البربر، وابن أبي زرع، وعلي الجزنائي⁽⁵⁾، وابن عذاري، وغيرهم من المؤرخين المتأخرين، لعل هذا الكتاب يمكن أن يكون مختصر أو مقتبس من طرف ابن حمادة عن كتابيه الأولين المذكورين أعلاه.

ومن خلال استقراءنا لبعض النصوص التي ذكرها ابن عذاري عن ابن حمادة، يتبين لنا أن هذا الأخير ألف عدة مؤلفات منها:

1. كتاب «القبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس» سبق ذكره وهو مفقود.
2. كتاب «تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة» وهو مفقود.
3. كتاب «النبذة المحتاجة في تاريخ صنهاجة» وهو مفقود.

(1) مجهول، مفاخر البربر ورقة 30 أ، ب، 33 نقلا عن محمد النوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 48، راجع ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج1، ص 59.

(2) مفاخر البربر، المصدر السابق، ص 43، 46، 58، 64.

(3) ينظر: ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج1، ص 134، 167.

(4) المقرئ، أزهار الرياض، ج1، ص 48.

(5) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا، ص 234.

كما ذكر الكتابين السابقين ابن سودة⁽¹⁾.

4. كتاب «اختصار المدارك» لشيخه القاضي عياض ذكره ابن فرحون⁽²⁾

ونقل ابن عذاري عن ابن حمادة وذكره في مقدمة كتابه ضمن المصادر التي اعتمد عليها⁽³⁾، وذلك في تسعة عشر موضعا وهي:

ج1: 6- رواية ابن حمادة في ذكر حد المغرب.

77- خبر قتل عمرو بن حفص كان في سنة 154هـ/770م.

89- ذكر ولاية هرثمة بن زعين على إفريقية من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد وقتاله ابن الجارود.

211- خبر ما ترك إدريس بن إدريس من الولد وهم اثني عشر.

227- خبر رؤية ابن حمادة السجل الذي أمر الحكم المستنصر بكتابته إلى أهل سبته سنة

353هـ/964م يرفع عنهم جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية.

252- ذكر بعض أخبار زناتة ودولتهم بالمغرب.

ج2: 243- في سنة 360هـ/970م هزيمة محمد بن الخير أمير زناتة أمام يوسف بن زيري الصنهاجي المشهور ببلقين، وقتل محمد بن الخير نفسه.

ج3: 113- في سنة 403هـ/1012م قام سليمان المستعين بالله وقسم بعض بلاد الأندلس على رؤساء القبائل.

115- خبر هروب العبيد العامريين إلى شرق الأندلس حينما استولى البربر على قرطبة.

ج4: 58- أمر يوسف بن تاشفين القاضي محمد بن عيسى ببنيان جامع سبته.

(1) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج1، ص 134، 167.

(2) الديباج المذهب، ج2، ص 375، وينظر: ابن سودة، المصدر السابق، ج1، ص 269.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 5.

74- خبر في حوادث سنة 520هـ/1126م ادعاء رجل في ريف سبتة أنه الخضر فقبض عليه وحمل إلى مراکش فقتل وصلب.

83- خبر محاصرة الموحدين لمدينة مراکش سنة 524هـ.

88- في سنة 527هـ وصول العدو النصارى إلى حومة مدينة شريش والبحيرة.

96- خبر غزو تاشفين بن علي لبلاد الروم سنة 532هـ/1129م.

96- ذكر السيل العظيم بطنجة سنة 532هـ/1129م.

98- ذكر المعركة التي وقعت بين تاشفين بن علي والموحدين في شوال سنة 534هـ/1130م.

98- خبر انجلاء أهل المغرب إلى الأندلس.

99- خبر وصول الموحدين إلى ريف سبتة وتيطوان ثم عودتهم إلى غمارة.

104- خبر مقتل تاشفين بن علي ليلة سبع وعشرين في رمضان سنة 953هـ/1144م.

ويتضح لنا خلال استقراءنا لبعض النصوص التي ذكرها ابن عذاري عن ابن حمادة، تبين بعض الأساليب التي اتبعها الأخير في التدوين التاريخي، فهو يتحرى الوثائق التاريخية وينقل عنها، أن توفرت، وبقية النصوص التي يأخذها ابن عذاري تساعده في التعرف على العصور التاريخية التي يغطيها كتاب «القبس».

5. تاريخ إفريقية والأندلس لعريب بن سعد (ت 370هـ/980م)

هو غريب بن سعد القرطبي، وهو من مدينة قرطبة في الأندلس، كان أديبا وشاعرا ومؤرخا وعالما بالنحو واللغة، طبيا ماهرا شديد العناية بكتب الأطباء القدماء والمحدثين⁽¹⁾. فهو كان قد ظهر في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أصله نصراني أسلم آباؤه واستعربوا وعرفوا ببني التركي.

(1) ابن عبد الملك المراكشي، الذي والتكملة، تحقيق د/ إحسان عباس، السفر الخامس، القسم الأول، ص 141143، الإعلام، الزركلي، ج 4، ص 227، موارد ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 235.

ويتبين من الترجمة أيضا أنه كان على اتصال بالبلاط الأموي في قرطبة، وذلك لما استعمله الناصر سنة 331هـ/942م على كوره أشونة واستكتبه المستنصر (الحكم) وارتفعت منزلته عند الحاجب المنصور بن أبي عامر فسماه (خازن السلاح)⁽¹⁾.

ولم يكتب عريب بن سعيد بتأليف تاريخ إفريقية والأندلس فقط، بل هناك تأليف أخرى لعل أبرزها مختصر تاريخ الطبري، ونظرا لأهميته وبوصفه من التجارب الأولى لكتابة التاريخ العام في الإسلام، فقد رأى أن يكتب له مختصرا يسهل الرجوع إليه، والاستفادة منه، فاختصر منه ما يتصل بأخبار المشرق من سنة (289هـ/902م) إلى سنة (319هـ/931م) بل استدرك عليه وذيل ما حدث بعده⁽²⁾ هذا المختصر ما يختص بأخبار إفريقية والأندلس وأودعه كتابه البيان المغرب⁽³⁾، بالإضافة إلى كتاب «الأنواء»، وكتاب في «خلق الإنسان وتدبير الأطفال»، وكتاب في «عيون الأدوية»، وكتاب «تقويم قرطبة» بالحروف العبرية وضعه سنة 349هـ.

وقد نشر دي غويه الجزء الخاص بتاريخ المشرق من هذا الكتاب (ليدن 1897م)، بينما فقدت رواية عريب الأخرى عن تاريخ المغرب والأندلس.

ويشير بونس بويجس إلى وجود مخطوط في غوتا برقم 261، وفيه تفصيلات عن تاريخ إسبانيا والخلفاء الراشدين، والمغرب منذ سنة (290-320هـ/902-932م)، وربما يكون هذا هو الجزء الخاص بالمغرب والأندلس من رواية عريب⁽⁴⁾. وقد نقل ابن عذاري عن هذا الجزء معلومات خاصة بشمال إفريقيا والأندلس، والملاحظ في هذا الجزء بالذات قلة النقل فيما يخص شمال إفريقيا، وحيث أن ابن عذاري نقل عن عريب أحد عشر نصا وهي:

(1) آجل جنتالك، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص 206.

(2) المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص 302.

(3) يقول د. إحسان عباس عن كتاب إفريقية والأندلس: وأحسب أن هذا المنشور لا يمثل إطلاقا ما يقوله ابن عبد الله في هذه الترجمة، ينظر الذليل والتكملة، ابن عبد الملك، السفر الخامس، القسم الأول، ص 142.

(4) د/ عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا، ص 236، وينظر: Los Historiadores Y Geografos

ArabigoEspañoses, pp 8889

- ج1: 14-خبر عن غزوة عبد الله بن أبي سرح إفريقية سنة (33هـ/ 653م) للمرة الثانية حتى نقض أهلها العهد، وختم نقله بقوله: [هكذا ذكره عريب في مختصره]⁽¹⁾
- 15- خبر عن معاوية بن خديج وتسمية البلاد التي نزلها، فقال: [قال عريب في مختصره ذكر أهل العلم بأخبار إفريقية أن معاوية ابن خديج نزل جبلا فيها فأصابه فيه مطر شديد] فقال: [أن جبلنا هذا المظموري]، فسمى البلد مظمورا إلى الآن، وقال: [أذهبوا بنا إلى ذلك القرن]، فسمي ذلك الموضع قرنا، وكانت لمعاوية هذا إلى إفريقية ثلاث غزوات⁽²⁾
- 15- خبر عن غزو عقبة بن نافع للمغرب وفتح غدامس، وما أصابه فيها من السبي والأموال، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال عريب في مختصره للطبري]⁽³⁾
- 17- خبر عن الحملة التي أرسلها معاوية بن خديج إلى صقلية، وما حققته من انتصارات وما غنمه رجالها من السبي والأموال، ثم إرساله لخمسة هذه الغنائم على معاوية بن أبي سفيان، وقد ختم ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [هكذا نص عريب في مختصره للطبري]⁽⁴⁾
- 77- خبر عن خلع عبد الرحمن بن حبيب لطاعة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور سنة (137هـ/754م) وقد أكد ابن عذاري هذا الخبر وتحقق من حدوثه في هذه السنة بالتحديد ما أورده (عريب بن سعيد» فقال: [وحقق عريب أن خلعه لطاعة أبي جعفر كان في هذه السنة]⁽⁵⁾
- 77- خبر عن زحف أبي قرّة من تلمسان إلى القيروان ومصالحة عمرو بن حفص له، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرقيق وعريب ...]⁽⁶⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 14، وينظر النص المطبوع من تاريخ الطبري، ج4، ص 317.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 15.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 15.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 1617.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 14.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 7778.

78- خبر عن استخلاف عمرو بن حفص للمهنا بن المخارق على طينة، وخروجه إلى القيروان ومقتله على يد أبي حاتم الإباضي سنة (154هـ/770م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وفي سنة 154هـ قال عريب ...]⁽¹⁾

108- خبر عن خلو سنة (228هـ/842م) من أخبار مهمة عن إفريقية، وكذلك السنتان التان بعدها، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال عريب وغيره...]⁽²⁾

167- خبر عن هروب زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب من إفريقية إلى مصر، ووفاته مسموما بيد بعض عبيده، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وقال عريب...]⁽³⁾

201- خبر عن افتتاح الناصر لدين الله الأموي مدينة سبته سنة (319هـ/931م) وأهميتها الاستراتيجية بالنسبة للعدوة الأندلسية، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقول: [قال عريب...]⁽⁴⁾

ج2: 175- خبر عن عبد الرحمن بن عمرو بن حفصون وتسليمه حصن «طرش» لرجال أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وكان صاحب كتب، حسن الخط، ثم صار وراقا، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال عريب...]⁽⁵⁾

وبالعودة إلى الأخبار التي نقلها ابن عذاري عن عريب ومراجعتها نجد أن الروايات مختصرة وقصيرة جدا أو تفصيلات لأخبار نقلها رواة آخرون، وربما هدف ابن عذاري تدعيم وجمع روايات الخبر على اختلافها.

6. كتاب "أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي" لأمية بن أبي الصلت (ت 536هـ/1141م)

مؤلف هذا الكتاب أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت، أندلسي الأصل، عاش في النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجريين-الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 78.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 108.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 167.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 201.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 175.

ولد بدانية من بلاد الأندلس ثم خرج من إشبيلية فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين وتوجه برسالة إلى مصر في أيام الأمر الحاكم العبيدي بمصر فسجن في القاهرة في خزانة البنود وكان فيها خزائن من أصناف الكتب، فأقام بها نحو عشرين سنة فخرج منها وقد برع في علوم كثيرة، ثم استقر أخيراً في المهديّة وتوفي بها سنة 528 أو 529هـ/1133 أو 1134م، كما يشير إلى ذلك بعض الكتاب الذين ترجموا له⁽¹⁾

ومما تجدر الإشارة فيه هنا حول تاريخ وفاة ابن الصلت الذي أعلن عنه ابن عذاري، وهو الذي انفرد عنهم جميعاً برواية يردّها في حوادث سنة 536هـ/1141م⁽²⁾، وهذه ربما تكون قد جاءت من مصادر تختلف عما اعتمد عليه أولئك الذين ترجموا له، والذين في معظمهم أشاروا إلى هذا الرجل وإلى مؤلفاته وآثاره، والتي هي آثار أدبية وطبية وتآليف أخرى تتعلق بالتنجيم والمنطق، وأهم هذه الكتب: كتاب «الأدوية المفردة»، كتاب «تقويم الذهن في المنطق»، كتاب «الرسالة المصرية»، كتاب «ديوان شعره»، كتاب «رسالة في عمل الإسطراب»، كتاب «الديباجة في مفاخر صنهاجة»، كتاب «ديوان رسائل»، كتاب «الحديقة»⁽³⁾، كتاب «أخبار المهديّة الحسن بن علي بن تميم» ذكره ابن عذاري⁽⁴⁾.

وكتاب في علم الهيئة⁽⁵⁾

ويذكر عبد الواحد⁽⁶⁾ أن الذين ترجموا له لم يذكروا له كتاباً في التاريخ باستثناء ياقوت الذي أشار إلى كتاب له بعنوان «الديباجة في مفاخر صنهاجة»⁽⁷⁾ والذي ربما يكون قد كتبه أثناء إقامته في

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت، 1965، ص 505، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 7، ص 52، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج 1، ص 645، المقرئ، نفع الطيب، ج 12، ص 106.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 312.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 2، ص 323.

(4) البيان المغرب، ج 1، ص 309.

(5) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 514، 515، معجم الأدباء، ج 1، ص 464، وفيات الأعيان، ج 1، ص 247، المقرئ، نفع الطيب، ج 2، ص 106، وينظر أيضاً: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اسطنبول، 1941، ج 1، ص 51772845891.

(6) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 238.

(7) معجم الأدباء، ج 7، ص 64.

البلاط الصنهاجي، حيث استقر في كنف بني زيري الصنهاجيين ما يقارب العشرين عاما. كما يذكر أيضا له كتاب «الرسالة المصرية»، والتي ربما يكون لها صلة بالتاريخ، وهي التي ذكر فيها ما رآه بمصر من هيئتها، وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين، والشعراء وأهل الأدب، والتي ألفها لأبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس⁽¹⁾. وقد نقل ابن عذاري من كتاب «أخبار المهدي وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم»، وهذه النقول هي:

ج1: 274-خبر قيام المعز شرف الدولة بالإمارة وقطعه الدعوة العبيدية الشيعية من إفريقية وقتلهم في سائر بلاد إفريقية.

292-خبر بروز المعز شرف الدولة على لقاء قبائل العرب الواصلة من المشرق.

298-تاريخ وفاة المعز شرف الدولة بن باديس لحمس بقين من شعبان سنة 454هـ/1062م.

309-خبر رجل من الإفرنج بصقلية.

ج4: 62-خبر لقاء يوسف بن تاشفين الأنفونس ملك جليقية، وتنجم الامير أبي القاسم محسن طالع وسعد الأمير يوسف بن تاشفين. ومما يستشف من هذا القليل لابن عذاري عن هذا الكتاب أنه يركز في غالبه على عهد المعز بن باديس (106-153هـ/1015-1061م)، ووقوفه أمام العبيديين، والعرب الذين دفعهم هؤلاء للتزوح إلى الغرب⁽²⁾ كما نقل ابن الخطيب⁽³⁾، عن أبي الصلت رواية وفاة يحيى بن المعز بن باديس عام 509هـ/1116م.

إلا أننا لا نجد إشارة إلى اسم الكتاب، والذي قد يكون كتاب "أخبار المهدي"، أو كتاب "الديباجة في مفاخر صنهاجة".

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن عذاري لا يشير إطلاقا إلى الكتاب الأخير. فأغلب وراياته عن كتاب «أخبار المهدي»، فهي على غاية كبيرة من الأهمية، لأن أبا الصلت عاصر الكثير من الأحداث

(1) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 238.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 274، 292، 298.

(3) أعمال الأعلام فيمن بوبع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ج3، المتعلق بشمال إفريقيا، تحقيق: حسن حسين عبد الوهاب، بالرمو، 1910م، ص32

التي أرحها، فهو شاهد عيان، أو أنه التقى وسمع من شهود العيان الذين عاشوا في مدينة المهديّة، واطلعوا على أحداثها، فنقل عنهم معلوماته، ودونها في كتابه المذكور أعلاه.

7. كتاب الذيل لأبي عبد الله محمد أبي سعيد محمد المعروف بأبي شرف الجذامي القيرواني (ت 460هـ/1064م)

هو محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني أبو عبد الله، عرف مؤلف هذا الكتاب ببراعته في الكتابة والشعر، ولد بالقيروان، واتصل بالمعز بن باديس وكان من خاصته، فألحقه بديوان حاشيته، واستمر على ذلك إلى أن زحف عرب الصعيد من بني هلال ومن معهم واستولوا على معظم القطر التونسي سنة (449هـ/1057م)، ثم غادر المهديّة إلى صقلية ومنها إلى الاندلس حيث استقر أخيراً في إشبيلية عند المأمون بن ذي النون أميرها، وفيها توفي سنة (460هـ/1068م)⁽¹⁾

قال عنه ابن بسام: [كان أبو عبد الله ابن شرف من فرسان هذا الشأن -الأدب- وأحد من نظم قلائد الأدب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرياح بأعطاف الغصون]⁽²⁾ كما كانت لأبو عبد الله ابن شرف مهاجاة ومعاداة مع ابن رشيق -الشاعر- جرى الزمان بها كعادته بين المتعاصرين، فلا ابن رشيق عدة رسائل يهجوها، ويذكر أغلاطه وقبائحه⁽³⁾

على الأغلب كانت مؤلفات أبو عبد الله بن شرف أدبية شعرية، أهمها: كتاب «أبكار الأفكار» فجمع فيه ما اختاره من شعره ونثره، وكذا «أعلام الكلام» وهو مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة، وكذلك «رسالة الانتقاد» ولعلها على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام، و«ديوان شعر» وغير ذلك⁽⁴⁾ أما فيما يخص كتاب «الذيل»، والذي اعتمد عليه ابن عذاري، فلم يذكر ممن ترجموا لأبي شرف إلى هذا الكتاب إلا ما ذكره ابن عذاري ضمن المؤلفات التي

(1) صلاح الدين الصفدي، الواقي بالوفيات، ج3، ص97، محمد شاكر الكيتي، فوات الوفيات، ج3، ص359، معجم المؤلفين، ج3، ص3، 316

(2) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج4، ص1، ج4، ص169، 170.

(3) فوات الوفيات، ج3، ص359.

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج19، ص43.

اعتمد عليها⁽¹⁾. نقل ابن عذاري عن ابن شرف ثمان روايات، وجعله ضمن المصادر التي اعتمد عليها⁽²⁾، وهذه الروايات هي:

ج1: 277-موقف المعز بن باديس تجاه العبيديين في مصر وقطع الدعوة لهم في إفريقيا.

278-279-خبر تبديل المعز بن باديس للسكة في شعبان سنة 441هـ/1049م الأمر الذي أدى إلى الغلاء بإفريقية.

280-خبر قطع المعز بن باديس الدعاء للعبيديين.

288-خبر قطع أهل المعز برقة الدعوة للعبيديين.

288-خبر سماح بين عبيد للعرب مجاوزة النيل وكان قبل ذلك ممنوعا ووصولهم للقيروان وتخريبها.

290-291-خبر هزيمة العرب للمعز بن باديس ونهبهم للقيروان.

292-خبر وقعة باب تونس الذي هزم فيه العرب أهل تونس ونهبهم لها.

298-خبر تاريخ وفاة المعز بن باديس.

ومما يلاحظ من خلال هذه النقول أن ابن شرف كان يكتب عما رآه وسمعه، أو عمن حدثه من الثقة⁽³⁾، وبالتالي فهو كان يكتب بإسهاب مما دعا ابن عذاري لأخذ كلامه باختصار في بعض الحالات⁽⁴⁾

كما أن هناك جانب آخر لا يمكننا الإغفال عنه وهو يتعلق برواية ابن شرف من خلال اهتمامه بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وتسجيلها، فعلى سبيل المثال لا الحصر نقل لنا ابن عذاري نصا

(1) د/ عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 240.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 3، 4.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 291.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 278، 279.

رائعا عن تبديل السكة، أو النقد في عهد المعز بن باديس سنة (441هـ/1049م)، وذلك بضرب عملة جديدة بدل عملة بني عبيد⁽¹⁾

8. كتاب العبر لأبي بكر أحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن أبي الفياض (ت 459هـ/1066م)

واحد من المؤرخين الأندلسيين الكبار الذين لقبوا أو عرفوا بابن الغشاء، ولم يذكر هذه التسمية له إلا ابن الأبار في كتابه الحلة السيرة⁽²⁾، ولد في مدينة استجة في حدود سنة (375 أو 379هـ/ 986 أو 990م)، وعاش في مدينة المرية، وتوفي سنة (459هـ/1066م)⁽³⁾

كما يفهم من كلام ابن عذاري أنه تولى منصب القضاء، فقد حلاه بالقاضي ابن أبي الفياض⁽⁴⁾، ولا ابن أبي الفياض كتاب في التاريخ أشار إليه المؤرخون بأسماء عديدة، فذكر ابن حزم⁽⁵⁾، أن اسمه (العبر) وبينما اكتفى ابن شكوال بقوله له [تأليف في الخبر والتاريخ]⁽⁶⁾، وذكر ابن الأبار الكتاب باسم (العبر)⁽⁷⁾، وسماه محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري (ت 681هـ/1282م) بـ «كتاب العبرة»⁽⁸⁾، وقد ورد اسم هذا الكتاب في مخطوطاتنفتح الطيب بأشكال ثلاثة هي: «كتاب العبر» و«كتاب العيق» و«كتاب العين»⁽⁹⁾. ولعل الكلمتين الأخيرتين ما هما إلا تصحيف لعنوان الكتاب الصحيح «العبر».

ويبدو من النصوص المتوفرة لدينا من هذا الكتاب أنه يختص بتاريخ الأندلس بالدرجة الأولى، وبالإشارة ذلك إلى النصوص المتوفرة حين الحديث عن موارد ابن عذاري عن تاريخ الأندلس، حيث

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 278، 279.

(2) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، ص 10، وينظر: الحاشية رقم 1 من نفس الجزء والصفحة.

(3) ابن شيكوال، كتاب الصلة، ج1، ص 60، رقم 126: ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963م، ج2، ص 10، 312.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 128.

(5) رسالة في فضل الأندلس، نقلها المقرئ في نفتح الطيب، ج3، ص 156، 186، ينظر، ص 183.

(6) الصلة، ج1، ص 60.

(7) الحلة السيرة، ج2، ص 10، 312.

(8) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، تحقيق: أحمد مختار العيادي/ معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص 164.

(9) P. Gayangos, the History of Mohamedan Dynasties in Spain, New York London, 1964, reprint of

London edition 1843, Vol. I.P. 474

نجد وللأسف ابن عذاري لم يذكر كتاب ابن أبي الفياض الذ نقل عنه واعتمد عليه، إذ اكتفى بذكر اسم المؤلف ابن أبي الفياض فقط، فيقول: [وقال ابن أبي الفياض...]⁽¹⁾، ويقول: [قال ذلك ابن أبي الفياض وغيره...]⁽²⁾، ويقول: [قال ابن أبي الفياض...]⁽³⁾، وهكذا، وكذلك اكتفى ابن بشكوال في ترجمته لابن أبي الفياض عند حديثه عن مؤلفاته التاريخية بقوله: [وله تأليف في الخبر والتاريخ]⁽⁴⁾، ولم يذكر لنا عنوان هذا التأليف.

والملاحظ أثناء مقارنتنا للنصوص المتوفرة أو المنقولة أن ابن الأبار استطاع أن يزيل هذا الغموض ويكشف لنا عن عنوان كتاب ابن أبي الفياض، إلا أنه لم يذكره كاملاً، حيث اكتفى بذكر أن هذا الكتاب عنوانه «العبر»، وأنه متخصص في التاريخ في أكثر من موضع من كتابه الحلة السيرة⁽⁵⁾ حيث قال وهو يتحدث عن الأمير عبد الله بن عبد العزيز: [وأُنشد له ابن أبي الفياض في تاريخه...]⁽⁶⁾، وقال في موضع آخر: [وقال أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض المعروف بابن الغشاء في كتاب العبر من تأليفه...]⁽⁷⁾، وقال أيضاً في موضع ثالث: [وقال أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض، ويعرف بابن الغشاء في تاريخه المترجم بالعبر...]⁽⁸⁾

كذلك تحدث المستشرق الإسباني «آنجل جونثالث بالنشيا» عن ابن أبي الفياض وأثنى عليه وذكر أنه مؤرخ حقيق بالذكر والتنويه⁽⁹⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 19.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 27.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص 129.

(4) ابن بشكوال، كتاب الصلة، ج1، ص 60، الترجمة رقم 126.

(5) وذكره ابن الأبار أيضاً في كتابه التكملة لكتاب الصلة، حيث كان أحد مصادر الأساسية في هذا الكتاب، ينظر: التكملة لـ ط. عزت العطار الحسيني، ج1، ص 375.

(6) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، ص 217.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 1011.

(8) المصدر نفسه، ج2، ص 312.

(9) آنجل جونثالث بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 212، وقد ذكر عبد الواحد المراكشي في الذيل الجغرافي الذي ألحقه بكتابه "العجب" أن ابن أبي الفياض له كتاب في "المسالك والممالك" ينظر: العجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العلمي العربي، القاهرة 1944، ص 346.

[ومما يزيد من أهمية كتاب ابن أبي الفياض انه كان أحد النقلة عن كتاب أحمد ابن موسى الرازي، عمدة كتب التاريخ الأندلسي، والذي توفي صاحبه في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري]⁽¹⁾، وبالتحديد سنة (344هـ/955م).

وقد نقل ابن عذاري عن كتاب ابن أبي الفياض في حوالي أربعة مواضع من كتابه؛ وكان من أهم

ما نقله عنه:

- خبر عن تحديد ميلاد عقبة بن نافع-رضي الله عنه، فقال: [وقال ابن أبي الفياض: إن عقبة ولد

قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة]⁽²⁾

- خبر عن غزوة عقبة بن نافع للسنوس الأقصى، وما أنزله من الرعب في قلوب أهله من البربر،

وما عنمه منهم من أموال ونساء، وأخبرنا بأن الجارية منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو

نحوها، فخافه المشركون وكانت قلوبهم تنخلع لذكره، وختم ابن عذاري هذا النقل بقوله:

[قال ذلك ابن أبي الفياض وغيره]⁽³⁾

- ونقل عنه أبياتا من الشعر للشاعر القرطبي محمد بن يحيى القلغاط يمدح بها الأمير إبراهيم بن

حجاج ويذم فيها عشيرته من أهل قرطبة، وقد فعل ذلك تقربا لهذا الأمير الذي كان في صراع

مع أمراء قرطبة، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر ابن أبي الفياض]⁽⁴⁾

كما نقل عنه كلاما مهما عن محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة، فذكر أنه تولى هذا

الأمر بعد موت أبيه، فكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة، وشهر في الفضل ذكره، وانبسط على

السنة الناس شكره، فقصده من الأقطار، ومدح بجيد الأشعار، وكانت دولته أعظم وأضخم من دولة

(1) د. طاهر راغب حسين، الأخبار المغربية والأندلسية في الكامل لابن الأثير، دراسة تحليلية مقارنة، ص 29.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 19.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 27.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص 128.

أخيه عبد الرحمن بإشبيلية وأطول، حيث طالت أربع عشرة سنة بعد موت أبيه، وتوفي سنة (302هـ 914م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن أبي الفياض]⁽¹⁾.

9. كتاب "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الزمان" لمحمد بن سعدون (ت 485هـ/1092م):

وأصل مؤلف هذا الكتاب من القيروان وهو محمد بن سعدون بن علي بن بلال القيرواني المالكي «أبو عبد الله»، ولد عام 413هـ، وقد سمع بالقيروان الحديث من شيوخ عديدين، كما سمع بمكة وبمصر أيضاً، اشتغل فطاف بلاد المغرب والأندلس⁽²⁾

قال عنه القاضي عياض⁽³⁾: [أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القروي، كان فقيهاً حافظاً للمسائل نظاراً فيها على مذهب القيروانيين حسن اللسان]، وقد توفي بأغمات في المغرب سنة 485هـ/1092م⁽⁴⁾

كما ذكر ابن شيكوال⁽⁵⁾ عن أبي علي قال: [كان - ابن سعدون - من أهل العلم بالأصول والفروع وكتب الحديث بمكة ومصر والقيروان].

أما كتابه المذكور أو تأليفه والذي نقل منه ابن عذاري، فلم يعثر له على ذكر عند غيره من المؤرخين، ولا يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن الكتاب الذي ذكره حاجي خليفة باسم «تأسي أهل الإيمان بما جرى على مدينة القيروان» كما يرى البعض أن هذا الكتاب ذكره الدباغ⁽⁶⁾

(1) المصدر نفسه، ج2، ص 129.

(2) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص 239، عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص 198.

(3) ترتيب المدارك، ج2، ص 799.

(4) ابن شيكوال، الصلة، ج2، ص 202203 (رقم 1322)

(5) الصلة، ج3، ص 870.

(6) الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص 198.

نقول: ذكر الكتاب نفسه أيضا إسماعيل البغدادي⁽¹⁾ وعمر كحالة⁽²⁾ والزركلي⁽³⁾. ولا ربما هو نفس الكتاب الذي ذكره ابن عذاري وأن اسمه قد حرف من قبل ابن عذاري أو النساخ. كما جاء في البيان المغرب ذكر كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي باسم «التكملة والذيل»⁽⁴⁾ كما أن الذين ذكروا كتب ابن سعدون لم يختلفوا في ذكر اسم الكتاب وهو «تأسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان». أما محتوى كتاب ابن سعدون، فقد ذكر ابن عذاري⁽⁵⁾ قال: [قال أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي في تأليفه في تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان في هيجان الفتن وتقلب الأزمان قال فيه باب أذكر فيه أول من وضع هذه الدعوة التي شرع فيها عبید الله وذريته، والسبب الذي دعاهم لذلك، وباب أذكر فيه تسييرهم الركبان، بدعوتهم ودعائهم إلى البلدان، وباب أذكر فيه عبید الله ونسبه وانتماؤه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كاذبا، وسبب ملكه المغرب كله...]⁽⁶⁾

ويعتمد ابن عذاري على هذا المؤرخ في روايته عن الفاطميين، والأحداث التي جرت في عهدهم، وهذا يدل على أن ابن عذاري قد لخص كما قال: [بعد ذكر أخبار الشيعة الراضية للعبديين... انتهى ما لخصته من كتاب ابن سعدون]⁽⁷⁾. ومما نستشفه من هذا الكلام أن ابن سعدون لا يعتقد بصحة نسبهم، ويسميهم بين عبید، ونلاحظ أن ابن عذاري يلخص ما جاء في الكتاب عنهم، لأن ابن سعدون قد فصل كثيرا في معلوماته عنهم⁽⁸⁾، ويتوقف ابن عذاري في التلخيص عنه إلى أخبار الخليفة

(1) هدية العارفين، ج2، ص 77.

(2) معجم المؤلفين، ج3، ص 314.

(3) الأعلام، ج6، ص 137.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 348.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 281.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 281.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 287.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 217.

معد، الملقب بالمتنصر (427-487هـ / 1036-1094م) بقوله: [انتهى ما لخصته من كتاب ابن سعدون]⁽¹⁾

- كتاب: «مناقب شيخه أبي بكر بن عبد الرحمن وأصحابه».

- كتاب «الفقه على مذهب مالك»⁽²⁾

- كتاب «إكمال التعليق للتونسي على المدونة»⁽³⁾

أما نقولات ابن عذاري عن كتاب ابن سعدون فلم يذكر ابن عذاري كتاب ابن سعدون ضمن المصادر التي ذكرها في مقدمة كتابه⁽⁴⁾ وإن كان اعتمد عليه وذكره فيما بعد. أما النقولات فهما نسان طويلان:

ج1: 217-خبر طويل عن خروج أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي مع أهل القيروان لجهاد الشيعة، حتى أن ابن سعدون ذكر في كتابه من خرج معه.

281-287-لخص ابن عذاري كتاب ابن سعدون عن دعوة الفاطميين العبيديين وأسباب انتشار دعوتهم وعن صحة نسبهم للرسول صلى الله عليه وسلم.

10-كتاب جهرة أنساب العرب، ورسالة في أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ/1063م)⁽⁵⁾

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن يخلف بن سعدان بن سفيان ابن يزيد أبو محمد الفارسي ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان أصله من فارس وجدته خلف أول من دخل الأندلس من آبائه في صحبة الأمير عبد الرحمن الداخل ولد في شهر رمضان سنة

(1) المصدر السابق، ج1، ص 281 - 287.

(2) ذكر الكتاب الثاني والثالث إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 77، الزركلي، الأعلام، ج6، ص 137.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص 799.

(4) ابن عذار، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(5) انظر ترجمته: الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966م، ص 308 (رقم 708)

أربع وثمانين وثلاثمائة في قصر أبيه أحمد ابن سعيد بقرطبة، الذي كان وزيراً للمنصور ابن أبي عامر وابنه المظفر.

نشأ ابن حزم في أسرة تنعم بالرفاهية ورُزق ذكاءً مفرطاً وذهناً سيالاً، حيث كانت نشأته وتربيته الأولى على يد نساء القصر - قصر أبيه - الذي تعلم على أيديهن القرآن وعلمنه كثيراً من الأشعار ودربنه على الخط وعندما بلغ ابن حزم الثانية عشر من عمره صحبه أبوه يوم عيد الفطر سنة (396هـ/1006م) إلى مجلس المظفر ابن أبي عامر. ثم أخذ في طلب العلم عن الشيوخ وعلماء عصره في الخامسة عشرة من عمره أخذ عن يحيى بن مسعود بن وجه الجنة وغيرهم.

وظل ابن حزم يترقى في دروب العلم حتى أصبح له شأن في الأندلس فتولى الوزارة للخليفة عبد الرحمن بن هشام ثم لهشام بن المعتمد، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً إذ وقعت الفتنة البربرية بعد تولى محمد بن هشام المهدي (399هـ/1009م) الخلافة، فنالت أسرة ابن حزم النكبات ومات والده أثناءها، واضطر ابن حزم الانتقال إلى ألمرية وذلك سنة (404هـ/1014م)⁽¹⁾

وظل ابن حزم متنقلاً بين مدن الأندلس حتى انتهى به المطاف إلى مدينة (لبلة) مسقط أسرته، حيث توفي بها عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة 456هـ/1064م وعمره اثنتين وسبعين سنة.

هذا وقد أثنى العلماء قديماً وحديثاً على ابن حزم ومن ترجم له كابن خاقان، وابن خلكان، وياقوت الحموي والمقري....

ومما قاله تلميذه أبو عبد الله الحميدي: [كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه: مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم حجة، زاهداً في الدنيا، متواضعاً ذا فضائل حجة]⁽²⁾

(1) المصدر السابق، ج2، ص 489، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص 325، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 184، المقري، نفع الطيب، ج2، ص 77، كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 393، عبد الحلیم عويس، ابن حزم الأندلسي، ص 51.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ج2، ص 489، 490.

نقل ياقوت الحموي كلان ابن حيان في ابن حزم إذ قال: [كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة...]⁽¹⁾

أما عن شخصيته التاريخية فهي تستند إلى روافد ثقافية متنوعة، فقد كان واسع الاطلاع على المصنفات التاريخية السابقة ومناهج أصحابها، كما أنه درس التوراة والإنجيل واطلع على تاريخ هورشيوش، إضافة إلى دراساته المتعددة لتواريخ عصره، ولقائه العلماء والشيوخ، وما جناه من تجارب ومشاهدات شخصية إبان حياته في الدولة الأموية وبعد توليه الوزارة ثم بعد زوال سلطان بني أمية وانتقاله في بلدان الأندلس المختلفة⁽²⁾.

اشتهر هذا العالم بمؤلفاته العديدة، حيث اجتمع عند ابنه الفضل بخط أبيه من تواليه أربعمئة مجلد تشمل على قريب من ثمانين ألف ورقة⁽³⁾، وقد ذكر الذهبي واحدا وثمانين مصنفا لابن حزم بين كتاب ورسالة ونقالة⁽⁴⁾. وأحصى د. عبد الحلیم عويس كتب ورسائل ابن حزم الموجود منها والمفقود فبلغت ثلاثة وأربعين ومائة⁽⁵⁾. أما كتب ابن حزم التي لها علاقة بالتاريخ فهي:

- كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل».

- كتاب «الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها»، ذكرهما المقرئ، وإسماعيل باشا⁽⁶⁾

- كتاب «المغرب في تاريخ المغرب»

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج3، ص 551.

(2) د/ سعد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص 383.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص 326.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 193 197.

(5) د. عبد الحلیم عويس، ابن حزم الأندلسي، ص 114، 117.

(6) المقرئ، نفع الطيب: ج2، ص 79، هدية العارفين، ج1، ص 690.

- كتاب «خمس رسائل في جوامع السيرة»، وذكرهما عمر كحالة⁽¹⁾، وذكر الأخير إسماعيل باشا⁽²⁾ أما د. عبد الحليم عويس فقد قسم كتب ابن حزم إلى قسمين:

الكتب المفقودة:

- كتاب «السياسة» أو «الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء»

- كتاب «نسب البربر»

- كتاب «غزوات المنصور بن أبي عامر»⁽³⁾

الكتب الموجودة:

- كتاب «جمل من فتوح الإسلام»

- كتاب «أسماء الخلفاء والولاة وذكرهم مددهم»

- كتاب «نقط العروس في تاريخ الخلفاء»⁽⁴⁾، وذكر إسماعيل باشا الثلاثة الأخيرة⁽⁵⁾

- كتاب «جمهرة أنساب العرب»

- كتاب «السيرة النبوية» وهو المعروف: بجوامع السيرة»

- كتاب «حجة الوداع»

أما عن نقولات ابن عذاري عن ابن حزم، فيذكر د. عبد الواحد ذنون طه⁽⁶⁾ أن ابن عذاري نقل عن ابن حزم من كتاب «جمهرة أنساب العرب»، ومن رسالة «في أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم»، ومن رسالة أخرى بعنوان «نقط العروس في تواريخ الخلفاء»⁽⁷⁾

(1) كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 393، وطبع باسم "جوامع السيرة" وألحق به خمس رسائل.

(2) هدية العارفين، ج1، ص 690.

(3) د. عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي، ص 110، 114، وذكر الأول منها إسماعيل باشا في هدية العارفين: ج1، ص 690.

(4) د. عبد الحليم عويس، المرجع نفسه، ص 114، 117، وذكر أن كتاب "المغرب في تاريخ المغرب" ليس لابن حزم، راجع ص 114.

(5) هدية العارفين، ج1، ص 690.

(6) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 244، وأيضاً موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 195.

(7) نشرت الرسالتان ضمن مجموعة (رسائل ابن حزم الأندلسي)

في حين نجد أن ابن عذاري ذكر في مقدمة كتابه أنه اعتمد على كتاب ابن حزم دون أن يحدد من أي الكتب نقل⁽¹⁾. وهذه نقولات ابن عذاري عن ابن حزم، وهي في تسعة مواضع.

ج1: 63-تقييم لدولة بني أمية سنة 132هـ/749م.

64-تقييم لدولة بني العباس⁽²⁾

65-نسب قبيلة زناتة البربرية⁽³⁾

ج2: 39-كرر التقييم السابق لدولة بني أمية سنة 136هـ/753م بتفصيل.

40-كرر التقييم السابق لدولة بني العباس بتفصيل.

156-خبر نقله عن ابن حزم فيه ذم الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.

299-خبر وصف ابن حزم ليوم كان في صحبة المنصور بن أبي عامر.

ج3: 132-خبر ذم ابن حزم ما آلت إليه بلاد الأندلس بعد انتهاء الدولة العامرية وظهور أكثر من خليفة.

244-خبر آخر لزم ابن حزم لأيام ملوك الطوائف لظهور أربعة خلفاء في بلاد الأندلس، وفي وقت واحد ويخطب لهم بالخلافة⁽⁴⁾

نستشف من خلال هذه النقولات أن ابن عذاري قد اعتمد على اثنين من مؤلفات ابن حزم:

الأول: هو «جمهرة أنساب العرب»، حيث نقل منه بعض أنساب البربر لاسيما زناتة⁽⁵⁾ ويعد هذا الكتاب من المؤلفات المعتمدة في العرب والبربر، وتتجلى أهميته إذا علمنا أنه كان من مصادر ابن خلدون في رواياته عن أنساب العرب والبربر في شمال إفريقيا والأندلس⁽⁶⁾ وقد اعتمد ابن حزم على

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(2) قارن التقييمان السابقان بما جاء في «رسالة في أسماء الخلفاء والولاة» في مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص 145، 147.

(3) قارن بما جاء في جمهرة أنساب العرب ص 495.

(4) قارن والخبرين السابقين بما جاء في «رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء» ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص 9298.

(5) البيان المغرب: ج1، ص65، وقارن وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1962م، ص 485.

(6) للاطلاع على بعض اقتباسات ابن خلدون من كتاب جمهرة أنساب العرب، ينظر: ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1956/1961، ج4، ص

36، 37، 246، 249، 251، 295، 296، 316، 489، 580.

مؤرخين متقدمين من أمثال الطبري⁽¹⁾، والمسعودي⁽²⁾، ولهذا فإن معلوماته التاريخية تتسم بدرجة كبيرة من الثقة.

الثاني: رسالة صغيرة من رسائل ابن حزم الأندلسي في أسماء الخلفاء والولاة وعدددهم⁽³⁾

وتتضمن الرسالة أسماء الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، مع نبذ مختصرة عنهم إلى عهد المؤلف.

وقد نقل ابن عذاري بالنص تقريرا فقرتين عن ابن حزم لكل من دولة بين أمية ودولة بين العباس⁽⁴⁾

فهذه النصوص على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تشير بوضوح إلى الملكة النقدية عند ابنت حزم.

وبالتالي نجد ابن عذاري قد أدرك هذه الأهمية، فركز عليها، واستفاد منها كتابه، لاسيما في مسألة انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين سنة (132هـ/749م).

11. كتاب أنساب البربر وملوكهم لأبي عبد الله محمد بن أبي المجد المغيلي:

ومؤلف هذا الكتاب مؤرخ بربري وهو عبد الله بن أبي المجد المغيلي، لا تعرف ترجمته ولا عصره، جاء ذكره فقط في كتاب «مفاخر البربر» لمجهول، حيث أن لم يعثر على معلومات مفصلة عن هذا المؤرخ، إلا أن المؤلف المجهول لكتاب مفاخر البربر، يذكر اسمه الكامل، ويشير إلى كتاب له في أنساب البربر وملوكهم⁽⁵⁾، وهذا الكتاب في عداد المفقودات.

ومن خلال تصفحنا لكتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول وجدناه نقل عنه أربعة نقولات وهو واضح كتاب في أنساب البربر وملوكهم، فقد بقيت منه شذرات موزعة بين ثلاثة مصادر:

(1) جمهرة أنساب العرب، ص 62.

(2) المصدر نفسه، ص 411.

(3) المصدر نفسه، ص 355، 359، 373، 487.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 6364، وينظر أيضا: ج2، ص 39، 40؛ وقارن: رسائل ابن حزم الأندلسي: ج2، ص 145147.

(5) مفاخر البربر، ص 48، 52، 57، 75.

- «مفاخر البربر» لمؤلف مجهول الاسم، وقد نشرت نبد عنه باعتناء ليفي بروفنسال.

- كتاب الأنساب لعبيد الله صالح بن عبد الحليم.

- البيان المغرب، لابن عذاري⁽¹⁾

ويعتبر كتاب أبي الحمد المغيلي من المصادر التي كتبت عن تاريخ الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة

زناتة⁽²⁾

والرواية التي نقلها ابن عذاري تتحدث عن نسب قبيلة زناتة⁽³⁾.

والثابت أن هذا الكتاب في عداد المفقودات، ويبدو أن ابن عذاري اطلع عليه، ونقل منه مقتطفات عن أنساب البربر.

12. كتاب (الحجاب للخلفاء بالأندلس) للمؤرخ عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي

القرطبي (ت379هـ/989م)

تعتبر أسرة الرازي من أكبر الأسر التي عملت بالتاريخ في الأندلس، وقد نالت به شهرة عالية،

ومن أبرز أفراد الأسرة الذين نالوا حظاً أوفر في التاريخ محمد بن موسى بن بشير بن حماد، وفي رواية

أخرى حنّاد بن لقيط الكتاني الرازي وهو من بلاد فارس، وفد من المشرق على ملوك بني مروان

بالأندلس تاجراً سنة (250هـ/864م)، أو في السنة التي قبلها، وأقام بقرطبة، فأهلته بشاشته وحسن

معاملته وثقافته أن يتولى الوزارة للأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (238-273هـ/852-

886م)⁽⁴⁾، ونال ثقته. فألحقه بمناصب مهمة في دولته، كما استطاع أن يخمد نار الفتن خاصة بين

العرب والمولودين في غرناطة، وتوفي الرازي وهو في طريق عودته من هذه المهمة شهر ربيع الآخر سنة

(1) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 26.

(2) المرجع السابق، ج1، ص 16، 26.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 65.

(4) ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت 1912، ص 64.

(273هـ/886م)، في أول عهد المنذر (273-275هـ/886-888م) الذي خلف أباه محمدا في الحكم⁽¹⁾

وقد اشتغل الرازي بالتأليف في تاريخ الأندلس، ومن أشهر ما تركه من التأليف كتاب "الرايات"، بيد أنه - وللأسف - مفقود، ولم يتبق منه لدينا إلا قطع متناثرة⁽²⁾، ثم يخلفه ابنه أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازي القرطبي لينال شهرة أوسع من أبيه في كتابة التاريخ والتخصص فيه حتى، بل يصبح أبا للجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد، وقد ولد بالأندلس سنة (274هـ/887م)، أي بعد وفاة أبيه بعام واحد فقط، ونشأ نشأة علمية فكان منها أدبيا وخطيبا وشاعرا مبدعا، كما أطلق عليه لقب «تاريخي»، لكثرة انشغاله بكتابة التاريخ، حيث كان حافظا للأخبار وكثير الرواية.

توفي هذا الأخير سنة (344هـ/955م)⁽³⁾، له مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس، وتواريخ دول الملوك فيها، ومن أهم مؤلفاته التاريخية:

- أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم وتكياتهم⁽⁴⁾
- أنساب مشاهير أهل الأندلس في خمس مجلدات ضخمة⁽⁵⁾
- أعيان الموالي بالأندلس⁽⁶⁾

(1) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة (ط. عزت العطار الحسيني)، ج2، ص670، الترجمة رقم 1705، المقرئ، نفع الطيب، ج4، ص108، أنجل جونثال بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص196.

(2) وقد تحدث الرازي في هذا الكتاب عن فتح المسلمين للأندلس، والفرق التي دخلت شبه الجزيرة مع موسى بن نصير، ولكن للأسف ضاع هذا الكتاب بعد أن كان معروفا إلى أوائل القرن الثامن هـ/ الرابع عشر ميلادي، حيث كان أحد مصادر صاحب مقاهر البربر، وقد ذكر هذا الكتاب المستشرق الإنجليزي فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1983م، ص224.

(3) ابن القرطبي، تاريخ علماء الأندلس، ص42 الترجمة رقم 137

(4) هكذا سماه ابن حزم، ينظر: المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص173 (رسالة ابن حزم في فضل الأندلس)، كما ذكره الزبيدي تحت عنوان: أخبار أهل الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها، ثم وصفه بقوله: "بلغ فيه الغاية من والتقصي"، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص302.

(5) ذكره ابن الآبار بعنوان: "الاستيعاب في الأنساب"، حيث كان أحد مصادر في كتابه (الحلة السيرة)، ينظر: الحلة السيرة، تحقيق: حسن مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ج1، ص245، ج2، ص366.

(6) ذكره ابن الآبار في كتابه التكملة (ط. عزت العطار الحسيني)، ج2، ص564، وهذا بعنوان، حيث قال: وكذلك قال أبو بكر الرازي في كتاب (أعيان الموالي بالأندلس) في تأليفه...."، وذكره أنجل جونثال بالثيا تحت عنوان: (كبار الموالي الأندلسيين، ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي، ص197.

- صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان (العظماء بها)

والذي يؤسف عليه في هذه التآليف أنها ضاعت كلها، ولم يصل إلينا إلا قطعة في صفة الأندلس وهي مترجمة إلى الإسبانية: Cronica del Moro Rasis، كما نشر المستشرق الإسباني "بسكوال دي جانيجوس" جزءا منها سنة 1840م. وأكمل نشرها "رامون منندث بيدال" في فهرس المدونات في المكتبة الملكية بمدريد (1)

ثم يأتي عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي القرطبي المتوفي سنة (379هـ/989م) وهو الشخصية الثالثة في هذه الأسرة المبدعة من المؤرخين الأندلسيين، ليؤلف عدة كتب تاريخية مهمة نال بها شهرة واسعة، حيث تولى تدوين تاريخ الأندلس إلى عصره، وألف كتابا في التاريخ العام للأندلس وهو ممتع حسب ما وصفه ابن عبد الملك المراكشي، وقد أهدي للخليفة الحكم المستنصر بالله (2) أما مؤلفاته التاريخية المعروفة -بصورة مجملية- وهي:

- تاريخ الأندلس المشار إليه آنفا، وذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة.

- الوزراء والوزارة، ألفه وأهداه للمنصور بن أبي عامر (3)

- حجاب الخلفاء بالأندلس (4)، أهداه أيضا للمنصور بن أبي عامر.

وفي الغالب أنه وصل بأحداث تاريخ الأندلس في مؤلفاته إلى عهد هشام المؤيد (5)

ونجد من ذلك أن ابن عذاري قد نقل عن الرازي في ثمانية عشر موضعا من كتابه: والملاحظ قبل

ذكر المواضع أو النصوص التي نقلها عن الرازي هو أن ابن عذاري كان عندما يقوم بعملية النقل كان

(1) نشر 'بسكوال دي جانيجوس' جزءا من القطعة الباقية من مؤلفات الرازي التاريخية في صفة الأندلس مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان "تاريخ الرازي" وقد نشرها تحت عنوان "مذكرات عن صحة التاريخ المسمى تاريخ الرازي"، وقد أعيد نشرها في مذكرات الأكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد، المجلد الثامن، 1850م، ينظر: أنجل جونثال بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 197.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص 191.

(3) المصدر السابق، نفس السفر، والقسم، والصفحة.

(4) المصدر السابق، نفس السفر، والقسم، والصفحة.

(5) أنجل جونثال بالثيا، السابق، ص 198.

يكتفي بذكر لقب «الرازي» دون تحديد المؤرخ الذي ينقل عنه من أسرة الرازي، أو يذكر عنوان الكتاب الذي يعتمد عليه، فهو بذلك أوقعنا في خلط كبير من حيث الاستيقاء المعلومات أو الأخبار. إذ بالتدقيق أو التمعن في نقوله عن الرازي نجده يتجاوز تاريخ وفاة "محمد بن موسى الرازي" (ت 273هـ/886م) عميد الأسرة وكبيرهم، فهذه المشكلة تتجاوزها ابن الأبار، حيث كانت أسرة الرازي من مصادره الأساسية في كتابه "الحلة السيرة"، وقد نص على عناوين مؤلفاتهم، وبالعودة إلى بعض النصوص التي نقلها ابن عذاري في كتابه عن الرازي تكاد تتطابق مع بعض النصوص التي نقلها ابن الأبار عن «عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي» في كتابه الحجاب للخلفاء بالأندلس في أكثر من موضع.

وبهذا التدقيق والتأمل نجد أن هذا من القرائن التي ترجع أن ابن عذاري عندما يذكر لقب «الرازي»، وينقل عنه إنما يقصد به "عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي"، وينقل عن كتابه المذكور آنفا (الحجاب للخلفاء بالأندلس).

ومن أهم النقول أو الأخبار التي نقلها:

- خبر عن استعمال الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير على إفريقية...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي عن الوافدي...]⁽¹⁾
- خبر عن المواجهات بين لذريق وطارق بن زياد عند وادي لكة...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر الرازي...]⁽²⁾
- خبر عن غضب موسى بن نصير على قائده طارق بن زياد وخروجه من إفريقية لمقابلته بالأندلس، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي: وحدث الوافدي عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال...]⁽³⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 6.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 8.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 13.

- خبر عن خروج طارق بن زياد من طليطلة لمقابلة موسى بن نصير، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر الرازي...]⁽¹⁾
- خبر عن دعوة الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير للمثول بين يديه، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [واتصل بهذا في كتاب الرازي...]⁽²⁾
- خبر عن استخلاف موسى بن نصير لابنه عبد العزيز على الأندلس، وما قام به من ضبطها وسد ثغورها وافتتاح مدائنها، فكان من خبر الولاة لكن مدته لم تطل... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽³⁾
- خبر عن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير على يد جنده بأمر سليمان بن عبد الملك - في بعض الروايات- وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁴⁾
- خبر عن بداية مداخلة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) لمواليه الأمويين بالأندلس سنة (136هـ/ 753م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁵⁾
- خبر عن ثورة الحبحاب بن رواحة بسرقسطة سنة (137هـ/ 754م) وامتلاكه إياها، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁶⁾
- خبر عن ثورة محمد بن يوسف الفهري على الأمير عبد الرحمن الداخل سنة (169هـ/ 785م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁷⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 16.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 16.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 24.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 25.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 40.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 41، 44.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 57.

- خبر عن نزول عبد الرحمن الداخل بمنية الرصافة واتخاذها لها، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽¹⁾
- خبر عن الخلاف بين هشام وسليمان ابني عبد الرحمن الداخل حول الإمارة في الأندلس، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽²⁾
- خبر عن غزو محمد بن السليم أرض حليقية سنة (247هـ/861م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وفي سنة 247هـ قال الرازي...]⁽³⁾
- خبر عن الزلزال وهياج الرياح والصاعقة التي أصابت الناس سنة (267هـ/880م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [ومن العجائب في هذا العام (267هـ) ما ذكره الرازي وغيره...]⁽⁴⁾
- خبر عن غزوة محمد بن أمية بن شهيد إلى كورة رية وكورة إلبيرة، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁵⁾
- خبر عن غزوة محمد بن لب إلى ألية وما حققه من انتصارات على المشركين هناك، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁶⁾
- خبر عن فتح عبد الرحمن الناصر إشبيلية سنة (301هـ/913م)، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الرازي...]⁽⁷⁾

(1) المصدر السابق، ج2، ص 60.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 62.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 97.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 104، 105.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 105.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 115. فالنصوص نجدتها تتطابق مع ما نقله ابن الأبار بن عيسى بن أحمد بن محمد الرازي في كتاب 'الحجاب للخلفاء بالأندلس'، ينظر: الحلة السيرة، ج1، ص 138، 139.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 129، 130.

- خبر عن بناء المسجد الجامع بقرطبة وما صاحبه من تطورات مع المسيحيين، وقد صدر ابن

عذاري هذا الخبر بقوله: [ذكر الرازي عن الفقيه محمد عيسى أنه قال...]⁽¹⁾

ومن خلال هذه النقول أو النصوص التي نقلها ابن عذاري وغيره (ابن حيان وابن الأبار...) «
يتبين لنا أن عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي لم يكتف بتكملة كتاب والده فحسب (أحمد)،
بل ابتداء مؤلفه الجديد بالأحداث الأولى التي مرت على الوجود العربي في الأندلس - كما يبدو - من
خلال هذه النصوص المتبقية من تاريخه - أنه اتبع طريقة الحوليات في تأليف الكتاب، فهو قد رتب
الأحداث حسب السنوات الهجرية، إلا أن هذه الطريقة لم تمنعه من الاسترسال في سرد أخبار عامة
تتعلق بمختلف نواحي الحياة في المجتمع الأندلسي⁽²⁾»

13. كتاب "التاريخ" لعبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238هـ/853م)

لم تذكر لنا المصادر معلومات مفصلة عن نشأته، فهو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن مروان
بن جاهمة بن عباس بن مرداس الأندلسي الفقيه، قيل أنه من موالي سليم، ولد بالبيارة وسكن قرطبة،
فقد اهتم بالعلم وتلقيه فروى ببلاد الأندلس عن صعصعة بن سلام، والغازي بن قيس، وزباد بن عبد
الرحمن، ثم رحل إلى المشرق فسمع من عبد الملك بن الماجشون، ومطرف إبراهيم بن منذر الخزامي
وإسماعيل بن أبي أويس وعبد الله بن المبارك وسواهم، ويقال أنه أدرك مالكا في آخر عمره.
خرج ابن حبيب في رحلة طلب العلم كعادة أهل ذلك العصر، وذلك سنة 208هـ/823م، وقيل
سنة سبع إلى المشرق ثم انصرف إلى الأندلس سنة (216هـ/831م) فحج إلى مكة.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 229.

(2) ينظر: مقدمة د. عبد الرحمن علي الحجي لتحقيق قطعة من كتاب "المقتبس في أخبار بلاد الأندلس" لابن حيان، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص62، 63، وكذا، عبد الواحد ذنون طه، نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، ص 42.

فلما انتشر صيته في العلم والرواية استقدمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة، وعرض عليه قضاء القضاة فامتنع، ولما مات ابن يحيى تفرد ابن حبيب برياسة العلم بالأندلس⁽¹⁾ وكان عبد الملك حافظا للفقهاء على مذهب مالك نبيها فيه، ذابا عنه⁽²⁾، كما أنه جمع مختلف فنون العلم والأدب والشعر، قال الفتح بن خاقان: [كان عبد الملك قد جمع على علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به سحرا، ويرى ينبوعه بذلك منفجرا]⁽³⁾

وقال ابن الفرضي: [كان عبد الملك بن حبيب نحويا، عروضا شاعرا حافظا للأخبار والأنساب والأشعار، متصرفا في فنون العلوم]⁽⁴⁾

وقد أخذ على عبد الملك بن حبيب ضعفه في علم الحديث وعدم معرفته به فقال عن ابن فرحون: [لم يكن - أي ابن حبيب - له علم بالحديث، ولا معرفة بصحيحه من سقيم]⁽⁵⁾

وقال ابن الفرضي: [كان ابن حبيب يتساهل ويحمل على سبيل الإجازة أكثر روايته]⁽⁶⁾

وقال عنه الضبي: [في أحاديثه غرائب كثيرة]⁽⁷⁾

وذكر القاضي عياض بعض ما تحومل به على ابن حبيب وقال: [كان الفقهاء يحسدون عبد الملك

بن حبيب لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها]⁽⁸⁾

(1) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك: ج2، ص31، ابن فرحون، الديباج المذهب: ج2، ص8، الضبي، بغية الملتبس، ج2، ص490، الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، ص233، المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص5، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص460، ابن سعيد، المغرب، ج2، ص96، ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج6، ص347.

(2) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص9.

(3) الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، ص233، 234.

(4) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص462.

(5) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص9.

(6) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص460.

(7) الضبي، بغية الملتبس، ص491.

(8) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك: ج2، ص3738.

ونقل ابن حجر قول أحمد بن سعيد الصيرفي في تاريخه توهينه ابن حبيب وقال: [كان صحفيا لا يدري ما الحديث] ⁽¹⁾

وعلق عليه بقوله: [هذا القول أعدل ما قيل فيه] ⁽²⁾، ورد قول ابن حزم فقال: [وقد أفحش ابن حزم القول فيه نسبه إلى الكذب وتعقبه جماعة بأنه لم يسبقه أحد إلى رميه بالكذب].

توفي ابن حبيب في ذي الحجة سنة 238 وقيل سنة 239هـ/950م وقد بلغت سنه ستا وخمسين سنة ⁽³⁾

سئل عبد الملك: [كم كتبك التي ألفت] قال: [ألف كتاب وخمسون كتابا] ⁽⁴⁾

وقال المقرئ: [رأيت في بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفا] ⁽⁵⁾

والثابت أن ابن حبيب ألف كتبا كثيرة حسانا في الفقه والتواريخ والأدب والطب.

وسرد لنا القاضي عياض بعض كتب ابن حبيب وقال: [قسم ابن الفرضي هذه الكتب، وهذه

الأسماء وهي كلها يجمعها كتاب واحد لابن حبيب، إنما ألف كتابه على عشرة أجزاء].

الأول: تفسير الموطأ حاشى الجامع.

الثاني: شرح الجامع، والثالث والرابع والخامس في حديث النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة

والتابعين، والعاشر طبقات الفقهاء ⁽⁶⁾

أما كتبه في التاريخ فهي:

- طبقات الفقهاء، أخبار قريش وأنسائها.

- كتاب السلطان وسيرة الإمام ثمانية كتب، وكتاب المغازي.

⁽¹⁾ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ج6، ص 347.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج6، ص 347.

⁽³⁾ عياض اليحصبي، ترتيب المدارك: ج2، ص 47.

⁽⁴⁾ القاضي عياض، ترتيب المدارك: ج2، ص 35، 36.

⁽⁵⁾ المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص6.

⁽⁶⁾ القاضي عياض، نفسه، ص 35.

- كتاب الرهون والبدء والمغازي والحدثان، خمسة وتسعون كتابا.
- كتاب مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان وعشرون كتابا⁽¹⁾
- كتاب «حروب الإسلام»، نسبة له ابن فرحون⁽²⁾
- كتاب «التاريخ» نسبة له سنركين⁽³⁾

ومما يؤسف عليه، أن معظم كتب ابن حبيب قد ضاعت ولم يبق منها إلا الكتاب المسمى "بالتاريخ"، وهو أول كتاب يتناول تاريخ الأندلس وصل إلينا كاملا.

أما ما زعمه دوزي في (Dozy: Recherches: 32)، والذي تناقله كثيرون أن هذا الكتاب ملفق ولا قيمة له أصلا، أو أن تلميذه ابن أبي الرقاع هو مؤلفه، فزعمه يقوم على عدم المعرفة بطرق الرواية في الكتب الإسلامية المبكرة⁽⁴⁾

وللإشارة أن للكتاب قيمة خاصة، حيث أنه يضم كثيرا من المقتبسات عن مصادره، كما يوجد مخطوطا في مكتبة بودليانا في أكسفورد 127/2، 258، مرسى ببودليانا 288 من ورقة 1-100⁽⁵⁾ ويتحدث فيه عن تاريخ بدء الخلق والأنبياء والخلفاء إلى عبد الملك بن مروان وتاريخ الأندلس إلى سنة 888/275⁽⁶⁾

ويرى الدكتور محمود مكي بعد نشره جزء «باب استفتاح الأندلس» في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (243-221/1957/5)⁽⁷⁾ أن النسخة المتوفرة من كتاب ابن حبيب ما هي إلا

(1) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك: ج2، ص 47.

(2) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص 11، 13.

(3) فؤاد سركين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 249.

(4) المصدر السابق، ص 249، ويرى بروكلمان في أن الكتاب ليس بذي قيمة تاريخية، ينظر كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 86.

(5) المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 249، آجل بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 194، وعنوان الكتاب كما يرد في المخطوطة ذكر بالنشأ هو: «كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها...»

(6) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 87.

(7) المرجع السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 249، ينظر د. عبد الواحد طه، موارد تاريخ ابن عذاري، عن الأندلس، ص 184.

مختصر صغير لكتاب ابن حبيب الحقيقي وأن الذين وضعوا هذه النسخة إنما هم بعض تلامذة ابن حبيب⁽¹⁾

أما مقولات ابن عذاري عن ابن حبيب، فقد اعتمد ابن عذاري على كتاب ابن حبيب وذكره ضمن المصادر في مقدمة كتابه⁽²⁾

وقد نقل ابن عذاري نصين عن كتاب ابن حبيب في حين ذكر د/عبد الواحد ذنون طه نصا واحدا⁽³⁾، وهذه النصوص هي:

ج1: 46- عن معاملة الخليفة سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير بعد قدومه لدمشق عند انتهاء فتح الأندلس، ونقل ابن عذاري هذا الخبر عن ابن حبيب وعن غيره من المؤرخين.

ج2: 13- خبر عن فتح مدينة قرقوشة في عهد هشام بن عبد الملك صلحا أواخر سنة 92هـ/710م وأوائل سنة 93هـ/711م.

14. مؤلفات حيان بن خلق بن حسين بن حيان (ت 469هـ/1070م)

وهو المؤرخ حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أبو مروان.

ولد ابن حيان سنة (377هـ/987م)، عاش في أسرة ميسورة الحال، إذ كان والده أبو القاسم خلف بن حسين بن حيان القرطبي، والذي تدرج في بعض وظائف الدولة أيام الحكم المستنصر بالله حتى أصبح كاتباً ووزيراً للمنصور بن أبي عامر (366-399هـ/976-1008م)، والذي أصبح الحاكم الفعلي في بلاد الأندلس، حين تولى الحجابة للخليفة هشام المؤيد بن الحكم، وتوثقت علاقته به حتى صار يلازمه في روحاته وغدواته، ولا يتخلف عن حملاته العسكرية.

(1) د. محمود مكى، استفتاح الأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، عدد5، 1957م، ص 221، 243، نقلا عن د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 184.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(3) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 184.

شهد بذلك ما رواه ابنه ابن حيان ضمن كتابه (الدولة العامرية)، حتى أنه شهد وحفظ وصية المنصور لابنه عبد الملك وهو على فراش الموت.

وهذا إن دل فإنما يدل على مدى القرب الذي وصل إليه خلف بن حسين والذي استمر في عمله بعد تولي الحجابة عبد الملك المظفر بعد وفاة والده المنصور سنة (399هـ/1009م).

أما شيوخه الذين أخذ عنهم، فقد ذكر ابن بشكوال: [إن ابن حيان لزم الشيخ أبا عمر بن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي البغدادي، ولزم أبا العلاء صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي، وأخذ عنه كتابه المسمى «بالفصوص» جمعه للمنصور بن أبي عامر والذي أمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة 385هـ/995م].

ومن شيوخه في الحديث أيضا أبو حفص عمر بن حسين بن نايل وغيره، كما أخذ ابن حيان أيضا عن المؤرخ المحدث المشهور القاضي أبي الوليد عبد الله ابن يوسف المعروف بابن الفرضي، والمحدث النسابة أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن أبي يزيد المصري ذكر ذلك د. محمود مكّي.

أما عن تكوينه العلمي واتجاهه لدراسة التاريخ، فيرى د. محمود مكّي أننا لا نعرف أحدا يحتل أنه وجهه إلى دراسة التاريخ بوجه خاص، فليس منهم أحد تميز بشيء في هذا الميدان فيما عدا ابن الفرضي، ولهذا فإن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولد من شخصيته ثم إلى والده الذي يبدو لنا هو موجهه الأول إلى علم التاريخ⁽¹⁾

لقد برع ابن حيان في علم التاريخ والأدب، حتى أنه اشتهر: برع فيهما.

قال ابن بشكوال: [ذكره أبو علي الغساني فقال: كان عالي السن قوي المعرفة متبحرا في الآداب

بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له]⁽²⁾، وتوفي ابن حيان سنة (469هـ/1076م).

(1) مقدمة كتاب المقتبس، د. محمود مكّي، ص 21.

(2) ابن شيكوال، الصلة، ج 1، ص 247.

أما الوظائف التي تولاها فقد ذكر ابن خير الإشبيلي والمقري⁽¹⁾، وصف ابن حيان بأنه [صاحب شرطة]، ولكن د. محمود مكي ينفي تولي ابن حيان هذا المنصب بحكم أنه لم يجد دليلاً قاطعاً على ذلك فمن ترجم لابن حيان من المؤرخين المتقدمين، ولأنه أيضاً مجال بعيد من عمل ابن حيان ونشاطه الفكري⁽²⁾

لكن الوظيفة التي عمل فيها ابن حيان دون سعي منه هو الكتابة في ديوان السلطان أبي الوليد بن جهور (435-462هـ/1043-1069)، وهو ما يفهم مما نقله ابن سام عنه قال: [كنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبي الوليد الثرة، وكرم فعله ابتداء من غير مسألة فأقحمني في زمرة العصاة المبرزة الخصل، مع كلاله الحد، وضعف الآلة، واهتدى لمكان خلتي، وقد ارتشف الدهر بلالتي، بأن قلدي إملاء الذكر في ديوان السلطان، الطابق لبضاعي اللائق بحرفتي، براتب واسع]⁽³⁾

تتجلى لنا مكانة ابن حيان التاريخية فيما خلفه من دراسات وكتابات تاريخية نفيسة⁽⁴⁾، فقد خلف عدداً من التأليف فقدت في معظمها إلا أن بعض المصادر التي نقلت عن كتبه حفظت أجزاء منها مثل ما نجده عند: ابن عذاري⁽⁵⁾، وابن بسام⁽⁶⁾ والمقري⁽⁷⁾ وهي:

كتاب «المقتبس» ذكره حاجي خليفة⁽⁸⁾ بعنوان «المقتبس في تاريخ علماء الأندلس» في عشر مجلدات، ونسبه لابن حماد الأندلسي اختصر فيه كتابه «الكور على الدرر والأمر على الأبد»، وقال اليافعي «المقتبس» للشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عمر بن موسى المرزباني، وقيل لأبي مروان حيان بن خلف المتوفى سنة 469هـ، وذكر أيضاً ابن خلكان بعنوان «المقتبس في تاريخ الأندلس» في

(1) المقري، نفع الطيب، ج1، ص 566، ابن خير، فهرسة: 326 نقلا عن المقتبس، ص 35.

(2) محمود علي مكي، مقدمة كتاب المقتبس، ص 35.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، ص 118، وينظر: د. محمود مكي، مقدمة كتاب المقتبس، ص 36.

(4) د. سعيد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص 392.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 252، ج2، ص 106، 109، 173، وغيرها

(6) ابن بسام، الذخيرة، ج1، ص 35، 43، 44، 123، 128، ج2، ص 575، 586، 656، 729، ج3، ص 14، 16، 19، 233، ج4، ص 637، 649، 649.

(7) المقري، نفع الطيب، ج1، ص 411، 526، ج3، ص 55، 111، ج4، ص 290، 449.

(8) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1792.

عشر مجلدات⁽¹⁾ والذهبي في السير مثله⁽²⁾ ويذكر ابن الأبار باسم «المقتبس من أنباء أهل الأندلس»⁽³⁾ والسخاوي باسم «المقتبس»⁽⁴⁾

وهذا تعريف وجيز لمخطوطات هذا التأليف:

1. القطعة الأولى: وهي القطعة التي وقف عليها المستشرق ليفي بروفنسال وذلك في خزانة القرويين بفاس قبيل الحرب العالمية الثانية، والذي يؤسف على هذه القطعة أنها ضاعت ولم يعثر عليها ضمن أوراق بروفنسال⁽⁵⁾، بدليل أنه حملها معه بقصد السعي إلى نشرها، وهي تضم نحوًا من ستين لوحة كبيرة وتحتوي على حوادث الأندلس من سنة (188-223هـ/803-878م)، والسؤال المطروح بأي حق لهذا المستشرق أن يأخذ هذا المخطوط الفريد المحفوظ بجامعة القرويين ومسجدها؟

2. القطعة الثانية: وهي تلي القطعة السابقة من حيث الترتيب التاريخي، وهي لا تزال محفوظة إلى اليوم بخزانة جامع القرويين، وهي قطعة كبيرة تحتوي على 95 لوحة كبيرة أي 190 صفحة، لكن هذه القطعة وللأسف بالية جدا أو متآكلة وصعبة القراءة والتحقيق وهي تتضمن السفر الثاني من «المقتبس»، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة 233-267هـ/847-880م، وهي تنتمي للجزء السابق.

3. القطعة الثالثة: وهذه القطعة توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد، وتتكون من 107 لوحة وتتضمن في معظمها حوادث عهد الأمير عبد الله بن محمد وأخبار ثوار الأندلس خلال الفتنة الكبرى من سنة 276هـ/889م إلى نهاية عهد الأمير عبد الله في سنة 300هـ/912م، وقد قام الراهب الإسباني ملنشور أنطونيا بنشر هذه القطعة، كما صدرت في باريس سنة 1937م⁽⁶⁾

(1) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج2، ص 218.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 371.

(3) ابن الأبار، الحلة السراء، ج1، ص 290.

(4) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص 251.

(5) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص 277.

(6) المرجع السابق، ص 278.

4. **القطعة الرابعة:** وهي قطعة صغيرة تتكون من نحو ستين ورقة من القطع الصغيرة، وتحتوي على أحداث أربعة أعوام من حكم الخليفة المستنصر بالله هي أعوام 362-365هـ، وقد قام مؤخرًا بتحقيقها ونشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجي وصدرت ببيروت سنة 1965م⁽¹⁾

5. **القطعة الخامسة:** وقد تم اكتشاف السفر الخامس المتعلق بعصر عبد الرحمن الناصر— وتم العثور عليها ضمن موجودات الخزانة الملكية بالرباط. والمخطوط قديم وفيه خروم كثيرة، ولكنه رمم اليوم وأصبح في حالة جيدة من الحفظ، وهي عبارة عن جزء ضخيم من كتاب «المقتبس» يقع في مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم 370 صفحة، ويبدأ هذا السفر الخامس بسنة 300هـ/912م وينتهي بسنة 350هـ/961م⁽²⁾

كما نشر مؤخرًا كل من د. شالميتا ود. فيدريكو كورنيطي ود. محمود صبح الجزء الخامس من المقتبس الخاص بفترة الثلاثين سنة من حكم عبد الرحمن الناصر لدين الله، وذلك بمجلة المعهد الإسباني بمدريد سنة 1979م⁽³⁾

إضافة إلى هذه التأليف نجد مثلًا: "كتاب المتين"، وهو مفقود، لكن بعض المصادر التي نقلت منه حفظت أجزاء منه مثل: كتاب «الذخيرة» لابن بسام و«البيان المغرب» لابن عذاري و«الحلة السيرة» لابن الأبار و«المغرب» لابن سعيد و«الصلة» لابن بشكوال.... وغيرهم. وكذلك كتاب «أخبار الدولة العامرية»، وهذا ما أورده ابن حيان في «أخبار الدولة العامرية» من شعره⁽⁴⁾

ومما تجدر الإشارة إليه حول هذا الكتاب أن هناك اختلاف بين المؤرخين المحدثين في نسبة هذا الكتاب لابن حيان هل كتاب مستقل بذاته أم هو جزء من كتبه الأخرى كالمقتبس.

(1) المرجع السابق، ص 278.

(2) المرجع السابق، ص 278، 279.

(3) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 198.

(4) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج 1، ص 227، قال المحقق (حسين مؤنس): "لم نسمع أن ابن حيان كتب كتابا خاصا عن عبد الرحمن الناصر، ولكن الثابت أن له كتابا في الدولة العامرية يسمى "البطشة الكبرى"، وعنه نقل ابن بسام ما أورده في الذخيرة من تاريخ المنصور بن أبي عامر، ج 1، ص 269.

لكن الدكتور محمود ومحمد عبد الله عنان استنتجا من خلال المؤلفات التي نقلت عن ابن حيان بعض النصوص وحفظتها أن هذا الكتاب ينسب له.

وكذا نجد كتاب «البطشة الكبرى»، وكتاب «تاريخ فقهاء قرطبة» وذكره ابن خطيب⁽¹⁾، والسخاوي⁽²⁾، وكتاب «انتخاب أخبار قرطبة»، ذكره ابن الأبار⁽³⁾، وكتاب «الجمع بين كتابي المقتبس وابن عفيف» وذكره ابن الأبار⁽⁴⁾، وكتاب «تهذيب تاريخ أبي عمر بن عفيف»، ذكره ابن الأبار⁽⁵⁾، وكتاب «الانتخاب الجامع لمآثر بني خطاب»، وذكره ابن الأبار⁽⁶⁾.

والأكيد كما يراه الدكتور محمود مكي أن الكتب الأربعة الأولى تؤلف لما يعرف باسم «التاريخ الكبير» لابن حيان والتي تضم بين أربعتها تاريخ الأندلس لکه من الفتح الإسلامي حتى قرب وفاة ابن حيان أي على طول أكثر من ثلاثة قرون ونصف.

وهذه الكتب لو بقيت -كاملة- لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرا وأعطته صورته الحقيقية، حيث إن ابن حيان سيال الأسلوب، ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقعقعة اللفظية، كما فعله آخرون من أصحاب الروايات المسهبة والتي لا تنتهي.

وذكر ابن عذاري في مقدمة كتابه أنه نقل عن ابن حيان من كتابيه: «أخبار الدولة العامية»، و«المقتبس»⁽⁷⁾، وعند نقله للنصوص التي أوردها من الكتابين نراه يذكر اسم المؤلف دون أن يحدد من أي الكتابين كان نقله للنص:

فمثلا نجده يقول في تقولاته قال حيان بن خلف، ثم يورد النص في المواضع الآتية:

ج2: 106، 126، 225، 280، 300.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 91.

(2) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص 269.

(3) ابن الأبار، التكملة ط كوديرا ص 91 نقلا عن المقتبس ص 67.

(4) المصدر السابق: ص 546 نقلا عن المقتبس ص 67.

(5) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، ص 206.

(6) ابن الأبار، التكملة ط كوديرا، ص 260 نقلا عن المقتبس ص 69.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

ج3: 8، 9، 18، 27، 32، 130، 131، 138، 144، 147، 156، 158، 162، 164، 169، 188،
240.

أو يقول مثلاً: قال ابن حيان ويورد النص في المواضع الآتية:

ج1: 252

ج2: 109، 237، 290،

ج3: 4، 12، 23، 42، 84، 113، 114، 118، 125، 127، 128، 129، 137، 173، 178، 181،
186، 193، 197، 204، 207، 209، 217، 219، 220، 229، 249، 254.
(الذيل) 303، 309.

وتارة يقول ابن حيان في تأريخه: 3: 308.

وذكر حيان: 2: 126.

وعموماً يمكن القول أن نقولات ابن عذاري عن ابن حيان بلغت ثلاثاً وستين في البيان المغرب.

- ففي الجزء الأول في موضع واحد.

- وفي الجزء الثاني في تسعة مواضع.

- وفي الجزء الثالث في خمسين موضعاً.

- وفي ذيل البيان المغرب في ثلاثة مواضع.

أما نقولات ابن عذاري عن ابن حيان:

303-خبر عن خلع نظام الدولة عبد الملك بن المنصور بن عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور

بن أبي عامر المتولي على شاطبة وبلنسية.

308-خبر وصف جارية الطبيب ابي عبد الله الكتاني، وذكر الأمير هذيل بن خلف بن لب بن رزين

البربري المشهور بشراة الجوارى الحسان، حتى اشتهر بذلك.

309: خبر عن دولة جبر الدولة ذي الرئاستين أبي مروان عبد الملك بن هذيل الذي بويع بعد أبيه وكان سيء الذكر.

والملاحظ من خلال ذكر هذه النقول لابن عذاري عن هذا الكتاب أنها تصرح بمدى أهمية الكتاب وتفردته في موضوعه وإن كان لم ينص على عنوان هذا الكتاب خلال هذه النقول، فإنه قد نص عليه في بداية كتابه عند إيرادها - على الجملة - للمصادر والتي اعتمد عليها في كتابه مواضع الدراسة فذكرنا من بينها «أخبار الدولة العامرية» لابن حيان - كما أشرنا.

15. كتاب «المظفري» ل محمد بن الأفتس (ت 640هـ/1242م)

ذكر ابن عذاري⁽¹⁾ أن المظفر هو محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الأفتس (أبو بكر) ألف كتابا سمي «بالمظفري»، يحتوي على الأخبار والسير والآداب المتخيرة الطرف المستملحة والنكت البديعة والغرائب الملوكية واللغات الغريبة.

قيل أنه اختصر فيه خزائنه الفائقة لا يكاد يوجد له نظير يكون في نحو خمسين مجلد فتصرف فيه تصرفا بديعا، ولكبره لا يتمكن كل الناس من اكتسابه فإنه لا يصلح إلا لخزائن الملوك، وقد بلغ هذا الكتاب خمسين مجلدا كما ذكر المقري⁽²⁾

ونقل المقري⁽³⁾ عن ابن الأبار: [أن المظفر ابن الأفتس كان محبا لأهل العلم وكثير الأدب جم

المعرفة، ذا خزانة عظيمة.....]

وقال عنه ابن بسام:⁽⁴⁾ [أنه كان أديب ملوك عصره، له تصنيف رائق وتأليف فائق، المترجم

"بالتذكرة"، والمشتهر أيضا اسمه بالكتاب المظفري في خمسين مجلد يشتمل على مثل ومغاز وسير وخبر

(1) البيان المغرب، ج3، ص 236، 237، وينظر، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 364.

(2) المقري، نفع الطيب، ج1، ص 442.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 380.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ج2، ص 255.

وجميع ما يختص به علم الأدب، وإلى المظفر أهدى أبو عمر بن عبد البر مجموع مختاراته الفريد المسمى زينة المجالس في مجلدات ثلاثة⁽¹⁾

ونقل ابن عذاري عن كتاب «المظفري» نصين هما:

ج1: 167- من أخبار هروب زيادة بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إلى مصر.

ج3: 116- في سنة 405هـ/1014م خرج علي بن حمود من سبتة إلى مالقة.

16. "الدولة المرابطية" ليحيى بن محمد الأنصاري أبي بكر ابن الصيرفي (ت 557هـ/1174م)

هو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي (أبو بكر)، من أهل غرناطة، قرأ على شيوخ بلده، وأخذ عن العالم الحافظ أبي بكر بن العربي كاتب الأمير تاشفين بن علي بغرناطة⁽²⁾

قال ابن الخطيب⁽³⁾: [كان نسيج وحده في البلاغة، والتبريز في أسلوب التاريخ والمعرفة باللغة والخير].

قال أبو القاسم: [من أهل المعرفة بالأدب والعربية والفقہ والتاريخ، وكذلك من الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين الكثيرين]

كما نقل السيوطي⁽⁴⁾ عن ابن الزبير أنه قال: [كان من أهل المعرفة بالعربية والآداب واللغات والتاريخ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء الكثيرين].

وتجلى لنا مكانة الصيرفي التاريخية فيما خلفه من مؤلفات وتصانيف تتمثل في:

- كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» ذكره مؤلف «مفاخر البربر» آخر ورقة 33ب من النص المخطوط، ومؤلف الحلل الموشية، والشطبي في كتابه «الجمان في أخبار الزمان»⁽⁵⁾.

(1) أنجل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 118.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص 407، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 118.

(3) المصدر السابق، ج4، ص 407.

(4) السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 343.

(5) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 36، 37.

وذكره ابن الخطيب⁽¹⁾ فقال: [ضمن العجائب إلى سنة ثلاثين وخمسمائة، ثم وصله إلى قرب وفاته].

وقال ابن سعيد⁽²⁾: [أخبرني والدي أن له تاريخاً] وسماه الزركلي⁽³⁾ «تاريخ الدولة اللمتونية» وحاجي خليفة⁽⁴⁾ «تاريخ ابن الصيرفي»

- كتاب «تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء»، وهو من مصادر ابن عذاري وذكره في مقدمة كتابه⁽⁵⁾ وذكره ابن الخطيب⁽⁶⁾ باسم «تقصي الأنباء وسياسة الرؤساء»

- كتب «أبرز اللطائف»

- كتاب «رسالة الدوريات في قول المديون لرب العالمين»⁽⁷⁾ عن «كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» وكتاب «تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء».

نقل ابن عذاري عن ابن الصيرفي في اثنا عشر موضعا فمرة يذكره بقوله: [ذكر صاحب كتاب

الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية]، وذلك في موضع واحد⁽⁸⁾

ومرة يقول [قال أبو بكر يحيى بن محمد الأنصاري] وهو في خمسة مواضع⁽⁹⁾، ومرة أخرى يقول

قال: [ابن الصيرفي في كتاب تقصص الأنباء في سياسة الرؤساء] في موضع واحد⁽¹⁰⁾، ومرة واحدة

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص 407.

(2) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 118.

(3) الزركلي، الأعلام، ج8، ص 164.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 279.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 3.

(6) ابن الخطيب، ج4، ص 407.

(7) وذكر الكتاتين الأخيرين عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص 116.

(8) ابن عذاري البيان المغرب، ج1، ص 74.

(9) المصدر السابق، ج4، ص 41، 90، 91، 93.

(10) المصدر السابق، ج4، ص 89.

ورد في كتاب [الأنباء في سياسة الرؤساء] ⁽¹⁾، ومرة واحدة يقول [هكذا ذكر الصيرفي] ⁽²⁾، ومرة واحدة يقول:

[قال ابن الصيرفي] ⁽³⁾، ومرة واحدة يقول [قال أبو بكر الأنصاري] ⁽⁴⁾، ومرة واحدة يقول [هكذا ذكر أبو بكر بن محمد] ⁽⁵⁾، ومرة واحدة يقول [قال الراوية] ⁽⁶⁾

أما عن موضوعات النقول فهى:

ج4: 41-خبر عن فتح بلنسية وعودتها للمسلمين.

49-خبر قيام أبي العلاء بن زهير إلى المطالبة القاضي ابن منظور.

50-الأحداث التي وقعت في ولاية علي بن يوسف الدالة على نميه وبركته.

50-خبر مهلك طاغية الروم اذفونش بن فرديناند بطليطلة سنة 502هـ/1108م.

74-ذكر وفاة الفقيه القاضي أبي الوليد ابن رشد.

78-خبر تولية علي بن يوسف ابنه سير على ولاية العهد.

80-خبر ولاية تاشفين بن علي الأندلس.

89-خبر إنشاء الشعراء مهنته بقدوم تاشفين بن علي من الغزوة التي هزم فيها الروم النصارى سنة

ثمان وعشرين وخمسمائة.

90-خبر خروج الأمير تاشفين بن علي لغزو الروم وهي غزوة البثار التي وقعت سنة ثمان

وعشرين بعد عيد النحر.

(1) المصدر السابق، ج4، ص 49.

(2) المصدر السابق، ج4، ص 78.

(3) المصدر السابق، ج4، ص 50.

(4) المصدر السابق، ج4، ص 80.

(5) المصدر السابق، ج4، ص 50.

(6) المصدر السابق، ج4، ص 50.

91- خبر القصيدة التي ألقاها الفقيه أبو بكر يحيى بن يوسف الأنصاري بعد غزو البكار يمدح فيها الأمير ويعظمه ويذكر بلاءه في الحروب.

91- خروج يحيى بن علي بن غانية عمل بلنسية لحماية الزرع بالثغر.

93- خبر مقتل قاضي قرطبة أحمد بن خلف التجيبي في المسجد الجامع، وهو في السجدة الأولى من ركعتي الجمعة سنة تسع وعشرين وخمسمائة 529هـ/1134م.

96- خبر عودة تاشفين بن علي من الأندلس إلى حضرة أبيه لتجديد العهد به سنة احدى وثلاثين وخمسمائة (531هـ/1136م).

17. كتاب «بهجة النفس وروضة الأنس» لأبي محمد بن هشام بن عبد الله القرطبي:

لا تمدنا المصادر بترجمة وافية كافية عن مؤلف هذا الكتاب حتى في كتب التراجم، إلا أن ابن عذاري احتفظ لنا ببعض النصوص من كتابه المفقود «بهجة النفس وروضة الأنس».

فلعل هذه النصوص المنقولة أو المحفوظة تعطي مساحة زمنية واسعة تقريبا، فهي تبدأ منذ الفتح، وتنتهي بأحداث سنة 278هـ/891م.

ويتضح جليا من هذه النصوص أن الكتاب يضم تاريخا عاما للأندلس يبدأ بالفتح وينتهي على الأقل في أواخر عصر الإمارة، ولكننا لا نستطيع أن نحدد فترة زمنية ثابتة، ولعل ذلك يعود إلى جهلنا بالمؤلف وعصره وحتى تاريخ وفاته⁽¹⁾

وبالتالي نجد ابن عذاري ذكر كتاب «بهجة النفس وروضة الأنس»، ضمن المصادر التي اعتمد

عليها⁽²⁾، وقد نقل عنه في تسع مواضع وهي:

ج2: 12- خبر وصول المسلمين في فتوحاتهم إلى مدينة لوطون قاعدة الإفرنج.

32- رأي آخر في مقتل بلج بن بشر القشيري على يد عبد الرحمن بن علقمة.

33- خبر سبي ثعلبة بن سلامة والي الأندلس ذراري ونساء البربر الذين ثاروا في ماردة.

(1) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 216.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2.

34- ذكر خير العميل بن حاتم وسبب الفتنة في الأندلس.

51- رأي في ثورة عبد الغافر اليماني الذي ثار بإشبيلية ضد الأمير عبد الرحمن بن معاوية.

52- رأي في ثورة العلاء بن مغيث الجذامي الذي ثار بباجة ضد الأمير عبد الرحمن بن معاوية.

57- خبر غزوة الإمام عبد الرحمن بن معاوية سرقسطة ومحاصرتها وقتل حسين بن يحيى الذي سبق أن أخذ المدينة عنوة.

87- رأي في مكوث الجوس في إشبيلية عندما غزوها سنة 230هـ/844م.

123- خبر خروج الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم إلى بلاي لقتال عمر بن حفصون، وذلك سنة 278هـ/900م.

والملاحظ من خلال هذه النقولات أن بعض الأخبار منها من كتاب «هجرة النفس» عبارة عن رأي آخر للحدث أو تفصيل لأخبار ذكرها⁽¹⁾

18. كتاب «المن بالإمامة» لعبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة (ت بعد 594هـ/1197م)

هو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي الإشبيلي أبو مروان وأبو محمد، المعروف (بابن صاحب الصلاة)

مؤرخ وكاتب أندلسي من أهل (باجة) أقام مدة في (إشبيلية)، وتنقل بينها وبين قرمونة وقرطبة ومراكش، حيث تعلق بخدمة الموحدين واستمر إلى آخر حياته⁽²⁾

واللافت في هذا المؤرخ أن المصادر المعاصرة قد أغفلت عنه كثيرا سواء عن نشأته وتربته ولا حتى تاريخ ولادته ووفاته وكذلك حياته العلمية.

وبالرغم من هذا فنجد أن أغلب المؤرخين الذين ترجموا له استطاعوا أن يصلوا إلى شخصه من خلال ما وجد من آثاره الخطية ككتاب «المن بالإمامة» السفر الثاني.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 51، 52، 87.

(2) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 154، 266، ابن سورة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج1، ص 135، 136، عبد الهادي النازي، مقدمة كتاب "المن بالإمامة"، ص 100، وينظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي النازي، ص 49.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أخبار عبد الملك أول ما ظهرت كانت من خلال كتابه «المن بالإمامة» أوائل المحرم من سنة (557هـ/1161م) في مدينة قرمونة، وذلك لما فتحها الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص ودخل مسجد المدينة وأمر بغسله بعد أن تخلص من الأسر.

ومن هنا استنتج د/ التازي من هذا الخبر أن مولد ابن صاحب الصلاة قد يكون حوالي سنة سبع وثلاثين وخمس مائة (537هـ/742م)⁽¹⁾

ثم توالى أخباره في هذه السنة مرة أخرى بقرطبة عندما خرج لاستقبال السيدين أبي يعقوب وأبي سعيد صحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال سنة (557هـ/1161م)⁽²⁾

أما في سنة (560هـ/1164م) فنجد مؤرخنا قد صحب موكب السيد أبي سعيد والي قرطبة ليتزل جبل طارق، حيث تم هناك الاجتماع العظيم بين السيد أبي سعيد وأخيه السيد أبي حفص.

وهنا ورد ابن صاحب الصلاة في جملة الواردين مع طلبة الحضرة للتيمن بطلعة السيد أبي حفص، وقد تقدم ضمن الشعراء الذين هنا وأما بقطعة شعرية⁽³⁾، ثم سار ابن صاحب الصلاة بصحبة ركب السيد أبي حفص، وعبروا إلى سبتة ثم فاس، واتجهوا نحو مدينة مراكش، حيث تم اللقاء بين الأمير أبي يعقوب والأخوين السيدين أبي حفص وأبي سعيد خارج المدينة فاتح رجب من سنة ستين وخمس مائة على أكمل غاية الظهور والبروز⁽⁴⁾

هذا وقد استمر ابن صاحب الصلاة مقيماً بمدينة مراكش، وظل مرتبطاً بالقصر يلازم السقائف التي خصصت للكتاب والأشياخ.

ويحكى عنه أنه تنبأ صباح الأحد 23 ذي الحجة سنة (560هـ/1165م) بانتصار الموحدين على ابن مردنيش في موقعة الجلاب⁽⁵⁾

(1) عبد الهادي التازي، مقدمة كتاب المن بالإمامة، ص 10.

(2) المصدر السابق، ص 11.

(3) المصدر السابق، ص 11.

(4) المصدر السابق، ص 11، 12.

(5) المصدر السابق، ص 12، 13.

ويظهر جليا لما تصفحنا كتاب المن بالإمامة علاقة ابن صاحب الصلاة ببلاط الموحدين حتى وفاة أبي يعقوب، فقد كان على صلة قريبة، ولذلك فهو يتبع بناء مسجد إشبيلية وبناء صومعته الشهيرة، ثم تركيب التفاح بأعلى المنار. بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور وبمحضر ولي عهده سنة (594هـ/1197م)، كما أشركه الخليفة في الخطبة مع أبي الحكم عبد الرحمن بن حجاج بالجامع الأعظم في إشبيلية في هذه السنة نفسها⁽¹⁾

ولم يذكر ابن الأبار في الحلة السيرة وابن عبد الملك في الذيل والتكملة تاريخا محمدا لوفاة صاحب الصلاة، ولا حتى المستشرقين أمثال: بروكلمان، واماري، ويونس بويكس، وبروفنسال، وإنما كان على وجه التحديد أي سنة (578هـ/1182م).

ويرى د/التازي أن أقرب الاحتمالات لذلك هو أواخر المائة السادسة لكون النقل عنه اختفى أواخر القرن السادس⁽²⁾

يعتبر تأليف ابن صاحب الصلاة من أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن عذاري، ونقل عنها في كتابه، فقد مثل هذا الكتاب مصدرا أساسيا من مصادره، فهو أحد المصادر المهمة في تاريخ الموحدين، وهو في حكم المفقود، ويقع في ثلاثة أسفار، ولم يبق منه إلا السفر الثاني الذي قام على تحقيقه ونشره الأستاذ الدكتور/ عبد الهادي التازي وهذا السفر بالذات يعالج فترة مهمة من تاريخ الموحدين وتشمل خمسة عشر عاما من (554-569هـ/1159-1173م)، ويتضمن تفاصيل وافية عن الأحداث التاريخية والأعمال الاقتصادية والمنشآت المعمارية، وعن الأنظمة الموحدية، والحياة الفكرية والأدبية والدينية، هذا فضلا عن مجموعة من الرسائل الموحدية والقصائد الشعرية؛ أندلسية ومغربية، مع بعض التراجم الأندلسية.

واللافت في الانتباه إلى هذا الكتاب أنه ذا قيمة من خلال النصوص المنشورة فيه، بدليل أن صاحبه كان معاصرا للأحداث التاريخية التي يكتبها، بل كان أحد رجالات الدولة الموحدية، ومن

(1) عبد الهادي التازي، مقدمة كتاب المن بالإمامة، ص 13، 14.

(2) المصدر السابق، ص 18، 20.

المقرين لخلفائها والمصاحبين لهم في حلهم وترحالهم، وبالتالي فقد كان ابن صاحب الصلاة مرجعا لكثير من المؤرخين الذين أتوا من بعده، وعنوان الكتاب المشهور هو «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين».

وقد نقل عنه ابن عذاري في ثمانية عشر موضعا في كتابه، واعتمد عليه اعتمادا كاملا منذ سنة (534هـ/1139م)، ولم يصرح بعنوان الكتاب، ولكنه كان دائما يذكر اسم المؤرخ ابن صاحب الصلاة، ومن الأخبار التي نقلها عنه:

- خبر عن امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه سينية، فظن أنه فاكهة، وإذا فيه فحم فسر به ... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [ولقد أخبر ابن أبي الصلاة بسند ذكره عن أخيره أن ...] (1)

- خبر عن ابن الدبرير، وأصله، ومكانته في الأندلس، ومقتله، ومقتل تاشفين ليلة سبع وعشرين من رمضان (سنة 539هـ) ... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة] (2)

- خبر عن منازل عبد المؤمن بن علي لمدينة تلمسان (سنة 540هـ) ... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة] (3)

- خبر عن دخول الموحدين مدينة فاس ... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر ابن صاحب الصلاة] (4)

(1) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 16.

(2) المصدر السابق، ص 20.

(3) المصدر السابق، ص 23.

(4) المصدر السابق، ص 24.

- خبر عن حصار عبد المؤمن بن علي لمدينة مراكش (سنة 541هـ)، ودام هذا الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً...، وقد ختم ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [هكذا ذكر ابن صاحب الصلاة]⁽¹⁾
- خبر عن دخول عبد المؤمن مدينة مراكش، ورجوعه منها إلى محلته بعد أن جعل الأنباء على أبوابها مدة شهرين اثنين، ثم قسم ديارها على الموحدين...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة]⁽²⁾
- خبر عن توجه عبد المؤمن بن علي إلى مدينة سلا، فحكى ابن صاحب الصلاة أنهم مروا في طريقهم بقصر عبد الكريم، ووصف لنا الأوضاع في ذلك الوقت...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة]⁽³⁾
- خبر عن مكان إقامة عبد المؤمن بن علي أيام المهدي...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر ابن صاحب الصلاة]⁽⁴⁾
- خبر عن تحرك أبي حفص عمر بن يحيى بأمر أخيه إلى قتال ابن مردنيش...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة]⁽⁵⁾
- خبر عن خروج الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم برايته متوجها إلى إشبيلية ليكون حاكما عليها...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال ابن صاحب الصلاة]⁽⁶⁾

(1) المصدر السابق، ص 27.

(2) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 30.

(3) المصدر السابق، ص 41.

(4) المصدر السابق، ص 81.

(5) المصدر السابق، ص 88، وينظر النص المطبوع للممن بالإمامة (تحقيق: د. عبد الهادي التازي)، ص 195، 200.

(6) المصدر السابق، ص 92، 93، وينظر أيضا النص المطبوع، ص 218، 219.

- خبر عن القصيدة التي أمر السيد أبو حفص الشاعر أبا عمر بن حربون أن يصنعها يتشوق فيها إلى أخيه أبي يعقوب...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [أخبر أبو مروان عبد الملك بن محمد قال....] (1)
- خبر عن السبب في تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبي حفص عمر بن يحيى إلى الأندلس...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال مؤلفه: أخبر أبو مروان ابن صاحب الصلاة قال: حدثني أبو محمد سدراي بن وزير قال...] (2)
- خبر عن وباء الطاعون الذي اجتاح مدينة مراكش، وارتفاع عدد الوفيات حتى كان يموت في كل يوم ثلاثون شخصا حتى فني أكثر من كان في قصور الموحدين، ودورهم، واستمر هذا الطاعون سنة كاملة...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [فأخبر أبو مروان ابن صاحب الصلاة قال: حدثني الشيخ الحافظ أبو بكر بن الجند قال: حدثني السيد ابو علي الحسن بن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله أنه كان....] (3)
- خبر عن عبور الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس، وحضور ابن صاحب الصلاة لهذا اللقاء وتسليمه عليه...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال أبو مروان ابن صاحب الصلاة....] (4)
- وينتهي النقل عن ابن صاحب الصلاة بخبر عن غزوة شنتين 580هـ، وكان ابن صاحب الصلاة ممن شهدها وحضرها، ووصف ما يمكن وصفه مما عاينه وشاهده... وقال أبو مروان ابن صاحب الصلاة، لقد رأيت في هذا اليوم ثورا بيد غربي باعه بدرهم واحد، ولقد اشترت مع أصحابي بقرة سمينة بثلاثة دراهم، وامتألت المحلات على كثيرتها وكبرها من البقر والغنم (5)

(1) المصدر السابق، ص 98، وينظر أيضا النص المطبوع، ص 257.

(2) المصدر السابق، ص 105، وينظر أيضا النص المطبوع، ص 291، 292.

(3) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 136، 137.

(4) المصدر السابق، ص 159.

(5) المصدر السابق، ص 160-161.

ثم يبدأ ابن عذاري بعد ذلك في الاعتماد على كتاب «تاريخ الموحدين» لأبي الحجاج يوسف بن عمر في التأريخ لبقية أيام الموحدين.

ونقل ابن عذاري مرة واحدة عن الكتاب الثاني لابن صاحب الصلاة «تاريخ المريدين الثوار»، ومما نقله عنه:

- خبر عن جواز أبي إسحاق براز بن محمد المسوفي، وعمر بن صالح الصنهاجي، وأحمد بن قسي مع المبعوث إلى الأندلس... وقد نقل ابن عذاري هذا الخبر بقوله: "وقد ذكر ابن صاحب الصلاة... في تاريخ المريدين الثوار..."⁽¹⁾

ذكرنا فيما سبق أن كتاب «المن بالإمامة» عبارة عن ثلاثة أسفار، فقد منه السفر الأول والثالث، ووصلنا السفر الثاني نشره د/عبد الهادي التازي الذي يبدأ بحوادث سنة (554هـ/1159م).

وقد حفظ ابن عذاري أحد عشر نصا من السفر الأول المفقود.

ويتبين من خلال هذه النصوص أن ابن عذاري لم يسم كتاب ابن الصلاة واكتفى بذكر اسم المؤلف ناسبا إليه النص، حتى حينما ذكر في مقدمة كتابه⁽²⁾، أنه اعتمد على كتاب ابن صاحب الصلاة لم يذكر العنوان فرمما اشتهر الكتاب باسم المؤلف أكثر من شهرة العنوان.

وبمقارنة النصوص التي نقلها ابن عذاري عن ابن صاحب الصلاة نجد أن هذه النصوص تنقسم إلى

نوعين:

نقولات عن ابن صاحب الصلاة لنصوص ضائعة كانت ضمن السفر الأول لكتاب المن

بالإمامة.

نقولات عن ابن صاحب الصلاة لنصوص باقية في السفر الثاني، وهي أربعة عشر نصا.

وهذه النصوص الباقية تتنوع إلى:

الأول: نقل أخبار تاريخية باختصار وتصرف في النص مع ذكر اسم المؤلف المنقول عنه.

(1) المصدر السابق، ص 35.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 2، 3.

الثاني: نقول لقصائد شعرية.

الثالث: نقول عن ابن صاحب الصلاة دون ذكر اسمه والاكتفاء بالإشارة إليه بقول قال الراوية.

ونظرا لأهمية كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة في تأليف الجزء الأخير من كتاب البيان المغرب وكثرة النصوص التي استعملها ابن عذاري دون ذكر المصدر أحيانا، فقد رأينا من المفيد إسداء بعض الملاحظات حول هذه النقول:

- نقل الخبر من طرف ابن عذاري باختصار وتصرف في النص تصرفا كبيرا مع حذف للألقاب وبعض العبارات الإنشائية.

- الاختصار والتصرف فيما نقله ابن عذاري عن ابن صاحب الصلاة، والاختصار فقط على ذكر الأحداث المهمة في الموضوع، وحذف عبارات الإطراء والتبجيل وبعض الشعر، فالنصوص التي يحذفها ابن عذاري في نقله من ابن صاحب الصلاة هي النصوص التي فيها إطراء ومدح من ابن صاحب الصلاة للموكة وأمراء عصره، فمن الطبيعي ألا ينقل نصوصا كتبها صاحبها ليكون مدحا وإطراء لسياسيين هو عاصرهم ويعمل في قصورهم.

- من منهج النقل عند ابن عذاري الاختصار وخاصة في الشعر المعروف والمشهور، في حين نجد أنه ينقل القصائد التي لم تشتهر.

وبالتالي نلاحظ أن ابن عذاري نقل عن ابن صاحب الصلاة هذه النصوص السابقة وقام باختصار بعض العبارات والكلمات.

19. كتاب "جدوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس" لمحمد بن فتوح الأزدي الحميدي (488هـ/1095م)

هو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي أبو عبد الله، أصله من قرطبة من ربض الرصافة/ ولد بميورقة قبل سنة عشرين وأربعمائة، نشأ وتلقى العلم وطلبه وهو صغير.

ارتحل الحميدي سنة (448هـ/1056م) لطلب العلم، فقدم مصر، ثم حج وسمع بمكة ودمشق وواسط، ثم استوطن ببغداد، فروى عن الخطيب البغدادي، فكتب عنه أكثر مصنفاته⁽¹⁾ أثنى العلماء على محمد بن فتوح الحميدي من أمثال ابن ماكولا⁽²⁾، والضيبي⁽³⁾ وقال بعض الأكابر ممن لقي الأئمة: [وكان ورعا ثقة إماما في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته، محققا في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث، متبحرا في علم الأدب والعربية]⁽⁴⁾.

توفي ببغداد ليلة الثلاثاء، سابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة 488هـ/1095م⁽⁵⁾ وقد اعتمد ابن عذاري على كتاب الجذوة في موضعين من كتابه وفي الموضوع الأول نقل عنه بعض الأحاديث في فضل المغرب وتعليقه عليها⁽⁶⁾، وفي الموضوع الثاني استغل ابن عذاري الحس الشعري والأدبي عند الحميدي، فقد كان شاعرا - كما ذكرنا - وتمكن بحسه المرهف من اختيار نصوص شعرية وأدبية ذات لون خاص يشعر معها القارئ بشفافية المؤلف وذوقه في الاختيار.

من هنا فقد نقل عنه ابن عذاري كلامه عن أبي عمرو عباد صاحب إشبيلية، فقال: وقال الحميدي في كتابه: [كان أبو عمرو عباد صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع والشعر الرائع، وقد رأيت له سرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه]، فمن قوله:

كأنما يأسميننا الغض * * * كواكب في السماء تبيض

والطرق الحمر في جوانبه * * * كخذ عذراء مسه⁽⁷⁾ عض⁽⁸⁾

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج5، ص 395، الضبي، بغية الملتبس، ج1، ص 161، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 282، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص 120، المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص 112، إبراهيم الأبياري، مقدمة كتاب جذوة المقتبس.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ص 395.

(3) الضبي، بغية الملتبس، ج1، ص 161.

(4) المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص 113.

(5) الضبي، بغية الملتبس، ص 123، 124 (الترجمة رقم 257)، ابن شيكوال، ج2، ص 560، 561، (الترجمة رقم 1230)، ابن سعيد الأندلسي،

المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 467، 468 (الترجمة رقم 644)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 282، 284 (الترجمة رقم 616)

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 7، وينظر إلى النص في الجذوة، ص 6، 7.

(7) في نص الجذوة (ناله) بدلا من (سته)، ينظر: الجذوة، ص 296، (الترجمة رقم: 672)

(8) البيان، ج3 ص 285، وينظر إلى النص في الجذوة ص 296، (الترجمة رقم 672)

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن عذاري لم يذكر كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي ضمن المصادر التي أورد قائمتها في مقدمة كتابه⁽¹⁾، في حين أنه نقل عنه في موضعين:

ج1: 7- نقل ابن عذاري عن كتاب الحميدي تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"

و بمقارنة النص الذي نقله ابن عذاري عن الحميدي نلاحظ اختلاف بعض الكلمات عما هو موجود في الكتاب المطبوع، ويظهر أن ابن عذاري تصرف في نقل النص تصرف قليلا⁽²⁾

ج3: 285- نقل ابن عذاري أيضا عن كتاب الحميدي وصف أبي عمرو بن عباد صاحب إشبيلية المذكور آنفا.

ومن خلالها اتضح لدينا بعد مراجعة النص في الكتاب المطبوع وجدنا أن في نص ابن عذاري زيادة عبارة [وقد رأيت له سفرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه]، وهذه الزيادة للأسف لم نجدها في الكتاب المطبوع، ولعل ذلك كان سقطا في المخطوطة احتفظ لنا بها ابن عذاري أو نقل من مخطوطة أخرى بها زيادات⁽³⁾

20. مؤلفات (محمد بن وضاح بن بزيع أبو عبد الله) (ت 286هـ/899م)

هو محمد بن وضاح بن بزيع، أبو عبد الله، مولى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان، من أهل قرطبة.

من الرواة الكثيرين، والأئمة المشهورين، رحل إلى المشرق وطوف البلاد في طلب العلم، سمع بالأندلس وإفريقية والمدينة، وأخذ عن كثير من العلماء، وعاد إلى الأندلس، فحدث مدة طويلة، وانتشر بها عنه علم جم وروى عنه بها من أهلها جماعة رفعا مشهورون⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 2، 3.

(2) قارن الحميدي، جذوة المقتبس، ج1، ص 36.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، ج2، ص 468، 469.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 153، الضبي، بغية المتتمس، ج1، ص 173، الزركلي، الأعلام، ج7، ص 133.

توفي محمد بن وضاح في سنة ست وثمانين ومائتين⁽¹⁾

للمؤلف تأليف أو مصنفات أبرزها:

- كتاب «العباد والعباد» في الزهد والرقائق
- كتاب «القطعان» في الحديث.
- كتاب «مكتون السر ومستخرج العلم» في الفقه المالكي.
- كتاب «ما جاء من الحديث في النظر إلى الله تعالى».
- كتاب «البدع والنهي عنها»⁽²⁾

نقل ابن عذاري عن وضاح نصين، لكن لا نعرف اسم الكتاب الذي نقلنا منه، كما أن هذا الأخير لم يذكر كتب ابن وضاح ضمن المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه⁽³⁾، وهذان النصان.

ج2: 66- خبر بناء هشام بن عبد الرحمن بن معاوية قنطرة على نهر قرطبة، فتكلم بعض الناس فيه، وقالوا: [أما بناها لتصيده ونزهته] فحلف حين بلغه ذلك أن لا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة.

ج2: 110-111- نقل ابن عذاري قول ابن وضاح عند وفاة عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب قال: [لم يقدم الأندلس أحدا أفقه من سحنون إلا أنه قدم علينا من هو أطول لسانا منه، يعني ابن حبيب].

21. كتاب «البيان الواضح عن الملم الفادح» لمحمد بن علقمة (509هـ/1115م)

يعتبر هذا التأليف من المؤلفات التاريخية النادرة والمهمة، التي لا يستغني عنها مؤرخ، وكان مؤلفنا ابن عذاري واحدا من المؤرخين الذين اعتمدوا على هذا الكتاب، وإذا عرفنا أن هذا الكتاب -للأسف الشديد - من المصادر الأندلسية المهمة المفقودة أدركنا مدى أهمية وقيمة النصوص التي احتفظ لنا بها ابن عذاري وغيره من هذا الكتاب.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص 82.

(2) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص 761، الزركلي، ج7، ص 133.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

ومؤلف الكتاب هو محمد بن علقمة من أهل بلنسية، كان شاعرا وناثرا من طبقة عالية وهو صاحب البيان الواضح عن الملم الفادح، حيث قص فيه أخبار بلدة بلنسية في أيامه، ووصف ما حاق بها من البلاء على يد السيد القمبيطور⁽¹⁾

توفي ابن علقمة يوم الأحد الخامس والعشرين من شوال سنة (509هـ/1116م)⁽²⁾

وقيل في كتاب ابن علقمة أنه من المؤلفات النادرة التي كتبت في الحوادث التي ألمت ببعض المدن الأندلسية، وقد ألفه ليصف الكارثة التي نزلت بمدينة بلنسية، والأحداث المروعة والمأساة المفزعة التي نزلت بها، فقد قال ابن الأبار عن ابن علقمة: [وألف تاريخا في تغلب الروم (يعني النصارى) على بلنسية قبل الخمسمائة سماه: البيان الواضح في العلم الفادح]⁽³⁾

ويعد وصف ابن علقمة لمأساة بلنسية في هذه الفترة العصيبة وثيقة ناطقة ذات أهمية كبيرة وقيمة عالية، حيث كتبها مؤرخ وأديب بلنسي، فهو شاهد عيان لهذه الحوادث ومشارك حتى في بعضها، فقد وصفه البعض بأنه مؤرخ فاجعة بلنسية⁽⁴⁾

ونظرا لأهمية الكتاب فقد نقلت عنه بعض الحوليات التاريخية الإسبانية ونخص بالذكر هنا حولية ألفونسو العالم، وكذلك فإن الذين كتبوا المدونة العامة الأولى الإسبانية التي نسميها عادة «تاريخ إسبانيا العام» ترجموه إلى الإسبانية، وأضافوه إلى هذه المدونة.

وقد اكتشف ذلك المستشرق الهولندي رينهارت دوزي، وبرهن عليه بدلالات من أسلوب الترجمة، ثم عثر المستشرق ليفي بروفنسال على الجزء الرابع من كتاب ابن عذاري، ووجد فيه فقرات

(1) أنجل بالثيا، تاريخ الفكر الإسلامي، ص 116.

(2) ابن الأبار، التكملة، ج1، ص 411412، (الترجمة رقم: 1165)، الضبي، بغية الملتبس (الترجمة رقم: 514) طبعة كوديرا، 1887م، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص 276.

(3) ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص 412 (الترجمة رقم: 1165)

(4) د. عبد الرحمن الحجى، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص 374، حاشية رقم 01.

كاملة من كتاب ابن علقمة، فقام بمقارنة هذه الفقرات بالنص الإسباني الموجود في المدونة، وانتهى إلى إثبات نظرية دوزي بصورة قاطعة⁽¹⁾

يعتبر ابن عذاري من أكثر المؤرخين الذين نقلوا عن كتاب ابن علقمة المفقود، فقد نقل عنه صفحات كثيرة كاملة ومنتالية، حيث كان يعتمد عليه بصورة أساسية خاصة فيما يتعلق بأحداث بلنسية.

كما نقل عنه هذه الأحداث نقلاً حرفياً، فلم يتخلل هذه الأحداث وهذا النقل مصدراً آخر غير ابن علقمة وكتابه، فقد نقل عنه ابن عذاري بدايات الحصار، وجهود القاضي ابن حجاج لإنقاذ المدينة، ثم نهايته المأساوية على يد السيد القمبيطور، والظروف الاقتصادية الصعبة التي كان يعانيها أهل بلنسية بسبب الغدر والحصار من طرف القمبيطور، وقد صدر ابن عذاري هذه الأخبار بقوله: [قال محمد بن علقمة...]⁽²⁾

22. كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» لأبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق:

هو أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، والذي لم نجد له ترجمة فيما تيسر لنا من مصادر سوى أنه عاصر قيام دولة الموحدين، وأرخ لهم في كتابه المذكور أعلاه وعلى شكل مذكرات، فقد أوله، وابتدئ الباقي منها عند باب دخول ابن تومرت لتونس، وبعد ذلك يأتي ذكر وصوله إلى الجهات التالية، وما قام به من أعمال فيها وهي: بجاية، تلمسان، قسنطينة، فاس، مراکش، مكناس، سلا، إيلان أغمات، أغمات وريكة، إلى أن يصل إلى تينملل حيث قامت دعوته.

(1) حسين مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 03، العدد 01، 1950م، ص 57، حاشية رقم 01. الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ط3، 1987م، ص 252، ونشره د. أحمد مختاري العيادي لكتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص 11: حاشية رقم 02.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 3141.

وهنا نجد المؤلف يذكر بيعة ابن تومرت وأهم حملاته العسكرية وحركة تمييز الموحدين ثم وفاته، وبعدها يتحدث كاتب المذكرات عبد المؤمن، وعملية تمييز الموحدين في عهده، وحملاته حتى استولى على أكثر شمال إفريقية والأندلس. بل يعد المصدر الوحيد المعاصر لحركة المهدي ودعوته، لاسيما إذا وضعنا في الاعتبار أن البيذق كان يرافق المهدي صاحب الدعوة الموحدية، فأهمية الكتاب إذا تكمن في أن صاحبه كان شاهد عيان لكثير من أحداث الدولة الموحدية ومعاصرها لها، وبالتالي فقد وصفها ونقل أحداثها بدقة وأمانة.

وقد ذكر ابن عذاري كتاب البيذق ضمن المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه⁽¹⁾، ونقل عنه

أربعة نصوص وهي تتعلق فقط بدولة «عبد المؤمن بن علي» وغزواته، ومن هذه الأخبار:

- خبر عن رحيل عبد المؤمن بن علي من تينملل إلى بلاد الغرب سنة (535هـ/1140م) ... وقد

صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال البيذق وغيره...]⁽²⁾

- خبر عن دخول عبد المؤمن بن علي مدينة «المزمة»، ونزول المطر بها ثمانية أيام، فسماها

«تاغروت»، وكان البيذق أحد المصاحبين لعبد المؤمن بن علي في هذه الرحلة⁽³⁾

- خبر عن هزيمة محلة بجاية أمام جيوش الموحدين، وإرسال قائدهم غلى عبد المؤمن يعلمه بتوحيده

سرا، ويعدده بفتح بجاية وغيرها، فكان كذلك، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال

البيذق في كتابه...]⁽⁴⁾

- خبر عن فتح مراكش ودخول الموحدين إليها واستيلائهم عليها سنة (514هـ/1146م)، وقد

صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وقال البيذق...]⁽⁵⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص3.

(2) المصدر السابق، ج4، ص99، وينظر المطبوع "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" للبيذق، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص48، 5253.

(3) المصدر السابق، ج4، ص100، وينظر النص المطبوع، ص55، وورد فيه: "فأخذنا فيها الهواء ثمانية أيام"، ولم ترد كلمة المطر.

(4) البيان، قسم الموحدين، ص17، وينظر النص المطبوع، ص59.

(5) البيان، المصدر السابق، ص28، 29، وينظر النص المطبوع، ص6364، وقد نقل ابن عذاري عن البيذق أخبار فتح مراكش مع اختلاف يسير في اللفظ.

بالإضافة إلى هذه المعلومات الهامة والنقولات المذكورة أعلاه، نجد البيدق يتوفر على إفادات بأسماء عدد من المنتمين للعلم بشمال إفريقيا، وذكر أسماء عدد من المساجد بالمنطقة ذاتها، بعد أن أصبح أكثرها في حكم المجهول⁽¹⁾

والملاحظ كذلك أن للمؤلف تأليف آخر وهو بعنوان «المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب»، وذكر فيه نسب ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، وأصحاب المهدي ببلاد مصر، فأصحابه بالمغرب، وعملية تمييز الموحدية على يد ابن تومرت، مع ذكر أنسابهم وبطون قبائلهم⁽²⁾

23. الكاتب أبو علي بن الأشيري التلمساني (ت 569هـ/1173-1174م)

هو أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الأشيري من أهل تلمسان، نشأ بها ودرس بالمغرب والأندلس، وكان من أهل العلم بالقراءات واللغة والنسب والغريب في الأمر أنه كان مجيدا للنظم والنثر.⁽³⁾

عمل أولا كاتبا لتاشفين بن علي، ثم أصبح من كتاب الموحدين، فكتب للخليفة الموحد أبي حفص المرتضي.⁽⁴⁾

يعتبر كتاب «نظم اللآلئ في فتوح الأمر العالی» لابن الأشيري التلمساني من أحد المصادر المغربية المهمة التي اعتمدها ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب»، إلا أنه لم يصرح لنا بعنوان هذا الكتاب، واكتفى كعادته بذكر المؤلف.

والجدير بالذكر أن هذا التأليف عرف من خلال المصادر التاريخية، حيث أن ابن الأشيري له مختصر في التاريخ سماه (نظم اللآلئ)، وهو في الغالب المصدر الذي رجع إليه ابن عذاري ونقل عنه،

(1) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 4243.

(2) المرجع السابق، ج1، ص 4243.

(3) ابن الأبار، الحلة السیراء، ج2، ص 92، وينظر: عبد الملك المراكشي، نظم الجمان، ص 210، وهامش 8، ص 211.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 388، ابن عبد الملك المراكشي، نظم الجمان، ص 210.

وكتابه هذا في تاريخ الموحدين، والأمر العالي إشارة إلى الدعوة الموحدية وقد ذكر ابن الأبار عددا من

المؤلفات، فقال: [وله مجموع في غريب الموطأ]⁽¹⁾، [ومختصر في التاريخ سماه بنظم اللآلئ]⁽²⁾

وتبدو أهمية كتاب الأشيري من خلال نقول المؤرخين المتأخرين عنه، حيث يبدو أنه كان يشمل

تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية، فلم يكن ابن عذاري هو المؤرخ الوحيد الذي نقل عنه، بل كان

هذا الكتاب أيضا من بين الأصول التي اعتمد عليها صاحب الحلل الموشية، فنقل عنه ما يختص بنهاية

الدولة المرابطية والمواقع الدائرة بين الموحدين وتاشفين بن علي⁽³⁾

كما نقل عنه ابن القطان في كتابه «نظم الجمان»⁽⁴⁾، وروى له البيذق⁽⁵⁾، وابن أبي زرع في

«الأنيس المغرب»⁽⁶⁾، وصاحب الحلل الموشية أبياتا يمدح بها «عبد المؤمن بن علي»، ويذكر قصة

الأسد الذي مشى بين يديه⁽⁷⁾، كما اعتمد عليه ابن الأبار كثيرا في كتابه الحلة السبراء⁽⁸⁾

ويضاف إلى هؤلاء المستشرقين وعلى رأسهم ليفي بروفنسال الذي نشر في مجلة "هيسبريس"

الفرنسية سنة 1930م قطعة تاريخية فيها نقول مهمة عن تاريخه مع دراسة وترجمة فرنسية لها تحت عنوان

(Notes D'histoire Almohade) إلا أن هذه القطعة تبين فيما بعد إنما هي بضعة أوراق من كتاب

البيان المغرب لابن عذاري⁽⁹⁾

وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي في الذيل أن أبا علي هذا كان من جملة رواة ابن صاحب

الصلاة⁽¹⁰⁾

(1) ابن الأبار، التكملة (ضبعة العطار)، ج1، ص 270 (الترجمة رقم 718)

(2) ابن الأبار، الحلة السبراء، ج2، ص 92.

(3) الحلل الموشية، ص 130131.

(4) نظم الجمان، ابن القطان، ص 210.

(5) البيذق، أخبار المهدي، ص 97.

(6) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 185، 186،

(7) الحلل الموشية، ص 149150.

(8) الحبة السبراء، ابن الأبار، ج2، ص 92، 192، 196.

(9) ابن القطان، المصدر السابق، ص 210211، حاشية رقم 08، وينظر: البيان المغرب (طبعة أويشي ميرندا) ص 18، 23.

(10) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 434، حاشية رقم 02.

كما نقل ابن عذاري عن كتاب ابن الأشيري في حوالي ستة نصوص هي:

ج5: 17- خبر أول افتتاح الموحدين على عساكر تاشفين شرقي تلمسان واستئصال أكثرهم.

21- خبر حصار الموحدين لتاشفين في الحصين حتى يئس من الحياة فجعل يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمي بها في النار بيده.

22- خبر حصار الموحدين لمدينة وهران حتى مات عدد كبير منهم بالعطش.

22- ذكر تاريخ قدوم عبد المؤمن لتلمسان.

26- خبر بعث عبد المؤمن بعساكره إلى بر غواطة ثم وصوله إلى قرب مراکش وإدراكهم لحشود المرابطين بالقرب من مراکش وقتلهم.

28- خبر مختصر عن الأشيري متعلق بفتح مراکش ودخول الموحدين إليها.

ومما يستشف منه من خلال نقول ابن عذاري أنه في موضع واحد أو موضعين بقوله [قال أبو

علي الأشيري]، وفي خمسة مواضع بقوله: [قال الكاتب أبو علي الأشيري التلمساني].

كما تركزت هذه النقول حول أخريات دولة المرابطين وبدايات الدولة الموحدية والصراع

بينهما، والهزائم المتتالية التي أوقعها الموحدون عجالات تاشفين⁽¹⁾

إضافة إلى استعمال الدقة في نقل كل ما يتعلق بالموحدين.

24. الفقيه الكاتب أبو عبد الله التلمساني (ت 759هـ/1183م)

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي أبو عبد الله التلمساني قاضي

الجماعة بفاس أيام السلطان أبي عنان⁽²⁾، نقل السيوطي⁽³⁾ كلام ابن الخطيب فيه [كان مشارا إليه

اجتهادا ودؤبا وحفظا وعناية واطلاعا ونقلًا ونزاهة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير،

ويحفظ الحديث والأخبار، والتاريخ والآداب]

(1) البيان المغرب، قسم الموحدين: ص 17.

(2) السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 21، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، ص 52، 53.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 21، كما لُحِثَ في الإحاطة في أخبار غرناطة، ط 2، 1973م ولم أجد.

توفي أبو عبد الله التلمساني في سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

ومن مؤلفاته نجد:

- «كتاب يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية»

- «الحقائق والرقائق»⁽¹⁾

نقل ابن عذاري عن أبي عبد الله التلمساني ثلاثة نصوص، ولكنه لم يحدد الكتاب الذي نقل منه:

ج5: 315- من مهلك مسعود بن حميدان وأصحابه.

: 326- خبر مشاهدة أبي عبد الله التلمساني قتال العرب لأهل مراکش.

: 328- معاتبة أبي عبد الله التلمساني ابن وقاريط بعد احتوائه لمراكش وقد ملكه العجب

والاغترار.

25. كتاب أبي الحجاج يوسف بن عمر (توفي صدر المائة الهجرية السابعة).

من خلال تتبعنا واستقراءنا لكتب التراجم، لم نجد ترجمة وافية لمؤلفنا سوى شذرات متفرقة منها

أن اسمه يوسف بن عمر الأموي الإشبيلي أبو الحجاج (المؤرخ) (الكاتب)، فهو كان مؤرخ دولة

الموحدين في عهد يعقوب المنصور، وولي بعض الوظائف الإدارية والكتابية في عهدهم.

وقال ابن سعيد كان مؤرخ دولتهم⁽²⁾

كما يذكر الأستاذ المنوني⁽³⁾ أبا الحجاج يوسف بن عمر وكتابه ضمن أربعة مصادر ضائعة

كتبت في العصر الموحد الثالث (630-668هـ/1232-1269م)، فقال: [تاريخ ابن عمر للقاضي

يوسف بن عمر الأموي الإشبيلي، المتوفي صدر المائة الهجرية السابعة، أرخ فيه لدولة يعقوب المنصور،

وأفاد منه المؤرخون بعده"، ومن المؤرخين الذين أفادوا من كتاب «تاريخ ابن عمر»⁽⁴⁾:

- ابن الأبار في التكملة (نشر كوديرا) رقم 1207.

(1) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص 5253.

(2) الغصون اليبانة، ص 208.

(3) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 64.

(4) المرجع السابق، ج1، ص 64.

- ابن سعيد في كتابه «الغصون اليانعة»، قال في ترجمة الكاتب أبي محمد بن الياسمين عبد الله بن حجاج الإشبيلي وذكر (ابن عمر في تاريخه) أن وفاته كانت في سنة إحدى وستمئة⁽¹⁾ كما ذكر في ترجمة القاضي الأديب أبي حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي القاضي، وقفت على ترجمته في «تاريخ ابن عمر»⁽²⁾ كما ذكر أيضا في ترجمة الأديب الجليل أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكوراني وقفت على ترجمته في «تاريخ ابن عمر»⁽³⁾

ويفيدنا هذا أن ابن سعيد اطلع على هذا الكتاب، واستفاد منه، ونقل عنه في أكثر من موضع.

- علي بن أبي زرع الفاسي في كتابه الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس»، وذكر ابن أبي زرع في حوادث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وفاة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي في فجر يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ثم قال: [وذكر القاضي يوسف بن عمر المؤرخ لدولتهم أن يوسف بويح بيعة الجماعة وانفقت الأمة على بيعته]⁽⁴⁾

ومن أفاد من كتاب «تاريخ ابن عمر» ابن عذاري في البيان المغرب (القسم الموحد)، وذكر

في مقدمة كتابه أنه نقل عنه⁽⁵⁾، وهذه النقول هي:

ج5: 162-164- خبر كيفية وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن في غزوته لمدينة شنترين في

بلاد غرب الأندلس وذلك في سنة ثمانين وخمسمائة 580هـ/1184م

173- خبر جلوس أمير المؤمنين المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن سنة ثمانين وخمسمائة

في المسجد في المسجد الجامع بمراكش لبسط العدل ومباشرة الأحكام بنفسه.

(1) ابن سعيد الغصون اليانعة، ص 43.

(2) المصدر السابق، ص 91.

(3) المصدر السابق، ص 98.

(4) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 208.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 2، 3.

177- خبر دخول ابن غانية بجاية حتى ركز رايته المذكورة بإزاء المنبر ثم خرت على وجهها، واندق من القناة قائمها فتنفعل الناس بإنذارها بقصر مدته وزوال دولته.

220- خبر ذكر عدد القتلى في غزوة أمير المؤمنين المنصور ضد النصارى ثلاثين ألفاً وذلك سنة احدى وتسعين وخمسمائة.

239- في حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة وقع سيل عظيم بوادي إشبيلية هلك فيه امم لا يحصيهم إلا الله وذهب من دور إشبيلية بهذا السيل سنة آلاف دار.

242- في حوادث سنة ستمائة في شهر المحرم وصل الأمر إلى إشبيلية بالآلات وشراء الدروع المحكمة، وفي ربيع الأول ولي إشبيلية السيد أبو إسحاق ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب واخر عنها أبو عبد الله بن أبي يحيى وقدم على بسطة... وغيرها من الأوامر.

251- خبر ذكره ابن عذاري في حوادث سنة ستمائة جاء فيه ذكر اسم صاحب الترجمة ووظيفته، وذلك حين أمر أمير المؤمنين محمد الناصر بوصول العمال إلى الحضرة بأعمالهم وكتابهم لتصفحهم ومحاسبتهم فقدم يوسف بن عمر الكاتب من إشبيلية وكان ينظر في بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية فأول ما صرف بأبي الحسن بن واجاج عن ولاية إشبيلية إلى ولاية مرسية، وأمر لمحمد بن عبد الله بالهبوط إلى إشبيلية رجاء أن يكون أشد من أبي الحسن شكيمة في امتحان يوسف بن عمر الكاتب.

ولما قدم إلى الحضرة وأخذ ما كان بيده من مركوب وأوعية وكتب وضروب وغير ذلك وحبس ثلاثة أيام حتى أحضره الشهود وفتحت الشدود وكتب المشهود وعرض على الأمير الناصر فأمر برد ماله وعفى عنه وذلك بسبب تأليفه الذي ألف في محاسن والده المنصور.

26. مؤلفات أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت 543هـ/1148م)

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي الفقيه المعامري الأندلسي الإشبيلي.

ولد أبي بكر محمد لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، نشأ في بيت علم وأدب وحفظ القرآن الكريم، وسمع بالأندلس من أبيه وخاله أبي القاسم الحسن الهوزني.

ثم رحل إلى المشرق مع أبيه سنة خمس وثمانين وأربعمائة لطلب العلم فدخل الشام ثم بغداد ثم الحجاز، وحج موسم تسع وثمانين وأربعمائة ثم عرج بعدها على مصر والإسكندرية، فأخذ في رحلته عن كبار المحدثين والأدباء، وصحب أبا حامد الغزالي، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وقدم إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، ولي قضاء إشبيلية ثم صرف عنه⁽¹⁾

وقال عنه ابن شيكوال⁽²⁾: [الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس] وذكر ابن سعيد⁽³⁾ قول الحجازي: [لو لم ينسب لإشبيلية إلا هذا الإمام الجليل لكان لها به من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل]

قال الذهبي⁽⁴⁾: [كان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، كامل الشدود] توفي أبي بكر بن محمد بالعدوة ودفن بمدينة فاس سنة ثلاث وأربعين وخمسائة⁽⁵⁾

ومن التصانيف أو التأليف التي تركها لنا أبي بكر بن محمد ما يلي:

قال الضبي: [توآليفه كثيرة نافعة، وعدة توآليفه نحو الأربعين تأليفاً]⁽⁶⁾

كما ذكر إسماعيل البغدادي⁽⁷⁾ له ثلاثة وثلاثين مؤلفاً، كما ذكر الذهبي⁽⁸⁾ عشرة مؤلفات ثم

قال: [وأشياء سوى ذلك لم تشاهدها]

(1) المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص28، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص296، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص456.

(2) الصلة، ج2، ص590.

(3) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص254.

(4) سير أعلام النبلاء، ج20، ص200.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص297.

(6) الضبي، بغية الملتبس، ج1، ص126، ينظر: المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص35، الزركلي، الأعلام، ج6، ص230، عمر كحالة، معجم المؤلفين،

ج3، ص450، ص458.

(7) هدية العارفين، ج2، ص90.

(8) سير أعلام النبلاء، ج20، ص199.

ذكر ابن عذاري⁽¹⁾ نصا واحدا عن ابن العربي في سياق ترجمة عبد الملك بن حبيب عند وفاته، ولم يوضح ابن عذاري موضع نقله.

27. أبو العباس بن مقدم (ت 604هـ/1242م)

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن مقدم الرعيبي، من أهل إشبيلية يكنى أبا العباس أو أبا القاسم مولده في رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة.

قال ابن الأبار⁽²⁾: [وروى عن أبي بكر ابن العربي وصحبه كثيرا وكان معه في وجهته إلى مراكش إذا استدعاه عبد المؤمن ولازمه على مدينة فاس فلم يبلغها حتى توفي بمقربة منها].

كان أبو العباس بن مقدم مقرئا عارفا بالتجويد رواية للحديث عدلا فيما ينقله ثقة فاضلا زاهدا حافظا للأدب⁽³⁾. توفي رحمه الله بين عيدي الفطر والأضحى سنة 604هـ.

نقل ابن عذاري عن أبي العباس بن مقدم رواية واحدة⁽⁴⁾، وموضوعها: عن الوشاية التي أشيعت أيام عبد المؤمن بن علي سنة 439هـ بارتداد أصل إشبيلية.

28. كتاب «الاقتضاب».

مما يؤسف عليه أننا لا نعرف شيئا عن هذا التأليف ولا حتى عن مؤلفه، فلم يذكر لنا ابن عذاري عن هذا الكتاب سوى كلمة «الاقتضاب» كعنوان له، ولم يشر - من قريب أو من بعيد - إلى أية معلومات أخرى تفيد في التعرف عليه وعلى صاحبه، ولم نجد له ذكرا فيما بين أيدينا من مظان تاريخية.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 111.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص 384.

(3) الإعلام بمن حل بمراكش واغامت من الأعلام، ج2، ص 111.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص 334.

والمهم من ذلك أن هذا التأليف هو أحد المصادر الأندلسية التي رجع إليها ابن عذاري، واعتمد عليها ونقل عنها كثيرا من المعلومات والأخبار الخاصة بدولة بني أمية في الأندلس، وكذلك ما يتعلق بالفتنة البربرية ونتائجها الخطيرة، فهو إذن يعالج فترة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس. وقد اعتمد عليه ابن عذاري ونقل عنه معلومات إضافية في أربعة مواضع من كتابه، ومن أهم ما نقله عنه من أخبار

- خبر عن محمد بن هشام بن عبد الجبار وانتزاعه الخلافة عن هشام بن الحكم، وظفره بعبدالرحمن بن أبي عامر، وإيقاعه بالبربر قتلا وأسرا، واستعانة سليمان بن الحكم عليه بالنصارى، فقتلوا ما يزيد على ثلاثين ألفا من المسلمين، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [ومن كتب الاقتضاب قال...]⁽¹⁾

- كرر ابن عذاري نفس الخبر السابق مع اختلاط بسيط في اللفظ وصدر بقوله [ومن كتاب الاقتضاب...]⁽²⁾

- خبر عن عدد المسلمين والنصارى الذين كانوا مع ابن عبد الجبار في تتبعه ومطاردته للبربر، حيث كان عدد المسلمين نحو من ثلاثين ألف فارس، والنصارى تسعة آلاف، ورغم ذلك فقد وقعت عليه الهزيمة بوادي (آره) عقب شوال من سنة (400هـ/1009م)، وامتألت أيدي البربر كراعا ومتاعا، ثم انضموا إلى سليمان بن الحكم للتوجه نحو قرطبة لمحاصرة ابن عبد الجبار وأنصاره، حتى دارت الدائرة عليه وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وذكر في كتاب الاقتضاب أن...]⁽³⁾

- خبر عن دولة القاسم بن حمود- للمرة الثانية - بقرطبة سنة 413هـ/1022م، حيث استغل فرصة خروج ابن أخيه «يحيى بن علي» من قرطبة إلى مالقة، وتوجه هو من إشبيلية إلى قرطبة،

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 51، 52.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 82، 84.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 9697.

وجدت له البيعة، وتسمى بأمير المؤمنين مدة سبعة أشهر إلى أن خلعه أهل قرطبة بإجماع منهم، وحصروه في قصره إلى أن خرج إلى الربض الغربي مع البربر، ووقعت عليه الهزيمة من أهل قرطبة، ففر إلى إشبيلية، وقد حتم ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [نقلت هذا من كتاب الاقتضاب]⁽¹⁾

- والملاحظ من خلال عرض هذه النصوص أنه توجد كتب أندلسية أخرى تسمى بهذا الاسم، وهي على الأغلب إما كتب تراجم مثل كتاب «الاقتضاب لصلة ابن بشكوال» لمؤلفه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش المتوفى سنة 584هـ/1188م في مرسية أو كتب أدبية، مثل كتاب «الاقتضاب» لأحمد بن محمد بن أحمد بن بلال المتوفى في حدود سنة (460هـ/1067م)⁽²⁾

29. كتاب «فتوح إفريقية» لعيسى بن محمد بن أبي المهاجر:

عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر، وجده أبو المهاجر هو الذي ولي إفريقية بعد عقبة بن نافع. قال أبو العرب⁽³⁾: [ألف كتابا في فتوح إفريقية، نقل عنه البكري في كتاب «المغرب» وكذلك صالح بن عبد الحليم في كتاب الأنساب]⁽⁴⁾

اعتمد ابن عذاري على كتاب «أبي المهاجر عيسى بن محمد» في موضعين من كتابه، حيث نقل عنه السبب في دخول طارق بن زياد الأندلس، وذكر أن «يليان» عبر إلى المغرب مستغيثا بطارق وجنوده، ودعاهم إلى دخول الأندلس، فأجابه طارق إلى ذلك، واستنفر اثني عشر ألفا من البربر، وقد بدأ ابن عذاري هذا النقل بقوله [وذكر عيسى بن محمد (من ولد أبي المهاجر) في كتابه السبب في دخول طارق الأندلس]⁽⁵⁾

(1) المصدر السابق، ج3، ص 133، 134.

(2) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 217، 218.

(3) طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 206.

(4) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 17.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 6.

وفي موضع آخر نقل عنه خبراً عن احتدام القتال بين طارق وجنوده ولذريق وجنوده حتى كتب الله النصر للمسلمين، وقتل لذريق في وادي الطين، وفتح الله الأندلس على المسلمين، وختم ابن عذاري هذا النقل بقوله: [هكذا ذكر عيسى في كتابه]⁽¹⁾

ومما يمكن ملاحظته أثناء تتبعنا لنقولات ابن عذاري عن عيسى بن محمد بن أبي المهاجر: عدم تصريح ابن عذاري بعنوان كتاب «عيسى بن محمد» الذي نقل عنه، ولم يمكن لنا ذلك إلا من خلال المصادر التاريخية الأخرى، حيث تبين لنا أن أبا المهاجر عيسى بن محمد له كتاب بعنوان «فتوح إفريقية»، وأنه يعتبر أول كتاب ألف في المغازي بإفريقية، ضف إلى ذلك أن ابن عذاري لم يمدنا بمعلومات وافية عن مؤلف هذا الكتاب سوى أنه أبو المهاجر عيسى بن محمد بن سليمان القيرواني الأنصاري⁽²⁾

30. تاريخ أبي بكر ابن مزين.

لم يذكر لنا ابن عذاري عنوان كتاب ابن مزين الذي نقل عنه واستفاد منه، وإنما اكتفى بذكر اسم المؤلف في الموضع الذي نقل عنه. وقيل: [هو أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين مؤرخ أندلسي ينتمي إلى أسرة بن مزين المعروفة في الأندلس، والتي سكنت في أكشونية، وحكمت في شلب جنوب البرتغال الحالية].

تحدث ابن عذاري بشيء من التفصيل عن دورها السياسي في مدينة شلب ووصل بأحداثها إلى دولة المظفر عيسى بن محمد بن سعيد بن مزين حاكم شلب ومخلوع المعتضد بن عباد وقتيله سنة (455هـ/1063م)، وكان صهره في الوقت نفسه⁽³⁾، وبمقتله انقرضت دولة بني مرين وفني ملكهم في الأندلس⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 7.

(2) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 17.

(3) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 116.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 298.

وقد ألف ابن مزين كتابا في التاريخ تتواتر الإشارة إليه فيما بين أيدينا من كتب التاريخ الأندلسي، إلا أننا لا نعرف عنوان هذا الكتاب على وجه التحديد. وأهم الإشارات التي وردت في هذا الكتاب التاريخي وردت عند ابن الأبار في الحلة السيرة، حيث أشار في أكثر من موضع إلى أن أبا بكر محمد بن عيسى بن مزين الكاتب له كتاب في التاريخ، فقال: [قرأت في تاريخ أبي بكر بن عيسى بن عيسى بن مزين] ⁽¹⁾، وفي موضع آخر قال: [قرأت في تاريخ أبي بكر محمد بن عيسى بن مزين الكاتب...] ⁽²⁾، وذكر في موضع آخر أن له مختصرا في التاريخ، فقال: [ذكر هذا الخبر أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين فيما وقفت عليه من تأليف له مختصر في التاريخ] ⁽³⁾

وذكر ابن سودة هذا الكتاب تحت عنوان «تاريخ ابن مزين في دول المغرب» ⁽⁴⁾

لا شك أن أبي بكر محمد بن عيسى بن مزين كان حيا سنة (471هـ/1078م).

وقد نقل ابن عذاري عن ابن مزين في خبر هزيمة باديس بن حبوس لإسماعيل بن محمد بن عباد في

سنة (491هـ/1039م) خارج أسوار قرطبة ⁽⁵⁾

ب- الكتب التاريخية المشرقية:

تنوعت مصادر ابن عذاري، فتعددت، فكما اعتمد على عدد لا بأس به من المصادر التاريخية الأندلسية وكذا المغربية، فإنه بالمقابل لم يهمل الاعتماد على المصادر المشرقية المشهورة، حيث أنه كان له اهتمام واضح بأحداث المشرق الإسلامي، فخصص له كتبا مستقلا هو "البيان المشرق في أخبار المشرق"، وقد سلف الذكر عنه عند حديثنا عن مؤلفاته.

⁽¹⁾ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 17.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج2، ص 116.

⁽³⁾ المصدر السابق، ج2، ص 129.

⁽⁴⁾ ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص 161.

⁽⁵⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 202.

ومن هنا فإنه لا مجال للشك أن ابن عذاري كان بين يديه عدد لا يستهان به من المصادر المشرقية والتي كان يستقي منها معلوماته عن هذا القسم من العالم الإسلامي، وسنحاول جاهدين خلال الصفحات الموالية أن نتحدث عن هذه المصادر المشرقية سواء المفقود منها أو المطبوع.

1. كتاب «تاريخ الرسل والملوك» محمد بن جرير الطبري أبو جعفر (ت310هـ/923م)

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري صاحب التفسير والتاريخ كانت ولادته سنة أربع وعشرين ومائتين، بآمل طبرستان، ورحل من آمل لما ترعرع وحفظ القرآن، وأكثر الترحال لطلب العلم والحديث فكتب بمصر، واستقر في أواخر أمره ببغداد، روى الكثير عن الجهم الغفير، وروى عنه خلق كثير⁽¹⁾

لقد لقي الطبري الكثير من المدح والثناء من طرف علماء أفاض، فقد روى الخطيب البغدادي عن الشيخ أبي بكر أن الطبري قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، ...، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله⁽²⁾

وقال الذهبي⁽³⁾، "قلت: [كان ثقة، صادقا، رأسا في التفسير، حافظا، علامة في التاريخ وأيام الناس، إماما في الفقه والإجماع والاختلاف، عارفا بالقراءات واللغة وغير ذلك]."

لقد قال ابن كثير: [وكان في العبادة والزهد والورع والقيام في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم]⁽⁴⁾

توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة ودفن في داره ببغداد.

ومن أهم مصنفاته أو مؤلفاته⁽⁵⁾

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج2، ص162، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج14، ص267، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص191.

(2) المرجع السابق، ج2، ص163.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج14، ص270.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص146.

(5) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص297، 437، 514، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص190.

- «جامع البيان في تأويل القرآن».

- «تاريخ الرسل والملوك».

- «تهذيب الآثار».

- «اختلاف الفقهاء».

- «آداب القضاة».

- «دلائل الإمامة والمسترشد في إمامة علي بن أبي طالب».

ذكر ابن عذاري ابن جرير الطبري ضمن المصادر التي اعتمدها في مقدمة كتابه⁽¹⁾

وقد نقل عنه عشرة نصوص [لكنها تأتي بشكل مختصر في غالب الأحيان، أو يذكر أخبار صغيرة

من جملة الحوادث التي يوردها الطبري في نهاية كل عام]⁽²⁾

إضافة إلى ذلك نجد ابن عذاري عندما يشير إلى تاريخ ما فلا نجد الخبر ضمن السنة التي يشير

إليها، فمثلاً، يسند ابن عذاري إلى الطبري غزوة معاوية بن خديج الكندي لإفريقية عام

(45هـ/665م)، فهو خبر لا يرد في حوادث سنة 45هـ في المطبوع من تاريخ الطبري، حيث أنه ورد

بصيغة أخرى في حوادث (سنة 47هـ/667م)⁽³⁾

كما يذكر ابن عذاري، أن الخليفة الرشيد عقد لابنه محمد العهد (سنة 173هـ/789م)، وسماه

الأمين، أما المطبوع من كتاب الطبري فيضع هذا العقد سنة (175هـ/791م)⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص2، 3.

(2) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 257.

(3) ذكر ابن عذاري في الحوادث سنة 34هـ قال: وفيها غزا معاوية بن خديج إفريقية وهي أول غزواته إلى المغرب، كما ذكر في حوادث سنة 41هـ أن معاوية بن خديج غزا إفريقية للمرة الثانية، وفي حوادث سنة 45هـ، ذكر أن معاوية بن خديج الكندي غزا إفريقية وكانت حرباً كلها قال الطبري، يراجع ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 1416، ولربما كانت لمعاوية بن خديج أكثر من غزوة لإفريقية.

(4) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 257258.

ج1: 13- نص عن فتوح إفريقية، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال لعبد الله بن سعيد بن أبي السرح فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نقلاً... ثم يذكر بعض التفصيلات عن أخذ عبد الله ابن أبي السرح الخمس وسخط أهلها عليه⁽¹⁾

14- ذكر خبر غزو حبيب بن سلمة قورية من أرض الروم⁽²⁾

16- خبر غزو معاوية بن خديج الكندي إفريقية سنة 45هـ⁽³⁾

77- مقتل عمرو بن حفص على يد أبي حاتم الإباضي وأبي غادي⁽⁴⁾ ومن معهما من البربر.

78- خبر افتتاح يزيد بن حاتم إفريقية وقتل أبي غادي وأبي حاتم⁽⁵⁾

93- خبر وقوع صاعقة بالمسجد الحرام ومقتل رجلين⁽⁶⁾

93- خبر عقد الخليفة الرشيد ولاية العهد لابنه محمد في شعبان سنة 173هـ⁽⁷⁾

ج2: 4- ذكر الأقوال في افتتاح الأندلس وأول من دخلها⁽⁸⁾

16- خبر التقاء واجتماع موسى بن نصير مع طارق بن زياد في قرطبة⁽⁹⁾

27- ولاية عنيصة بن سحيم على الأندلس من قبل والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم⁽¹⁰⁾

و بمقارنة الروايات بما أورده الطبري في تاريخه نجد أن ابن عذاري ينقل الأخبار عن الطبري لكن

باختلافات بسيطة من حيث:

(1) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص 253، 254 مع وجود اختلافات بسيطة ويسيرة.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص 263.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 229 'وحتى أن الخبر مذكور في حوادث سنة 47 هـ'

(4) المصدر السابق، ج8، ص 42.

(5) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص 46.

(6) المصدر السابق، ج8، ص 274.

(7) المصدر السابق، ج8، ص 275.

(8) المصدر السابق، ج6، ص 454، 468، كما ذكرها الطبري في حوادث سنة 91هـ، ثم ذكر بعض التفصيلات في حوادث سنة 92هـ، إلا أن

تفصيلات ابن عذاري لم يرد ذكرها.

(9) مجئنا ذلك في تاريخ الطبري، إلا أنني لم أجه.

(10) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 617.

- إضافة كلمة أو تصحيف في لفظة، فهو مثلاً: ينقل قول الخليفة عثمان لعبد الله بن أبي سرح حين وجهه لفتح إفريقية بقوله: [إن فتح الله عليك إفريقية، فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نقلاً]⁽¹⁾، أما نص الطبري، فهو كما يأتي [... إن فتح الله عز وجل عليك غدا إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نقلاً...]⁽²⁾

- أحيانا لا نجد الخبر ضمن السنة التي يشير إليها ابن عذاري، مثال ذلك، يسند ابن عذاري إلى الطبري خبر غزوة معاوية بن حديج الكندي لإفريقية عام 45هـ-665م⁽³⁾، وهو خبر لا يرد في حوادث سنة 45هـ في المطبوع من تاريخ الطبري، وإنما ورد بصيغة أخرى في حوادث سنة 47هـ/667م⁽⁴⁾

وعلى أي حال فإن بقية الروايات التي يشير ابن عذاري إلى اعتمادها فيها على الطبري لا تتعدى بعض الأخبار الأخرى.

2. «فتوح البلدان» لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت سنة 279هـ/892م)⁽⁵⁾

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري أبو الحسن، وقيل أبو بكر، ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة.

نشأ ببغداد وسمع بدمشق وبأنطاكية، كان شاعراً وكاتباً ومترجماً ينقل من الفارسية إلى العربية، وكان من ندماء الخليفة المتوكل على الله⁽⁶⁾

قال الذهبي⁽⁷⁾: [كان كاتباً بليغاً، شاعراً محسناً]

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 13.

(2) الطبري، المصدر السابق، ج1، ص 2814.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 16.

(4) الطبري، المصدر السابق، ج2، ص 84.

(5) ابن النديم، الفهرست، بيروت، 1978م، ص 164.

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج2، ص 48، ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج2، ص 112.

(7) سير أعلام النبلاء، ج13، ص 162.

وقال فيه ياقوت الحموي⁽¹⁾: [كان عالما فاضلا، شاعرا، راوية نسابة، متقنا وكان مع ذلك كثير

المجاء بذيء اللسان أخذ في الأعراض]

ومن أهم مصنفاته نجد:

- كتاب «البلدان الصغير» وهو «فتوح البلدان»
- كتاب «البلدان الكبير» ولم يتمه.
- كتاب «الأخبار والأنساب» ويسمى «أنساب الأشراف»
- كتاب «عهد أردشير»⁽²⁾

أما عن نقولات ابن عذاري عن البلاذري، فلم ينقل عنه سوى رواية واحدة وتتعلق بـ: خبر عن غزوة معاوية بن خديج سنة 46هـ لجزيرة صقلية بعث إليها عبد الله بن قيس ففتحها وأصاب فيها أصناما من ذهب وفضة مكللة بجواهر⁽³⁾ فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان، فبعث بها إلى الهند، فأخذ ثمنها، فأنكر الناس عليه ذلك إنكارا كليا، وكان العامل على بلاد إفريقية من قبل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج الكندي.

والملاحظ على هذا النقل نجد أن الأخير (البلاذري) برواية الوافدي، وهو مبتور إلى حد إرسال الجواهر إلى الهند ليبيع هناك⁽⁴⁾، ويبدو أن ابن عذاري كمل أو أتم هذه الرواية من مصدر آخر لم يذكره.

3. كتاب «فتوح إفريقية» لـ محمد بن عمر الوافدي (ت 207هـ/823م)

هو محمد بن عمر بن وافد الوافدي الأسلمي مولاهم أبو عبد الله المدني القاضي صاحب التصانيف والمغازي، ولد سنة ثلاثين ومائة، طلب العلم بالحجاز والشام وسمع من صغار التابعين⁽⁵⁾

(1) معجم الأدباء، ج2، ص 50.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص 164، حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 189، 1402.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 18.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد، القاهرة، 1959، ص 237.

(5) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج9، ص 323، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 350.

قال محمد بن سعد⁽¹⁾: [ولي القضاء ببغداد للمأمون] وقال الخطيب البغدادي⁽²⁾: [الوافدي هم من طبق شرق الأرض وغربها ذكره، ولم يحق على أحد عرف أخبار الناس أمره، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم وكتب الفقه واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك، وكان جوادا كريما مشهورا بالسخاء].

ومما يجدر بنا ذكره عن الوافدي أنه كثر كلام العلماء والنقاد حول رواياته، فمنهم من ضعفه وكذبه، ومنهم من وثقه ورفعته، إلا أن الحافظ الذهبي رحمه الله قد أنصفه في ترجمته له قائلا: [وقد تقرر أن الوافدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج، أما في الفرائض فلا ينبغي أن يذكر فهذه الكتب الستة، ومسند أحمد وعامة من جمع في الأحكام نراهم يترخصون في إخراج أحاديث أناس ضعفاء بل ومتروكين، ومع هذا لا يخرجون لمحمد بن عمر شيئا مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفه يكتب حديثه ويروي، لأني لا أتهمه بالوضع، وقول من أهدره فيه مجازفة من بعض الوجوه، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه كيزيد، وأبي عبيد، والصاغاني، والحري، ومعن وتمام عشر محدثين إذ انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة وأن حديثه في عداد الواهي رحمه الله]⁽³⁾ توفي الوافدي عشية يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة سنة سبع ومائتين. وبحكم أن الوافدي كان عالما بالسير والمغازي والفتوح، فله مؤلفات عديدة⁽⁴⁾ منها:

- «أخبار مكة»
- «التاريخ الكبير»
- «التاريخ والبعث والمغازي»
- «سيرة أبي بكر رضي الله عنه»

(1) محمد بن سعد، الطبقات، ج7، ص 334.

(2) تاريخ بغداد، ج3، ص 3.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص 469.

(4) ابن النديم، الفهرست، بيروت، 1978م، ص 144.

- «فتوح الشام»
 - «فتوح العراق»
 - «حرب الأوس والخزرج»
 - «كتاب الردة»
 - «كتاب السقيفة وبيعة أبي بكر»
 - «كتاب السيرة»
 - «كتاب صفين»
 - «كتاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم» وغير ذلك⁽¹⁾
- أما عن نقولات ابن عذاري عن الوافدي، فيذكر د. عبد الواحد ذنون طه⁽²⁾: "أنه ليس لدينا ما يشير إلى اطلاع ابن عذاري على مؤلفات الوافدي الأصلية، لاسيما تلك التي تتعلق لفتوح إفريقية، والمرجح أنه اعتمد عليه بواسطة الرقيق، حيث أسلفنا القول أن الوافدي كان أحد موارد الرقيق القيرواني والذي اعتمد عليه ابن عذاري اعتمادا كبيرا".
- وهذه النقول تتعلق بـ:

ج1: 14-نص يذكره ابن عذاري [في حوادث سنة 31هـ، غزوة ذات الصواري، وغزوة الأساورة وهو قول الوافدي]⁽³⁾

14- في حوادث سنة 34هـ يذكر ابن عذاري خبر موت عبادة بن الصامت في قول الوافدي.

47- خبر استشارة الخليفة سليمان بن عبد الملك لرجاء بن حيوة الكندي فيمن يوليه إفريقية.

ج2: 7- خبر قتال طارق أهل الأندلس من حين طلعت الشمس إلى أن غربت.

7- خبر استمرار طارق في قتال أهل الأندلس ولم يرفع عنهم السيف ثلاثة أيام.

(1) إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 10، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص 568.

(2) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 259260.

(3) ذكر لنا د. عبد الواحد طه، موضعين لنقل ابن عذاري عن الوافدي، ينظر: موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 260.

24- خبر عن سبب مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير.

4. مؤلفات عبد الله بن مسلم بن قتيبة (276هـ/889م)

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الكاتب الدينوري، وقيل المروزي، ولد ببغداد سنة ثلاث عشرة ومائتين، وأقام بالدينور مدة قاضيا فنسب إليها.

درس ابن قتيبة الحديث على إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزياتي وزياد بن يحيى الحساني، وأخذ اللغة عن أبي حاتم السجستاني وغيرهم⁽¹⁾

قال الخطيب البغدادي عنه⁽²⁾: [كان ذا ثقة دينا فاضلا]، وقال ابن كثير⁽³⁾: [صاحب المصنفات

البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمّة نافعة].

وقال عنه الذهبي⁽⁴⁾: [هو من كبار العلماء المشهورين، عنده فنون جمّة، وعلوم مهمة وكان رأسا

في علم اللسان العربي، والأخبار وأيام الناس].

ومن تأليفه أو تصانيفه:

قيل صنف ابن قتيبة في عدة فنون وعلوم، وقد سرد الذهبي⁽⁵⁾ أسماء ثمانية وعشرين كتابا من

تأليفه.

وذكر بعضها البغدادي في هدية العارفين⁽⁶⁾، والكتب التاريخية نجد منها:

كتاب «دلائل النبوة» و«كتاب المعارف» .

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج10، ص170، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص43.

(2) المصدر السابق، ج10، ص170.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص48.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص297.

(5) المصدر السابق، ج13، ص297.

(6) إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص441.

نقل ابن عذاري نصا واحدا عن أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري (ت سنة 276هـ/889م)، وهذا النص يتعلق بفتح موسى بن نصير لمنطقة سجومة بالقرب من وادي الملوية في المغرب، وسمّاه لأبناء عقبة بن نافع بالانتقام لأبيهم الذي استشهد في عمليات فتح المغرب⁽¹⁾ ويتبين لنا من خلال هذا النقل أو النص أن ابن عذاري لم يحدد من أي كتب ابن قتيبة نقل، لأنه وبكل بساطة أثناء مقارنة النص مع ما ورد في كتاب "الإمامة والسياسة" المنسوب لابن قتيبة يتبين أن النص الأصلي فيه تفصيل لما ذكره ابن عذاري، إلا أن المعلومات تكاد تكون واحدة⁽²⁾ ضف إلى ذلك نجد في تطابق تفصيلات هذا النص مع نص ابن عذاري، وإشارة الأخير إلى ابن قتيبة، دليل على معرفة ابن عذاري لكتاب الإمامة والسياسة، وأن هذا الكتاب كان يعرف على أنه لابن قتيبة الدنيوري، لا لغيره من المؤلفين.

فهذا إن دل فإنما يدل على أنه يزيد نسبة تأكيد كتاب الإمامة والسياسة إلى ابن قتيبة، تلك النسبة التي اختلف بشأنها بعض الكتاب المحدثين⁽³⁾

5. كتاب «عجائب البلاد والزمن» لعلي بن حسين المسعودي (346هـ/957م):

هو علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي المؤرخ صاحب التاريخ المسمى "مروج الذهب" من ذرية عبد الله بن مسعود صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، كان إخباريا صاحب ملح وغرائب وعجائب وفنون، وكان معتزليا.

ولد المسعودي بإقليم بابل وعُدَّ في البغداد، ونزل بمصر، وأقام بها حتى مات بها في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 41.

(2) الإمامة والسياسة، تحق: طه محمد الزيني، دار المعارف، بيروت، بدون تاريخ، ج2، ص 5556.

(3) ينظر على سبيل المثال: مقدمة كتاب المعارف لابن قتيبة، تحق: ثروت عكاشة، القاهرة، 1960م، ص 56، محمد يوسف نجم، كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، من هو مؤلفه، مجلة الأبحاث، ج1، السنة 14، 1961، ص 122123.

(4) ابن النديم، الفهرست، ص 219، ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ج4، ص 48، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص 569، ابن تغردى بردى، النجوم الزاهرة، ج3، ص 315.

فالمسعودي واحد من المؤرخين المشاركة الكبار والمشهورين، وله عدد كبير من المؤلفات التاريخية، وكان أحد مصادر ابن عذاري.

ذكر كحالة⁽¹⁾ سبعة وثلاثين مصنفا في مختلف العلوم، أما ما يتعلق بالتاريخ فمنها: «مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك» وكتاب «التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم» وكتاب «التنبية والإشراف» وكتاب «المقالات في أصول الديانات أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان من الأمم الماضية والأجيال والممالك الدائرة»، «الكتاب الأوسط وهو الكتاب التالي لأخبار الزمان» «مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف من الملوك وأهل الدرايات»، كتاب «فنون المعارف وما جرى من الدهور السوالف»، كتاب «ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور» وغيرها. وقد نقل ابن عذاري عن كتاب المسعودي المذكور في موضع واحد فقط من كتابه، والمعلومات التي نقلها عنه تتعلق بفترة الفتوحات الإسلامية الأولى لبلاد الأندلس.

ومما نقله عنه: خبر عن فتح مدينة طليطلة على يد الفاتح الكبير «طارق بن زياد» وعثوره على بيت الملوك وفتحه له، وما وجدته فيه من العجائب، مثل: زبور داود، ومائدة سليمان، وأربعة وعشرين تاجا منظومة بعدد ملوك القوط بالأندلس.

وعند نقل هذا الخبر ذكر ابن عذاري عنوان كتاب المسعودي الذي نقل عنه هذه المعلومات وقد صدره بقوله: [وقال المسعودي في كتابه المسمى بـ عجائب البلاد والزمن] قال..⁽²⁾ "فمعظم الذين ذكروا مصنفات المسعودي لم يذكروا كتابا له بهذا العنوان وإنما باسم أخبار الزمان"⁽³⁾

وقد نشر كتاب لهذا العنوان نسب للمسعودي، إلا أن هذا الكتاب المطبوع لا يمكن أن يكون هو كتاب «أخبار الزمان» للمسعودي، الذي أشار إليه في «مروج الذهب» لأسباب كثيرة منها أن

(1) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 434.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 45.

(3) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 303، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 434، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص 48.

محتويات الكتاب الأصلي تتألف من ثلاثين فناً، أما المطبوع فهو كتاب صغير لا تتجاوز عدد صفحاته 252 صفحة، وليس فيها ما ذكره المسعودي من عناوين وبحوث⁽¹⁾

ومن خلال هذا العرض يبدو أنه من الصعوبة مما كان تصديق نسبة هذا الكتاب المطبوع للمسعودي، وفي نفس الوقت لا يمكن أن نجزم بتصنيف الكتاب الذي أشار إليه ابن عذاري باسم «عجائب البلاد والزمان» هو نفسه «أخبار الزمان» وهذا ربما يعود إلى عدم توفر كل من الكتابين في الوقت الحاضر، وبالتالي نجد ابن عذاري ينفرد بذكر هذا العنوان، ومخالفته لمن أشار إليه باسم «أخبار الزمان» لاسيما المؤلف المسعودي، وهذا ما يجعلنا نميل إلى ترجيح أن هذا الكتب الذي اعتمد من طرف ابن عذاري هو كتاب «أخبار الزمان»، وأن عنوانه قد حور إلى «عجائب البلاد والزمان» من قبل النساخ، أو من طرف ابن عذاري نفسه⁽²⁾، وهذا لا يمكن استبعاده في ظل هذا الغموض.

6. كتاب «عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف»، للقضاعي (ت454هـ/1062م)

هو محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمونا لقضاعي الفقيه أبو عبد الله⁽³⁾، إلا أن المصادر والمراجع تسكت وتصمت عن تفاصيل حياة القضاعي وحتى عن تاريخ ولادته وعن أسرته إجمالاً⁽⁴⁾

تقلد القضاعي منصب كاتب الوزير نجيب الدولة أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ثم تولى القضاء بمصر نيابة من جهة المصريين، وأرسله المستنصر رسولا يحمل رسالة إلى إمبراطورة الروم ثيودورة⁽⁵⁾

لقد أثنى العلماء على القاضي القضاعي فقالوا: [السلفي كان من الثقات الأثبات شافعي المذهب والاعتقاد مرضي بالجملة]⁽⁶⁾

(1) موارد تاريخ المسعودي، جواد علي مجلة سومر، مجلد 20، 1964م، ص 79، نقلا عن موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 230، وللمزيد ينظر في كتاب د. سليمان السويكت (منهج المسعودي في كتابة التاريخ).

(2) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 331.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 212، ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص 293.

(4) د. جميل المصري، مقدمة تاريخ القضاعي، ص 17.

(5) ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص 212، جميل المصري، المرجع السابق، ص 2325.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 93.

وقال الأمير أبو نصر بن ماكولا: [لم أر بمصر من يجري مجراه]⁽¹⁾

مات القضاعي بمصر في ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وأربعمائة⁽²⁾

للقضاعي مؤلفات أو تصانيف، وكتابه المذكور موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء على سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وله كتب أخرى منها «خطط مصر» و«عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف» المسمى تاريخ القضاعي، «نزهة الألباب» وكتاب «دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار»⁽³⁾

اعتمد ابن عذاري على القضاعي، ونقل عنه الأخبار التي تتعلق بالعبديين الشيعة في المغرب ومصر، ولم يذكر ابن عذاري لهذا المؤرخ سوى اللقب فقط (القضاعي)، كما أنه لم يصرح أيضا بعنوان الكتاب الذي نقل عنه.

نقل ابن عذاري ثلاثة نصوص وهي:

ج1: 220-تاريخ موت أبي زيد الثائر في محرم من سنة (336هـ/949م)⁽⁴⁾

220- تاريخ انتقال المنصور إسماعيل بن أبي القاسم الشيعي إلى مدينة صبرة التي سميت "المنصورية" سنة (337هـ/948م).

228- خبر وصول المعز العبيدي إلى الاسكندرية وخروج القاضي والشهود وأعيان أهل البلد مهنتين⁽⁵⁾

والملاحظ من خلال نقل أو عرض هذه النقوليات تبين لنا أثناء مقارنة النصوص التي نقلها ابن عذاري بتاريخ القضاعي المطبوع نجد أنه نقل النص الأول والثالث، كما هو، أما النص الثاني فلم نجد له أثر في الكتاب المطبوع.

(1) المصدر السابق، ج18، ص 93.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص 116.

(3) الزركلي، الأعلام، ج6، ص146، كشف الظنون، ج2، ص 1839، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص 327.

(4) قارن تاريخ القضاعي، ص 561.

(5) المصدر السابق، ص 566.

7. اليسع بن عيسى الغافقي (ت 575هـ/1179م)

هو اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقي الأندلسي الجياني كان فقيها مشاورا مقرئا محدثا حافظا نسابا، من أبدع الناس خطا ونثرا ونظما⁽¹⁾
سكن الغافقي ألمرية ومالقة، ثم كتب لبعض الأمراء في شرق الأندلس، وقد رحل اليسع إلى المشرق في (سنة 560هـ) واستقر بمصر، واتصل بصلاح الدين الأيوبي الذي قربه إليه، وكان يكرمه ويشفعه في حوائج الناس⁽²⁾، وهو أول من تجاسر وخطب بمصر على منابر العبيديين بالدعوة العباسية، ولم يجسر على ذلك سواه⁽³⁾

ألف الغافقي كتابا سماه «المغرب في محاسن أهل المغرب» جمعه للسلطان صلاح الدين الأيوبي⁽⁴⁾

نقل ابن عذاري عن اليسع بن عيسى الغافقي رواية واحدة تتعلق بـ:

- خبر تحصن محمد بن تومرت بجبل إيجليز⁽⁵⁾

8. كتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار» لأبي بكر الباقلائي (ت 403هـ/1012م)

هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، من كبار علماء أهل السنة، وقد توفي سنة (403هـ/1012م).

يعتبر تأليف الباقلائي من أحد المصادر المشرقية التي اعتمد عليها ابن عذاري في بيان زيف ما ادعاه «عبيد الله الشيعي» من انتساب إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأكيدهم أنهم قرامطة، وأن أبا عبد الله الشيعي هو الذي أحدث لهم هذا المذهب، ونسبهم هذا النسب. وقد صدر

(1) ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص 385386، ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص 250.

(2) ابن القطان، نظم الجمان، ص 83 هامش 3.

(3) ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص 385.

(4) نظم الجمان، ص 83 هامش: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 48.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 68.

ابن عذاري هذا الخبر بقوله [وقد فضح القاضي أبو بكر الطيب الباقلائي نسبه في كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار]⁽¹⁾

وللباقلائي تأليف، ومن أشهر مصنفاته كتابان: كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، والثاني هو الكتاب المذكور معنا أي كشف الأسرار وهتك الأستار، وهو كتاب في الرد على الباطنية⁽²⁾

9. كتاب «التاريخ لليث بن سعد» (ت175هـ/م791م)

هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصري، ولد سنة (94هـ/714م) في قلقشندة بدلتا مصر (احدى قرى محافظة القليوبية الآن)، وقد تفقه بالحجاز وأتم دراسته في بغداد، وبلغ درجة عالية في الفقه حتى صار له فيه مذهب خاص معترف به بين الفقهاء، وقد سمح له ثراؤه الواسع واتصاله بأوساط العلماء والحكام أن يكون أكثر اطلاعا، وأوسع معرفة بأمر مصر.

وقد توفي في 15 من شعبان سنة 175هـ/م791⁽³⁾

ومن أهم تأليفه نجد: كتاب في «التاريخ» والذي كان فيما بعد آخر المصادر الأساسية للمؤرخين اللاحقين به، وقد ذكره ابن النديم في «الفهرست»⁽⁴⁾

ولا شك أنه دون ولأول مرة فيه المعلومات التاريخية التي تجمعت حتى ذلك الوقت لدى أهل طبقتة عن مصر وإفريقية والأندلس ورجالها.

ومما سجلناه حول هذا الكتاب تلك الأخبار التي تكثر فيها الحكايات الخرافية والشعبية وكذا الأساطير التي أعطاها «الليث» بذلك نوعا من الاعتراف التاريخي بها، وتأثر بها تلاميذه ودخلت كتبهم، مثل: كتب عبد الملك بن حبيب وابن عبد الحكم وغيرهما⁽⁵⁾

(1) المصدر السابق، ج1، ص 158159.

(2) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، ص 341.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 127128، الترجمة رقم: 549، 549 ب.

(4) ابن النديم، الفهرست، ص 199، فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ص 704.

(5) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج2، ص 157.

كما لم يصرح ابن عذاري بعنوان كتاب «الليث بن سعد» الذي نقل عنه، ولكن من الثابت أنه ينقل عن كتاب «التاريخ» المذكور، ولم يعرف لليث بن سعد كتاب في التاريخ والأخبار غيره. ومعظم الأخبار التي نقلها عنه ابن عذاري، تتعلق بتاريخ إفريقية والمغرب والأندلس، وقد نقل عنه في خمسة مواضع من كتابه، وهذه النقول هي:

- خبر عن سببايا «موسى بن نصير» التي سبهاها أثناء غزواته في الأندلس، ... وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الليث بن سعد...]⁽¹⁾

- خبر عن غزوة القرن والأصنام التي كانت بين «حنضلة بن صفوان» والي إفريقية والخوارج الصفرية سنة (124هـ/741م)، والانتصار الكبير الذي حققه فيها، ... فقال: [وكان الليث بن سعد يقول: ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام]⁽²⁾

- خبر عن سماع «أبراهيم بن الأغلب»: في رحلته العلمية من "الليث بن سعد"، ووهب له «جلاجل» أم ولده لمكانه منه، تنبؤ الليث بن سعد بعلو شأنه، حيث قال ابن عذاري: [ولقد قال الليث يوما: ليكون لهذا الفتى شأن]⁽³⁾

- خبر عن الكنوز التي عثر عليها «موسى بن نصير» في طليطلة من الياقوت والجواهر والزبرجد، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الليث...]⁽⁴⁾

- خبر عن إرسال «موسى بن نصير» أبناءه إلى إفريقية لفتحها، وما حصلوا عليه من السبي الذي لا يحصى عددا...، وقد صدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [قال الليث بن سعد...]⁽⁵⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 43.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 59.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 92.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 17، ومما يصعب تصديقه هو أن هذا من قبيل الحكايات الخرافية التي امتأ بها كتاب "الليث بن سعد في التاريخ.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 23.

10. كتاب «الإكليل للهمداني» (ت 334هـ/945م)

هو أبو محمد الحسن أو الحسين بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان البكيللي الصنعاني، المعروف بابن أبي الدُّمينة⁽¹⁾، وهو أول وأكبر مؤرخي اليمن، ولد سنة (280هـ/893م)، كان مؤرخاً وجغرافياً وشاعراً ونحوياً ولغوياً ونسابة ومنجماً وفيلسوفاً في وقت واحد، ونشأ الهمداني على طلب العلم والشغف به، وأكثر من الرحلات والطواف بمسالك الجزيرة العربية، وتوفي على الأرجح بسجن صنعاء سنة (334هـ/945م)⁽²⁾

لقد أكثر الهمداني من التأليف في فنون متعددة، ومن أهم تصانيفه (صفة جزير العرب)، وهو أحسن الكتب في مادته، وطبع الجزء الموجود منه عدة مرات، وأول هذه الطبقات كانت على يد المستشرق ميلر في ليدن سنة 1884م⁽³⁾ وكذلك كتاب الإكليل الذي ذكره ابن عذاري ونقل عنه، ولكن للأسف فإن الجزء الأكبر من هذه الأجزاء مفقود، ولم يبق منه سوى أربعة أجزاء، الأول والثاني والثامن والعاشر.

وقد نقل ابن عذاري عن الهمداني في موضع واحد من كتابه، مصرحاً بالنقل عن كتابه الإكليل، حيث نقل عنه خبراً عن أصل قبيلة صنهاجة، وأنها من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، وذكر اجتماع الروايات على أن صنهاجة من حمير، وصدر ابن عذاري هذا الخبر بقوله: [وقد ذكر الهمداني في كتاب الإكليل...]⁽⁴⁾

(1) أورد الهمداني نسبه كاملاً في كتابه الإكليل، ج10، ص 192، 204.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ج3، ص 9، السيوطي، بغية الوعاة، ص 217، وقد ذكر ابن صاعد الأندلس نصاً مهماً بين تاريخ وفاة الهمداني، وقد يكون قاطعاً في هذا الصدد، حيث قال: "ووجدت بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله... أن أبا محمد الهمداني توفي بسجن صنعاء سنة 334هـ/945م، ينظر: طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي، ص 5859.

(3) ظهر هذا الكتاب في طبعة جديدة سنة 1974م، تحق: محمد بن علي الأكوغ، نشرته دار اليمامة بالرياض.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 46.

ثانياً- كتب التراجم:

1. كتاب «الذيل والتكملة» لمحمد بن عبد الملك أبي عبد الله المراكشي (ت 703هـ-1305م):

هو محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي المراكشي، صاحب كتاب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»

لا توجد في المصادر التي ترجمت له معلومات كثيرة حول شخصيته، ولكن تظهر من خلال التراجم التي ذكرها في كتابه بعض المعلومات المتفرقة حول حياته، وهذا ما فعله د/ محمد شريفة في تحقيقه للسفر الثامن من الذيل والتكملة⁽¹⁾، إذ قدم محاولة جمع من خلالها المعلومات المتفرقة في التراجم عن شخصية ابن عبد الملك، وقال في المقدمة: [وسنحاول أن نجتمع بين ما ورد في هذه التراجم وأشباهاها وبين ما ورد في إشارات حوله في الأسفار التي تحت أيدينا من كتابه].

والثابت أنه لم يعرف متى استقر سلفه بمراكش، ولكننا نأنس من تعلقه بمدينته ومعرفته بخطوطها وأنساب أهلها وأحوالهم انه مراكشي عريق... أما والده فقد كان من أهل العلم والفضل والخير والصلاح وكان من أعيان بلده⁽²⁾

ولد ابن عبد الملك ليلة الأحد عاشر ذي القعدة سنة أربع وثلاثين وستمائة⁽³⁾ وقد نشأ بمراكش وترعرع في كنف والده الذي كان منزله مجتمعا لأهل الخير والفضل والعلم، وتلمذ على يدي والده والذي كان من شيوخ الاقراء، ثم درس على طائفة من الشيوخ، وأخذ عن جماعة من الأساتذة بطرق الأخذ المعروفة وكيفيات التحمل المعهودة ما بين قراءة وسماع وإجازة⁽⁴⁾

(1) محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري، السفر الثامن، ج1، ص 3.

(2) د. محمد بن شريفة، مقدمة كتاب الذيل والتكملة، السفر الثامن، ج1، ص 4.

(3) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص 325.

(4) محمد بن شريفة، المصدر السابق، السفر الثامن، ج1، ص 810.

كما وقف د/محمد بن شريفة على بعض تلامذه أبي عبد الله المراكشي من خلال من ترجم لهم في كتابه الذيل والتكملة⁽¹⁾، فعد ابن عذاري المراكشي من تلامذته لرواية ابن عذاري عن ابن عبد الملك في كتابه البيان المغرب⁽²⁾

ووصف لسان الدين بن الخطيب ابن عبد الملك ومدحه قائلاً: [كان - رحمه الله - غريب المترع شديد الانقياض، محبوب المحاسن، أحد الصابرين على الجهد، وأبوه قاضي القضاة نسيج وحده، الإمام العالم التاريخي، تقلبت به أيدي الدهر بع وفاته لتبعة سلطت على نسبه، فاستقر بمالقة...]⁽³⁾

وقال ابن فرحون: [الإمام العلامة، الأوحد، الصنف، الأديب، المفتي، المقرئ المؤرخ الحافظ]⁽⁴⁾ توفي ابن عبد الملك سنة سبعمائة وثلاث، ودفن بتلمسان⁽⁵⁾

ولابن عبد الملك المراكشي تصانيف وتآليف جمعها د/ محمد بن شريفة⁽⁶⁾، استخراجها من خلال دراسة تراجع كتاب الذيل والتكملة وهي:

- «الذيل والتكملة، كتابي الموصول والصلة» وذكره أيضا العباس بن إبراهيم⁽⁷⁾ وعمر كحالة⁽⁸⁾
- «الجمع بين كتابي ابن القطان وابن الوافد على كتاب الأحكام» ذكره أيضا العباس بن إبراهيم⁽⁹⁾
- «الجامع في العروض».
- «مقالة في ضبط عنوان المنخص».
- «مقالة حول كتاب الأربعين حديث للملاحى».

(1) المصدر السابق، ج1، ص 5560.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 60.

(3) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص 527.

(4) الديباج المذهب، ج2، ص 325.

(5) ابن فرحون، المصدر السابق، ج2، ص 325.

(6) مقدمة كتاب الذيل والتكملة، السفر الثامن، ج1، ص 93، 111.

(7) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج4، ص 335.

(8) معجم المؤلفين، ج3، ص 644.

(9) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج4، ص 335.

- «تقايد».

- «شعره ونثره».

أما عن نقولات ابن عذاري عن ابن عبد الملك المراكشي، فقد نقل عنه في الجزء الخامس المتعلق بتاريخ الموحدين، رغم أنه لم يذكره ضمن مصادره التي ذكرها في مقدمة كتابه⁽¹⁾

وهذه النقولات تأتي في سبعة نصوص منها ثلاثة نقلها ابن عذاري من كتاب ابن عبد الملك في

«السفر السابع» المفقود كما ذكر د/محمد بن شريفة⁽²⁾

وهذه النصوص التي نقلها ابن عذاري حفظها ضمن كتابه البيان المغرب.

ج5: 36- نص يتصل بفتح الموحدين لإشبيلية سنة (541هـ/1156م)^(*)

57-59- خبر طويل يتعلق بنكبة الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية^(*)

79- خبر وفاة الخليفة عبد المؤمن والعمر الذي توفي عنه.

81- خبر عن قصة وقعت للخليفة عبد المؤمن في أيام طلبه.

134- خبر قصير عن وقع عمر بن تيمصلت والي باجة وعلي بن وزير في الأسر بيد النصارى من

أهل شنترين ونقلهم ابن الرنك إلى قلمرية⁽³⁾

135- نص فيه خبر تعريس الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بابنة ابن مردنيش .

348- خبر ذكر فيه الثائر عبد الرحيم بن الفرس وابن عبد الملك وكتابه^(*)

2. كتاب «الصلة»، لابن بشكوال (ت 578هـ/1183م):

هو أبو القاسم بن خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن دامة بن

داكة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجي الأنصاري القرطبي الإمام الحافظ الناقد الجود محدث

الأندلس.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(2) مقدمة كتاب الذيل والتكملة، السفر الثامن، ج1، ص 8081.

(3) تؤكد أن هذا النص لم يذكره د. محمد بن شريفة ضمن نقولات ابن عذاري عن ابن عبد الملك، ينظر: مقدمة كتاب الذيل والتكملة: ج1، ص 80.

(*) تؤكد هنا: أن هذه نصوص نقلها ابن عذاري عن كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك، السفر اليابع، مفقود.

ولد سنة أربع وتسعين وأربعمائة⁽¹⁾، طلب ابن بشكوال العلم على والده عبد الملك أولا، ثم لازم عبد الرحمن بن محمد بن عتاب، وأخذ عنه كثيرا وأبي سفيان بن العاص، وأبي الوليد بن رشد الكبير، وأبي الوليد بن طريف و... القاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم كثيرا⁽²⁾

توفي ابن بشكوال في شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بقرطبة، قال عنه ابن الأبار: [كان متسع الرواية، شديد العناية بها، عارفا بوجوهها حجة مقدما على أهل وقته، حافظا، حافلا، إخباريا، تاريخيا، ذاكرة لأخبار الأندلس]⁽³⁾

قال ابن العماد: [كان سليم الباطن كثير التواضع]⁽⁴⁾

وقال عنه الحافظ أبو جعفر بن الزبير: [كان رحمه الله يؤثر الخمول والقنوع بالدون من العيش لم يتدنس بخطة تحط من قدره]⁽⁵⁾

لقد بلغت تصانيفه خمسين تأليفا في أنواع العلم كما ذكر ذلك ابن الأبار، وقال: [أجلها كتاب الصلة، سلم له أكفاؤه كفايته فيه، ولم ينازعه أهل صناعته الافراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه]⁽⁶⁾، وذكر البغدادي بعضها منها⁽⁷⁾

وكتاب الصلة الذي جعله ذيبلا على «تاريخ علماء الأندلس» تصنيف القاضي أبي الوليد عبد الله المعروف بابن الفرضي وقد جمع فيه خلقا كثيرا⁽⁸⁾

وقد نشر كتاب الصلة مرتين، ثانيتهما في مطبعة السعادة بالقاهرة عام 1374هـ/1955م في جزأين ثانيهما مذيل بفهارس للاعلام المترجمين ولبلدان والأماكن والطوائف والكتب.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص139، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص240.

(2) الذهبي، المصدر السابق، ج21، ص139.

(3) المصدر السابق، ج21، ص139.

(4) ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص261.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص141.

(6) المصدر السابق، ج21، ص139.

(7) إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص349.

(8) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص240، حاجي خليفة، كشف الظنون، ص285، 286.

ثم وضع مستشرق ألماني قائمة أوسع بأسماء الأماكن والبلدان الواردة بهذه الطبعة لكتاب الصلة، ونشر ذلك في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد بالمجلد 15 ص 151-196⁽¹⁾

ولابن بشكوال تاريخ صغير للأندلس غير الصلة⁽²⁾

وقد نقل ابن عذاري عن ابن بشكوال من كتاب «الصلة» لكنه لم يذكره ضمن المصادر التي

اعتمد عليها⁽³⁾

أما نقولاته فهي:

ج1: 39- خبر ذكر نسب موسى بن نصير.

22- كرر خبر نسب موسى بن نصير⁽⁴⁾

ويذكر الدكتور عبد الواحد: [أن النسخة المتوفرة من كتاب ابن شيكوال لا تتضمن ترجمة

لموسى بن نصير]، مما يدل على أن ابن عذاري استخدم نسخة أخرى مفصلة، وأن النسخة المتداولة

الآن من الكتاب هي اختصار لتلك النسخة⁽⁵⁾

3. مؤلفات يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الأندلسي (ت 463هـ/1071م):

هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري الأندلسي القرطبي المالكي (أبو

عمر)، ولد بالأندلس في سنة ثمان وستين وثلاثمائة، طلب العلم بعد التسعين وثلاثمائة، وأدرك الكبار

وطال عمره وعلا سنده، ولم يخرج عن الأندلس، إلا أنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها،

ومن الغرباء القادمين إليها⁽⁶⁾، ودأب أبو عمر في طلب العلم، وأفتن فيه، وبرع براءة فاق بها من تقدمه

(1) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، ص 46.

(2) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 286.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(4) لم يذكره عبد الواحد ذنون في بحثه موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 248.

(5) عبد الواحد ذنون، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 248.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 153154، الحميدي، جذوة المقتبس، ج2، ص 586.

من رجال الأندلس⁽¹⁾، وذلك لفضله وعمله. قال ابن بشكوال⁽²⁾: [ابن عبد البر إمام عصره وأحد دهره]

وقال الذهبي⁽³⁾: [كان إماما ديناً، ثقة، متقناً علامة متبحراً، صاحب سنة واتباع، كان أولاً أثرياً ظاهرياً ثم تحول مالكيًا...]

توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة⁽⁴⁾

كان أبو عمر بن عبد البر موفقاً في التأليف، ومما ألفه في التاريخ⁽⁵⁾

- كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» مجلدان (وطبع في أربعة مجلدات مع الفهارس)

- كتاب «القصص والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم»

- كتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» ثلاثة أجزاء (وطبع في مجلد واحد)

- كتاب «المغازي»

ذكر ابن عذاري عن ابن عبد البر رواية واحدة⁽⁶⁾: [عن فتح عقبة بن نافع في ولايته الثانية لبلاد

إفريقية عامة بلاد البربر إلى أن بلغ طنجة، وجمال هناك، ولا يقاتله اخذ ولا يعارضه حتى فتح كورة من

كور السودان]⁽⁷⁾

ويذكر الدكتور عبد الواحد: [أن ابن عذاري قد أخذ النص من الاستيعاب بتصريف، حيث لا

يوجد في النص الأصلي ذكر لمدينة طنجة]⁽⁸⁾

(1) ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص 974.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 973.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 157.

(4) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص 974.

(5) الذهبي، المصدر السابق، ج18، ص157158، الزركلي، الاعلام، ج5، ص 240، عمر كحالة، ج4، ص170، البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص550.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 28.

(7) النص موجود جمعناه في كتاب الاستيعاب (ترجمة عقبة بن نافع)، ج3، ص 1076.

(8) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقق، علي محمد الجاوي، القاهرة، بدون تاريخ، ج3، ص 10751076 (ترجمة رقم: 1830)

وهنا أيضا ربما كان تحت تصرف ابن عذاري نسخة أخرى من الكتاب تحتوي على تفصيلات أكثر مما هو موجود في النسخ المطبوعة الحالية.

4. كتاب «طبقات إفريقية» لمحمد بن حارث الخشني (ت 361هـ/971م):

هو محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني ثم الأندلسي أبو عبد الله، من أهل العلم والفضل، فقيه محدث، سكن القيروان، وانتقل إلى قرطبة صغيرا فتعلم بها وولي الشورى، وألف لأمير المؤمنين المستنصر بالله كتبا كثيرة.

قال ابن الفرضي: [كان شاعرا بليغا إلا أنه يلحن، وكان مغرى بالكيمياء واحتاج بعد موت

الحكم (المستنصر) إلى أن جلس في حانوت يبيع الأدهان]⁽¹⁾

ومن مؤلفاته:

- كتاب «القضاة بقرطبة»، كتاب «أخبار الفقهاء والمحدثين»، كتاب «الاتفاق والاختلاف».

- كتاب «الفتيا»، كتاب «النسب»، كتاب «تاريخ علماء الأندلس».

- كتاب «تاريخ الإفريقيين»، كتاب «طبقات فقهاء المالكية»، كتاب «المولد والوفاة»⁽²⁾

نقل ابن عذاري عن كتاب الخشني رواية واحدة⁽³⁾ عن ترجمة الفقيه أحمد بن نصر ابن زياد. (ت

317هـ/929م)، تتضمن مجلسا للمناظرة في المسائل، حضره محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي

(269-319هـ/882-931م)، صاحب المدرسة الفلسفية، المعروفة بمدرسة ابن مسرة في الأندلس،

حينما كان في طريقه إلى الحج⁽⁴⁾

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ج1، ص94، بغية المتتمس، ج1، ص99، الزركلي، الاعلام، ج6، ص75.

(2) الزركلي، المصدر السابق، ج6، ص75.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص195.

(4) المصدر السابق، ج1، ص195.

وبمقارنة للنص الذي أورده ابن عذاري مع النص الأصلي للخشني، يتبين الأخير كان أكثر تفصيلاً وإسهاباً، ولكن على الرغم من الاختصار، فقط احتفظ نص ابن عذاري بالعناصر الرئيسية للرواية التي أوردها الخشني في كتابه⁽¹⁾

5. كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لعلي بن بسام (542هـ/1147م)

هو علي بن محمد بن بسام التغلبي الشنتريبي الأندلسي أبو الحسن المعروف بابن بسام⁽²⁾ ومما يؤسف عليه حول ترجمة هذا المؤلف أنه لا توجد إلا إشارات عابرة عنه، بل حتى أن بعض المصادر ضربت صفحا عن ترجمته حتى مكانه ليس من المشاهير.

وبالتالي فالمعلومات عن حياة ابن بسام في المصادر قليلة جدا، وهذا شيء غريب، إذ أن هذا الأخير هو الذي ترجم وعرف بأعلام من الأدباء والمؤرخين الأندلسيين في كتابه «الذخيرة».

فما أكثر الكتب التي ذكر فيها ابن بسام عشرات المرات، إلا أن الذي يقصدها بحثا عن ترجمة شافية لهذا الرجل تنير بعض زوايا حياته المغلفة بالظلام لا يكاد يظفر منها بشيء باستثناء أنه يسمى أبا الحسن ابن بسام وأنه مؤلف كتاب «الذخيرة»⁽³⁾

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلبية كتب التراجم والتاريخ الأدبي التي ألفت في العصور التالية لعصر ابن بسام، فقد اعتمدت على كتابه «الذخيرة»، إذا كان مصدرها الأساسي ومرجعها الأول في أغلب الروايات من أخبار وأدب رجال المائة الخامسة في الأندلس⁽⁴⁾

فالتساؤل المطروح هل عدم وجود ترجمة وافية عن حياة ابن بسام في المصادر والمراجع تعود إلى شهرته الواسعة الأمر الذي أدى بالمؤرخين والباحثين إلى العزوف بذكر شيء عن حياته.

(1) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 247.

(2) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، 417، عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 410.

(3) علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، ص 19.

(4) المصدر السابق، ص 19.

فالأمر هنا قد يكون صحيحا إذا ما تذكرنا ما قاله المقرئ الذي عاش في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، حيث يذكر ابن بسام وكتابه الذخيرة ويقول: [أبو الحسن علي بسام الشنتريني صاحب الذخيرة وشهرته تغني عن ذكره]⁽¹⁾

وابن بسام ينتسب إلى مدينة «شنترين» من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس⁽²⁾ عاش ابن بسام في أسرة غنية وميسورة الحال أغناه عن التقلب في البلاد لاكتساب معيشته⁽³⁾ ولما استولى النصارى على مدينة «شنترين» سنة (485هـ/1092م) رحل إلى قرطبة، مخلفا وراءه ما ملكت يده⁽⁴⁾

سار ابن بسام إلى إشبيلية التي كان يتردد عليها قبل، حيث كانت دولة المعتمد بن عباد قائمة، ولم يستقر بقرطبة كما قيل.

حضر ابن بسام مجالس المعتمد بن عباد التي كانت تضم الشعراء والأدباء كما شاهد وحضر أيام إسقاط المرابطين لدولة المعتمد بن عباد في إشبيلية (سنة 414هـ)⁽⁵⁾

يذكر المقرئ أن وفاته تأخرت إلى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة⁽⁶⁾

وقد ألف ابن بسام كتبا كثيرة لم يبق إلا بعضها، مثل «كتاب الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد» وكتاب «الإكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل، وكتاب «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر»، وكتاب «نخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار»⁽⁷⁾

وذكر علي بن محمد أن لابن بسام كتابين آخرين هما:

(1) المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص 458.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 458.

(3) علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، ص 33.

(4) آنجل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 288.

(5) علي بن محمد: المصدر السابق، ص 43، 51، 53.

(6) المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص 458.

(7) آنجل بالثيا، المصدر السابق، ص 289.

- «ذخيرة الذخيرة» و«سر الذخيرة»، كما يرى أن له كتباً أخرى لا نعرفها⁽¹⁾

لكن من أشهر كتبه والذي اشتهر به كتابه: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، انتهى من تصنيفه في (سنة 502هـ/1109م) في إشبيلية، حيث استقر وعاش من قلمه⁽²⁾، وهو عبارة عن تراجم أعيان أهل مصره في عصره، تشتمل على مائة وأربع وخمسين ترجمة، وهو في سبعة أسفار ومقامات وهي ثلاثون مقامة⁽³⁾

وقد: «طبع من الكتاب ثلاثة أجزاء منه وبقيته مهية للطبع، وهو في ثمانية مجلدات»⁽⁴⁾

وهذا الكتاب الذي اشتهر به ابن بسام قسمه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: «مخطوطة في المكتبة الأهلية في باريس، ونشر في مجلدين في القاهرة 1939-1942 لأهل حضرة قرطبة وما يضافها من بلاد متوسطة الأندلس».

القسم الثاني: «مخطوطة بمكتبة أكسفورد ومكتبة المجتمع التاريخي في مدريد لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذكر حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي».

القسم الثالث: «مخطوط بمكتبتي جوتا والمجمع التاريخي الإسباني بمدريد لأهل الجانب الشرقي في الأندلس، ومن نجم من كواكب العصر في أفق ذلك الثغر الأعلى إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك».

القسم الرابع: «مخطوطة يملكها ليفي بروفنسال، ونشر الجزء الأول منه في القاهرة سنة 1945م أفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة من المدة المؤرخة من أديب وشاعر، وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر، واتسع فيها حجالة وحفظت في ملوكها أقواله، ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق ممن نجم في عصرنا بإفريقية، والشام والعراق» كما يقول ابن بسام⁽⁵⁾

(1) علي بن محمد، المصدر السابق، ص 77.

(2) أنجل بالثيا، المصدر السابق، ص 289.

(3) إسماعيل باشا، هدية العارفين، ج 5، ص 702، ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ج 3، ص 565، الزركلي، الاعلام، ج 4، ص 266.

(4) الزركلي، الاعلام، ج 4، ص 266.

(5) أنجل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 289290.

وهنا لا يفوتنا أن نذكر ما قام به الدكتور إحسان عباس، حيث أخرج كتاب الذخيرة بعد تحقيقه وطبعته دار الثقافة في ثمان مجلدات سنة (1399هـ/1979م).

وقد حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة الكثير من المعلومات التاريخية القيمة عن ملوك الأندلس وأمرائها ووزرائها وأعيانها وعلمائها وأدبائها وشعرائها في المئة الخامسة للهجرة⁽¹⁾

ومما يذكر ولا ينكر هو أن ابن عذاري اعتمد اعتمادا كبيرا على كتاب الذخيرة، حتى أنه جعله ضمن المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه⁽²⁾، إضافة إلى النهل من نصوصه، حيث نسب معظمها إلى ابن بسام، لكنه أغفل نسبة بعضها الآخر مثل ذلك: النص الذي أورده عن دخول محمد بن عباد (المعتمد) إلى مالقة⁽³⁾

وكذلك نقل آخر نسبه إلى محمد بن إسماعيل كاتب المنصور، بينما هو في الواقع مأخوذ عن ابن بسام الذي ذكره في «الذخيرة» برواية ابن حبان⁽⁴⁾

وما يلاحظ أيضا أن مؤرخنا - ابن عذاري - لم يلتزم بالتسلسل في بعض الأحيان من ذلك الذي يورده ابن بسام للنصوص، فجدده يختصر منها بشكل قد يخل بالمعنى فقد أشار إلى نص هو بالأصل عن تقويم ابن حبان فذكره ضمن حديثه نبذ عن أخبار بني جهور أمراء قرطبة⁽⁵⁾

أما عن نقولات ابن عذاري عن ابن بسام هي: خمسة عشر نصا في عصر ملوك الطوائف:

ج2: 255- بعض أخبار جعفر بن عثمان المصحفي الذي قلد الوزارة في خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله، وهذا النص السابق لم يتوفر في الذخيرة الميسرة بين أيدينا⁽⁶⁾

ج3: 118- بعض أخبار سليمان بن الحكم المستعين بالله وسيرته⁽⁷⁾

(1) د. سعد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص 401.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(3) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 220، ابن بسام، الذخيرة، ق2، م1، ص 4950.

(4) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 220.

(5) المصدر السابق، ص 220.

(6) عبد الواحد طه، المصدر السابق، ص 222.

(7) قارن ابن بسام، الذخيرة، ق1، ج1، ص 4648.

- 139- بعض أخبار عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله وسيرته رحمه الله⁽¹⁾
- 162- أخبار العبدى مبارك ومظفر العامريين⁽²⁾
- 175- خبر أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي⁽³⁾
- 184- خبر حسام الدولة أبو مروان⁽⁴⁾
- 206- خبر افتتاح المرابطين إشبيلية وخلعوا المعتمد بن عباد المعتضد، اكتشفوا وجود جوالق مملوءة رؤوسا منها رأس يحيى بن علي بن حمود⁽⁵⁾
- 214- بعض أخبار المعتمد بن عباد المعتضد وحربه للبربر⁽⁶⁾
- 233-256- نبذ من أخبار بين جمهور أمراء قرطبة⁽⁷⁾
- 245 : خبر الكتاب الذي أنشأه ابن عبد البر بين يدي المعتضد ارتجالا إلى ابن أبي عامر بعد قتله لابنه إسماعيل المرشح لخلافته من بعده بعد أن هم بغدره⁽⁸⁾
- 248- خبر مخاطبة المعتضد حلفائه وإخبارهم بخير ولده فجاوبوه على ذلك⁽⁹⁾
- 253- بعض أخبار وقعة بطرنة من نظر بلنسية بين الروم وحاكمها آنذاك عبد العزيز بن أبي عامر⁽¹⁰⁾
- 253- ذكر قول ابن عذاري عن ابن بسام أنه لم يقع إليه خبر وقعة بطرنة في كتاب ابن حيان⁽¹⁾

(1) المصدر السابق، ق1، ج1، ص55، 58.

(2) المصدر السابق، ق3، ج1، ص13.

(3) المصدر السابق، ق1، ج2، ص732، 733.

(4) المصدر السابق، ق3، ج1، ص112، 113، 116.

(5) قارن ابن بسام، الذخيرة، ق1، ج1، ص28.

(6) المصدر السابق، ق2، ج1، ص3840.

(7) ابن بسام، الذخيرة ق1، ج2، ص201205.

(8) المصدر السابق، ق3، ج1، ص137143.

(9) المصدر السابق، ق3، ج1، ص148.

(10) المصدر السابق، ق3، ج2، ص854857.

(1) المصدر السابق، ق3، ج2، ص854.

ومما يمكن أن نستشفه حول هذه النقولات أو النصوص الواردة إلينا من طرف ابن عذاري نقلا عن ابن بسام نجد وبعد مقارنة الروايات كما هي.

كان ابن عذاري يتصرف في بعض الروايات ويحذف ويختصر بعض العبارات الاستثنائية كما حصل في رواية خبر الكتاب الذي أنشأه ابن عبد البر بين يدي المعتمد ابن عباد بعد قتله لابنه إسماعيل⁽¹⁾ إذ اختصر الكتاب اختصارا كبيرا وقام بتقديم وتأخير في بعض عبارات ابن بسام، كما حصل ذلك في رواية خبر وقعة بطرنة⁽²⁾

6. كتاب «قلائد العقبان» و«مطمح الأنفس» لأبي نصر الفتح بن خاقان القيسي (ت529هـ/1135م)

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي من أهل الأندلس، من قرية تعرف بصخرة الواد من قرى قلعة يحصب، أديب فاضل شاعر بليغ فصيح بذيء اللسان قوي الجنان في هجاء الأعيان⁽³⁾

وصفه المقرئ بقوله: [كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا في باب الحلى والصفات، إلا أنه كان محارفا مقدورا عليه، لا يمل من المعاقرة والقصف حتى هان قدره، وابتذلت نفسه وساء ذكره]⁽⁴⁾

توفي ابن خاقان قتيلا بمدينة مراكش سنة تسعة وعشرين وخمسمائة في أحد فنادقها بأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 245.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 253.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص23، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص186، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص248.

(4) المقرئ، نفع الطيب، ج7، ص 29.

من تأليفه: «قلائد العقبان ومحاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس»⁽¹⁾ أو «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ذيل شعراء الأندلس» الذي وصله بقلائد العقبان كما ذكره ياقوت الحموي⁽²⁾

وكتاب «المطمح»⁽³⁾ و«رواية المحاسن وغاية المحاسن» و«كتر الفوائد» و«حديقة المآثر»⁽⁴⁾ وجزء صغير في «ترجمة ابن السيد البطليوسي».

ونجد من أشهر تصانيفه كتاب «قلائد العقبان». قال الحموي: [لما عزم ابن خاقان على تصنيف مؤلفه جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيان من أهل الأدب والشعر والبلاغة يعرفه عزمه ويسأله انفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه وكانوا يعرفون شره، فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك وصرر الدنانير، فكل من أرضه صلته أحسن في كتابه وصفه وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه⁽⁵⁾

فالكتاب جمع فيه من شعراء المغرب طائفة وذكر أشعارهم وجعله على أربعة أقسام: فالأول للملوك، والثاني في الوزراء، والثالث في القضاة والعلماء، والرابع في الأدباء والشعراء⁽⁶⁾ أما كتاب «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» وهو ثلاث نسخ: كبرى ووسطى وصغرى، وهو كتاب كثير الفائدة، لكنه قليل الوجود وكلامه في هذه الكتب يدل على فضله وغزارة مادته.⁽⁷⁾

(1) المصدر السابق، ج7، ص30.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص190.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص148250.

(4) ينظر: مقدمة تحقيق كتاب قلائد العقبان، د حسين يوسف خربوش، ج1، ص9.

(5) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص186187.

(6) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص1354.

(7) ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص107.

صرح ابن عذاري في مقدمة كتابه بالنقل عن كتابي ابن خاقان «قلائد العقبان في محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس»: وقد وقفنا على أربعة نقولات عنه وهي:

ج2: 273- أخبار محمد بن أبي عامر واستبداده بالمملكة وأمور الدولة حتى ملك الأندلس بضعا وعشرين حجة.

297- ذكر خبر بعض غزوات المنصور بن عامر بسبب شكوى امرأة كانت في الأسر حتى أنقذها من الأسر وأزل وحشتها.

ج3: 284- ذكر خبر بني عباد ونسبهم وانتماؤهم إلى لحم والمناذرة.

3: 310(الذيل)- ذكر أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب ابن رزين وبعض ما اتصف به. وبالعودة إلى النصوص والتدقيق فيها نلاحظ أو يتبين أن نص خبر «بني عباد» منقول فعلا من كتاب القلائد والمطمح⁽¹⁾

أما النصان المذكوران في «أخبار المنصور بن أبي عامر وغزواته»، فلا وجود لهما في النسخة الصغيرة المختصرة عن «مطمح الأنفس» المتوفرة بين أيدينا، ويرجع ذلك إلى وجود ثلاث نسخ من هذا الكتاب، وهي كبرى ووسطى وصغرى، وربما كان تفصيل الأحداث قد ورد في النسخ الكبرى والوسطى فقط⁽²⁾

أما النص الأخير فهو موجود فعلا في قلائد العقبان وجدته مطابقا لما نقله ابن عذاري.

(1) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 292.

(2) المصدر السابق، ص 222.

7. كتاب «درر القلائد و غرر الفوائد»، لأبي عامر السالمي (ت559هـ / 1163م)

هو محمد بن أحمد بن عامر البلوي، من أهل طرطوشة، وسكن مرسية، يعرف بالسالمي، لأن أصله من مدينة سالم، ويكنى: أبا عامر⁽¹⁾، وسماه المقرئ⁽²⁾ باسم أبي الحسن السالمي، أما مؤرخنا ابن عذاري فكناه مرة بأبي عامر السالمي⁽³⁾ ومرة أخرى بأبي عمر السالمي⁽⁴⁾

[كان أبي عامر السالمي أديبا فصيحاً تاريخياً حافظاً وصنف في الحديث والآداب واللغة والتواريخ

وعبارة الرؤيا كتابا مفيدة]⁽⁵⁾

من أهم تصانيفه:

كتاب «درر القلائد و غرر الفوائد»، قال عنه ابن عبد الملك⁽⁶⁾ لهو في أخبار الأندلس وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها، وقفت على السفرين الأول والثاني منه].

وللكتاب مختصر اسمه «عبرة العبر»، وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد

الدولة المرابطية»، وقف عليه ابن عبد الملك المراكشي⁽⁷⁾

وهذا الكتاب «تاريخي بالدرجة الأولى، كما يفهم تراجم لبعض العلماء والشعراء، وقد اتبع

السالمي في تأليف كتابه نفس الطريقة التي سار عليها بقية مؤرخي الأندلس بذكر مقدمة جغرافية

للأندلس قبل البدء التاريخي»⁽⁸⁾

كما نجد له أيضا «في اللغة كتاب حسن، وكتاب في الطب سماه الشفا وكتاب التشبيهات،

وكتب للأمير محمد بن سعد»⁽⁹⁾

(1) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص 495.

(2) المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص 181.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 32112.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 32112.

(5) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص 78.

(6) المصدر السابق، ص 78.

(7) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول، ص 79.

(8) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس، ص 213.

(9) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص 495.

وقد ذكر ابن عذاري كتاب السالمي في درر القلائد وغرر الفوائد، وجعله ضمن المصادر التي

اعتمد عليها⁽¹⁾

كما نقل عنه ستة نصوص وهي:

ج2: 32- خبر مقتل بلج بن بشير القشيري في الصراع مع عبد الملك بن قطن والي الأندلس.

33- خبر طريقة معاملة ثعلبة بن سلامة العاملي لأهل الأندلس.

52- خبر إرسال ابو جعفر المنصور العلاء بن مغيث الجذامي لولاية الأندلس ثم مقتله.

87- ذكر دخول المجوس إشبيلية في سنة 230هـ، ومكوثهم سبعة أيام بها.

112- خبر غزوة الأمير محمد بن عبد الرحمن لوادي سليط سنة 240هـ.

128- خبر شراء إبراهيم بن حجاج المتسلط على إشبيلية جارية بغدادية.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2.

ثالثا- كتب المسالك والجغرافية:

1. كتاب «توضيح الأخبار» لأحمد بن عمر بن أنس العذري (ت 478هـ/1085م)

هو أحمد بن عمر بن أنس بن دلهث بن أنس بن فلذان بن عمر بن منيب العذري الأندلسي الدلائي أبو العباس، يعرف بابن الدلائي من أهل المرية.

ولد في ذي القعدة ليلة السبت لأربع خلون من سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة رحل إلى المشرق سنة سبع وأربعمائة، وانصرف عن مكة سنة ست عشرة، سمع بالحجاز سمعا كثيرا من شيوخها، ومن القادمين إليها⁽¹⁾، وجماعة من أهل العراق وخراسان والشام الواردين مكة، وكان له من الأندلسيين سماع من ابن عبد البر وغيره⁽²⁾

قال ابن بشكوال⁽³⁾: [كان معتنيا بالحديث ونقله وروايته وضبطه مع ثقته وجلالة قدره وعلو

إسناده]

وقال ياقوت الحموي⁽⁴⁾ [كان شيخا ثقة واسع الرواية عالي الإسناد عنده غرائب وفوائد سمع منه

الناس بالأندلس قديما وحديثا وطال عمره حتى شارك الأصغر فيه الأكابر]

توفي العذري أبو العباس في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة⁽⁵⁾

من تصانيفه نجد:

- كتاب «دوائر النبوة»، كتاب «نظام المرجان في المسالك والممالك»⁽⁶⁾

- كتاب «افتضاض أباكار أوائل الأخبار»⁽⁷⁾

(1) الحديدى، جذوة المقتبس، ج1، ص 213، ابن شيكوال، الصلة، ج1، ص116.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 460.

(3) ابن شيكوال، الصلة، ج1، ص 116.

(4) معجم البلدان، ج2، ص 460.

(5) الضبي، بغية الملتبس، ج1، ص 244.

(6) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص216، إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون، ج2، ص 656.

(7) فهرسة ابن خبير، ص222، نقلا عن موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 150.

- كتاب «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك»، وقد اشتهر العذري بكتابه السابق.

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب لم يصلنا إلا جزء صغير عن عشر صفحات تدور معظم أخبارها عن الأندلس، وقد قام الدكتور عبد العزيز الأهواني بتحقيق ونشر هذه القطعة في مدريد سنة 1965م⁽¹⁾

واللافت أن ابن عذاري لم يذكر العذري وكتابه ضمن المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه⁽²⁾ إلا أنه نقل عنه نصين:

ج1: 210- خبر عن نسب إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفرارهما من موقعة فخ.

203- خبر عن تاريخ مدينة سبتة قبل الإسلام وعلاقتها مع ملوك القوط في شبه الجزيرة الأيبيرية.

ويمكن أن نقر هنا أن كل من هذين النصين ضمن الأجزاء المفقودة من كتاب العذري «ترصيع الأخبار» مما يجعل لها أهمية كبيرة.

كما أنهما يشيران أيضا إلى اهتمام العذري الكبير بتدوين تاريخ المناطق التي يتحدث عن جغرافيتها⁽³⁾

2. كتاب «مسالك إفريقية وممالكها» لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق القروي (ت362هـ/973م)

هو محمد بن يوسف بن عبد الله أبو عبد الله التاريخي الوراق، ويرجع أصل أجداد هذا المؤلف إلى مدينة وادي الحجارة في الأندلس، وقد هاجر أهله إلى القيروان حيث ولد بها سنة 292هـ/904م⁽⁴⁾، وقد نشأ وترعرع في هذه المدينة، وصار له شهرة واسعة في تاريخ وجغرافية شمال إفريقية، كما كان ذا

(1) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 255.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(3) عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 255256.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، ج1، ص 158، الضبي، بغية المنتسب، ج1، ص182، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 139.

حظوة لدى الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م)⁽¹⁾ فنال رعاية الحكم، وألف له كتابا في «مسالك إفريقية وممالكها» كما ألف له في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا كثيرة، كذلك ألف في أخبار بتهرت، ووهران، وتنس، وسلجماسة، ونكور، والبصرة، وغيرها من مدن شمال إفريقية، وظل في الأندلس إلى أن توفي بقرطبة ودفن فيها عام (363هـ/973م)⁽²⁾

استفاد أبو عبيد البكري من كتاب الوراق في «مسالك إفريقية وممالكها»، واستصفاه في كتابه

«المسالك والممالك»⁽³⁾

كما استفاد ابن عذاري أيضا من هذا الكتاب، حيث يقول: [ومما قيده واختصرته من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف القروي - رحمه الله - قال: ومن المدن القديمة على ساحل بحر الغرب أصيلا، وهي في سهلة من الأرض، كانت مدينة للأول، ثم تغلب عليها البحر، ثم نبئت بعد ذلك...]⁽⁴⁾

أما بقية مؤلفات الوراق عن شمال إفريقية، فقد استفاد منها ابن عذاري كثيرا، ولخص العديد منها في كتابه، لاسيما الرسائل الخاصة بتاريخ المدن، وكيفية نشوئها، وتاريخ بعض القبائل البربرية، وبطونها ومساكنها في كورة طنجة⁽⁵⁾ وكذلك قبيلة برغواطة، حيث نجد ابن عذاري يورد فصلا كاملا عن هذه القبيلة بعنوان «خبر برغواطة»⁽⁶⁾، وهذا الخبر أشبه ما يكون بنص وثيقة عن تاريخ هذه القبيلة كتبها الوراق للحكم المستنصر لتحفظ في سجلاته.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 139.

(2) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نقلها المقرئ في نفع الطيب، ج3، ص 163، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 97 (رقم 160)، ابن الأبار التكملة لكتاب الصلاة، ج1، ص 366، (رقم 996).

(3) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحلیم النجار، القاهرة، 1977، ج3، ص 91، حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 73.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 232، وقارن: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص 111، 113.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 26.

(6) المصدر نفيه، ج1، ص 223227.

لكن من خلال تتبعنا وتدقيقنا في هذا النص مع ما أورده البكري، وبالمقارنة نجد أن ابن عذاري يأتي به في صورة ناقصة ومشوهة، بينما احتفظ لنا البكري به كاملاً، حيث كان من المفروض أن يهتم ابن عذاري بهذا النص أكثر من البكري لأنه مؤرخ فهو أكثر علاقة باختصاصه⁽¹⁾ وبالتالي فإنه حسب ما يبدو لنا أن منهج ابن عذاري في اختصار هذه الفصول ضيع عليه فرصة الالتفات إلى أهمية إيرادها كاملة.

ونذكر نماذج أخرى وهي من الفصول الأخرى التي اختصرها ابن عذاري من كتب الوراق منها:⁽²⁾

ج1: 156-157-التعريف بأمر سلجماسة من ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة أي سنة 297هـ/909م.
: 176-180- تلخيص أخبار أمراء تكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة، أي سنة 305هـ/917م⁽³⁾

: 196- ذكر مدينة جراوة⁽⁴⁾

: 196- ذكر مدينة تيهرت⁽⁵⁾

: 197-199- ذكر من ملك تيهرت من حين ابتدائها من بني رستم وغيرهم⁽⁶⁾

: 223-227- خبر قبيلة برغواطة.

: 235- ذكر من ولي مدينة البصرة⁽⁷⁾

(1) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 134135.

(2) أشار الدكتور مؤنس إلى هذه الفصول، ينظر مؤنس، المرجع السابق، ص 7374146.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 176، 180.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 196.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 196.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 197199.

(7) وهي مدينة البصرة المغربية، ينظر: المصدر السابق، ج1، ص 235.

كما وجدنا ابن عذاري أيضا بعض أحداث المغرب العربي التاريخية التي ذكرها الوراق، مثل [حبر ابتداء الدولة العبيدية الشيعية]⁽¹⁾، ودور جعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي في أحداث المغرب، وموقفهما المعادي للفاطميين وحلفائهم من بني زيري الصنهاجيين⁽²⁾ ومن الجدير بالذكر ان ابن عذاري أورد هذه المعلومات بشكل مختصر لاسيما الرواية الأخيرة، بحيث نجد ابن حيان ينقلها عن الوراق بتفصيل كبير⁽³⁾

3. كتاب «المسالك والممالك» وكتاب «المجموع المقتصر» لأبي عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت487هـ / 1094م)

ومؤلف هذا الكتاب من أشهر الجغرافيين في الأندلس وهو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري (أبو عبيد)، يرجع نسبه إلى بكر بن وائل من أهل شلطيخ غرب الأندلس، ولد في حدود سنة (405هـ / 1014م)، وتوفي سنة (487هـ / 1094م)⁽⁴⁾، وسكن قرطبة، ثم انتقل إلى ولبة، وهو من بيت شرف وإمارة، فقد كان آباؤه أصحاب ولبة وشلطيخ: إذ استبدوا بأمورها بعد سقوط الخلافة، وظلوا في إمارتهم حتى غصبهم المعتضد بن عباد ولبة واضطروهم إلى التنازل له عن شلطيخ لقاء مال دفعه إليهم⁽⁵⁾

نقل السيوطي⁽⁶⁾ كلام الصفدي قال: [كان إماما لغويا إخباريا، متفننا، أميرا بساحل كورة ليلة، وكان لا يصحو من الخمر أبدا].

(1) المصدر السابق، ج1، ص 124

(2) المصدر السابق، ج1، ص 242243.

(3) المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1965، ص 3336.

(4) ابن شيكوال، الصلة، ج2، ص287288 (رقم633)، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، ص186 فما بعدها. بالنبيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 309.

(5) عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص253، الزركلي، الاعلام، ج4، ص98، آجل بالنبيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 309310.

(6) بغية الوعاة، ج1، ص 49.

وقال ابن شيكوال⁽¹⁾: [كان من أهل اللغة والآداب الواسعة، والمعرفة بمعاني الأشعار، والغريب والأنساب والأخبار متقنا لما قيده، ضابطا لما كتبه جميل الكتب مهتما بها].

وللبكري مؤلفات عديدة منها:

كتاب «المجموع المفترق»، كتاب «كتاب المسالك والممالك»، كتاب «كتاب معجم ما استعجم»، كتاب «أعلام النبوة»، كتاب «شرح أمالي القاضي»، كتاب «التنبيه على أغلاط أبي علي القاضي»، كتاب «النبات» وغيرها⁽²⁾

ويعد كتاب «المسالك والممالك» قمة أعمال البكري في مجال المؤلفات التاريخية، وقد نشر البارون دي سلان الجزء الخاص بجغرافية الشمال الإفريقي⁽³⁾، كما حقق د. عبد الرحمن علي الحجي نصا آخر يتعلق بـ «جغرافية الأندلس وأوروبا» من هذا الكتاب⁽⁴⁾

اعتمد البكري في كتابه هذا على مصادر مختلفة، ومنها قديمة مثل كتب بطليموس، ومنها إسلامية مثل كتب المسعودي وابن رسته ومحمد بن يوسف الوراق⁽⁵⁾

كما استفاد من بعض معاصريه من المؤرخين والجغرافيين، مثل ابن حيان، والعذري، وابن عبد البر النمري⁽⁶⁾

كما نقل ابن عذاري عن البكري من كتاب آخر اسمه «المجموع المفترق»، ولكنه ذكر أسماء مؤرخين آخرين أوردوا بعض الأخبار ضمن هذا الكتاب، مثل الرقيق ومؤرخ آخر يسميه النوفلي، ومن المحتمل أن هذا الكتاب كان يضم مجموعة من المؤلفات الخاصة بالمغرب العربي، جمعت في مجلد

(1) ابن شيكوال، الصلة، ج2، ص 437.

(2) حاجي خليفة، كشف الظنون، 167، 1050، 1980، إسماعيل البغدادي، ج1، ص 453، الزركلي، الاعلام، ج4، ص98.

(3) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، ص 1857.

(4) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 252.

(5) اغناطيوس يوليانونوفش كمراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، 1963، ج1، ص 169، 266.

(6) ابن شيكوال، الصلة، ج2، ص 287.

واحد، وكانت معروفة في عهد ابن عذاري بهذا الاسم، لاسيما وأنا لم نجد للبكري، أو للريقيق تأليفا يحمل هذا العنوان⁽¹⁾

استفاد ابن عذاري من كتاب المسالك والممالك، في نقولاته، حيث اعتمد اعتمادا كبيرا، لاسيما في ذكر المسائل الجغرافية، كاستقرار بعض القبائل البربرية في مدن المغرب العربي⁽²⁾، وذكر صفات وأحوال بعض المدن الأخرى مثل طنجة⁽³⁾، وصبرة⁽⁴⁾، والقيروان⁽⁵⁾

كما أشار المستشرق الفرنسي بروفنسال في المقدمة التي قدم بها لنص عبيد الله بن صالح⁽⁶⁾ أن ابن عذاري اعتمد كتاب «صفة المغرب» المستخرج من مسالك الجغرافي الأندلسي البكري، فيما يتصل بأعمال عقبة بن نافع في ولايته الثانية.

ومما تجدر الإشارة إليه أثناء تتبعنا لنقولات ابن عذاري لاحظنا في أثناء حديثه عن أعمال عقبة ولايته الثانية لا يذكر البكري إطلاقا، إلا حين يشير إلى صفة مدينة طنجة⁽⁷⁾، وغالب الظن أن المعلومات الجغرافية هي التي استفاد منها عن البكري، بينما نقل المعلومات التاريخية عن محمد بن يوسف الوراق.

وفيما يخص بعض النصوص التي نقلها ابن عذاري عن البكري، ومقابلتها بالنص المطبوع عن «صفة المغرب»، نجد بعض الاختلافات في الشكل والمضمون، ونذكر مثلا النص الآتي على سبيل المثال لا الحصر:

[وفي سنة 445هـ، خرج المعز بن باديس من المنصورية منتقلا إلى المهديّة، ليلتين بقيتا من شعبان، وفي أول يوم من رمضان، انتهت العرب مدينة القيروان وخربتها، وكانت من أعظم مدن الدنيا،

(1) عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 254.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 200.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 26.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 219.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 294.

(6) نص جديد عن فتح العرب للمغرب، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد2، مدريد، 1954، ص6.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 200.

وذكر أبو عبيد أنه انتهى ما ذبح بها من البقر خاصة في اليوم الواحد سبعمائة رأس وخمسين رأسا وقال: في سنة 52هـ، بنيت القيروان وأخليت⁽¹⁾

أما نص البكري، فهو كما يأتي:

[... وأحصي ما ذبح بالقيروان في بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة فأنتهى تسع مائة وخمسين

رأسا... وسنة اثنتين وخمسين سببت القيروان وأخليت، ولم يبق فيها إلا ضعفاء أهلها...]⁽²⁾

بلا شك أن هذه الاختلافات قد تعود إلى منهج ابن عذاري في الاختصار، ولكن في طياتها نجد أخطاء ومعلومات مغايرة للنص الأصلي، وفي نفس الوقت لا يمكن أن نجزم بمسؤولية ابن عذاري الكاملة، فرما يكون قد نقل من نسخة أخرى غير هذه التي طبع عنها النص، أو أن النسخ الذين نسخوا الكتابين قد وقعوا في هذه الأخطاء.

كما يذكر ابن عذاري أيضا إلى جانب اقتباساته من البكري قطعا أخرى من كتاب يحمل اسم «المسالك»، وينسبه إلى رجل مجهول يسمى الإشييلي، ولم يرد ذكر لهذا المؤلف إطلاقا، ولا لكتابه في مقدمة ابن عذاري عن مصادره، ولكنه يشير إليه مرتين.

- الأولى: عند ذكره لاستقرار البربر في المغرب⁽³⁾

- الثانية: حين تعرضه لحملة عقبة بن نافع على المغرب الأقصى⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 294.

(2) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 26.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 20.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 27.

4. كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» لمحمد بن محمد بن عبد الله إدريس الإدريسي (ت560هـ / 1166م)

ومن الكتب الجغرافية الأخرى التي استفاد منها ابن عذاري هذا التأليف المذكور أعلاه والذي نسب لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، المعروف بالشريف الإدريسي، ألفه للملك النورماندي روجر الثاني، وسماه باسمه، فصار يعرف أيضا باسم «الكتاب الرجاري» أو «كتاب رجار»⁽¹⁾ ويشير إليه ابن عذاري أيضا بهذا الاسم، فيقول: [قال رجار في كتابه...]، وموضوعها نسب بني مرين ومساكنهم⁽²⁾، وبالتالي تتركز نقولاته من هذا الكتاب عن استقرار البربر في المغرب العربي والبحث في أصولهم وأنسبهم.

وقد عرض بشكل خاص إلى بني مرين واستقرارهم وراء تلمسان، وأرجع نسبهم إلى قبيلة زناتة، كما أنه أشار إلى أصل هذه القبيلة، وجعل منتسبها من المغرب الصراح، لكنهم تبرروا بالمجاورة والمخالفة للبربر⁽³⁾

وبمقارنة هذه المادة بالمطبوع من «نزهة المشتاق»، نجد أنها نقلت فعلا من هذا الكتاب، ولكن بقليل من التصرف والاختصار، على منهج ابن عذاري المعروف لدينا⁽⁴⁾

4-1- الروايات الشفوية: وهي التي تناقلها الناس عبر العصور، والتي يمكن أن تتصل بشهود العيان للحادثة التاريخية.

وقد اعتمد ابن عذاري على بعض الروايات الشفوية، فقد لمح ذلك في مقدمة كتابه يقول: [ومن

شيوخ أخذت الأخبار الوقتية (الظرفية) عنهم بتحقيق]⁽⁵⁾

(1) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 256.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 66.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 66، 200.

(4) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر: هنري بيرس، الجزائر، 1957، ص 6061.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 3.

لكن من الثابت أن اعتماده هذا كان على نطاق ضيق في هذه المرحلة بالذات من كتابه، وهو يزداد بطبيعة الحال، حين نبذه يتحدث عن أمور كانت قريبة جدا من عهده، حيث نقل عن شيوخ رويوا عن شهود عيان للأحداث التاريخية.

أما عن الفترة الزمنية التي هي مجال اهتمام هذا البحث، فإن مؤرخنا يقدم لنا بعض المعلومات الدقيقة عن حملة عقبة بن نافع الفهري على المغرب الأقصى ووادي السوس.

ويستشهد في هذه المعلومات بشيخ من أهل مراكش، وهذا معاصر له يسميه بالشيخ الصالح أبي علي صالح بن أبي صالح⁽¹⁾

ومن حسن حظنا أن صاحب كتاب مفاخر البربر، قد خص هذا الرجل بالذات بترجمة وافية، واعتبره من مشاهير علماء البربر في الفقه وعلم التاريخ، فهو يدعى بابن علي صالح بن عبد الحليم، نزيل مدينة نفيس بالمغرب من مراكش، وكان ما يزال على قيد الحياة سنة (712هـ/1312م).

اشتهر بالعلم والعبادة والعفاف، وهو يرجع في نسبه إلى قبيلة إيلان من المصامدة⁽²⁾

ومما يجب أن يشار إليه أيضا أن أحد أبناء هذا الشيخ، ويدعى عبيد الله بن صالح، كتب نصا عن فتح العرب للمغرب، نشره المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في العدد الأول من مجلة أرابيكا، مع ترجمة فرنسية.

كما أعادت صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد نشره مع تعليق للدكتور حسين

مؤنس، وترجمة مقدمة بروفنسال إلى العربية⁽³⁾

كما نجد أن هناك تشابها في الرواية التي يقدمها ابن عذاري عن الفتح العربي للمغرب، مع رواية

عبيد الله بن صالح، لاسيما المتعلقة بأعمال عقبة بن نافع في المغرب الأقصى⁽⁴⁾، وربما السبب في ذلك

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 27، 28.

(2) مجهول مؤلف مفاخر البربر، نشر: ليفي بروفنسال، ص 75.

(3) نص جديد عن فتح العرب للمغرب، ص 193، 239.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1 ص 27، 28، قارن، المصدر السابق، ص 218، 220.

يعود إلى أن مورد أخبارهما واحد، وهو والد عبيد الله بن صالح، الذي عاش في مراكش زمن تأليف ابن عذاري لكتابه في حدود (712هـ/1312م)⁽¹⁾

كما نجد هناك روايات شفوية أو بعض الإشارات الأخرى التي اعتمدها ابن عذاري في مؤلفه عن هذه الفترة، وبلا شك يكون قد استقاها من شيوخ معاصرين له، حيث نجده يشير إليهم أحيانا بعبارة: [ويذكر أشياخنا] منها حديث عن مدينة سبتة وفضائلها⁽²⁾، ومنها أيضا رواية عن رجل من بني هاشم بن عبد المطلب، يدعى أحمد بن عبد الله، كان سجلماسة مع عبيد الله المهدي⁽³⁾

4-2- كتب الحديث.

1. كتب محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ/870م)

هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله الجعفي البخاري الإمام المحدث صاحب الجامع الصحيح والتاريخ.

ولد يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة أربعة وتسعين ومائة⁽⁴⁾

ظهرت آثار نجابته منذ الصغر إذ ألهم حفظ الحديث وعمره لا يتعدى العشر سنوات⁽⁵⁾

رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، فكتب بخراسان، وبالجزبال والمدن العراقية كلها،

وكذا بالحجاز والشام ومصر، واجتمع إليه أهلها، واعترفوا بفضله وشهدوا بتفردده في علم الرواية والدراية⁽⁶⁾

(1) ينظر: مقدمة بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، ص 10، 15.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 202، 203.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 139.

(4) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 2، ص 4، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 190.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 393.

(6) الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ج 2، ص 4، ابن خلكان، المصدر السابق، ج 4، ص 189.

وكان البخاري يقول: [كتبت عن ألف وثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث]، وكان يقول أيضا: [كتبت عن ألف شيخ وأكثر، من كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر، ما عندي إلا أذكر إسناده]⁽¹⁾

وقد نقل الخطيب البغدادي ثناء العلماء وأهل الحديث على البخاري من البصريين وأهل الحجاز والكوفة وأهل بغداد وأهل الري وأهل خراسان وما وراء النهر⁽²⁾

قال نعيم بن نعيم: [محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة، وكان أبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير يقولان: ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل]⁽³⁾

توفي الإمام البخاري يوم السبت بعد صلاة العشاء ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين⁽⁴⁾ أما الحديث عن مؤلفاته فنجد للبخاري كتاب «الصحیح»، وهو من أشهر كتبه صنفه من ستمائة ألف حديث.

قال البخاري: [ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين]⁽⁵⁾ ومن نقولات ابن عذاري عن الإمام البخاري، فقد نقل عنه نصا واحدا، وإن لم يذكره ضمن المصادر التي نقل عنها في مقدمة كتابه⁽⁶⁾

والحديث الذي نقله في الجزء الأول صفحة ستة: وهو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يمدح فيه الجند من أهل المغرب⁽⁷⁾ [ستكون فتنة خير الناس فيها الجند الغربي]

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص 394، 407.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج2، ص 1624.

(3) الذهبي، المصدر السابق، ج12، ص 416421.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 190.

(5) الذهبي، المصدر السابق، ج12، ص 402.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3.

(7) بحضنا جيدا في صحيح البخاري والكتب الثمانية الأخرى ولم نجد له أثرا.

2. كتب مسلم بن الحجاج: (ت 261هـ/875م)

هو مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، صاحب المسند الصحيح، وأحد الأئمة الحفاظ، وأعلام المحدثين، ولد سنة أربع ومائتين، رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر⁽¹⁾ وعد الذهبي من شيوخه مائتين وعشرين رجلا اخرج عنهم في «الصحيح»⁽²⁾

كما يعد الإمام مسلم أحد حفاظ الدنيا الأربعة، ذكر ذلك الخطيب البغدادي قال: [حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري ومسلم بن الحجاج بنيسابور، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل البخاري بخارى]⁽³⁾

وأثنى العلماء عليه فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: [كان ثقة من الحفاظ له معرفة بالحديث سئل أبي عنه فقال صدوق]⁽⁴⁾

وقال الذهبي عنه: [هو الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة الصادقة]⁽⁵⁾

توفي الأمام مسلم في شهر رجب سنة احدى وسيتين مائتين بنيسابور عن بضع وخمسين سنة⁽⁶⁾ ومن تصانيفه، يشتهر الأمام مسلم بكتاب «الجامع الصحيح»، ويعتبر من أعظم ما صنفه.

قال الإمام مسلم: [صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة]⁽⁷⁾

وجمع فيها اثني عشر ألف حديث وكتبها في خمس عشرة سنة⁽⁸⁾

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص 100، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 194.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص 561.

(3) الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ج2، ص 16.

(4) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ج8، ص 182، 183.

(5) الذهبي، المصدر السابق، ج12، ص 557.

(6) المصدر نفسه، ج12، ص 580.

(7) الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ج13، ص 101.

(8) الذهبي، المصدر السابق، ج12، ص 556.

وقد تقبلت الأمة كتابه بالقبول قال ابن حجر⁽¹⁾: [حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث أن بعض الناس كان يفضل على صحيح محمد بن إسماعيل وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى] ونقل ابن عذاري عن كتاب الإمام مسلم نصا واحدا ولكنه لم يذكره ضمن المصادر التي اعتمد عليها⁽²⁾

والحديث الذي نقله ابن عذاري⁽³⁾ عن الإمام مسلم يبين أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة⁽⁴⁾

1-6-سادسا: "نصوص متنوعة"⁽⁵⁾

من بين مصادر ابن عذاري وجدنا مجموعة من النقول عن روايات شفهية أغلبها قديم وليس معاصرا للمؤلف، حيث لا نعرف لهؤلاء الأشخاص المروي عنهم كتبنا في التاريخ ولم نعثر على المصادر التي نقلت هذه الروايات، لذلك قررنا أن نجتمعها هنا ونرتبها على الترتيب الزمني لأصحابها وهي:

1. نصوص لشبيل الترجمان (أواخر القرن الثاني الهجري/ أوائل القرن التاسع الميلادي)

دققنا في المصادر لم نجد ترجمان أو ترجمة وافية لشبيل الترجمان، وقد ذكر ابن عذاري⁽⁶⁾ في حوادث سنة (190هـ/805م) أنه حينما فتح الخليفة هارون الرشيد مدينة هرقله، فوجد على بابها لوح رخام مكتوب فيه بلسانهم، فجعل يقرأ ما كتب فيها والخليفة ينظر إليه دون أن يشعر.

(1) الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ج13، ص 101.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2، 3

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 6.

(4) رواه الإمام مسلم في كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق 68/13 ونصه: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"

(5) نقل ابن عذاري مجموعة من نصوص مختلفة لم يسميها لكنه سمى الراوي فيها.

(6) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج1، ص 177178.

كما يقول د. عبد الواحد⁽¹⁾: [من المحتمل أن هذه الرواية منقولة عن مصدر مشرقى ولكن الطبري لا يشير إليها، ولا إلى اسم هذا الرجل في حوادث سنة 190هـ/805م]، ولكن من جهة أخرى نجد الطبري يورد في حوادث سنة 202هـ/817م، اسما آخر مشابها هو (شيل) ويكتبه بصاحب السلية؟ ويذكر أنه كان غلاما في ذلك الوقت.

2. نصوص لعبد الله بن أبي حسان (ت 227هـ/842م)

هو عبد الله بن أبي حسان اليحصبي أبو محمد، واسم أبي حسان يزيد بن عبد الرحمن وقيل اسمه: [عبد الرحمن وهو من أشرف إفريقية بشرف أبيه، وبيته وفقهه وأدبه. وكان يسكن بالقيروان بحارة يحصب المنسوبة إليهم]⁽²⁾

ولد سنة مائة وأربعين 140هـ/757م

قال ابن فرحون⁽³⁾: [كان ابن أبي حسان غاية في الفقه بمذهب مالك، حسن البيان عالما بأيام العرب وأنسابها، رواية للشعر قائلا له، وعنه أخذ الناس أخبار إفريقية وحروبها، وكان جوادا مفوها قويا على المناظرة، ذابا عن السنة، متبعا لمذهب مالك، شديدا على أهل البدع، قليل الهيبة للملوك، لا يخاف في الله لومة لائم].

توفي عبد الله بن أبي حسان سنة سبع وعشرين ومائتين⁽⁴⁾

ذكر ابن عذاري نصا عن عبد الله بن أبي حسان بقوله: [قال عبد الله بن أبي حسان: وتحدث هذه الرواية⁽⁵⁾ عن المعركة التي قادها حنضلة بن صفوان والي إفريقية والمغرب من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ضد البربر الخوارج الصفرية وزعيمهم عكاشة الصفري الخارجي، والتي انتهت بهزيمة البربر الخوارج وأسر زعيمهم].

(1) موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 258.

(2) الوزير السراج، الحلل السندسية، ج 1، ص 737738.

(3) الديباج المذهب، ج 1، ص 418419.

(4) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 156.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 58.

من الملاحظ أن ابن عذاري لم يرو النص مباشرة عن عبد الله بن أبي حسان رغم أنه أورد النص بقوله قال: [ومما يزيد من الشكوك أكثر أن ابن عذاري نقل الرواية عن شخص من معاصريه أو نقلها من كتاب ربما لم يذكر عنوانه].

3. نصوص لأبي بكر بن عبد الرحمن الخولاني (ت 432هـ/1041م)

هو أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله أبو بكر الخولاني القيرواني النحوي من أهل القيروان شيخ المالكية، ومفتي القيروان رفيق أبي عمران الفاسي⁽¹⁾

[كان فقيها حافظا ديناً، حاز الذكر ورياسة الدين في المغرب مع صاحبه في وقته، حتى لم يكن لأحد معهما في المغرب اسم يعرف]⁽²⁾

قال الدباغ⁽³⁾: [كان أحد الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعدودين، أجمع أهل عصره على أنه لم يكن في وقته أحفظ منه، مع اجتهاد في العبادة وقيام الليل وصيام النهار ورقة القلب وغزارة الدمع وكثرة الصدقة وإجابة الدعاء]

قال الذهبي⁽⁴⁾: [كان رأساً في المذهب، واسع الأدب ذا تأله وصلاح وتعبد]

توفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

نقل ابن عذاري⁽⁵⁾ عن أبي بكر بن عبد الرحمن ولم يصرح باسمه كاملاً ولعله هو صاحب الترجمة وهي تتعلق بأخبار الأذفونش ملك قشتالة أخزاه الله.

وذكره مرة أخرى [قال ... أبو بكر]⁽⁶⁾، ويظهر أنه صاحب الترجمة، والرواية تتعلق بأعمال أبي

حفص عمر بن يوسف بن تاشفين.

(1) السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص 324، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص519.

(2) ابن فرحون، المصدر السابق، ج1، ص 177178.

(3) معالم الإيمان، ج3، ص 165.

(4) الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص 520.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 50.

(6) المصدر السابق، ج4، ص 66.

التساؤل المطروح: هل نقل ابن عذاري هذين النصين بواسطة الرواية أو بواسطة كتاب تاريخ لم يذكر عنوانه ولا مؤلفه؟ وهذا الذي لا يمكننا الإجابة عنه.

4. نصوص لمحمد بن عون الله:

ذكره ابن عذاري ونقل عنه في عدة مواضع، ولم نجد له ترجمة وافية فيما توفر بين أيدينا من مصادر.

أما نقولاته فهي:

ج3: 10- خبر ارتفاع منزل المظفر عبد الملك بن أبي عامر عند ملوك الأعاجم وأنه نال منزلة عظيمة عنده.

14- كلام المنجمين في غزوة المظفر عبد الملك الخامسة إلى بلاد قشتيلة.

15- خبر تسمية الحاجب عبد الملك بن أبي عامر (بالمظفر بالله)، وذلك إثر عودته من غزوته، وبعد أن فض فيها جموع المشركين، وجيوش النصرانية.

32- ذكر طرف من محاولة قتل عبد الملك بن أبي عامر.

39- خبر تألف عبد الرحمن بن أبي عامر لهشام الخليفة وغيرها من الأمور التي كانت سبب الفتنة.

46- خبر تقبل عبد الرحمن بن أبي عامر التهنة بعد أن عقد لنفسه ولاية عهد المسلمين على الخليفة هشام بن الحكم.

62- خبر نزول أهل مدينة الزاهرة لأمان محمد بن هشام. ثم تملك عبد الجبار بن المغيرة قصر الزاهرة وانتهاج العامة للمدينة.

66- من أخبار مقتل عبد الرحمن بن أبي عامر.

68- من أفعال عبد الرحمن بن أبي عامر الدالة على فساد.

69- نص آخر في مقتل عبد الرحمن بن أبي عامر.

5. نصوص لأبي علي صالح بن أبي صالح (ت 726هـ/1325م)

هو أبو علي صالح بن أبي صالح عبد الحلیم الإيلائي المصمودي نزيل مدينة نفيس بالقرب من مراكش، وهو يرجع في نسبه إلى قبيلة إيلاان من المصامدة⁽¹⁾، واسم مؤلفه «كتاب الأنساب». ويذكر الأستاذ المنوني⁽²⁾ الكتاب منسوب خطأ لابن حيان.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أبناء هذا الشيخ، ويدعى عبيد الله بن صالح، كتب نصا عن فتح العرب للمغرب، نشره المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في العدد الأول من مجلة أرايكا، مع ترجمة فرنسية، وقد أعادت صحيفة المعهد للدراسات الإسلامية بمدريد نشره مع تعليق للدكتور حسين مؤنس وترجمة مقدمة بروفنسال إلى العربية⁽³⁾.

وقد ذكر أبو علي بن أبي صالح صاحب كتاب مفاخر البربر كمعاصر له، ووصفه بالعلم والصلاح، كما نقل عن أبي علي صاحب كتاب بغية الرواد⁽⁴⁾.

أما عن نقولات ابن عذاري عن أبي علي بن أبي صالح، فعددتها ستة وهي:

ج1: 27- خبر حضور عقبة بن نافع بناء ثلاثة مساجد فقط بالمغرب.

67- سير عقبة من إيجلي حتى وصل ماسة ودخوله بفرسه الماء وتسليمه على قدم يونس!

28- ذكر الطريق الذي سلكه عقبة عند عودته من بلاد جزولة.

ج2: 5- خبر نسب طارق بن زياد.

ج4: 69- خبر قتل محمد بن تومرت هزميرة تيخل وقتل وصلب الفقيه الإفريقي لاعتراضه على ذلك.

ج5: 229-230- خبر قيام أمير المؤمنين يعقوب المنصور شراء أرض مراكش من أصحابها.

(1) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقية، ص 261.

(2) المنوني، المصادر العربية لتاريخ العرب، ج1، ص 68.

(3) عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 262.

(4) المنوني، المصدر السابق، ج1، ص 68.

1-7-7- سابعا: شخصيات لم نجد لها تراجم وافية فيما تيسر لنا من مصادر ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب»:

1. الإشبيلي: ذكره ابن عذاري وذكر كتاب «المسالك»⁽¹⁾، إلا أننا لم نهند لشخصيته وقد نقل عنه روايتين وهما:

ج1: 20- خبر اصطلاح الإفرنج والبربر على أن يسكن البربر الجبال وتسكن الأفرنج الأوطئة.

27- ذكر أن المسجد الذي على وادي نفيس بناه عقبة بن نافع.

2. أبو الحسن الخولاني المعروف بالحداد:

ج1: 298- ذكر بعض أبيات من قصيدة قالها أبو الحسن الخولاني الحداد في معد ابن اسماعيل العبيدي، وذكر أيامه ووقائع وصفة حالة في خلوجه من القيروان.

3. يوسف بن هشام:

ج2: 17- خبر انتهاء موسى بن نصير في افتتاحه للأندلس إلى قم، فوجد في صدره مكتوبا «يابني إسماعيل فإلى هنا منتهاكم...»

4- أبو شيه الصدي:

ج1: 18- ذكر امتلاء أيدي الناس من غنائم فتح بلاد الأندلس بالذهب والفضة واللؤلؤ.

5. ابن عيسى:

ج2: 46- خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية للأندلس.

6- القاضي أبو معاوية:

ج2: 66- من أخبار الإمام هشام بن عبد الرحمن بالأندلس وتواضعه.

7. شعله:

ج2: 298- خبر الحديث الذي دار بين شعله والمنصور بن أبي عامر.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 20.

8. محمد بن عبد الرحمن:

ج3: 23- ذكر تاريخ الغزوة السابعة من غزوات المظفر عبد الملك سنة (398هـ/1077م).

9. أبو عبد الله محمد بن سعيد الخزرجي:

ج4: 57- من أخبار خواء بنت تاشفين.

10. ابن يجير:

ج5: 18- الأحداث التي وقعت بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين

:20- أحداث حصار مراکش من قبل الموحدين ومقتل تاشفين بن علي.

11. أبو الحسن بن أبي محمد:

ج5: 82- خبر جواز عبد المؤمن بن علي في صدر دولته إلى الأندلس وتوجيهه الجيوش إلى بلاد العدو.

12. أبو عبد الله داودوش:

ج5: 59- من أخبار نكبة الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية ومقتله، وذكر شيء من شعره ونثره.

ج5: 229- ذكر أبيات للعباس الجراوي لما سمع أن أخا المنصور كان طامعا في الولاية.

13. أبو القاسم بن أبي هارون:

ج5: 70- خبر حضور أبي القاسم بن أبي هارون ضمن الوفد الذي أقام بجبل طارق تحت إنعام وإكرام عبد المؤمن عند جوازه إلى الأندلس سنة (555هـ/1160م).

14- أبو الحسين بن أبي محمد الشربشي المؤرخ:

ج5: 165- رأي الشربشي في سبب موت أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

15. الشيخ أبو الوفاء عدل:

ج5: 232- خبر جلوس المنصور ذات يوم في رياضه الكبير، وبين يديه جميع أولاده وحديثه معهم.

16. الحاج ابن مرينه:

5: 235- خبر بعض المشاركة أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام ثم ذكره أن قبره بتينمل.

17. أبو محمد البسطي:

5: 242- ذكر بعض من أنكر ونسب إلى الخليفة المرتضي الموحدي.

الفصل الثالث:

طريقة ابن عذاري في التعامل مع المصادر والتعليق على المادة التاريخية.

أولاً: طريقة ابن عذاري في النقل من المصادر.

1-أ: أسس انتقاء المادة التاريخية.

1-ب: كيفية التوثيق والاقتباس من المصادر.

1-ج: الإحالة على الموضوعات السابقة واللاحقة.

1-د: نقل المشاهدات وتوثيقها.

ثانياً: عرض المادة التاريخية والتعليق عليها.

2-أ: أخبار الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول.

2-ب: تناول تاريخ الدول الكبيرة.

2-ج: تناول تاريخ الدول الصغيرة.

2-د: عرض الحادثة التاريخية الهامة.

أولاً- منهج ابن عذاري في التعامل مع المصادر:

أ- أسس انتقاء المادة التاريخية:

من الثابت أنه يمكن لأي باحث أو دارس لكتاب البيان المغرب أن يخرج ببعض القواعد والأسس التي تبين لنا اختياره للمادة التاريخية.

النقل من المصادر:

ذكر ابن عذاري في مقدمة كتابه قائمة بالمصادر التي اعتمدها في تأليفه للكتاب، والتي بلغت خمسين مصدراً، غير النصوص الأخرى التي نقلها دون أن يذكر مصدرها وهي ستة، وسبعة عشر شخصية نقل عنها ابن عذاري والتي لم نجد لها في ثنايا المصادر تراجم وافية.

فهذه المصادر التي نقل عنها ابن عذاري بعضها فقد واندثر، فتميز كتاب البيان المغرب من هذه الناحية أنه احتفظ بنصوص من كتب ومؤلفات تعتبر في عداد الكتب المفقودة.

وبحكم أن الفترة الزمنية لموضوع الكتاب طويلة، كما أن الرقعة الجغرافية التي تغطيها واسعة جداً، فمن البديهي أن نجد مؤرخنا اعتمد على هذه القائمة الكبيرة من المصادر، وبالتالي فنقله للأخبار غالباً ما تكون مجردة بدون سند وإنما تلميح فقط إلى مصادرها.

الدقة في نقل مضمون الخبر:

لقد تأكد لدينا من خلال منهج ابن عذاري في التعامل مع المصادر ذلك الحرص الكبير الذي كان يوليه للنقل من المصادر حرفياً أو قريباً منه إذا لخصه فمثلاً نجد أن نقولات عديدة مطابقة للقطعة التي حققها الدكتور المنجي الكعبي لكتاب الرقيق⁽¹⁾، وأحياناً نجد مختصر النص أو يقدم ويؤخر بعض أجزائه لكن مع الاحتفاظ التام بمضمونه.

(1) د/ عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن شمال إفريقيا، ص 219.

فأثناء مقارنة بعض النصوص التي نقلها عن أبي عبيد البكري نجد بعض الاختلافات في الشكل والمضمون⁽¹⁾

بالإضافة إلى الاختصار والتلخيص للنصوص عند نقلها، حيث نجد مؤرخنا يذكر الأحداث المهمة في الموضوع، وحذف عبارات التبجيل والإطراء والألقاب، وبعض العبارات المجازية كما فعله مثلا مع نصوص ابن صاحب الصلاة⁽²⁾

الاختصار في سرد الأخبار:

وهذه العملية كانت قيمة ثابتة في شخص ابن عذاري، حيث كان منهجا سار عليه منذ بداية تأليفه للكتاب، حتى أنه سمي كتابه «البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب»، حيث شرط على نفسه أن يوجز في ذكر الأخبار، فقد قال في مقدمة كتابه: [طلب بعضهم ألي ممن يجب إكرامه على أن أجمع له كتابا مفردا في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار... فجمعت له في هذا الكتاب نبذا ولمعا من عيون التواريخ... جمعت ذلك من الكتب الجليلة مقتضبا من غير إسهاب ولا إكثار فاقتطفت عيونها... فإن كنت اقتصرت فيما اختصرت فعذرا فيما ظهر من تقصير...]⁽³⁾

وكثيرا ما كان يذكر قراء الكتاب بأنه يلتزم الاختصار والإيجاز.

فقد ذكر في أخبار خبر أن الفتى المنتزي على مدينة ألمرية، وانضواء جميع فتيان محمد بن أبي عامر وفحولهم وخصيانهم إليه [ولهم في هذه الأمور حروب أعرضنا عن ذكرها لما شرطناه من الاختصار]⁽⁴⁾

كما قال-أيضا- في أخبار دولة المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الأفضس قال: [وأقام هذا الرجل ملكا عظيما بهذا الثغر الجوفي - بطليوس وشتنترين والأشبونة - ضاهى فيه مصاحبة ابن عباد

(1) المرجع السابق، ص 253.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: 63/5، 64، 69، 70، 92، 105، 108.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص ص 25.

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 166.

وابن ذي النون وكانت بينهم حروب وغارات ومهادنات وغير ذلك من الأخبار تركنا ذكرها للاختصار الذي شرطناه⁽¹⁾

بل جعل ابن عذاري الاختصار في الكتاب مذهبه، فقد ذكر في أخبار عن عبد الرحمن الناصر على الجملة قال: [وقد نظم ابن عبد ربه في غزواته أرجوزة في سنة 301هـ/913م إلى سنة 322هـ/933م]

وقد أطال الشعراء في مدحه وأطنبوا في شكره، ولولا أن الناس مكتفون بما في أيديهم منها لأعدنا هنا ذكرها أو ذكر بعضها، ولكن المذهب هنا الاختصار والإيجاز⁽²⁾

فالتساؤل الذي يمكن طرحه: ما هو سبب الاختصار؟

فالجواب على هذا التساؤل يؤدي بنا إلى العودة إلى بعض الاقتباسات من كتاب البيان المغرب في أن ذلك هو مخافة التطويل الذي قد يؤدي إلى الملل، فقد قال في أخبار برغواطة وارتدادهم عن الإسلام، ومحاوله الصفيرية استباحة مدينة القيروان وهم في اثني عشر ألف مقاتل فهزمهم الله بأهل القيروان فخيرهم طويل يمنع من إيراده هنا خيفة التطويل⁽³⁾

وفي حوادث (سنة 308هـ/920م) ذكر بعض من مات على أيدي العبيدين الشيعة، ومات جماعة من التجار ومن خدم السلطان ومن الأطباء ممن يطول الكتاب بذكره⁽⁴⁾

وكذا في ذكر ابتداء دولة صنهاجة وأخبار المعز بن باديس ومدح الشعراء له كابن رشيق والقرشي وابن شرف وغيرهم يطول الكتاب بذكرهم⁽⁵⁾

(1) المصدر السابق، ج3، ص 237.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 225.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 57.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 183.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 297، 298.

ومن العبارات التي تدل على اختصاره مثل ما جاء في خبر عرس المعز بن باديس قال: [ما تمياً قد لأحد من ملوك الإسلام، وقد شرحه الرقيق في كتابه، وتركناه اختصاراً]⁽¹⁾ وعند ذكره للمسجد الجامع بقرطبة قال: [فالواجب أن نذكر أول من أحدثه من تولي بناءه من ملوك بين أمية على سبيل الاختصار]⁽²⁾

كما كان ابن عذاري يذكر الاختصار في عناوين الموضوعات التي يتناولها فمثلاً:

- «تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حيث بنائها على الجملة إلى هذه المؤرخة»⁽³⁾
- «غزوة شنت ياقوت على سبيل الاختصار»⁽⁴⁾ وهي من غزوات المنصور بن أبي عامر.
- تلخيص التعريف بتاريخ من ملك سرقسطة وبعض أخبار البلاد الشرقية من بني هود رحمهم الله إلى هذه السنة⁽⁵⁾
- تلخيص التعريف بتاريخ من ولي اشبيلية من مشاهير اللمتونيين المرابطين من حين استيلائهم عليها إلى انقراض دولتهم⁽⁶⁾
- اختصار الخبر بحركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام ومقتل تاشفين أمير أهل اللثام⁽⁷⁾
- اختصار الخبر عن فتح وهران⁽⁸⁾
- تلخيص بدخول الموحدين للأندلس أولاً⁽⁹⁾

(1) المصدر السابق، ج1، ص 270.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 229، وينظر أيضاً: ج3، ص 237، ج4، ص 217، ج5، ص 30، 82، 288.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 176.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 294.

(5) المصدر السابق، ج4، ص 540.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 105.

(7) المصدر السابق، ج5، ص 16.

(8) المصدر السابق، ج5، ص 22.

(9) المصدر السابق، ج5، ص 34.

- ذكر ما حدث على أهل إشبيلية من الحوادث عند فتح الموحدين لها على جهة الإيجاز والاختصار⁽¹⁾

- اختصار الخبر بفتح غرناطة وأخذها من اللمتونيين⁽²⁾، وغيرها كثير⁽³⁾

كما نجد ابن عذاري يذكر أحيانا القارئ في نهاية الخبر بأن نقله كان مختصرا كقوله: [انتهى ما

لخصته من كتاب ابن سعدون]⁽⁴⁾، [انتهى ما اختصر من أخبار عبد المؤمن رحمه الله تعالى]⁽⁵⁾

أو يذكر اختصاره في بداية تناوله للموضوع كتمهيد، مثل ما قاله عن الدولة اللتونية: [وفي

ابتداء هذه الدولة اللتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه]⁽⁶⁾

وقال عن الرسالة التي أرسلها الأمير أبو زكرياء إلى أهل إشبيلية: [وهذه الرسالة التي أذكرها هنا

مختصرة، إن شاء الله تعالى]⁽⁷⁾، أو قوله: [قام نائر ببلاد السوس اختصرنا خبره بحول الله تعالى]⁽⁸⁾

كما اختصر ابن عذاري حوادث بعض المسنين، كما فعل ذلك في حوادث (سنة

151هـ/768م - 153هـ/770م).

وقال: [وكانت مدة هذه الأهوال والفتن التي اختصرناها هنا مجملة في نحو ثلاثة أعوام... ولم

يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151هـ إلى 153هـ بعدها سنة ستة: فأجملت أمرها هنا

إجمالا مختصرا يغني عن إعادتها في كل واحد منها]⁽⁹⁾

(1) المصدر السابق، ج5، ص 35.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 55.

(3) المصدر السابق، ج5، ص ص 34، 35، 55، 114، 132، 147، 155، 175، 218، 248، 290، 302، 304، 350، 352، 361، 370، 384.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 287.

(5) المصدر السابق، ج5، ص 82.

(6) المصدر السابق، ج4، ص 17.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 378.

(8) المصدر السابق، ج5، ص 30.

(9) المصدر السابق، ج 1، ص ص 71، 76.

ب- طريقته في التوثيق والاقتباس من المصادر:

لقد وجدنا عند ابن عذاري عدة أساليب في ذكر اسم المصدر واسم مؤلفه، حيث كانت سبيلا في التوثيق ورواية الأخبار.

ذكر اسم المؤلف:

إن أغلب نقولاته من المصادر يقدم عليها اسم صاحب المصدر باسمه الصريح، فمثلا:

قال: [حيان بن خلف]⁽¹⁾، وقال: [محمد بن عون الله]⁽²⁾، وقال: [إبراهيم بن القاسم]⁽³⁾، أو بالكنية فمثلا: قال: [ابن القطان]⁽⁴⁾، وقال: [ابن بسام]⁽⁵⁾، وقال: [ابن حمادة]⁽⁶⁾، أو باللقب فمثلا: قال: [الوراق]⁽⁷⁾، أو قال: [البيذق]⁽⁸⁾، أو قال: [البلاذري]⁽⁹⁾، أو صفة أصبحت لازمة وكأنها لقبه مثلا: أو قال: [ابن صاحب الصلاة]⁽¹⁰⁾،

ذكر اسم الكتاب دون اسم المؤلف:

مثلا: [ومن كتاب الاقتضاب قال]⁽¹¹⁾، وأيضا: [ومن كتاب الأنباء في سياسة الرؤساء اقل]⁽¹²⁾

(1) المصدر السابق، ج 3، ص 8، 9، 18، 27.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 10، 14.

(3) المصدر السابق، ج 3، ص 84.

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 134، 199، ج 4، ص 68، 75.

(5) المصدر السابق، ج 3، ص 162، 206.

(6) المصدر السابق، ج 4، ص 59.

(7) المصدر السابق، ج 4، ص 228، 258.

(8) المصدر السابق، ج 4، ص 100.

(9) المصدر السابق، ج 1، ص 18.

(10) المصدر السابق، ج 5، ص 17.

(11) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 51، 82.

(12) المصدر السابق، ج 3، ص 259.

ذكر اسم المؤلف واسم الكتاب:

فمثلاً: [قال المسعودي في كتابه عجائب البلاد والزمان]⁽¹⁾، [قال الوراق في المقياس]⁽²⁾، إضافة

إلى تحديد الجزء أحيانا مثل: [فذكر ابن القطان في السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان]⁽³⁾،

ذكر اسم المؤلف ونسبة الخبر إلى كتابه دون ذكر عنوانه:

فمثلاً: [قال إبراهيم بن القاسم في كتابه]⁽⁴⁾، أو [قال الرقيق في كتابه]⁽⁵⁾، أو [قال يوسف بن

عمر الكاتب في كتابه]⁽⁶⁾.

هـ- لا يذكر اسم المؤلف ولا الكتاب:

مثلاً: [قال بعض المؤرخين]⁽⁷⁾، أو [اتفق جماعة من المؤرخين]⁽⁸⁾، أو [قال من له عناية

بالأخبار]⁽⁹⁾، أو [قال الراوية]⁽¹⁰⁾، أو [حدث الثقة]⁽¹¹⁾، أو [أخبرني من أثق به]⁽¹²⁾.

و- يسوق الخبر بعبارة تفيد أنه نقل الخبر مشافهة ورواية:

فمثلاً: [أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح]⁽¹⁾، أو [حدثني الشيخ أوب الوفاء

عدل]⁽²⁾، أو [أخبرني الحاج ابن مريئة]⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 45.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 249، ج 4، ص 87، 97.

(3) المصدر السابق، ج 4، ص 59.

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 39، 67، 70، 73، 75.

(5) المصدر السابق، ج 3، ص 47، 61، 117.

(6) المصدر السابق، ج 5، ص 220.

(7) المصدر السابق، ج 1، ص 60، ج 2، ص 152.

(8) المصدر السابق، ج 1، ص 82.

(9) المصدر السابق، ج 2، ص 31.

(10) المصدر السابق، ج 4، ص 50.

(11) المصدر السابق، ج 5، ص 81.

(12) المصدر السابق، ج 5، ص 414، 462.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 27، 28، ج 2، ص 5، ج 4، ص 69، ج 5، ص 229.

(2) المصدر السابق، ج 5، ص 232.

(3) المصدر السابق، ج 5، ص 235.

ز- من أساليبه في التوثيق بسرد الخبر ثم في نهايته يقول:

[هكذا ذكر ابن القطان]⁽¹⁾، أو [هكذا ذكر ابن حمادة]⁽²⁾، أو [هكذا ذكر الصيرفي في كتابه]⁽³⁾، أو [نقلت هذا من كتاب الاقتضاب]⁽⁴⁾، أو [هكذا نص غريب]⁽⁵⁾.

ي- نقله من الوثائق الرسمية:

نقل ابن عذاري في حوادث (سنة 665هـ/1266م)، بعد أن استقر الخليفة الموحي بالوثائق بالله بحضرته المراكشية بعد حركته إلى بلاد السوس: قال: [ولما ظهر للفقير القاضي أبي إسحاق بن القشاش اختلال الأمور والأحوال، وكثرت فيه وفي غيره من بعض الناس الأقوال، رفع هذا الرفع للوثائق بالله فوقع له التوقيع بما أكتبه بعد أن شاء الله تعالى، نقلته من خط ولده أبي عبد الله، والتوقيع عليه بخط أبي دبوس]⁽⁶⁾.

كما ينقل ابن عذاري أجزاء من بعض الكتب والرسائل المرسله من الخليفة أو الحاكم إلى ولاية في الأقاليم فمثلاً: [نقل فصولاً من كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى محمد بن فاطمة والي إشبيلية يحضه فيه على إقامة الحق]⁽⁷⁾، [كما نقل فصولاً من كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أهل فاس ينبئهم بدم قاضيهم ابن الملجوم وعزله عنهم]⁽⁸⁾.

كما نجد أحياناً يلخص الرسالة، ويذكر مضمونها، كما فعل في الرسالة التي أرسلها عبد المؤمن بن علي للبلدان يدعوهم النظر في مصالح المسلمين ورفع المظالم⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق، ج 3، ص 217، ج 4، ص ص 84، 94.

(2) المصدر السابق، ج 4، ص 88.

(3) المصدر السابق، ج 4، ص 78.

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 134.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص ص 17، 27.

(6) المصدر السابق، ج 5، ص 466.

(7) المصدر السابق، ج 4، ص 63، وينظر أيضاً: ج 5، ص ص 94، 267، 282.

(8) المصدر السابق، ج 4، ص 92.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 5، ص 37.

أو رسائل أرسلت دون أن ينقل نصوصا منها، وإنما يحدد تاريخها⁽¹⁾، كما نقل جزءا من الرسالة التي وجهها الناصر لدين الله الموحي معلنا بفتح حصن شليطرة⁽²⁾، ونقل جزءا من الرسالة التي وجهها الناصر لدين الله يعتذر فيها عن وقعة العقاب⁽³⁾.

ينقل الأخبار والحوادث عما شاهد أو عاين الخبر مباشرة:

من المؤكد أن ابن عذاري كان حريصا على توثيق الأخبار، ونقله للخبر عن شاهد أو عاينه مباشرة، فقد نقل عن الفقيه الكاتب أبي عبد الله التلمساني الذي كتب لأربعة خلفاء موحيين وهم الرشيد والسعيد والمرتضى والوائق⁽⁴⁾، وعاصر الأحداث في فترة حكمهم وهو كاتب في بلاد الموحيين.

كما نجد ابن عذاري قد نقل منه حدث قتل الخليفة الموحي الرشيد لمسعود بن حميدان الخلطي⁽⁵⁾، وأحداث حصار عرب الخلط وابن وقاريط الهسكوري لمدينة مراکش وبها الخليفة الموحي الرشيد⁽⁶⁾، والأحداث التي أعقبت دخول يحيى بن الناصر لمراكش ومعه عرب الخلط وهسكوره مع ابن وقاريط⁽⁷⁾.

تحديد نقولاته من المصادر بداية ونهاية الخبر المنقول:

في بداية نقله للخبر يقول: [قال ابن حيان]⁽¹⁾، ثم يسرد الخبر وفي نهايته يقول: [انتهى كلام ابن حيان]⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ج 5، ص 53، 132.

(2) المصدر السابق، ج 5، ص 261.

(3) المصدر السابق، ج 5، ص 263، وينظر أيضا: ج 5، ص 282، 285، 286، 294، 296، 339، 373، 377.

(4) المصدر السابق، ج 5، ص 299، 359، 388، 448.

(5) المصدر السابق، ج 5، ص 315.

(6) المصدر السابق، ج 5، ص 326.

(7) المصدر السابق، ج 4، ص 328.

(1) المصدر السابق، ج 3، ص 197.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 199.

ويقول أيضا: [وها أنا أذكر كلام ابن بسام وغيره]⁽¹⁾، ثم يسرد كلام ابن بسام، وفي نهايته يقول: [انتهى ابن بسام رحمه الله]⁽²⁾.

يقول أيضا: [قال ابن صاحب الصلاة] ويسرد الخبر، وفي نهاية الخبر يقول [انتهى كلامه]⁽³⁾.

ج- طريقته في الإحالة على موضوعات سابقة أو لاحقة:

لقد حرص ابن عذاري على الإحالة إلى ما سبق أن ذكره وإلى ما سوف يأتي لاحقا من الموضوعات أثناء تدوينه كتابه «البيان المغرب»، ولا يفتأ يبينه القارئ على ذلك وهذا الحرص منه إن دل فإنما يدل على ربط الأحداث ببعضها البعض، وحتى تكون الحوادث التاريخية المعروضة في أثناء الكتاب متسلسلة مترابطة الأفكار.

وقد استخدم ابن عذاري أنواعا من الإحالات هي:

أ- إحالة إلى موضوع سبق ذكره:

استعمل ابن عذاري صيغا متعددة في إحالته للموضوعات التي سبق ذكرها مثل: [كما تقدم ذكره]، [ما تقدم ذكره]، [وقد تقدم ذكره]، [كما ذكرنا]، [وقد تقدم القول]، [قد تقدمت أخباره]، [كما ذكرنا].

وللتوضيح أكثر نسوق أمثلة للاستدلال، فمثلا: ذكر ابن عذاري في فتوح إفريقية أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال لعبد الله بن سعيد بن أبي سرح: [إن فتح الله عليك إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نقلا] فلما فتح الله إفريقية (سنة 27هـ/674م) قسم عبد الله الفيء على المسلمين وأبقى الخمس لنفسه، فاشتكى أهلها فكتب إليه: [استخلف على إفريقية رجلا ترضاه ويرضونه، وأقسم خمس الخمس الذي كنت نفلتك في سبيل الأحماس، فإنهم سخطوا النفل]، ثم ورد

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 256.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 258، وينظر أيضا: ج5، ص 342، 343، ج3، ص 186، 187.

(3) المصدر السابق، ج 5، ص 164.

الخمس على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: [فكان من أمر مروان بن الحكم فيه ما تقدم ذكره]⁽¹⁾.

وذكر في أخبار الفتوح منازل معاوية بن خديج الكندي لأهل جلولاء مقاتلتهم قتالا شديدا حتى دخل المدينة عنوة واحتوى المسلمون على جميع ما فيها [كما تقدم]⁽²⁾.

وذكر في أحداث (سنة 201هـ/825م) قال: [وفيها مات ابن الأغلب كما ذكرناه]⁽³⁾.

وذكر ابن عذاري في أحداث قيام دولة الشيعة العبيدية، حينما استولى أبو عبد الله الشيعي على مدينة رقادة نزل بالقصر المعروف بقصر الصحن وبعث غرويه بن يوسف إلى مدينة سوسة، فأمن أهلها، وأتاه بالثمانية والعشرين الحمل من المال التي كانت مخزونة بقصر الرباط المتقدم ذكره⁽⁴⁾.

وذكر ابن عذاري في أخبار أمراء مدينة نكور لما تغلب عبيد الله الشيعي كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فرفضوا فأمر عبيد الله الشيعي مصالة قائده على تيهرت بالنهوض إلى مدينة نكور فحصلت بينهم وقائع حتى استطاع مصالة الدخول على مدينة نكور فقتل رجالها وسبى النساء والذراري وركل من نجا إلى مقالة، وبقي مصالة في نكور نحو ستة أشهر، ثم استخلف عليها ذلول [مكان من أمره ما تقدم ذكره]⁽⁵⁾.

كما ذكر في أحداث (سنة 148هـ/765م) ثار الجند على محمد بن الأشعث بإفريقية وسألوه الخروج عنهم [فخرج في ربيع كما تقدم ذكره]⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 14.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 18، وينظر أيضا، ج 1، ص 16، 17.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 96، كما أنه ذكر وفاة إبراهيم بن الأغلب، وينظر، ج 1، ص 95.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 150.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 179، 180.

(6) المصدر السابق، ج 1، ص 73.

وفي (سنة 153هـ/770م)، قال: [كان ما تقدم ذكره على الجملة بإفريقية]⁽¹⁾.

ب- إحواله إلى ما يذكره:

استخدم ابن عذاري صيغا متعددة في الإحالة إلى الموضوع الذي سيذكره مثل: [على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى]، [على ما يأتي ذكره]، [وسأذكر بعض أخبارهم]، [حسبما أذكره]، [على ما يأتي في موضعه]، [على ما يأتي مفسرا].

فمنها مثلا ما جاء في حوادث (154هـ/771م) أن أبا حاتم الإباضي زحف إلى القيروان، وقتل واليها عمرو بن حفص، قال ابن عذاري: [ولما بلغ المنصور قتل عمرو بعث إلى إفريقية يزيد بن حاتم، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى]⁽²⁾.

وجاء ذكر في ولاية زيادة الله بن الأغلب إفريقية أنه أساء السيرة في الجند وسفك الدماء، فخالف عليه الجند وغيرهم، فكانت بينه وبينهم حروب ووقائع حتى خاف على نفسه فحصن القصر القديم، وبقي فيه [على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى]⁽³⁾.

وذكر في ولاية أبي الغرائق، محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب الذي ولي سنة (250هـ/864م) قال: [كانت ولايته حروبا أكثرها على ما يأتي ذكره]⁽⁴⁾.

كما ذكر أنه في سنة (303هـ/915م) اضطراب أمر جزيرة صقلية على ابن قرهب، فأراد ابن قرهب جواز البحر والهرب إلى الأندلس، فقبضوا عليه وبعثوا إلى أبي القاسم عبيد الله العبيدي أن يوجه

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 77، وينظر أيضا: ج 1، ص 30، 62، 78، 222، 223، 232، 260، 282، 284، 285، 315، 316، ج 2، ص 6، 8، 13، 35، 65، 87، 114، 133، 163، 174، 207، 209، 220، 234، 272، ج 3، ص 43، 52، 84، 120، 125، 164، 192، 221، 223، 232، 240، 253، 261، 262، ج 4، ص 16، 17، 41، 51، 55، 93، 97، 104، 105، ج 5، ص 16، 23، 36، 62، 74، 80، 160، 171، 183، 190، 205، 236، 290، 292، 296، 289، 338، 344، 360، 410، 426، 432، 468.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 78.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 96، 98.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 114.

إليهم عاملاً، واشتروا في كتابهم إليه اشتراطاً أغضبه عليهم، وأغراه بهم وحرك منه لمحاصرتهم [على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى]⁽¹⁾.

وذكر أيضاً في وصف القيروان وأنها أعظم مدن المغرب إلى أن توالى الدمار عليها بدخول العرب لها على [ما يأتي ذكره في موضعه]⁽²⁾.

وذكر في حوادث سنة (327هـ/938م)، قام بالمغرب الأقصى ويقال له السوس الأدنى، وهو موضع تادلا وتامسنا، أبو الانصار بن أبي غفير البرغواطي بعد موت أبيه، وكان يفي بالعهد والوعد [وسأذكر بعض أخبارهم إن شاء الله تعالى]⁽³⁾.

كما جاء ذكر أخبار الأندلس وهو لا زال يسرد أخبار إفريقية في الجزء الأول فقال: [وفي سنة 93هـ/711م جاز موسى بن نصير إلى الأندلس، فعبر الأندلس غاضباً على طارق، ومشى على غير طريقته، وفتح فتوحاً كثيرة، يقع ذكرها، إن شاء الله تعالى، في الجزء الثاني من هذا الكتاب، في فتح الأندلس]⁽⁴⁾.

وفي ذكر أخبار بلج بن بشير القشري وانحيازه وأصحابه إلى سبته بعد هزيمتهم أمام البربر سألوا عبد الملك بن قطن أمير الأندلس إدخالهم إليها، ثم اضطر إلى إدخالهم الأندلس قال: [وذلك لسبب أشرحه في الجزء الثاني إن شاء الله وهو موضعه في أخبار الأندلس]⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 174.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 208.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 216، وينظر أيضاً: ج 1، ص 231، 232، 251، 256، 304، 312، ج 2، ص 30، 33، 60، 106، 158، 172، 209، 206، ج 3، ص 11، 36، 52، 92، 115، 127، 133، 157، 158، 167، 168، 181، 218، 230، 232، 243، 261، 262، 267، ج 4، ص 17، 31، 68، 80، 96، 103، 105، 108، ج 5، ص 16، 26، 32، 33، 45، 48، 62، 74، 92، 93، 104، 109، 122، 149، 155، 187، 243، 266، 273، 274، 276، 292، 293، 294، 296، 298، 319، 325، 327، ج 5، ص 348، 353، 356، 357، 360، 361، 365، 367، 372، 387، 389، 391، 400، 401، 406، 410، 413، 417، 424، 429، 433، 449، 451، 465، 468، 335.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 43.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 56.

وبعد دخول بلج القشيري وأصحابه الأندلس استولى بلج على الأندلس، وبقي بها أحد عشر شهرا أميرا قال ابن عذاري: [وقد شرحنا أمره في أخبار الأندلس في الجزء الثاني]⁽¹⁾.

أثناء حديثه في البيان المغرب يميلنا ابن عذاري إلى موضوع محدد فمثلا عند حديثه عن الشخصية المشبهة بهشام بن الحكم قال فيه: [...] حسبما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى عند ذكر دولة ابن عباد]⁽²⁾.

وكذلك حينما كان يستعرض أخبار الدولة الهودية قال: [وأذكر بقية الدولة الهودية في مدة المرابطين إن شاء الله تعالى]⁽³⁾.

ج- إحالته إلى كتاب «البيان المشرق».

أحال ابن عذاري في بعض أخبار المشرق الإسلامي إلى كتابه المسمى: «البيان المشرق في أخبار المشرق»، فقد ذكر ابن عذاري في حوادث سنة (30هـ/650م) سقوط خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه في بئر أريس قال: [ذكرنا خبر سقوطه في كتابنا بالبيان المشرق في أخبار المشرق]⁽⁴⁾.

وذكر أيضا في خبر مقتل محمد بن أبي بكر الصديق سنة (38هـ/658م): [وقد ذكرنا شرح مقتله في البيان المشرق في أخبار المشرق]⁽⁵⁾.

وذكر في حوادث سنة (137هـ/754م) قتل الخليفة العباسي المنصور قائده أبا مسلم الخراساني قال ابن عذاري: [وكيفية ذلك في تأريخ أخبار المشرق]⁽⁶⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 56.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 190.

(3) المصدر السابق، ج 3، ص 229.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 14.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 15.

(6) المصدر السابق، ج 1، ص 66.

وجاء في حوادث سنة (158هـ/774م) ولي الخلافة الخليفة المهدي قال: [وقد ذكرنا بعض أشعاره وأخباره في تأريخ المشرق والغرض هنا ذكر أخبار المغرب الأقصى والأوسط]⁽¹⁾.
وأورد في حوادث سنة (365هـ/975م) خبر وفاة أبي تميم المعز لدين الله العبيدي وولي الإمارة بمصر العزيز بالله نزار، ... قال: [وقد ذكرنا بعض أخباره في أمراء مصر في أخبار المشرق]⁽²⁾.

د- التمهيد للموضوع:

من خلال طريقته في الإحالات يمهّد ابن عذاري للموضوع الذي سيتحدث عنه بمقدمة مختصرة عنه، ثم يقوم بشرحه وذكر تفصيلاته في موضع آخر مثلاً عندما تطرق للحديث عن المجاعة التي أصابت مراكش بسبب حصار قبائل الخلط لها في عهد الرشيد الموحد فمما قاله ابن عذاري: [... واقشعرت الجلود من هول المكابرة في طلب شيء من أنواع الحنطة وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف إلى ثلاثة دنانير والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه وما أهمهم إلا إقامة الأود بما ينطلق عليه اسم الحنطة وتمام الشرح لهذه المجاعة يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى بعد ذكر خروج الرشيد]⁽³⁾.

ثم عقد للموضوع فصلاً فقال: [ذكر المجاعة التي كانت بمراكش عصم الله المسلمين من مثلها]⁽⁴⁾، وأخذ يفصل فيها ويشرحها.

ومثله وجدنا خبر الثائر الذي ثار على الرشيد ببلاد السوس ويدعى عبد الرحيم بن الفرس تحصن بحصن يدعى "تيونوين" الذي قال عنه ابن عذاري [فشأن هذا الحصن في الضلال والارتداد قديم وحديث وسيأتي بعض خبره أيضاً وخبر علي بن يدر في أواخر هذه الدولة الموحدية إن شاء الله تعالى]⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 80.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 229.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 5، ص 318، 319.

(4) المصدر السابق، ج 5 ص 325، 326.

(5) المصدر السابق، ج 5 ص 347، 348.

إضافة إلى خبر محاولة أذفونش أمير الملة النصرانية الغدر بالأمير أبي عبد الله بن الأحمر أمير البلاد الأندلسية، كما قال ابن عذاري: [وفي هذه السنة كان للأمير أبو عبد الله ابن الأحمر أمير البلاد الأندلسية في غاية الهدنة مع أمير الملة النصرانية اذفونش بسبب صلحها المنعقد بينهما في سنة ثلاث وأربعين، فتوجه إليه في هذه السنة واجتمع معه بخارج مدينة إشبيلية بجمعه ووافقه على ما كان وافقه عليه ودفع هديته إليه وانصرف إلى غرناطة بعد موافقته إياه ورباطه معه، وما زال من هذا العام يجتمع معه كل عام أو في بعض الأعوام إلى أن أراد أن يغدره حين وصل إليه في عام اثنين وستين على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى]⁽¹⁾، ثم ذكره مرة أخرى في حوادث سنة (662هـ/1263م) وشرحه وفصل فيه وذكر سبب انحلال الاتفاق بينهما⁽²⁾.

إذن كل الإحالات السابقة تفيد ترابط الأحداث في فكر ابن عذاري واستحضاره لها وذكره إياها في المواضع المناسبة.

د- طريقته في نقل مشاهداته:

كان ابن عذاري لا يتحدث عن شخصيته ولا حتى عن نفسه وحياته وأعماله أثناء كتابته لكتابه البيان المغرب.

فلذلك من خلال قراءتنا واستعراض كتابه المذكور لم نجد شيئاً فيه من الأهمية لمشاهداته سوى نصين هما:

أولاً: جاء في كتاب «البيان المغرب» ذكر المهديّة والقيروان وأوصافها، يقول ابن عذاري: [فكانت - أي القيروان - أعظم مدن المغرب طرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا. وكانت الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي عن الشبهات واجتناب المحارم، إلى أن توالى الدمار عليها بدخول العرب لها، على ما سيأتي ذكره في موضعه، فلم يبق بها إلا أطلال دراسة، وآثار طامسة،

(1) المصدر السابق، ج 5 ص 406.

(2) المصدر السابق، ج 5

ويذكر أنها ستعود إلى ما كانت عليه، وهي الآن في وقتنا هذا، وهو آخر المائة السابعة قد ابتدأت بالعمارة⁽¹⁾.

ثانياً: ذكر ابن عذاري في حوادث سنة (664هـ/1265م) في خبر فرار الخليفة المرتضي الموحدى ومقتله قال: [وأما أولاده - أي الخليفة المرتضي - فثقفهم أبو دبوس طول مدته إلى أن أخرجهم الأمير أبو يوسف من ثقافته في عام ثمانية وستين إلا كبيرهم أبو محمد عبد الله فإن أبا دبوس قتله في السجن بمسلة أدخلها تحت إبطه مات منها، رحمه الله تعالى.

ولما أخرجهم أبو يوسف رحمه الله من السجن توجهوا إلى الأندلس وحصلوا عند ألفنش بإشبيلية أعواماً عديدة ثم انتقلوا منها إلى غرناطة وحصلوا تحت طاعة أميرها، وهم الآن بها في عافية بمراتب شهرية يقبضونها في كل شهر وكبيرهم أبو عبد الله فيها معهم، أما أخوهم أبو زيد فوصل من الأندلس إلى السوس وهو الآن بقيد الحياة في جبل سكساوة يعيش من النسخ، وأخوه محمد بغرناطة في وقتنا هذا وهو عام اثني عشر وسبعمائة⁽²⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 208.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 447.

ثانيا- منهج ابن عذاري في عرض المادة التاريخية:

1. منهجه في عرض أخبار الدولة الواحدة وعلاقتها بغيرها من الدول:

من اللافت للانتباه أن ابن عذاري تعرض لتأريخ كثير من الدول على مختلف اتجاهاتها، وهي تلك التي قامت في بلاد المغرب وجزيرة الأندلس، وذلك من خلال كتابه «البيان المغرب» في الفترة التي أعقبت الفتوحات في إفريقية وإلى سقوط دولة الموحيدين في المغرب الأقصى. فقد كان تعامل ابن عذاري مع أخبار هذه الدولة بحسب أهميتها وطول مدة حكمها، وكذا كثرة الأخبار، فمن الدول من خصص لها جزءا كاملا من الكتاب مثل «دولة الموحيدين»، وبعضها الأخر - أي الدول الصغيرة - والتي ليس لها تأثير تاريخي هام فإنه يعاملها بقدر أهميتها المحدودة، ويذكر أخبارها في عدد محدود من الصفحات مثل الدولة الجهورية أو الهودية، وما كان وسطا بين هذا وذاك أولاه اهتماما وسطا.

ومن بين الدول التي تناولها ابن عذاري في كتابه:

- دولة الموحيدين حكمت من (515-668هـ/1121-1269م)، وخصص لها ابن عذاري 454 صفحة من كتابه المطبوع⁽¹⁾.
- الدولة الأموية في الأندلس (يتخللها حكم الدولة العامية)، والتي حكمت من (138-422هـ/755-1031م) وخصص لها 141 صفحة من كتابه المطبوع⁽²⁾.
- دولة المرابطين والتي حكمت من (451-541هـ/1059-1147م)، وخصص لها 141 صفحة⁽³⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص ص 5468

(2) المصدر السابق، ج2، ص 301، ج3، ص ص 4152.

(3) المصدر السابق، ج4، ص ص 9، إضافة إلى الملاحق التي أضافها د. إحسان عباس 43 صفحة من 110153.

- دولة الأغالبة والتي حكمت من (184-296هـ/800-909م)، حيث خصص لها 58 صفحة⁽¹⁾.
- دولة الأدارسة والتي حكمت من (172-314هـ/789-926م)، وخصص لها 8 صفحات⁽²⁾.
- الدولة العبيدية الشيعية وحكمت في المغرب من (297-358هـ/909-967م)، حيث خصص لها 75 صفحة تقريبا⁽³⁾.
- الدولة الصنهاجية (بنو زيري)، وحكمت من (362-543هـ/973-1148م)، حيث خصص لها 16 صفحة⁽⁴⁾.
- دولة زناتة وحكمت من (358-453هـ/968-1061م)، وخصص لها 60 صفحة⁽⁵⁾.
- الدولة الرستمية الخارجية بتاهرت وحكمت من (168-296هـ/776-909م) حيث خصص لها صفحتان⁽⁶⁾.
- دولة بني مدرار الخارجية بسجلماسة وحكمت من (140-354هـ/757-963م) حيث خصص لها 5 صفحات⁽⁷⁾.
- دولة ملوك الطوائف بالأندلس، ونجد ابن عذاري قد خصص لها 100 صفحة في ذكر الدويلات الآتية:
 - (دولة الجهاورة أو بنو جهور) بقرطبة.
 - (الدولة العبادية) بإشبيلية.
 - (الدولة الهودية) بلارده وسرقسطة.

(1) المصدر السابق، ج1، ص ص 92123، 129، 147.

(2) المصدر السابق، ج1، ص ص 8284، 210214.

(3) المصدر السابق، ج1، ص ص 124، 128، 149، 210، 216، 223، 229، 231.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص ص 228229، 239252، 296298.

(5) المصدر السابق، ج1، ص ص 296 252، 298، 314.

(6) المصدر السابق، ج1، ص ص 156157.

(7) المصدر السابق، ج1، ص ص 196200.

- (دولة بني الأفطس) ببطلينوس وشتترين والاشبونة.
- (الدولة الذنونية) بطليطلة.
- (الدولة الحسينية الحمودية) بقرطبة⁽¹⁾، وغيرها من الدويلات الأخرى الصغيرة.

منهجه في تناول تاريخ الدولة الكبيرة.

من الأسباب التي التمسناها لابن عذاري أثناء تأريخه لدولة كبيرة من دول المغرب أو الأندلس أنه كان يحاول معالجة أهم جوانب تاريخها، فغالبا ما يتبع منهجا يسلك الخطوات الآتية.

- أسباب ظهور الدولة.
- تخصيص فصل أو مبحث لكل خليفة من خلفائها أو كل ملك منها.
- ذكر أهم أعمال ذلك الخليفة التنظيمية والإنشائية.
- ذكر بعض أخباره على الجملة.
- ذكر الثورات التي واجهته.
- عرض أهم حوادث عصره.
- التحدث عن المدن التي بناها.
- يروي حوادث حروبه وغزواته.
- يوضح نظام دولته وكبار موظفيه.
- يذكر علاقته بالدول الإسلامية والنصارى.
- يبين أسباب انحلال الدولة وسقوطها.

وحتى نوضح أكثر لابد من تقديم مثال عن تأريخه للدولة الأموية بالأندلس والتي تناولها في الجزء

الثاني من البيان المغرب ص 38-272.

(1) المصدر السابق، "فصل ذكر ملوك قرطبة وإشبيلية وما يصاحبهما من بلاد موسطة الأندلس وغيرها"، ج1، ص ص 185285.

أسباب ظهور الدولة:

ولأجل ذلك نجد ابن عذاري عقد فصلا بعنوان: «ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى الأندلس وهروبه من الشام»⁽¹⁾، حيث ذكر فيه اتصال دولة بني أمية في المشرق بدولتهم بالأندلس قال: [وذلك أن جميع حلفائهم من لدن دولتهم منذ خلص الأمر إلى أن قتل مروان بن محمد إحدى وتسعين سنة، وخمسة أيام، منها أيام ابن الزبير تسع سنين واثنا عشر يوماً، ثم تفرقت بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم، وهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، فبايعه أهلها، وتجددت لهم بها دولة استمرت إلى بعد الأربع والعشرين والأربعمئة، والناس يعتقدون أن دولتهم كانت انقطعت من حين قتل مروان إلى أن جدها عبد الرحمن الداخل سنة (136هـ/753م) أو نحوها، وقيل إنها كانت متصلة، لم تنقطع من زمن عثمان رضي الله عنه إلى زمن المعتمد بالله بقرطبة آخر حلفائهم سنة (424هـ/1033م)، وهذا القول أظن أنه ينبغي على ما قاله بعضهم إن عهد عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية من قبل بني أمية وصل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب على الأندلس، الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية وهو أميرها، فتأمل هذا، فإنه إن صح، نكتة غريبة، وفائدة عجيبة]⁽²⁾.

وتكلم فيها عن سقوط دولة بني أمية في المشرق وتتبع العباسيين لهم وتفرق بني أمية في الأقطار خوفاً من بني العباس، وخرج عبد الرحمن بن معاوية متخفياً حتى وصل أقصى المغرب، ونزل على أحواله من قبيلة نفره وناله من قبائل الغرب «عندهم تضيق وأخبار يطول ذكرها»⁽³⁾. وفي سنة (136هـ/753م)، بدأ عبد الرحمن بن معاوية بمراسلة مواليه من الأمويين بالأندلس، وكان الوالي بها يوسف بن عبد الرحمن الفهري ووزيره صميل بن حاتم، واحتال عليه عبد الرحمن بن

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص ص 4047.

(2) المصدر السابق، ج2، ص ص 3839.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 41.

معاوية، واستمال إليه من في الأندلس من جند الأردن وجند حمص وأهل فلسطين واستطاع مواجهة يوسف الفهري وهزيمته «فاستولى الأمير عبد الرحمن على الملك وتمت له بيعة العامة بقرطبة»⁽¹⁾. ومدح ابن عذاري دولة بني أمية وقال عنهم «الدولة الفاضلة المروانية»⁽²⁾، كما نقل عن ابن حزم مدحه وتفضيله للدولة الأموية قال: [وانقطعت دولة بني مروان بالمشرق بمروان بن محمد الجعدي، وكانت على علاقتها دولة عربية، لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم إنما كان سكنى كل أمير منهم في داره وضيعته اللتان كانتا له قبل الخلافة ولا أكثروا احتجاج الأموال ولا بناء القصور، ولا طلبوا مخاطبة الناس لهم بالتحويل، والعبودية والملك، ولا تقبيل أرض، ولا يد، ولا رجل، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة والتولية، والعزل في أقاصي بلاد الدنيا، فكانوا يعزلون العمال، ويولون الآخر في السند والهند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي العراق، وفي اليمن، وفي المغرب الأدنى والأقصى، وبلاد السوس، وبلاد الأندلس، وبعثوا إليها الجيوش، وولوا عليها من ارتضوا من العمال، وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بها ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها]⁽³⁾.

خصص ابن عذاري لكل أمير أو خليفة فصلا طويلا مثل:

"خلافة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك"⁽⁴⁾، ويذكر فيه:

- نسبه: «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية»⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص47.

(2) المصدر السابق، ج3، ص263.

(3) المصدر السابق، ج2، ص39.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص47، ويلاحظ أنه سماه خليفة مع أنه لم يتسم بهذا إطلاقا.

(5) المصدر السابق، ج2، ص47.

- كنيته: «أبو المطرف»⁽¹⁾.
- أمه: «بربرية من سبي المغرب تسمى راحا أو رواحا»⁽²⁾.
- مولده: «بموضع يعرف بدير حسينة من دمشق سنة (113هـ/731م)»⁽³⁾.
- وفاته ومكان دفنه: «توفي يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر، وقيل: لعشر خلون من جمادى الأولى 172هـ/785م، ودفن بقصر قرطبة»⁽⁴⁾.
- وسنه عند وفاته: «بلغ تسعا وخمسين سنة، وقيل ستين سنة»⁽⁵⁾.
- ومدة خلافته أو حكمه: «فكانت مدة خلافته ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ونصفا، ودخل الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنة أو نحوها، ببيع له بقرطبة يوم الأضحى منه 138هـ/745م»⁽⁶⁾.
- وزرأؤه: «أربعة: عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بنحت، وحسان بن مالك»⁽⁷⁾.
- وحجابه: «خمسة: تمام بن علقمة، ويوسف بن بنحت، وعبد الكريم بن مهران، وعبد الحميد بن مغيث، ومنصور فتاه»⁽⁸⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 47.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 47.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 47.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 47.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 48.

- قضائه: «خمسة: يحيى بن يزيد التجيبي، ومعاوية بن صالح، وعبد الرحمن ابن ظريف، وعمر بن شراحيل، والمصعب بن عمران، وكان له قاض خامس⁽¹⁾ في صوائفه يسمى جدار بن سلمة بن عمر والمنحجي»⁽²⁾.

- نقش خاتمه: «عبد الرحمن بقضاء الله راض»⁽³⁾.

- صفته: «طويل القد، أصهب، أعور، خفيف العارضين، بوجهه خال، له ظفيران، وكان يسمى «صقر بني أمية»⁽⁴⁾، أو «صقر قريش»⁽⁵⁾.

- أولاده: «الذكور أحد عشر، والإناث تسع»⁽⁶⁾.

كما نجد أحيانا ابن عذاري يعقد مقارنة بين الخليفة الذي يترجم له وبين من سبقه أو عاصره من الخلفاء لمقتضى مشابهة بينهما، ففي تولية عبد الرحمن بن محمد الناصر الخلافة قال: [وولي والأندلس حمرة تحتم، ونار تضطرم شقاقا ونفاقا، فأحمد نيرانها، وسكن زلازلها، وغزا غزوات كثيرة. وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل؛ ومن وقت دخوله الأندلس سنة 138هـ/755م إلى ولاية عبد الرحمن الناصر، مات من بني أمية سبعة خلفاء وعبد الرحمن ثامنهم؛ ومات في المدّة المذكورة من بني العباس اثنان وعشرون ملكا]⁽⁷⁾.

فمن منهج ابن عذاري إذن فيما يتعلق بالحاكم أو الخليفة إذا حكم الدولة وفرض سلطانه على البلاد بقوة وكانت له شخصية قوية نسب الدولة وأيامها إليه كما فعل في ذكر دولة صنهاجة قال:

(1) هكذا موجود في الكتاب أي حسب النص، والصواب أو الأرجح أن يقال "سادس"

(2) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(3) ابن عذاري البيان الغرب، ج2، ص 48.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 48.

(7) المصدر السابق، ج2، ص ص 157، 158.

[دولة الأمير تميم بن المعز ونبذ من أخباره]⁽¹⁾، كذلك [دولة يحيى بن تميم بن المعز ونبذ من أخباره وسيره]⁽²⁾.

وفي عهد الدولة الأموية بالأندلس فترة الفتنة البربرية التي أعقبت سقوط الدولة العامرية قال: [دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار]⁽³⁾.

كذلك [دولة سليمان بن حكم المستعين بالله]⁽⁴⁾.

أهم الأعمال التنظيمية والإنشائية:

من بين أهم أعمال الخلفاء الذين ذكرهم ابن عذاري أعمال الخليفة عبد الرحمن بن معاوية، وذلك (سنة 170هـ/786م)، لما تولى أمر تأسيس المسجد الجامع بحضرة قرطبة، وكانت بموضعه كنيسة، فأنفق فيه مائة ألف بالوازنة⁽⁵⁾.

كما ذكر في أخبار الخليفة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية قال: [وكان قد نظر في بنيان قنطرة قرطبة، وأنفق في إصلاحها أموالا عظيمة، وتولى بناءها بنفسه وتعطى الأجرة بين يديه]⁽⁶⁾.

وذكر-أيضا- في أخبار دولة الحكم المستنصر أنه [أجرى الماء إلى سقايات الجامع والميضاتين...، وابتنى بغربي الجامع دار الصدقة، ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله، اتخذه المؤدبين بعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكل ربح من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات]⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 298.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 304، وينظر أيضا: ج1، ص 306308.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 50.

(4) المصدر السابق، ج3، ص 91، وينظر أيضا: ج3، ص 135140.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 58.

(6) المصدر السابق، ج3، ص 66، وينظر أيضا: ج2، ص 275.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 240.

يعقد للخليفة فصلا بعنوان «ذكر بعض أخباره على الجملة»⁽¹⁾:

ويذكر ابن عذاري ذلك من خلال أوصافه وأخلاقه ومدحه وبعض قصصه وأخباره في مجالسه الخاصة وفصاحته وبلاغته، وما قاله وما قيل فيه من شعر⁽²⁾.

الثورات التي واجهته:

يسرد لنا ابن عذاري من خلال ترجمة الخليفة أخبار الثوار الذين ثاروا عليه وتعامل الخليفة معهم في إخماد ثوراتهم.

فمثلا نجد ذلك في خلافة عبد الرحمن بن معاوية ثار يوسف الفهري والصميل بن حاتم سنة (139هـ/756م)، وحاربه الإمام حتى كان هلاكه بناحية طليطلة سنة (142هـ/759م)⁽³⁾، كما فعل ذلك عبد الغافر اليماني بإشبيلية⁽⁴⁾، وثار حيوة بن مئاس وتغلب على إشبيلية واستحج وأكثر الغرب⁽⁵⁾. وفي سنة (146هـ/763م) ثار العلاء بن مغيث الجذامي بباجة ودعا إلى طاعة المنصور العباسي⁽⁶⁾.

وفي سنة (147هـ/764م) ثار بطليطلة هشام بن عروة⁽⁷⁾.

وفي سنة (149هـ/766م) ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بكورة لبلة، وفيها قتل الأمير عبد الرحمن أبا الصباح بن يحيى اليحصبي لثورته بإشبيلية⁽⁸⁾. وفي سنة (150هـ/767م) ماجب فتنة البربر بشنت برية⁽⁹⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 58، وينظر أيضا: ج2، ص 65، 78، 90، 107، 120، 152، 223.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 5860.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 4950.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 5051.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 51.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 51.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 5051.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 53.

(9) المصدر السابق، ج2، ص 54.

وفي (سنة 152هـ/769م) ثار رجل من البربر ادعى أنه من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه⁽¹⁾.

وفي (سنة 153هـ/771م) ثار على الأمير عبد الرحمن عبد الغافر اليحصبي وخلع طاعته⁽²⁾.

وفي (سنة 156هـ/772م) ثار عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وفيها ثار ابن شجرة بمورور⁽³⁾.

وفي (سنة 164هـ/780م) عزا الأمام عبد الرحمن الدماجني بن عبد العزيز الوالي على الجزيرة الذي خلع طاعته⁽⁴⁾.

وفي (سنة 168هـ/784م) أراد المغيرة بن الوليد بن معاوية القيام على الإمام فقبض عليه⁽⁵⁾.

وفي (سنة 169هـ/785م) ثار على الأمير عبد الرحمن محمد بن يوسف الفهري بجهة الشرق⁽⁶⁾.

وفي (سنة 171هـ/787م) قام قاسم بن عبد الرحمن الفهري عن محمد بن يوسف أخو يوسف الفهري وخلع الطاعة⁽⁷⁾.

وحسب تتبعنا لنقولات ابن عذاري أنه سار في المنهج الذي يرتكز على ذكر الثوار على الخليفة بحسب السنين أو ربما عقد فصلا مستقلا بذكر جملة الثوار الذين ثاروا في عهده، كما فعل في خلافة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم قال: [جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله الخارجي عن الجماعة المعزمين لنار الفتنة]⁽⁸⁾، وذكر فيها 22 ثائرا.

أما عن الثوار الذين امتدت وعظمت وانتشرت ثورتهم لفترة أطول، وفي عهد أكثر من خليفة يذكر أخبارهم بحسب تسلسلها خلال السنوات، فمثلا عن ثورة عمر بن حفصون قال: [وفيها -أي

(1) المصدر السابق، ج2، ص 54.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 55.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 56.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 56.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 57.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 57.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 58.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 133.

سنة (267هـ/880م) - ابتدأ شر اللعين عمر بن حفصون الذي أعىي الخلفاء أمره وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره⁽¹⁾.

ثم قال: [على ما يأتي مفسراً]⁽²⁾.

وكان ذلك في خلافة محمد بن عبد الرحمن بن هشام، كما عقد فصلاً في خلافة المنذر بعنوان «شأن عمر بن حفصون في أيام المنذر رحمه الله»⁽³⁾.

وفي عهد الخليفة عبد الله كذلك «ومن أخبار عمر بن حفصون في أيام الأمير عبد الله»⁽⁴⁾.

وكذلك في عهد الخليفة الناصر «ذكر موت (اللعين) عمر بن حفصون» قال فيه: [وفي هذه السنة هلك عمر بن حفصون، عميد الكافرين، ورأس المنافقين، وموقد شعل الفتنة، وملجأ أهل الخلاف والمعصية. فعد هلاكه من أسباب الإقبال، وتباشير الصنع، وانقطاع علق المكروه]⁽⁵⁾.

ذكر أهم الحوادث التي حدثت في عصره:

إذا وقعت في عهد الخليفة حوادث هامة، فكان منهج ابن عذاري هو عرضها وشرح أسبابها وذكر الروايات فيها، وما انتهت إليه الحادثة.

فمثلاً وقع في خلافة الحكم بن هشام أن ثار أهل ربض قرطبة، فذكر ابن عذاري أخبارها، ووضع لذلك فصلاً بعنوان: «مقتل أهل الربض أولاً قبل هيجة ثانية»⁽⁶⁾.

قال فيه: [وفي سنة 189هـ/804م صلب الإمام الحكم اثنين وسبعين رجلاً بقرطبة منهم أبو

كعب بن عبد البر، ويحيى بن مضر، ومسرور الخادم. فكان السبب في ذلك أنهم أرادوا الغدر به، وهموا

(1) المصدر السابق، ج2، ص 104.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 106.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 117.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 131.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 171.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 71.

بالخلاف عليه؛ وطلبوا رئيسا يقومون به. فوقع الخبر علي محمد بن القاسم عم هشام بن حمزة، وأطلعوا على أمرهم، ودعوه للقيام معهم؛ فخذلهم، وأفشى سرهم، وتقرّب إلى الحكم بدمائهم⁽¹⁾. ولما أن كانت الهيجة الثانية عنون لهم ابن عذاري قائلا: [ذكر هيج أهل الريض ثانية في سنة (202هـ/817م)⁽²⁾، فكانت ثورتهم بدون سبب يذكر]، كما قال ابن عذاري: [كان من أهل ريض قرطبة في هذه السنة ما نستعيد بالله من الخذلان في مثله وذهاب التوفيق]. لكن ومن خلال استقراءنا لمصادر تاريخية أخرى والتي تقر بوجود اختلاف كبير في الروايات من حيث سبب قيام الناس وهيجهم.

فنجد هناك من يقول: [أن ذلك الهيج كان أصله الأسر والبطر، أي إذا لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف في ملكه، وهذه الحال إن دلت فإنما تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف، ولا مغارم، ولا سخر، ولا شيء يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشرا وبطرا، وملا لا للعافية، وطبعا جافيا، وعقلا غيبيا، وسعيا في هلاك أنفسهم - أعاذنا الله من الضلال والخذلان، وأسباب البوار والخسران]⁽³⁾، فلما ثاروا وهاجوا على السلطان وظهر منهم الفساد والنكران قام بجرهم وقتلهم حتى [أخذ منهم ثلاثمائة رجل فصلبوا على الوادي، صفا واحدا من المرج إلى المصاره].

وكان الحكم قد عزم على تتبعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجدوا، فكسر عليه بعض أصحابه، وذكر صنع الله له فيهم؛ فارعوى وكف. فخرجوا أفواجا بأهاليهم وأولادهم. ولم يعرض لأحد منهم في شيء من بلاد الأندلس، وهي طاعته وملكه، ولا نالهم ضرر بعد وقت المعركة وغليان الحال، كرما

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 75.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 75.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 76.

وعفوا من الأمير الحكم -رحمه الله -وعف الحكم عن الأموال والحرم. وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس⁽¹⁾.

أما في خلافة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام فقد وقعت في عهده حادثة عظيمة ووقعة كبيرة وهي نزول -المجوس- الروم بأرض إشبيلية فذكرها ابن عذاري تحت عنوان: «دخول المجوس إشبيلية في سنة 230هـ/844م»⁽²⁾.

كما شرحها ووضحها ونقل ذلك من المصادر تفصيلاً قال: [خرج المجوس في نحو ثمانين مركبا كأنما ملأت البحر طيرا جونا؛ كما ملأت القلوب شجوا وشجوناً. فحلوا بأشبونة؛ ثم أقبلوا إلى قادس، وشذونة؛ ثم على إشبيلية؛ فاحتلوا بها احتلالاً، ونازلوها نزالاً، إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً. فبقوا بها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام]⁽³⁾.

ولما وصل خبرهم للأمير عبد الرحمن أرسل لهم الخيل والفرسان وقاتلهم وحاربهم حتى ألقوا بعد أن قتل منهم خلق كثير فعلق ابن عذاري على نهاية الوقعة بقوله: [وكان احتلالهم بإشبيلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة 230هـ/844م وكان بين دخولهم إلى إشبيلية وخروج من بقى منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوماً فقتلهم الله وأبادهم، وبدد عددهم وأعدادهم؛ وقتل أميرهم نعمة من الله وعذاباً، وجزاء بما كسبوا وعقاباً. ولما قتل الله أميرهم، وأفنى عديدهم، وفتح فيهم، خرجت الكتب إلى الآفاق بخبرهم]⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 77.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 87.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 87.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 88.

ذكر المدن التي بناها:

وإذا كان للخليفة جهود في بناء المدن وغيرها فصل ذلك ابن عذاري وأفرد لها فصلا خاصا، كما فعل مع خلافة عبد الرحمن بن محمد الناصر، حين ذكر بناء مدينة الزهراء فوضع عنوان: «ذكر بناء مدينة الزهراء» أعادها الله للإسلام بفضله⁽¹⁾.

فهو يسرد تاريخ بنائها ولا ينسى أخذ النصارى لها فيقول - أعادها الله للإسلام بفضله- وشرح في هذا الفصل بداية بنائها وسنته، وما استخدم فيها من الصخور والرخام وأدوات البناء.

قال: "ابتدئ بنائها في أيام الناصر من أول سنة 325هـ/936م وكان يعرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط في الأسوس، وجلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية ومن تونس، وكان الأمناء الذين جلبوه عبد الله بن يونس، وحسن القرطي، وعلي بن جعفر الإسكندراني، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية. وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية، المجلوبة منها من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية: وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائر ذلك من رخام الأندلس، وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل، فلا قيمة له جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر، ووضع الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصع بالدر النفيس الغالي مما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة. وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره. وكان يجبز في أيامه كل يوم يرسم حيطان البحيرات ثمان مائة خبزة، وهذا من أعظم الأشياء إلى ما فوق ذلك"⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 231.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 231.

حروبه وغزواته:

إذا كان للخليفة حروب وغزوات مشهورة، فإن ابن عذاري يعنون لها بعناوين مثل: «غزاة الناصر لدين الله - رضي الله عنه - إلى بلده»⁽¹⁾، و«غزاة الناصر إلى ببلونة»⁽²⁾.

أما إذا كانت غزواته على عادة الخلفاء بإرسال الجيوش لفتح البلاد وتأمين الثغور التي تسمى بالصائفة، فإنه يذكرها حسب ورودها في السنوات ويذكر تفصيلاتها ونتائجها كما ذكر غزوات الإمام هشام ابن عبد الرحمن قال: [وفي سنة 177هـ/793م، أغزى الإمام المشهور عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى أرض الروم، وهي غزوة شهيرة الخبر، جليلة الخطر، انتهى فيها إلى إفرنجة، فحاصرها، وتلم بالمجانيق أسوارها، وأشرف على بلاد الجوس وجمال في بلاد العدو، وبقي شهورا يحرق القرى ويحرب الحصون، وأوقع بمدينة أربونة، وكان فتحا عظيما، بلغ فيه خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين]⁽³⁾.

كما يذكر قيام الخليفة بحشد الجنود والجيوش إذا سمع باستعدادات النصارى [ففي سنة 189هـ/804م أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن مغيث بالصائفة حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية].

فبلغه أن أذفوش قد حشد بلاده، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من الجوس وغيرهم، وأنه عسكرهم ما بين حيز جليقية والصخرة، وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق في شواهدق جبال السواحل.

وقد قدم عبد الكريم فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس، ثم رحل في إثره، فألفى أعداء الله، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله، فقتل حُماهم، وأسر جماعة منهم، ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم وبث الخيل في القرى، فانشقت جميع ما ألقته من زروعهم، وخربت ما مرت عليه من عمارتهم.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 173.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 185.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 64.

وتقدم بعد ذلك إلى واد يقال له كوثية، فلقى به غنْدُماره وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غندماره أسيرا، وقتل من أصحابه عدد كثير، وأصاب العسكر جميع ما في تلك الناحية.

وتقدم مستنجزا لأذفونش، فلما بلغه قصده إليه تنحى عن الجبل الذي كان فيه منحازا عنه إلى حصن له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نُلُون، فتقرب منه عبد الكريم مقتفيا لأثره، لا يمر بمترل فيما بينه وبينه إلا حرقه، ولا بمال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن، فانتقل منه إلى حصن ملكه، وكما احتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألقى فيه الأطعمة وضروب الذخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فرج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس، يقفوا أثره، فلما قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميع عدته وذخره فغنم المسلمون جميع ذلك⁽¹⁾.

نظام دولته وكبار موظفيه:

عندما يذكر ابن عذارى مبايعة الخليفة يحرص على ذكر رجالات الدولة وكبار موظفيه، فإنه بعد عرض مبايعة عبد الرحمن الناصر بالخلافة وتسلم مقاليدها انتقل إلى ذكر الوظائف السامية وأسماء من تولوا أو عزل عنها ممن استحقها فقال: [وعهد - رحمه الله - بالكتاب ببعثه إلى الكور والأطراف، وولى في يوم مبايعته بدرا مولاة الحجابة مع الوزارة وخطة الخيل، إلى ما كان إليه من خطة البُرد. وولى موسى بن محمد الوزارة، إلى ما كان إليه من خطة المدينة. وكان على الكتابة عبد الله بن محمد الزجاجي، فأقره عليها، وأقر أحمد بن محمد ابن أبي عبدة على القيادة، وأقر قاسم بن وليد الكلبي على الشرطة العليا، وكان مع ذلك خازنا، فصرف الخزانة عنه وولاه عبد الملك بن جمهور. وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر، ومحمد بن عبد الله بن أبي عبدة، وعزل عنها عيسى بن شهيد، وولى مكانه سعيد بن سعيد بن حدير. وولى عمر بن محمد ابن غانم، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجاجي، ومحمد بن سليمان بن واسنوس خطة العرض. وولى محمد بن عبد الله الخروبي خزانة السلاح مع العقل،

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج2، ص ص 6465.

وحسين بن أحمد الكاتب خزانة السلاح أيضا، ويحيى بن إسحاق ومسلمة بن عبد القاهر المعروف بابن الشرح ثم ولي - رضي الله عنه - عيسى بن أحمد بن أبي عبدة الشرطة العيا، وصرف عنها قاسم بن وليد الكلبي، وولي فطيس بن أصبغ خطة البيازرة، وصرفها عن الحاجب بدر بن أحمد، إلى أعمال وخطط ولاها من استحق عنده من مومليه ووجوه مواليه⁽¹⁾.

علاقته بالدول الإسلامية والنصارى:

بعد أن استقر أمر الدولة الأموية بالأندلس، وتوطدت أركانها بإخماد الثورات وكبت النصارى على حدود الدولة وعلى الثغور، قدمت رسل الدولة إلى حكامها وأمرائها طالبة الصلح والمهادنة أو الدخول في الطاعة.

أما مع الدول الإسلامية المجاورة، فوجدنا ابن عذاري يذكر في حوادث (سنة 333هـ/944م) [في منسلخ شوال، قدم رسول الخير بن محمد بن خزر الزناني أمير الغرب ومعه رسول حميد بن يصل الزناني، يعرفان الناصر بما كان من دخولهما مدينة تاهرت، وأتت أقالما فيها الدعوة له]⁽²⁾.

بالإضافة إلى ذلك ذكر ابن عذاري: [وفي سنة 338هـ/949م في عقب رجب قدم على الناصر رسول من بعض الحسينيين، يذكر طاعتهم إليه، وانقيادهم لأمره في هدم مدينة تطاون التي أنكر عليهم بناءها؛ فعقد لهم في أول شعبان، وأمر بمجاوبتهم]⁽³⁾.

وفي أخبار (سنة 362هـ/972م) أورد ابن عذاري: [قدم إلى قرطبة حنون بن إدريس صاحب مدينة العدو الأندلسية من فاس، ورسول عبدالكريم صاحب مدينة القرويين من فاس، يرغبان في طاعة أمير المؤمنين المستنصر، والقيام بدعوته، فكرم رسولهما، وأجمل موعودهما]⁽⁴⁾.

كما قدم على الناصر رسل أبي يزيد الخارجي القائم ضد الشيعة العبيدية قال: [في منسلخ شوال 333هـ/944م قدم على الناصر رسولان من أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار، القائم

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص ص 158، 159.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 212.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 216.

(4) المصدر السابق، ج2، ص ص 246، 247.

بإفريقية على أبي القاسم الشيعي، برسالة منه يخبر بتغلبه على القيروان ورفادة وعملهما، وإيقاعه بأصحاب الشيعي فيها، وما يعتقده من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته. واتصلت كتب أبي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته⁽¹⁾.

أما فيما يخص بالعلاقات مع الدول النصرانية فقد عظمت الدولة الأموية في عهد الناصر عند حكام النصارى وهابوها فقاموا بإرسال الرسل والوفود لطلب الصلح والهدنة.

يذكر ابن عذاري في سنة (334هـ/338هـ) (945م/949م) [وصل إلى قرطبة رسل ملك الروم الأكبر قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية العظمى، يكتب من ملكهم إلى الناصر، فقعد الناصر على سرير الملك بقصر قرطبة لدخولهم عليه]⁽²⁾، في جلوسه المشهور، قال ابن عذاري: [ووصف ذلك يطول]⁽³⁾.

وكان صاحب القسطنطينية يرغب منه «إيقاع المؤالفة واتصال المكاتبة»⁽⁴⁾.

وفي [سنة 345هـ/956م قدم محمد بن حسين رسولا كان من الناصر إلى الطاغية أردون ابن ردمير ملك جليقية، ومعه حداي بن شيرود اليهودي، بكتابه إلى الناصر، راغبا منه في الصلح، فأسعهفه الناصر في ذلك على اختيار ولده الحكم، واشترط على الطاغية شروطا، وانصرفت رسله بذلك]⁽⁵⁾،

كما قدم على الخليفة المستنصر رسل ملوك الجلالقة، قال ابن عذاري: [وفيها 351هـ/962م وصل قرطبة أرسال شانجة بن ردمير، منازع الطاغية أردون ابن عمه ملك الجلالقة، ومعهم عبد الرحمن بن جحاف قاضي بلنسية، وأيوب بن الطويل وغيرهما، فتوصلوا كلهم إلى المستنصر في ربيع الآخر،

(1) المصدر السابق، ج2، ص 212، وينظر أيضا، ج2، ص ص 216، 219، 254.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 213.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 215.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 215.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 221.

وأوصلوا كتاب شانحة بن ردمير بجواب ما خوطب فيه وييعته التي عقدها على نفسه وجميع أهل مملكته
لأمير المؤمنين المستنصر بالله، في خبر طويل⁽¹⁾.

كما أن الخليفة الحكم المستنصر بالله كان قد كتب إلى ملك الروم بطلب منه بتوجيه صانع
لتركيب الفسيفساء بالمسجد الجامع فأرسل إليه كما ذكر ابن عذاري قال: [وفيها 354هـ/965م
شرع - الحكم- في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع وكان ملك الروم بعث بها إلى الخليفة الحكم.
وكان الحكم قد كتب له في ذلك، وأمره بتوجيه صانعها إليه]⁽²⁾.

بل وصل الأمر إلى أن احتكمت ملوك الروم إلى الحاجب عبد الملك بن أبي عامر⁽³⁾.

أسباب انحلال الدولة وسقوطها:

لقد التمسنا من خلال نقولات ابن عذاري أنه كان حريصا على عرض تسلسل الأحداث وذكر
الأمر التي أدت إلى انحلال الدول وسقوطها.

ففي نهاية حديثه عن الدولة الأموية ذكر أسباب سقوطها، فقد بدأ ذلك بتولية الخلافة هشام بن
الحكم الذي بويع له وهو ابن احدى عشر سنة وثمانية أشهر⁽⁴⁾، فلم يستطع المحافظة على الملك الذي
تركه أبوه وجده الناصر وتولى تدبير أموره الحاجب جعفر ابن عثمان المصحفي وتداول الأيام حتى
تولى الحجابة لهشام ابن الحكم المنصور ابن أبي عامر فاستبد بالملك وعزل الخليفة هشام عن أمور
الدولة، ولأهمية هذا الموضوع عقد ابن عذاري له فصلا بعنوان: «استبداد ابن أبي عامر بالملك وتغلبه
عليه»⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 235.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 237، وينظر أيضا: ج2 ص 216، 218، 221، 235.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 10.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 253254.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 272.

قال فيه: [لما قتل ابن أبي عامر جعفر بن عثمان انفراداً بشأنه، ورمى الغرض الأبعد من ضبط السلطان والحجر عليه والاستبداد بالمملكة وأمور الدولة، جرى في ذلك مجرى المتغلبين على سلطان بني العباس بالمشرق من أمراء الديلم، حتى أورت ذلك عقبه]⁽¹⁾.

وثالثة الأثاني التي عصفت رياحها بالدولة الأموية «ولاية عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول الحجابة لهشام بن الحكم، وإسراعه إلى تغيير السيرة بالجهل على نفسه».

فقال ابن عذاري: [فنظر في الأمور نظراً غير شديد وأنفق الأموال في غير وجهها وأعان على كثير من الناس وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ونسب إليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وأبغضوه في الله وابتهلوا الله تعالى في الدعاء عليه]⁽²⁾.

ولم يكتف بذلك بل طلب من الخليفة هشام باستخلافه لإمامة المسلمين من بعده قال ابن عذاري: [-حتى غدا عليه - أي عبد الرحمن بن عامر - اليوم الرابع في جيوشه المتكاثفة وعدته المتظاهرة فأخذ عليه أنقاب قصر الخليفة في طبقات أهل الحضرة فأجلس لهم هشاماً وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية وأخرج كتاباً قرئ بحضرته]⁽³⁾.

وهكذا تتابعت الفتن على عبد الرحمن بن أبي عامر، فقتل وانقرضت الدولة العامرية، وقامت الفتنة البربرية التي أدت في النهاية إلى سقوط الدولة الأموية.

منهجه في تناول الدولة الصغيرة:

عادة عندما يذكر ابن عذاري تاريخ دولة صغيرة تجده يتعرض لابتداء، ظهورها على الساحة السياسية، وأهم شخصياتها، وأهم معاركها، وانتصاراتها، هزائمها، نشأتها، سياستها نحو المسلمين وسياستها مع النصارى، انحلالها وسقوطها.

وغالبا ما تأتي أخبارها مقطعة خلال السنوات، فلنأخذ مثالا لذلك دولة الجهاورة بقرطبة.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 272.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 38.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 43.

ابتدؤها:

قال عنها ابن عذاري: [قد تقدم القول في دولة هشام المعتد بالله بقرطبة، وأن بيعته بها كانت في سنة عشرين وأربعمائة في ذي الحجة منها وافتتحت بيعته بإجماع وختمت بفرقة وعقدت برضى وحلت بكره وخلع منها يوم الثلاثاء الثاني عشر لشهر ذي الحجة من سنة اثنين وعشرين وأربعمائة واجتمع الناس بقرطبة على تقديم الوزير أبي الحزم بن جهور]⁽¹⁾.

ظهورهم على الساحة السياسية:

ذكر ابن عذاري: [وكان بمدخل جرهم - بني جهور - أبي عبيدة إلى الأندلس أثر عظيم ظهر له فيها من جميل الذراع وسعة الباع وحسن الاقتناع ما لم يظهر لأحد من النظراء من حين الفتح إلى وفاة أبي الحزم هذا]⁽²⁾.

أهم الشخصيات:

ابن جهور وهو «جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله ابن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبيدة»⁽³⁾.

قيم أبو الوليد بن جهور أحوال الأندلس في عهد ملوك الطوائف بهذا القول الذي رواه ابن عذاري: [وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات يطلب قرناً يقرأ القرآن فوجه إليه من طلبة قرطبة رجلاً يعرف بعون الله بن نوح وعجب أبو الوليد من ذلك وقال: جاهلاً يطلب قارئاً وعلماء يطلبون الأباطيل]⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 185.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 185.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 185.

(4) المصدر السابق، ج3، ص 185.

ثم خلفه بعد وفاته ابنه أبو الوليد محمد ابن جهور وسموه الرشيد، قال ابن عذاري: [فلم يقيم بالأمر بمثل ما قام به أبوه بل قدم ولده عبد الملك على الناس وطلب منهم العهد لابنه والبيعة لابنه المذكور، فكان ابنه قد اعتدى وحجب الأرزال واستباح أموال المسلمين وسلط عليهم أهل الفساد وأهمل الأمور الشرعية وأخاف الطرف وشرع في المعاصي والفسوق وأظهر الخنى فكثرت الدعاء عليه من أهل قرطبة.

وكان هذا السفية القوي قد تعاضم وتعاطى حتى سمي نفسه ذا السيادةتين المنصور بالله الظاهر بفضل الله، وخطب له على المنبر بذلك، ولم يكن أبوه ولا جده أطلقا في إمارتهما اسم رئاسة ولا انتقلا عن رسم الوزارة ولا قعدا بالمقصورة مصلى الخلفاء فتنكب هذا القوي ذلك لله وخالف سلفه فسلط الله عليه نكاية ابن ذي النون له وتضييقه عليه حتى ملك حصن المدور وبعث إليه بمحلاته فحاصره بقرطبة فاستغاث بابن عباد⁽¹⁾.

أعمالهم:

في أخبار (سنة 440هـ/1048م) قال ابن عذاري: [وفي هذه السنة استعمل أبو الوليد ابن جهور على قرطبة ابن السقاء فاستمر نظره إلى أن قتله ولده في رمضان سنة 455هـ/1063م]⁽²⁾.
وذكر ابن عذاري أيضا أن ابن القطان حين قدم أبو الوليد ابن جهور ابن السقاء إبراهيم «ضبطها أحسن ضبط وساسها أحسن سياسة»⁽³⁾.

لكن في (سنة 455هـ/1063م) كان مهلك ابن السقاء بقرطبة مدير الدولة الجمهورية وقيل بل كان ذلك في سنة خمس بعده⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 233.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 232.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 251.

(4) المصدر السابق، ج3، ص 251.

المحالاتها وسقوطها:

استمر بن جهور يحكمون قرطبة حتى ظهر فيهم الفساد والتنافس على الملك وظلم الناس والتعدي عليهم قال ابن عذاري: [وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة كثر حوض أهل قرطبة في الذي رأوه من تنافس ولدي أبي الوليد بن جهور في الانتصاف بالإمارة ابنه عبد الرحمن كبير جماعتهم، وأخوه عبد الملك أشههم فؤادا وأصلبهم عودا الذي كشف عن وجوههم عمه مركسهم ابن السقاء فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطاهم بفتكه به الفتكة التي أثبتت أوتاد ملكهم ثم نازع أخاه كبيرة عبد الرحمن فيما ذهب إليه من التفرد به].

وقد كان أشار على أبيهما بعض حلفائه بإيثار عبد الرحمن منهما، فتمسك الشيخ بخطه من إرضاء ولده الصغير عبد الملك، فحال إلى قسمة الرياسة بينهما مدة حياته غير ناصب أحدهما للأمر يقضي الله أمره لمن يشاء وأنشد قول ابن الجزيري:

وإذا الفتى فقد الشباب سما له حب البنين ولا كحب الأصغر

ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه في الاشراف والجبابة وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند والتولي لغرضهم والاشراف على أعطيتهم فرضيا منه هذا التقسيم، وأقامهما به على الصراط المستقيم⁽¹⁾.
ثم نقل عن ابن حيان، وابن بسام، والوراق، ومن كتاب الأنباء في سياسة الرؤساء لابن الصيرفي بقية أخبار بني جهور وخلعهم وتغلب ابن عباد على قرطبة²

فكان سبب خلع بني جهور - كما ذكرنا - ظلمهم وتعديهم فطمع فيهم يحي بن ذي النون صاحب طليطلة فحاصر قرطبة وناوشها فاستنجد بنو جهور بابن عباد فقدم جيشه، وأحبر ابن ذي النون على فك الحصار على قرطبة.

قال ابن عذاري: [لما أقلع ابن ذي النون عن قرطبة اجتمع أهلها في السر على أن يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد فأبرموا أمرهم وأحكموه وقاموا بأجمعهم لما فجروا من جور ابن جهور وتعديه

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص ص 25256.

(2) ابن عذاري، ج3، ص ص 25261.

هو وحاشيته السفلة على الناس وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد، وقام أصحاب ابن جهور دونه وكانوا طائفة قليلة فغلب عليهم أهل قرطبة واستوى الخائن عبد الملك بن جهور في يد ابن مرتين قائد ابن عباد وانقرض ملك بني جهور، فكانت دولة أبي الوليد ابن جهور بقرطبة ستا وعشرين سنة وستة أشهر ونصفاً⁽¹⁾.

هذا فيما يخص عرض ابن عذاري لأخبار الدولة الكبيرة والصغيرة، أما الدول المتوسطة الأخبار، فيذكر أخبارها بما توفر له من معلومات في المصادر ويسلك في ذلك منهجا وسطا بين المنهجين السابقين.

ولابن عذاري طريقة في سرد أخبار الأمراء الذين حكموا المدن وتاريخها من حين بنائها ومن تعاقب على حكمها، كما فعل في خبر مدينة نكور قال: [تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة]⁽²⁾.

فذكر من بناها وأول من سكنها ومن حكمها من القبائل والدول، والأحداث التي وقعت فيها. ونجده سار على هذه الطريقة في أخبار مدينة تيهرت⁽³⁾، ومدينة سلجماسة⁽⁴⁾، ومدينة البصرة⁽⁵⁾، وتونس⁽⁶⁾، وإفريقية⁽⁷⁾، فذكر أمراءها في عهد بني أمية ومن الصفرية، ومن الإباضية، وبين العباس، وبني الأغلب، ومن الشيعة العبيدية، ومن صنهاجة.

(1) المصدر السابق، ج3، ص 259.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 176.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 197.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 206.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 35.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 315.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 317.

إضافة إلى تلخيصه أخبار من ولي بعض المدن في عهد الدولة الواحدة، كما ذكر في مدينة إشبيلية قال: "تلخيص التعريف بتواريخ من ولي إشبيلية من مشاهير اللمتونين المرابطين من حين استيلائهم عليها إلى انقراض دولتهم"⁽¹⁾، ذكر فيها أسماء من وليها من حكام المرابطين.

- منهج ابن عذاري في عرض الحادثة التاريخية الهامة:

تناول ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب» كثيرا من الحوادث التاريخية الهامة بشيء من التركيز والتفصيل خاصة تلك التي كان لها نتائج مؤثرة.

ومن خلال هذا المبحث اخترنا مثالين لتوضيح منهج ابن عذاري في هذا الموضوع.

1. مثال بعيد عن عصره، حيث وصف حرب حسان للكاهنة في فتوح إفريقية، وحيث نقل ذلك

عن المصادر وجمع بينها ووصف ذلك وصفا دقيقا.

2. حادثة قريبة من عهده إن لم يكن عاصرها ونقلها مباشرة عن شاهدها أو عاصرها، وهي

احتلال النصارى مدينة سلا في عهد الخليفة أبي جعفر المرتضى الموحدى.

أولا- خبر الكاهنة:

من خلال هذا الخبر يمكن أن نفصل منهج ابن عذاري في تناوله لهذا الخبر حسب العناوين الآتية:

ولاية حسان بن النعمان إفريقية وأخباره: يذكر ابن عذاري أنه لما قتل زهير بن قيس البلوى [مضى

المسلمون إلى دمشق فدخلوا على عبد الملك بن مروان، فأخبروه أن أميرهم وأشرف رجالهم قد

استشهدوا، فعظم ذلك عليه لفضل زهير ودينه، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عبقة قبله، فأقبح أشرف

العرب، وسألوا عبد الملك أن ينظر لإفريقية من يسد ثغرها، ويصلح أمرها، فقال لهم عبد الملك: ما

أرى أحدا كفؤا لإفريقية كحسان بن النعمان]⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ج4، ص 105.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 33.

وفي [سنة 78هـ/697م قدم حسان بن النعمان إفريقية بعسكر فيه أربعون ألفا...، لم يدخل المسلمون قط إفريقية بمثل ما دخلها حسان بن النعمان]⁽¹⁾.

حربه مع الروم:

ذكر ابن عذاري [لما حصل - حسان - بالقيروان، سأل أهل إفريقية، من أعظم الملوك بما قدرا فقالوا: صاحب قرطاجنة دار ملك إفريقية، فسار حسان حتى نزل عليها، وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة، فخرجوا إليه مع ملكهم، فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل أكثرهم، ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية]⁽²⁾.

وأخذ يفصل في قتالهم حتى قال: [قتل الروم والبربر قتلا ذريعا، وحمل عليهم أعنة خيله فما ترك من بلادهم موضعاً إلا وطئه]⁽³⁾.

خبر حسان مع الملكة الكاهنة وهزيمتها له:

ذكر ابن عذاري في دخول حسان القيروان وسؤاله عن القوى الباقية والمقاومة فوصف له قوة الكاهنة وخوف الروم والبربر منها وقيل له: [فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند]⁽⁴⁾.

وأخذ ابن عذاري يسترسل في وصف استعداد الكاهنة وحسان بن النعمان للحرب، ولما تلاقى الفريقان لم يقتتلوا "وبات الفريقان ليلتهم على سروجهم"⁽⁵⁾.

ولما نشب القتال في الصباح وصف ابن عذاري القتال وقوته فقال: [فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله]⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 34.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 33.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 35.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 35.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 36.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 36.

ووصف ابن عذاري انهزام حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين وقال: [قتلت الكاهنة العرب قتالا ذريعا، وأسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحابه]⁽¹⁾.

وأخذ بذلك ابن عذاري يصف موقف حسان من تلك الهزيمة وقيامه بمراسلة الخليفة عبد الملك بن مروان ونقل جزءا من رسالته للخليفة قال فيه: [أن أمم المغرب لها ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة، خلفتها أمم، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم]⁽²⁾.

تملك الكاهنة للمغرب وأعمالها:

وصف ابن عذاري المغرب بعد هزيمة حسان وقال: [ملكت المغرب كله بعد حسان خمس سنين]⁽³⁾.

ثم وصف أعمال الكاهنة بالمغرب من قطع الشجر وهدم الحصون لزعمها أن المسلمين جاؤوا يطلبون الذهب والفضة، فقامت بإفساد المغرب لئلا يمتلكه المسلمين فنقل ابن عذاري وصف المغرب قبل الكاهنة ثم ما فعلته بعد ذلك قال: [كانت إفريقية ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله فخربت الكاهنة ذلك كله]⁽⁴⁾، فهربت النصارى والبربر عنها لما فعلته بأرضهم.

ذكر مقتل الكاهنة:

وصف ابن عذاري استعدادات حسان لقاء الكاهنة وقال: [توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك]⁽⁵⁾، كما أرسل رجلا يثق به إلى خالد بن يزيد المأسور عند الكاهنة، فقرأ خالد كتابه وكتب في ظهره ووضع في خبزة كزاد للرجال.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 36.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 36.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 36.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 36.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 37.

ووصف في نفس الوقت موقف الكاهنة حين علمت بخبر الرجل فأرسلت تطلبه فلم تدركه قال:
[خرجت الكاهنة ناشرة شعرها، تضرب صدرها وتقول: يا ويلكم يا معشر البربر ذهب ملككم فيما
يأكله الناس]⁽¹⁾، فلما وصل الرجل إلى حسان وجد أن النار قد أفسدت الكتاب.

ثم استعدت الكاهنة للحرب وعلمت أنها مقتولة فأطلقت خالد بن يزيد وأرسلت ابنتها لحسان
واستأمنوا عنده، ثم ذكر ابن عذاري أن الكاهنة قالت للبربر [انظروا ما دهمكم فإني مقتولة]⁽²⁾، ثم
وصف المعركة والتحام القتال واشتداد الحرب والتزال حتى انهزمت الكاهنة، واتبعها حسان حتى قتلها.
ووصف ابن عذاري أعمال حسان بعد مقتل الكاهنة أن جماعة من البربر استأمنوا إليه، فلم يقبل
أماهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع المسلمين، فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد
لولدي الكاهنة لكل واحد منهما ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب بقاتلون
الروم ومن كفر من البربر.

وبعد عمل حسان هذا هدأت إفريقية قال ابن عذاري: [وانصرف حسان إلى مدينة القيروان
بعدهما حسن إسلام البربر وطاعتهم، وذلك في شهر رمضان سنة 82هـ/701م وفي هذه السنة
استقامت بلاد إفريقية لحسان بن النعمان]⁽³⁾.

فلما دانت المغرب له أخذ في تنظيم إفريقية قال ابن عذاري: [فدون الدواوين، وصالح على
الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية]⁽⁴⁾.

وذكر بعدها ابن عذاري أن حسان [أقام بعد مقتل الكاهنة لا يغزو أحدا ولا ينازعه أحد]⁽⁵⁾.
وقد صور لنا ابن عذاري حرب حسان مع الكاهنة، ووصفها وصفا دقيقا، وذلك اهتمامه بهذه
الحوادث التاريخية الهامة والمؤثرة في التاريخ.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 37.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 38.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 38.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 38.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 38.

الخبر عن كائنة مدينة سلا الذي كل قلب عن همها ما تسلى ولا سلا:

حول هذا الخبر نحاول أن نستعرض منهج ابن عذاري في محاولة أخذ النصارى مدينة سلا، فقد وصفها وصفا دقيقا مع اختصارها كما ذكر ذلك في العنوان: حيث عرض في بادئ الأمر بداية الحادثة حين كتب يعقوب بن عبد الله (سنة 658هـ/1260م) إلى ملك قشتالة أن يبعث إليه بمائتين من الروم يستعين بهم فيما يريد.

قال ابن عذاري: [ولما وصل ملك قشتالة أهلكه الله كتاب يعقوب بن عبد الله أدركه الطمع في دخول كفرته إليها واستيلائهم عليها، فاشتغل بتعمير الأجنان في وادي إشبيلية ولا علم أحد من المسلمين ولا من الكافرين إلى حيث يتوجهون من البلدان]⁽¹⁾، ولما علم صاحب سبته الفقيه أبو العباس بمكرهم.

كتب يحذر منهم قال: [فكتب الفقيه أبو العباس الغرقي من سبته بخبر ملك العمارة إلى كل جهة من المراسي ومكان، ويحذر من غدرهم ومكرهم كل إنسان]⁽²⁾.

ثم سجلنا وصف ابن عذاري ظهور النصارى في البحر أمام مدينة سلا في أواخر شهر رمضان ثم نزولهم إلى ساحل المدينة قال: [فلما كان في آخر شهر رمضان المعظم من هذه السنة ظهرت في البحر قرقورة بعد قرقورة، فظن أهل سلا أنهم تجار إلى أن وصلوا شيئا بعد شيء مرارا واجتمعت من القراقر اثني عشر ومركبان اثنان وأساطيل وشلالير إلى انتهاء عدد الأجنان سبعة وثلاثين وكلهم مملوء من الكفرة النصارى، فبقي الناس في أمرهم حيارى، فلما كان يوم الجمعة ثاني عيد الفطر أظهر العدو ما أضر من الغدر فدخلت الأجنان الغزوانيات إلى الوادي، بعدما امتلأت بالرماة والبغاة الأعادي]⁽³⁾.

ثم يصف ابن عذاري أحوال المسلمين بعد أن رأوا عزم النصارى أخذ مدينتهم وتدافعهم للهرب من المدينة بعدما قتل منهم خلق كثير.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 418.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 418.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 418.

كما وصف منظر يعقوب بن عبد الله وهو يعرض بنانه ندما وتأسفا لتسببه في هذه الكائنة، ثم وصف أعمال النصارى، حينما دخلوا المدينة قال: [ولما دخل النصارى إليها، واستولوا بالغدر عليها، فقتلوا من وجدوا من الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وحصروهم في الجامع الكبير مأسورين وفي نفوسهم مقهورين، فكانوا يعثون في النساء والأبكار، ويقتلون الشيوخ والعجائز الكبار، فسفكوا الدماء وهتكوا الأستار، وخرّبوا المساجد والديار⁽¹⁾].

فصول من الرسالة التي وجهها المرتضي للفقير أبي القاسم الغرقي حين كائنة مدينة سلا: نقل ابن عذاري إلينا فصولا من الرسالة المذكورة لأهميتها، ولاستشعار وقوف الخليفة برد هذا العدوان.

وقد سبق لابن عذاري أن ذكر أن أبا القاسم الغرقي كتب وحذر أهل المراسي من غدر النصارى لما رأى من استعدادهم، فلما وصلت الأخبار الخليفة الموحد المرتضي رد عليه في رسالة طويلة يشكره على تنبيهه وتحذيره نقل ابن عذاري منها قوله: [وإنا كتبنا إليك كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها وأكف كلاءة وأكأأها وأن تعلموا أنا نعتد بولائكم الخالص، ونحفظ ما لكم وللسلفكم من السوابق والخصائص ونشكر نصائحكم التي ما زلتم إياها تبذلون وخدمتكم التي توالون وتصلون]⁽²⁾.

ومما قاله أيضا: [وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها ما قد اتصل بكم مما كنتم أبدا منه تحذرون، وبه لعلمكم بزيادة العدو تزدرون... وهو سبحانه يكافئ سعيكم على ما عرفتم وحذرتم لأهل السواحل وخفتم من فجأة العدو المخاتل، لما ظهر من استعداده ونبهتم في ذلك أقصى مبالغة بنيتكم الصالحة الصريحة... وإنا لنشكر لكم ذلك، كما رأى الله عز وجل فيه منابكم وشكر إليه انتدابكم... وهو سبحانه يتدارك بمعهود لطفه ومعناده، ويمد الإسلام وأهله بنصره وإنجاده وكتب ثالث ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين وستمائة]⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 416.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 419.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 419420.

ذكر انتزاع مدينة سلا من أيدي النصارى:

وصف ابن عذاري قيام الأمير أبي يوسف باستعادة مدينة سلا من النصارى بعد أن تملكوها وفعلوا ما فعلوه من قتل وأسر ونهب ووصف جهود المسلمين في محاربة النصارى قال: [لما بلغ الأمير المعظم أبا يوسف خبر أهل سلا، واستيلاء النصارى عليها، بادر بعساكره إليها، فحاصر الكفرة فيها أعظم حصار، واجتمع المسلمون عليها من البلاد الغربية وما والاها من الأقطار، فكانوا يقاتلونهم بالليل والنهار، بالنبال والأحجار، ودام القتال مدة ثلاثة عشر يوما من شوال]⁽¹⁾.

ووصف ابن عذاري خروج النصارى وهروبهم منها بعد احتوائهم جميع الأموال قال: [خرج منها الكفار بما حصل في أيديهم من المسلمين الصغار والكبار، وبما ألفوه في المدينة من الأموال والأسباب الأمتعة ما لا يحصره حاصر ولا يصفه واصف وذلك شيء تحار فيه الأفكار والعقول]⁽²⁾.

وقد استرسل ابن عذاري في وصف خروجهم السريع من مدينة سلا هربا وخوفا حتى لم يأخذوا حاجتهم من ماء الشرب كما أن الريح لم تسعفهم في الهرب قال: [أوقع الله تعالى الرعب في قلوبهم، وكان طلوع عشائر المسلمين إذنا بهروبهم فأصبحوا يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال المذكور، وقد ظهر الله تعالى الأرض من إلحادهم، وركبوا لجة البحر على أعوادهم وأمر الله الريح فلم تساعدهم، فصارت الأمواج تسري بهم يمينا وشمالا، وجنوبا وشمالا ولا تحفازهم إلى الفرار لم يتزودوا كثيرا من الماء... فصاروا يقصدون السواحل رجاء في الظفر بمنهل يعلل غللهم ويبلغ نهلهم وعللهم، فكلما يمموا جهة تلقاهم المسلمون رجالا وفرسانا يذودونهم زياد البعير الضال فيرجعون وحرقتهم تنوهم وغللهم تتأجج]⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 420.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 420.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 421422.

ووصف ابن عذاري سرور المسلمين وسعادتهم بخروج النصارى من مدينة سلا ورجوعها لأهل الإسلام حتى عادت للجفون المنام قال: [هذا الخطب الذي استنفر الأحلام، وذاد عن الجفون لذيذ منامها وغمضها، وبعض الأشياء بالجملة أهون من بعضها]⁽¹⁾.

ثم نجده يصف -أي ابن عذاري- سعي المسلمين والأمير في فك أسرى المسلمين قال: [وأهبط من أسرى المسلمين ثلاثمائة شخصا فداهم المسلمون من أهل شريش وغيرهم طالبين الأجر]⁽²⁾.
[وبعث الأمير أبو يوسف رحمه الله تعالى أبا بكر بن يعلى في أواسط شهر ذي القعدة من العام المؤرخ برسم افتكاك الأسرى المذكورين ففك الله أسرهم على يديه وافتدى أكثرهم]⁽³⁾.

ثم وصف أمر الأمير أبي يوسف ببناء ما خرب من مدينة سلا وبناء السور حتى أن الأمير شارك في هذا البناء قال: [ولما دخل الأمير المعظم أبو يوسف إلى مدينة سلا بعدما استولى عليها العدو وخرب ديارها ومساجدها أمر ببناء سورها، وتحديد مساجدها المعظمة ودورها، فأول ما شرع من تلك الأمور في ابتداء بناء السور فرفع الحجر بيديه يوصله إليه برسم البناء المذكور وفعل ذلك مرارا يبتغي الأجر والثواب عليه من الله سبحانه]⁽⁴⁾.

ثم وصف اجتهاد الناس في البناء، حينما سمعوا أن الأمير رفع الحجر بيديه، فاجتهدوا في رفع الأحجار دون تأن فحصل ذلك كله في بناء السور في أيام قلائل.

ومن منهجه في عرض الحوادث التاريخية عرضه لأخبار الحالة الاجتماعية وغرائب الحوادث

لقد كان من بين اهتمامات ابن عذاري في أثناء تأريخه للأحداث والوقائع التاريخية، يذكر الظواهر الاجتماعية مثل انتشار الأوبئة والمجاعات وارتفاع الأسعار والغلاء نتيجة أحداث سياسية أو

(1) المصدر السابق، ج5، ص 421.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 422.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 423.

(4) المصدر السابق، ج5، ص 423.

خسوف أو كسوف، والأمور الغريبة التي تقع وتحدث عادة في المجتمعات فمثلا ذكر في حوادث سنة 206هـ قال: [كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب، والوباء والطاعون]⁽¹⁾.

كما ذكر في حوادث سنة 266هـ قال: [كان القحط العظيم والغلاء المفرط بإفريقية]⁽²⁾.

أما عن أحوال الأندلس ذكر في حوادث سنة 232هـ قال: [قحطت الأندلس قحطا شديدا،

وكانت فيها مجاعة عظيمة، حتى هلكت المواشي، واحترقت الكروم، وكثر الجراد]⁽³⁾.

وقال أيضا: [كان سيل عظيم بجزيرة الأندلس]⁽⁴⁾.

ولما انتزع الكبيطور مدينة بلنسية عم الغلاء [فبلغ رطل القمح في ربيع الأول بمئقال ونصف،

ورطل الشعير بمئقال ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مئقال، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم وأوقية البصل

بدرهم، ورطل البقل بخمسة دراهم، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير،

ورطل الجلد البقري لخمسة دراهم]⁽⁵⁾.

وظل ابن عذاري يسجل هذه الظواهر طوال الكتاب⁽⁶⁾.

ومما يلفت الانتباه إليه هو حرص ابن عذاري على تسجيله الحوادث الغريبة، فقد ذكر في حوادث

سنة 267هـ قال: [ومن العجائب في هذا العام]⁽⁷⁾، وذكر في حوادث سنة 180هـ قال: [كان

الزلزلة العظمى بأرض مصر، وسقط رأس منار الإسكندرية]⁽⁸⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص ص 421422.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 117.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 89.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 89.

(5) المصدر السابق، ج4، ص 38.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 194، 255، 257، 269، 294، 300، 302، 306، 307، ج2، ص 73، 81، 100، 102، 119، ج4،

ص 45، 99، ج5، ص 16.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 104.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 89.

وذكر في حوادث سنة 371هـ قال: [وفي جمادى الأولى من هذه السنة كان بالمهدية زلازل دامت الشهر كله وعشرة أيام بعده، تزلزل الأرض في كل يوم مرات، حتى هرب أكثر أهلها، وأسلموا ديارهم وما فيها]⁽¹⁾.

كما ذكر في حوادث 224هـ قال: [وفيها كانت رجوم بالنجوم في جمادى الآخرة وتناثرت الكواكب من قبله إلى جوف، ومن شرق إلى غرب بجزيرة الأندلس]⁽²⁾.

وكذلك في حوادث سنة 299هـ قال: [وفي هذه السنة، كسفت الشمس جميعا قبل وقت الغروب، وذلك يوم الأربعاء لليلة بقيت من شوال، وظهرت النجوم وبدر أكثر أهل المساجد، فأذنوا لصلاة المغرب، وصلوا ثم انجلى ذلك، وعادت الشمس مضيئة ثم توارت للمغيب]⁽³⁾.

كما وجدناه اهتم بأولات الامور مثل: أول من جمع له المغرب⁽⁴⁾، أول ثورة في الإسلام⁽⁵⁾، أول سبى دخل القيروان في ولاية موسى بن نصير⁽⁶⁾، أول عبد يصلبه عبيد الله الشيعي بإفريقية⁽⁷⁾، أول موضع افتتح في أيام الناصر⁽⁸⁾، أول من اجتمع له لقبان من ملوك الأندلس⁽⁹⁾، أول جمعة تصلى بالأندلس بسورة ق⁽¹⁰⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 238.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص85.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 149، كما ينظر أيضا: ج1، ص 93، 133، 140، 166، 222، 270، 303، 305، ج2، ص 104، 210، 213، 220، ج3، ص 10، 45، ج4، ص 101، 103، 110، 162، ج5، ص 402، 439، 448.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 21.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 52.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 40.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 160.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 160.

(9) المصدر السابق، ج3، ص 17.

(10) المصدر السابق، ج5، ص 218.

– منهجه في عرض الشخصية التاريخية:

تعرض ابن عذاري من خلال كتابه «البيان المغرب» لذكر شخصيات تاريخية كثيرة جدا ينتمون لجميع فئات وطبقات المجتمع مثل: «الوزراء، الكتاب، الخلفاء، العلماء والفقهاء، القضاة، ولاة الأقاليم، الشعراء، قادة الجند، وغيرهم» .

والملاحظ هو أن ابن عذاري يختلف اهتمامه بهذه الشخصيات حسب أهميتها، وكذلك بناء على تلك الأهمية يعرض خصائصها ثم يترجم لها ويعرف بها، ويذكر أخبارها عن نسبه، وكذلك كنيته ولقبه وغيرها. ومن خلال هذا المبحث نبين منهج ابن عذاري في عرضه للشخصيات التاريخية بذكره للأمور الآتية:

اهتمامه بذكر النسب:

اهتم ابن عذاري بذكر اسم ونسب بعض الشخصيات التاريخية⁽¹⁾، حين يرد ذكرهم مثل ذكره لنسب عبد الله بن أبي السرح⁽²⁾، وعقبة بن نافع⁽³⁾، وحسان بن النعمان⁽⁴⁾، وموسى بن نصير⁽⁵⁾، وأبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي⁽⁶⁾، وطارق بن زياد⁽⁷⁾، والوزير جعفر بن عثمان المصحفي⁽⁸⁾، ومحمد بن أبي عامر⁽⁹⁾، بل حتى ذكر نسب الثائر عمر بن حفصون وأصله وأولاده وأعماله⁽¹⁰⁾.

(1) نشير فقط هنا أنه سبق وذكر الخلفاء وكل ما يتعلق بهم من نسبه وكنيته ووزرائه وحجابه وقضاته في فصل منهجه في عرض أخبار الدولة الواحدة.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 9.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 19.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 34.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 39.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 216.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 5.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 254.

(9) المصدر السابق، ج2، ص 256، وينظر أيضا: ج1، ص 49، 223، ج4، ص 60.

(10) المصدر السابق، ج2، ص 106.

ولما جاء ذكر نسب عبيد الله الشيعي ركز على ادعاء عبيد الله انتسابه إلى آل البيت وأنه دعي⁽¹⁾، وبذلك دعم رأيه بأقوال المؤرخين كابن القطان⁽²⁾، وابن سعدون⁽³⁾.
وأحيانا ينسبه إلى قبيلته⁽⁴⁾، كما قال في نسب موسى بن نصير: [أنه من لحم، وقيل من بكر بن وائل، وربما ذكر كنيته]⁽⁵⁾. وربما ذكر الاختلاف في نسبه كما جاء في نسب طارق بن زياد⁽⁶⁾.
أو تاريخ ولادته، كما ذكر تاريخ ولادة عقبة بن نافع قال: [عقبة ولد قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة]⁽⁷⁾، أو ذكر أولاده⁽⁸⁾.

الأوصاف والأحوال الشخصية:

ذكر ابن عذاري أوصاف بعض الشخصيات التاريخية الخلقية والخلقية مدحا أو ذما، قال عن عقبة بن نافع: [كان عقبة خير وال وخير أمير، مستجاب الدعوة]⁽⁹⁾.
وحين ذكر عبد الله بن الجحباب قال: [كان رئيسا نبیلا، وأميرا جلالا، بارعا في الفصاحة والخطابة، حافظا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها]⁽¹⁰⁾.
وذكر الأغلبي بن سالم التيمي وقال عنه: [كان من أهل الرأي وذوي المشورة]⁽¹¹⁾.
ولما ذكر الوزير جعفر المصحفي قال عنه: [كان لطيف المتزلة من الحكم المستنصر بالله، قديم الصحبة، قريب الخاصة]⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 158، 282.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 159.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 281.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 39.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 39، 78، ج 2، ص 254، 256.

(6) المصدر السابق، ج 2، ص 5.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 19.

(8) المصدر السابق، ج 1، ص 78.

(9) المصدر السابق، ج 1، ص 21.

(10) المصدر السابق، ج 1، ص 51.

(11) المصدر السابق، ج 1، ص 74، وينظر أيضا، ج 1، ص 75، 84، 62، 92.

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 254.

أما في أخبار المعز بن باديس قال في صفته: [أسمر جميل الوجه، جهير الصوت، حسن الخلق يعيد الغور في الأمور، قتل الشيعة وقطع دعوتهم من إفريقية، ولعن أمراءهم بني عبيد على سائر منابر إفريقية، ووفى لكل واحد من الصحابة حقه، وأقام السنة، وكانت متروكة منذ مائة وأربعين سنة]⁽¹⁾.

وقال عن مجاهد العامري المنتزي على مدينة دانية في عهد ملوك الطوائف: [كان ذا نباهة ورياسة زاد على نظرائه من ملوك الأندلس بالأبناء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب، وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة]⁽²⁾.

وقال عنه أيضا: [كان مجاهدا هذا من أهل العفاف والعلم]⁽³⁾.

أما ما قاله عن هذيل بن خلف المعروف بابن الأصلع صاحب مدينة السهلة من ملوك الطوائف: [كان هذيل هذا بارع الجمال حسن الخلق جميل العشرة ظاهر المروءة لم ير في الأمراء أهدى منه منظرا مع طلاقة لسانه وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة]⁽⁴⁾.

كما نقل ابن عذاري عن ابن سعدون وابن القطان بعض صفات ملوك بني عبيد من اشتهارهم استخفافهم بالدين، وادعائهم الربوبية والنبوة أحيانا وسب الصحابة وتجبرهم على الناس وظلمهم، وإشاعة الفواحش والمنكرات في عهدهم وغيرها من الأمور الشنيعة⁽⁵⁾.

ذكر أعماله السابقة:

لقد أمدنا ابن عذاري بتوضيحات عن أعمال بعض الشخصيات التاريخية السابقة.

فعند ذكره مثلا لعبد الله ابن سعد بن أبي الصرح قال عنه: [كان يكتب الوحي]⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 296.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 155.

(3) المصدر السابق، ج 3، ص 156.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 183.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 281288.

(6) المصدر السابق، ج 1، ص 9.

وقال أيضا عن عبد الله بن الحبحاب: [كان أول الأمر كاتباً]⁽¹⁾. وقال عن إبراهيم بن الأغلب:

[كان الرشيد وياه بلاد الزاب، وهي بلاد الجريد]⁽²⁾.

وحتى أنه ذكر ما قدمه من أعمال، حيث قال عن عبيد الله بن الحبحاب: [وهو الذي بنى المسجد

الجامع ودار الصناعة بتونس]⁽³⁾.

كما قال عن حسان بن النعمان: [وفي سنة 82هـ/701م استقلت بلاد إفريقية لحسان بن

النعمان، فدون الدواوين وصالح على الخراج]⁽⁴⁾.

- ذكر أعماله المنكرة:

لقد أورد لنا ابن عذاري بعض الأعمال المنكرة والأفعال القبيحة لبعض الشخصيات التاريخية،

وللأسف لم يعلق عليها أحيانا لتكون أعماله صورة حية تدل على شخصيته، فمثلا ذكر عن والي

إفريقية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قال: [كان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يحدث جورا عظيما على

رعيته فأهلكه الله قبل ذلك، وكان من أجمل الناس وجها وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً، أحدث

بأفريقية وجوها من الظلم شنيعة، منها قطع العُشُر حَبًّا وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أو لم يصب،

وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم. فأشتد على الناس ذلك]⁽⁵⁾.

كما ذكر عن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قال: [وفي سنة 268هـ/881م، كان فتك

إبراهيم بن الأغلب بأهل الزاب، فقتلهم وقتل أطفالهم، وحملوا على العجل إلى الحفر، فألقوا فيها]⁽⁶⁾.

وذكر عنه أيضا في حوادث (سنة 279هـ/892م) قال: [وفيها قتل إبراهيم بن أحمد من أهل

إفريقية من قتل بطرا وشهوة فممن قتل في هذه السنة: إسحاق بن عمران المتطبب المعروف باسم

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 51.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 92.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 51.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 38.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 95.

(6) المصدر السابق، ج 1، ص 119.

ساعة، قتله وصلبه، ومنهم حاجبه فتح، ضربه بالسياط حتى مات. وقتل فيها جميع فتيانه واستخدم عوضا عنهم السودان. ثم عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصقالبة: فقتل السودان أجمعين⁽¹⁾. وقال: [وفي سنة 280هـ/893م كان الإيقاع برجال بلزمه]⁽²⁾.

- عرض قصص لفهم الشخصيات التاريخية:

مما لفت انتباهنا في نقولات ابن عذاري ذكره قصصا لبعض الشخصيات، حيث وجدنا فيها العبرة والعظة، ويفهم من خلالها خصائص شخصية، المذكور.

فمثلا قال عن محمد بن الأغلب [كان محمد هذا قليل العلم ذُكر أن رجاء الكاتب كان يوما بين يديه، فكتب محمد "لحم ضبي" بضاد مسقوطة، فلما خلا المجلس، قال له كاتبه: أيد الله الأمير، الضبي يكتب بضاد مرفوعة، فقال له محمد: علمنا فيه اختلافا: فأبو حنيفة يجعله بالطاء، ومالك يجعله بالضاد فعجب الحاضرون من قوله]⁽³⁾.

وحكى عن مجلس زيادة بن عبد الله بن الأغلب الذي هرب إلى مصر لما وصلت جيوش أبي عبد الله الشيعي قال: [قدم أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي المتطرب على زيادة الله من المشرق مع أبي الحسن بن حاتم، فوصل إليه وهو بالاريس، قال إسحاق: فدخلت على زيادة الله ساعة وصولي، ورأيت مجلسه قليل الوقار، كثير اللهو. فابتدأني بالكلام ابن حبيش المعروف باليوناني، فقال لي: تقول أن الملوحة تحلو؟ فقلت له: نعم، قال: وتقول إن الحلاوة تحلو؟ قلت له: نعم، فقال لي: فالحلاوة هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة، فقلت له: أن الحلاوة تحلو بلطافة وملائمة، والملوحة تحلو بعنف وقوة. فتمادى في المكابرة في ذلك، حتى قلت له: تقول أنك حي والكلب حي؟ قال: نعم، قلت له: فأنت

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 122123.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 123.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 108

الكلب والكلب أنت، فضحك زيادة الله ضحكا شديدا، قال: فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من رغبته في الجد⁽¹⁾.

تقويم ابن عذاري للشخصيات التاريخية:

قوم ابن عذاري بعض الشخصيات وذلك من خلال أعماله التي عملها وقدمها.

فمثلا عند ذكره لإبراهيم بن الأغلب بن سالم قال: [كان إبراهيم بن الأغلب فقيها أديبا شاعرا، خطيبا، ذا رأي ونجدة وبأس، وحزم وعلم بالحروب ومكايدها جريء الجنان، طويل اللسان، لم يل أفريقية أحسن سيرة منه، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعبته، ولا أوفى بعهد، ولا أرعى لحرمة منه]⁽²⁾.

وقال في ترجمة أحمد بن محمد بن الأغلب: [كان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال من أجود الناس وأسمحهم وأرأفهم بالرعية، مع دين واجتنب للظلم على حداثة سنه وقلة عمره]⁽³⁾.

ولما ذكر وفاة محمد بن سحنون التنوخي (سنة 256هـ / 830م) قال: [كان فقيها ورعا]⁽⁴⁾,

وقال عن الفقيه أحمد بن موسى بن مخلد: [كان زاهدا، ورعا، متعبدا، فاضلا، وعالما بما في كتبه]⁽⁵⁾.

ولما ذكر أبا زكرياء الحفصي قال: [كان الامير أبو زكريا رحمه الله ملكا مطاعا وبطلا شجاعا

مشاركا في العلم للعلماء، ومدبرا للأمور بالمعرفة والدهاء، مطابقا للأدباء النبهاء، فذا في البلاغة

والبراعة بارع النظم والنثر حسن الألفاظ في البلغاء، كثير الأدب واللغة في طبقات الشعراء]⁽⁶⁾.

وقال عن الأمير أبي يعقوب مزدولي: [كان حسن السياسة صحيح المذهب، عارفا بخدمة

الملوك]⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 141.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 92.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 112.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 115.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 145.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 5، ص 392.

(7) المصدر السابق، ج 4، ص 30، وينظر أيضا، ج 1، ص 48، 195، ج 2، ص 1011.

- نهاية الشخصية وتاريخ الوفيات:

اهتم ابن عذاري بذكر نهاية بعض الشخصيات خاصة الوزراء والحجاب والكتاب الذين تولوا مناصب إدارية أو قيادية هامة وكانوا في خدمة الدولة فمثلا يذكر محاسنهم ثم نكبتهم وتثقيفهم واستصفاء أموالهم وسجنهم ووفاتهم.

فمثلا ذكر في أيام الخليفة الأموي المنذر بن محمد في حوادث (سنة 273هـ/886م) قال: [أمر الأمير المنذر بسجن هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وخاصته وأمر بقتله في جمادى الأولى، وسبب ذلك أن هاشما كان يجسد لمكانه من الأمير محمد وخاصته به، فكانوا يسعون به عند المنذر، ويكررون ذلك عليه، حتى تنافرت النفوس. فلما مات الأمير محمد، وولي المنذر، أراد أن يفي له ويتبع فيه فعل أبيه، فولاه الحجابة. ثم تمالوا عليه وأكثروا وحرفوا عليه الكلام وتأولوا عليه أقبح التأويلات، حتى نفذ قضاء الله فيه..، ثم بعث فيه الأمير ليلا، فقتله، وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله وهدم داره، وألقى أولاده في السجن وألزمهم غرم مائتي ألف دينار]⁽¹⁾.

وذكر أيضا في أخبار الدولة العامرية نكبة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي قال ابن عذاري: [سخط الخليفة - هشام - على جعفر بن عثمان المصحفي، وصرفه عن الحجابة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان (سنة 367هـ/977م)، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وأسبابه، وعلى ابن أخيه هشام، وصرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال وطلبوا بالأموال. فتوصل ابن أبي عامر بمحاسبتهم إلى استصفاء أموالهم، وانتهاك حرمتهم، وترديد النكبات عليهم حتى مزقهم كل ممزق. وسارع إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في المطبق، إذ كان أشد آل عثمان عداوة له، وأخرج إلى أهله ميتا، واستمرت النكبة على جعفر سنين عدة، يجس مرة ويطلق أخرى]⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 115116.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص ص 267268.

كما ذكر أيضا نكبة الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية كاتب الخليفة عبد المؤمن الموحيدي⁽¹⁾، ونكبة الوزير عبد السلام الكومي⁽²⁾، ونكبة أبي حفص الملقب بالرشيد والي مرسية وأبي الربيع والي تادلا⁽³⁾، وسجن، وكذا مقتل الكاتب محمد بن حيون المعروف بابن البربري كاتب الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، كما قتل إبراهيم بن الأغلب حاجبه نصر بن العمامة⁽⁴⁾.

إضافة إلى ذكره لنهاية بعض الشخصيات كأبناء الخلفاء والأمراء وذكر مقتل محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم⁽⁵⁾، ومقتل عبد الله بن المنصور بن أبي عامر⁽⁶⁾، هذا وغيرهم كثير.

أما في الجزء الأخير الخاص بالموحدين فذكر قائمة من الملوك والخلفاء ممن قتلوا أبناءهم أو إخوانهم أو أعمامهم أو أبناء أعمامهم، وفي شيء من النقد المحتشم المستور قال: [فقد تضطر الملوك إلى هذا... وسياسات الملوك لا تعرض للامتحان ولا تحمل التمحيص]⁽⁷⁾.

- منهج ابن عذاري في تصوير الحروب والمعارك:

من بين ما كان ابن عذاري يحرص عليه عند تصويره للمعارك والحروب هو إعطاء القارئ الصورة الواضحة والمتكاملة خاصة وأن مثل هذه المواضيع تحتل جزءا غير بسيط من كتاب البيان المغرب.

إلا أن ابن عذاري سار على طريقته في الاختصار، فالحروب والمعارك التي تحدث عنها على نوعين:

- الحروب ضد البربر والروم المشركين في المغرب والتي تسمى فتوح إفريقية والمغرب وفتح بلدانهم

وأوطانهم للإسلام، أو ضد الروم النصارى في الأندلس والتي تسمى فتوح بلاد الأندلس ثم

امتدادها وهي الحروب ضد النصارى في شمال الأندلس.

(1) المصدر السابق، ج 5، ص ص 57، 60.

(2) المصدر السابق، ج 5، ص ص 67، 68.

(3) المصدر السابق، ج 5، ص ص 198، 202.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص ص 121، 122.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 150.

(6) المصدر السابق، ج 2، ص 284.

(7) المصدر السابق، ج 5، ص 234.

- حروب ومعارك بين المسلمين أنفسهم لتثبيت حكم دولة أو خليفة أو إخماد ثورات قامت ضد السلطة الشرعية وغيرها.

ومما لفت انتباهنا هو تركيز ابن عذاري في وصفه للمعارك والحروب عموماً على إظهار بعض النقاط الرئيسية الهامة التي سأذكرها الآن ثم نستعرض بعض أمثلة تطبيقية في وصفه.

- وصف شدة الحروب:

لمسنا من خلال نقولات ابن عذاري لبعض الحروب أو المعارك بعبارات يظهر منها قسوة الحروب وشدتها.

فمثلاً وصف غزوة عقبة بن نافع إلى مدينة باغاية فقال: [فقاتلهم قتلاً ذريعاً، وأخذ لهم خيلاً كثيرة، فلم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها]⁽¹⁾.

وكذلك غزواته إلى طنجة قال: [وكثر القتل فيهم حتى كاد يستأصلهم]⁽²⁾.

أما غزواته لبلاد السوس، فقد وصفها ابن عذاري بقوله: [فقتلهم قتلاً ما سمع أهل المغرب بمثله]⁽³⁾.

كما وصف الحروب التي وقعت بين قبيلة زناتة وصنهاجة في المغرب بأنها كانت حروباً لم يسمع بمثله⁽⁴⁾.

كما وصف ابن عذاري الحروب التي وقعت بين يوسف الفهري والي الأندلس وبين أبي الخطار قال: [لم يعهد حرب مثلهما في المسلمين]⁽⁵⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 24.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 25.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 27.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 24.

(5) المصدر السابق، ج 2، ص 36.

وفي حروب زيري بن عطية الخزري المغراوي ضد المنصور بن أبي عامر قال: [ودارت بينهم حروب بم يسمع بمثلها في الحروب الغابرة]⁽¹⁾.

تحديد تاريخ المعركة:

مما يشهد لابن عذاري في هذه النقطة بالذات أنه كان من دقته في تصوير الحروب، حيث يؤرخ لها بالسنة والشهر واليوم، وكذلك يحدد عدد غزوات بعض الخلفاء والأمراء وكم يوم استغرقت فمثلا عن غزوات الخليفة الأموي الناصر قال: [وفيها 300هـ/913م كانت غزاة أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى معاقل جيان، وهي أول غزواته: برز الناصر - رضي الله عنه - من قصر قرطبة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 300هـ/913م، وفصل غازيا إلى كورة جيان يوم السبت لسبع خلون من رمضان بعد بروزه بثلاثة وعشرين يوما]⁽²⁾.

ثم قال: [وقفل أمير المؤمنين - رحمه الله - بعد إيعابه النظر في كل ما شُخص له من استصلاح أمر كورة جيان والبيرة وما والاهما، ودخل القصر بقرطبة يوم الأضحى، وقد استتم في غزاته اثنين وتسعين يوما]⁽³⁾.

وذكر أيضا في حوادث (سنة 301هـ/914م) قال: [وفيها، خرج الناصر غازيا إلى كورة رية والجزيرة وقرمونة، وهي الثانية من غزواته: برز - رحمه الله - من قصر قرطبة يوم الخميس لثمان خلون من شهر رمضان، وفصل غازيا لثمان خلون من شوال]⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 253.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 160.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 163.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 164.

وذكر في حوادث (سنة 306هـ/919م): [وفي شهر ذي الحجة من هذه السنة، غزا الناصر رضي الله عنه بنفسه مدينة بلدة من كورة رية، فبرز لها يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، وفصل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة بعد بروز ستة وعشرين يوماً⁽¹⁾.
كما نجد ابن عذاري - أحيانا- عند ذكره لغزوات بعض الأمراء أنه يعقد عنوانا لكل غزوة، فمثلا في ذكر غزوات المنصور بن أبي عامر يقول: «غزوة محمد بن أبي عامر الأولى»⁽²⁾، «غزوة ابن أبي عامر الثانية»⁽³⁾، «غزوة ابن أبي عامر الثالثة»⁽⁴⁾، وهي بلا شك الغزوات التي ذاع بها صيت محمد بن أبي عامر ثم استبد بالملك وتغلب عليه.

إضافة إلى ذلك، فقد أحصى ابن عذاري غزوات المنصور بن أبي عامر وعدها «سبعا وخمسين غزوة»⁽⁵⁾، أحصى غزوات عبد الملك بن محمد بن أبي عامر «بسيح غزوات»⁽⁶⁾.
ومما لا شك فيه أن ابن عذاري -ربما- عقد فصلا خاصا لبعض الغزوات مثل: «غزوة مطونية»⁽⁷⁾، «غزوة مويش»⁽⁸⁾، «ذكر غزوة المنصور المعروفة بسنة طليطلة»⁽⁹⁾. «غزوة شنت ياقوب على سبيل الاختصار»⁽¹⁰⁾.

- أصناف وأعداد المشاركين في الحروب والمعارك:

كان من اهتمامات ابن عذاري في سرده لأخبار الحروب والمعارك ذكر أصناف وأعداد المشاركين في صفوف الجيش الإسلامي المتوجه للجهاد والقتال، فذكر في أخبار فتح إفريقية للإسلام

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 173، وينظر أيضا: ج2، ص 169، 174، 175، 176، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 189، 190، 193، 184، 197، 201، 203، 206، 208.

⁽²⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 264.

⁽³⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 265.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 267.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 301.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ج 3، ص 3.

⁽⁷⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 172.

⁽⁸⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 175.

⁽⁹⁾ المصدر السابق، ج 5، ص 223.

⁽¹⁰⁾ المصدر السابق، ج 2، ص 294.

قوله: "فخرج المسلمون في جيش عظيم، فيهم مروان بن الحكم، وجمع كثير من بني أمية، وبشر كبير من بني أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن الزبير ابن العوام في عدة من قومه، وعبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله عنه- وعبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن السائب، وبشر بن أرطاة، وغيرهم من المهاجرين"⁽¹⁾.

وذكر في حوادث (سنة 212هـ/827م) قال: [أغزى زيادة الله صقلية... فخرج معه أشرف إفريقية من العرب، والجنند، والبربر والأندلسيين، وأهل العلم والبصائر]⁽²⁾.

كما ذكر في غزوات الناصر من حوادث (سنة 304هـ/916م) قال: [كان إغزاء أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد بن محمد بن أبي عبدة القائد إلى أرض الحرب، وضم إليه من الموالي والأجناد عدد كثير]⁽³⁾.

إضافة إلى ذكره لحوادث (سنة 305هـ/917م) قال: [غزا بالصائفة إلى دار الحرب أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد وفصل يوم الاثنين لعشر خلون من صفر، وخرج معه طبقات الناس من المجاهدين وأهل الديوان، وحشد إليه رجال الثغر]⁽⁴⁾.

وذكر أيضا في غزوات عبد الملك بن محمد بن أبي عامر لما أظهر عبد الملك الجد في الغزو قال: [وافت الحضرة لأول هذا الوقت طوائف كثيرة من مطوعة القدوة للحسبة، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم وعصابة كثيرة من فقهاءهم]⁽⁵⁾.

وذكر -كذلك- عن عبد الرحمن بن أبي عامر لما تولى الحجابة للخليفة هشام دعا للغزو بعدما سمع أن الطاغية يقول: [والله لو أني نائم وأقبل عبد الرحمن بجميع جيوشه ما استيقظت له، فاغتاظ من ذلك

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص ص 8، 9.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 102.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 169.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 170.

(5) المصدر السابق، ج 3، ص 4.

عبد الرحمن وعزم على الغزو وخاطب جميع البلاد يستنفرهم للجهاد] فأجابه جميع المرتزقة ويسير من المطوعة⁽¹⁾.

أما عن أعداد المشاركين في الجيش، فقد ذكر ابن عذاري في ولاية عقبة بن نافع الثانية للمغرب، حين ولاه يزيد بن معاوية أنه [رحل عقبة من الشام ومعه خمسة وعشرون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم]⁽²⁾.

وفي ولاية حسان بن النعمان إفريقية والمغرب قال: [وفي سنة 78هـ/697م قدم حسان بن النعمان إفريقية، اختاره لها عبد الملك بن مروان، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا]⁽³⁾.

وذكر في حوادث (سنة 122هـ/730م) ندب الخليفة هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض لقتال البربر وولاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألف فارس: وعشرة آلاف من صلب بين أمية وعشرين ألفا من العرب⁽⁴⁾.

ذكر أيام الحصار وطول المعارك:

من خلال تتبعنا لنقولات ابن عذاري تجلت لدينا دقته في وصفه للمعارك والحروب، وذلك بذكره حتى للأيام التي حوصرت فيها بعض المدن والقلاع والحصون.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، فقد ذكر ابن عذاري في حوادث (سنة 300هـ/912م) [أن الخليفة الناصر عاد من إحدى غزواته قافلا على طريق حصن أشتبين وحصن بنة فراطة، وكانا قد أضرا بأهل غرناطة وحاضرة إلبيرة، وهما في غاية الحصانة والمنعة. فترلت الجيوش عليهما، وأحدقت بهما، وحوربوا أشد محاربة وأنكاهما عشرين يوما]⁽⁵⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 39، وينظر أيضا: ج5، ص 5، 2، 427.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 23.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 34.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 30، كما نقله عن ابن القطان وكون عشرة آلاف من صلب بني أمية، وهذا فيه نوع من المبالغة الواضحة والله أعلم.

(5) المصدر السابق، ج 2، ص 163.

وفي حصاره لحصن شيلش، وهي من أعظم حصون ابن حفصون منعة قال: [فاحتلت العساكر عليه يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة بقيت من شوال، فقطعت ثمارهم، واستهلكت زروعهم وحوصروا خمسة عشر يوماً]⁽¹⁾.

وفي حصاره لحصن (طُرش) قال ابن عذاري: [وأقام عليهم خمسة أيام يغاديهم الحرب ويحاسبهم، ويقطع ثمارهم ويحطم معاشهم]⁽²⁾.

وكذلك في حصاره لمدينة قرمونة لحبيب بن سودة الذي أظهر الخلاف قال ابن عذاري: [وحوصروا بها عشرين يوماً]⁽³⁾، وفي حصار الناصر لحصن (منت روبي) قال ابن عذاري: [فأقام عليهم أمير المؤمنين - رحمه الله - خمسة وثلاثين يوماً محاصراً]⁽⁴⁾.

وفي حصاره لحصن (مُوره) قال: [وأقام بهذه أعماله سبعة وثلاثين يوماً، يوالي فيها بنكايتهم]⁽⁵⁾. كما ذكر في حصار علي بن يوسف بن تاشفين لمدينة قلمورية قال: [ثم تحرك أمير المسلمين لجميع العساكر من إشبيلية لغزو قلمورية فحاصرها عشرين يوماً]⁽⁶⁾، كما ذكر في حصار المهدي للمرابطين في مراکش وقال: "و طال حصار مراکش نحو أربعين يوماً"⁽⁷⁾.

أما عن أخبار الحصار في عهد الموحدين، ذكر ابن عذاري حصار عبد المؤمن الموحي لمدينة المهديّة قال: [فدام حصار الموحدين لها سبعة أشهر حتى يسر الله فتحها]⁽⁸⁾.

وعن حصار مدينة قرمونة قال: [ودخلها الموحدون - قرمونة - بعدما طال حصارها مدة سنة]⁽⁹⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 162.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 164.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 165.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 182.

(5) المصدر السابق، ج 2، ص 302.

(6) المصدر السابق، ج 4، ص 64.

(7) المصدر السابق، ج 4، ص 75.

(8) المصدر السابق، ج 5، ص 62.

(9) المصدر السابق، ج 5، ص 73.

كما وجدناه -أي ابن عذاري- يصف لنا بعض المعارك بأنها دامت طويلا، فمثلا ذكر في حوادث (سنة 533هـ/1138م) قال: [اجتمع عسكر المرابطين مع أميرهم تاشفين بن علي مع عسكر عبد المؤمن بن علي ببلد منانة بموضع بني ملول فكانت بينهم محاربة عظيمة شهرا كاملا وثلاثة أيام⁽¹⁾]. وقال أيضا: [وفي سنة 534هـ/1139م خرج تاشفين بعسكر كبير من لمتونة والحشم وزناتة لقتال الموحدين ومعه جمع من النصارى مع قائدهم البربرير فبقي يحاربهم نحو شهرين⁽²⁾].

- إرسال كتب تبشر بالفتح:

تأكدنا من خلال نقولات ابن عذاري حرصه في تصويره للمعارك والحروب على ذكر إرسال قائد المعركة رسائل إلى الخليفة في العاصمة أو نائبه تبشير بالنصر مع وصف أحوال المعركة ونتائجها، وكانت تُقرأ على الملأ وربما قرئت في المسجد الجامع، ويكتب نسخ منها إلى جميع الولايات والمدن الأخرى، وربما أُرسلت خمس الغنائم معها، وبعض الأسرى أو رؤوس القتلى.

فقد ذكر ابن عذاري في فتوح إفريقية وبعد فتح قرطاجنة قال: [دعا الأمير عبد الله بن سعد، عبد الله بن الزبير، فقال له: ما أحد أحق بالبشارة منك، فامض، فبشر أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- بما أفاء الله على المسلمين، فتوجه عبد الله بن الزبير من سببلة... ثم وصل في إفريقية إلى المدينة⁽³⁾].

أما ما قاله عن غزوات معاوية بن خديج في إفريقية: [أغزى معاوية بن خديج جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، وورقين وأصنام منظومة بالجواهر فاقتسموا فيأهم، وبعث ابن خديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان⁽⁴⁾].

كما أنه ذكر كتب الفتح أيضا في عهد الإمام الناصر، قال ابن عذاري في غزوة (مطونية) [كان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول في معارك جليلة، لم يكن أعظم منها صنعا، ولا أكثر من أعداء الله قتيلا وأسيرا، وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين الناصر -رضي الله عنه- يوم

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 96.

(2) المصدر السابق، ج 4، ص 98.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص ص 1213.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص ص 1617.

الجمعة لإحدى عشر ليلة خلت من ربيع الأول فأكثر من شكر الله عز وجل على ما من به، وفتح فيه، وقرأ كتاب الفتح في الجوامع وكتب به إلى الأطراف⁽¹⁾.

وفي ذكره غزوة الإمام الناصر الثانية قال: [وكانت الكتب—أي كتب الفتح—تنفذ إلى هشام الولد وهو صغير]⁽²⁾.

وفي غزوة الناصر إلى كورة لبيرة قال: [واستخلف في القصر أخاه عبد العزيز لينفذ الكتب باسمه إلى وقت منصرفه]⁽³⁾.

وذكر في خلافة المستنصر بالله حوادث (سنة 355هـ/966م) قال: [وفي يوم الجمعة لثلاث خلون منه، قرئ بقرطبة والزهاء كتاب فتح ورد من قبل الوزير يحيى بن هاشم، وكتاب فتح ورد من قبل سعد الجعفري، وكتاب فتح ورد من قبل حريز بن هابل، يذكرون ما منحهم الله وفتح على أيديهم من قبل أعداء الله المشركين]⁽⁴⁾.

وذكر في عهد عبد الملك الحاجب ذكر كتب الفتح قال: [وأمر كاتب الرسائل أحمد بن برد أن يكتب بالفتح نظرين أحدهما إلى الخليفة هشام المؤيد بالله والآخر يقرأ على كافة المسلمين بقرطبة، وتنفذ نسخته إلى الأقطار]⁽⁵⁾.

وذكر ابن عذاري كتب الفتح في عهد الموحدين أيضا، [ففي ولاية عبد الله بن أبي حفص على إشبيلية تغلب على بعض الحصون بالأندلس، ثم كتب بهذا الفتح قال: وخاطب الحضرة بجميع هذا الفتح مفسرا مبشرا]⁽⁶⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 173.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 164.

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 190، وينظر أيضا: ج2، ص 196، 199، 203، 206.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 238، وينظر أيضا: ج2، ص 214، 218، 221، 236، 240، 245، 296.

(5) المصدر السابق، ج 3، ص 8.

(6) المصدر السابق، ج 5، ص 54.

وذكر ابن عذاري في وصف بعض المعارك أنهم كانوا يرسلون مع كتب الفتح برؤوس بعض النصارى المقتولين في المعركة بشارة بالنصر، فقال: [بعث إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابريهم]⁽¹⁾.

ولما احتل النصارى إشبيلية في عهد عبد الرحمن بن الحكم ثم أخرجهم المسلمون منها [كتب الأمير عبد الرحمن إلى من بطنجة من صنهاجة، يعلمهم بمن كان من صنع الله في الجوس وبما أنزل فيهم من النعمة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمئتي رأس من أنجادهم]⁽²⁾.

وقال: [وأوقع بابين حفصون - الناصر - ومن انحشد إليه من النصرانية في حصن (طرش)... وبعث برؤوسهم إلى قرطبة]⁽³⁾. وقال أيضا: [وبعث إلى قرطبة من رؤوس الكفرة التي أصيبت في المعارك المذكورة، أعداد عظيمة، حتى لقد عجزت الدواب عن استيفاء حملها]⁽⁴⁾.

- نتائج المعركة وذكر شهداء المسلمين وقتلى الكفار والأسرى والسبي:

سار ابن عذاري على طريقة المؤرخين في ذكر نتائج المعارك من نصر على الأعداء أو هزيمة وذكر من قتل المسلمين وأعدادهم وأعداد قتلى الكفار وعدد الأسرى والسبي.

فوجد ابن عذاري يذكر في فتوح إفريقية: [لما قتل عبد الله بن الزبير جرجير ملك إفريقية: "انهزم الروم، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وثار الكمائن من كل جهة ومكان، وسبقت خيول المسلمين ورجاهم إلى حصن سببلة، فمنعوه من دخوله، وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر فقتلوا أنجادهم وفرسانهم، وأكثروا فيهم الأسارى]⁽⁵⁾.

ولما بعث معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة قال: [فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة فوقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر، والروم يتعجبون من جرأته، فأخرجوا

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 96.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 88.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 165.

(4) المصدر السابق، ج 2، ص 180، وينظر أيضا: ج 2، ص 220، ج 5، ص 126.

(5) المصدر السابق، ج 1، ص 11.

إليه خيلاً وابن الزبير مقبل على صلاته، لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة، ثم ركب، وحمل على الروم بمن معه فانكشفوا منهزمين⁽¹⁾.

وفي وصفه لمحاربة زهير بن قيس البلوي مع كسيلة بن لمزم البرنسي قال ابن عذاري: [وأقبل كسيلة ومن معه، فالتقى الجمعان، والتحم القتال بين الفريقين، ونزل الضر وكثر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة فقتل ومضى الناس في طلب البربر والروم فلحقوا كثيرا منهم، وقتلوه⁽²⁾].

ووصف هزيمة المسلمين ومقتلهم كذلك فقال في مقتل زهير أن الروم [أغاروا على برقة فأصابوا فيها سببا كثيرا، وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية أخبر زهير بخبرهم فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل، طمعا أن يدرك سبي المسلمين، فيستنقذهم، فنأدى أصحابه بالترول، فتلوا وكانوا أشرف العابدين، ورؤساء العرب المجاهدين، أكثرهم من التابعين، فتل الروم إليهم وتلقوهم بعدد عظيم والتحم القتال، وتكاثر عليه الروم فقتل زهير - رصي الله عنه - وأشرف من كان معه من العرب⁽³⁾].

وذكر في ولاية داود بن يزيد بن حاتم إفريقية: اجتمع البربر على نصير بن صالح الإباضي قال: [فوجه إليهم داوود سليمان بن يزيد في عشرة آلاف، فهرب البربر أمامهم فتبعهم، وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف⁽⁴⁾].

أما في ذكر من قُتل من المسلمين بيد الكفار قال في غزوات عقبة بن نافع: [لما تكاثر البربر على عقبة ومعه أبو المهاجر دينار استعدوا وكسر المسلمون أغماد سيوفهم، وأمرهم عقبة أن يترجلوا عن خيولهم فقاتلوا قتالا شديدا، حتى بلغ منهم الجهد وكثر فيهم الجراح، وتكاثر عليهم العدو، فقتل عقبة،

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 16.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 32.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 33.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 82.

وأبو المهاجر، ومن كان معهما من المسلمين، ولم يفلت منهم أحد إلا بعض وجوههم أسروا، ففداهم صاحب قفصة⁽¹⁾.

كما وصف ابن عذاري مقتل الجنود المسلمين في فتوح الأندلس قال وهو يصف فتح ماردة أن المسلمين حاصروهم أشهراً حتى عمل دبابه، فدت المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها فنقبوها... إذا استثار العلوج عليهم، فاستشهد المسلمون تحت الدبابة⁽²⁾.

وذكر في غزوة الناصر إلى (بنبلونة) قال: [وانصرفوا سالمين، لم يصب منهم غير يعقوب بن أبي خالد التويري، ونفر يسير من الحشم فازوا بالشهادة، وختم الله لهم بالسعادة]⁽³⁾.

وذكر في حركة عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس لمحاربة ابن همشك، وكان غدر غرناطة وجيش الموحدين قال: [واستشهد في ذلك اليوم الشيخ أبو محمد بن أبي حفص المذكور وتخلص السيد أبو سعيد ووصل مدينة مالقة، واستشهد في ذلك اليوم العصب كثير من الموحدين والأندلسيين]⁽⁴⁾.

-وأحياناً- يذكر قتلى المسلمين دون تحديد مثل قوله: [واستشهد خلق من المسلمين كرمهم الله بالشهادة في أعلى عليين]⁽⁵⁾.

أما عن أعداد قتلى الكفار، فقد ذكر ابن عذاري في وصفه للمعارك ما خلفته المعركة من قتلى وأسرى وسبي، [ففي المعركة التي قتل فيها جرجير وجد في موضع واحد أكثر من ألف أسير]⁽⁶⁾.

كما أنه ذكر [أن خمس السبي بلغ في عهد موسى بن نصير ستين ألفاً ولم يسمع بمثل سبايا موسى في الإسلام]⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 29.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 14.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 187.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 75.

(5) المصدر السابق، ج4، ص 61.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 11.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 40، ج2، ص 23.

وكان الذي أصابه طارق بن زياد في أول فتح الأندلس عشرة آلاف رأس⁽¹⁾.

وذكر أيضا في غزوات الإمام هشام بن عبد الرحمن أغزى عبد الملك بن عبد الواحد إلى مدينة

أربونة قال: [وكان فتحا عظيما، بلغ فيه خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين]⁽²⁾.

وفي عهد الإمام عبد الله بن محمد في (سنة 291هـ/903م) قال: [خرج لب بن محمد إلى ناحية

بليارش فقتل بهذه الحصون نحوا من سبعمائة عالج، وسبى بها نحوا من ألف سبية]⁽³⁾.

– أمثلة لتطبيق ابن عذاري هذا المنهج في وصفه للمعارك والحروب:

غزوة الأرك:

وهي من الغزوات المهمة في تاريخ الموحدين والتي وقعت في بلاد الأندلس في عهد الخليفة

الموحدي المنصور (سنة 591هـ/1195م).

أسباب الحرب:

لقد ذكر لنا ابن عذاري في (سنة 590هـ/1194م) أنه: [قد انصرفت مدة صلح ملك قشتالة

فبعث هذا الأخير إلى جميع ثغور المسلمين المجاورة له لينذرهم ويحذرهم، وقد كان وجه رسله إلى عقد

المهادنة وأظهر بعده المكيدة فأعقبه الله سوء غدره، وأحاق به وبال مكره، واغتر الكافر وتأنس بإشاعة

الحركة إلى إفريقية فجمع اللعين المذكور أنجاده وأقماطه وقواده وضرب لهم ميقاتا ارتبطوا عليه في شن

الغارات فضربوا بلاد المسلمين شرقا وغربا وعمت الفرقة العادية الواصلة إلى إشبيلية جميع جهاتها،

وانتشرت على أنظارها وخبياتها، فوردت هذه الأنباء الشنيعة، والأموال الفضيعة، على المنصور وهو

على قدم الحركة، فأنفذ ولاة الأندلس عند جوازه إلى عدوة سلا تصحيحه على طريق الشرق ووصل

(1) المصدر السابق، ج1، ص 8.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 64.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 141، وينظر أيضا: ج2، ص 146، 217.

مكناسة، وأخبار عبث العدو في الأندلس تشنع، ومخاطبات أهل ثغورها تجمع، وصرف وجه الحركة من مكناسة إلى بلاد الأندلس⁽¹⁾.

التأهب والاستعداد للمعركة:

قال ابن عذاري: [أمر المنصور ولاة إفريقية بحدود الأموال وكتبه الكافية عن الكتائب والأبطال، ثم أمر المنصور بالتمييز يركب جميع العساكر بالأعداد الكاملة والزي الفاخر، ولما كملت مراكبهم، واستوفى بالانتظام راجلهم وراكبهم، ركب المنصور ومشى مع الكتاب والوزراء، ومن حضر من القرابة والأبناء، وطاف عليهم في مواضعهم صفا صفا وقبلا قبلا، وشكر استيفاءهم واستعدادهم شكرا جزيلا وخرجت المرتبات والبركات وانتفرت الحشود المعتادة، وسائر الجيوش المنقادة]⁽²⁾.

تحديد زمن المعركة:

ذكر ابن عذاري تاريخ غزوة الأرك فقال: [خرج لهذه الغزوة الميمونة بالأرك صبيحة يوم الخميس الحادي عشر من رجب من سنة احدى المذكورة 591هـ/1195م]⁽³⁾.

المناوشات الأولية قبل المعركة الحاسمة:

عادة ما تقع المناوشات بين سرايا الجيوش قبيل المعركة، قال ابن عذاري: [ضربت سرية خيل من النصرارى على قلعة رباح وما جاورها ليتجسسوا الأخبار فخرج إليهم من كان بالحصن فاقتفوا آثار أعداء الله والتحقوا بهم فكانوا عندهم كأكلة جائع أو شربة ضمان، وتركوهم بتلك البطاح ولائم للنسور والعقبان، فكانت هذه السرية باكورة الفتح]⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 217.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 218.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 218.

(4) المصدر السابق، ج5، ص 218.

– الخطب التشجيعية التحفيزية:

مما لا شك فيه أن ابن عذاري كان حريصاً على إيراد مقاطع من هذه الخطب حتى يبرز حماس المسلمين في الجهاد قال: [لما كملت جمعهم واستقرت بهم مجالسهم قام في صدرهم الوزير أبو يحيى بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وقال بصوت مسموع لكل من حضر: يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له فإن هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم وطيبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطاهم وما جرى إليهم من حسن معاملتهم ثم قال للجميع: من خليفة الله نطلب العفو والغفران، ويمن نيته وصدق طويته، نرجو الخير من الرحمن، وقام أبو علي القاضي ابن حجاج وخطب خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره]⁽¹⁾.

استعدادات المعركة بين الطرفين:

من خلال نقولات ابن عذاري تبين لنا أنه يذكر في تصويره للمعارك استعداد المسلمين والكفار لخوض المعركة الحاسمة، قال عن استعدادات المسلمين: [أمرهم الوزير بلباس أسلحتهم والاستعداد من الغدو والبكور للقاء عدوهم فتركوا بالحملة المحمولة والأثقال ومشى جميع العساكر على مهلهم ودنوا حتى صاروا من العدو بأوضح مرأى، وكانوا منه قاب قوسين أو أدنى، وأخذوا مراكزهم وقدموا رجالهم وترقبوا بالصفوف ووقفوا كالبنيان المرصوص، والمنصور مع أهل بيته، ومن جرت عادته من القبائل بالتزام ساقته من وراء الجميع يشد ظهورهم ويرى ويسمع شهودهم وحضورهم]⁽²⁾.

أما عن استعدادات النصارى فقد وصفهم بقوله: [ولما رأى الكفار ما دهمهم من جنود الله تعالى لم يكن لهم بد من الإبلاء والمدافعة فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر أسراباً وأمواجا تعقب أمواجا إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الاعلام فتوفقت كالجبال الراسيات]⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 219.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 219.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 219.

المعركة الحاسمة أو يوم الفصل:

وصف ابن عذاري تقابل الفريقين وقتلهم بقوله: [... حميت نفوسهم وتحركت هممهم فحمل كل قبيل على من يليه، ودفع كل موكب على من يقابله من العدو ويلتقيه، وانضمت على الكفار والأطناب، وسدت عليهم الأبواب، فلم يجد أحد منهم، حيث يعرج ولا وجدوا بابا للخلاص يفرج فالتحم الجمعان، واعترك الفريقان، وحى الوطيس، والتفت الأقدام والرؤوس، واستجمعت الأصوات وارتفع التمييز والالتفات، وخلع الكفار عن مراكزهم ونسخ الله ما أراهم من اغترارهم فولوا الأدبار، وشملهم الإدبار، وركبهم السيف وتقسّمهم النهب والحيف]⁽¹⁾.

نتائج المعركة:

ذكر ابن عذاري عن يوسف بن عمر الكاتب قال: [كان عدد القتلى في هذه الغزوة زهاء ثلاثين ألفا عبرة للناظرين وآية للسائلين، قال واستشهد في المسلمين نحو الخمس مائة، وأفلت أذفونش اللعين تحت حد السنان واجتاز على طليطلة لا يعرج على مكان في نحو عشرين فارسا قد اتخذوا الليل جملا، وأن رأوا غير شيء ظنوه رجلا]⁽²⁾.

- إرسال كتب الفتح تبشر بالنصر:

لقد كان من العادة إرسال الكتب تبشر بالنصر أمر المنصور كاتبه أبا الفضل بن أبي الطاهر بكتابه وقد أكد عليه أن يوجز الكتب في هذا الفتح ربما الغاية في ذلك الإيجاز، ولا يسلك في العبارة عنه مسلك شيء مما تقدم من أوصاف الفتوحات، وأن ينحو فيه منحى كتب الصحابة رضي الله عنهم في فتوحاتهم، فخاطب على ما أمر به⁽³⁾.

هكذا كان وصف ابن عذاري لهذه المعركة الكبيرة، إلا أنه لما يتطرق لوصف معركة صغيرة فإننا

لاحظنا أن منهجه يختلف في وصفه لها.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 220.

(2) المصدر السابق، ج5، ص 220.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 220.

فمثلا في فتوح إفريقية يصف ابن عذاري معركة قتل عبد الله بن الزبير لجرجير ملك إفريقية

باختصار شديد وهذه هي الموضوعات التي تطرق إليها:

- أسباب الحرب:

قال ابن عذاري: [ندب عثمان بن عفان رضي الله عنه الناس إلى غزوها فخرج المسلمون في

جيش عظيم]⁽¹⁾.

كما ذكر أيضا أن والي مصر عبد الله بن سعد ابن أبي السرح كتب إليه يدعو لفتح إفريقية لأنه

كان: [يبعث المسلمين في جرائد الخيل، يغيرون على أطراف إفريقية، فيصييون كثيرا من الأنفس

والأموال]⁽²⁾.

- الاستعداد لفتح إفريقية:

قال ابن عذاري: [إن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كتب إلى عبد الله: "وأمره بالدخول لغزو

إفريقية، فخرج عبد الله من مصر في عشرين ألفا إلى إفريقية، وصاحبها بطريق يقال له جرجير، وكان

سلطانه من إطرابلس إلى طنجة]⁽³⁾.

- المناوشات الأولية:

ذكر ابن عذاري أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح: [بعث السرايا إلى آفاق إفريقية فغنموا في

كل وجه]⁽⁴⁾.

- تحديد مكان المعركة وزمانها:

قال: [والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار، في موضع يعرف بسببلة]⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 8.

(2) المصدر السابق، ج 5، ص 9.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 10.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 9.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 5، ص 220.

– حالة العدو وعدده:

قال ابن عذاري: [كان جرجير في مائة وعشرين ألفاً... فلما رأى جرجير خيل العرب اشتد رعبه وأهمته نفسه، فأخرج ديدبانه، وصعد فيه يشرف على العساكر ويرى القتال]⁽¹⁾.

– الخطب التشجيعية:

ذكر لنا ابن عذاري أن جرجير حينما رأى خيل المسلمين اشتد رعبه ثم أظهر انيته وقال لهم: [وحق المسيح ودين النصرانية لئن قتل رجل منكم أمير العرب عبد الله بن سعد لأزوجه ابنتي هذه وأعطيه ما معها من الجوارى والنعمة، وأنزله المتزلة التي لا يطمع فيها أحد عندي]⁽²⁾.

ولما علم عبد الله بن سعد بالخبر نادى في عسكره وقال: [وحق النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته من معها]⁽³⁾.

– صفة القتال أو طبيعة القتال:

قال ابن عذاري: [ثم زحف المسلمون، فالتقى الجمعان، واستمر القتال، واشتعلت نار الحرب، والمسلمون قليل، والمشركون في عشرين ومائة ألف]⁽⁴⁾.

– استغلال الفرص، الاستشارة في الحرب والخديعة:

قال ابن عذاري، قال عبد الله بن الزبير: [فأريت عورة من جرجير، والناس على مصافهم رأيتهم على بردون أشهب خلف أصحابه منقطعاً عنهم، معه جاريتان له تظلاله من الشمس بريش الطواويس، فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد... فرأى وجهي فأوماً إلي أن تعال فدخلت عليه، وهو مستلق على فراشه فقال: ما جاء بك يا بن الزبير؟، فقلت: رأيت عورة من عدونا فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا، وخشيت الفوت، فقام من فوره وخرج حتى رأى ما رأيت فقال أيها الناس انتدبوا مع ابن

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 10.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص 10.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 10، والرواية فيها خطأ على ما أظن وأعتقد، لأنه لا يمكن أن يحلف عبد الله بن سعد بالنبي صلى الله عليه وسلم.

(4) المصدر السابق، ج 1، ص 10.

الزبير إلى عدوكم فتسرع إلي جماعة اخترت منها ثلاثين فارسا، فقلت: إني حامل فاصرفوا عن ظهري من أراذني، فأني سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله.

قال عبد الله: فحملت في الوجه الذي هو فيه، وذبح عني الناس الذين انتدبوا معي واتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية، فضاء بيني وبينهم، فوالله ما حسب إلا أني رسول إليه حتى رأى ما بي من أثر السلاح، فقدر أني هارب إليه، فلما أدركته، طعنته، فسقط فرميت نفسي عليه، وألقت جاريته عليه أنفسهما فقطعت يد إحداهما، وأجهزت عليه ورفعت رأسه على رمحي⁽¹⁾.

- المعركة الحاسمة:

لما قتل ابن الزبير ملكهم جرجير قال ابن عذاري: [حمل المسلمون في ناحيتي، وكبروا فانهمزم الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وثار الكمائن من كل جهة ومكان، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سببلة، فمنعوه من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل الوعر]⁽²⁾.

- عدد القتلى والأسرى:

قال ابن عذاري: [فقتلوا أنجادهم وفرسانهم، وأكثروا فيهم الأسارى، حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير]⁽³⁾.

ولما فتحت قرطاجنة قال أيضا: [أصاب فيها من السبي والأموال ما لا يحيط به الوصف وكان أكثر أموالهم الذهب والفضة، فكانت توضع بين يديه أكوام الذهب والفضة]⁽⁴⁾.

- الصلح والجزية:

قال ابن عذاري: [فأذلت هذه الوقعة الروم بإفريقية، ورعبوا رعبا شديدا، فلجأوا إلى الحصون والمعقل، ثم طلبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب في السنة، جزية على

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 1011

(2) المصدر السابق، ج1، ص 11.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 11.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 12.

أن يكف عنهم، ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم، وقبض المال وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عليهم⁽¹⁾.

– منهج ابن عذاري في تحديد المواقع والأماكن والحدود والمسالك والمدن:

لقد تطرق ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب» إلى الحديث عن الجغرافية في ذكر لحد بلاد المغرب وإفريقية، ووصفه بلاد الأندلس وأسباب بناء بعض المدن ووصف مدن قائمة وتحديد أماكن ومواقع وقعت فيها أحداث ومعارك مشهورة، وما يتعلق ببعض الأماكن من حوادث تاريخية. أما ما يتعلق بحد المغرب فقد أفرد فصلا بعنوان «ذكر حد المغرب وإفريقية وما اتصل بهما وعد معهما»⁽²⁾.

ونقل فيه عن المصادر و«المؤرخين لأخباره، والمعتنين بآثاره»⁽³⁾، حدوده ثم ذكر أقسامه ومسمياته وما يحيطه من بحار⁽⁴⁾.

أما عن بلاد الأندلس، فقد أفرد لها أيضا فصلا بعنوان «ذكر صفة الأندلس وأوليتها»⁽⁵⁾، حيث ذكر فيه حدوده وما يحيط به من بحار والأقوام التي سكنته بعد الطوفان، ومن ملكها وحكمها من الملوك⁽⁶⁾.

ثم قال: [وهذا القدر كاف هنا من صفة الأندلس وذكر ملوكها]⁽⁷⁾.

إلا أنه ومن الملاحظ على ابن عذاري أنه لم يسم من مصادره في صفة الأندلس سوى كتب العجم⁽⁸⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 12.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص5.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 5.

(4) المصدر السابق، ج1، ص ص 56.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 1.

(6) المصدر السابق، ج2، ص ص 12.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 3.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 3.

ذكر ابن عذاري وصف بعض المدن معتمدا على المصادر ومن بينها مدينة تيهرت⁽¹⁾، وطنجة⁽²⁾، وتلمسان⁽³⁾، وصبرة⁽⁴⁾، وأصيلا⁽⁵⁾.

لكنه وصف مدنا أخرى ولم يذكر مصادره فيها مثل: مدينة قرطاجنة⁽⁶⁾، والبصرة (بالمغرب)⁽⁷⁾، وسجلماسة⁽⁸⁾، وجراوة، وتيهرت⁽⁹⁾، وسبتة⁽¹⁰⁾، والمهدية⁽¹¹⁾، والقيروان⁽¹²⁾.

ومن منهج ابن عذاري في وصفه للمدن ذكر من أمر بنائها والأسباب في ذلك فمدينة «تیهرت» أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام في (سنة 161هـ/777م)⁽¹³⁾.

إضافة إلى مدينة «المسيلة» أمر بنائها الأمير أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي سنة 313هـ/925م، وجعل المتولي لبنائها علي بن حمدون الأندلسي⁽¹⁴⁾، وكان هدفه في ذلك أن يجعلها سدا بينه وبين زناتة ليكف عاديته⁽¹⁵⁾.

أما مدينة «أشير» فبناها زيري بن مناد الصنهاجي كما قال ذلك بن عذاري، والدليل على ذلك ما تم إنشاده من طرف عبد الملك بن عيشون:

يأيها السائل عن غربنا وعن محل الكفر أشير

(1) هنا عندما ذكرها أولا ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 25.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 26.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 200.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 219.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 232.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 35.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 103.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 156.

(9) وهنا ذكرها للمرة الثانية، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 196.

(10) المصدر السابق، ج1، ص 200-201.

(11) المصدر السابق، ج1، ص 207.

(12) المصدر السابق، ج1، ص 193، 208.

(13) المصدر السابق، ج1، ص 196.

(14) المصدر السابق، ج3، ص 215.

(15) المصدر السابق، ج3، ص 268.

عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للكفر والزور
أسسها الملعون زيورها فلعنة الله على زيري⁽¹⁾.

وكان بنائها بأمر معد بن إسماعيل العبيدي ملك الشيعة وهدفه ليغادر منها بلاد زناتة ورام أن يبدهم لآبائهم من الدخول في دولته العبيدية وانحيازهم إلى الدولة المروانية⁽²⁾.

أما مدينة "صبرة" فقد بناها المنصور أبو الطاهر (سنة 336هـ/973م)⁽³⁾، ومدينة «الزهراء» بقرطبة ابتدئ بنائها في أيام الناصر⁽⁴⁾، ومدينة «الزاهرة» أمر ببنائها المنصور ابن أبي عامر⁽⁵⁾، أما «مراكش» فأمر ببنائها الأمير أبو بكر بن عمر وذلك في (سنة 462هـ/1069م)⁽⁶⁾.

أما عن تسمية بعض المدن ذكر ابن عذاري عن مدينة «سبتة» قال: [واختلف في تسميتها بسبتة فقال قوم: سميت بذلك لانقطاعها في البحر، فمثلا: تقول العرب: سبت النعل إذا قطعتة، وقال آخرون: إن رجلا من ولد سام بن نوح اسمه سبت خرج من المشرق لأسباب عرضت له، فتوغل في المغرب حتى أتى موضعها، فاختم فيه موضعا يعمره]⁽⁷⁾.

وعن تسمية مدينة المهديّة قال: [هي منسوبة إلى المهدي عبيد الله الشيعي، فإنه لما تغلب على الملك، تلقب بالمهدي فسمى مدينته التي بناها بلقبه]⁽⁸⁾.

ومدينة رقادة: دار ملك بني الأغلب، فسميت بذلك قال: [أن أحد ملوك بني الأغلب شرد عنه النوم فلما وصل إليها، نام فسميت رقادة]⁽⁹⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 216.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 216.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 219.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 231.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 275.

(6) المصدر السابق، ج4، ص 19.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 202.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 207.

(9) المصدر السابق، ج1، ص 207.

كما نجد أيضا يذكر أسماء المدن إذا تعددت مثل مدينة «البصرة» بالمغرب قال: [تعرف بصرة الكتان، لأنهم كان يتبايعون في بدء أمرها في أكثر تجارتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء، لأنها حمراء التراب]⁽¹⁾.

ومدينة «المسيلة» تسمى أيضا «الحمدية»⁽²⁾، أما مدينة «صيرة» فتسمى أيضا «المنصورية»⁽³⁾.

كما كان ابن عذاري حين يصف بعض الأماكن يذكر ما يتعلق بها من حوادث تاريخية فمثلا «وادي شلف» أنه يسمى بوادي الحن، لما وقع فيه من معارك وهزيمة ومقتل ملوك زناتة، ونقل ذلك عن الرقيق القيرواني⁽⁴⁾.

ولما ذكر حصن «تيونيوين» قال: [هذا الحصن على قديم الزمان مجبول من فيه أهله على الشقاق والارتداد]⁽⁵⁾. ثم ذكر: [قصة الثائر عبد الرحيم بن الفرس الذي ثار وامتنع في هذا الحصن إلى أن اغتيل وقتل، وذكر أنه ما من ثائر في عهد الموحدين إلا استقر بهذه البلاد في قتاله]⁽⁶⁾.

كما كان حرصه في هذا العنوان بالذات تحديد المسافة بين المدن والأماكن والمواقع قمثلا: قال عن تيهرت أنها: [على خمسة أميال من الحديثة]⁽⁷⁾، [ومسافة ما بين القيروان وطنجة مسيرة ألفي ميل]⁽⁸⁾، [وقرطاجنة إفريقية وهي مدينة تونس على اثني عشر ميلا]⁽⁹⁾. أما مدينة البصرة بالمغرب [منها إلى قصر كتامة، وهو قصر عبد الكريم مرحلة، ومنها إلى مدينة جنيارة مرحلة، وهي مدينة عيسى بن

(1) المصدر السابق، ج1، ص 103.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 215.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 219.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 266.

(5) المصدر السابق، ج5، ص 348.

(6) المصدر السابق، ج5، ص 348، وينظر أيضا: ج5، ص 460.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 25.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 26.

(9) المصدر السابق، ج1، ص 34.

حسن الحسيني المعروف بالحجاج، ثم إلى مدينة سداك وهي قاعدة خلوف بن محمد المغيلي، ثم إلى فاس فذلك مراحل⁽¹⁾.

ولما ذكر مدينة تيهرت قال: [ومن جراوة إلى تيهرت ثلاثة مراحل، وإلى حصن تامغلت مرحلتان، يسكنه بنو دمرزناة]⁽²⁾.

وقال عن المهديّة [بينها وبين القيروان ستون ميلا]⁽³⁾، ومدينة صبرة [بينها وبين القيروان نحو نصف ميل] وكان من المهديّة إلى مدينة سلقطة ثمانية أميال⁽⁴⁾.

وفيما يتعلق بوصف ابن عذاري للمواقع والمدن نسوق أمثلة لذلك.

حيث وضع ابن عذاري في وصف المغرب وحدوده فصلا بعنوان «ذكر حد المغرب وإفريقية وما اتصل بهما وعد معهما»⁽⁵⁾، ثم نقل المعلومات عن المصادر في النقاط الآتية:

حد المغرب:

نقل ابن عذاري عن [المؤرخين لأخباره المعتنين بآثاره أن حد المغرب هو في ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب، إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلا]⁽⁶⁾.

كما نجد ينقل من مصدر آخر حدا آخر للمغرب قال: [أن حد المغرب من بحر القلزم، وهو الهابط من اليمن إلى عدن إلى عيذاب إلى القلزم ويأتي من مصر قبلة وشرقا].

وحد المغرب إذن من الجوف البحر الشامي، وهو بحر الإسكندرية، وهو التفرع في بحر الزقاق من جزيرة طريف، وعلامته ضم قادس، وحد المغرب من المغرب البحر المحيط المسمى الأبلاية.

(1) المصدر السابق، ج1، ص ص 103104.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 200.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 207.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 219.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 5.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 5.

وصار المغرب كالجزيرة دخل فيه بعض أعمال مصر، وإفريقية كلها، والزاب، والقيروان، والسوس الأدنى، والسوس الأقصى، وبلاد الحبشة، ومنه يتفرع نيل مصر⁽¹⁾.

أقسامه:

أما في ذكر أقسام بلاد المغرب قال: [قسم من الإسكندرية إلى طرابلس وهو أكبرها، وأقلها عمارة، وقسم من طرابلس وهي بلاد الجريد، ويقال أيضاً بلاد الزاب الأعلى، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل وحدها إلى مدينة تيهرت، ويليهما بلاد المغرب وهي بلاد طنجة، وحدها مدينة سلا، وهي آخر المغرب، وإذا جرت سلا، وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يمنة وأخذت منها قافلاً إلى القبلة فتسمى تلك البلاد تامسنا، ويقال لها -أيضاً- بلاد السوس الأدنى، وحدها إلى جبل درن، وإذا جرت هذا الجبل، فعن يمينك بلاد السوس الأقصى، ويقال لها بلاد ماسة، ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد السودان، وهي بلاد الزنج، وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب، وداخله فيه، لاتصالها به، ويليهما المجاز الأعظم، الذي يسمى بحر الزقاق وفيه مصب البحر الكبير، الذي يسمى المحيط، ويقال له بحر الظلمات، وهذا البحر لا يعلم له ساحل غير الذي عليه بلاد السودان وبلاد المحوس الذي يلون بلاد الأندلس.

ويصب ماء الزقاق في البحر الرومي، ويقال له أيضاً البحر الشامي، وهو يتصل إلى بلاد الشام إلى ناحية القسطنطينية، وبينه وبين بحر الزقاق الخليج الذي منه⁽²⁾.

صفة الأندلس:

أما عن صفة الأندلس فقد وضع لها عنواناً «ذكر صفة الأندلس وأوليتها»⁽³⁾، حيث تطرق فيها

للقاط الآتية:

(1) المصدر السابق، ج1، ص 6.

(2) المصدر السابق، ج1، ص ص 56.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 1.

ذكر ابن عذاري في صفة الأندلس قال: [جزيرة مُركّنة، ذات ثلاثة أركان، قريبة من شكل المثلث، الركن الواحد منها عند صنم قادس، والركن الثاني في بلاد جليقيّة، وهو مقابل لجزيرة بركانية، حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق، بين مدينة أربونة ومدينة برذيل حيث هو قرب البحر المحيط الغربي من البحر المتوسط الشامي، وكان البحران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير الأندلس في جزيرة لولا يسير ما بقي منها، وهو مسيرة يوم كامل، وفيه مدخل يقال له الأبواب وفيه تتصلّ الأندلس بالأرض الكبيرة].

- حدودها:

أما عن حد بلاد الأندلس وما يحيط بها قال: [فالأندلس كلها محدقة بالبحر: البحر المحيط الغربي، والبحر المتوسط القبلي، ويصعد منه قليل إلى ناحية الشرق فحدّ الأندلس في الشرق والغرب وبعض الجوف البحر المحيط، وحدّها في بعض القبلة والشرق البحر المتوسّط، إلا أنّه يتوسط الأرض كلّها. وقيل إنه في آخر الأقاليم السبعة⁽¹⁾].

أما وصفه للمدن مثل مدينة تيهرت⁽²⁾، فقد تطرق للنقاط الآتية:

- **تحديد المدن:** قديمة وهي: على خمسة أميال من الحديثة، وفي شرقيها قصر لبعض القبائل الحديثة، مشهورة أسسها عبد الرحمن بن رستم (سنة 161هـ/777م).

- **أبوابها:** باب الصف، وباب المنازل، باب الأندلس، باب المواجن.

- **موقعها:** وهي سفح جبل يقال له جزول، ولها قصبية مشرفة على السوق، يقال لها المعصومة، وهي على نهر يأتيها من القبلة.

- **وصف الطقس:** كثيرة البرد والثلج والأمطار، حتى قيل لبعضهم [كم زمن الشتاء عندكم] قال: [ثلاثة عشر شهرا]، وقال بعضهم:

ما أطول البرد وريعانه وأطراف الشمس بتيهرت

(1) المصدر السابق، ج2، ص 1.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 25، 196.

تبدو من الغيم إذ ما بدت كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السم
نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذمي بالسبت

- قبائلها: لواته، هواره، وبغريها: زواغة، وبجنوبيها مطماطة وزناتة.

- تأسيسها: لقد كان احداث تيهرت الحديثة بعد (سنة 140هـ/757م)، والقديمة قبل ذلك بما لا يعرف أوله.

- أسواقها وحماتها: وللحديثة أسواق كثيرة عامرة وإثنا عشر حماما.

- بنياها: كانت غيضة بين ثلاثة أنهار، فبنوا مسجدا من أربع بلاطات واختلط الناس مساكنهم⁽¹⁾.
وفي صفة مدينة طنجة⁽²⁾، فقد تطرق إليها في النقاط الآتية:

- مساحة ولايتها: مسيرة شهر في شهر.

- من ملكها: كان ملكا من ملوكها إذا اجتمع عسكره بلغ ثمانون ألفا.

- موقعها: مسافة ما بين القيروان وطنجة مسيرة ألفي ميل، وهي قديمة أزلية ليس بالمغرب أقدم منها، لكنها غلب عليها الرمل، والعمارة اليوم فوقها.

- قبائلها: مساكن صنهاجة الهبط بطريق الساحل مما يلي ستة وبتون صنهاجة كثيرة، تفرق من قبيلتين، وبتون مصمودة تتشعب من أربع قبائل: دغاغ، وآصاد، وبني سمغرة، وكتامة.⁽³⁾

ولا ربما أيضا ذكر تحصينات المدينة فقال عن حصانة مدينة «المهدية»: [بها دار صنعة الإنشاء

العجيبة: يخرج الجفن معمورا من خلف السور، فلا يعلم به حتى يفجأ العدو القاصد فيحيط به، فلا يقربها العدو لأجل ذلك]⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 25، 196.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 26.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 26.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 207.

ومن خلال نقولاته -أحيانا- يذكر آثار المدن فقال عن مدينة قرطاجنة [وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية فخمة، وأعمدة ثابتة غليظة، تدل على عظم قدرة الأمم الدائرة، وأهل تونس إلى الآن لا يزالون يطلعون في خرابها على أعاجيب ومصانع لا تنقطع بطول الأزمان لتأمل]⁽¹⁾.

وقال -أيضا- عن آثار مدينة ماردة بالأندلس [فيها آثار عجيبة، وقنطرة، وقصور، وكنائس، تفوق وصف الناظرين، وهي تعتبر إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها أكتيبان قيصر، وهي قرطبة، وإشبيلية، وماردة وطليلة]⁽²⁾.

ويبدو جليا لهذه الأوصاف حول المدن أن ابن عذاري كان متابعا لحركة العمارة بالمدن، فقد قال في وصفه للقيروان حين خربها دخول قبائل العرب قال: [توالى الدمار عليها بدخول العرب لها، على ما يأتي ذكره في موضعه، فلم يبق بها إلا أطلال دراسة، وآثار طامسة، ويذكر أنها ستعود إلى ما كانت عليه، وهي الآن في وقتنا هذا، وهو آخر المائة السابعة، قد ابتدأت بالعمارة]⁽³⁾.

كما قال في بناء مدينة مراكش: [فذكروا أن أول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين بن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها وهي الآن ظاهرة على المقر بالموضع المذكور إلى وقتنا هذا سنة ست وسبعماية]⁽⁴⁾.

كما وصف ابن عذاري بعض المدن بأوصاف جغرافية فوصف فاس بأنها قاعدة المغرب وأم القرى⁽⁵⁾.

ووصف مدينة مراكش بأنها أم القرى بهذا الإقليم⁽⁶⁾، ووصف مدينة تلمسان بأنها قاعدة المغرب الأوسط⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 35.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 14.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 208.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 20.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 186.

(6) المصدر السابق، ج5، ص 338.

(7) المصدر السابق، ج1، ص 200.

ومن هذا كله نصل إلى ملاحظة مفادها أن ابن عذاري كان يحاول للجمع بين السرد التاريخي وبين وصفه للأماكن، والمواقع والمدن محاولا بذلك الربط بين التاريخ والعلوم الأخرى.

- منهجه في التأليف وتحديد أزمنة الحوادث والتواريخ:

مما لا شك فيه أن المنهج الذي يغلب على تأليف ابن عذاري في كتابه البيان المغرب هو: المنهج الحولي إلى جانب أسلوب الرواية، وكان هذا المنهجان شائعان في التأليف.

فالمنهج الحولي يعتمد على ترتيب الأحداث التاريخية وسردها حسب تعاقب السنين، وأسلوب الرواية، أي اختصار الأخبار وروايتها كحادثة واحدة متصلة بغض النظر عن السنين التي وقعت فيها الحادثة التاريخية⁽¹⁾.

كما يوجد هناك منهج آخر لا يقل أهمية عن المناهج المذكورة آنفا وهو التأريخ للمدن، حيث هذا المنهج يعتمد الكتابة عن تاريخ المدن بشكل منفصل، وتختلط في هذه الحالة المعلومات التاريخية بالمعلومات الجغرافية.

وكانت هذه الظاهرة أمرا مألوفًا، لأن المؤرخين المسلمين، لاسيما في المغرب والأندلس، كانوا يبدأون تاريخهم بالحديث عن جغرافية البلد الذي يؤرخون له⁽²⁾.

ومن هذا المنطلق فقد حاول ابن عذاري أن يوفق بين هذه الأساليب كافة في تدوين كتابه البيان المغرب، فاتخذ بذلك مبدأ الحوليات أساسا في الترتيب، حيث ابتداء (سنة 21هـ/641م) التي افتتح فيها عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية⁽³⁾.

ثم سار على هذا النسق الذي أطلق عليه اسم «نسق التاريخ»⁽⁴⁾، ولكن ابن عذاري استطاع أن يطور هذا الأسلوب ليحمله ملائما للتدوين، فمزجه بالأسلوبين السابقين، أي الرواية وكتابة تاريخ

(1) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ص 5455 نقلا عن د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن إفريقية، ص 212.

(2) المرجع السابق، ص 212.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 8.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 227.

المدن والجماعات، حيث خدمته هذه الطريقة في عرض الأحداث بشكل أفضل، فحينما لا يكون المؤلف متأكدًا من السنين يختصر الأحداث ويرويها كحادثة واحدة خشية أن ينقطع السياق.

فعلى سبيل المثال نجد أنه يجمع ويختصر غزوات عقبة بن نافع (سنة 62هـ/681م)، لأنه بذلك كما يقول لا يعلم هل كانت متصلة في هذا العام وحده، أو فيه وفيما بعده من بقية أيام يزيد بن معاوية، فرأيت إيراد غزواته هنا مجموعة مختصرة لئلا ينقطع خبرها، إذ مبدؤها في هذه السنة وفي ولاية يزيد، فهو منسوب إليها⁽¹⁾.

وعلى حين غرة نجد ابن عذاري يخرج-أيضا-عن إطار الحوليات، حينما يورد أخبارا تفصيلية عن موضع معين، أو مدينة معينة، أو جماعة خاصة، فيذكر معلوماته على شكل رواية متصلة، فبعد أن ينهي حديثه عن حوادث (سني 49-50هـ/229-670م) يورد عنوانا تفصيليا هو: «ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان»

وبعد أن ينتهي من ذكر المعلومات المتعلقة بعقبة بن نافع ودوافعه لبناء مدينة القيروان، واختيار موقعها، يرجع إلى طريقة الحوليات: «رجع الخبر»⁽²⁾.

وفي (سنة 51هـ/671م) شرع عقبة رضي الله عنه في ابتداء بناء مدينة القيروان وأجابه العرب إلى ذلك وفي نفس الوقت يفعل الشيء ذاته بعد حوادث (سنة 62هـ/681م)، وبتعيين عقبة على ولاية إفريقية والمغرب كله للمرة الثانية في خلافة يزيد بن معاوية، فيذكر في رواية تفصيلية مقولة، الأحداث المهمة لهذه الولاية، تحت عنوان «ذكر فتح المغرب الأقصى على يد عقبة رضي الله عنه وغزواته» وينهيها بعنوان آخر هو: «ذكر وفاة عقبة بن نافع رضي الله عنه» ويورد ضمن هذين الموضوعين معلومات تفصيلية عن جغرافية وتاريخ بعض المدن المهمة في الشمال الإفريقي، مثل مدينة تيهرت، وطنجة، وقيسرونة، ثم يرجع إلى أحداث (سنة 64هـ/283م).

(1) عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن إفريقية، ص 213، وينظر أيضا: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 24.

(2) عبارات يذكرها ابن عذاري 'رجع الخبر' 'رجعنا للخبر' 'رجعنا الخبر إلى نسق التاريخ'، وهي عبارات يذكرها ابن عذاري عند رجوعه لذكر الأحداث حسب تسلسلها التاريخي، وذلك بعد خروجه، واستطراده في خبر آخر أو موضوع آخر، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 227، 256، ج3، ص 52، 185، ج5، ص 30، 47 وغيرها

ومما تجدر الإشارة إليه هو أنه وبعد أحداث (سنة 35هـ/655م) يقطع ابن عذاري التسلسل الزمني لأخباره، ليذكر تفاصيل مشوقة عن جماعة برغواطة، تحت عنوان خاص هو: «خبر برغواطة» حيث يتطرق فيه إلى هذه المجموعة البربرية التي اعتنقت ديانة غريبة، وادعى بعض أمرائها النبوة، ثم ينهي حديثه عنها بالرجوع إلى النظام الحولي قائلاً: [رجعنا إلى نسق التاريخ].

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الطريقة، ما أورده بعد أحداث (سنة 391هـ/1000م)، المنتهية بوفاة زيري بن عطية الزناتي «صاحب فاس والمغرب كله»، فيضع عنواناً مناسباً لموضوع استطرادي هو: «بعض أخبار قبيلة زناتة البربرية وعلاقتها بالأندلس، ودورها في المغرب إلى حدود سنة 458هـ/1065م» بعد ذلك يعود إلى طريقته الأولى بقوله: «رجع الخبر إلى نسق التاريخ»⁽¹⁾.

واللافت للانتباه إلى جانب تأريخ الحوادث بالسنة، فإنه كان يحددّها بالشهر وبالأيام فمثلاً: «وقعة كتامة بالقيروان يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان»⁽²⁾، «فصل عن رقادة يوم السبت لخمس بقين من شهر رمضان»⁽³⁾، «خرج المعز بن باديس من المنصورية متنقلاً إلى المهديّة لليلتين بقيتا من شعبان، وفي أول يوم من رمضان انتهب العرب مدينة القيروان وخربتها»⁽⁴⁾.

أما إذا أهمل ذكر الشهر واكتفى بحوادث السنة، فتكون الرابطة بين حدث وآخر بلفظ «فيها»⁽⁵⁾، أو «في السنة» أو «السنة المؤرخة»⁽⁶⁾.

كما نجد في بعض النقول يستعمل أحياناً ألفاظاً تقريبية «عقب، سلخ، خلون، بقين» وذلك في حالة عدم وقوفه على تاريخ محدود للحادثة في خلال أيام الشهر فمثلاً يقول [وفي عقب شوال، قدم

(1) د. عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري عن إفريقية، ص 213214.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص166.

(3) المصدر السابق، ج1، ص167.

(4) المصدر السابق، ج1، ص294.

(5) المصدر السابق، ج1، ص62، 78، 94، 104، 188، 190، ج2، ص53، 175، وهي عبارة عن أمثلة توضيحية لتقريب المعنى.

(6) المصدر السابق، ج1، ص59، 73، 105، 182، 184، 209، ج2، ص48، 174، 201، 229، 252، ج5، ص30، 97، وهي عبارة

عن أمثلة فقط

رسول الخير محمد بن خذر الزناتي أمير المغرب⁽¹⁾، وأيضا [وفي منسلخ شوال، قدم على الناصر رسولان من أبي يزيد مخلد بن كيداد]⁽²⁾.

[يوم الجمعة لثلاث خلون من ربيع الأول من العام المؤرخ]⁽³⁾، [وانصرف آخر رجب من السنة]⁽⁴⁾، [توفي ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان المعظم]⁽⁵⁾.

أو نجده يحدد الحادثة بيوم من أيام الأسبوع مثلا: «قتل منصور البرغواطي وذلك يوم السبت الثاني من شوال»⁽⁶⁾، «يوم الخميس الخامس والعشرين لرجب»⁽⁷⁾، «يوم الأربعاء الخامس عشر من الشهر المذكور»⁽⁸⁾.

أو تحديد الحادثة بيوم مشهور مثل: «مات عمرو بن العاص بمصر يوم الفطر»⁽⁹⁾، «واستشهد رحمه الله يوم عرفة»⁽¹⁰⁾، «ونازلهم يوم عاشوراء»⁽¹¹⁾.

وفي بعض الأحيان يحدد الحادثة بأجزاء اليوم مثل: «التقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار»⁽¹²⁾، «فكان يقاتلهم وسط النهار»⁽¹³⁾، «ومقتل أبي عبد الله الشيعي يوم الثلاثاء وقت الزوال مستهل ذي الحجة»⁽¹⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 212.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 212.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 201.

(4) المصدر السابق، ج2، ص 217.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 85.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 294.

(7) المصدر السابق، ج5، ص 76.

(8) المصدر السابق، ج5، ص 211.

(9) المصدر السابق، ج1، ص 10.

(10) المصدر السابق، ج2، ص 26.

(11) المصدر السابق، ج5، ص 144.

(12) المصدر السابق، ج1، ص 10.

(13) المصدر السابق، ج1، ص 17.

(14) المصدر السابق، ج1، ص 164.

أما إذا وجد اختلافًا في تاريخ الحادثة أو كان لها أكثر من تاريخ يعبر عنها بقوله [قيل كذا] مثل: [في سنة 160هـ، وقيل 162هـ، دخل إلى الأندلس عبد الرحمن بن حبيب الفهري]⁽¹⁾، [وفي سنة 454هـ كان مهلك ابن السقاء بقرطبة مدير الدولة الجمهورية، وقيل بل كان ذلك في سنة خمس بعده]⁽²⁾.

أما إذا لم يظهر له ترجيح في تاريخ الحادثة نسب القول لصاحبه مثل تولية موسى بن نصير على ولاية المغرب قال: [وذلك سنة 83هـ على قول من قال: أنه ولي فيها]⁽³⁾،

وإذا حلت بعض السنوات من أخبار مشهورة تذكر ذكر ذلك بقوله: [وفي سنة 204هـ لم يكن فيها ولا في التي بعدها خير يجتلب]⁽⁴⁾، وكذلك في سنة 228هـ/842م عن عريب [لم يكن في إفريقية في هذه السنة خير يذكر، ولا في السنتين بعدها]⁽⁵⁾، أو [سنة 149هـ لم يكن فيها حركة]⁽⁶⁾.

كما لاحظنا من خلال تتبعنا لبعض نقولات ابن عذاري أنه كان -أحيانًا- يستخدم التاريخ بالأشهر الشمسية قليلًا في تأريخ الأخبار مثل: «برز أحمد بن أحمد بن زياد للاستسقاء بالناس يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة من شوال وهو أول شهر مائة»⁽⁷⁾.

وقال عن عزوة الناصر مويش [ثم فصل غازيا من قصر قرطبة، يوم السبت لثلاث عشرة ليلة حلت من المحرم سنة 308هـ/920م، وهو اليوم الثالث من شهر حزيران]⁽⁸⁾.

وقال: [وانصرم شهر آذار ونيسان وحصد الزرع بكل مكان وحسن إلى الغزو الترحال]⁽⁹⁾.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 55.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 251.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 41.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 97.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 108.

(6) المصدر السابق، ج1، ص 74.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 166.

(8) المصدر السابق، ج2، ص 175.

(9) المصدر السابق، ج5، ص 223.

وقال أيضا: [وانصرف شهر آذار وقرب نيسان وطاب الزمان]⁽¹⁾.

- أسلوبه في الكتابة:

مما تأكد لدينا من خلال عرض نقولات ابن عذاري ثقافته الواسعة ومعرفته باللغة العربية كانت حسنة جدا يدل على ذلك شهوده مجالس العلماء أو كما قال عن نفسه: [إن أولى ما ربضنا به النفوس البشرية مجالسة العلماء والأخيار، ومذاكرة ذوي الهمم وعلو المقدار]⁽²⁾، فإنه ما ارتاد هذه المجالس إلا بعد أن بلغ مرتبة من العلم وبذلك جاء كتابه حسن العرض مع عدم التكلف إلى جانب الوضوح والإيجاز.

وبالتالي فقد انفرد أسلوب ابن عذاري أو اتسم ببعض السمات أبرزها:

- إن أولى السمات البارزة والغالبة على ما كتبه ابن عذاري في «البيان المغرب» هو الوضوح، وذلك كما يدل عليه عنوان كتابه «البيان»، ثم البساطة المؤدية بلا شك إلى المعنى بصفة سهلة، كما تميز بالقوة والخلو من اللحن وكانت لغته سلسلة يسهل حتى على القارئ فهمها، حيث قدمها خالية من الألفاظ الغريبة إلا فيما ندر.
- كما برز لدينا أن ابن عذاري ابتعد كثيرا عن السجع في كتابه إلا ما ورد في المقدمة - والتي بلا شك تعود المؤلفون أن يضعوها مسجوعة - وبعض المواضع⁽³⁾. كما أن سجع ابن عذاري في المقدمة لم يكن مبالغا ولا متكلفا في استعمال المحسنات البديعية.
- لقد كان استشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية قليل جدا ولم يكن إلا عند الحاجة.
- اهتمامه بالاستشهادات الشعرية والتي قيلت في مختلف المناسبات والحوادث التاريخية.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 259، وينظر أيضا: ج2، ص 180، 182، 183، 185، 189، 193، 196، 199، 202، 206.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 1.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 56، 65، 87، 90، 91، ج5، ص 47، 52، 162.

ومما يلاحظ أن استشهاده الشعري زاد في الجزء الخاص بعصر الموحدين، حتى أنه ذكر قصائد بكاملها مثل: قصيدة أبي موسى هارون بن هارون في رثاء سقوط مدينة إشبيلية في يد النصاري (سنة 645هـ/1247م)، والتي بلغت خمسة وستين بيتاً، ومطلعها:

يا حمص أقصدك المغدور حين رمى
لم يرع فيك الردى إلاّ ولا ذمّاً⁽¹⁾.

وبالتالي فاستشهادات ابن عذاري الشعرية تدل في عمومها على سعة اطلاعه على الشعر والأدب وخاصة اختياراته للقصائد والأبيات الشعرية.

- استعمال ابن عذاري في عرضه للتاريخ أسلوباً تميز بالإيجاز والاختصار، والتركيز فقد سار على منهج الاختصار للحوادث التي ذكرها.

فكان يقصد أن يضع تاريخاً شاملاً لكل المغرب والأندلس من بداية القرن الأول الهجري إلى نهاية القرن السابع منه، فالزمن التاريخي يمتد سبعة قرون، أما المجال الجغرافي واسع جداً، حيث يبدأ من حدود مصر شرقاً إلى حدود فرنسا من الشمال الغربي ومن صقلية إلى جنوب الصحراء الكبرى.

كما أن المجال الاجتماعي متعدد الأجناس والأنواع لذلك تعددت الدول والدويلات والحكومات والثوار والأنماط الحضارية، وما في ذبك من تصاريف الأقدار.

فلو عالج ابن عذاري كل هذه الموضوعات بكل تفاصيلها الدقيقة لكان كتابه في مجلدات ضخمة، ولهذا نراه أعرض عن الأسهاب ولجأ إلى الاختصار موضحاً ذلك بقوله: [فجمعت في هذا الكتاب نبذا ولما من عيون التواريخ والأخبار، مما أجرى الله به تصاريف الأقدار فيما مر من الأزمنة والأعصار في بلاد المغرب وما والاهما من الأقطار: جمعت ذلك من الكتب الجليلة

(1) المصدر السابق، ج5، ص 381.

مقتضيا من غير إسهاب وإكثار فاقتطفت عيونها واقتضبت فنونها ووصلت الحديث بالقديم، والقديم بالحديث لأنه إذا اتصل يستظرف ويستحلى⁽¹⁾.

- من أسلوب ابن عذاري في كتابه ربط العناصر الموضوعية بعضها مع بعض فمثلا إذا تعرض لحدث ذكر طرفا منه باختصار ثم أحال القارئ لتفاصيلها في موضع آخر مثل في أخبار ابن عباد ذكر جزءا من أخباره ثم قال: [وسأذكر بقية خبره في موضعه]⁽²⁾.

وعن نكبة الوزير ابن عقبة ذكر طرفا من خبره ثم قال: [وسأذكر سبب موته في موضعه إن شاء الله تعالى]⁽³⁾، وعن خبر مقتل عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي ذكر طرفا من خبرهما ثم قال: [فقتلا وصلبا في جذعين في ذي القعدة عام 548هـ على ما يأتي ذكره في موضعه]⁽⁴⁾.

- دقة ابن عذاري في الوصف للأخبار والحوادث التي ينقلها، فمثلا وصف أحوال الناس عند خروجهم من مراكش مع الرشيد بعبارات تصور الواقع كما كان قال: [وشاع الخبر عند العرب فاجتمعوا بقضهم وقضيضهم وكبيرهم وصغيرهم وجرودوا العزم على المصادمة والمكافحة لينالوا ما يحومون عليه والله تعالى يذهب كيدهم ويخيب سعيهم، ثم أقبلوا نحو المحلة وليس لها مانع ولا دافع ولجأ الناس إلى التوعر في مكان ضيق وقد اشتدت أحوالهم وانقطعت آمالهم وبعضهم ينظر إلى بعض، والأمير يؤول بالتقدير وقرائن الأحوال إلى اختلال ونقض فبينما هم كذلك وعدوهم فيهم طامع، وبرق رعوده لامع، وعذابه بالقوم لولا الله واقع، إذا أقبلت مقدمات لجيشهم كأنها العقبان وترادف العسكر من كل جهة ومكان، فعاد الترح فرحا، وجررت أذيال المسرة مرحا، فعندما عاين الخلط تكامل الجيش من تلك الفجوج، أيقنوا بخسار

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 2.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 261. وقد ذكر تفاصيلها، ج3، ص 271.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 32. وقد ذكر تفاصيلها، ينظر: ج5، ص 57.

(4) المصدر السابق، ج5، ص 48. وقد ذكر تفاصيلها، ينظر: ج5، ص 50.

وفساد لما ظنوا أنه عائد بنجاح وسداد، ثم انقلبوا من هناك ناكسين، وولوا على أدبارهم خاسرين⁽¹⁾.

إذن هكذا نرى أسلوب ابن عذاري سهلا واضحا بعيدا عن الألفاظ والعبارات الغريبة مؤديا لغرض المؤرخ النبيه.

(1) المصدر السابق، ج5، ص ص 323 324.

الفصل الرابع

نزاهة ابن عذاري في النقل وعرض الحقائق، وموقفه من المنشقين والثائرين
عن السلطة المركزية

أولاً: إلى أي مدى كان ابن عذاري ملتزماً بالنزاهة في النقل وعرضه للحقائق.

ثانياً: نماذج مقارنة من نصوص ابن حيان وابن صاحب الصلاة وابن القطان مع ما نقله عنهم

ابن عذاري مع بعض الملاحظات عليها.

ثالثاً: مواقف ابن عذاري من المنشقين عن السلطة المركزية

أولاً- إلى أي مدى كان ابن عذاري ملتزماً بالنزاهة في النقل وعرضه للحقائق:

حاول ابن عذاري أن يكون موضوعياً ونزيهاً مسجلاً للحقائق، والأفكار يتجرد بحياء معالجته لأحداث ووقائع التاريخ المغربي والأندلسي منذ الفتح وحتى نهاية دولة الموحدين وما صاحبها من أحاديث وما اعتنقه من مبادئ وأفكار، حريصاً على ذكر التفاصيل وعرضها بعيداً عن العاطفة ولم يعمد إلى التشويه أو التأويل أو الإشادة، بل كان يعرض الأفكار والمعتقدات بصورة واضحة أما الشخصيات التاريخية فيذكر ما لها وما عليها من أفعال وأقوال، ففي وصفه لشخصية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قال: [كان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يحدث جوراً عظيماً على رعيته فأهلكه الله قبل ذلك، وكان من أجمل الناس وجهها وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً، أحدث بإفريقية وجوهاً من الظلم شنيعة، منها قطع العسر حبا، وجعله ثمانية دنانير للقفيز وأصاب أو لم يصب وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم، فاشتد على الناس ذلك]⁽¹⁾.

لكن عهده القصير كان زاهراً، فقد لاحظ ابن الأثير قائلاً: [وكانت أيامه أيام سكون ودعة، وبقي أميراً رخي البال، وداعاً والدنيا عنده أمانة]⁽²⁾، لكن هذا الأمير الذي لم يكن أسوء سيرة من غيره، عرف عنه أنه: [كان من أجمل الناس وجهها]⁽³⁾، [وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً]⁽⁴⁾. يصعب العفو فعلاً، ويعسر من باب أولى تناسي الأمر، إذا ما لحق المال ضميم، فوجب لإدراك تعاقب الأحداث، القول إن الهوة التي كانت تفصل في عهد عبد الله الأول، الدولة الأغلبية عن الشعب، لم تنفك تتسع، وإن القطيعة ما انفكت تتضح.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 95.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 105، ص 157.

(3) كان يدعى عبد الله الجميل. ينظر: ابن الأبار، الحلة السيرة، ص 252.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 95.

وبذلك فكان عبد الله سيئ السيرة حتى مع أهله وأخيه زيادة الله، وأساء معاملتهم، كما أشتط في دفع الضرائب على شعبه، فكرهه الناس، حتى دعا عليه أهل الدين والفقهاء أن يريحهم الله من جورهم وظلمه، حتى مات سنة 201هـ— وولي من بعده أخوه زيادة الله⁽¹⁾.

وفي وصفه للأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم، قال: [و لم يزل—رحمه الله— يرفع منار الدين، ويسلك سبيل المهتدين، لم تمنعه الفتن عن النظر لنفسه، والعمل ليوم فاقتة وحلول رمسه، وكان يعدونه من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، واتمهم معرفة، وامتنتهم ديانة]⁽²⁾.

استعمله أبوه في قيادة بعض حملاته العسكرية⁽³⁾، وبعد وفاة أخيه المنذر، بويع بالإمارة في 15 صفر من عام 275هـ، يوم وفاة أخيه المنذر⁽⁴⁾، وقد اتهمه بعض المؤرخين بأنه هو من قتل أخاه المنذر بأن حرض طبيب المنذر على تفسيده بموضع مسموم⁽⁵⁾.

التهب عصره بالثورات في العديد من مدن الإمارة فبالإضافة إلى تغلب ابن حفصون على بيشتر وما والاهاء، وبنو حجاج على اشبيلية وقرمونة، استطاع وسيم بن اسحاق السيطرة على لورقة ومرسية ومعظم كورة تدمير وسيطر عبد الله بن أمية على كورة جيان، وبكر بن يحيى على شنتمرية الغرب، وابن خصيب على لبلة، ومحمد بن عبد الملك الطويل على بريشتر وبريطانية ولاردة وأريولة...⁽⁶⁾، فانحصرت بذلك سلطة الأمير الفعلية بنهاية عهده في قرطبة وما

(1) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، العصر العباسي الاول، ج2، ص174 .

(2) ابن عذاري، بيان المغرب، ج2، ص155 .

(3) ابن عذاري، نفسه، ج2، ص105 .

(4) نفسه، ج2، ص121 .

(5) ابن القوطية، ص114. وما يؤسف له أن هناك مصادر نسبت نقل هذه الرواية لابن حزم ومنها في كتاب البيان المغرب لابن عذاري انه: [كان قتالا تهن عليه الدماء مع كثرة اقباله على الخيرات واعراضه عن المنكرات، وانه احتال على اخيه المنذر على ايثاره له...]، وعلق ابن

عذاري بقوله: [والله اعلم بحقيقة امره]. ينظر: ابن عذاري، بيان المغرب، ج2، ص156 .

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص133، 149 .

حولها، مع السيادة الاسمية فقط على باقي أراضي الإمارة، وقد قضى عصره في مواجهة تلك الثورات المتعاقبة على سلطة الإمارة...⁽¹⁾.

إذن لم يمتلك الأمير عبد الله لا الوقت ولا الجهد لقتال الممالك المسيحية على الحدود الشمالية للإمارة، لانشغاله بالتمردات والثورات الداخلية...⁽²⁾.

إذن شخصية الأمير عبد الله كان مقتصدا لا يميل إلى الإنفاق، كثير الصدقات، محبا للخير، لا يشرب الخمر⁽³⁾. فهو كان محبا للأدب، ويحفظ أشعار العرب وأيامهم، وسير الخلفاء⁽⁴⁾، إلا أنه رغم تلك السجايا، كان الأمير عبد الله دمويا، حتى مع أقرب الناس إليه، فقد اتهم بقتل أخيه المنذر لينتزع الإمارة، كما قتل أخويه القاسم وهشام ابني محمد لاتهم إياهما بالسعي للانقلاب عليه⁽⁵⁾، إضافة إلى قتله ابنه المطرف لقتله أخيه محمد بن عبد الله والوزير عبد الملك بن أمية⁽⁶⁾.

كما كان شاعرا له شعر منقول منه تلك الأبيات في الزهد:

يا من يراوغه الأجل	حثام يلهيك الأمل
حثام لا تخشى الردى	وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجاة	ولا نجاة لمن غفل
هيهات يشغلك الرجاء	يدوم لك الشغل ⁽⁷⁾ .

واما ذكر عبد الملك بن ابي عامر قال عنه: [وكان مع غلبة النبيذ؟ عليه واستغراقه في

لذاته مراقبا لربه باكيا على ذنبه محبا في الصالحين، يستهدي ادعيتهم، ويجزل الثواب لمن دل

⁽¹⁾ ابن الأبار، المصدر السابق، ص 370 368 .

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 124 .

⁽³⁾ رسائل ابن حزم، ج 2، ص 73 .

⁽⁴⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 154 151 .

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 156 .

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 149 .

⁽⁷⁾ ابن الأبار، المصدر السابق، ص 122 .

عليهم، وكان يظهر العدل ويحمي الشرع، ويرفق بالرعية، ويحط عنها البقايا؟ بعد أن أسقط عن جميع البلاد سدس الجباية وكان أبر الناس بأبيه، وأثبتهم على عهده، وأوصلهم لأهله وصنائه، وكانت لوالدته كذلك ما عدل بها في سلطانه أحد ولا غير لها حالا، ولا خالف لها أمرا وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة⁽¹⁾.

لقد قام عبد الملك المظفر بالأمر بعد وفاة والده المنصور بن أبي عامر، وقد سار على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية؛ إذ بمجرد أن مات المنصور بن أبي عامر حتى سارع إلى قرطبة، قبل أن يطرأ أي أمر لم يكن قد استعد له من قبل، ليستصدر مرسوما من الخليفة بتوليته الجباية بعد أبيه، وكان أبوه قد عهد له بالجباية من بعده. وتمت توليته الجباية كما أراد يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان 392هـ، وبقي في الحكم سبع سنين إلى أن مات سنة 399هـ⁽²⁾. قال عنه المقرئ التلمساني في نفح الطيب: [جرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعيادا دامت مدة سبع سنين، وكانت تسمى بالسابع تشبيها بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفرا إلى أن مات سنة تسع وثلاثمائة في الحرم، وقيل: سنة ثمان وتسعين]⁽³⁾.

لقد أعجب به المسلمون وأحبوه حبا عظيما، حتى أنهم أثنوا عليه أجمل الثناء، فكان من ذلك ما نقله ابن الخطيب: [قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود ولد بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما؛ فجدد الألقاب، واقتضى الرسوم، فقد ذكر ان المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه في الفقهاء والعلماء والكتاب والشعراء والأطباء والمنجمين، فلم يكونوا أوفر عددا ولا أسنى أرزاقا منهم في أيامه، مع عدم التلبس بشيء من أمرهم، إذ كان مقتصرًا على شأنه في التجند والعمل بالسلاح؛ حفظا للرسوم، والتماسا لجميل الذكر، وحرصا على

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 3.

(2) ابن عذاري، نفسه، ج 3، ص 3.

(3) المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 423.

التزيد والشفوف على غيره، وكان مثلاً في الحياء والشجاعة، إذ كان عند الحياء والحشمة بكرًا عزيزة، وفي مواقف الكريهة أسداً ورداً، لا يقوم له شيء إلا حطمه⁽¹⁾.

وقد زاد من حب المسلمين له وإعجابهم به أنه ابتداءً عهده بأن أسقط عن المسلمين سدس الجباية التي كانت عليهم⁽²⁾، فتعلقت به قلوب الرعية وآمالها، ووجدت فيه العزاء عن فقدان أبيه، وبخاصة أن أباه كان يعتمد عليه دائماً في حياته، ويكلفه بالمهام الجسام كقيادته الجيوش وما إلى ذلك.

إذن سار عبد الملك في الغزو والسياسة عن الخليفة هشام المؤيد على طريقه أبيه المنصور، ودامت أيامه أعياداً وأماناً⁽³⁾، فهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على استمرار القوة والمنعة التي كانت عليها الأندلس في عهد عبد الملك المظفر وأبيه المنصور بن أبي عامر

وفي أخبار علي بن حمود يذكر أوصافه الحسنة والسيئة، فقال: [تسمى من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله لقب تقدمه به غيره وتقدم من القهر للناس والغلبة لهم بما خامر عقولهم من حول سطوته لا سيما برابرة العسكر حتى تبين أنهم أطوع الناس لمن أخافهم، وجلس علي بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب، يقيم الحدود بنفسه لا يماشي أحداً من أكابر قومه...، وصب على أهل قرطبة ضروباً من المغارم وانتزاع السلاح منهم وقبض دورهم وقبض أيدي الحكام عن أنصافهم وأغرم عامتهم وتوصل إلى أعيانهم يقوم من شرارهم ففتحوا بهم أبواب من البلايا أهلكتها الأمة وتقربوا إليه بالسعاية فيهم وصار شطر الناس أشراطاً على سائرهم.

فلما تلقى أحداً منهم إلا بموكل عليه، حتى كأن الكرام الكاتيين بدوا للأبصار، فأخذت على الناس الأقطار، فأظلمت الدنيا وأبلس أهلها وغشيتهم من أمر الله ما غشيتهم، فلزموا

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 84.

(2) ابن عذاري، ج 3، ص 3؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 84.

(3) المراكشي، المصدر السابق، ص 29؛ المغربي، المصدر السابق، ج 1، ص 400.

البيوت، وتظمروا في بطون الأرض، حتى قل بالنهار ظهورهم وختل أسواقهم، فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجتهم⁽¹⁾. مرفوع الحجاب للوارد والصادر، يقيم الحدود مباشرة بنفسه، لا يحاشي أحدا من أكابر قومه، فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل، ورخا السعر، وهذا يعني أن بداية عهد علي بن حمود قامت على العدل وإنصاف المظلومين، ولذلك فتن أهل قرطبة به وأحبوه⁽²⁾.

كما مدحه الكثير من الشعراء، من هم أبو عمر بن دراج، وفيه يقول: ⁽³⁾.

لعلك يا شمس عند الأصيل شجيت بشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي إلى ابن الشفيح وكوني رسولي إلى ابن الرسول
فإما شهدت فازكى شهيد وأما ذلت فأهدى ذليل
إلى الهاشمي إلى الطالبي إلى الفاطمي العطوف الوصول

ووصف مجاهد العامري ب [المنتري]⁽⁴⁾ الذي انتزى على مدينة دانية، ومع ذلك مدحه وقال: [وكان ذا نباهة ورئاسة زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب، وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة⁽⁵⁾. كانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية عند اضطرام الفتنة وهيار الخلافة من نصيب الفتيان العامريين⁽⁶⁾، تغلب عليها مجاهد العامري الذي أصبح ملكا لها⁽⁷⁾.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 122 123؛ ابن بسام، الذخيرة، ج1، ص 100 99 .

(2) ابن عذاري، ج3، ص122.

(3) الأبيات في ديوان ابن دراج القسطلي، ص 75 76، 79؛ البيان المغرب، ج3، ص 124 .

(4) ابن عذاري، ج3، ص155. المنتري. ماخوذة من فعل انتزى. اي انتزى عن الشي. ينظر. المعجم الوسيط. ط5. 2013. ص954.

(5) ابن عذاري، ج3، ص 155 .

(6) عبد الله عنان، دوله الاسلام في الاندلس، ص188 .

(7) محمد مقديش، نزاهة الانظار في عجائب التواريخ والاحبار، مج1، ص 429 .

وللحديث عن نسب مجاهد العامري، الذي ينحدر من أهل الصقالبة، الذين كانوا يؤتى بهم إلى الأندلس أطفالا ويربون تربية عربية إسلامية، وانقسموا إلى قسمين فحول وخصيان⁽¹⁾، وحسب ما جاء في البيان لابن عذاري، أن مجاهد العامري من فحول الصقالبة⁽²⁾.

وليس أبلغ وصف لمجاهد العامري سوى ذلك الوصف الذي وصفه به ابن حيان، والذي نقله لنا ابن بسام يقول: [كان مجاهد أفقي أمراء دهره وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علوم اللسان ونفوذ في علوم القرآن عني بذلك من صباه وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن ذلك عظيم ما مارسه من الحروب برا وبحرا، حتى صار في المعرفة شيخا وحده، وجمع دفاتر العلوم خزائن جمّة، فكانت دولته أكثر الدول خاصة صحابة، لانتحاله العلوم والفهم، فأمة جملة العلماء وأسنو بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه]⁽³⁾.

ومهما كان الاختلاف حول نسب مجاهد العامري، أكان صقلبيا أو روميا أو غير ذلك، فقد استطاع لما عرف عنه من همة وصلابة، وطموح وشجاعة أن يؤسس له مملكة في دانية وأن يجعل لنفسه مكانة في تاريخ الأندلس بل وفي تاريخ الحوض الغربي لبحر الروم بأجمعه.

إن المتتبع لطريقه وكيفيه انتقال مجاهد العامري لدانية يجد اختلافا وتضاربا حول طريقة وكيفية انتقاله واستيلائه على دانية، فابن خلدون يذكر أن هذا الأخير غادر قرطبة بعد مقتل الخليفة هشام المهدي (سنة 400هـ / 1010م)، وأنه سار إلى طرطوشة، ومنها إلى دانية⁽⁴⁾. ويؤكد هذه الرواية القلقشندي بقوله: [وأما دانية وميورقة فاستولى عليها مجاهد بن علي بن يوسف مولى ابن أبي عامر، وذلك أنه بعد الفتنة كان قد ملك طرطوشة ثم تركها وسار إلى دانية واستقر بها]⁽⁵⁾.

(1) عبد الله عنان، المرجع نفسه، ص 188.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 155.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق 3، ص 23.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 211.

(5) القلقشندي، صبح الاعشى، ص 256.

أما رواية ابن عذاري تختلف على الروایتين السابقتين، حيث يذكر أن مجاهد عند اضطرام الفتنة في قرطبة كان واليا على الجزائر الشرقية، وكان يشغل هذا المنصب قبل اضطرام الفتنة، منذ أيام المنصور بن عامر، فلما قامت الفتنة انتقل من الجزائر إلى دانية، وضبطها وجمع أعمالها، وأقام بها دولته⁽¹⁾، وأصبح أميراً عليها⁽²⁾، وتسمى بالموفق.

أما عنان يورد نقلا عن بعض الروايات أن مجاهد وقت اضطرام الفتنة كان قائما بشؤون بلنسية، فثار عليه مبارك ومظفر العامريين وانتزعا منه بلنسية، فخرج من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها.

من مقارنة ما سبق يتضح لنا أن مجاهد العامري نزل أولا في دانية وغلب عليها، ومنها انتقل إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وكان ذلك في اواخر (405هـ / 1014م)⁽³⁾.

وفي حديثه عن الثائر عمر بن حفصون الذي ظل ثائرا مدة ثلاثة من أمراء بني أمية وهلك على يد الرابع فهو وصفه بـ «الثائر الملعون»⁽⁴⁾ و«عدو الله ابن حفصون»⁽⁵⁾، و«أمضى نفسه على عادته الذميمة من الفساد وقطع السبيل»⁽⁶⁾. رغم وصفه بهذه الأوصاف فإنه في موضع آخر يذكر ما فيه من أوصاف حسنة كقوله: [وكان مع ذلك متحبا لأصحابه، متواضعا لآلافه، وكان مع شره وفسقه، شديد الغيرة، حافظا للحرمة، فكان ذلك مما يميل النفوس إليه. ولقد كانت المرأة في أيامه تحيء بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة، لا يعترضها أحد من خلق الله، وكانت عقوبته السيف، يصدق المرأة والرجل والصبي أو من كان من كان لا يطلب على ذلك شاهدا أكثر في الشكوى، وكان يأخذ الحق من ابنه، ويبر الرجال ويكرم الشجعان،

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص156.

(2) ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، مج، ص263.

(3) عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس، 189.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص106.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص122.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص122.

وإذا قدر عليهم، وكان يسورهم بأسورة الذهب إذا اختصوا، فكانت هذه الأشياء كلها عنا له⁽¹⁾.

إن الراصد لحركات المولدين في الأندلس يلاحظ أنها قد بدأت تظهر للعيان في أواخر القرن الثاني للهجرة، وقد اتسم موقف الحكام الأمويين منها بالشده القصوى، مما عجل في تعاضمها حتى عمت جميع نواحي الأندلس ولعل أبرزها في كورة⁽²⁾ ماردة بقيادة عبد الرحمن الجليقي، وفي الثغر الأعلى بقياده بنو قسي وبنو شيريط المعروفين بابن الطويل، ويرأس قائمة الثوار بالأندلس الثائر عمر بن حفصون الذي دامت ثورته أكثر من نصف قرن⁽³⁾.

تعود البواعث الأولى لبداية ثورة عمر بن حفصون التي اشتعلت في كورة رية والجزيرة أن السبب في تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله بن يحيى عامل الأمير بكورة رية في مطالبة أهلها بقايا العشور التي تأخرت عليهم في دفعها فحشد لهم قواته لقتالهم، وفي هذا الأفق ظهر ابن حفصون فكانت تلك الحادثة مقدمة هذه الفتنة التي تزعمها في جنوبي الأندلس⁽⁴⁾، إذ نادى ابن حفصون جميع مواطنيه مسلمين ونصارى بقوله: [لقد عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم وأخرجكم من عبوديتهم]⁽⁵⁾، حيث أخذ ينتهز كل فرصة للإغارة على إقليم رية ويوسع ثورته تخريباً ونهباً ثم يعتصم بأوكاره في جبل بيشتر⁽⁶⁾.

استطاع الصمود أمام هجمات الدولة الأموية في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، ثم

الأمير

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ج2، ص115 114 .

⁽²⁾ هي كل صقيع يشتمل على عدة قوى، ولا بد لتلك القوى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص540. وماردة كورة واسعة من نواحي الأندلس راقية كثيرة الرخام عالية البنيان بينها وبين قرطبة مسيرة ستة أيام. ينظر. ياقوت الحموي. نفسه. ج5. ص3839

⁽³⁾ عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص254 253 .

⁽⁴⁾ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ق1، ص309 308 .

⁽⁵⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص114؛ رينهارت دوزي، المسلمون في الأندلس، ج1، ص145 .

⁽⁶⁾ محمد عبد الله عنان، نفسه، ق1، ص308 .

المنذر بن محمد، ومن بعده الأمير عبد الله بن محمد، وأخيراً عقد الصلح مع عبد الرحمن الناصر، وبعد وفاته (عام 306هـ / 918م)، تقاسم أولاده الأربعة مناطق مملكته، فسهل على الدولة الأموية إسقاطهم الواحد تلو الآخر، وسقطت قلعة بيشتر عام 316هـ / 920 م، ثم أمر عبد الرحمن الناصر بن بيش قير عمر بن حفصون وحمل جثمانه إلى قرطبة، وهناك صلبه هو وابناه أمام جامع قرطبة⁽¹⁾.

وبهذا تكون ثورة عمر بن حفصون قد عاصرت أربعة من حكام الأندلس وهم الأمير محمد وأبنائه المنذر، وعبد الله، والناصر، كما كانت هذه الثورة -وللأسف- سبب في زرع آثار الفتنة وقيام الحركات التمردية سواء من المولدين أو البربر أو العرب في حد ذاتهم، فقد كانت بذرة فتاكة في تعجيل سقوط الدولة الأموية في الأندلس.

ومن عباراته التي استخدمها في جانب الوعظ والاعتاظ قوله: [وكان ذلك بمشيئة الله الواحد، ومصائب قوم عند قوم فوائد]⁽²⁾، وكذلك: [إلى أن جرى عليه القدر المحتوم ووفاه، ولم يسلم منه أحد وإن طال أمده]⁽³⁾، وكذا: [والاملاء من الله سبحانه يزيدهم طغيانا وكفرا بنعمائه، وجحودا لآلائه، واستيصالا للبلاد، وتسلبا على العباد، ليقيم عليها حجته في أخذهم أخذة رابية]⁽⁴⁾، [وهكذا جرت العوائد، مصائب قوم عند قوم فوائد]⁽⁵⁾.

لقد كانت من النتائج التي تعرضت لها قرطبة جراء الفتنة البربرية، والتي جعلت منها مسرحا لها، ظهور دويلات الطوائف بها وتسبيهم في تسليم أجزاء وقطع من أرض الأندلس

⁽¹⁾ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص 94، 103، 104، 114، 115، 116، 118، 136، 164، 165؛ ابن القوطية، المصدر السابق، ص106؛ تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 173، رينهارت دوزي، المصدر السابق، ج1، ص144، حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص109؛ مجهول، ذكر بلادي الأندلس، ص120، عبد الله عنان، المرجع السابق، ق1، ص333، احمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص194-195.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص306.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج5، ص308.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج5، ص309.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج5، ص309.

للقشتاليين، خاصة الجهة الشمالية الشرقية منها، حيث كان الجلاليقة بها يترصبون بالمسلمين، فلما أيقنوا الضعف، والهوان الذي أصاب ملوك الطوائف خرجوا من ثغورهم، وفرضوا عليهم الغنائم، والمكوس، ولكن الله لطف بعباده، وجعل ذلك في المرابطين الملتزمين البدويين الذين خرجوا من أقصى الصحراء ومن بلاد السودان لرفع راية الإسلام والحق بالمغرب الإسلامي والاندلس، وطرد من سولت له نفسه التكالب على أرض المسلمين، من الجلاليقة⁽¹⁾ إلى ما وراء اشبيلية⁽²⁾، بلنسية⁽³⁾، ولقد كان لهم ذلك.

إذن هنا نستطيع تطبيق المثل المذكور أعلاه [مصائب قوم عند قوم فوائد]، حيث لما انفرط عقد الدولة الاموية وتفرق شملها تقاسمت دول الطوائف التركة لقرطبة، وذلك لما أصبح أمراء الطوائف يسعون لإظهار عواصمهم كمراكز حضارية، وذلك بتشجيع الثقافة فيها. فلقد كانت الاندلس-بحق-وحواضرها في عهد ملوك الطوائف مركزا للعلم والمعرفة، فقرطبة واشبيلية وألمرية وطليطلة وبطليوس وبلنسية⁽⁴⁾ وغيرها عاشت كعواصم ثقافية، ضمت العلماء والمعاهد، كما كانت هي وعموم مدن الأندلس مليئة بالمكتبات الخاصة والعامة، فكل إمارة من هذه الامارات حاولت أن تكون بؤرة ثقافة وهالة ورياسة، وإن اختلفت نوع الثقافة السائدة.

وعبارة [إلى أن جرى عليه القدر المحتوم ووفاه، لم يسلم منه أحد وإن طال أمده] فالموت حقيقة لا بد منها لكل حي، فمهما طال العمر وتأخر الأجل فلا بد من الموت، فلا يغير المرء بطول عمره، وتأخر أجله، وفي هذا يقول الأمير عبد الله:

(1) الجلاليقة: وهم بقايا القوط والقشتاليين الفارين من الفتح الإسلامي، تحصنوا بجبل حليقية، وهي ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، وصل إليها موسى بن نصير لما فتح الاندلس، وهي بلاد لا يطيب سكنها لغير أهلها؛ ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص157.

(2) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص195؛ ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص257.

(3) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص490؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص373 وما يليها.

(4) محمد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1986م، ص97؛ المغربي، المصدر السابق، ج1، ص441442؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ج2، ص1112.

يا من يراوغه الأجل *** حثام يلهيك الأمل⁽¹⁾

وفي هذا البيت معنى مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى: [ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون]⁽²⁾، حيث جعل طول العمر، وبلوغ الرغبات الدنيوية وأملهم في ذلك ملهاة لهم إلى أن يحين وقت الحساب.

ويقول محمد بن عبد السلام الخشني في أمر هذه الدنيا وبيان زوالها وفراق من فيها:

أخي انما الدنيا محلة فرقة ودار غرور أذنت بفراق

تزود أخي من قبل ان تسكن الثرى ويلتف ساق المنشور بساق⁽³⁾

أراد الشاعر - هنا - أن يعظ الناس ببيان زوال الدنيا وضرورة التزود فيها بكل عمل صالح قبل الموت ولذا وصف الدنيا بدار الغرور، لأنها تغر ابن آدم بفتنها، وملذاتها لتصرفه عن العمل لدار القرار. والشاعر في ذلك متأثر بوصف الله عز وجل لهذه الدار الفانية، في قوله تعالى: [وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور]⁽⁴⁾.

ومن المشهد ذاته، مشهد التشييع والدفن، يدعو الأمير عبد الله الإنسان إلى تخيل هذه الصورة، وكيف سيحمله الناس إلى مضجعه الأخير، ويغيّبونه في الثراء فكأنما لم يكن، لأن ذلك من شأنه أن يدفع الإنسان للتوبة والإقبال على الله، حيث يقول واعظا:

كأنك قد حملت على سرير وغُيِّب حسن وجهك في الثراء⁽⁵⁾

⁽¹⁾ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج 1، ص 122؛ ووردت أيضا في كتاب البيان المغرب، ج 2، ص 155؛ وقد نسب الدكتور إسماعيل شليبي في كتابه الأصول الفنية لشعر الأندلس، ص 123، هذه الأبيات والأبيات التي مطلعها أرى الدنيا تصير إلى فنا، إلى القاضي أحمد بن محمد بن زياد اللخمي مستندا إلى ما رواه ابن عذاري، على الرغم من أن الأبيات وردت عند ابن عذاري للأمير عبد الله في أثناء حديثه عن أخبار هذا الأمير؛ ينظر: البيان المغرب، ج 2، ص 155، وقد عاد الدكتور المذكور آنفا في موضع آخر من كتابه ونسبها للأمير عبد الله، ص 208209.

⁽²⁾ الحجر، الآية: 02.

⁽³⁾ جذوة المقتبس، ص 24.

⁽⁴⁾ آل عمران، الآية 185؛ الحديد، الآية 20.

⁽⁵⁾ البيان المغرب، المصدر السابق، ج 2، ص 155.

-وكذا: [والاملاء من الله سبحانه يزيدهم طغيانا وكفرا بنعمائه وجحودا لآلائه، واستيصالا للبلاد، وتسليطا على العباد، ليقوم عليهم حجته في أخذهم أخذة رابية].

تعود جذور الخلافات والتراعات الداخلية في الأندلس أثناء عصر الطوائف إلى عهد الحاجب عبد الملك ابن منصور بن أبي عامر (392-398هـ/1001-1007م) الذي توفي مسموما من قبل أخيه عبد الرحمن شنجول (398-399هـ/1007-1008م)، كما توفي الأخير بمؤامرة من قبل (الزلقاء) أم عبد الملك بن المنصور (سنة 1008/399م)⁽¹⁾، وفي هذه السنة تم خلع الخليفة هشام الثاني (المؤيد بالله 366-401هـ/976-1012م)، ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الرحمن الناصر (المهدي بالله 399-401هـ/1008-1010م)، إلا أنه لم يطل به المقام في الخلافة، إذ سرعان ما أعلنت الثورة ضده من قبل البربر، وذلك بالتعاون مع النصارى الإسبان وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالمهدي في معركة فنتيش سنة 400هـ/1009م، ودخول قرطبة عاصمة الخلافة⁽²⁾.

بدأ عصر ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (سنة 422هـ/1030م)، وأخذت المدن الأندلسية تستقل على شكل دويلات صغيرة وأطلق رؤساء هذه الدويلات على أنفسهم لقب ملوك، وأخذ هؤلاء الملوك في اتباع سياسة توسعية فيما بينهم، ودخلوا في منازعات وحروب أهلية دامية أدت إلى وقوع خسائر كبيرة في الأرواح والأموال⁽³⁾.

لقد كان لطبيعة ملوك الطوائف أثر كبير في اتباع سياسة التوسع على حساب الدويلات الإسلامية الأخرى، ذلك لأنها لم تكن دولا بالمعنى الحقيقي، بل كانت أقرب إلى وحدات

(1) ابن عذاري، نفسه، ج3، ص37؛ ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ص89، 129.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص78؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص127؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص3839.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ص32، 29؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص ص3، 20؛ عبيدان داود عمر، بوادر ضعف العرب في الأندلس وسقوط الثغر الأوسط وطليلة، مجلة المورخ العربي، العدد34، بغداد، 1980، ص153.

الاقطاع، وأسر ذات زعامات تعمل من اجل مصلحتها الخاصة دون الالتفات إلى المصلحة العامة للمسلمين، اذ اتصف عصر الطوائف بأنه عصر الأطماع والأناية والمصالح والمؤامرات⁽¹⁾.

لم يكن الصراع القائم بين ملوك الطوائف صراعاً حريباً قائماً على أساس عرقي كالصراع بين العرب والبربر، أو بين المسلمين والإسبان، إذ أن البربر حاربوا مع بعضهم البعض، فضلاً عن قيامهم بالوقوف مع العرب ضد بربر صنهاجة، كما حارب العرب مع بعضهم البعض، كما حدث بين بني عباد وبني جهور حكام (اشبيلية وقرطبة)⁽²⁾.

نتيجة هذه الاعمال، فقد شهدت الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري حالة من الفوضى والتمزق الداخلي، وما آلت إليه البلاد من ضياع وتفكك بعد أن كانت دولة واحدة منظمة ذات قوة وسيادة، تنعم بالأمن والطمأنينة، تحولت إلى أشلاء ممزقة ودويلات متناثرة ومتخاصمة فيما بينها، يسيطر على كل منها حاكم سابق أو زعيم أسرة محلي من ذوي الجاه والعصبية القبلية، متخذين القابا تدل على سعة الملك وعظم الشأن على عكس واقعهم يعيشون فيه من الفرقة والاختلاف⁽³⁾.

لم تتوقف -للأسف- حالة الفوضى في عصر الطوائف على الوضع السياسي فحسب، بل وشمل الجانب الأخلاقي في بعض دويلات الطوائف ويظهر ذلك من خلال قول الشاعرة ولادة بنت المستكفي بالله التي كتبت على عاتقي ثوبها إذ تقول:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية فيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ج3، صص 160، 171؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، صص 142-144.

(2) ابن الأبارن المصدر السابق، ج2، صص 5051.

(3) ابن الخطيب، المصدر السابق، صص 144.

(4) ابن دحية، المطرب من أشعار اهل المغرب، تحق: إبراهيم الابياري وآخرون، دار العلم، دمشق، 1955م، صص 89.

لقد كانت لهذه الاحداث نتائج سيئة جدا على الوضع العام في الاندلس أدت الى ضياع وحدة الأندلس سياسيا واجتماعيا، وتعاضم دور الأمراء والحكام واستغلالهم في المدن والأقاليم والكور الخاصة بهم، واتخذ هؤلاء الحكام ألقاب الخلفاء استكمالا لمظاهر السلطان والعظمة⁽¹⁾.
أثرت التزعة القبلية تأثيرا كبيرا في علاقات ملوك الطوائف، كما كان لها ظهور في واقع المسلمين السياسي والعسكري، فضلا عن المنازعات والخلافات التي وقعت بسبب المصالح المادية والسياسية، كانت هناك خلافات اوجدتها التزعة القبلية والعرقية التي كان لها إثر كبير في الحروب والمنازعات التي وقعت بين ملوك الطوائف⁽²⁾، وكان لهذه الحروب أثر كبير في استنزاف القوة المادية والعسكرية لملوك الطوائف، مما أضعف قوتهم، وجعلهم لقمة سائغة بيد النصارى الاسبان⁽³⁾.

في ضوء ما سبق يتضح لنا مدى الوضع المتردي والانحلال الداخلي الذي كانت تعانيه الاندلس أثناء ملوك الطوائف، وما اتصف به هؤلاء من التباغض والتحاسد والأناية، وتقديم مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للمسلمين، ويرجع سبب ذلك كله إلى ابتعادهم عن منهج الله تعالى، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فكانت النتيجة أن أخذهم الله أخذة رابية، إضافة إلى ما هو معلوم عند القاصي والداني من الذل والهوان والصغار، وقد صدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- إذ يقول: [نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله].

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص73؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص344؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص144.

(2) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص269270؛ السحيباني محمد بن صالح، الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم لعصر ملوك الطوائف نموذجاً، الرياض، 2002، ص209.

(3) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص234236؛ أشياخ، تاريخ الأندلس، ج1، ص5455.

قال ابن حيان: [وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها مربطاً لخيوله، وكان ينتقل بينها وبين اشبيلية. واتخذ الجند ورتبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا،

ويبعث إليه المرد في الصوائف⁽¹⁾، وكان مقصوداً ممدوحاً، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد⁽²⁾، وقصده من بين سائر الثوار، فعرف حقه، وأعظم جائزته.

لقد اشتد طموح البربر إلى الزعامة المطلقة على الأندلس، فتشير المصادر التاريخية إلى تحرك بعض العامريين والموالي والصنائع الهاشميين إلى أمير سبته علي بن حمود وسلموه وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد وبخطه عهد فيها بالأمر بعده إلى علي بن حمودة⁽³⁾.

ومهما يكن من صحة هذه الوثيقة من عدمه، فإن الأمر يدل على تحالف مستتر ظهر للسطح للإطاحة بالمستعين، ولا سيما وأن حبوس الصنهاجي حاكم البيرة، وخيران العامري حاكم المرية قد طمأننا علي بن حمود على سهولة الاستيلاء على مراكز الخلافة في قرطبة، فسار إلى الأندلس تحت ذريعة الإفراج عن الخليفة هشام المؤيد بالله.

إذن لم تمض فترة طويلة حتى اتفق علي بن حمود مع أخيه القاسم علي أن يتبادلا ولايتاهما، ثم ادعى علي أن هشام المؤيد بالله، كتب له بولاية عهده، وجمع جيشاً هزم به سليمان، وقتله وأعلن نفسه خليفة على المسلمين في الأندلس عام 407هـ⁽⁴⁾ وبعد مبايعته

⁽¹⁾ الصوائف جمع صائفة وهي غزوات المسلمين إلى بلاد الروم، سميت صوائف لأنهم كانوا يغزون صيفا تفاديا من شدة البرد والثلج، ينظر: تاج العروس.

⁽²⁾ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (328 246هـ) صاحب كتاب العقد الفريد، ترجمته في الوفيات، ج 1، ص 39، معجم البلدان، ياقوت، ج 2، ص 67.

⁽³⁾ ترجمة علي بن حمودة في الذخيرة لابن سيام، ق 1، ص 96، 97؛ البيان المغرب، ج 3، ص 119، 113؛ أعمال الإعلام، ق 2، ص 121، 128؛ العبر، ج 4، ص 328، 330؛ جذوه المقتبس، ص 22؛ *** الملتبس، ص 27؛ الكامل في التاريخ، ج 3، ص 269، المعجب، ص 90، 98؛ سير أعلام النبلاء، ج 17، ص 135، 280.

⁽⁴⁾ عبد الله عنان، المرجع السابق، ج 1، ص 658، 659.

بالخلافة⁽¹⁾ تلقب بالناصر لدين الله، ويكنى بأبي الحسن، ولقد شهدت فترة حكمه الأولى محاولات لتوحيد البلاد تحت قيادة الخلائق من البيت الأموي الذي قاد الأندلس أكثر من قرنين ونصف، وصلت فيها إلى قمة الازدهار الحضاري، غير أن هؤلاء الأمويين كانوا على درجة من الضعف، بات التعويل عليهم أمرا غير منطقي، حيث يذهب ابن الخطيب إلى أن عليا تسمى بأمر المؤمنين، وأنس به أهل قرطبة؛ لقهره من كان لنظره من البرابرة، وامضاء الأحكام عليهم، ويقول المؤرخ أيضا: [فبرقت للعدل يومئذ بارقة، لم تكذ تقد حتى حبت، وكان الأغلب عليه السخاء والشجاعة، ويؤكد ذلك الدكتور سيد سالم عبد العزيز⁽²⁾، إلى أن عليا كان موفقا في بداية عهده، إذ كان حكمه يقوم على إرهاب البربر وتشدده في معاملتهم حتى أطاعه كل عاصي، ويستشهد بقول ابن حيان: [وكان يجلس - علي بن حمودة بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب].

كما تظهر نزاهته عند تأريخه للدولة الشيعية العبيدية المخالفين له في المعتقد، فهو حين يذكر أفكارهم وأعمالهم وفضائلهم لا يدفعه خلافه معهم إلى أن يكذب عليهم أو يتقول عليهم مع أنهم لم يتركوا أمرا من الفضائل إلا ارتكبه⁽³⁾

احتلت قضية "عقيدة الدولة العبيدية الشيعية" أهمية كبرى لدى معظم الذين كتبوا عن فرقة الإسماعيلية أو الدراسات التي تناولت الدولة العبيدية الفاطمية، فيذهب المؤرخون الذين اهتموا بتشييع أطوار نشأة الدولة العبيدية الفاطمية إلى القول بأن أصلهم يرجع إلى نسب أبناء الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - زوج السيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

(1) لم يكن علي بن حمود ملكا، بل كان خليفة؛ ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق 2، ص 121، 128

(2) سيد سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 308

(3) ابن عذارى، ج 2، ص 149، 124، 281

يقول عبد العزيز المجدوب: [يرجع - أصل الفاطميين - إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وإمامهم هو عبد الله الذي تلقب بالمهدي على أنه المهدي المنتظر الذي دعا دولته بالدولة الفاطمية] (1)

إلا أن البعض الآخر يشكك في هذا النسب، يقول ابن حمادة في أخباره عن ملوك بني عبيد: [اختلف الناس في نسبه إلى الحسين بن علي عليهما السلام: فمن مسلمين بما ادعاه ومقرين بما حكاها، ومن دافعين ومانعين ما انتحلها، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم الله، فالذي ادعاه هو أنه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم] (2)

وفي تحليل أو بخصوص ما تداوله المؤرخون حول أصل دعوة الفاطميين والاتهامات التي ألصقت بهم نتيجة تسلطهم وتطرفهم، فيقول أحمد الخطيب في معرض حديثه عن الفرق الباطنية وما تفرع عنها من فرق أخرى: [...، وقد حاول عبيد الله وبمساعدة دعائه أن يجلب في قلوب الناس أسمى مكانة، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيرا من الصفات التي تحوطه بالتقديس، وبقي عبيد الله مستوليا على زمام الأمور في دولته حتى مات سنة 322 هـ ...] (3)

إذن ومهما قيل في شأن تزيه الفاطميين عن التطرف، وفي كونهم معتدلين، وليسوا من غلاة الشيعة، فإن ما أظهره من معتقدات وما سنوا من تعاليم أجبروا الناس على اعتناقها وإتباعها يثبت أنهم غلاة مبتدعون، وهذا هو السبب الأساسي للصراع الذي نشب بينهم وبين السنين من المالكية من أهل إفريقية، وهناك مجموعة من النصوص التاريخية في ذلك منها:

- كلام ابن عذارى والذي ذكر: [أن عبيد الله بمجرد وصوله من سجلماسة إلى القيروان حتى أظهر تشييعه القبيح، فسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه، وحكم

(1) عبد العزيز المجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، ص 8.

(2) محمد بن علي بن حمادة، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحق: همامي نفرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ص 9.

(3) أحمد الخطيب الحركات، الباطنية في العالم الإسلامي، الأردن، ط2، 1986م، ص 69.

بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يستثن منهم إلا عليا وبعضا قليلا ممن أيدوه وناصروه،... [

- وقد عمل هذا الداعي منذ أن استولى على أن يكون هو السيد المطلق للدولة الناشئة، فتلقب بالمهدي، وراح يعلن عن تعاليم مذهبه بنفسه وبواسطة دعائه الذين بثهم في كل الأنحاء ليعلنوا أن المهدي رسول وني، كما أمر أن يذكر اسمه في الخطبة للبلاد، وأحضر دعائه الناس بالعنف والشدة ودعوهم إلى اعتناق مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبس وقتل المهدي كثيرا ممن رفضوا الدخول في مذهبه من بينهم مجموعة من العلماء، وهذا ما أوغر صدور الناس عليه . وقد كانت لهم جرأة كبيرة على التنكيل بمخالفيهم بأفزع الوسائل، كما أنهم كانوا من أجرأ الناس وأقبح الأساليب على سب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلا عن قدرتهم على انتحال البدع التي لا صلة لها بالإسلام، وإلزام الناس بها وكأنها من شرع الله .

- وقد عرض مؤرخنا ابن عذاري - أيضا - ألوانا من تصرفاتهم وأفعال أتباعهم، وهي إلى الكفر أقرب منها إلى أي شيء آخر، يقول: [وفي هذه السنة 308 هـ أظهر بعض الناس ممن تشرفوا معاصي خطيرة، منها أنهم أحلوا ما يحرم وأكلوا الخنزير وشربوا الخمر في رمضان] (1)

- وقد جاء في قول المؤرخ القيرواني الدباغ ذكر بعض الأفكار والمبادئ التي كانوا يعتقدونها، حيث قال: [و من مبادئ الفاطميين اعتقادهم أن أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية خلفاء جائرون اغتصبوا الخلافة اغتصابا من أهلها وهم علي وأبناءؤه وأحفاده، فهم لذلك كفره أعداء لهم في الدين...](2)، وأضاف عبد العزيز المجدوب إلى ذلك قوله: [ومن تعاليمهم تحريم صلاة التراويح وهي من النوافل الموروثة، تحريم نافلة أخرى

(1) ابن عذاري، ح2، ص 124، 149، 281 .

(2) أو يزيد الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، الطبعة الثانية، 1986، ص

هي صلاة الضحى، ولم يكن أحد في مدة بني عبید يصلحها إلا شخصيا فإن ظهروا عليه قتلوه، ولعل من مميزات بدعهم واستخفافهم بقواعد الدين موقفهم في رمضان، فمنهم من لا يتورع من شرب الخمر في هذا الشهر المبارك ومنهم من لا يصومه...⁽¹⁾، ويضيف سهيل طقوش في تاريخه: [وأظهر عبید الله المهدي التشيع الغالي حين سب الصحابة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وزعم أن أصحاب النبي ارتدوا من بعده، ثم وضع لنظامه المذهبي تعاليم تميزه عن تعاليم مذهب أهل السنة... وأخذ عبید الله المهدي ينشر مذهبه عن طريق العنف...]⁽²⁾، ويقول - أيضا - ابن حماد في تاريخه: [وكان مما أحدث عبد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة...]⁽³⁾ وبذلك يجمع المؤرخون على أن الدولة العبيدية قد واجهت موقفا متصلبا من طرف علماء الغرب الإسلامي، حيث واجه عبید الله المهدي صعوبات كبيرة في بسط نفوذه المذهبي على المجتمع الإفريقي السني، فجابهه أهل إفريقية وعلمائها المالكية؛ بالمقاطعة السلبية والانكار أولا، ثم بالقوة ثانيا. إضافة إلى أن مواقف الدولة العبيدية المتسمة بالزيغ والضلال من ناحية، والغرسة والظلم من ناحية ثانية، فلم يكن العلماء بصفة عامة ينظرون لهذه الدولة كدولة إسلامية، بل كانوا يعتبرونها دولة كفر تريد إحلال عقائد وأحكام المذهب الإسماعيلي الباطني محل عقائد الإسلام وأحكامه، فالمسألة لها علاقة بأصول الدين والعقيدة تتعلق بدولة كافرة تسعى لإحلال الإباحية ونشر الزندقة في المجتمع الإسلامي.

(1) عبد العزيز الجذوب، المرجع السابق، ص 0809.

(2) سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2009م، ص 81.

(3) ابن حمادة، المصدر السابق، ص 50.

و من نزاهته أنه أرخ لدولة الموحدين أعداء بني مرين الذين عاش في عصرهم، وعاصرهم، فهو لم يتحامل على الموحدين مجاملة لبني مرين بل ذكرهم ووصف حكامهم بالخلافة وإمارة المؤمنين والسادات وترحم عليهم وربما نقدهم⁽¹⁾.

لم يكد المغرب الأقصى ينعم بالاستقرار في ظل دولة المرابطين حتى ظهر على مسرح الأحداث داعية ديني قام بحركة تجديدية سرت في أعماق نفوس كثيرة، سقطت على إثرها دولة المرابطين وبنيت على أساسها دولة الموحدين⁽²⁾.

والحركة الموحدية حركة ظهرت في السوس الأدنى من المغرب الأقصى (قادها شخص اسمه محمد بن تومرت) تسمى باسم: (المهدي)، وزعم لنفسه النسب القرشي، وأنشأ مدرسة وأتباعاً⁽³⁾ في سنة (514 هـ / 1120 م) بعد عودته من المشرق فقيها مشتغلا بالعلم والفتيا والتدريس أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر⁽⁴⁾، وحتى سنة (524 هـ / 1130 م) استطاع الموحدون خلالها تحقيق انتصارات عدة على المرابطين ودخول حاضرتهم مراکش⁽⁵⁾.

وقد استمرت فتوحات الخليفة عبد المؤمن بن علي حتى وفاته (سنة 558 هـ - 1162 م)⁽⁶⁾، ثم جاء من بعده ابنه أبي يعقوب بن عبد المؤمن (558 هـ - 580 هـ / 1162 - 1184)⁽⁷⁾، فقد تابع بنفسه مهمة القضاء على المفسدين من العمال والولاة الذين تبين له أنهم يستغلون مناصبهم، فقبض على بعض عماله، ظنا منه أنهم خانوه فمنهم ابن عمر صاحب المدينة، وكان ذلك سنة (579 هـ / 1183 م) بعد أن استأصل أموالهم وردها إلى المخزن،

(1) ابن عذارى، ج5، ص 47، 50، 62، 83، 170، 236.

(2) ابن أبي زرع، الأنيس المغرب، ص 172؛ طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، ص95

(3) المراكشي، المعجب، ص 245؛ الحجى، التأريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي من سقوط غرناطة، ص 456 457؛ ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية، ص 79.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 294؛ الحلال الموشية مجهول، ص 99.

(5) البيدق، أحكام المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ص 2024؛ عزالدين موسى، الموحدين في المغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص 117.

(6) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 238.

(7) ابن أبي زرع، الأنيس المضرب، ص 208؛ السلاوي، الإستقصاء، ج2، ص 128.

وترك لكل واحد منهم دارا واحدة، كما فرض عليهم أربعمئة ألف دينار وستين يقسطونها على أنفسهم وشهد عليهم العدول⁽¹⁾.

وفي سنة (580 هـ / 1184 م) توفي الخليفة الثالث للموحدين يوسف بن المؤمن، وبويع لابنه يعقوب المنظور بالخلافة⁽²⁾. وما إن اعتلى المنصور أمر دولة الموحدين حتى وفدت عليه سائر عماله من بينهم عامل مدينة مكناسة الزيتون الذي اصطحب معه وفدا من أهلها لمبايعته⁽³⁾.

وبعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور سنة 595هـ-1192 م⁽⁴⁾، بويع لابنه أبي عبد الله الناصر في نفس السنة خليفة الموحدين، وفي سنة (604هـ-1207 م) نزل الخليفة الناصر بمدينة فاس مجددا النظر في أشغال العمال، ففي أثناء إقامته لفاس وردت شكاوى من أهالي مكناسة الزيتون للخليفة ضد عامل المدينة (أبو الربيع ابن أبي عمران) فنكبه الخليفة وصادر ما وجد لديه من أموال ومن ثم حبسه في مكناسة الزيتون، بعدها اتجه الخليفة الناصر من فاس إلى مكناسة الزيتون إذ أشرف على أمورها ثم توجه إلى مراكش بعد ما شفي من مرض قد أصابه وهو بمكناسة الزيتون⁽⁵⁾.

إذن قامت الدولة الموحدية في البداية على فكرة الإمامة والتوحيد، وبعد أن تولى عبد المؤمن والسلطة تحولت الخلافة إلى حكم دنيوي⁽⁶⁾، ويبقى اسم المهدي مقدس في الخطب والرسائل الرسمية — (الإمام العصوم، المهدي المعلوم)⁽⁷⁾، وقد استمر ذلك حتى عهد المنصور

(1) ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 158؛ حسن الحضارة الإسلامية، ص 191، 193، 206.

(2) المراكشي، المعجب، ص 340؛ ابن أبي، الأنيس المضرب، ص 216.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 171، 172؛ عبد الله عنان، المرجع السابق، ج 2، ص 132.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 230.

(5) المراكشي، المعجب، ص 403؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين: 249، ابن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى،

الدار البيضاء، 1982، ج 1، ص 151.

(6) عنان، دولة الإسلام، ج 2، ص 630.

(7) الغزاوي، رسائل موحدية جديدة. الرسائل، ص 444، 62، 64، 77، 83، 98، 100...

الذي بلغت الدولة في عهده أوجها، وظلت الخلافة الموحدية تقوم تحت لواء المهديية⁽¹⁾، وأبقى على الشعار الذي تحمله الرسائل (الإمام المعصوم، المهدي المعلوم)⁽²⁾، إلا أن المأمون ألغى رسوم المهدي، ولكن الخليفة الرشيد تقرب مرة أخرى من أشياخ الموحدين، وأعادوا الرسوم السابقة إلى الخلافة الموحدية⁽³⁾.

أما اتخاذ لقب أمير المؤمنين، فعندما أقر المهدي بن تومرت عبد المؤمن بن علي على الجيش قال: [أنتم المؤمنين وهذا أميركم] وبهذا لم يجد أتباع المهدي بن تومرت حرجا في أن يلقبوا عبد المؤمن بعد أن خلف المهدي، وتسمى بأمر المؤمنين وخاصة أنه ينتسب إلى بيت النبوة⁽⁴⁾، انتحل عبد المؤمن اذن اسم الخليفة لأنه كان خليفة المهدي، وسبب اتخاذه لقب أمير المؤمنين كونه الرئيس العسكري للموحدين

قال المقرئ: [... فاستخلف عبد المؤمن بن علي، فكان عن استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو معروف ثم جاز إلى الأندلس ... ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية ...، وتسمى بأمر المؤمنين]⁽⁵⁾ وقال صاحب الحلل: [لقبه الموحدون بالخليفة أمير المؤمنين]⁽⁶⁾.

تفيدنا الرسائل الموحدية بأمتلة كثيرة منها: [من أمير⁽⁷⁾ المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته ...]⁽⁸⁾، إلا أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لم يتخذ لقب [أمير المؤمنين] في بداية الأمر، فلا زال يحتفظ بلقب [الأمير]، حيث جاء في رسالته التي وجهها إلى

(1) عنان، المرجع السابق، ج2، ص 630 .

(2) بروفنسال مجموع رسائل موحدية، الرسائل رقم: 323435.

(3) عنان، المرجع السابق، ج2، ص 631

(4) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 260 ؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، 1996 م، ج4، ص 301، 302 .

(5) المقرئ، نفع الطيب، ج 4، ص 377 .

(6) لسان الدين بن الخطيب، الحلل المشوية في الأخبار المراكشية، ص 107 .

(7) اسم الأمير وهو فعيل من الإمارة، ينظر: ابن خلدون، المقدمة، تحق وتعل: عبد السلام الشدادى، الدار البيضاء، ط1، 2005 م، ج1، ص 382 .

(8) العزاوي: رسائل موحدية جديدة، ج 1، ص 115 .

غرناطة حول إنهاء ثورة غمارة: [بسم الله الرحمان الرحيم، صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما والحمد لله وحدهمنا الأمير⁽¹⁾ يوسف ابن أمير المؤمنين، أيده الله بنصره وأمده بمعونته...]⁽²⁾

كما يذهب سعد زغلول أن⁽³⁾: [يوسف لم يتخذ لقب (أمير المؤمنين) لمدة خمس سنوات لعدة أسباب منها: خلع الأخ الأكبر وتوقف الآخرين عبد الله وعثمان عن بيعه يوسف وهي من الأسباب التي جعلت يوسف لا يحمل لقب أمير المؤمنين خلال السنتين، لأنه لم يتحصل على مبايعة أخوته ومشايخ الموحدين والاضطرابات المحلية... وتهديدات الاسترداد التي وضعت العراقيين أمام يوسف للحصول على الإجماع لحملة لقب (أمير المؤمنين) لمدة ثلاث سنوات أخرى، والحقيقة أن يوسف كان يحمل فعلا خلال الخمس سنوات هذه لقب (الأمير) فقط، وهو ما تؤكد رسالة أبو حفص وأبو سعيد حول هزيمة ابن مردنيش في موقعة الجلاب] والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين... ثم لفرعه الأئمة... الأمير الأجل... أبو يعقوب]⁽⁴⁾.
لقد تمكن ابا يعقوب من التغلب بواسطة السياسة وعن طريق القوة على الصعوبات، واعترف به الجميع، وكان ذلك (سنة 562هـ/1166م)، ثم اتخذ لنفسه لقب «أمير المؤمنين»، بينما اكتفى في السابق بلقب (الأمير)⁽⁵⁾ وذهب ابن صاحب الصلاة في اخبار سنة 563هـ: [خبر تجديد البيعة فيها والاسمية بأمر المؤمنين لسيدنا الامام أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم...]¹

مع زيادة انتشار الرسائل الرسمية في أغراض الدولة المختلفة، حاول الخليفة يوسف اعطاء الرسائل الموحدية شكلها القانوني يتمثل في توقيع الخليفة ليس باسمه، لكن بخطه فقط، وهذه

(1) ينظر: رسائل موحدية، ج1، ص94.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص98، 108، 109.

(3) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ج6، ص24.

(4) رسائل موحدية، ج1، ص98، 108، 109.

(5) روجي لي تورني، حركة الموحدين في المغرب، في القرنين الثاني والثالث عشر، تر: أحمد أمين الطيبي، ليبيا، تونس، 1982، ص80.

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص258.

الشارة تتمثل في كلمات [الحمد لله وحده]، واتخذ لها اسم العلامة، بمعنى العلامة المميزة للرسالة والدادلة على صدورها من ديوان الحضرة ذاته دون غيره⁽¹⁾.

كما يتضح -أيضا- من خلال الرسائل الديوانية أن خلفاء الدولة الموحدية لقبوا بعدة أسماء: فالخليفة المهدي لقب بـ (الإمام المعصوم والمهدي المعلوم)⁽²⁾، (والقائم إلى أمر الله)، (والداعي إلى سبيل الله)⁽³⁾، وتلقب بعده عبد المؤمن «بأمر المؤمنين» (سنة 527 هـ/1132م)، وسار مساره ابنه يوسف وحفيده المنصور⁽⁴⁾ تلقبوا بالخلفاء باعتبارهم خلفاء المهدي⁽⁵⁾ كما استعملت ألقاب أخرى مثل: «سيدنا» و«مولانا» و«الحضرة السامية»⁽⁶⁾ و«المعظم الأسني»⁽⁷⁾، كما أضاف الخلفاء الموحديين اسم يشمل على كلمة (الله) إلى ألقابهم مثل: « مستنصر بالله »⁽⁸⁾ و« المنصور الناصر لدين الله »⁽⁹⁾ و« الإمام الأعدل الخليفة الصالح المنصور بالله »⁽¹⁰⁾

أما الأمراء من أسرة الخليفة كانوا يلقبون « بالسيد » و« السيد الأجل » مثل « السيد الأجل الملك الأعدل »⁽¹⁾، «الأمير الأجل»، ويلقب رجال الدولة بـ « الشيخ » مثل: «و الأشياخ ... بإشبيلية»⁽²⁾.

⁽¹⁾ العزاوي، رسائل موحدية، ج1 ص94؛ ابن عذاري، البيان، ج3، ص94؛ سيد زغلول، المرجع السابق، ج6، ص83.

⁽²⁾ رسائل موحدية، ج1، ص94.

⁽³⁾ رسائل موحدية، ج1، ص108.

⁽⁴⁾ رسائل موحدية، ج1، ص110115.

⁽⁵⁾ يوسف عابد، الموحدون في بلاد المغرب، دراسة في الحياة الاجتماعية والإقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسنطينة جامعة الأمير عبد القادر، السنة الجامعية 2006/2007، ص105.

⁽⁶⁾ رسائل موحدية جديدة. العزاوي، ج1، ص113.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ج1، ص83.

⁽⁸⁾ ابن عذاري، البيان، ج3، ص268.

⁽⁹⁾ رسائل موحدية، ج1، ص200.

⁽¹⁰⁾ مصدر نفسه، ج1، ص113.

⁽¹⁾ ابن شريفة، ابن مغاور، حياته وآثاره ص144.

⁽²⁾ رسائل موحدية، ج1، ص151.

لقد تبين لدينا بعض المآخذ على الدولة الموحدية من خلال آراء بعض المؤرخين هذا المآخذ وردت ضد ابن تومرت، حيث صور لنا ابن القطان ⁽¹⁾ أنهم قالو: [هذا رجل يكفر الناس بالذنوب ويمنع من الصلاة على أهل القبيلة، ويقول أنه من تاب لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات، ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها، وأطرح مذاهب العلماء وكتبهم وخرج من الإجماع، وكفر المسلمين، واستحل الحرام المجمع على تحريمه، واستحل دماء المسلمين وأموالهم وحریمهم، وجعل أموال المسلمين غنيمة تخمس كما تخمس أموال النصرى، وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم، وقد أجمع المسلمين على تحريم القيام عليهم ووجوب طاعتهم] .

و قد رد ابن تومرت على علماء المرابطين يقول: [فهذه الأبواب نسبونا فيها إلى الكفر والضلال والخروج من الدين فسموا أهل التوحيد خوارج، وجعلوهم مبتدعين ونسبوهم إلى الخروج من الدين وهيهات فما بعد الحق إلا الضلال، فليس للإنسان ما تمنى ولا يبلغ بغيته بهواه، ولا يفوت قوله بدعواه، فجميع ما قالوه تحريف وتشيع بل هو بالضد مما قالوه، وباختلاف ما اختلقوه فمعاذ الله أن يكفر مسلما كما قالوه، أو نمنع من الصلاة على أهل القبلة، أو نسقط الحقوق أو العبادات بالتوبة أو نطرح أئمة الدين وعلماء الأمة أو ترد المطلقة ثلاثا إلى زوجها من غير حق وزواج أو نخرج من إجماع المسلمين أو نخالف أئمة المسلمين وأمرائهم] ⁽²⁾

ومن خلال هذا العرض الوجيز على دعوة ابن تومرت تبين لنا مدى تحامل المرابطين على ابن تومرت وهو جلي وأمر طبيعي، فما عسى أن يصفوه وهو الخارج عن طاعتهم والداعي إلى الإطاحة بسلطانهم.

⁽¹⁾ نظم الجمان، ج6، ص10 .

⁽²⁾ ابن القطان، نظم الجمان، ص 11 .

و يضيف ابن القطان ⁽¹⁾ إلى أولى المجازر التي أعدّها ابن تومرت شخصيا وقام بتنفيذها أنصاره المتحمسون ⁽²⁾ خلال سنة 517هـ/1123م بتينمل ⁽³⁾ ضد هزميرة الجبل، حيث يصف لنا ابن القطان هذه المذبحة دون حرج، ودون أي شعور بالذنب أو الندم: [... فكان يخرج إلى الشريعة ... فيعظ الناس، وكانت قبيلة هزميرة يمسون العدة، فقال لهم الامام يوما: مالكم تمسون العدة وأصحابكم إخواننا الموحدون أعزهم الله تعالى لا يمسونها؟ فأقاموا على ترك عدتهم زمانا، وقد كان الإمام رضي الله تعالى عنه خاف من جهتهم لكثرتهم ومنيعتهم، وكوشيف من حالهم بما اقتضى له تدقيق النظر في امرهم، فوصلوا في بعض الأيام إلى الوعظ دون عدة، فما شعروا إلا وأصحابه الموحدون أعزهم الله تعالى ورضي عنهم، معهم العدة قد أحاطوا بهم، فقتل منهم في ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألفا، وقتل من ذلك القبيل كل من حضر في ذلك اليوم بتينمل، وسبيت حرمهم، وغنمت أموالهم، فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين من أصحابه، وأصفى ديارها جوائز: لكل قبيلة جائزة ⁽⁴⁾]

وبعد تدشين هذه المحزنة بإشراف ابن تومرت شخصيا، سيصبح الفعل تقليدا مباركا موروثا، ولن تجد لسنة الإمام بديلا، ولن تتوقف أعمال «التطهير» والتصفية الممنهجة لعشرات الألاف من المغاربة، وهي بلا شك تكشف عن الفظاعة المتأصلة والتمكنة في مثل هذه الأنظمة المروعة التي تستعمل على تصويب مسارها للقضاء على أكبر عدد ممكن من الجماعات (الكافرة) ببلاد المغرب . فخلال (سني 518هـ/519هـ - 1124م/1125م) تم وضع أسس

⁽¹⁾ لقد كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بني عبد المؤمن ... حتى كان رئيس الطلبة، مصروفة إليه الخطط الشبيهة، مرجوعا إليه في الفتاوى، ص 169 م .

⁽²⁾ البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت، ص 3659 .

⁽³⁾ ابن القطان، 1990م، ص 130، 139، 140، ينظر: المغراوي محمد. العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة محمد الخامس، (الرباط)، 2002م، ص 17، 19، ينظر: أزيكوصدقي. نماذج من أسماء الاعلام الجغرافية والبشرية المغربية، 2004م، ص 5358، حيث يقول: [إن النطق الصحيح للكلمة هو: تيشلال ومعناها هو المزار أو الحج والحرم والحرقه ...] ص 54 .

⁽⁴⁾ ابن القطان، 1990م، ص 139 140 ؛ ينظر: النويري، 2004م، ص 155 .

التمييز الذي يعني حرفيا الفرز وتفريق وتعنيف الأشياء بعضها عن بعض، وتقام عملية التمييز رسميا خلال الاستعراض العسكري استعدادا للغزوات والحملات القتالية⁽¹⁾، وقد أنشأ له الموحدون ديوانا خاصا به⁽²⁾.

وللمرور من القول إلى الفعل، عين ابن تومرت أحد أقرب بيادقه من أهل العشرة⁽³⁾ استقدمه معه من افريقية خلال عودته من الشرق والملقب بعمر البشير⁽⁴⁾ لتنفيذ عملية التصفية الجسدية في المشكوك في صلابة إيمانهم وولائهم للمعصوم، وقدمه إلى الناس في صورة جعلت من ابن نومرت في مكانة النبي محمد، فانتصب هذا الوحش كأنه يد المسخ لفرز أهل الجنة على يمينه وأهل النار على شماله والذين وصفوا بالمنافقين: [... فيعرضون على البشير ... واتفقت له فيهم عجائب ... وهم يعلمون أنه ليس لهم إلا القتل، فلا يفر منهم أحد، وكان إذا اجتمع منه كثير، قتلهم قراباتهم: يقتل الأب ابنه والابن أباه والأخ إياه...]⁽⁵⁾.

كما كان عبد الواحد المراكشي شاهد عيان لفضائح الموحدين التي أرتكبت في حق الآلاف من السكان، والتي سبق أن دونها بكل سذاجة وبساطة، البيدق في كتابه أخبار المهدي بن تومرت⁽⁶⁾، فيقول: [... ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك الحد لو أحدهم يقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء ... فهذه حال بلاء القوم، وأما حقه سفك الدماء عليهم، فقد شهدت أنا منه أيام كوني بسوس، ما قضيت منه العجب]⁽¹⁾

(1) ينظر: أمثلة أخرى عن عمليات التمييز في صلب الجيش الموحد في: ابن صاحب الصلاة، ص 346.

(2) ابن صاحب الصلاة، ص 347 .

(3) حول التراتبية الاجتماعية والنظام الذي وضعه ابن تومرت، ينظر: عز الدين موسى، ص 6377 .

(4) النويري، 2004 م، ص 156 .

(5) ابن القطان، ص 147148؛ البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 39؛ ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 68، 69 .

(6) البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، 2004 م، ص 35 . وينظر: زمارة عبد القادر، 1979 م

(1) المراكشي، المصدر اتلسابق، 1994 م، ص 164 .

واستعرض ابن غازي خيرات (مكناسة الزيتون) بالمغرب الأقصى قائلاً ثم مستدركا متحسرا: [... وهي كثيرة الفواكه والمزارع ... وأما الزيتون فهو فيها كثيرا جدا . ولذلك أضيفت إليه واشتهرت به ... وقد باد زيتونها لهذا العهد إلا قليلا لما توالى عليها من الفتن والبقاء لله وحده]⁽¹⁾.

كما وصف عمليات الغصب والتعدي على سكان البلاد من قبل جيوش الموحدين قائلاً: [وتملك الموحدون للبلاد والأموال، وصار الناس عمارا في أملاكهم، يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية وثلثا غلة الزيتون، وكانت العادة إذا بدأ صلاح الغلات يباع حظ المخزن منها حارة فحارة، وكان المشترون لها قوما لا خلاق (أخلاق) لهم يقال لهم القشاشون، فتستطيل أيديهم على حظوظ الرعية، ويضيقون عليهم بثمن بخس أو يشترون منهم حظ المخزن غاليا، فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة، لا يتجرأ أحدهم أن يقطف من ملكه حبة واحدة ... وكان السبب ... فرار الناس عنها بسبب الجور، وتركها حتى تبورت ... وكانت في المدينة بداوة]⁽²⁾

بطبيعة الحال لن أذكر هنا كل الحثيات، لكن وعلى ما يبدو لي أن المؤرخين لم يترددوا في وصف الأعمال المهينة للتنظيم الموحد، فبعضهم كتب فرحامسورا مبتهجا لأنه محصلة المنظومة وسليلها مثل البيدق وابن القطان، وبعضهم كتب مستهجنا منددا مثل عبد الواحد المراكشي في المعجب، وكلهم معاصري الدولة الموحدية .

وقد مكنتنا كتاباتهم من سير أغوار الفكر التومرتي وغاياته، كما وصلتنا مرشدته ضمن كتابه أعز ما يطلب⁽¹⁾، وهي رسالة صغيرة الحجم لا تتعدى الصفحتين، بها عرض موجز لمسائل العقيدة خال من البراهين⁽²⁾، لخصت تصوراته للمجتمع الجديد الذي أراد بعثه بواسطة

⁽¹⁾ ابن غازي، 1999 م، ص 1112 .

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 27، 28 .

⁽¹⁾ ابن تومرت، 2007م، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، الجزائر. هي رسالة صغيرة لا تتعدى صفحتين.

⁽²⁾ عبد الحميد النجار، 1983 م، المهدي ابن تومرت، ص 149، 158

جملة من الأساليب المخادعة والحيل والغدر التي تدل على عقل معتل ومفتون أراد من خلالها الوصول إلى السلطة الروحية والسياسية بيت الاعتقاد في عصمته وفي تكهناته المشؤومة على حساب الآلاف من البشر، ومباشرة أثر تسلّم زعامة الجماعة بعد موت (المعصوم) جعل عبد المؤمن بن علي من الاعتراف قاعدته الذهبية للقضاء على كل المنافسين المحتملين داخل الجماعة ذاتها أولاً، ثم خارج حلقة الموحدين ثانياً كي يستأثر بالسلطة المطلقة .

وبلا شك لن أذكر هنا كل الحثيات المرتبطة بسلطة عبد المؤمن بن علي، ولكن سنشير إلى بعض الاحالات منها اشارة النويري لما ذكر عدد القتلى عقب حصار أغادير الذي دام حوالي سنة والذي وصل إلى حوالي مئة ألف قتيل، وتكرر الأحداث نفسها بمدينة مراكش⁽¹⁾ وفاس ومكناس التي حوصرت لمدة تفوق أربع سنوات، وتم الاستيلاء وعليها (سنة 544هـ / 1149 م)، حيث لم يجد الموحدون بها إلا حيث من ماتوا جوعاً، أما من تبقى وصمد أمام الجوع والحصار فقد تم تقتيلهم أجمعين⁽²⁾ وبذلك يندد النويري بالممارسات اللاإنسانية لعبد المؤمن قائلاً: [كان كثير السفك لدماء المسلمين على صغار الذنوب ... ومن رئي في وقت الصلاة غير مُصل، قُتل]⁽³⁾

و خلال ثورة سكان مدينة قفصة بالجنوب الغربي لإفريقية (سنة 584هـ / 1188م) في ظل حكم يعقوب بن يوسف المنصوري بن عبد المؤمن (580-595هـ / 1184-1199م)، عمدت عساكر الموحدين إلى تحطيم أشجار الغابات المحيطة بالمدينة وتخریب واحاتها وتدمير عدد كبير من المساكن وهدم جزء هام من السور، فتحوّلت قفصة إلى ما يشبه اطلال قرية خربة، يقول عنها البكري في أواخر القرن الخامس: [وهي مدينة مبنية كلها على أساطين

(1) البيدق، 2004 م، ص ص 63، 69

(2) ابن غازي، 1999م، ص 910.

(3) النويري، 2004 م، ص 175 .

وطيقان، ... وقفصة أكثر بلاد القيروان فستقا وبهرتمر وحوها أكثر من مئتي قصر... تعرف بقصور قفصة... [1].

أما صاحب الروض المعطار فيقول عن المدينة: [وكان يوسف عبد المؤمن ملك المغرب لما طلع إلى أفريقية نزل على قفصة فاستصعبت عليه وذلك في سنة 575 هـ فحاصرها ونصب عليها آلة الحرب ...، ثم نزل عليها ولده المنصور يعقوب بعد وقية عمرة وذلك سنة 583 هـ، وتمادى الحصار والقتال عليها ... وقتل الناس المحكوم عليهم فيها ذبحا...، ونزع الحسن عنها] [2]، والملاحظات نفسها يسوقها النويري [3].

إن الممارسات التي قام بها الموحدون بإفريقية لا تختلف عما قام به المرينيون في بداية أمرهم عند اجتياحهم لجنوب المغرب الأقصى في فترة لاحقة، إذ عمل أبو بكر عبد الحق (591-614 هـ / 1195-1219م) على تجميع شيوخ القبائل الموالية له ووزع بينهم مناطق نفوذ وسلطات واسعة وامتيازات على هذه الأراضي، اعتبرها ابن أبي زرع [طعمة لا يشاركون فيها غيره [4]، وبذلك يتبين لنا أننا كل السلطات التي تعاقبت على بلاد المغرب منذ انتشار الإسلام قد اعتبرت الأراضي المستولى عليها غنيمة حرب تعود إلى المنتصرين بفضل أسنة رماحهم وسيوفهم ولا أحد يستطيع الاحتجاج على الواقع الجديد، ومثل ذلك ما يؤكد الناصري السلاوي ما نص عليه ابن خلدون حول خراب قرية تجساس⁽¹⁾ الواقعة شرق مدينة تيطوان بسبب سياسة القهر والظلم التي سلكها ولاية الدولة المرينية . ثم تتالى الشهادات على ذلك، فنجد ابن القنفذ

(1) أبو عبيد البكري، ص 224 .

(2) الحميري، الروض العطار، ط 1984، ص 479 - يخلط الحميري هنا بين يوسف وابنه يعقوب، وهذا الأخير هو الذي أمر بتخريب واحات قفصة وهدم سورها .

(3) النويري، ط 2004، ص 181 .

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المغرب، ص 380، 381 .

(1) مدشر من مداشر قبيلة بني زيات الغمارية، ينظر: داود محمد محمد، تاريخ تيطوان، مج 6، ص 311.

القسنطيني ينص على هذه الممارسات نفسها⁽¹⁾ فتلك إذن سمات كل الحكام الذين نصبوا أنفسهم على سكان بلاد المغرب باسم اعلاء كلمة الله وانقاذ شريعته.

و بلا شك نحن لم نستعرض هنا كل التجاوزات الحاصلة في حق سكان المغرب عبر هذا التاريخ بل سعينا إلى التركيز ببعضها - أي استعراض أمثلة تمثيلية لا حصرية - لأن المصادر تفيض بها وتسهب في التنصيص على الخروقات التي أهكت الفرد والمجتمع المغربي، ولا يدل النموذج الموحدى إلا على توجه اتسم بعنف أشد وببشاعة ظاهرة وبعذوانية لا سابق لها.

وهكذا نرى أن ابن عذارى حاول أن يكون نزيها في تأريخه لجميع الدول التي قامت

بالمغرب والأندلس

ثانيا- نماذج مقارنة من نصوص ابن حيان وابن صاحب الصلاة وابن القطان مع ما نقله

عنهم ابن عذارى مع بعض الملاحظات عليها :

نظرا لأهمية مؤلفات المقتبس لابن حيان والمن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ونظم الجمان لابن القطان في تأليف بعض الأجزاء من كتاب البيان المغرب، وكثرة النصوص التي استعملها ابن عذارى دون ذكر المصدر أحيانا، رأينا أن نقدم أمثلة من هذه النقول عارضا فيها بعض نصوص من المؤلفات المذكورة، ونصوص ابن عذارى للمقارنة مبينا ملاحظات حول هذه النقول:

(1) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 133

المثال الأول :

نص ابن عذارى	نص ابن حيان
[وفي سنة 199، كانت المجاعة التي عمت الأندلس ؛ ومات أكثر الخلق جَهْدًا].	وذكر معاوية بن هشام القرشي الشبيني قال: كانت بالأندلس سنة سبع وتسعين مجاعة شديدة، أحسن فيها الأمير الحكم مواساة أهل الحاجة من الناس، فأفشى الصدقات الواسعة، وفرق الأموال الكثيرة في الضعفاء المساكين وعابري السبيل المنقطعين، وكانت مجاعة شديدة عامة لأهل الأندلس، مات فيها منهم خلق، وعبر البحر إلى العدو منهم عالم كثير ⁽¹⁾ ، وقد ذكر فضل الأمير الحكم فيها، عباس بن ناصح الجزري، فقال في شعر له : نكد الزمان فأمنت أيامه *** من أن يكون بعصر عمر طلع الزمان بأزمة فحلا *** تلك الكريهة جودة لعمر

لقد ورد خبر هذه المجاعة في أخبار سنة 197 هـ كما هو في نفخ الطيب⁽²⁾، وفيه أيضا-

بيتا عباس بن ناصح، أما ابن عذارى ففي البيان المغرب، فقد أشار إليها في أخبار سنة 199 هـ⁽¹⁾.

(1) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص 91، 92 .

(2) المقرئ، الفتح الطيب، ج 1، ص 341 .

(1) ابن عذارى، المصدر السابق، ج 2، ص 73.

المثال الثاني:

نص ابن عذارى	نص ابن حيان
<p>[وفي سنة 231، غزا بالصائفة جليقية محمد ابن الأمير عبد الرحمان فحصرها، وحصر مدينة ليون، ورمها بالمجانيق، فلما أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلا، ولجأوا إلى الجبال والغياض، فأحرق ما فيها، وأراد هدم سورها ؛ فوجد سعتة ثمان عشرة ذراعا ؛ فتركه ؛ وأمعن في بلاد الشرك قتلا وسبيا .</p>	<p>سنة احدى وثلاثين ومائتين [فيها غزا بالصائفة إلى جليقية محمد بن الأمير عبد الرحمان، وقاد فيها عبد العزيز بن هاشم، فحاصر مدينة ليون، ونصّب عليها المجانيق، فأحلاها أهلها ليلا، وفروا إلى الشعاب، والغياض لأشبه، والجبال الوعرة ودخلها المسلمون، فغنموا ما فيها، وحرقوا مساكنها، وأمرهم الأمير محمد بإحراق ما حولها، فأحرقها وما حولها، وأراد هدم سورها فتعذر عليه لسعته ووثاقه بنائه وضخم حجارتها، وأمر بذرعة، فأصاب في عرضه ثمانية عشر ذراعا، فتركه، بعد أن ثلم ما قدر عليه منه، وأمعن في البلد خلف ليون، فأسعره قتلا وسبيا وانتهاكا وتهديبا وتحريفًا، فبلغ بالعدو مبلغا شديدا، ثم قفل غانما لم يلق كيدا⁽¹⁾</p>

نقل هذا الأخير ابن عذارى في البيان مختصرا إياه كعادته⁽²⁾، وأشار إليه ليفي بروفنسال

بروفنسال في تاريخه⁽¹⁾

⁽¹⁾ ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص 462، 463 .

⁽²⁾ ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 88 .

⁽¹⁾ تاريخ ليفي بروفنسال، ج1، ص 207 .

المثال الثالث:

نص ابن عذاري	نص ابن صاحب الصلاة
<p>ذكر ابن عذاري عند جواز عبد المؤمن إلى الأندلس من سبتة بعد إيابه من غزوة المهديّة وفتح إفريقية واجتماع الوفود للسلام عليه وسمح للشعراء في الانشاد، فقال أبو بكر بن منخل في قصيدته الطويلة :</p> <p>فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا**</p> <p>فإن نسيم النصر بالفتح قد هبا</p> <p>أصرتم إليه الخيل وهي أجادل**</p> <p>فسالت لكم نحرا وطارت لكم شهبأ</p> <p>وقد نقل البيتين الأولين فقط (2)</p>	<p>أورد ابن صاحب الصلاة قصيدة أبي بكر بن المنخل الشبلي :</p> <p>فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغرب**</p> <p>فإن نسيم النصر بالفتح قد هبا</p> <p>أصرتم إليه الخيل وهي أجادل**</p> <p>فسالت لكم بحرا وطارت بكم ركبا</p> <p>وخاتمها</p> <p>ولكن رأّت شهب الهدى مستنيرة**</p> <p>فخافت رجوما من ألسنته شهبأ</p> <p>رأوا بك دين الله كيف اعتزازه***</p> <p>وأنتم له حرب فكانوا له حربا</p> <p>وهي في 50 بيتا (1)</p>

و مما نستشفه من هذه النصوص أن ابن صاحب الصلاة قد ذكر في كتابه المن بالإمامة

القصيدة كاملة وهي خمسين بيتا .

أما ابن عذاري فقد ذكر البيتين الأولين فقط، لأن منهجه في النقل اختصار الشعر

المعروف المشهور، في حين ينقل القصائد التي لم تشتهر كما ذكر قصيدة الجراوي .

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 9598 .

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص 69 .

المثال الرابع :

نص ابن عذارى	نص ابن صاحب الصلاة
نقل ابن عذارى عن ابن صاحب الصلاة من قصيدة أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة أربعة أبيات هي :	قام الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي منشدا تاليا للقرشي المذكور في مجلس أمير المؤمنين - رضي الله عنه - بالجليل المذكور وقال:
تألاً من منور الخلافة بارق ***	تألاً من منور الخلافة بارق ***
أضاءت به الآفاق والليل غاسق و أشرفت الدنيا فكأنها **	أضاءت به الآفاق والليل غاسق و أشرفت الدنيا فكأنها **
من البشر في كل الجهات مشارق بسعدك يقري السيف ما عز قطعه **	من البشر في كل الجهات مشارق و خاتمها :
وينفذ حد السهم ما هو راشق و لا زال أمر الله للدين هاديا **	فما ولدوا لمسلمين غنائم ** و ما جمعوا للنايات طواقم ولا زال أمر الله للدين هاديا **
وأنت لدين الكفر ماح و ماحق (2)	وأنت لدين الكفر ماح و ماحق وهي في اثنتين وأربعين بيتا (1)

يتجلى لنا أن القصيدة التي ألقاها أبو الحسين عبد الله (1)، ابن صاحب الصلاة الباجي (2)

طويلة، فقد اختار منها صاحب الصلاة في المن بالإمامة اثنتين وأربعين بيتا.

(1) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 105، 108، وهو سمي مؤلف المن بالإمامة وليس من عائلته

(2) ابن عذارى، المصدر السابق، ج5، ص 70

(1) ابن القطان، نظم الجمان.

(2) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص 306.

أما ابن عذاري فقد أورد أربعة أبيات اختار البيتين الأوليين، وبيتا من وسط القصيدة والبيت الأخير من القصيدة المذكورة، واختياره ليس علاقة بالحوادث التاريخية المذكورة في القصيدة.

و يتضح لنا مما سردناه من المثالين وغيرها كثير أن معظم نقولات ابن عذاري تعتمد على ما شاهده ابن صاحب الصلاة بنفسه، ولهذا فهي تعد على درجة كبيرة من الأهمية، لكونها رواية شاهد عيان يتحدث عن الأخبار التي رآها وشارك في صنعها بنفسه، فكتاب (المن بالإمامة) مكرس بكامله للحديث عن الموحدين وله ما يسوغه، فكان لمؤلفه دور في الأحداث التي أشار إليها، ويظهر في نشئقولات ابن عذاري أنه استمر في النقل عنه، ويكاد في بعض المواضيع يذكر بالنص ما كتبه ابن صاحب الصلاة، وهو يشير إليه في كثير من الأحيان، لكنه لا يذكره في أحيان أخرى، وكأنه بحسب تعبير عبد الهادي التازي، كان يخجل من كثرة ترديده .

المثال الخامس :

نص ابن عذاري	نص ابن القطان
[قال ابن القطان: فالأكثر يقولون: كان مستقرة بطنجة، ومنهم من يقول بسجلماسة، وإن سلا وما وراءها من فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى، وكانت طنجة ليليان منهم؛ فكان طارق اذن نائبا عن موسى بن نصير، واختلفوا أيضا هنا هل إنما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمر دهمه، لم	[قال ابن القطان: فالأكثر يقولون: كان مستقرة بطنجة، ومنهم من يقول بسجلماسة، وإن سلا وما وراءها من فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى؛ وكانت طنجة ليليان منهم؛ فكان طارق اذن نائبا عن موسى بن نصير، واختلفوا أيضا هنا هل إنما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمر دهمه، لم

يمكنه إلا إنقاذه والقول الأول هو المشهور المتفق عليه [⁽¹⁾]	يمكنه إلا إنقاذه، والقول الأول هو المشهور المتفق عليه []
--	--

المثال السادس:

نص ابن القطان	نص ابن عذاري
[وقال ابن القطان: قيل إنما حملة [ابن موسى بن نصير] على الجواز للأندلس تعدي طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق، على قول، وقيل أيضا: إنما حملة على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح، والغنائم وقيل أيضا: إنما جاز باستدعاء طارق إياه، فكان جوازه في رمضان، كما تقدم] ⁽²⁾	قال ابن القطان: قيل: إنما حملة على الجواز للأندلس تعدي طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق، على قول، وقيل أيضا: إنما حملة على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح، والغنائم وقيل أيضا: إنما جاز باستدعاء طارق إياه، فكان جوازه في رمضان، كما تقدم []

وترجع النصوص التي اعتمدها ابن عذاري من هذا الكتاب من الأندلس، إلى الجزأين الأول والثاني منه، أي أخبار الفتح وعصر الولاة، إلى الجزء الخامس من عصر الطوائف بعد (سنة 400 هـ / 1009 م) . وتقدم نصوص ابن القطان الخاصة بالفتح أكثر من رأي عن الوقائع التي تتحدث عنها وييدي ابن القطان رأيه أحيانا في ترجيح بعض هذه الآراء، كما في النصين السالفين الذكر، عن مكان استقرار طارق بن زياد في المغرب، قبل فتح الأندلس وأسباب عبور موسى بن نصير إلى الأندلس.

⁽¹⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص203.

⁽²⁾ ابن عذاري، نفسه، ج1، ص208.

ثالثاً- مواقف ابن عذاري من المنشقين والثائرين عن السلطة المركزية:

في الجولة الحالية من هذا البحث، سنعود إلى الأندلس في أواخر القرن الثاني الهجري، ومطلع القرن الثالث الهجري، حيث رغم الكثير من الازدهار الاقتصادي، والتنوع العرقي والثقافي الذي كانت تتمتع به الأندلس، فقد كانت تلك الجزيرة — كما كانت تعرف — تموج للأسف بالثورات والاضطرابات والتمردات من حين لآخر، والتي كان مبعثها الطموحات الفردية، والتباينات العرقية والفكرية، والتناقضات الإقليمية، والتبرم من الطغيان السياسي، وكان لجوء الدولة دائماً للحلول الأمنية والعسكرية باسم قمع الفتنة، ودرء المفسدة، وحفظ هيبة الدولة لا ينجح سوى في دفن مكامن الاضطرابات مؤقتاً تحت السطح، لتعود إلى التفجير مجدداً .

وفي هذا الباب نرى أن ابن عذاري كانت له مواقف من الثائرين أو المنشقين عن السلطة الشرعية، والتي منع الشارع الحكيم من الخروج عليها، ولأنها تمثل الوحدة والقوة غالباً ضد من يريد النيل من دين وعقيدة الأمة الإسلامية .

لقد كانت إذن السلطة الشرعية تمثل الخليفة الذي أجمع المسلمون على توليته ورضوا به، وكذلك الأمير أو الولي المعين من قبل الخليفة لحكم إقليم أو مدينة . فكان مؤرخنا يصف الخارجين عن هذه السلطة بأوصاف تظهر خروجهم عن السلطة الشرعية فمثلاً يصف خروجهم — (الثورة)⁽¹⁾، أو (الثائر — المنتزي)⁽²⁾ أو يستعمل فعل (انتزى) أو (ثار)⁽³⁾ .

وربما خصص لبعض الثوار فصلاً في ذكر ثورته مثل [ثورة تمام بن تميم علي محمد بن مقاتل العلي]⁽⁴⁾ [و ذكر قيام الثائر الجزيري]⁽⁵⁾ أو ذكر جملة الثوار في فترة معينة مثل [تسمية

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 52 .

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 60، ج3، ص 155 .

(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 305 .

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 90، ج2، ص 51، 53 .

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 90 .

من ثار على يوسف بن عبد الرحمان القهري بالأندلس [⁽¹⁾ أو] حملة الثوار لبلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله الخارجين عن الجماعة، المضرمين لنار الفتنة [⁽²⁾

وكان يثني على بعض الأشخاص بأنه لم يشق عصا الطاعة ولم يخرج عن الجماعة كما نقل قول طارق بن زياد [ولم أر خروج عن الطاعة والجماعة] ⁽³⁾، وكذلك وصف اخا ابن مرديش بأنه بادر بالطاعة والدخول في الجماعة ⁽⁴⁾

كما يصف الجماعات الخارجة عن السلطة الشرعية بخروجهم عن الطاعة كوصفه لبني هابل بقوله: [ثاروا ببعض حصون جيان أيام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعته] ⁽⁵⁾ [وخرج — محمد بن حجاج — من حصن قبره الذي كان به مع قاسم بن وليد ناكثا للطاعة] ⁽⁶⁾ وأشد ما وصف به ابن عذاري الثائر عمر بن حفصون فقال عنه: [وفي هذه السنة — 305هـ/917م هلك عمر بن حفصون عميد الكافرين، ورأس المنافقين، وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية] ⁽⁷⁾

ووصف أمراء وملوك الطوائف في الأندلس الذين كانوا سببا في ضعف الاسلام — [الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس المتسمون بملوك الطوائف] ⁽⁸⁾.

بعد استشهاد عبد الرحمان الغافقي في موقعة بلاط الشهداء في منطقة بواتيه، وبعد هزيمة المسلمين فيها انسحب المسلمون، وتوقفت الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة وقبل استكمال

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ج5، ص 207 .

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج2، ص 38 .

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج2، ص 133 .

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج5، ص 122 .

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج2، ص 136 .

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ج2، ص 130 .

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ج م، ص 171 .

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، ج3، ص 53 .

الطريق والخوض في تفاصيل ما حدث بعد بلاط الشهداء، هناك بعض النقاط المهمة والتي نود الوقوف أمامها قليلا ولو باختصار:

لماذا لم يقم أهل الأندلس بالثورات رغم ضالة الحاميات الإسلامية في الأندلس؟ فمثل هذا السؤال هو العجب كل العجب! فالسؤال الذي كان متوقعا هو: لماذا يثور أهل الأندلس؟ وليس لماذا لم يثوروا؟! كان أهل الأندلس قبل دخول الاسلام يعيشون ظلما مريرا وضمنا شديدا؛ تنهب أموالهم وتنتهك أعراضهم فلا يعترضون؛ حكاهم في الثروات والقصور يتنعمون، وهم لا يجدون ما يسد الرمق، يزرعون الأرض وغيرهم يأكل ثمارها، بل إنهم يباعون ويشترون مع تلك الأرض التي يزرعونها فلماذا يثور أهل الأندلس؟! أيثورون من أجل هذا الذي أذاقهم العذاب ألوانا؟! أم يثورون من أجل ظهور لذريق جديد؟! أم يثورون من أجل ذكريات أليمة مليئة بالجوع والعطش، والنهب والسرقة، والظلم والتعذيب والتكبير...؟!!

ثم ماذا كان البديل المطروح؟ إنه الاسلام الذي حملته أرواح المسلمين الفاتحين الذي لا يفرق بين الحاكم والمحكوم، ولا يرفع من قيمة الأشخاص بقدر أموالهم أو صورهم أو أجسادهم؛ إنما بقدر أعمالهم، إنه الإسلام خلاص الشعوب؛ وحين عرفه أهل الأندلس تمسكوا به، واعتنقوه اعتناقا، ولم يرضوا عنه بديلا، ولكن البعض سيقول، هل من المعقول أن كل أهل الأندلس أعجبوا بهذا الدين؟! ألم يكن هناك ولو رجل واحد يريد أن يثور ويعترض حبا في سلطان أو مصلحة كانت قد ضيعت عليه؟!!

تكون الإجابة: بلى؛ فقد كان هناك الكثير من الناس من أصحاب المصالح، الذين كان لهم أعوان كثيرون أرادوا أن يثوروا على حكم الإسلام؛ ليسترجعوا مجدهم، ويحققوا مصالح كانت لهم، أما لماذا لم يثوروا؟

فلقد كانت للمؤمن زمن الفتوحات رهبة في قلوب العدو بصفة عامة، فالله عز وجل يلقي على المؤمن جلالا ومهابة، فيخافه القريب والبعيد. ولم يكن هذا الرعب بسبب بشاعة في

الحرب، أو إجرام منقطع النظير، إنما كان هبة ربانية لجند الله ولأوليائه فلم تكن حرب الإسلام إلا رحمة للناس كل الناس.

و من هنا فما حدث في بلاط الشهداء ليس بجديد؛ لأنه وبكل بساطة من عيوب النفس البشرية وهنا لا نستطيع ان نعقد مقارنة بين ما حدث في بدر وأحد ومعركة بلاط الشهداء، فذاك محمد صلى الله عليه وسلم تدارك الأمر بسرعة ؛ فحمس المسلمين على الجهاد وذكرهم بالآخرة فكانت الغلبة ورد الإعتبار.

لقد شهدت الفترة الممتدة من (123 هـ / 714 م) حتى سنة (138 هـ / 755 م)⁽¹⁾ حروبا كثيرة ونزاعات متجددة تحكمت فيها العصبية القبلية والعنصرية البغيضة، التي إتخذها ولاية الأندلس في ذلك الحين ديناً لهم في تعاملهم سواء مع العرب أو الأمازيغ (البربر)، مما أدى إلى ظهور ثورات متعددة ودخول أفكار جديدة لم تعهدها الأندلس من قبل .

ب وفاة عقبه بن الحجاج آلت ولاية الأندلس إلى عبد الملك بن قطن الفهري مرة ثانية (123 هـ / 742 م)⁽²⁾، وقد حفلت ولايته الثانية هذه بأحداث جسام، كادت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كان أخطرها تجدد الصراع العنصري البغيض بين العرب والأمازيغ وظهور طائفة الخوارج الذين أشعلوا فتيل الحرب وقادوا الثورة على عمال بني أمية الذين أسأؤوا استعمال السلطة والمعاملة مع الأمازيغ (البربر)، مما أتاح للأمازيغ اعتناق تلك الأفكار الخارجة عن الدين ؛ فقد وجدوا فيها مناصباً لنيل حقوقهم المغتصبة من جور الولاية⁽³⁾

بدأت الفتنة البربرية الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج الذين تغلغلوا في صفوف الأمازيغ ونشروا تعاليمهم والتي لاقت قبولا واسعا في المجتمع الأمازيغي، الذي يعاني من ظلم

(1) بيان ذلك في بيت الولاية كما هو عند المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص 298،300 ؛ وذكر الولاية كما هو ترتيب ابن عذاري في البيان المغرب، ج2، ص 2238 .

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص30؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص 236 ؛ أخبار مجموعة لمجهول، ص 35، وفيه يقول: ان ولايته سنة 21 هـ وكذلك في البيان المغرب، ج1، ص 53 .

(3) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 170، 173، سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 79 80.

الولاية، وخرجوا بقيادة زعيمهم " ميسرة المطغري — أو المدغري — على حاكم طنجة عمر بن عبد الله المرادي وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس . في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله⁽¹⁾ كان لكل هذا وقع الصدمة على عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فجمع جموعه، وجيش جيوشه ؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاضم قوة الخارجين عليه فالتقى الفريقان من العرب والأمازيغ (البربر) عند وادي شليف وكانت الهزيمة المنكرة للعرب ؛ فقد قتل فيها أشرفهم وفرسانهم وأبطالهم ؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة (123 هـ / 742 م)⁽²⁾.

وبلغت أخبار الهزيمة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبته الشهيرة وقال: [والله ! لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أولهم عندهم وأحرهم عندي]⁽³⁾، فعزل هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة 123 هـ، وبعث كلثوم بن عياض القشيري على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفا، وعهد له بولاية إفريقية وضبط أمورها، وجعل معها ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وثعلبة بن سلامة العاملي⁽⁴⁾، واستعد الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض بقيادة خالد بن حميد الزناتي البربري واقتتلوا قتالا شديدا، لكن دارت الدائرة على العرب وقتل قائدهم كلثوم بن عياض واستطاع بلج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعض من جنده، وتحصنوا بمدينة سبتة وفرض الأمازيغ الحصار على بلج ومن معه لمدة سنة كاملة (124/123 هـ)، وكانوا طوال هذا العام يستغيثون بعبد الملك بن قطن والي الأندلس، ولكن بلا مجيب⁽⁵⁾

(1) مجهول، أخبار مجموعة، ص 34، 35 ؛ ابن الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ج 1، ص 237 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 52 .

(2) ابن الحكم، فتوح مصر، ج 1، ص 237 ؛ ابن عذاري، ج 1، ص 53 .

(3) ابن عذاري، ج 1، ص 54 .

(4) المقرئ، نفع الطيب، ج 3، ص 20 ؛ أخبار مجموعة لمجهول، ص 36، ابن الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ج 1، ص 239، ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 54، 55، ج 2، ص 30 .

(5) أخبار مجموعة لمجهول، ص 37 - 42 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 55، 56 ؛ ج 2، ص 30 ؛ المغربي، نفع الطيب، ج 3، ص 21، 20 .

و يبدو أن عدوى الخروج عن الحكم انتقلت إلى الأندلس ولم تلبث الثورة أن انتقلت إلى أمازيغ بربر الأندلس الذين أعلنوا العصيان وبدأوا بجليقية واستورقة في الشمال الغربي للأندلس، حيث الكثافة الأمازيغية، فقتلوا العرب وطردهم من البلاد، إلا ما كان من سرقسطة فقد كانت الغلبة فيها للعرب⁽¹⁾.

وأمام هذا الزحف الأمازيغي، لم يجد عبد الملك بن قطن بُدأً من الاستعانة ببلج وأصحابه المحاصرين في سبتة، وقد كان لا يرضى أن يغيبهم، ولا يرضى أن يترلم من الأندلس حتى أكلتهم المجاعة، فبعث إليهم بالسفن والمؤونة، وسمح لهم بالعبور إلى الأندلس، لإخماد الثورة الأمازيغية، والتي كادت أن تعصف به⁽²⁾، وحتى لا نستطرد أكثر في نقل أو سرد بقية الأحداث المتعلقة بثورة الأمازيغ، والتي نستشف منها أن العصبية والقبيلة متجذرة في النفوس آنذاك .

ونظرا لتفاعل الأمور السابقة بعضها مع بعض، نستطيع بإيجاز شديد أن نلخص أهم الأحداث والتي تمخضت عنها الفترة الثانية والأخيرة من عهد الولاة فيما يلي:

- فقدت الكثير من الأراضي الإسلامية في فرنسا⁽³⁾ .
- ظهرت مملكة نصرانية في الشمال الغربي عند منطقة الصخرة، تسمى مملكة ليون⁽⁴⁾ .
- انفصال اقليم الأندلس عن الخلافة الإسلامية - الأموية في ذلك الوقت - وذلك على يد يوسف بن عبد الرحمان الفهري⁽⁵⁾ .
- انقسام الأندلس إلى فرق عديدة متناحرة، وثورات لا نهاية لها، فكل يريد التملك والتقسيم وفق عنصره وقبيلته .

(1) مجهول، أخبار مجموعة، ص 42 .

(2) أخبار مجموعة لمجهول، ص 42، 43 ؛ وابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 3031 .

(3) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 239، 251 .

(4) فجر الأندلس، ص 255، 286 .

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 62 .

- أمر خطير جدا وهو ظهور فكر الخوارج، الذين جاءوا من الشام، واعتناق الأمازيغ (البربر) له ؛ وذلك أن الأمازيغ (البربر) كانوا يعانون ظلما شديدا وعنصرية بغيضة من قبل يوسف بن عبد الرحمان الفهري ؛ مما مهد عقولهم لقبول هذا الفكر الخارج عن المنهج الاسلامي الصحيح واعتناقه ؛ خلاصا مما يحدث لهم ممن ليسوا على فكر الخوارج⁽¹⁾.

- سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، والذي كان قياما دمويا رهيبا، انشغل فيه العباسيون بالقضاء على الأمويين، ومن ثم فقد ضاعت قضية الأندلس. لقد تعرضت الدولة الأموية بالأندلس في عهد عبد الرحمان الداخل لعدد كبير من الثورات تزيد على خمس وعشرين ثورة تغلب عليها جميعا، ومن هذه الثورات: ثورة القاسم بن يوسف بن عبد الرحمان الفهري ورزق بن النعمان الغساني، وثورة يوسف بن عبد الرحمان الفهري سنة (143هـ/760م)⁽²⁾، وثورة هشام بن عروة الفهري سنة (144هـ/761م)⁽³⁾، وثورات أخرى تابعت عليه من سنة (144هـ) إلى سنة (146هـ)، وثورة العلاء بن مغيث اليحصبي سنة (146هـ/763م)⁽⁴⁾، وثورة سعيد اليحصبي اليماني سنة (149هـ/766م)⁽⁵⁾، وثورة أبي الصباح حي بن يحيى اليحصبي سنة (149هـ/766م)⁽⁶⁾، وثورة البربر في الأندلس بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة (151هـ/768م)⁽⁷⁾، وثورة اليمانية في إشبيلية بزعامة عبد الغافر اليحصبي وحيوة بن ملامس الحضرمي في سنة (

⁽¹⁾ أخبار مجموعة مجهول، ص 42، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 54 .

⁽²⁾ أخبار مجموعة مجهول، ص 92؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص 136

⁽³⁾ أخبار مجموعة مجهول، ص 95 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 53

⁽⁴⁾ أخبار مجموعة مجهول، ص 93 ؛ ابن عذاري، ج2، ص 51

⁽⁵⁾ أخبار مجموعة مجهول، ص 96 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص 178 ؛ ابن عذاري، ج2، ص 53 ؛ تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص 122.

⁽⁶⁾ أخبار مجموعة، ص 96؛ ابن عذاري، ج2، ص 53

⁽⁷⁾ أخبار مجموعة، ص 97؛ ابن عذاري، ج2، ص 54 ؛ المغرب، الفتح الطيب، ج3، ص 48 .

156هـ / 773 م⁽¹⁾، وثورة سليمان بن يقظان في برشلونة سنة (157هـ / 774 م)⁽²⁾،
 وثورة عبد الرحمان بن حبيب الفهري سنة (161 هـ / 777 م)⁽³⁾، وثورة الحسين بن يحيى
 الأنصاري سنة (166 هـ / 782 م)⁽⁴⁾، وثورة محمد بن يوسف الفهري سنة
 (168هـ / 784 م)⁽⁵⁾، وثورات أخرى كثيرة قامت ضده، ولكنه ما لبث أن أخذها كلها
 وقضى عليها .

وأمام هذا الزخم الكبير من الاضطرابات والتمردات، سنقف ولو باختصار عند واحدة
 من أبرزها، وذلك لأهميتها الشديدة في فهم هذا الانفصال الذي حدث للأندلس عن الخلافة
 العباسية، وهذه الثورة حدثت في سنة (146هـ / 763 م)، أي بعد حوالي ثمان سنوات من
 تولي عبد الرحمان الداخل حكم الأندلس، وقام بها رجل يدعى العلاء بن مغيث الحضرمي⁽⁶⁾
 وهذا الأخير قد راسله أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني ليقتل عبد الرحمان بن معاوية،
 ومن ثم يضم الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية⁽⁷⁾ .

فجاء العلاء بم مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر إلى بلاد الأندلس، ثم قام
 بثورة يدعو فيها للعباسيين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور⁽⁸⁾
 ولم يتوان عبد الرحمان الداخل عن محاربتة، فقامت لذلك حرب كبيرة بين العلاء بن
 مغيث الحضرمي وعبد الرحمان الداخل، وانتصر عبد الرحمان الداخل كعادته في قمع الثورات،

(1) أخبار مجموعة، ص 98؛ ابن عذاري، ج2، ص 55؛ المقرئ، الفتح الطيب، ج3، ص 48

(2) أخبار مجموعة، ص 102؛ ابن عذاري، المقرئ، الفتح الطيب، ج3، ص 48 .

(3) أخبار مجموعة، ص 100؛ ابن عذاري، ج2، ص 56

(4) أخبار مجموعة، ص 103؛ ابن عذاري، ج2، ص 56؛ المقرئ، الفتح الطيب، ج3، ص 48

(5) مجهول، أخبار مجموعة، ص 105؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 57 .

(6) أخبار مجموعة، ص 95؛ ابن عذاري، ج2، ص 51

(7) ابن خلدون، العبر، ج4، ص 122؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص 332؛ ج3، ص 36 .

(8) أخبار مجموعة، ص 93؛ ابن عذاري، ج2، ص 52

ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور — وكان في الحج — بأن عبد الرحمان الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث قد قتل .

وهنا قال أبو جعفر المنصور: [قتلنا هذا البائس، يعني العلاء بن مغيث الحضرمي؛ يريد أنه قتله بتكليفه إياه بحرب عبد الرحمان الداخل، ثم قال: ما لنا في هذا الفتى من مطمع، (يعني: عبد الرحمان الداخل)، الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر⁽¹⁾ .

وكف أبو جعفر من ساعتها على التفكير في استعادة بلاد الأندلس، بل إن أبا جعفر المنصور هو الذي سمى عبد الرحمان الداخل بصقر قریش، وهو اللقب الذي اشتهر به بعد ذلك. إذن تثير قضية هذا الانفصال الطويل الذي دام بين الأندلس وبين الخلافة العباسية على مر العصور عدة تساؤلات في نفوسنا جميعا؛ فلماذا انفصل - أصلا - عبد الرحمان الداخل، الورع التقى الذي أقام دولة قوية في بلاد الأندلس عن الخلافة العباسية؟

وحتى نقف وقفة عادلة مع هذا الحدث وتحليله واستجلاء غوامضه، نستطيع القول بأنه إذا كان الأمويون في آخر عهدهم قد أفسدوا واستحقوا الاستبدال فليكن تغييرهم، وليكن هذا الاستبدال، ولكن على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا قتل وسفك للدماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ذكرنا -فيما سبق- أنه في خلال الأربع والثلاثين سنة الممتدة من بداية حكم عبد الرحمان الداخل، وحتى نهايته كان هناك أكثر من خمس وعشرين ثورة في كل أنحاء الأندلس - وذكرنا- أيضا كيف روض بعضها وقمع غيرها بنجاح الواحدة تلوى الأخرى، والتي كان من أهمها ثورة العباسيين التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي، وكيف تم القضاء عليها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل كان يجوز لعبد الرحمان الداخل أن يقاتل الثائرين وإن كانوا

من المسلمين؟

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 52؛ المقري، نفع الطيب، ج3، ص 36

وحقيقة الأمر أن موقفه هذا في قتال الثائرين داخل أرض الأندلس لا غبار عليه، ولأن الجميع كانوا قد اتفقوا عليه أميراً للبلاد، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من أتاكم وأمركم جميع (أي مجتمع) على رجل واحد فأراد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه] ⁽¹⁾.

ومن هنا فقد كان موقفه - أي عبد الرحمان الداخل - صارماً مع الثوار، وذلك لقمع الانقلابات المتكررة، والتي تضعف من جانب الأمن والاستقرار في البلاد، إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أنه كان دائماً ما يبدأ بالاستمالة والسلم وعرض المصالحة، ويكره الحرب إلا إذا كان مضطراً .

فيلا شك أن ثمن هذه الثورات كان مكلفاً وغالياً جداً، ففي السنوات الأربع من بداية دخول عبد الرحمان بن معاوية الأندلس (138هـ/142هـ - 755هـ/759 م) سقطت كل مدن المسلمين التي كانت في فرنسا، وذلك بعد أن حكمها الإسلام طيلة سبع وأربعين سنة متصلة، منذ أيام موسى بن نصير وحتى زمن سقوطها هذا .

وفي سنة 181 هـ ولي أمير المؤمنين الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل العكي ⁽²⁾. وكان رضيع ⁽³⁾ الرشيد، وكان أبوه من كبار أهل دولته، ولم يكن مجرد السيرة ⁽⁴⁾ فيما تولى الرشيد ولايات، ولذلك فإنه عندما دخل إفريقية لم يسر في حكمها بطريقة تعجب الناس، فاضطربت الأمور في إفريقية، واختلف عليه جنده إلى جانب ما فعله مع الفقيه البهلول بن راشد فضربه

⁽¹⁾ أخرجه مسلم في صحيحه عن عرفة مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، ص 1852.

⁽²⁾ تاريخ الطبري، ج 8، ص 323 .

⁽³⁾ النويري نهاية الأرب، ج 24

⁽⁴⁾ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية ص 203، وكان جعفر بن يحيى اليرمكي شديداً العناية بمحمد بن مقاتل العكي، فقدم إلى القيروان سنة 181هـ، وكان أبوه من كبار القائمين بالدعوة العباسية، وحضر مع قحطبة من شهب حروب مروانية، ثم قتله عبد الله بن علي لما خلع وادعى الأمر؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج 1، ص 889

بالسياط حتى مات مما أثار عليه غضب الفقهاء⁽¹⁾ والعلماء وأهل إفريقية لما كان يتمتع به الفقيه من مكانة ومترلة في نفوس أهلها، كذلك أنقص رواتب الجند مما جعلهم ينضمون إلى ثورة تمام بن تميم التميمي⁽²⁾، وسادت البلاد الفوضى ووقعت الحرب بين زعماء الجند، وفي هذه الظروف برز ابراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث السياسية في إفريقية .

لقد تولى بعد هشام بن عبد الرحمان الداخل ابنه الحكم، وذلك من سنة (180هـ/796م) وحتى سنة (206هـ/821م)⁽³⁾، لكن الحكم لم يكن على شاكلة أبيه ولا على شاكلة جده، فكان قاسيا جدا، فرض الكثير من الضرائب، واهتم بالشعر والصيد، وقاوم الثورات بأسلوب غير مسبوق في بلاد الأندلس في عهد الامارة الأموية؛ حتى وصل الأمر في آخر حياته إلى حرق بيوت الثائرين عليه، ونفيهم خارج البلاد⁽⁴⁾ .

ومن أشهر الثورات التي قمعها الحكم بن هشام ثورة الربض (202هـ/808م)، وهم قوم كانوا يعيشون في إحدى ضواحي قرطبة، وقد ثار أهلها ثورة كبيرة جدا، بسبب ما عرف عنه من معاقرة الخمر، وتشاغله باللهو والصيد، وقد زاد من نقمة الرعية عليه قتله لجماعة من أعيان قرطبة؛ فكرهه الناس، وصاروا يتعرضون له ولجنده مما حثه على تحصين قرطبة، فأقام حولها

(1) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص142، 143؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج1، ص276 277؛ الرفيق القيرواني، المصدر السابق، ص203.

(2) تمام بن تميم التميمي، وهو جد أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صاحب كتاب طبقات إفريقية، وهو ابن عمر ابراهيم بن الأغلب صاحب امارة الأغالبة، خرج تميم من تونس على محمد بن مقاتل العكي وإلى إفريقية، واستطاع دخول القيروان في رمضان سنة 183هـ، فنهض ابراهيم بن الأغلب الذي كان في ذلك الوقت حاكم الرب لنصرة محمد بن مقاتل العكي، فكتب تمام إلى ابراهيم بن الأغلب كتابا يستدعيه ويستعطفه وقد وصف لنا ابن الأبار كيفية استقبال تمام كتاب ابراهيم ومدى الخوف والرعب الذي نزل به نقلا عن فلاح الكلاعي أنه قال: [كنت عند تمام يوم قرأ كتاب ابراهيم، فذهب لونه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده، وكان تمام مشهورا بالصراحة والشجاعة . قال أبو العرب عن جده [تمام بن تميم هذا هو جدنا، وهو ابن القادم من الشرق، وتوفي سنة سبع وثمانين ومائة ببغداد]، وذكر في كتاب المغرب في أخبار المغرب: إن ابراهيم بن الأغلب لما صار الأمر إليه بعث فيه وجماعة معه من وجده الخير الذي كان شأهم الوثوب على الأمراء إلى الرشيد، فأما تمام فإنه حبس إلى أن مات في حبسه، وهناك رواية حكيت أن الرشيد وعد أخاه سلمة بن تميم بإطلاق سراح تمام، فلما بلغ ذلك ابراهيم بن الأغلب كتب إلى عمته وهي ببغداد في سمه، فاشتتهى تمام حوتا فسمته له فمات من أكله بعد أن ذهب بصره فعلم الرشيد بذلك فترحم عليه وتوجه له، وأحسن إلى سلمة أخيه وصرفه إلى إفريقية.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، ج2، ص68؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص239

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص413؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص339 .

أسوار، وحفر الخنادق وجعل جنوده على مقربة منه، فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة عليه، وزاد توجسهم منه، ثم حدث أن مملوكا له اختلف مع أحد العوام فقتله، فثار أهل الربض، وزحفوا إلى قصره وأحاطوا به فقاتلهم قتالا شديدا هو وجنده حتى تغلب عليهم⁽¹⁾.

ولم يكنف الحكم بهزيمتهم، بل أحرق وخرّب ديارهم، وقتل ثلاثمائة من وجهائهم وصلبهم، وأمر بطردهم خارج البلاد⁽²⁾؛ فتفرقوا في البلاد ومنهم من ذهب إلى الاسكندرية بمصر وأقاموا فيها فترة ثم ارتحلوا عنها إلى جزيرة كريت، فأقاموا فيها دويلة عام (212هـ/728م) استمرت مائة عام حتى استولى عليها البيزنطيون من بعده⁽³⁾.

و رغم أفعاله تلك إلا أن الحكم بن هشام لم يوقف حركة الجهاد⁽⁴⁾؛ وذلك لأن الجهاد كان عادة في الإمارة الأموية، سواء في بلاد الشام أو في بلاد الأندلس، لكن كانت له انتصارات وهزائم في الوقت نفسه، و كنتيجة طبيعية لهذا الظلم الذي اتصفت به، وهذه العلاقة التي ساءت بين الحكام والمحكوم سقطت بعض البلاد الإسلامية في يد النصارى، فسقطت برشلونة، وأصبحت تمثل إمارة نصرانية صغيرة في الشمال الشرقي في التاريخ باسم إمارة أراجون، وكانت متاخمة لحدود فرنسا، بجوار جبال البرينيه في الشمال الشرقي للبلاد⁽⁵⁾.

لكن الحكم بن هشام بفضل الله ومنه عليه تاب عن أفعاله في آخر عهده، ورجع عن ظلمه واستغفر واعتذر للناس عن ذنوبه، ثم اختار من أبنائه أصلحهم، وإن لم يكن الأكبر؛ ليكون وليا لعهد، وكان من حسن خاتمته أنه قام بهذا الاعتذار، وهذه التوبة وهو في كامل قوته وبأسه، وذلك قبل موته بعامين⁽¹⁾.

(1) ابن الأثير، نفسه، ج5، ص 412414.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص 414.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، 480، تاريخ ابن خلدون، ج3، ص 253.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 72.

(5) ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص 322، 323.

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 43.

كما كانت ثورات لا حصر لها داخل الأندلس بعد وفاة عبد الرحمان الأوسط، بل واستقلالات في كثير من المناطق، والتي كان من أشهرها استقلال عمر بن حفصون أو المدعو صمويل، فهو كان مسلما من المولدين؛ أي: من أهل الأندلس الأصليين، كان قاطعا للطريق، ويتزعم عصابة من أربعين رجلا، وحين بدأ الناس يركنون إلى الدنيا ويتركون الجهاد في سبيل الله زاد حجمه، واشتد خطره، وبدأ يثور في منطقة الجنوب، وكون ما يشبه الدولة، فضم إليه الكثير من الحصون، حتى ضم كل حصون استجة، وجيان، التي كانت عند فتح الأندلس من أحسن المناطق الأندلسية على الإطلاق، وكذلك كانت غرناطة إحدى المدن التي في حوزته، والتي اتخذها عاصمته سماها (بابشتر)، وتقع في الجنوب بجنوب المرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾.

وبعد اثنتين وعشرين عاما من ثورته انقلب على عقبيه وتحول من الاسلام إلى النصرانية، وتسمى نفسه صمويل؛ وذلك بهدف كسب تأييد مملكة ليون النصرانية في الشمال، وهو وإن كان قد تركه بعض المسلمين الذين كانوا معه إلا أنه نال بالفعل تأييد مملكة ليون، في الوقت الذي تزامن مع توقف الجهاد في ممالك النصارى⁽²⁾.

بدأت (مملكة ليون) تتجراً على حدود الدولة الإسلامية، فبدأت تهاجمها من الشمال، وعمر بن حفصون أو صمويل يهاجمها من جهة الجنوب.

وكان من هذه الثورات الكبيرة — وأيضا — ثورة ابن حجاج في اشبيلية، وكانت هذه الثورة تمد وتساعد عمر بن حفصون أو صمويل في ثورته ضد قرطبة⁽³⁾.

ومثلها كانت ثورة ثالثة في شرق الأندلس في منطقة بلنسية، ورابعة في منطقة سرقسطة في الشمال الشرقي، حيث استقلت إمارة سرقسطة — أيضا — عن الإمارة الأموية في قرطبة،

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 24، 38 وما بعدها؛ ابن عذاري، ج 2، ص 139.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 139.

(3) ابن عذاري، ج 2، ص 125.

وخامسة في غرب الأندلس يقودها عبد الرحمان الجليقي، وسادسة في طيلطللة، وهكذا ثورات وثورات أدت في نهاية الأمر إلى أن الحكومة المركزية للإمارة الأموية في قرطبة لم تعد تسيطر على كل بلاد الأندلس إلا على مدينة قرطبة وحدها، إضافة إلى بعض القرى التي حولها⁽¹⁾. ومن ثم فقد انفرط العقد تماما حتى سنة (300هـ/919م)، وتوزعت الأندلس بين كثير من القواد، كل يحارب الآخر وكل يريد ملكا ومالا.

كما زادت الأمور تعقيدا في بلاد الأندلس بظهور دولة جديدة في بلاد المغرب، كانت من أشد الدول خطورة على بلاد الأندلس، وهي الدولة المسماة بالفاطمية، واسمها الصحيح الدولة العبيدية؟

ظهرت الدولة العبيدية في بلاد المغرب العربي سنة (296هـ/909م)؛ أي قبل سنة (300هـ/913م)⁽²⁾. وكانت دولة شيعية خطيرة جدا؛ همها الأول قتل علماء السنة في بلاد المغرب العربي، ومحاولة نشر نفوذها في هذه المنطقة فانتشرت وللأسف بصورة سريعة من بلاد المغرب إلى الجزائر وتونس، ثم إلى مصر والشام والحجاز وغيرها. وقد أعلن ابن حفصون الطاعة لعبيد الله المهدي⁽³⁾، ولا شك أن ذلك لم يكن حبا في العبيدين؛ ولكن احتياجا لمددهم وأموالهم.

وحين تولى عبد الرحمان الناصر الحكم لم يكن يملك من بلاد الأندلس سوى قرطبة وما حولها من القرى⁽⁴⁾، رغم أنها تعد أكبر بلاد الأندلس، وتمثل مركز ثقل كبير لكونها العاصمة، إلا أنها لم تكن تمثل أكثر من عشر مساحة الأندلس، وبدأ عبد الرحمان الناصر من هذه المساحة الصغيرة يغير من التاريخ.

(1) ابن عذاري، ج2، ص 133.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص 446.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 135.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8، ص 256.

وبعد الانتهاء من الشأن الداخلي في قرطبة وهيئته تماما، بدأ عبد الرحمان الناصر يتجه إلى المحيط الخارجي ؛ حيث الثورات المتعددة في كل أرض الأندلس، فأرسل حملة يقودها عباس بن عبد العزيز القرشي إلى قلعة رباح، التي كان قد ثار فيها واحد من زعماء البربر يدعى الفتح بن موسى بن ذي النون، ومعه حليف قوي آخر يدعى (أزدبلش)، وبعد معارك شديدة هزم الفتح بن موسى وقتل أزدبلش، وبعث برأسه إلى قرطبة حيث علقها الناصر على باب السدة لإرهاب الثائرين، وطهرت قلعة رباح وما حولها من الثورة ... كان ذلك في ربيع الآخر من عام 300هـ، أي بعد شهر واحد فقط من جلوسه على كرسي الملك .

كما أرسل سرية أخرى في جمادى الأولى إلى الغرب فاستردت مدينة استجة، التي كان يسيطر عليها أتباع ابن حفصون، فحققت النصر على العصاة، وهدمت أسوار المدينة وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل؛ لتعود معزولة لا يمكنها أن تثور مرة أخرى .

ثم خرج عبد الرحمان بنفسه قائدا على حملة عسكرية، فكان في توليه القيادة ما أثار نفوس الجنود بالحماسة والعزم، وتوجه بها إلى عمر أو صمويل بن حفص (240-306هـ / 855-919 م)⁽¹⁾، وكان لتبكيه إليه وهوضه إليه بنفسه ثلاثة أسباب وهي:

- أن هذا الرجل لا يختلف اثنان على أنه يستحق القتل، وذلك لأنه بكل بساطة ارتد عن دين الله عز وجل، وفارق جماعة المسلمين، بخروجه عليهم، ومن ثمة فقتاله أصبح فرضا على المسلمين.

- أن ابن حفصون كان الثائر الأقوى والتهديد الأكبر من بين الثائرين في الجزيرة، وتركه على حاله ومواجهته صغار الثائرين، يقوي مركزه، كما يقوي نفوس الثائرين الآخرين، ويضع صورة الحكم في قرطبة في حرج شديد، إذا ظهر أنها تتأخر عن مواجهته.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 159.

- أنه يستطيع بذلك أن يحفز أهل قرطبة الذين كانوا قد ألقوا الثورات في هذه الآونة؛ حيث المعركة في منتهى الوضوح؛ فهي بين المسلمين والمرتدين.

- لقد استمر مدى هذه الحملة طيلة ثلاثة أشهر كاملة؛ هي شعبان ورمضان وشوال من سنة (300 هـ/913 م) في العام نفسه الذي تولى فيه، واسترد فيها مدينة جيان، وهي من المدن الحصينة في الأندلس، كما استرد فيها زهاء سبعين حصنا من أمهات المعازل الثائرة، وهزم فيها جيوش ابن حفصون هزائم منكرة⁽¹⁾.

ولكن مازالت قوة صمويل بن حفصون كبيرة جدا؛ فالمدد يأتيه من الشمال من دول النصرارى ويأتيه — أيضا — من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية)، هذا فضلا عن امدادات مدينة اشبيلية التي كان عليها حاكم مسلم من بني حجاج، لكنه كان متمردا على سلطة قرطبة، وكان يملك جيشا مسلما كبيرا. وفكر عبد الرحمان الناصر كثيرا في كيفية قطع هذه الامدادات عن ابن حفصون، واهتدى أخيرا في أن يبدأ بالهجوم على مدينة اشبيلية أكبر مدن الجنوب بعد قرطبة؛ وذلك بمنطق التزعة الاسلامية التي غلبت عليه؛ حيث كان يأمل إن هو ذهب إلى إشبيلية واستطاع أن يرغم حكامها على الانضمام له، أو الإنصياع إليه بالقوة أن ينضم إليه جيش اشبيلية المسلم الكبير، وبذلك تقوى جيوش الدولة الأموية وتقوى شوكته.

وبالفعل — وبعون الله — كان له ما أمل إليه؛ حيث بعد أقل من عام واحد من ولايته في سنة (301 هـ/914 م)، استطاع أن يضمها إليه؛ فقويت بذلك شوكته، وعظم جانبه، فعاد إلى ابن حفصون بعد أن قطع عنه المدد الغربي، واسترد منه جبال روندة ثم شذونة ثم قرمونة، وهي جميعا من مدن الجنوب.

تعمق عبد الرحمان الناصر بعد ذلك ناحية الجنوب حتى وصل إلى مضيق جبل طارق فاستولى عليه، ويكون بذلك — أيضا — قد قطع الامدادات والمساعدات التي كانت تأتيه من

⁽¹⁾ ابن عذاري، ج2، ص 160 163؛ محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس، ج2، ص 376.

الجنوب من قبل الدولة العبيدية (الفاطمية) عن طريق مضيق جبل طارق، وسعى عبد الرحمان الناصر إلى أكثر من هذا ؛ حيث قطع — أيضا — طريق الإمدادات التي كانت تأتيه من الدول النصرانية في الشمال عن طريق المحيط الأطلسي، ثم مضيق جبل طارق، ثم البحر الأبيض المتوسط، ثم إنه وجد في البحر مراكب لابن حفصون كانت تأتيه بالمدد من بلاد المغرب العربي فأحرقها ؛ وبذلك يكون الناصر قد قطع عن صمويل بن حفصون كل طرق الامدادات والمساعدات التي كانت تمده وتقويه (1) .

ولم يجد ابن حفصون بدءاً من طلب الصلح والمعاهدة من عبد الرحمان الناصر على أن يعطيه اثنتين وستين ومائة حصن من حصونه، ولأن البلاد كانت تشهد موجة من الثورات والانقسامات يريد الناصر أن يتفرغ لها، فضلا عن أنه سيضمن في يده اثنتين وستين ومائة حصن. و سيأمن جانب عدوه؛ فقد قبل المعاهدة ووافق على الصلح مع ابن حفصون(2)

لقد اصبحت قوة عبد الرحمان الناصر تضم قرطبة واشبيلية وجيان واستجه وهي جميعا من مدن الجنوب، اضافة إلى حصون أخرى كثيرة — كما ذكرنا — وكل هذه المساحة كانت تمثل تقريبا سدس مساحة الأندلس الإسلامية في ذلك الوقت، هذه أولا.

وثانيا: أن ابن حفصون ما زال يملك حصونا كثيرة، وسيسيطر سيطرة كاملة على الجنوب الشرقي من البلاد، لكن قطعت عند الامدادات الخارجية؛ سواء من النصارى أو الدولة العبيدية، أو اشبيلية، فصار خطره محدودا بالمقارنة بالحال من قبل.

و ثالثا: كان هناك تمرد في طليطلة (تقع في شمال قرطبة)، ورابعا: تمرد في سرقسطة في الشمال الشرقي، وخامسا: تمرد في شرق الأندلس في بلنسية، وسادسا: تمرد في غرب الأندلس يقوده عبد الرحمان الجليقي. أي أن الأندلس في عام (302 هـ / 915م) كانت مقسمة إلى ستة أقسام ؛ قسم واحد فقط في يد عبد الرحمان الناصر، ويضم قرطبة واشبيلية وما حولهما، بما

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 164، تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 139 .

(2) تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 139 .

يقارب سدس مساحة الأندلس — كما ذكرنا — والخمسة الأخرى موزعة على خمسة متمردين والتوقع — إذا — أن يحاول عبد الرحمان الناصر من جديد مقاومة أحد مراكز التمرد هذه، وبخاصة الأقرب منه .

ضف إلى ذلك أن المرء ليقف متعجبا حين يعلم أن عبد الرحمان الناصر ترك كل هذه التمردات، واتجه بصره صوب الشمال الغربي، صوب مملكة ليون النصرانية مباشرة، ثم بدأ بعدها يحرر الأراضي التي كانت قد استولى عليها النصارى في عهد ضعف الإمارة الأموية.

وفي سنة (316هـ/928 م) أرسل عبد الرحمان الناصر حملة أخرى إلى شرق الأندلس؛ لقمع التمرد الذي كان هناك، وضمها بالفعل إلى أملاكه، ثم في العام نفسه أرسل حملة أخرى إلى غرب الأندلس فاستطاعت هزيمة عبد الرحمان الجليقي؛ ومن ثم ضم غرب الأندلس إلى أملاكه من جديد ⁽¹⁾. وبذلك بعد ستة عشر عاما من الكفاح المضني يكون الناصر قد وحد الأندلس كلها تحت راية واحدة؛ وحدها جميعا ولم يتجاوز عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عاما بعد.

وفي سنة (323هـ/935 م) تحدث خيانة من حاكم مملكة الشمال الشرقي (سرقسطة) محمد هشام التجيبي، حيث تحالف مع مملكة (ليون) النصرانية لحرب عبد الرحمان الناصر وبكل حزم وقوة يأخذ هذا الأخير جيشا كبيرا يتصدى به لهذه الخيانة ويهاجم مدينة (سرقسطة)، وعند أطراف المدينة يهاجمه جيش (سرقسطة) فيعزز عبد الرحمان الناصر قلعة حصينة، ويمسك بقواد هذا الجيش، ويقوم بإعدامهم على الفور أمام أعين الجميع في عمل لا يوصف إلا بالكياسة والحزم.

(1) ابن عذاري البيان المغرب، ج2، ص 197، 198 .

وهنا أعلن حاكم (سرقسطة) التجيبي ندمه وعودته إلى عبد الرحمان الناصر، فقبل منه اعتذاره ثم أعاده حاكماً على (سرقسطة)؛ راجحاً بذلك كل قلوب التجيبيين⁽¹⁾.

كما عمد الناصر إلى استخدام أشرف القبائل وزعمائهم الذين فروا من مطاردة الفاطميين لهم، فيممووا نحو قرطبة لالتماس الأمان، ومن مشاهير هؤلاء حميد بن يصل الكناسي الذي التحق بالناصر سنة 336هـ/946م فأكرم نزله، واستعرض له الجيش وأقام له حفلاً بهيجاً⁽²⁾.

و كانت سياسة عبد الرحمان الناصر ترمي إلى استقطاب أمراء العدو المغربية، ليس فقط لإخماد المعارضة في الداخل بل لمواجهة بني عبيد الذين بدأت تهديدهم منذ وفاة جده⁽³⁾. ولم يكتف الناصر بالاستعانة بأشرف قبائل العدو الجنوبية، بل عمد إلى الثوار المتحصنين الذين تنغصت بهم الخلافة الأموية في الأندلس واستزلمهم من حصونهم⁽⁴⁾، فهو قد ورث من أسلافه بلادا تعج بالثورات والاضطرابات حسب قول ابن الخطيب: [ولي الناصر لدين الله الأمر والأندلس حجرة تحترق ونار تصطدم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الأفاق فسكنها الله بسعده]⁽⁵⁾.

لذلك وجد نفسه مكرها على انتهاج سياسة أسلافه في مسالمة الثوار تارة ومحاربتهم تارة أخرى⁽⁶⁾، حيث كانوا في حاجة ماسة إلى الدعم العسكري لمواجهة الحركات المناوئة وكان يقوم بمعظمها العرب والمولدون والهجمات التي كان يقوم بها المضاري في الثغور الشمالية⁽¹⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص 411؛ السهيلي، الروض الأفق، ج4، ص 170؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص 570؛ عبد

الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص405 وما بعدها

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 215.

(3) بشير رمضان التليبي، الإتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، العشر ميلادي، ص 132

(4) المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص 353.

(5) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 29.

(6) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 36

(1) عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس، ص 145.

و من هؤلاء الثوار الذين استترههم الناصر من حصونهم حصنا حصنا⁽¹⁾، بني هابل الأربعة بكورة جيان، وهم منذر بن حريز بن هابل وأخوه أبو كرامة هابل بن حريز، وأخوه عامر وأخوه عمر، هؤلاء ثاروا في حصون جيان في أيام الأمير عبد الله وشقوا عصا طاعته⁽²⁾، وكانوا يتقبلون بين الولاء والعصيان فعندما تغزوهم الصوائف يتمثلون ويطيعون، وعندما تكف يعودون إلى ما كانوا عليه من المعصية والتمرد⁽³⁾. فظلوا على هذه الحال إلى قدوم عبد الرحمان الثالث الذي عمد إلى سياسة الاستتال [فترلوا على حكم الأمان فحسنت طاعتهم وخدمتهم]⁽⁴⁾.

وحتى لا يعود هؤلاء إلى أعمالهم السابقة كان يحولهم مع عائلهم ويقحمهم في الوظائف التي تناسبهم، وكانت في الغالب وظائف عسكرية، وفي هذا يقول ابن حيان: [فترلوا عن معاملهم إليه وكلهم مدعن بطاعته محكم في نفسه، وأوسعهم عفوه وألبسهم فضله وأخلى مواطنهم منهم وقدم أولادهم ونسائهم وأثقاهم إلى قرطبة، وصاروا لرجاله إسوة واستعمل على حصونهم ومعاقلم ثقات رجاله]⁽⁵⁾

و يضاف إلى هؤلاء البربر الذين استترههم الناصر، هما ابنا مهلب، وهم من وجوه البربر بكورة إلبيرة وهما خليل وسعيد، اللذان قاما بثورة على غرار الثوار وحذا حذوهم أبناءهم من بعدهم إلى أن استترههم الناصر بعد وفاة آبائهم⁽⁶⁾.

و بالرغم من هذه السياسة المنتهجة من قبل الناصر في استجلاب البربر، فهو في صدر دولته أراد احتواء ما يمكن احتواؤه، من النكبة التي أصابت الأندلس من اضطرابات وقلقل، وكثرة الثوار التي كانت وراءها عدة أسباب يوجزها ابن الخطيب في هذا النص قائلاً:]

(1) ابن حيان، المقتبس، ج5، ص 60

(2) ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 136، محمد دياب، تاريخ العرب في اسبانيا، ص 248 .

(3) محمد حقي، البربر في الأندلس، ص 136 .

(4) ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 136

(5) ابن حيان، المقتبس، ج5، ص 66 .

(6) ابن عذارى، ج2، ص 137 .

والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاث وجوه، الأول: البلاد وحصانة المعازل وبأس أهلها بمقرباتهم عدو الدين...، والثاني: علو الهمم وشموخ الأنون وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان يحصد بالأندلس مع العرب والبرابرة أشراف يأنف بعضهم من الإذعان لبعض، والثالث: الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم... [1]

ما من شك أن الحكم المستنصر ظل تحت ضغط حاشيته التي أوغلت صدره على الحسن بن قنون ورفاقه، وخاصة بعد تجرؤه على الخليفة، بالإضافة إلى وطأة النفقات.

ومن ثم لم يجد بدا من التخلص من هذا المشاكس العنيد، الذي تطاول عليه، فأمر بإجلائهم بعد أن أخذ منهم عهداً ألا يدخلوا بلاد المغرب، فمن ألمرية أبحرا بن قنون نحو مصر، أين استقبلهم نزار بن معد، فأكرم نزلهم، وأقاموا عنده مدة طويلة، وفي (سنة 373هـ/983م) متهم على العدو إلى بلاد المغرب⁽²⁾، وأيده بعامله على الغرب بلقين بن زييري، وانضمت إليه قبائل البربر وشرع في بث دعوته⁽³⁾، فأزعج ذلك المنصور، فبعث إليه قواته التي أجبرته على الاستسلام والتوجه ثانية إلى الأندلس، فكان له ذلك، ولما بلغ المنصور أبحاره تنكر له، وبعث من قتله وحز رأسه وأوصله إليه كان ذلك (سنة 375هـ/987م).

وبذلك فقد أدرك الحكم بعد الصراع المرير الذي خاضه ضد بربر العدو وما لاقاه منهم من شدة واستماتة حتى كادت ان تنال من قواته، لولا الدعم المادي والبشري الذي امد به قواته، أدرك عندئذ حسن تدبير والده الذي اعتمد على هذه العناصر البربرية— وخاض بها حروبه ضد المناوئين له في شتى انحاء الاندلس وأمد بها الفتن والاضطرابات التي كادت ان تطيح بالمرائيين في الاندلس⁽¹⁾

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 36

(2) العبادي، المرجع السابق، ص 234.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 115 116

(4) عمر بوخاري، الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس وعلاقتهم بملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، ص

ولما احس الحكم بدنو اجله جمع كل من يثق بهم من المقربين منه واخذ منهم العهود والمواثيق للوقوف الى جانب نجله الحدث، والاخلاص له في تسيير شؤون الدولة، مما يعني ان السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على هذا الفتى الصغير⁽¹⁾

وفي حقيقة الامر كانت هناك جماعة اخرى وهي طبقة الفقهاء التي تشكلت معظمها من العناصر العربية يمنية وقيسية، وزعيم هذه الطائفة هو محمد بن ابي عامر المعافري اليمني الذي عرف كيف يدير الصراع القائم بين طائفتين اللتان كانت تحت وصية الامير وبجردهما بعد ذلك من عناصر القوى التي تمتعتا بها وظل يحيك المؤامراتدون كلل حتى وصل الى سدة الحكم وذاع صيته، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عامر بن ابي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك العافري، وهم بيوت متفرقة في الاندلس ولهم دار جامعة⁽²⁾.

وفوق هذا وذاك فإن المنصور اتسم بطموح لا حدود له، وحنكة سياسته لا جدال في جدارتها، كما انه تميز بقدرات خاصة على اجهاض الدسائس والمؤامرات⁽³⁾، فقد كانت الامور تجري على يديه فقد كان هذا الداخل والخارج، بالأوامر منها للحاجب والوزراء⁽⁴⁾، ومع ذلك فقد وجد أمامه طريقا شاقا محفوفًا بالمخاطر، يتربص له فيه الخصوم والاعداء واستطاع بعزمته التي لا تقهر وذهنه المتقدم، ان يشق طريقه كقائد عسكري وسياسي، منتهزا في ذلك الفرص المتاحة فقوى نفوذه على حساب رجال الدولة وتفرد بالحكم وتسمى بالمنصور ومارس مهام السلطان نيابة عن الخليفة الناصر هشام المؤيد⁽¹⁾.

(1) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص 390 .

(2) ابن حزم، طرق الحمامة بين الألفة والألاف، ص 419 .

(3) ليفي برونشال، تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ص 445 ؛ العيادي، المرجع السابق، ص 242 .

(4) مجهول، تاريخ الأندلس، ص 220 . [هذا الذي ذكر ت اعتقد أنه: مفاخر البربر الذي حققه عبد القادر بوباية، أو مؤلف آخر له].

(1) العيادي، المرجع نفسه، ص 244 .

تشير بعض الدراسات التاريخية الحديثة، على ان بذور انهاء الخلافة التي انطلقت شرارتها نهاية القرن الرابع الهجري، قد ولدت في عهدي عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور بن أبي عامر⁽¹⁾.

بيد أن الوقائع التاريخية التي شهدتها الأندلس في عهد المنصور، تبرز بوضوح ان عهد الانهيار قد حملتها ايام المنصور وحده، لتنفجر بعد اقل من عقد من الزمن بعد وفاته، اما عبد الرحمن الناصر فقد اسس لدولة استمرت عهد نجله الحكم المستنصر الذي لم يكن في مستوى والده من حيث ادارة الحكم، وحجة هؤلاء ان الخلافة الاموية قد ارتبطت بالفرد وليس بنظام، ولأن استمرت القوة فلذلك مستمد من اسلافهم .

فمثلا القوة والدور الذي ظهرت عليه الدولة الاموية في الاندلس على عهد الخلافة فهي القوة التي كان يكتسبها الحاكم من سلفه⁽²⁾. هذا صحيح ولكن حكم الفرد ليس بالضرورة حكما فرديا في جميع الاحوال.

وعلى أي حال فإن الوقائع التي انبعثت فيها شرارة الفتنة، فهي تبدأ بالعزلة المطبقة التي فرضها المنصور على هشام المؤيد وسياسة حز الرؤوس لمعانديه، مما جعل المنصور مطلق التصرف في شؤون الدولة من جميع النواحي، حيث يصور لنا ابن حزم شخصية هشام امام هذا التسلط قائلا: [وما كان هشام المؤيد بدونهما لانه كان ممسكا لا يؤذي احدا ولا يمنع احدا من ان يؤذى]⁽³⁾ حتى شاعت آنذاك ابيات شعرية لكنها ألسنة الساخطين على العامرين:

ليس من العجائب ان مثلى يرى ما فل ممتنعا عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيئا في يديه⁽⁴⁾

(1) عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص 306 .

(2) نفسه، ص 306 .

(3) رسائل ابن حزم، ج2، ص 73

(4) ابن عذاري المصدر السابق، ج2، ص 280281

ظل المنصور كما أسلفنا يقبض على الحكم بيد من حديد فخدمت من أيامه القلاقل والاضطرابات وخدمت معها الاحقاد والعصبيات التي ظلت تحتلج في صدور اصحابها من مختلف شرائح المجتمع الاندلسي.

فلما أفل نجم المنصور خلفه ابنه عبد الملك المظفر الذي لقب بسيف الدولة وكان سنه آنذاك 28 سنة، وقد ورث عن والده ملكا واسعا ولكنه كان مهيدا بالأخطار، وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كثيرة أثبت فيها جدارة ومهارة عالية⁽¹⁾

ومهما يكن من أمر فإن الأندلس شهدت بعد حكم عبد الملك فتن ثارت من بعده، حيث أن عبد الرحمان بن المنصور تعجل الوصول إلى نهايته بسبب تهوره، وكما وصفه ابن عذاري: [فعلى العكس من ذلك كان الحاجب الجديد هو القيصر متأخرا عليه بسكوته النافر واستخفافه بالأعراف قبل أن يسوقه إلى حتفه خلال شهور قليلة، وكانه جاء فقط لتكريس عملية السقوط المخزي] ⁽²⁾.

حيث يؤكد مؤرخنا أن ادعاء العهد هو الباعث على الفتنة⁽³⁾، وكانت بداياتها حين التف الأمويون حول شاب يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار⁽⁴⁾، هذا الفتى الذي سبقه والده في محاولة انقلابية ضد عبد الملك بن أبي عامر، وباءت بالفشل وأعدم⁽⁵⁾ لتوه مما ترك أثرا بالغا في نفسيته، دفعته للأخذ بالثأر من العامريين مستغلا سقطة شنجول وطلبه للخلافة وغضب الأندلسيون عليه⁽⁶⁾.

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 406

(2) ابراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، ص 339

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 42

(4) الحميري، المصدر السابق، ص 30؛ ابن عذاري، ج3، ص 50

(5) ابن عذاري، ج3، ص 35

(6) المصدر نفسه، ج3، ص 52

ومما هو جدير بالذكر وقبل الحديث عن وقائع هذه الفتنة التي تأرجحت بين مسميات مختلفة، كالفتنة البربرية وهي تسمية تداولها أهل الأندلس⁽¹⁾ والفتنة القرطبية، التي آثر بعض المؤرخين الإعراض عن تعيين المتسبب فيها، لكن أوعزوا إليه في قضايا المتون التي تجعل الباحث يقف عند كل من كان وراء الفتنة دون إمعان نظر .

وفي المقابل نفى الكثير من المعارضين مسؤولية البربر إثارة الفتنة، عندما نسبوا ذلك إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار، ومنهم ابن الأبار القضاعي ليقول: [محمد بن هشام بن عبد الجبار بن

عبد الرحمان الناصر باعث الفتنة بالأندلس وهو موقد نارها الخامدة وشاهر سيفها المغمدة]⁽²⁾ وبنفس العبارة والحدة، أورد ابن عذاري نصا صريحا، استلهمه في حقيقة الأمر من الوقائع التي مهدت للفتنة، حيث كان ابن هشام السهم الذي لم يخطئ المرانيون به عندما صوبوه نحو العامرين، وفي هذا يقول: [فكان هذا من فعل السفية ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار فكان الأحق والأولى]⁽³⁾

وعلى هذا المنوال نسج المقرئ التلمساني، حيث ألقى اللوم على محمد بن هشام في إشعال نار الفتنة قائلا: [لقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا، فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس وماحي معالمها حتى تفرقت الدولة وانتشر السلك وكثر الرؤوساء وتطاول العدو إليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محى اسم الإسلام منها]⁽⁴⁾

ثم تتابعت اقلام المؤرخين في تحميل هذه الشخصية مسؤولية الفوضى والانهيار اللذين ألما بالأندلس وهذا ابن خلدون لا يفوت على محمد بن هشام اتهامه ببعث الفتنة بقوله: [من خشي

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص 76 .

(2) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج 2، ص 05

(3) ابن عذاري، ج 3، ص 76

(4) المقرئ، نفع الطيب، ج 1، ص 577

الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأعزوا أهل القصر وحاجبه، المدبر المهدي، وأن الفتنة إنما جاءت من قبله [1]

وفي الجانب الآخر من ذلك يقف ابن حيان وهو عمدة من أروخوا لهذه المرحلة ليحمل البربر مسؤولية ما حدث أيام الفتنة، فهو قد حمل البربر مسؤولية البدء في اشتعالها في الكثير من النصوص التي حوته كتبه منها هذا النص: [واعتدوا بعده على الخليفة في معنى الامتعاض منهم، لعداوتهم على ولده اعتداء صار إلى ما هم الآن بصدده من أبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على المهلكة] [2]

مع ذلك يمكن القول: أن مذهب ابن حيان في تحميل مسؤولية الفتنة جاء في إطار شامل للمجموعة؛ حيث أن منهج ابن حيان لعهد الطوائف كان شاملاً، إذ انتقد جميع العناصر المسؤولة عن اندلاع الفتنة.

أذن لم يلق انحياز البربر لمحمد بن هشام ترحيباً يليق بموقفهم هذا فقد لفضتهم جموع الروانيين رؤسائهم، وعامتهم، كونهم كانوا وراء ظهور ابن أبي عامر، والأداة التي تغلب بواسطتها عليهم وساموهم بها سوء ما يكرهون [3]

وخلاصة القول أن من نتائج هذه الفتنة التخريب والدمار الذي أصيبت به قرطبة، وأصبحت معالمها أثر بعد عين، وقد نجم عنها مقتل العديد من العلماء ومنهم أبو الوليد ابن الفرضي [4].

وبعد موت المظفر بن ابي عامر افتقدت الأندلس الشخصية القوية فدخلت في التنازع على العرش، وبدأ الأمراء في الحواضر الأندلسية يستقلون عن السلطة المركزية، وبدأ بذلك القسم الآخر من تاريخ المسلمين في الأندلس، وهو عصر ملوك الطوائف.

[1] تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص 181

[2] ابن حيان، المقتبس، ص 151.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 180

[4] ابن يشكوال، المصدر السابق، ص 112 — 215؛ ابن سيام، الذخيرة، ج 1، ص 381382

وتعود جذور الخلافات والتراعات الداخلية في الأندلس أثناء عصر الطوائف إلى عهد الحاجب عبد الملك بن منصور بن ابي عامر (392هـ / 399هـ - 1001 - 1007م)، الذي توفي مسموماً من قبل أخيه عبد الرحمن شنجول (398-399هـ / 1007-1008م)، كما توفي الأخير بمؤامرة من قبل (الزلقاء) ام عبد الملك بن المنصور (سنة 399هـ / 1008م)⁽¹⁾

وفي هذه السنة تم خلع الخليفة هشام الثاني (المؤيد بالله 366-403هـ / 976-1012) ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الرحمان الناصر المهدي بالله (399-401هـ / 1008-1010م)، إلا أنه لم يطل به المقام في الخلافة، إذ سرعان ما أعلنت الثورة ضده من قبل البربر وذلك بالتعاون مع النصارى والاسبان وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالمهدي في معركة فنتيش (سنة 400هـ / 1009م)، ودخول قرطبة عاصمة الخلافة⁽²⁾

لقد أظهرت موقعة فنتيش بشكل واضح عن حالة الانقسام بين جند الأندلس إلى أطراف متنازعة هي كل من (العرب - البربر)، وبذلك تبددت الآمال إلى قيام دولة إسلامية موحدة في الأندلس، مما أفسح المجال أمام حكام المدن والمقاطعات إلى إعلان استقلالهم عن السلطة المركزية وبذلك عدت موقعة فنتيش البداية الأولى لظهور عصر ملوك الطوائف⁽³⁾.

بدأ عصر ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية (سنة 422هـ / 1030م) وأخذت المدن الأندلسية تستغل على شكل دويلات صغيرة، وأطلق رؤوساء هذه الدويلات على انفسهم لقب ملوك، وأخذ هؤلاء الملوك اتباع سياسة توسعية فيما بينهم، ودخلوا في منازعات وحروب أهلية دامية أدت إلى وقوع خسائر كبيرة في الأرواح والأموال⁽⁴⁾

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 37؛ لسان الدين ابن الخطيب، اعمال الاعلام، 89 - 129

(2) ابن عذاري، ج 3، ص 78، ابن الخطيب، نفسه، 127؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقق: عبد القادر بوباية، ص 3839

(3) ابن الأبار، الحلة السراء، ج2، ص 67؛ السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية، ص 17

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 2932، عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص 20، عبيدان داود عمر، بوادر ضعف العرب في الأندلس وسقوط النغر الأوسط وطليلة، مجلة المؤرخ العربي، العدد 34، بغداد، 1987، ص 153

كان لطبيعة ملوك الطوائف أثر كبير في اتباع سياسة التوسع على حساب الدويلات الإسلامية الأخرى، وذلك لأنها لم تكن دولا بالمعنى الحقيقي، بل كانت أقرب إلى وحدات الاقطاع، واسر ذات زعامات تعمل من اجل مصلحتها الخاصة دون الالتفاف إلى المصلحة العامة للمسلمين، اذ اتصف عصر الطوائف بأنه عصر الأطماع والأناية والمصالح والمؤامرات⁽¹⁾ لقد شهدت الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري حالة من الفوضى والتمزق الداخلي، وما آلت إليه البلاد من ضياع وتفكك بعد أن كانت دولة واحدة منظمة ذات قوة وسيادة، تحولت إلى أشلاء ممزقة ودويلات متناثرة ومتخاصمة فيما بينها⁽²⁾ لم تتوقف حالة الفوضى في عصر الطوائف على الوضع السياسي فحسب، بل وشمل الجانب الاخلاقي، في بعض دويلات الطوائف.

مرت الأندلس إذن خلال عصر الطوائف بتفكك سياسي واجتماعي وديني واضطراب داخلي، اذ عمل ملوك الطوائف على التوسع على حساب الدويلات الإسلامية المجاورة لهم، ويتضح ذلك جليا عندما قام بنو عباد بتوسيع مملكة اشبيلية على حساب الدويلات الإسلامية في جنوب وغرب الأندلس، فضلا عن قيام بنو هود بضم مملكة دانية إلى سرقسطة⁽³⁾.

كما أشار المقرئ زاما ملوك الطوائف: [وأهم يعللون أنفسهم بالباطل ... وبعدهم عن وصية بنينهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى ظل عدوهم الساعي لإطفاء نارهم، يجوس خلال ديارهم يستقرئ بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرقا ويبيد أمة، ومن حوالينا من أهل كلمتنا ضموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم فأن البثق سرى إليهم جميعا كما سنراه ولا حول ولا قوة إلا بالله]⁽¹⁾

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 160171 ؛ ابن الخطيب ر، المصدر نفسه، ص 142144

(2) ابن الخطيب، نفسه، ص 144

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 248 249 ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص 24-25 ؛ أحمد شلي موسوعة التاريخ الإسلامي، ج4، ص 117 .

(4) المقرئ، نفع الطيب، ص 452453 ؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج2، ص 190، 191 .

كما أشار ابن الكردبوس إلى حال المسلمين في الأندلس أثناء عصر الطوائف بشكل موجز قائلاً [فلما اتصل الخبر بأمراء البلاد، ثار كل واحد منهم في بلده بمن عنده من الأجناد، فثار ابن زيري بن مناد في غرناطة، وثار ابن عباد في ناحية اشبيلية،... إلا أن هؤلاء من المشاهير] (1)

كما وصف المراكشي حال المسلمين خلال عصر الطوائف قائلاً: [وبعد اختلال دعوة بني أمية، تفرق أهلها فرقا، وتغلب على كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه...] (2)

لقد أثرت التزعة القبلية تأثيرا كبيرا في علاقات ملوك الطوائف، كما كان لها ظهور في واقع المسلمين السياسي والعسكري، فضلا عن المنازعات والخلافات التي وقعت بسبب المصالح المادية والسياسية، كانت هناك خلافات أوجدتها التزعة القبلية والعرقية التي كان لها أثر كبير في الحروب والمنازعات التي وقعت بين ملوك الطوائف (3).

أما عن الصراعات والحروب التي وقعت بين ملوك الطوائف نسوق بعض الشواهد على سبيل التمثيل لا الحصر، فالذي وقع بين بني زيري ملوك غرناطة وملوك المرية، وكذلك الحروب بين بني زيري وبني عباد ملوك اشبيلية، فضلا عن الحروب بين بني عباد وبني حمود البربر، وانتهى هذا الصراع بعد استيلاء بني زيري على مالقة (سنة 449هـ / 1057م)، كما استولى بنو عباد على مدينة جيان (سنة 446هـ / 1054م) (1)، كما قام بنو عباد بالسيطرة على قرطبة، وانهاء حكم بني جهور (سنة 467هـ / 1074م) فدخلوا في صراع مع بنو الألفطس ملوك بطليوس، حول مدينة لبلة وجرت حروب عديدة فيما بينهم، انتهت بانتصار بنو عباد .

(1) ابن الكردبوس، ق 6، 11م، الاكتفاء في تاريخ الخلفاء تاريخ الأندلس، ص 67

(2) المراكشي، المعجب، ص 73 .

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 269، 270

(4) ابن بسام، الذخيرة، ج 1: ص 386388

هذا فضلا عن الصراع بين ذي النون ملوك طليطلة، وبني هود ملوك سرقسطة، فلقد كانت اذن هذه الحروب أثر كبير في استنزاف القوة المادية والعسكرية لملوك الطوائف مما اضعفت قوتهم، وجعلتهم لقمة سائغة بيد النصارى الإسبان⁽¹⁾

لقد اختل حال الأندلس بعد الخمسمائة للهجرة اختلالا شديدا وظهرت في البلاد مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ويذكر أنه قد استولت النساء على الاحوال ونسبت إليهن الأمور، وأمير المسلمين في ذلك كله يزيد ضعفه فقد كان عاكفا على العبادة مهملًا لأمر رعيته، وكادت أن تعود بلاد الأندلس إلى حالها الأول — عصر الطوائف — لاسيما بعد أن قامت دعوة ابن تومرت⁽²⁾ بالمغرب⁽³⁾

كما أن سياسة علي بن يوسف بن تاشفين التي عرف عنها التسامح الشديد مع مثيري الشعب في بلد لا يستقيم أمره إلا بالعنف بالإضافة إلى فساد إدارة المرابطين وأخذ عمالهم للرشوة التي شملت القضاة، حيث أقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين ومناصبهم لمصالحهم الشخصية .

هكذا إذن وبعد أن عاشت بلاد الأندلس مرحلة من الفرقة والتناحر قامت دولة المرابطين بإعادة الاعتبار لها ورفع لواء الجهاد فيها في عهد يوسف بن تاشفين، حيث كانت تعيش ذروة مجدها وامتداد سلطتها إلا أنه وفي مرحلة حكم ابنه علي عادت موجة الاضطرابات للبلاد وبدأت تظهر القلاقل والفتن والثورات في ظل تأثير ثلاثة عوامل تمثلت في خطر النصارى في شمال الأندلس (عامل خارجي)، وظهور دعوة الموحدين بالمغرب، بالإضافة إلى مجتمع أندلسي كان في تدمر دائم من سلطة المرابطين.

(1) ابن عذاري، ج3 ص 234 236؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ج1، ص 54 55

(2) البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب لمعرفة الأصحاب، ص 13؛ ابن القطان، نظم الجمان؛ ص 87 123

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، ص 241 .

تعددت وتنوعت أشكال الثورة ضد المرابطين في الأندلس حيث أن هذه الدولة وفي ظل ما تعانيه من انهزامات وانتكاسات من الموحديين في المغرب وتكالب للحملات من النصارى في الشمال، وفي ظل مجتمع أندلسي متقلب المزاج يحاول التهرب من قيود الدولة التي ضعفت وأصبحت على شفى حفرة من السقوط.

إنه ومع استفحال خطر الموحديين في المغرب، كان الأندلس يعيش مرحلة طائفية ثانية في

ظل

قيام ثورات عدة، وقد تركزت ثورات الأندلس ضد المرابطين في طائفتين ثورة المتصوفة⁽¹⁾ في الغرب وثورة الفقهاء في حواضر الشرق والجنوب⁽²⁾

ما من شك أن ثورة المتصوفة امتدت من الشرق إلى الغرب، فظهرت فرق صوفية أشهرها مدرسة ألمرية وترأسها الصوفي المعروف بابن العريف، وفتنة متطرفة كانت في غرب الأندلس كان على رأسها أبو محمد عبد الغفور بن اسماعيل بن خلف⁽³⁾، مع كل هذه الفئات الصوفية المنتشرة بالأندلس فان شيخ الصوفية الأول في تلك الفترة هو ابن بركان⁽⁴⁾ الذي حاول أن يوازن بين هذه الآراء المتعارضة ويلم شمل المريريين⁽⁵⁾

إضافة إلى ثورة ابن قسي والتي لم يكن لها تخطيط منظم ولا أهداف محددة ولا وجود لأسباب واضحة للقيام على المرابطين أو اتهامهم بالخروج عن الدين أو التقصير في الجهاد أو افساد للحكم⁽¹⁾، وكذا ثورة أبو القاسم ابن قسي، الذي كان يرى أن الفرصة مواتية للثورة⁽²⁾،

(1) الطاهر بو ناي، التصوف بالجزائر خلال القرنين 6 و7 هـ/12 و13 م، الجزائر، 2003 ص 34، نقلا عن أبو بكر الكلابادي وابن خلدون

(2) لخضر بو لطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في المغرب الإسلامي ص 186

(3) عصمت عبد اللطيف، دندش، الأندلس، نهاية المرابطين ومسهل الموحديين، عصر الطوائف الثاني، ص 58

(4) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ص 323؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ج22، ص 33؛ الزركلي، مصدر سابق، ج4، ص 06

(5) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 204

(1) عصمت دندش، المرجع السابق، ص 99

(2) المرجع نفسه، ص 7173

حيث خلع الوجه الديني وظهر بصورة الزعيم الشيعي وتحرك المريدون إلى حصن ميرتلة الذي يقع شرق باجة، وحتى لا نخرج عن ثورة ابن قسي، يذكر ابن الخطيب ان ابن قسي قد اختلف عنه حلفاؤه وظهر الشقاق بينهم، فقد نازعه ابن وزير واخوه بباجة وصرخوا الدعوة لأبن حمدين⁽¹⁾ وآلت الامور أن خلع ابن قسي من ميرتلة، ثم أعيد مرة أخرى ومنها هاجر للموحدين وأعلن توبته مما فعل في ربيع الآخر (سنة 540 هـ / 1145م).

ولكن ابن قسي وفور اضطراب حال الموحدون رجع عن دعوتهم، حيث قام بمصاحبة ابن الرنق صاحب قلمرية النصرانية وقام بمهاداته، وهذا ما أغضب أهل شلب وتوقعوا عواقب هذا التحالف⁽²⁾ فأنكروا هذا الصنيع وقاموا بالفتك بابن قسي وأعلن أهل شلب دخولهم تحت صف الموحدون في جمادى الأولى 546 هـ / 1157 م وهنا تنتهي مرحلة مدعي الصوفية ابن قسي ونزول أولى الثورات ضد المرابطين بالأندلس التي تزامنت مع ثورات أخرى تقودها شخصيات دينية وسياسية تمثلت في ثورات الفقهاء (القضاة) أصحاب النفوذ والمكانة السياسية الرفيعة، حيث أجمعت جل المصادر أن قادة الثورات ضد المرابطين كان أغلبهم من الفقهاء والقضاة، وهذا يعود أساسا للمكانة التي تمتعوا بها في ظل الحكم المرابطي⁽³⁾، إضافة إلى أنهم لم يكونوا قضاة عاديين، بل كانوا من ذوي الزعامة والنفوذ بحكم انحدارهم لأسر تملك الثروة وتداول السلطان⁽⁴⁾، حيث أنه ولما أحس هؤلاء القضاة باهميار حكم المرابطين طمعوا في الحكم والحلول محل المرابطين، فحاولوا بذلك اشعال الثورات في المدن التي كانت تحت

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص 251

(2) المصدر نفسه، ج2، ص 251 .

(3) عصمت دنش، المرجع السابق، ص 95

(4) لخضر بولطيف، مرجع سابق، ص 196

زعامتهم⁽¹⁾، فقد وجدوا إذن الأرض الخصبة لإشعال ثورتهم في مجتمع كان ورغم ما قدمه له المرابطون في تطلع مستمر للتحرر ممن يسموهم على حد زعمهم بالغرباء⁽²⁾ و من أهم الثورات التي نسوقها على سبيل المثال نجد ثورة ابن حمدين بقرطبة (سنة 539هـ/540هـ - 1144م - 1145م)، وكان محببا لدى الناس وعند المرابطين، وحاز مكانة لديهم لم يحزها غيره من سلف، خاصة بعد عزله من القضاء ثم اعادته، وذلك بعد حادثة خروجه لتسكيت العامة ومحاورتها بعد ثورتها على القاضي ابن رشد⁽³⁾؛ فيقول عنه ابن الخطيب: [أنه استطاع في الأشهر القلائل التي عاشتها حكومته أن يدون الدواوين ويجند الأختيار وقد أرسل كل من ثار على المرابطين بأن طلب الإعتراف برياسته في مختلف القواعد، فاستمل الثائرون ببلادهم واعترفوا ببيعته]⁽⁴⁾

انهزم ابن حمدين وفر لقرطبة ولاحقه ابن غانية نصير المرابطين⁽⁵⁾، فاستنجد بألفونسو ريمونديس، وظل ابن غانية يحارب النصارى بقوة وبسالة إلى أن رضخ لمهادنتهم وقرر التنازل لهم عن قرطبة، لانشغاله بمحاولة الموحدنين الذين عبروا إلى أسبانيا⁽⁶⁾، أما عن ابن حمدين فقد غادر قرطبة متوجها إلى المغرب ليعود للأندلس مرة أخرى ونزل بمالقة في كنف حليفه الثائر ابن حسون، وحاول مرة أخرى استعادة سلطانه بقرطبة، لكنه أخفق في ذلك واستقر بمالقة حتى توفي في رجب (546هـ/1159م)⁽⁷⁾

(1) عصمت دندش، نفسه، ص 95

(2) لخضر بولطيف، نفسه، ص 187

(3) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص 101؛ الضبي، بغية الملتبس، ج1، ص 51، ابن القطان، الغدد السابق، ص 150

(4) ابن الخطيب المصدر السابق، ج1، ص 253254

(5) ابن غانية: هو أبو زكريا يحيى بن علي، بن غانية البربري رأس أسرة بني غانية الثائرين على الموحدنين بعد زوال المرابطين بالأندلس وهو من قبيلة مسوفة الصنهاجية، ولد بقرطبة وتلقى العلم فيها، كان فارسا مجادا، حصل الفقه والسنة ويضرب بشجاعته المثل ولاءه علي بن يوسف واليا على عدة مدن، كان والده من كبار رجال يوسف بن تاسفين، ينظر: ابن الأبار، الحلة السيرا، تحق: لسين مؤنس، ج2، ص 205، الذهبي، مصدر سابق، ج 21، ص 73 .

(6) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 114115 .

(7) عبد الله عنان، نفسه، ص ص، 115، 116

لما قام ابن حمدين وابن أضحى بالثورة ضد المرابطين قام أحمد ابن ملحان بالثورة في وادي آش جنوب قرطبة، حيث قام بالإستيلاء على القصبية وأخذها من المرابطين وحصنها ويقول عنه ابن الخطيب: [أنه كان معروف الكفاية مصطلع العمل وخاضت به الفتنة حوض الجرأة]⁽¹⁾ و استخدم كل الرسائل في ذلك، فاستطال عهد ابن سلجان عدة أعوام⁽²⁾، وتعرض عديد من الناس إلى بطشه وقتل العديد من أهل وادي آش وصادر الأموال في سبيل توطيد سلطانه⁽³⁾.

و لما قام ابن مردنيش⁽⁴⁾ بثورة في شرق الأندلس زحف إلى القواعد الوسطى والجنوبية قاصدا توسيع أملاكه ومحاربة الموحدين في نفس الوقت فسار لوادى آش مستعينا بفرقة من النصارى، فلما علم ابن ملحان بعدم قدرته على مجابته أعلن طاعته للموحدين الذين استولوا على غرناطة ولم يستطع الاحتفاظ بوادي آش الذي استولى عليه ابن مردنيش واستولى أيضا على بسطة وذلك (سنة 546 هـ / 1151م)⁽⁵⁾

ثم توالى الثورات في شرق الأندلس منها ثورة ابن أبي جعفر بمرسية، وتطورت الأحداث ليغادر مرسية بعد أن عاد إليها فكانت الوجهة غرناطة لإنجاد ابن الأضحى⁽⁶⁾، فخرج المرابطون إلى لقاءه في عدد كبير ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة قرب ضواحي غرناطة هزم فيها ابن أبي جعفر وقتل ودفن بغرناطة...، وثورة ابن عبد العزيز ببلنسية الذي توجه إليه العامة يشكون

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص 264

(2) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 320

(3) عصمت ذندش، المرجع السابق، ص 83

(4) ابن مردنيش: هو أبو عبد الله محمد بن سعد المشهور بابن مردنيش، المجاهد الزاهد، له مغازي ومواقف مشهودة كانت تحت قيادته عدة رجال أبطال ضاع صيتهم وكان الأمير ابن تاشطين يعده بالمال، ملك مدينة حيان ومدين غرناطة... كابد العظامم والهزائم من بني عبد المؤمن، إلا أنه استحال حين اشتدت الأمور عليه،...؛ ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ج2، ص 250251؛ الذهبي، مصدر سابق، ج2 ص 232233.

(5) عبد الله عنان، المرجع نفسه، ص 320

(6) ابن الأبار الحلة السبراء، ج2، ص 230

حالمهم بعدما قام عبد الله ابن غانية بشن حملات على بلنسية⁽¹⁾، فقام بحشد جنود الثغر وسار إلى شاطية⁽²⁾ والتقى المرابطين بقصبة شاطية ودارت الحرب بين الطرفين⁽³⁾

و هزم المرابطون وامتنعوا بالقصبة، ثم توالى الثورات في جنوب الأندلس ومنها ثورة ابن الأضحى بغرناطة، حيث لما ثار ابن حمدين بقرطبة أعلن ابن الأضحى الثورة على المرابطين يرافقه في ذلك أهل غرناطة، ولكن وبسبب اعتصام المرابطين بقصبة غرناطة عجزوا عن التغلب عليهم، وهنا اتفق ثوار قرطبة إلى تفويض قيادتهم إلى رئيس يكون حاملا لشروط الزعامة والسلطة⁽⁴⁾، فقدم ابن هود المستنصر ومعه جيش من الأوباش النصارى؛ فتعاهد ابن الأضحى وابن هود على مدافعة المرابطين الذين خرجوا لقتالهم خارج قرطبة، وهنا انهزم ابن هود وقتل الكثير من أصحابه (عام 539هـ / 1144م)⁽⁵⁾، ثم تطورت الأحداث وحصل أن توفي ابن الأضحى⁽⁶⁾ ومن هنا وبخروج آخر المتحالفين الثائرين عاد أهل غرناطة للتفاهم مع الحاكم المرابطي ميمون بن بدر بن ورقاء⁽⁷⁾، وعادت غرناطة للمرابطيين⁽⁸⁾

وتزامنا مع ثورة ابن حمدين وابن أضحى قامت ثورة ابن حسون بمالطة الذي تولى القضاء في 538 هـ / 1143 بالقوة وحاصر المرابطين في القصبة، وقد قام المرابطون بانتقيرة⁽⁹⁾ المجاورة للقلعة بالقيام بمهاجمة أبي الحكم وتوالى غاراتهم عليه حتى لجأ لاستدعاء جيوش الروم وتحالفهم ومن جراء ما عاناه من خسائر في صراعه مع المرابطين توجه بإرهاق رعيته بالمغارم من أجل دعم

(1) عصمت ذندش، المرجع السابق، ص 87

(2) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 354355

(3) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 219

(4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، مج 1، السفر 5، ص 223

(5) عبد الله عنان المرجع السابق، ص 316

(6) في وفاة ابن الأضحى يذكر في رواية أوردها ابن الأبار أن ابن هود لما دخل قرطبة استقى، فأمر له ابن أضحى بقدر ماء فيه السم، فصاحت به العامة لا تشرب يا سلطان وحذروه فحجل ابن أضحى وتناول القدر فمات في ليلته. ينظر: ابن الأبار الحلة السيرة، ج2، ص 214

(7) ابن القطان، مصدر سابق، ص 152

(8) عبد الله عنان، مرجع سابق، ص 318 .

(9) أنتقيره: هي حصن بين مالقة وغرناطة، ينظر: الحموي، مصدر سابق، ج1، ص 254

ثورته⁽¹⁾، فقام أهل مالقة في التدبير للإطاحة به جراء ما عانوه من ظلمه لهم، فقد مات بطريقة مؤلمة حيث أدخل رمحا في بطنه، بعد أن شرب السم ولم ينفعه⁽²⁾

لتأتي ثورات العامة في كل من قرطبة (سنة 515 هـ / 1121م)، حيث أجمع جل المؤرخين أن السبب المباشر في هذه الثورة يعود بعد أن مد عبد من عبيد الوالي المرابطي أبو بكر يحيى بن رواده يده على امرأة فأمسكها فاستغاثت بالناس فأغاثوها⁽³⁾، فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة دامت طوال النهار والحروب بينهم قائمة، وكان من خطورتها على المرابطين بالأندلس أن قام علي بن يوسف بن تاشقين بعد أن وصله الخبر⁽⁴⁾ بالحضور بنفسه وذلك على رأس جيش لم يجتمع للمرابطين قبله، فعبّر للأندلس وحاصر قرطبة⁽⁵⁾ ولكن ما هو معلوم أن علماء قرطبة وكبار شيوخها لم يلبثوا أن توسطوا عند أمير المرابطين متحججين بوصية أبيه، وأن يتجاوز عن مسيئتهم⁽⁶⁾، واعتذروا له مبررين أن ثورتهم كانت من أجل الدفاع عن الشرف والعرض⁽⁷⁾

ثم تلتها ثورة العامة على القاضي ابن رشد (سنة 534هـ / 1139م)، فمن خلال تتبعنا للمصادر لم تذكر دوافع أو أسباب لقيام العامة بهذه الثورة، كيف لا وابن رشد الذي عرفنا مكانته وذاع صيته .ولربما السبب حسب ما أفادتنا به المراجع يكون من مكائد القاضي ابن حمدين، وبعد أن قامت الثورة بادر ابن حمدين بالخروج للناس لتسكين ثائرتهم وانتهى الأمر باستعفاء ابن رشد عن القضاء، وهنا تولى ابن حمدين القضاء وذلك بأمر من علي بن

(1) ابن الخطيب ر، أعمال الإسلام، ج2، ص 254

(2) ابن الخطيب، نفسه، ج2، ص 255

(3) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ص 143

(4) حمدي عبد المنعم: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 143 .

(5) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 144

(6) مجهول، الحلل الموشية لمجهول، ص 9097

(7) السيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص 144

تاشفين⁽¹⁾ فقد ثار ابن حمدين بقرطبة، إنه وفي خضم ما درس عن ثورات العامة بالأندلس تم ادراج رسالتي أبي القاسم ابن الجند⁽²⁾ في كتاب قلائد العقيان، وذلك يوم الجمعة 19 رمضان 507 هـ⁽³⁾، وهي تمثل خطابا صارما من علي بن يوسف بن تاشفين لأهل غرناطة يحذرهم فيها من عاقبة إثارة الشغب ومحاولة الثورة على المرابطين، اذ كانت الثورة ضد القائد المشهور مزدلي⁽⁴⁾

كما برزت الثورة في اشبيلية سنة 512 هـ / 1118 م، وقد كان السبب المباشر في ذلك أن أهالي اشبيلية يثيرون الشغب ويتمردون على سلطة المرابطين وإلا كيف نفسر الرسالة لابن الجند ورسالة علي بن تاشفين المماثلة، وان دلت فهي وسيلة لإخماد فتنة الثورة بمخاطبة الثائرين مع نبرة تحذيرية بمعاينة عمل المفسدين، وقد أمر علي بن تاشفين الثائرين بعدم الخروج عن الوالي أبو اسحاق ابراهيم⁽⁵⁾ وطاعة أمره واتباعه وعدم معارضته .

كما قامت العامة في اشبيلية بالثورة على القاضي ابن العربي (سنة 529 هـ/1135 م)، حيث جعل المفسدين والمتذمرين من صرامته يستغلون محافظته على تنفيذ الحدود لتشويه سمعته، ويذكر ابن عذاري في روايته ان جنود ابن العربي التفوا بشخص يحمل الخمر فاحتج بانه ابتاعها فقط وليست تخصه فقال له ابن العربي: [لعن الله بائعها ومبتاعها وعاصرها وحاملها] فأمر بلعنه⁽⁶⁾، وظل ابن العربي على هذه الحال حتى ثقل على الفساق وبدأوا يكيدون له ويسعون

(1) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ج2، ص 253

(2) ابن حاقان: قلائد العقيان، ص 322؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 285، 286

(3) ابن حاقان، قلائد العقيان، ص 333، 334

(4) من أمراء المثلثين، كان يتولى الحكم غرناطة ومن أعماله استرداده لبلسيه من النصارى مع أبيه أبي محمد سنة 495 هـ، ينظر، ابن حاقان، المصدر السابق ص 369

(5) عرف عنه أنه كان يجب أهل العلم والفضل ويقرب إليه الأدياء والفقهاء، قتله الموحدون سنة 528 هـ/ 1134 م . ينظر: ابن حاقان في

كتابه، قلائد العقيان، ص 762؛ مطمح الأنفس ومسرح السانس في ملح أهل الأندلس، ص 30

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 9394

للقيام بالثورة عليه، ولم تكن هذه الثورة من السفلة فقط بل شاركهم آخرون من أهل البلد لتدمرهم من بعض تصرفاته⁽¹⁾

كما أن ابن العربي لم يكن على وفاق مع بعض زعماء اشبيلية فكان في خلاف مع أبي القاسم الزنجاني، وقبيل قيام العامة بالثورة قامت بعض الأيدي الخفية بتشويه سمعته وطعنوا في عقيدته، ويذكر أنه بعد نجاحهم في ذلك قاموا بإعلان الثورة عليه⁽²⁾

من خلال ما تم سرده في الثورات على المرابطين يمكن القول أن المجتمع الأندلسي في آخر دولة المرابطين كان في تقلب دائم، فلم تكن لتهدأ ثورة أو شعب في مدينة ما حتى تشتعل في مدينة أخرى، وتنوعت توجهات هذه الثورات من ثورات على الولاة المرابطين إلى الثورات على القضاة.

⁽¹⁾ سلامة الهري، الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500هـ / 537هـ)،

مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1982 م، ص 86

⁽²⁾ النباهي، الرقية العليا فيمن يستحق القضاء، ص 90

الفصل الخامس

منهج ابن عذاري في نقد وتقويم الأحداث والوقائع

1. تقويمه للمصادر ونقده للأخبار سندا ومنتنا
2. نقده للمواقف والتصرفات
3. ربط الأسباب بمسبباتها واستخلاص العبر والعظات منها.
4. موقف ابن عذاري من النحل والتيارات الفكرية والفرق المذهبية.
5. موقف ابن عذاري من رجال السلطة في عصره.

يعتبر المؤرخ ابن عذاري المراكشي واحدا من أشهر مؤرخي المغرب الإسلامي خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، الذي تميز بالدقة الشديدة في سرده للأحداث التاريخية لبلاد المغرب الإسلامي والأندلس محققا ومدققا وأميناً في نقلها من مصادرها معلقاً على ما يحتاج إلى تعليق من أحداث أو قيادات، أو أفراداً أو جماعات، ناقداً لما يحتاج إلى نقد خاصة تلك الفترات العصبية من تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس. كما يبرز أكثر التزامه الدقيق بالمنهج الذي سار عليه وحدده لنفسه بدءاً من أول الكتاب وحتى نهايته، في نقله للمعلومات من مصادرها وترتيبها، وسنحاول خلال هذا الفصل أن نتعرف على قواعد منهجه.

أولاً- تقويمه للمصادر ونقده للأخبار سنداً وممتناً:

إن المادة المتوافرة لدينا في كتاب البيان المغرب تغطي تقريباً تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الموحدية، حيث أن هذه المادة التي كان يقدمها ابن عذاري تفوق كل ما كتب من جاء بعده عن تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، سواء من حيث الكمية أم التنوع، أو الرجوع إلى المصادر التاريخية التي سبقته. وهنا تكمن أهمية كتاب ابن عذاري، باعتياده على مصادر تاريخية تعد في حكم المفقودة في الوقت الحاضر تستحق بلا شك دراسة خاصة.

الملاحظ على ابن عذاري أنه لم يكن يتعرض إلى المصادر بالتقويم والنقد، سوى أنه كان ينسب الأخبار إلى مصادرها مباشرة مثل: قال: ابن مروان⁽¹⁾ وذكر ابن حمادة⁽²⁾ وقال الطبري⁽³⁾، وأحياناً أخرى يحيل إليها لمعرفة تفاصيل أكثر عن الحادثة.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 6.

(3) نفسه، ج1، ص 13.

فمثلا ذكر في أخبار زيري بن عطيه القراوي قال: [وقد ذكر الوراق ذلك وشرحه شرحا كافيا] ⁽¹⁾، أما إذا ذكر الخبر من أكثر من مصدر أورد الخبر وقال: [في قول الواقدي] ⁽²⁾ أو: [هكذا نص عريب] ⁽³⁾ أو [على ما ذكره ابن القطان] ⁽⁴⁾. أو: [على ما ذكره الطبري] ⁽⁵⁾.

وأما ما يتعلق بنقده للخبر، سندا ومتنا، فقد تناول ابن عذاري بعض الأخبار التي أوردها في كتابه: البيان المغرب بالنقد سواء بالقبول أو الرد. وبما أن ابن عذاري ينقل الأخبار بدون سند إلا في أخبار قليلة، فيكون التركيز في نقده على متون الأخبار، فيتجلى الجانب النقدي عند ابن عذاري عندما يوازن بين الأخبار التي يوردها، ويرجح بعضها على بعض، فمثلا ذكر في مقتل بلج بن بشر القشيري بالأندلس عن أبي عمر السالمي: أن عبد الرحمن ابن علقمه وجه سهما إلى بلج فأصاب مقتله، وذكر عن كتاب بهجة النفس إن عبد الرحمن بن علقمه المذكور قتله بالسيف ثم قال ابن عذاري: [والأول أصح] ⁽⁶⁾. وكان الامر كما قال مؤرخ الأندلس، ابن حيان: [جيش منتصر وأمير مقتول]. وكان هلاك بلج بعد أحد عشرة شهرا من توليه الأندلس.

ولما ذكر الأقوال عند دخول المسلمين إلى الأندلس أورد هنا رأي الطبري، ثم الرازي ثم قال: [فيكون قول الطبري صادقا، وصدق عليه أيضا قول الرازي بأخرى وأولى] ⁽⁷⁾، فجمع بين الأقوال.

ويبدو أن ابن عذاري أشار في روايته عن الأندلس اعتماده على كتاب عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر، فقال في سياق سبب دخول طارق بن زياد للأندلس ما نصه: [وذكر عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر، في كتابه السبب في دخول طارق الأندلس، وهو

(1) نفسه، ج 1، ص 253، 270.

(2) نفسه، ج 1، ص 14.

(3) نفسه، ج 1، ص 17.

(4) نفسه، ج 1، ص 25.

(5) نفسه، ج 2، ص 27.

(6) ابن عذاري، ص 31، مؤلف مجهول، ص 46، المقرئ، نفع الطيب، ص 22.

(7) المصدر نفسه، ج 2، ص 4.

أن طارق كان واليا لموسى على طنجة، وكان يوما جالسا، إذ نظر إلى مراكب قد طلعت في البحر، فلما أurst، خرجوا إليها فترعوا أرجلها، وأنزلوا أهلها... [1].

ثم ينقل عنه نصا آخر عن اللقاء بين طارق ولذريق ملك القوط، ومقتل لذريق في وادي الطين، وانتصار المسلمين، ثم يختتم كلامه بقوله: [هكذا ذكر عيسى في كتابه] [2].

فهذه النصوص تشير إلى أن كتاب عيسى بن محمد لم يقتصر على فتوح إفريقية فحسب، بل شمل فتوح الأندلس -أيضا- كما يحتمل أنه كان يتألف من قسمين، لكن ابن عذاري لم يطلع إلا على القسم الخاص بالأندلس، وربما كان هذا هو السبب في إغفال ذكره ضمن موارده عن شمال إفريقية.

ويذكر ابن عذاري اسم الرازي لأول مرة عند حديثه عن أول من دخل الأندلس من المسلمين، فيشير إلى روايته التي تنص على أن طارق كان أول من دخلها (عام 92هـ / 711م)، دخول المستفتح لها، ثم دخلها موسى بعده (سنة 93هـ / 712م)، متمما الفتح [3].

يعتمد ابن عذاري على محمد بن جرير الطبري في نصوص قليلة نسبيا، ويأتي بها بشكل مختصر في غالب الأحيان، أو يذكر أخبارا صغيرة من جملة الحوادث التي يوردها الطبري في نهاية كل عام.

ومن مقارنه النصوص مع الطبري، نجد أحيانا بعض الاختلافات اليسيرة، مثل إضافة كلمة، أو تصحيف في لفظه، فعلى سبيل المثال ينقل قول الخليفة عثمان بن عفان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، حين وجهه لفتح إفريقية بقوله: [إن فتح الله عليك إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نفلا] [1].

(1) المصدر نفسه، ج3، ص5.

(2) البيان المغرب، ج2، ص6.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص7.

(4) البيان المغرب، ج1، ص13.

أما نص الطبري، فهو كما يأتي: [... إن فتح الله عز وجل عليك غدا إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا]⁽¹⁾.

وينقل من حوادث (سنة 28هـ / 648م) ما يأتي: [غزا حبيب بن مسلمة قورية من أرض الروم، ذكر ذلك الطبري وغيره]⁽²⁾.

في حين أن النص عند الطبري، برواية الواقدي، بالشكل الآتي: [وفي هذه السنة غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم]⁽³⁾. وأحيانا لا نجد الخبر ضمن السنة التي يشير إليها ابن عذاري، مثال ذلك: يسند ابن عذاري إلى الطبري خبر غزوة معاوية ابن حديج الكندي لإفريقية (عام 45هـ / 665م)⁽⁴⁾. ولا وجود لهذا النص في حوادث سنة 45 هـ عند الطبري، بل هو بصيغته أخرى في حوادث (سنة 47 هـ / 667م)⁽⁵⁾.

ويذكر ابن عذاري، أن الخليفة هارون الرشيد عقد لابنه محمد العهد في (سنة 173هـ / 789م)، وسماه الأمين، وفي كتاب الطبري تم هذا العقد (سنة 175هـ / 791م)⁽⁶⁾. وعلى أي حال، فإن بقية الروايات التي يشير ابن عذاري إلى اعتماده فيها على الطبري، لا تتعدى بعض الأخبار الأخرى، مثل ذكر خبر صغير عن صاعقة وقعت على المسجد الحرام (سنة 185هـ / 801م)، وقتلت رجلين. وكذلك عن حج الرشيد إلى الكعبة في السنة التالية، وكتابه عقد البيعة لابنيه الأمين والمأمون، وتعليقه في الكعبة⁽¹⁾.

ومن الجدير بالذكر، أن ابن عذاري يذكر رواية عن رجل يدعى (شبيب الترجمان)، وذلك في حوادث (سنة 190هـ / 805م)، حين فتح الخليفة هارون الرشيد مدينة هرقل في آسيا

(1) تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص 2814.

(2) البيان المغرب، ج1، ص14.

(3) تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص 2827.

(4) البيان المغرب، ج1، ص16.

(5) تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 84.

(6) البيان المغرب، ج1، ص93؛ وقارن بما في: تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 610.

(1) البيان المغرب، ج1، ص93؛ تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 651 وما بعدها.

الصغرى، بحيث كان هذا الرجل - كما يبدو من النص - مترجماً رسمياً مرافقاً للحملة، وقرأ أحد الألواح الرخامية المكتوبة على باب المدينة باللسان الرومي⁽¹⁾.

ومن المحتمل أن هذه الرواية منقولة من مصدر مشرقى، لكن الطبري لا يشير إليها، ولا إلى اسم هذا الرجل في حوادث (سنه 190هـ/805م).

وكما هي الحال بالنسبة إلى شمال إفريقية، فإن ابن عذاري يعتمد اعتماداً قليلاً على الطبري في روايته عن الأندلس. فينقل عنه بعض النصوص التي تتعلق بالفتح، وأول من دخل الأندلس من المسلمين⁽²⁾، والعلاقة بين موسى وطارق ومكان التقائهما في الأندلس⁽³⁾. كما ينقل نصاً آخر عن عصر الولاة، يتعلق بولاية عنيسة بن سحيم الكلبي⁽⁴⁾.

وبصورة عامة، لا تختلف نصوص ابن عذاري عن أصولها عند الطبري إلا اختلافات يسيرة في الألفاظ، لكنها جاءت مختصرة في كثير من الأحيان بأسلوب ابن عذاري، في حين أننا نجد مفصلة عند الطبري.

كما نجد أن ابن عذاري اعتمد كثيراً على رواية عريب بن سعد الخاصة بالأندلس. ويبدو من أحد النصوص التي ينقلها ابن عذاري عنه، أن كتاب عريب عن الأندلس لا يبدأ سنة 291هـ، وهي السنة التي يبدأ الحديث عنها في صلة تاريخ الطبري المشرقى، بل يفتح الأندلس. بحيث إن النص المنقول يشير إلى علاقة يليان [صاحب الجزيرة الخضراء] بكل من موسى بن نصير، وطارق بن زياد (عام 91هـ/711م)، وكيف أن يليان اتصل بموسى من طريق طارق، أو مباشرة بالإبحار إليه، لتحريضه على فتح الأندلس⁽¹⁾.

(1) البيان المغرب، ج1، ص16.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص4؛ تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص2817، ج2، ص1217.

(3) البيان المغرب، ج2، ص16؛ تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص1253-1254.

(4) البيان المغرب، ج2، ص27؛ تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص1435.

(1) البيان المغرب، ج2، ص45.

وهذا النص بالذات يؤكد وجود كتاب لعريب بن سعد يبحث في تاريخ الأندلس منذ الفتح وحتى (سنة 320هـ/932م). وربما كان هذا الكتاب هو [تاريخه الذي اختصره من تاريخ أبي جعفر الطبري بعد أن أضاف إليه أخبار إفريقية والأندلس]⁽¹⁾. ثم ينقل عن الرازي بعد ذلك ما جرى بين لذريق، آخر ملوك القوط، وطارق بن زياد، فيذكر رواية مهمة عن موقف لذريق قبل التقائه طارقاً، بحيث أرسل قوات عديده لإيقاف المسلمين، إحداها بقياده ابن أخ له يدعى بنج، وقد هزمت هذه القوات، وقتل بنج، فاستولى الفاتحون على خيولهم⁽²⁾، وهذه الرواية مذكورة أيضاً في نص الرازي، الذي نشره سافيدرا، حيث يرد اسم بنج هناك على أنه: "Don Sancho أو Bancho"، وهذا يؤكد اطلاع ابن عذاري على كتاب الرازي.

يعتمد الرازي مصادر مشرقية في رواياته عن فتح الأندلس، ولا سيما فتوحات موسى بن نصير، بحيث نجد ابن عذاري ينقل عنه نصوصاً عديدة مأخوذة عن محمد بن عمر الواقدي (ت 207هـ/828م)، الذي يأخذها بدوره عن بعض التابعين الذين صحبوا موسى بن نصير في حملته على الأندلس، مثل علي بن رباح اللخمي⁽³⁾، وغيره ممن عاصروا أحداث الفتح، أو التقوا من شاهدها وحدثهم عنها، عبد الحميد بن جعفر، الذي حدث الواقدي من أبيه، فقال: [سمعت رجلاً من أهل الأندلس يحدث سعيد بن المسيب يذكر له قصتهم، فقال: لم يرفع المسلمون السيف عنهم ثلاثة أيام، حتى أوطؤوهم عليه]⁽¹⁾.

⁽¹⁾ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، ص 142.

⁽²⁾ البيان المغرب، ج 2، ص 8.

⁽³⁾ D.E. Saavedra, Estudio Sobre La Invasión de los Arabes en España. Madrid 1892, Apendice 'Fragmentos inéditos de la Crónica de Rasis' pp 149150.

⁽⁴⁾ البيان المغرب، ج 2، ص 78.

ومن الجدير بالذكر أن ابن عذاري يورد نصوصا كثيرة عن أخبار موسى بن نصير وفتوحه، وما أفاء الله عليه من الغنائم في الأندلس، بعضها منسوب إلى الليث بن سعد، وبعضها إلى غيره من

المحدثين والرواة، مثل يوسف بن هشام، وأبي شبة الصديقي، وعبد الحميد بن جعفر⁽¹⁾. فمعظم هذه الروايات مذكورة في كتاب عبد الملك بن حبيب⁽²⁾، وهي في مجموعها تشكل جزءا من الروايات التي راجت في أعقاب فتح الأندلس عن بعض التابعين الذين ساهموا في حملة موسى بن نصير. ثم عادوا إلى شمال إفريقيا، وحدثوا بما شاهدوا من أحداث الفتح. فمن المرجح أن عبد الملك بن حبيب أخذ هذه الروايات عن شيوخه أثناء إقامته في مصر⁽³⁾، فضمنها في كتابه التاريخ، ونقلها عنه ابن عذاري. لكن غالبية هذه الروايات -أيضا- مذكورة في كتاب الإمامة والسياسة، المنسوب لابن قتيبة⁽⁴⁾. فيا ترى هل اطلع عليها ابن عذاري في هذا الكتاب وأخذها منه؟

إن أغلب الظن أنه اعتمد في رواياته هذه على ابن حبيب مباشرة، حيث أشار إليه كما أسلفنا الذكر، وكذلك على كتاب الإمامة والسياسة، ولا سيما أنه سبق له الأخذ منه في روايته عن بعض فتوح موسى بن نصير في المغرب⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص 1723.

(2) استفتاح الأندلس، ص 226228، 232، 235؛ كتاب التاريخ، ص 139، 141، 142.

(3) ينظر: عبد الله بن محمد بن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، القسم الأول، ص 270.

(4) الإمامة والسياسة، ج2، ص 63648283.

(5) البيان المغرب، ج1، ص 41؛ ومن الجدير بالذكر، ان القسم الطويل الذي ألفه في تاريخ الأندلس، كما يشير إلى ذلك محمد بن نصر الحميدي، في ترجمة موسى بن نصير، مأخوذة على الأغلب من كتاب معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير؛ ينظر: جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص 338، ويقارن أيضا:

M. A. Makki, «Egipto y Los Origenes de la Historiografíaarabigoespanoles», Revista de Instituto de EstudiosIslamicos, V. Madrid, 1957, pp. 221F.

وقال ايضا: [وأكثر الناس على أن هذه الحكاية لا تصح، وإنما قتلوه بأمر سليمان لهم بذلك إذ نكب لوالده] ⁽¹⁾.

ثم يستمر في الاقتباس من الرازي، ورواية الأحداث التي وقعت في الأندلس بعد رجوع موسى بن نصير. وتولي عبد العزيز بن موسى، فيدون نصا مهما عن عهد عبد العزيز، يذكر فيه أنه كان من خيرة الولاة، وأنه افتتح مدائن كثيرة في الأندلس، ولكنه قتل لوثوب الجند عليه. ومن الجدير بالذكر أن رواية الرازي هذه تدل على تورط الخليفة سليمان بن عبد الملك في عملية اغتيال عبد العزيز بن موسى، بحيث تشير صراحة إلى أنه هو الذي بعث إلى الجند يأمرهم بقتله عند سخطه على أبيه.

ويختتم الرازي روايته هذه بالقول: [فكانوا يعدون فعل سليمان هذا بموسى وابنه من كبار زلاته التي لم تزل تنقم عليه] ⁽²⁾.

ولكن يبدو أن الرقيق قد ضمن كتابه -أيضا- روايات أخرى عن أحداث الأندلس المبكرة، مثل ولاية عبد العزيز بن موسى، وزواجه من ابنة "الذريق"؟ ومقتله على أيدي الجند. وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الروايات ⁽³⁾، ونسبها إلى الواقدي، دون أن يذكر الرقيق. وبالرجوع إلى القطعة المنشورة من كتاب الرقيق، يتبين أنها لرقيق، وأنه اعتمد فيها على الواقدي أيضا ⁽⁴⁾.

وهذه الرواية عن معركة كورة شذونة، تكمل ما سبق أن ابتدأ به الواقدي من سرد لأخبار هذه المعركة وأهوالها، وينقل الرازي عن الواقدي رواية أخرى تبين العلاقة بين طارق

⁽¹⁾ البيان المغرب، ج2، ص 2324.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج2، ص 2425؛ ويقارن:

P. Gayangos. « Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis » P. 83.

⁽³⁾ البيان المغرب، ج2، ص 24.

⁽⁴⁾ مفاخر البربر مجهول، ص 65.

بن زياد، ويليان أو جوليان Julian، الحاكم البيزنطي العام لولاية موريتانيا الطنجية⁽¹⁾، تلك العلاقة التي توثقت بين الرجلين، وساعدت في تعاونهما على فتح الأندلس، بعد أخذ موافقه موسى بن نصير⁽²⁾.

كما احتفظ لنا الكاتب المغربي محمد بن عبد الوهاب الغساني في روايته عن رحلة إلى إسبانيا (سنة 1102هـ/1690-1691م)، بعض الاقتباسات من كتاب ابن مزين، وتظهر هذه الاقتباسات اهتمام ابن مزين بموضوع فتح الأندلس، ولا سيما حملة موسى بن نصير.

وقد أخذ معلوماته عن هذه الحملة من كتاب اسمه: الرايات، عثر عليه في إحدى مكتبات إشبيلية (عام 471هـ/1078م)، وهو من تأليف محمد بن موسى الرازي، والد المؤرخ المشهور أحمد بن محمد الرازي، يبحث عن الفتح، وفيه معلومات قيمة عن القبائل العربية التي رافقت موسى بن نصير إلى الأندلس⁽³⁾. وحين ذكر الآراء المختلفة في مسير طارق بن زياد إلى الأندلس هل هو بأمر موسى بن نصير أو لأمر دهمه لم يمكنه إلا إنفاذه قال: [والقول الأول هو المشهور المتفق عليه]⁽⁴⁾.

إن رواية الرازي التي ينقلها ابن عذاري، عن كيفية خروج طارق بن زياد من طليطلة Toledo للملاقاة موسى بن نصير بالغرب من طليطلة Talavera⁽⁵⁾ تشابه روايته الموجودة في ترجمتها الإسبانية في النص الذي نشره جانيجوس⁽¹⁾، وهذا يقدم دليلاً آخر على اطلاع ابن

⁽¹⁾ لمزيد من المعلومات عن شخصية جوليان، ودوره في أحداث الأندلس، ينظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959م، ص 52 وما بعدها؛ عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، بغداد - ميلانو، 1972، ص 142، والمصادر الواردة في هامش (171) ص 154، 160 فما بعدها.

⁽²⁾ البيان المغرب، ج 2، ص 6.

⁽³⁾ ينظر الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد رقم (5304)، الأوراق 99102؛ وطبعة ألفريد البستاني، طنجة، 1940م، ص 111.

⁽⁴⁾ البيان المغرب، ج 2، ص 5.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 16.

⁽¹⁾P. Gayangos. « Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis », Memoria de la Real Academia de la Historia VIII, Madrid, 1952, p74.

عذاري على كتاب أخبار ملوك الأندلس، كما أنه أشار إلى هذا الكتاب عند كلامه عن معاملة موسى بن نصير لطارق بن زياد، وخروجهما من الأندلس، فيقول: [... واتصل بهذا في كتاب الرازي ان الوليد بعث إلى موسى رسولا، فأخذ بعنان دابته، وأخرجه من الأندلس ومعه طارق ومغيث]⁽¹⁾.

والحق أن ابن عذاري كان ينتقي ما يريد من روايات من كتاب ابن القطان، وترجع النصوص التي اعتمدها من هذا الكتاب عن الأندلس إلى الجزئين الأول والثاني منه، أي أخبار الفتح، وعصر الولاة، وتقدم نصوص ابن القطان الخاصة بالفتح أكثر من رأي عن الوقائع التي تتحدث عنها.

وكما يبدي ابن القطان رأيه أحيانا في ترجيح بعض هذه الآراء، كما في النصين الآتين، عن مكان استقرار طارق بن زياد في المغرب قبل فتح الأندلس، وأسباب عبور موسى بن نصير إلى الأندلس.

النص الأول:

قال ابن القطان: [فالأكثر يقولون: كان مستقرة بطنجة، ومنهم من يقول بسجلماسة، وأن سلا وما ورائها من فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى، وكانت طنجة ليليان منهم؛ فكان طارق إذن نائبا عن موسى بن نصير، واختلفوا أيضا هنا هل إنما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمر دهمه، لم يمكنه إلا إنفاذه، والقول الأول هو المشهور، المتفق عليه]⁽²⁾.

النص الثاني:

وقال ابن القطان: [قيل إنما حملة -أي موسى بن نصير- على الجواز للأندلس تعدي طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق، على قول. وقيل أيضا: إنما حملة

⁽¹⁾ البيان المغرب، ج2، ص16.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج2، ص13.

على ذلك الحسد لطارق على ما اصاب من الفتوح والغنائم، وقيل أيضا: ما جاز باستدعاء طارق إياه؛ فكان جوازه في رمضان، كما تقدم⁽¹⁾.

كما ذكر في خبر ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير حكاية طويلة عن زواج عبد العزيز بأمر عاصم امرأة لذريق ثم تزينها له لبس تاجا من الجوهر، والذهب كملوك القوط حتى علم بالخبر جنده فاتهموه بالتنصر، فقتلوه. ثم يعقب إثر هذا الخبر يقول الواقدي، فيقول عن المرأة التي تزوجها غير امرأة لذريق. وقال الواقدي: [أن التي نكح بعد خروج أبيه هي ابنة لذريق]⁽²⁾.

نقل ابن عذاري بعض الأحداث المتعلقة بمعاملة الخليفة سليمان ابن عبد الملك لموسى بن نصير بعد فتح الأندلس⁽³⁾. كما نسب إليه نسا آخر يتعلق بفتح مدينة قرقوشة Carcassonne صلحا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك⁽⁴⁾.

وهذا النص لا يوجد في كتاب ابن حبيب المتوافر بين أيدينا. ولعل ابن عذاري كان ينقل من نسخة أخرى موسعة. وما يؤيد هذا، أن محمود علي مكّي، يشير إلى أن النسخة المتوافرة منه هي مختصر صغير لكتاب ابن حبيب الحقيقي، وأن الذين قاموا بوضع هذه النسخة، إنما هم بعض تلامذة ابن حبيب.

وأحيانا نجد ابن عذاري يقوم بتحليل الخبر والاستنتاج منه، وتحليله فذكر عن الدولة الأموية أنها سقطت على أيدي العباسيين (سنة 132هـ/749م)، فكانت دولتهم 91 سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام. وانقطعت دولتهم ست سنين أو نحوها. حتى جردها عبد الرحمن ابن معاوية في الأندلس (سنة 138هـ/754م) إلى أن قال: [فإن صح أن عهد عبد الرحمن بن

(1) نفسه، ج2، ص24.

(2) نفسه، ج2، ص24.

(3) نفسه، ج1، ص4546؛ ويقارن: ابن حبيب، استفتاح الأندلس، تحقيق: مكّي، ص233؛ ابن حبيب، كتاب التاريخ، تحقيق: خورخي أغواي، ص147149.

(4) البيان المغرب، ج2، ص13.

حبيب، صاحب القيروان وإفريقية من قبل بني أمية، وصل إلى يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس، الذي أدخل عبد الرحمن إليها وهو أميرها، فعلى هذا كانت لهم دولة متصلة بالأندلس فتأمل هذا، فإنه إن صح، نكتة غريبة وفائدة عجيبة⁽¹⁾.

لقد اعتمد ابن عذاري على ثلاثة من مؤلفات ابن حزم، ومنها الكتاب الثاني الذي اعتمد عليه، حيث أنه يتضمن رسالة فيها أسماء الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، مع نبذ مختصره عنهم إلى عهد المؤلف، وقد نقل ابن عذاري بالنص تقريرا فقرتين عن ابن حزم، لكل من دولة بني أمية، ودولة بني العباس⁽²⁾. فهذه النصوص على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تشير بوضوح إلى الملكة النقدية عند ابن حزم.

ويبدو أن ابن عذاري قد أدرك هذه الأهمية، فركز عليها، واستفاد منها في كتابه، ولا سيما في مسألة انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين (سنة 132هـ/749م)، وتقييم كل من الدولتين.

وفي حديثه عن الأندلس، أعاد ابن عذاري هذا التقييم، ونقله مره ثانية عن ابن حزم. ولكن يلاحظ في هذه المرة، أن النص أكثر تفصيلا مما جاء في الجزء الأول⁽³⁾. وهناك بعض الزيادات المهمة التي فقدت حتى من نص الرسالة المتوافر لدينا. وقد استفاد منها محقق رسائل ابن حزم، وأضافها إليها اعتمادا على ما ورد في البيان المغرب⁽⁴⁾.

كما احتفظ لنا ابن عذاري -ولحسن الحظ- بعض الفقرات والنصوص من الكتاب «بهمجة النفس وروضه الأوس» (للأسف مفقود)، حيث أن هذه النصوص تغطي حقه زمنية واسعة تقريبا، تبدأ منذ الفتح العربي الإسلامي للأندلس، وتنتهي بأحداث (سنة 278هـ/891م)⁽¹⁾.

⁽¹⁾ نفسه، ج1، ص63.

⁽²⁾ البيان المغرب، ج1، ص6364؛ وينظر أيضا، ج2، ص3940؛ ويقارن: رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص145147.

⁽³⁾ البيان المغرب، ج2، ص3944؛ ويقارن: المصدر نفسه، ج1، ص6364.

⁽⁴⁾ ينظر: ابن حزم، رسالة في أسماء الخلفاء/ ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص145147.

⁽¹⁾ البيان المغرب، ج2، ص132.

بحيث ينقل ابن عذاري معلومات عن إحدى حملات الأمير عبد الله ابن محمد على المتمرّد عمر بن حفصون. ويتضح من هذه النصوص أن الكتاب يضم تاريخاً عاماً للأندلس يبدأ بالفتح، وينتهي على الأقل في أواخر عصر الإمارة. ولكن بالنظر إلى أن أبا الوليد عاش في عصور متأخرة، وامتدت حياته إلى حدود (سنة 606هـ/1209م)، فلا بد من أنه كتب عن الأحداث التي تلت عصر الإمارة، وربما إلى وقت قريب من عصره. ولكننا لم نعث على مثل هذه النصوص عند ابن عذاري، أو عند غيره من المؤرخين.

ويشير يونس بويجس⁽¹⁾، إلى أن كتاب بهجة النفس يحتوي على تاريخ الأمويين والعباسيين.

ويبدو أنه استند في ذكر العباسيين إلى أحد النصوص التي نقلها ابن عذاري عن تمرد العلاء بن مغيث الجذامي على الأمير عبد الرحمن الداخل، وعلاقة هذا المتمرّد بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. لكن هذا النص لا يمكن أن يتخذ دليلاً على أن الكتاب قد اهتم بتاريخ العباسيين، لأن موضوعه هو حدث أندلسي، وفيه إشارة عابرة فقط إلى أبي جعفر المنصور. ولا تشير بقية النصوص المنقولة عن الكتاب إلى أي أحداث عباسية.

يعتمد الرازي في ذكر إحدى رواياته على شخص يدعى الفقيه محمد بن عيسى. وهذا النص مهم لإشارته إلى هذا الإجراء الإداري الذي اتخذته المسلمون في الأندلس في حقبة مبكرة من وجودهم هناك، كما أشار ابن عذاري إلى هذه الرواية التي توضح ما فعله المسلمون بكنيسة قرطبة الرئيسية، بحيث تأثروا بما تم في المشرق خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من مشاطرتهم لكنائس بلاد الشام، مثل كنيسة دمشق وغيرها، مما أخذوه صلحاً، [فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التي كانت بداخلها. وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجداً جامعاً، وبقي الشطر الثاني بأيدي الروم، وهدمت عليهم سائر الكنائس]⁽¹⁾.

⁽¹⁾Pons Bigues, Los Historia dores Y Geografos ArabigoEspagnoles, Amsterdam, 1972. P.393

⁽¹⁾ البيان المغرب، ج2، ص299.

أما الفقيه محمد بن عيسى، فإن الرازي لم يلتقه، بل روى عنه عن طريق شخص آخر لم يذكره ابن عذاري، ومن المرجح أن هذا الفقيه هو محمد بن عيسى بن عبد الواحد ابن ناجح المعافري، الذي كان يغلب عليه الحديث ورواية الآثار عن محمد بن وضاح وغيره، وتوفي في (عام 221 أو 222 هـ/836 أو 837م)⁽¹⁾.

وما يؤيد هذا أن ابن عذاري ينقل رواية أخرى عن ابن عيسى، ومنها أن تمام بن علقمة الثقفي حدثه بأمر في أثناء محاولات عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الاتصال بمؤيديه في الأندلس، والتهيؤ لانتزاع إمارة البلاد من الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري⁽²⁾. وكان تمام ابن علقمة ممن عاونوا عبد الرحمن بن معاوية في تسلم السلطة، وهو الذي ترأس الوفد الذي ذهب إلى شمال إفريقيا لاستقدامه إلى الأندلس. وبعد تأسيس الإمارة الأموية، أصبح لتمام شأن كبير في الدولة. وقد توفي (سنة 196هـ/811م)⁽³⁾. ولهذا فإن إمكانية التقائه والرواية عنه من قبل محمد بن عيسى بن ناجح المعافري محتملة جدا لتعاصر الرجلين. كما لا يذكر ابن عذاري اسم الرازي عند ذكره لرواية ابن عيسى الأخير، لكنه يسند إليه صراحة روايات أخرى عن الأحداث التي جرت في عهد عبد الرحمن الداخل، ولا سيما حوادث (سنة 136هـ/753م)، ابتداء عبد الرحمن بمدخلة مواليه من الأمويين في الأندلس، ووصف رحلته، وكيفيه دخوله⁽⁴⁾، وأحداث (سنة 137هـ/754م)، ثم دخول عبد الرحمن إلى الأندلس، والمفاوضات مع يوسف الفهري⁽¹⁾. بالإضافة إلى روايات أخرى متفرقة عن عهده، ومواقفه من مناوئيه⁽²⁾.

(1) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص5؛ الضبي، المصدر السابق، ص9899.

(2) البيان المغرب، ج2، ص46.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص73؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ط. مدريد، 1926م، ص24؛ أخبار مجموعة مجهول، ط. مدريد، 1867م، ص74؛ فتح الأندلس لمجهول. ط. الجزائر، 1889م، ص51؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص494؛ ابن الآبار، الحلة السيرة، ج1، ص143؛ المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص31.

(4) البيان المغرب، ج2، ص40؛ ويقارن: Gayangos. OP. cit. pp. 9293.

(1) نفسه، ج2، ص41، 4245.

(2) نفسه، ج2، ص57.

والإشارة إلى جوانب من نفسيته وشعره⁽¹⁾. ويبدو أن تمام ابن علقمة كان المصدر الرئيسي لهذه الأخبار، أو على الأقل، أنه كان أحد الرواة -شهود العيان- الذين حدثوا عنها، فسمع منه الفقيه محمد بن عيسى الذي حدث بدوره من اعتمد عليه الرازي في ذكر رواياته عن هذا العصر، والتي وصلتنا في كتاب البيان المغرب.

ونجد في كتاب البيان المغرب لابن عذاري نقولا عديدة مطابقة تقريبا للقطعة التي حققها السيد المنجي الكعبي، كما نجد فيه أخبارا أخرى منسوبة إلى الرقيق، خارج الحقبة التاريخية لهذه القطعة⁽²⁾.

وعلى الرغم من أن ابن عذاري لا يشير إلى اسم الرقيق إلا لمرات محدودة، فإنه ينقل عنه أخبارا عن إفريقية والمغرب، يرسلها إرسالا، تقع ضمن حقبة القطعة المنشورة. فمثلا حين يتحدث عن أوضاع إفريقية ومقتل عبد الرحمن بن حبيب، والأحداث اللاحقة، والحروب التي حلت بالبلاد إلى ولاية عمرو بن حفص ابن قبيصة (سنة 151هـ/ 768م)، واشتداد الفتنة بإفريقية، وتوجه القبائل المعارضة لمحاربة هذا الوالي إلى الذاب، نجد أن ابن عذاري، يختتم قوله بتعديد هذه الجماعات والقبائل، ثم يقول: [سوى جماعات أخر. قال الرقيق: لم أذكرهم]⁽³⁾، وهو ما يدل على اعتماد الرقيق في هذه الأحداث، وهي مقتل عبد الرحمن بن حبيب، ولاية إلياس ابن حبيب على إفريقية، ذكر الحرب بين حبيب ابن عبد الرحمن وعمه إلياس، وتغلب الأول على إفريقية، ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي، ثورة عيسى بن موسى بالقيروان وبعض بلاد إفريقية، ولاية الأغلب بن سالم التميمي، وولاية عمرو بن حفص بن قبيصة⁽¹⁾.

(1) نفسه، ج 2، ص 260.

(2) نفسه، ج 1، ص 17، 19، 133.

(3) نفسه، ج 1، ص 75.

(4) نفسه، ج 1، ص 6775.

أما الروايات التي تتطابق مع القطعة المنشورة، ولم يرسلها ابن عذاري إرسالا، بل نسبها إلى الرقيق، فهي تشمل مواضيع مختلفة، منها عن موسى بن نصير ووصف عودته، والأموال التي حملها معه من الأندلس إلى شمال إفريقية⁽¹⁾.

وكان ابن عذاري يتحقق ويتأكد من تواريخ الحوادث التي يذكرها في كتابه، وإذا لم يستطيع ذلك يوضحه، فقد ذكر في حوادث (سنة 636هـ / 1238م) خبر مقتل السيد أبي حفص مع المومنان بمراكش، وبعد سرد الخبر قال: [ولم أتأكد تاريخ هذه المسألة هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلها]⁽²⁾.

إذا ما نظرنا في نصوص ابن عذاري المراكشي وبما أنه اعتمد النظام الحولي، فطبيعة الحال اهتم اهتماما كبيرا بضبط التواريخ، والمتبع لكيفية ضبط ابن عذاري لتواريخه أثناء سرد أخبار الفتح الإسلامي للمغرب، أو باقي أجزاء كتابه يلاحظ أنه في ما يتعلق بتاريخ الفتح مثلا يورد ذكر السنوات في الغالب، وأحيانا يورد التوقيت من اليوم في مثل قوله: «ضحى النهار»⁽³⁾ أو يؤرخ بالمناسبات في نحو قوله: «يوم الفطر»⁽⁴⁾.

أما في باقي أجزاءه فإنه يضبط التواريخ ضبطا دقيقا حتى أنه يورد التواريخ كاملة باليوم والشهر والسنة، وحتى بالتوقيت من اليوم كنحو قوله: [يوم الجمعة صدر ربيع الأول من سنة 319هـ]⁽¹⁾، وقوله: [عند غروب الشمس من يوم الأربعاء لأربع عشر من ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 380هـ]⁽²⁾.

وبهذا نلاحظ فرقا بين ضبط ابن عذاري لتواريخه في أحداث الفتح وبين ضبطها في باقي أخبار كتابه، ومرد ذلك ولا شك إلى بعد أحداث الفتح عن عصره وليس إهمالا منه أو

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 43؛ ويقارن: تاريخ إفريقية والمغرب، ص 823.

(2) البيان المغرب، ج 5، ص 358.

(3) نفسه، ج 1، ص 10.

(4) نفسه، ج 1، ص 15.

(1) نفسه، ج 2، ص 282.

(2) نفسه، ج 2، ص 284.

تقصيرا، فكلما اقتربت الأحداث من عصره زاد الضبط الزمني دقه، فهو يؤرخ فيها حتى بمواقيت الصلاة كنحو قوله: [بعد صلاة العشاء] ⁽¹⁾، وقوله أيضا: [لنصف من شهر صفر ليلة الآخر بعد صلاة المغرب] ⁽²⁾.

كما نلاحظ أن ابن عذاري يؤرخ بالتاريخ الميلادي، لكن نادرا نحو قوله: [أول أيام من يناير... فلما دخل من فبراير بعض أيام] ⁽³⁾، وقوله: [وفي سنة 308هـ... غزاة موبش... يوم السبت لثلاث عشر ليلة خلت من المحرم سنة 308هـ وهو اليوم الثالث من شهر حزيران] ⁽⁴⁾ وقوله: [صدر ذي القعدة] ⁽⁵⁾ أو [غرة ربيع الأول] ⁽⁶⁾. كما يعبر عن آخر الشهر بقوله: [منسلخ صفر] ⁽⁷⁾، أو قوله: [انقضاء ذي القعدة] ⁽⁸⁾.

من خلال هذه المعطيات التي سبق وذكرت نستخلص دقه ضبط تواريخ أحداث الفتح الإسلامي للمغرب عند ابن عذاري نظرا لانتهاجه أسلوب الحوليات في طريقة ترتيبه الأحداث، مما جعل ذكر التواريخ وتدقيقها لزاما عليه فقد أعطاها جل اهتمامه.

وأحيانا يعقب على الخبر بعد سرده، فيوضحه ويذكر تفصيلاته الصحيحة خاصة إذا تعلق الخبر ببني مرين حكام عصره والذي عايش بعض أحداثهم وسجلها، فقد ذكر في حوادث (سنة 664هـ/1265م) تحرك الخليفة الموحد الواثق بالله إلى مسكورة، وأثناء ذلك شاع الخبر بمحلة الواثق بالله بانفصال بني مرين وإجازتهم وادي أم ربيع وأنهم قد خامرهم من الجزع ما اقتحموا

⁽¹⁾ نفسه، ج 1، ص 110.

⁽²⁾ نفسه، ج 2، ص 208.

⁽³⁾ نفسه، ج 2، ص 119.

⁽⁴⁾ نفسه، ج 2، ص 175.

⁽⁵⁾ نفسه، ج 2، ص 44.

⁽⁶⁾ نفسه، ج 2، ص 31.

⁽⁷⁾ نفسه، ج 2، ص 283.

⁽⁸⁾ نفسه، ج 1، ص 266.

بسببه الوادي المذكور حتى هلك فيه كثير من أموالهم، وأن النجاة بنفوسهم نهاية بغيتهم وآمالهم، فسر بذلك الموحدون، وأشاع ذلك الخبر أشياعهم، حتى تملأت منه أسماعهم⁽¹⁾.

إن أبرز ما ميز هذا القرن هو ثنائية على الصعيد الفكري والسياسي، حيث نعثر في ثناياه على مظاهر للترهل السياسي، وآخر للتطور الفكري⁽²⁾، تحكم في هذا الموضوع جملة من العوامل، اختلف الباحثون والدارسون في تشخيصها؛ فذهب فريق الترهل إلى اعتماد مظاهر الانحطاط على مستوى حالة عدم الاستقرار الذي عانت منه الدويلات التي تعاقبت خلال هذه الفترة، بسبب ما كان قائما بينها من صراع حول السلطة والنفوذ، في حين اعتبر البعض الآخر مظاهر التطور الفكري نابع من بقايا شمس حضارة الأندلس السائرة نحو هذه الدويلات، وتشجيع سلاطينها لهذه الهجرة، بحكم الاستفادة الواسعة منها.

والمتبع لسيرة حياة ابن عذاري يجد أنه عاش في كنف الدولة المرينية، والتي كان العلم فيها سائدا، فاستنفذ أغلب ملوكها مجهوداتهم حتى قيل أنهم لم يوفقوا في السياسة كما وفقوا في نشر العلم، وتميز هذا العصر بالازدهار الثقافي بشكل عام، وكنتيحة لازدهار العلوم في هذه المنطقة راجت فيها مهنة نسخ الكتب⁽¹⁾.

إضافة إلى أن ابن عذاري أورد تعليقا على هذا الخبر بقوله: [وليس الأمر والله أعلم كذلك وإنما كان انفصال السلطان أبي يوسف مع بني مرين من هناك بعهود ومواثيق وهدية

⁽¹⁾ نفسه، ج5، ص 450 451.

⁽²⁾ ربما يتساءل القارئ عن سر التركيز على الظرف السياسي والثقافي العلمي لهذا العصر، نجد الجواب بالتدقيق فيما وصلنا من مؤلفات لهذا العصر. فنلاحظ أن أغلب مؤلفيها ركزوا على الوضع السياسي والثقافي أثناء وصف الحوادث أو نقل الأخبار مما يدل على الانطباق العميق لهذين الجانبين على نفسية المؤرخ، حين يصف حدثا تاريخيا أو أسرة حاكمة أو دولة سائدة، فإن مكونات هذا الوصف في أغلبها تركز على ما ذكرنا أو لربما هو راجع لمفهوم التاريخ في هذا العصر الذي كان ضيقا نوعا ما عما عليه الآن حيث أصبح يشمل عدة مجالات ويورخ بعدة علوم.

⁽¹⁾ عبد الواحد ذنون طه: " موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي على المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس"، العراق، مجله المجمع العراقي، ص 207 208.

قبلها من الوثائق، فلم يتم ذلك العهد والمعهود، ولا العقد والمعقود إلى أن كان ما كان بينهم من الضرب والظعن، على ما سيأتي بعضه مختصرا إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

وهذا إشارة إلى منهج الاختصار الذي التزم به في سرد الأحداث التاريخية، ثم قال أيضا: [جمعت ذلك من الكتب الجليلة مقتضيا من غير إسهاب ولا إكثار...]⁽²⁾، ثم ألح على منهج الاختصار في معظم فقرات كتابه، وبين صراحة في إحدى عباراته أن مذهبه في هذا الكتاب هو الإيجاز والاختصار، فقال: [... المذهب هنا الاختصار والإيجاز والاقتصار]، وقد عبر خلال صفحات عن هذا المنهج بعبارات مختلفة، فمرة يقول: [اختصار الخبر عن كذا]⁽³⁾، ومرة أخرى يقول: [اختصار الخبر بكذا]⁽⁴⁾، أو يقول: [نذكر... على جهة الإيجاز والاختصار...]⁽⁵⁾، أو يقول: [تلخيص أخبار كذا...]⁽⁶⁾، أو: [تلخيص التعريف بكذا...]⁽⁷⁾، أو [تلخيص الخبر بكذا]⁽⁸⁾، أو [تلخيص بكذا...]⁽⁹⁾.

كما يستعمل ابن عذاري في بعض الأحيان لفظ [قيل ويقال] في تضعيفه للخبر أو ذكر رأي آخر، فمثلا ذكر في سبب جواز موسى بن نصير للأندلس قال: [قيل: إنما حمله على الجواز للأندلس تعدي طارق ما أمره له ألا يتعدى قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق على قول]، وقيل أيضا: [إنما حمله على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح والغنائم]، وقيل أيضا: [إنما جاز باستدعاء طارق إياه]⁽¹⁾.

(1) البيان المغرب، ج5، ص451.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص2.

(3) ينظر على سبيل المثال، قسم الموحدين، ص 114، 132، 147، 155، 171، 172، 175، 206، 370، 384، 391، 433، 453.

(4) ينظر على سبيل المثال، قسم الموحدين، ص 15، 16، 132، 352، 412.

(5) ينظر على سبيل المثال، قسم الموحدين، ص35.

(6) ينظر، ج1، ص176.

(7) ينظر، ج4، ص54.

(8) ينظر، قسم الموحدين، ص290.

(9) ينظر على سبيل المثال، قسم الموحدين، ص34.

(1) ابن عذاري، ج2، ص13.

وقال عن نسب موسى بن نصير: [قيل أنه من لحم، وقيل من بكر بن وائل]⁽¹⁾. وذكر عن مقتل القائد غالب الناصري في حربه مع ابن أبي عامر قال: [فوجد غالب مقتولا في جمال الخيل، وابن أبي عامر كاد أن ينهزم له، فقييل: عن قريوس سرجه قتله وقيل غير ذلك]⁽²⁾. وعادة يستخدم لفظ «قيل ويقال» في تحديد عدد سنوات توالي الولاية في الأقاليم⁽³⁾ أو تحديد تاريخ بعض الحوادث⁽⁴⁾.

وتتميز المادة التي يقدمها ابن عذاري بأنها تضم أنواع مختلفة من أساليب التعبير عما يريد قوله، والتعليق به، أو النفي أو الإثبات، التي حافظ عليها المؤلف فيما كتب، ولكنها تعرضت أحيانا للاختصار، ولهذا نرى أسلوب الكتاب يختلف من حين لآخر حسب اختلاف النصوص التي يعتمد عليها، ومع ذلك، فإن نفس ابن عذاري واضح في تأليفه، وشخصيته بارزة فيه، فنجده حينما لا يقتنع برواية معينة أو رقم معين يستخدم تعابير خاصة تدل على الشك وعدم الاقتناع مثل: «زعموا»⁽⁵⁾، أو «ذكروا والله اعلم»⁽¹⁾، أو «على قول من قال»⁽²⁾، أو «فقييل»⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص 22.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 279، وينظر أيضا، ج 1، ص 53، 210، ج 2، ص 4، 95، 7، 12، 17، 24، 25، 26، 27، 28، 30، 34، 55، 56، 150، 252، 279، ج 3، ص 87، ج 4، ص 13، 14، 18.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 26، 27، 28، 34.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 556.

(5) ابن عذاري، ج 4، ص 15.

(1) المصدر نفسه، القسم الموحد، ص 210.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 404.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 412.

وكذلك يقوم بإبداء رأيه أحيانا ويقارن بين الأحداث، بعد كلامه عن معركة الأرك⁽¹⁾، يقارن بينها وبين معركة الزلاقة، وفي رأيه أن الأرك أهم لأن الانتصار فيها كان كاملا. في حين انتصر ألفونسو السادس (أذفونش) في الزلاقة على بني عباد أولا، ثم أنجده يوسف ابن تاشفين، فكانت الزلاقة حسب تعبيره: [مقسومة الثقل مكدرة الصفو وجاءت هذه الوقعة هنتة الموقع عامة المسرة كأكلة جائع أو شربة عاطش فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها....]⁽²⁾.

كما كان يقف أمام بعض النصوص موقف الحياد، ويعلق عليها بقوله: [الله أعلم]، [الله أعلم بحقيقة أمره]، فمثلا نجد فيما نقله عن ابن القطان تحاملا واضحا على الخلافة الفاطمية في مصر⁽³⁾، وطعنا بالنسب العلوي لعبيد الله المهدي الفاطمي، ثم يورد عده روايات لإثبات وجهة نظره هذه وينقلها ابن عذاري، أنه يضع عهدتها على ابن القطان بقوله: [والله أعلم! هكذا ابن القطان في نسبه]⁽⁴⁾.

وهذا يشير إلى تعصب ابن القطان للدولة الموحدية، ويعطي صبغة مذهبية واضحة لكتاب نظم الجمان، كما يدل أيضا على محاولة ابن عذاري في الوقوف على الحياد في هذه المسألة، وعدم الانسياق وراء ابن القطان في اتهاماته واستنتاجاته، ما يؤيد النقل الموضوعي المختار الذي كان يقوم به ابن عذاري من كتاب نظم الجمان.

⁽¹⁾ وقعت هذه المعركة في القرب من حصن الأرك المجاور لقلعه رباح سنة 591هـ/ 1194م بين الخليفة الموحد يعقوب المنصور، وألفونسو الثامن ملك قشتالة، انتصر فيها الموحدون انتصارا كبيرا، ينظر: البيان المغرب/ القسم الموحد، ص196، الحميري، صفه جزيره الاندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار في خير الاقطار، نشر: ليفي بروفينسال، القاهرة، ليدن، 1938، ص 12 14، المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963، ص 358_360، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، القاهرة، 1964، ص196 فما بعدها.

⁽²⁾ البيان المغرب، القسم الموحد، ص196.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج1، ص287.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج1، ص158159.

ويعتمد ابن عذاري المؤرخ ابن سعدون في روايته عن الفاطميين، وهذه المحتويات تدور حول دعوة الفاطميين وأصلهم، وكيفية تمكنهم من شمال افريقية، وأعمالهم في القيروان وغيرها. فيذكر أن في الكتاب: [باب أذكر فيه أول من وضع هذه الدعوة التي شرع فيها عبيد الله وذريته، والسبب الذي دعاهم لذلك؛ وباب أذكر فيه تسييرهم الركبان، بدعوتهم ودعاهم إلى البلدان، وباب أذكر فيه عبيد الله ونسبه وانتماءه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كاذبا، وسبب ملكه المغرب كله] (1).

ويعتمد ابن عذاري هذا المؤرخ في روايته عن الفاطميين والأحداث التي جرت في عهدهم. وكما يبدو فإن ابن سعدون لا يعتقد بصحة نسبهم، ويسميهم ببني عبيد. ونلاحظ أيضا أن ابن عذاري لخص ما جاء في الكتاب عنهم، لأن ابن سعدون قد فصل كثيرا من معلوماته عنهم (2).

ويتوقف ابن عذاري في التلخيص عنه إلى أخبار الخليفة معد، الملقب بالمستنصر (427 - 487هـ / 1036 - 1094م)، بقوله: [انتهى ما لخصته من كتاب ابن سعدون] (3). ولربما كان هذا نهاية كتاب تعزية أهل القيروان، ولأن تاريخ وفاة ابن سعدون عام 485هـ / 1092م يقع في عهد هذا الخليفة.

وذكر عن مقتل لذريق ملك الأندلس قال: [وقتل الله لذريق ومن معه، وفتح للمسلمين الأندلس، ولم يعرف للذريق موضع، ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خف مفضض، فقالوا أنه غرق، وقالوا أنه قتل، والله أعلم] (4).

(1) المصدر نفسه، ج1، ص281.

(2) البيان المغرب، ج1، ص217.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص281287.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص8.

كما ذكر عن الأمير عبد الله بن محمد بن الحكم الأموي بعض منكراته من قتل اخوته وأولاده ثم قال: [والله أعلم بحقيقة أمره]⁽¹⁾.

ويبدو أن ابن عذاري يأخذ الكثير من الروايات عن المقتبس دون الإشارة إلى ابن حيان، إلى مصادره، وهذه النصوص في أماكن كثيرة من كتاب البيان المغرب، ولا سيما في الحقة الخاصة بعصر الأمير عبد الله، والخليفة الناصر لدين الله، وابنه الحكم المستنصر، بحيث يأخذ ابن عذاري روايات متعددة عن ابن حيان، ويختار ما يراه منسجما مع منهجه في ذكر معلومات شامله عن العصر، أو السنة الواحدة.

ويستمر ابن عذاري في ذكر الأخبار بحسب السنوات في عصر الأمير عبد الله، ولكنه لا يشير إلى مصادر أخباره. وعند المقارنة مع المقتبس يتبين أن معظم هذه النصوص موجودة في هذا الكتاب، ولكن باختلاف في الألفاظ، وبتفصيل أكبر، في حين أننا نجدتها مختصرة في البيان المغرب، ومن المحتمل أن يكون ابن عذاري قد لخص معلوماته عن ابن حيان⁽²⁾. أو أنه أخذها عن أحمد الرازي، والذي كان هو أيضا أحد مصادر ابن حيان، بدليل ذكره من قبل ابن حيان كمورد لرواياته عن الثوار⁽³⁾.

كما نجد أن ابن حيان يأخذ في معظم الأحوال من عيسى بن أحمد الرازي (ت 379هـ/ 989م)، ورواياته عادة أطول، ومعلوماته أكثر من ابن عذاري، الذي يعطي نبذا قصيرة عن الأحداث في السنوات المتلاحقة، وإن كان في بعض الأحيان يفصل أكثر من المقتبس، ولا سيما في أحداث السنوات (904 / 292) و(905 / 293) و(906 / 294) و(907 / 295) و(911 / 299)⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص156، وينظر أيضا: ج2، ص37، 52، 150، ج3، ص190، 249، ج4، ص97، ج5، ص233305.

(2) المقتبس/ أنطونيا، ص2333.

(3) المقتبس/ أنطونيا، ص26.

(4) البيان المغرب، ج2، ص141149.

ومن الجائز جدا أن روايات عيسى الرازي، هي في الاصل، روايات والد أحمد الرازي، ويؤيد هذا ما يذكره ابن حيان عن حياة الأمير عبد الله بصورة عامة، فهو إذ يأخذ عن عيسى بن أحمد الرازي عن أبيه أحمد بن محمد، بحيث يشير الى ذلك بقوله: [ذكر عيسى بن أحمد الرازي عن أبيه أحمد بن محمد قال...]⁽¹⁾.

وقد أشار ابن حيان مرة واحدة إلى أخذه عن عيسى عن طريق أبيه أحمد، لكنه يذكر عيسى الرازي وأخذه عنه، قبل هذه الإشارة، وبعدها، بشكل كبير جدا.

اللافت أنه من الصعب البث في مسألة روايات ابن عذاري عن عصر الأمير عبد الله، وهل هي مأخوذة مباشرة من كتاب أحمد الرازي، أم من كتاب ابنه عيسى بن أحمد عن تاريخ الأندلس، أم أنه نقلها دون الرجوع إليهما من كتاب المقتبس لابن حيان، وذلك لتشابه هذه الأخبار، حيث أن مصدرها واحد، وهو أحمد بن محمد الرازي.

ولكن من ملاحظة النص المنسوب لابن حزم، الذي ينقله ابن عذاري بتصريف عن ابن حيان في آخر كلامه عن الأمير عبد الله، يتبين لنا أن ابن عذاري ربما كان ينقل مباشرة عن ابن حيان على الرغم من اطلاعه على موارد أخرى، مثل تاريخ أحمد الرازي، وابنه عيسى أيضا.

ففي هذا النص الطويل نسبيا، والمأخوذ من كتاب نقط العروس، تقوم عام للأمير عبد الله⁽²⁾ ولكننا لا نجد هذا النص في كتاب نقط العروس الذي بين أيدينا، وأن الموجود فيه فقط، هو النص الاتي، والذي يشير إلى أن الأمير: [عبد الله بن محمد قتل ابنه محمد والمطرف]⁽³⁾.

ولو كان ابن عذاري قد اطلع على نسخة أخرى لكتاب نقط العروس، لكان من المحتمل أن يختلف نصه عن نص ابن حيان، ولكن من المرجح، أن ابن عذاري أخذ نص ابن حزم من

(1) المقتبس/ أنطونيا، ص23.

(2) البيان المغرب، ج2، ص156؛ ويقارن: المقتبس/ أنطونيا، ص41.

(3) ينظر: ابن حزم، نقط العروس، ص78؛ وينظر أيضا: رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص88.

كتاب المقتبس مباشرة، ما يؤيد أن اعتماده على هذا الكتاب كان كبيراً جداً، وأنه كان يكتفي في كثير من الأحيان بالأخذ منه، والإشارة إلى موارده، دون التصريح بذلك.

ومما يمكن أن نستشفه أن ابن عذاري يلتزم في روايته الحياد في ذكر الحوادث وتقديم الأشخاص، وعدم التورط في المديح أو الذم، أو استخدام عبارات التملق التي أكثر غيره من المؤرخين استخدامها، مثل ابن صاحب الصلاة، وابن القطان⁽¹⁾. وقد ترك مهمة الإشادة أو الانتقاص لمن ينقل عنهم من الرواة والمؤرخين، ولكنه ومع ذلك، حيثما يكون مقتنعاً بمسألة معينة يؤيدها بوجهة نظره، يقدم عليها الأدلة والبراهين.

ففي حديثه عن يعقوب المنصور يقول: [وأما ما ذكر عنه من قتل أخيه وعمه فقد تضطر الملوك إلى هذا....]، ثم يشير إلى عدد كبير من الملوك والأمراء والحكام الذين قتلوا إخوتهم أو أبنائهم أو أعمامهم، ويختتم كلامه بالقول: [وسياسة الملوك لا تعرض للامتحان ولا تحتل التمحيص]⁽²⁾.

وتعد النصوص المنقولة عن السفر الثالث من كتاب المن بالإمامة ذات أهمية خاصة، بسبب فقدان هذا السفر، بحيث احتفظ لنا بها ابن عذاري، وهي في مجملها عن أخبار الخليفة أبي يعقوب.

ابن صاحب الصلاة بعضها عن رواة ثقات، أمثال: أبي بكر ابن الجند⁽³⁾، وأبي الحسن الهوزني⁽⁴⁾.

(1) عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 210.

(2) البيان المغرب، القسم الموحد، ص 210.

(3) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن خرج بن الجند الفهري، من أهل لبلة، وكان متفهماً في مذهب الإمام مالك، وقد نال حظوة لدى الموحدين، وتوفي بإشبيلية سنة (586هـ/1190م). ينظر: التكملة، ج 2، ص 542543 رقم (1469)؛ المن بالإمامة، ص 149، 495، 504، 516، 523؛ البيان المغرب/ القسم الموحد، تيطوان، ص 132؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 207؛ اللحل الموشية، ص 46، 147148.

(4) هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص، أحد رواة ابن صاحب الصلاة، ومن كتاب الدولة الموحدية؛ ينظر: المراكشي، المعجب، ص 317؛ ابن أبي سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 240241.

فأخذ عن الأول مثلاً معلومات عن أحداث سنة 571هـ / 1175م، انتشار الطاعون في مراكش. وعدد من كان يموت كل يوم في دور وقصور الخليفة، وهذه المعلومات التي نقلها ابن الجدي إلى ابن صاحب الصلاة، قد جاءت عن رجل قريب من القصر، وهو السيد أبو علي الحسين بن الخليفة عبد المؤمن، مما يؤيد توثيقها⁽¹⁾.

أما الثاني فقد نقل عنه حركة الخليفة أبي يعقوب إلى قفصة سنة 575هـ / 1179م، وما كان يعطيه من أعطيات إلى جنده في أثناء هذه الغزوة⁽²⁾.

أما النصوص الباقية، فهي رواية ابن صاحب الصلاة نفسه كشاهد عيان شارك في الأحداث التي يكتب عنها، ولهذا فهي تحتل موقعا متميزا بين بقية روايات ابن عذاري من هذا السفر

ويشير كذلك في حوادث سنة 639هـ / 1241م إلى مقتل اثنين من كبار رجال الدولة الموحدية على يد الخليفة عبد الواحد بن إدريس بن يعقوب الملقب بالرشيد (630-640هـ / 1232-1242م)، ثم يقول: [ولم أتحقق تاريخ هذه المسألة، هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلها]⁽³⁾.

ولا يتحرج مؤرخنا -أيضا- من الاعتراف بعدم حصوله على خبر يذكره في سنة معينة، فيدون لنا ذلك بكل صراحة قائلا إن أحداث (سنتي 614هـ-615هـ / 1217-1218م): [ولم أتحقق خبرا أذكره في سنة أربع عشرة وخمس عشرة...]⁽⁴⁾.

وأحيانا ينقل بعض الأخبار من المصادر بنصها دون تحوير أو تلخيص ولا يعلق عليها، قد تكون أخبارا شاذة أو شنيعة أو عليها ملاحظات عقديه أو أسطورية فمن ذلك قوله: [أن الخمر

⁽¹⁾ البيان المغرب، القسم الموحد، ص 110.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 113 - 114.

⁽³⁾ البيان المغرب، القسم الموحد، ص 257.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 210، القول بهذا القول المطلق بعيد عن الصواب، وإنما في نظري أن الغالبية الواسعة من غير المسلمين كانوا يشربونها، فلما جاء هؤلاء العشرة، قاموا بما قاموا به من أجل تعزيز نشر الإسلام فبدأ شربها يقل.

كانت حلالا بإفريقية، حتى قدم التابعون الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز فتبينوا تحريمها⁽¹⁾.

يقول: [فمن ذلك من قصيدة طويلة نبذة اقتصرت عليها ...] ⁽²⁾، أو يقول: [وفي هذا الشعر طول اقتصرت منه على هذا، وقد ورد في كتاب (الأنباء في سياسة الرؤساء): [وإنما هذه نبذ مقتصر عليها]⁽³⁾.

ولكن رغم حرصه الشديد على الالتزام بمنهج الاختصار والإيجاز في كتابه إلا أنه خرق هذا الالتزام مرتين أو ثلاثة، ووقع في فخ الاستطراد والإطالة والإكثار، نظرا لأهمية الخبر الذي يستطرد في الحديث عنه وعن أحداث تشبهه من وجهة نظره التاريخية، فبعد الانتهاء من خبر ما نجده يستطرد ليذكر تفاصيل كثيرة لهذا الخبر، أو يذكر متعلقات به، أو يذكر أحداث أخرى تشبهه في الخبر والنتيجة، كان يشير إلى هذا الاستطراد بقوله: [وللحديث شجون]⁽⁴⁾.

ثانيا- نقده للمواقف وتصرفات الأشخاص:

لقد برزت شخصية ابن عذاري من خلال نقده لبعض الحوادث التاريخية في كتابه «البيان المغرب»، فحاول إظهار رأيه مستخدما بعض الألفاظ والعبارات التي تدل على عمق في التفكير وقدرته على تحليل الأحداث التاريخية وتفسيرها، بالجملة فقد كان مما يميز المنهج التاريخي عنده موقفه النقدي من الأحداث التاريخية التي يوردها في كتابه، ومن أهم الأحداث التي تعرض لها بالنقد ما يلي:

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 48.

⁽²⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 89.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج4، ص 89 90.

⁽⁴⁾ ينظر على سبيل المثال، ج1، ص 229، قسم الموحدين، ص 348.

قال عن الخليفة سليمان بن عبد الملك وقد سجن موسى بن نصير، وقتل ابنه [فكان فعل سليمان هذا بموسى وابنه من كبار زلاته التي لم تزل تنقم عليه...]⁽¹⁾.

فيذكر ابن عذاري أنه كان من خيرة الولاة، وأنه افتتح مدائن كثيرة في الأندلس. ومن الجدير بالذكر أن رواية الرازي هذه تدل على تورط الخليفة سليمان بن عبد الملك في عملية الاغتيال هذه، بحيث توجد مؤشرات صريحة على أن هذا الأخير بعث إلى الجند يأمرهم بقتله عند سخطه على أبيه.

ولما أساء عامل طنجة «عمر بن عبد الله المرادي» للبربر بسياسته الخرقاء، حيث تحدث عن السياسة السيئة لهذا الوالي، مبينا أنه أساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر، حتى أنه أراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين. لكن مؤرخنا ابن عذاري يرفض هذا الموقف ويعلق عليه بقوله: [وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، إنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام]، ثم بين ابن عذاري الآثار الخطيرة الناجمة عن هذه السياسة السيئة، وهذا الفعل الذميمة، فيقول: [فكان فعله الذميمة هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله]⁽²⁾.

فلذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون ما يفتح عنوة، وبلاد المغرب في معظمها لم تكن إلا صلحا.

كما كان له موقف على ثورة الربض الثانية (202هـ / 817م)، حيث بدأ في البحث عن أسباب هذه الثورة، مبينا أنه لم تكن لها ضرورة، فقد كان الناس في عافية ورخاء، ولم تفرض عليهم وظائف ولا مغارم ولا شيء يكون سببا في خروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشراً

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص47، وفيما ذكر نظر، وقد أشرت من قبل بإيجاز أنه لم يقتله، فلماذا يفعل ذلك به، والرجل قدم على الوليد بن عبد الملك لأسباب استدعاه من أجلها لا تزال غامضة إلى اليوم، وإنما سليمان أبعد كل من عمل لصالح أخيه من القيادات العسكرية ومن حاول التمرد أمر بقتله كما فعل قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح وسط آسيا، ومحمد بن القاسم الثقفي فاتح السند أما غيرهما فلم يكن منه ذلك، ينظر: البيان المغرب، ج2، ص16.

⁽²⁾ البيان المغرب، ج1، ص51 52.

وبطراً، وملاً للعاوية - على حد تعبيره - وطبعاً جافياً، وعقلاً غيبياً، وسعياً في هلاك أنفسهم (1).

وعلق أيضاً على ولاية عبد الرحمن بن أبي عامر المعروف بالشنجول لحجابه لهشام بن الحكم قال: [فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأنفق الأموال في غير وجهها، وأعان على كثير من الناس وبسط يده عليهم، وأخذ أموالهم، ونسب إليهم أباطيل من القول والفعل، حتى قلق الناس به وأبغضوه في الله وابتهلوا الله تعالى في الدعاء عليه] (2).

وكذلك إيراده تبرك الناس بالرباط الذي كان يقيم فيه المهدي بن تومرت، ويأخذون منه التراب فيتبركون به ويجعلونه على المرضى (3).

وكذلك إيراده أشعاراً فيها غلو واستغاثة بغير الله تعالى مثل:

قد أوجدتهم أياد منك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن (4).

عن أمركم يتصرف الثقلان	لما يسوء عدوكم ويسركم
وبنصركم يتعاقب الملوان	تتحرك الأفلاك في الدوران (5).
أسيدنا ومولانا والأولى	وظل الله من يأوي إليه
أتيتك مستغيثاً مستعينا	فإنك رحمة الله التي قد
ومالي ملجأً إلا أياد	إذا ما الخطب أعضل من داء
رجوت الله عز وجل فيه	بنا وخليفة الرحمن فينا
ينال أمانه دنيا ودينا	وشأنك أن تغيث وأن تعينا
تعارفها جميع العالمينا	تعاهدنا بما حيناً فحيناً

(1) المصدر نفسه، ج2، ص 75 76.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص38.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص149.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص60.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص131.

كاد الأمر يقطع بي الوتينا وفضلك يا أمير المؤمنين⁽¹⁾.

فمن الغريب أن ابن عذاري لم يعلق على هذه الاخبار وغيرها، خاصة وأن هذا النوع من الاخبار فيها زيغ ومبالغات؟ ربما اكتفى بالإشارة إلى الخبر، ثم يحيل القارئ إلى تفاصيل الخبر في المصادر الأخرى، أو يهمل بعض التفاصيل التي رآها بحاسته التاريخية لا تضيف جديدا إلى الخبر أو الحدث المذكور. فكان غرضه من وراء ذلك المحافظة على منهج الاختصار الذي وضعه لنفسه منذ البداية، وربما أنه لا يرى بذلك بأسا لشيوع مثل ذلك في عصرهم وبلادهم، ولأنه لم يلتزم صحة الاخبار التي ينقلها، وإنما كان هدفه جمع الاخبار كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه، وبالتالي فكان يسلك مثل هذا المسلك مع الأشعار التي يوردها في كتابه استئناسا بها، فكان يقتصر على بعض أبيات من القصائد حرصا منه على الاختصار الذي التزمه في منهجه.

في سنة (399هـ / 1009م) توفي الحاجب المظفر فتولى أمر الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور المشهور بعبد الرحمن شنجول⁽²⁾؛ حيث كان أولاد بني عامر يمتلكون زمام الأمور في البلاد، وأخذ - أيضا - يدير الأمور من وراء الستار، لكنه كان مختلفا عن أبيه وأخيه، حيث كان عبد الرحمن شابا ماجنا فاسقا، شرابا للخمر، فعالا للزنا، كثير المنكرات، فكرهه الناس في الأندلس⁽³⁾.

وفوق ذلك فقد قام عبد الرحمن الشنجول بعمل لم يعهد من قبل عند العامريين، وهو أنه أجبر الخليفة هشام المؤيد في أن يجعله وليا للعهد من بعده، وبذلك لن يصبح الأمر من خلف ستار الخلافة الأموية كما كان العهد حال تولى والده محمد بن أبي عامر، أو أخيه عبد الملك بن المنصور، فكان أن ضج بنو أمية لهذا الأمر، وغضبوا وغضب الناس أجمعون، لكن لم تكن لهم

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ج5، ص449.

⁽²⁾ شنجول: هو لقب كانت أمه تدعوه به منذ صغره، باسم سنجول Sanchuelo، تذكرنا منها لأبيهسانشو غرسيه ملك نافار الذي أهدى ابنته للمنصور بن ابي عامر فتزوجها واعتنقت الإسلام وحسن إسلامها.

⁽³⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص38؛ وينظر: ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص66.

قدره على القيام بأي رد فعل؛ خاصة وان عبد الرحمن بن المنصور قد جعل جميع الولايات في أيدي العامريين، وفي يد البربر، الذين هم أتباع للعامريين منذ أيام الحاجب المنصور⁽¹⁾.

ومع كل هذا الفسق وهذا المجون الذي كان يعيشه عبد الرحمن، إلا أن الشعب كان قد تعود حياة الجهاد، والخروج كل عام إلى بلاد النصارى، فلما خرج شنجول على رأس جيش من الجيوش إلى الشمال انتهز الناس الفرصة وأرادوا أن يغيروا من الأمر، فذهبوا إلى هشام المؤيد في قصره وخلعوه بالقوة، وعينوا مكانه رجلا من بني أمية اسمه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الناصر، وما أن طار الخبر إلى عبد الرحمن شنجول حتى بدأت الجموع التي معه تنفض من حوله شيئا فشيئا، فلما دخل إلى قرطبة كان الناس قد انفضوا عنه وانحازوا إلى محمد بن هشام، الذي تلقب ب (المهدي)، ثم ما لبث أن أرسل إليه المهدي جماعه قبضوا عليه وقتلوه وأرسلوا إليه برأسه⁽²⁾.

وتقول بعض الروايات أنه التجأ إلى دير فأعطاه أحد رهبانه طعاما وشرابا، ثم عثر عليه رجال بني أمية سكران، فظهر الخوف والجزع وادعى دخوله في طاعة المهدي، فلم يشفع له ذلك فقتلوه⁽³⁾.

واشتعلت الثورات في الأندلس، فكأن مقتل عبد الرحمن بن المنصور واشتعال الفتن والثورات في الأندلس، كان ميعادا، فمنذ أن قتل عبد الرحمن بن المنصور انفرط العقد تماما في البلاد، وبدأت الثورات تكثر والمكائد تتوالى وبدأت البلاد تقسم.

وهذا ما انطبق عليه وصف ابن عذاري لحال قرطبة أثناء الفتنة البربرية، رغم أنهم في محنة، إلا أن المنكرات فاشيه قال: [والسعر كل يوم يزداد غلاءً، والأمر يتفاقم شدة، والناس يتوجهون إلى السواحل والبوادي، واشتد حال أهل قرطبة، حتى أكل الناس الدم من مذابح

(1) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص94؛ تاريخ ابن خلدون، ج4، ص149؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص426.

(2) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص96.

(3) ابن عذاري، ج2، ص72.

البقر والغنم وأكلوا الميتة، وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه، ومع هذا الحق فشرب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور ولا ترى إلا مجاهراً. [معصية] (1).

ومما هو جدير بالذكر أنه يتعذر علينا الحديث عن وقائع هذه الفتنة بالتفصيل فهي تأرجحت بين مسميات مختلفة كالفتنة البربرية وهي تسمية تداولها أهل الأندلس (2) والفتنة القرطبية، التي آثر بعض المؤرخين الإعراض عن تعيين المتسبب فيها، ولكن أوعزوا إليه في قضايا المتون التي تجعل الباحث يقف كل من كان وراء الفتنة، دون إمعان نظر.

وفي المقابل نفى الكثير من المعارضين مسؤوليه البربر إثارة الفتنة، عندما نسبوا ذلك إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار، ومنهم ابن الأبار القضاعي الذي عاش في القرن السابع الهجري، وهو مع ذلك خبر تاريخ الأندلس ورجالاته ليقول: [محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر باعث الفتنة بالأندلس وهو موقد نارها الخامدة وشاهر سيفها المغمدة] (3).

وبنفس العبارة والحدة، أورد ابن عذاري نصاً صريحاً، استلهمه في حقيقة الأمر من الوقائع التي مهدت للفتنة، حيث كان ابن هشام السهم الذي لم يخطئ المرءانيون به عندما صوبوه نحو العامريين. وفي هذا يقول ابن عذاري: [فكان هذا من فعل السفية ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار فكان الأحق والأولى] (4).

وأمام المواقف المتباينة التي أبدتها المؤرخون اتجاه محمد بن هشام وتعامله مع البربر، الذين أيقنوا أن ما كان يخبأ لهم هو أعظم -أي البربر- وكيف لا وشخصية محمد بن هشام كانت متذبذبة، وملهورة تحركها التزاعات الخاصة، وليس لها هدف أسمي (5).

(1) ابن عذاري، ج 3، ص 106.

(2) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 7، ص 76.

(3) ابن الأبار، ج 2، ص 5.

(4) ابن عذاري، ج 3، ص 76.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 75.

وبذلك يكون ابن عذاري قد استنكر كل الأعمال التي صدرت عن محمد بن هشام وعدها من القبائح التي استحقت غضب الله، وجرت عليهم سننه التي محقتهم إلى الأبد⁽¹⁾.

أما الثوار المتغلبون على بلاد الأندلس عقب الفتنة البربرية وهم المسمون بملوك الطوائف⁽²⁾ فقد وصفهم بأوصاف تظهر عدم رضاه عن سياستهم وسلوكهم مما وصل إليه حال بلاد الأندلس في عهدهم فيصفهم بالمنتزعين⁽³⁾، ووصفهم بأنهم ما كانوا يخافون الله وما ينتظرهم في الدار الآخرة قال عنهم: [وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميز أمراء الأندلس وملوكهم من قبائل البربر وغيرهم وصاروا فريقين ما منهم من يجذر الدار الآخرة]⁽⁴⁾.

كما وصف عبد الله بن حكيم صاحب سرقسطة بأنه (عاهر الفرج)⁽⁵⁾، وقال عن عبد الملك بن محمد بن جمهور، وهو من أمراء قرطبة: [صاحب الأرزال واستباح أموال المسلمين وسلط عليهم أهل الفساد وأهمل الأمور الشرعية وأخاف الطرق وشرع في المعاصي والفسوق وأظهر الخنى فكثرت الدعاء عليه من أهل قرطبة]⁽⁶⁾.

فمن كلامه عن موقف ملوك الطوائف من الأعداء يقول: [ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدد يقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس -قبحهم الله- تستعر إلى أن غلب العدو على جميعهم ومل من أخذ الجزية، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها عن أيدي المسلمين]⁽⁷⁾.

كما كان في أحيان أخرى ينتقد مواقف هؤلاء شبه الملوك بما انتقدهم به غيره، ومن ذلك ما نقله عن ابن حزم في وصفهم ملوك، الذي قال: [واجتمع عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه، وذلك فضيحة لم ير مثلها

(1) المصدر نفسه، ج3، ص81.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص153.

(3) قد سبق التعريف به.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص219.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص222.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص233.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص239.

دلت على الإدبار المؤبد، أربعه خلفاء في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يدعى بأمرير المؤمنين وهم: (خلف الحصري بأشيبيلية على أنه هشام المؤبد)، وذلك أخلوقة لم يسمع بمثلها ظهور رجل بعد اثنين وعشرين عاما من موت هشام فادعى أنه هشام وشهد له أنه هو قوم حساس من خصيان ونساء فبويع وخطب له على أكثر منابر الأندلس وسفكت الدماء به وتصادمت الجيوش في أمره، وكان محمد بن القاسم الحسيني خليفة بالجزيرة، ومحمد بن إدريس بمالقة، وإدريس بن يحيى بسبته⁽¹⁾.

أما نقد ابن عذاري للدولة العبيدية الشيعية فهو ظاهر أثناء سرده لأخبارها وفضحه لآرائها الضالة، فكان يدعو عليهم باللعنة بقوله: [لعنه الله]⁽²⁾، ولما ذكر شعر محمد بن البديل كاتب أبي قضاة وهو ممن مدح عبيد الله بالكفر قال ابن عذاري: [لعنه الله وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه]⁽³⁾.

ويبدو جليا كلام ابن عذاري الذي ذكر: [أن عبيد الله بمجرد وصوله من سجلماسة إلى القيروان حتى أظهر تشييعه القبيح، فسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه، وحكم بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يستثن منهم إلا عليا وبعضا قليلا ممن أيدوه وناصروه... ومنع المروزي الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد]⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ البيان المغرب، ج3، ص344؛ وجاء هذا النص عند ابن حزم: [كذلك اجتمع في عصر واحد...، بايع عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن عم جده عمرو بن عبد الرحمن، وبايع المعتز والمؤيد والمتنصر بالعهد وهم بنو المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي، منصور بن المهدي، وقبل أيديهم. أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها: ظهر رجل حصري بعد اثنين وعشرين سنة من موت هشام ابن الحكم المؤيد، وادعى أنه هو، فبويع له، وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى وسفكت الدماء، وتصادمت الجيوش في أمره فضيحه لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها: أربعه رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمى بأمرير المؤمنين، ويخطب لهم بها في زمن واحد، وهم: خلف الحصري بإشيبيلية على أنه هشام ابن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببشتر]، رسائل ابن حزم ج2، ص97، 99، وذكره ابن الخطيب بمثل ما ذكره ابن عذاري، أعمال الأعلام، ص142 - 143.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج1، ص146؛ وينظر أيضا، ج1، ص282، 283، 286.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج1، ص160.

⁽⁴⁾ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص159 وما بعد.

وأضاف: [وقد عمل هذا الداعي منذ أن استولى على أن يكون هو السيد المطلق للدولة الناشئة، فتلقب بالمهدي وراح يعلن عن تعاليم مذهبه بنفسه وبواسطه دعائه الذين بثهم في كل الأنحاء ليعلموا أن المهدي رسول وني، كما أمر أن يذكر اسمه في الخطبة بالبلاذ، وأحضر دعائه الناس بالعنف والشده ودعوهم إلى اعتناق مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبي حبس، وقتل المهدي كثيرا ممن رفضوا الدخول في مذهبه من بينهم مجموعة من العلماء وهذا ما أوعز صدور الناس عليه...، وقد كانت لهم جرأة كبيرة على التنكيل بمخالفهم بأفطع الوسائل، كما أنهم كانوا من أجرأ الناس-وبأقبح الاساليب - على سب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلا عن قدرتهم على انتحال البدع التي لا صلة لها بالإسلام، وإلزام الناس بها وكأنها من شرع الله] (1).

وقد عرض ابن عذاري ألوانا من تصرفاتهم وأفعال أتباعهم وهي إلى الكفر أقرب منها إلى أي شيء آخر، يقول: [وفي هذه السنة 308هـ أظهر بعض الناس ممن تشرقوا معاصي خطيريه، منها أنهم أحلوا ما يجرم وأكلوا الخنزير، وشربوا الخمر في رمضان...] (2).

ولا أدل على ذلك ما نقله ابن عذاري عن ابن القطان، والذي يبدو أنه تحاملا واضحا على الخلافة الفاطمية في مصر (3)، وطعنا بالنسب العلوي لعبيد الله المهدي الفاطمي حيث يورد عدة روايات لإثبات وجهه نظره، ينقلها ابن عذاري للأسف، ولكنه يضع عهدتها على ابن القطان بقوله: [والله أعلم! هكذا ذكر ابن القطان في نسبه] (4).

إضافة إلى تعصب ابن القطان للدولة الموحدية، فهو كان يعطي صبغة مذهبية واضحة لكتاب الجمان، ووقوف ابن عذاري على الحياد في هذه المسألة، مما يؤكد النقل الموضوعي المختار الذي كان يقوم به مؤرخنا من كتاب نظم الجمان

(1) علي بن حماد، اخبار ملوك بني عبید وسيرتهم، ص 23 24.

(2) البيان المغرب، ج 1، ص 159 وما بعدها.

(3) ابن عذاري، ج 1، ص 287.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 158 - 159.

ومن تعليقاته على بعض الحوادث التاريخية أثناء سرده لها قال: ابن عبد الله ابن ابراهيم ابن الاغلب: [أراد أن يحدث جوراً عظيماً على رعيته، فأهلكه الله قبل ذلك] (1).

لكن عهده القصير كان زاهراً. فقد لاحظ ابن الأثير قائلاً: [وكانت أيامه أيام سكون ودعة، وبقي أميراً رخي البال، وادعياً والدنيا عنده آمنة] (2)، إلا أن هذا الأمير الذي لم يكن أسوأ سيرة من غيره، عرف عنه أنه: [كان من أجمل الناس وجهاً] (3)، وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً] (4)، يصعب العفو فعلاً، ويعسر من باب أولى تناسي الأمر، إذا ما لحق المال ضميم، فوجب لإدراك تعاقب الأحداث، القول إن الهوة التي كانت تفصل في عهد عبد الله الأول، الدولة الاغلبية عن الشعب، لم تنفك تتسع، وأن القطيعة ما انفكت تتضح، فما زال الناس فيه على سذاجتهم لا يفقهون فلسفة الاقتصاد، فكان في نظرهم أول أمير خرج على أحكام الشريعة المطهرة فكرهوه وحسبوا ولايته بلية نزلت بهم بعد أن تيمنوا بعهد أبيه وقد حال دون ثبارهم عليه تنظيمات أبيه، أحصها تأليف خير الزنج.

ولم تفد فيه نصائح علماء عصره ولا مواعظهم، فلجأوا إلى الدعاء عليه، واستمر على طريقته لا يعبأ برضا أحد أو غضبه حتى أصابته قرحة تحت أذنه كانت بها وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة (سنة 201هـ / 817م)، بعد أن مكث في الملك خمسة أعوام وثلاثة أشهر إلا أياماً (5).

كما علق -أيضاً- على حبس إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي قال: [ثم أمر -قبحه الله- به فجعله في تابوت حتى مات رحمه الله تعالى] (6).

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 55.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 105؛ وينظر أيضاً، ج 5، ص 157.

(3) كان يدعى عبد الله الجميل؛ ينظر ابن الأثير، الحلة السيرة، ص 252.

(4) ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 95.

(5) ابن عذاري، ج 1، ص 121120، ابن الأثير، ج 5، ص 184، ابن خلدون، ج 4، ص 422، ابن الخطيب، ص 16.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 122.

ثم يسرد علينا بتعليق آخر يقول فيه: [أنه قتل ست عشر جاريه من بناته: قبحه الله⁽¹⁾]. ومثل هذا القول على وظيفة الكاتب بمدلولها المفهوم لم تكن في الدولة الأغلبية من قبل، وليس ذلك فحسب، بل لم يكن مرغوبا فيها من قبل المثقفين من عليية القوم، وكان الأمراء يعتمدون في حاجاتهم. ودواوينهم على بعض أصحاب الأقاليم المتواضعين⁽²⁾.

وتبعنا لذلك وكما يقول هويكتر: [لم يكن على حد علمنا ثمة موظف يعرف بالكاتب مجردا فحسب، بل إن الكلمة لم تستعمل في الأسماء المركبة ككاتب السر...، كما كان في الدول الأخرى⁽³⁾].

فاستحدث بذلك الأمير إبراهيم هذه الوظيفة، وبدأ يتولاها منذئذ أحد كبار الكتاب والمرسلين ممن عرفت لهم مكانة عالية في ميدان العلم والأدب، كان منهم في هذا العهد ابن حيون البريدي، وأبو اليسر الشيباني، الذي يقول عنه ابن عذاري أنه: [كتب لبني الأغلب حتى انصرفت أيامهم⁽⁴⁾]، والذي كتب للمهدي الفاطمي فيما بعد، أحمد بن محمد بن حمزة الذي تولى الحجابة فتره من الزمن أيضا وكان يتمتع بنفوذ كبير⁽⁵⁾.

على أية حال كان ولا بد لسيرة حاكم كالأمير إبراهيم حفل عهده الطويل بالحوادث الجسام من أن تثير الخلاف بين المؤرخين والكتاب كما يحدث عادة بالنسبة لكبار الرجال، فمنهم المغرض، ومنهم المستحسن لبعضها والمستنكر لبعض آخر، ومنهم المغرض الذي استهواه تصيد بعض الهفوات فلم ير غيرها وحولها تهما شنيعة ألصقها به لغرض في نفسه.

وأما بالنسبة للمؤرخين، فابن الأثير رأى فيه الحاكم العادل الحازم في أموره الذي أمن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد...، ويصفه ابن خلدون بقوله: [وقام بالأمر أحسن قيام فأمنت

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ج 1، ص 133. قال ابن الخطيب السليمانى معلقا على ما فعل بناته: [قلت: لا ترجمه، وضاعف عليه سخطك وعذابك

الذي لا يعقبه رضاك، ولا تمنحه رحمتك] ؛ ينظر: اعمال الاعلام، ص 307

⁽²⁾ شارل اندري جوليان، تاريخ افريقية الشمالية، ج 2، ص 68

⁽³⁾ ج.ب. هويكتر، النظم الإسلامية في المغرب الوسطي، ص 49

⁽⁴⁾ ابن عذاري، ج 1، ص 163.

⁽⁵⁾ هويكتر، المرجع السابق، ص 49.

البلاد⁽¹⁾]، ويقول عنه أبو الفدا: [... وفتح الفتوحات العظيمة، وجاهد في الله حق جهاده...⁽²⁾، ويكرر الوزير السراج نحو هذا القول⁽³⁾، وأما ابن أبي دينار فيقول عنه: [وكان ذا فطنة عظيمة وصاحب معروف⁽⁴⁾].

وأما الرقيق القيرواني فيصفه بالظلم والقسوة المتناهية بسبب المرض السوداوي الذي أصابه، ويورد العديد من الحوادث التي ارتكبها للتدليل على صحة وجهة نظره⁽⁵⁾.

في حين ينقل عنه ابن خلدون -للأسف- قوله: [أنه كان جائراً ظلوما سفاكا للدماء وأنه أصابه آخر عمره ملنخوليا أسرف بسببها في القتل⁽⁶⁾، ويؤيده ابن عذاري في ذلك إذ يقول في حوادث سنة 279هـ: [وفيها قتل إبراهيم بن أحمد من أهل إفريقية من قتل بطرا وشهوة⁽⁷⁾].

وأما ابن الخطيب فيقول: [وكان إبراهيم بن أحمد قد بدأ أمره بحسن السيرة، وسلوك المذاهب الحميدة، والتماس الخلل الكريمة، ثم عاد إلى الحافرة، وانقلب إلى ضد ما كان عليه، وفسد فكره فأسرف في القتل...⁽⁸⁾].

ويورد ابن أبي الضياف هذه الحوادث تحت عنوان «هوس إبراهيم بن الأغلب وشنائعه» أطلق عليه في ثناياها صفات الجهل والطغيان والغشم والجبروت وما شابهها⁽⁹⁾.

وهكذا يظهر التباين بين هذه الآراء بوضوح الأمر الذي يفرض على الباحث المقابلة بينها بموضوعية وتجرد من كل غرض إلا محاولة الوصول إلى الحقيقة.

(1) ابن خلدون، العبر، ج4، ص204.

(2) أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج2، ص51.

(3) الوزير السراج، الحلل السندسية في الاخبار التونسية، ج1، ق4، ص882.

(4) ابن أبي دينار، المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس، ص52.

(5) التويري، نهاية الارب في فنون الادب، ج2، ورقة 103 وما بعدها.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص204.

(7) ابن عذاري، ج1، ص122.

(8) ابن الخطيب، المصدر السابق، ق3، ص29.

(9) ابن أبي الضياف، تحاف اهل الزمان، ج1، ص143 وما بعدها.

والملاحظ أن روايات الفريق الثاني من المؤرخين مردها جميعا إلى رواية الرقيق القيرواني التي بسطها النويري في «نهاية الأرب»، فكانت مصدرها الرئيسي ومثابه عمودها الفقري، إما بالنقل المباشر عن طريق الرقيق نفسه أو غير المباشر عن نهاية الأرب.

والحقيقة التي ينبغي أن نقر بها أن المؤرخين أجمعوا على تقسيم عهده إلى شطرين: أولهما تشمل السنوات الأولى (أي السبع) من حكمه، سار خلالها سيرة حسنة، أما ثانيهما فيقول ذلك الفريق المتحامل من المؤرخين أنه تغير خلاله وترك الرفق واتبع العنف والبطش بسبب أو بغير سبب، وبالتالي فينبغي التمييز بين حياته العامة وحياته الخاصة، ونحن في ذلك نتفق مع الدكتور سعد زغلول عبد الحميد⁽¹⁾.

كما علق على موت المقتدر أحمد ابن هود حين رماه الله بعله في جسده أذهبت حسه وعقله، فيقال أنه ما مات حتى كان ينبح كما تنبح الكلاب لدعوة الرجل الصالح عليه، قال: [نعوذ بالله من سوء العاقبة]⁽²⁾، فكان ذلك عبرة للمعتبرين وعظة للمزدرجين⁽³⁾، وهذه من أكبر النكيات وأعظم المصيبات⁽⁴⁾.

استطاع أحمد المقتدر بن هود أن يتغلب على أخيه يوسف بالغدر والخيانة والاستهتار بدماء المسلمين، إذ استعان بالنصارى على أخيه واستطاع بقوتهم أن يضم لاردة وتطيلة (أعمال سرقسطة) إلى أملاكه، فعظم ملكه، وقويت شوكته⁽⁵⁾، كما استطاع أن يضم طرطوشة إلى أملاكه بعد تغلبه على الفتى نبيل العامري سنة (452هـ/1060م)⁽⁶⁾، كما استطاع أن ينتزع

(1) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، ص114 وما بعدها.

(2) البيان المغرب، المصدر السابق، ج3، ص299، وينظر أيضا: ج5، ص135.

(3) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج5، ص345.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص345.

(5) ابن عذاري، ج3، ص223 _ 222.

(6) المصدر نفسه، ج، ص250.

دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وضيق عليها، وذلك سنة (468هـ/1076م)⁽¹⁾، وبذلك أضحت سرقسطة أكبر ممالك الطوائف من حيث المساحة.

ويبدو أن علاقة المقتدر مع ممالك النصارى كانت صافية، إذ أنه كان يستعين بهم في تصرفاته العسكرية، وخططه السياسية التوسعية، وكان يستعين بأحدهم على الآخر.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان نقلا عن دوزي في تاريخه لمسلمي اسبانيا: [وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف في زمانه، وكان يحيط نفسه بشيء من العظمة والأبهة، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأضخمها، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب في عصره، ومنهم العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ، بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضيات والفلك، وقد كتب كتبا في الفلسفة والرياضيات⁽²⁾].

وهكذا استطاع المقتدر أحمد بن هود أن يكون مملكة مترامية الأطراف ويوطد حكمه فيها، إلى أن توفي سنة (475هـ/1081م) متأثرا بعضة كلب⁽³⁾ بعد أن دام حكمه 35 سنة.

فكان ابن عذاري إذا ذكر النصارى ورؤسائهم وأفعالهم ضد المسلمين ذمهم ولعنهم مثل: [رأيهم اللعين]⁽⁴⁾، [الكبيطور لعنه الله]⁽⁵⁾، [اللعين جرانده]⁽⁶⁾، [ابن الرنك لعنه الله]⁽⁷⁾، [دمرهم الله]، [اخزاهم الله]⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه، ج، ص228.

(2) عبد الله عنان، دوله الاسلام في الاندلس، ج3، ص283.

(3) ابن عذاري، ج3، ص229؛ وينظر: ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص171، 172. وهنا يذكر ابن الخطيب وابن عذاري ان المقتدر قتل رجلا صالحا، كان يعظه ويذكره بالله، فسلط الله عليه كلبا، فأصابه بكلب، وقد كان المقتدر ينيح كما ينيح الكلاب، وظل كذلك حتى مات، نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص225.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص37.

(6) المصدر نفسه، ج5، ص105.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص106.

(8) المصدر نفسه، ج5، ص268؛ وينظر ايضا: ج3.

إن من أعظم المحن - إن لم تكن أعظمها - ما حدث للمسلمين في برُّ بُشْر (Barhastro)؛ إذ كان الخطب بها أكبر من أن يوصف؛ حيث هاجم النورمانديون المدينة (سنة 456هـ/1064م)، وفتكوا بأهلها، وأبادوا المسلمين بأبشع صور الإبادة في التاريخ، لم يبادر المقتدر أحمد بن هود لإبجاد المدينة، وقد وصف لنا ابن حيان المحنة بكلمات من الدماء لما حل بالمسلمين هناك، وليس هنا مجال أوسع لنسرد كل التفاصيل. حيث حدد لنا ابن حيان السبب في قتلهم، يقول: [وكان السبب في قتلهم أنه خاف من يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل - لعنه الله تعالى - حتى قتل منهم نيفا وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين من بقي، وأمر أن يخرجوا، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم...، وهلك في الرحمة، نوذي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان، وأرهقوا وأزعجوا، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله، اقتسمهم الإفرنج - لعنهم الله تعالى - بأمر الملك، أخذ كل واحد دارا بمن فيها من أهلها، نعوذ بالله تعالى.

وكان الفرنج - لعنهم الله تعالى - لما استولوا على أهل المدينة يقتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى في الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن حوله وغلمانه يعيشون فيهن عيثة⁽¹⁾، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبيكار والثيبات ذوات الجمال، ومن صبياتهم الحسان ألوفا عدة. حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه، وترك من رابطة خيله بر بشر ألفا وخمسمائة، ومن الرجال ألفين⁽²⁾.

(1) أي ان الافرنجي اذا وجد خادمه او غير ذات جمال تكبر ان يهتكها هو فكان يعطيها لخدمه وغلمانه يهتكونها.

(2) المقرئ، نفع الطيب، ج4، ص 451 449؛ ابن بسام، الذخيرة، ج5، ص 181 189، ابن عذاري، ج3، ص 227 225.

كما نقد ابن عذاري داعية المرابطين عبد الله بن ياسين على بعض أحكامه، فقال: [مما شذ فيه عبد الله من الأحكام] ⁽¹⁾ وعدد بعضها مما أخذ عليه.

أظهر ابن عذاري المراكشي وهمة موضوعية كبيرة في بعض القضايا، ومن جملتها حديثه عن الداعية عبد الله بن ياسين، فاذا كانت معظم المصادر وحتى الكتب التي تم إصدارها عن المرابطين في الوقت الراهن، تذهب إلى تمجيد صورة عبد الله ابن ياسين بذكر ورعه وتقواه، وزهده، وفضائله، وكرامته فإن ابن عذاري ذكر بعض مساوئه في قوله: [وأما ما شذ فيه عبد الله من الأحكام ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين] ⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن ابن عذاري يورد نصوصا كثيرة في أعقاب فتح الاندلس، وما تعلق منها بفتح مدينة قرقوشة صلحا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ⁽³⁾. وهي مدينة فرنسية محصنة ذات أهمية استراتيجية كبيرة، تقع على ضفاف نهر أودي جنوب فرنسا، وكان فاتحها هو عنيسة ابن سحيم الكلبي، وهو أحد ولاة الأندلس الذين تمكنوا من توسيع حدود الأندلس، حيث كلفه عبد الرحمن الغافقي عندما كان أميرا للأندلس. وقد تمت فتوحات عنيسة في بلاد الغال عهد خلافة هشام بن عبد الملك، وكان من أسباب نجاحه في التوغل في أراضي فرنسا لينه في التعامل مع أهلها، إضافة إلى جرأته وبراعته.

فهذا النص لا يوجد فعلا في كتاب ابن حبيب المتوافر بين أيدينا، فلعل مؤرخنا كان ينقل من نسخة اخرى موسعة، وما يؤيد هذا، أن محمود علي مكّي، يشير إلى أن النسخة المتوافرة معه هي مختصر صغير لكتاب ابن حبيب الحقيقي، وأن الذين قاموا بوضع هذه النسخة، إنما هم تلامذة ابن حبيب.

⁽¹⁾ ابن عذاري، ج4، ص16. وما ذكره عنه يحتاج الى تحقيق وتثبت، وكأني بالرجل متحامل على مؤسسي دولة المرابطين.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج2، ص13.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج2، ص23 17.

كما يظهر - أيضا-اهتمام ابن عذاري بأخبار موسى بن نصير وفتوحه، وما أفاء الله عليه من الغنائم في الأندلس، بعضها منسوب إلى الليث بن سعد، وبعضها إلى غيره من المحدثين والرواة، مثل: يوسف بن هشام، وأبي شيبه الصديقي، وعبد الحميد بن جعفر، ومعظم هذه الروايات مذكورة في كتاب عبد الملك بن حبيب⁽¹⁾. وهي في مجموعها تشكل جزءا من الروايات التي راجت في أعقاب فتح الأندلس عن بعض التابعين الذين ساهموا في حملة موسى بن نصير، ثم عادوا إلى شمال إفريقيا، وحدثوا بما شاهدوه من أحداث الفتح، فمن المرجح أن عبد الملك بن حبيب أخذ هذه الروايات عن شيوخه المصريين في أثناء إقامته بمصر⁽²⁾، فضمنها في كتابه التاريخ، ونقلها عنه ابن عذاري.

لكن غالبية هذه الروايات -أيضا-مذكورة في كتاب الإمامة والسياسة، المنسوب لابن قتيبة⁽³⁾.

فالسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا، هل اطلع ابن عذاري في هذا الكتاب وأخذ منه، أم أخذها ممن أخذ عنه؟ أغلب الظن أنه اعتمد في رواياته هذه على ابن حبيب، حيث أشار إليه، كما أسلفنا الذكر، وكذلك على كتاب الإمامة والسياسة، ولا سيما أنه سبق له الأخذ منه في روايته عن بعض فتوح موسى بن نصير في المغرب⁽⁴⁾.

(ومن الأشياء التي تذكر لابن عذاري - حال قرطبة أثناء الفتنة البربرية- اهتمامه الدقيق بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت تقلب الأحوال السياسية في كل من المغرب والأندلس، فهو يشير باستمرار إلى تقلبات الأسعار، ويقارن بينها⁽⁵⁾).

(1) استفتاح الاندلس، ص 226، 228، 232، 235، كتاب التاريخ، ص 139، 141.

(2) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، القسم الاول، ص 270.

(3) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 2، ص 63، 64، 83، 82.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 41، ومن الجدير بالذكر، ان القسم الطويل الذي الفه في تاريخ الاندلس، كما يشير الى ذلك محمد بن ابي نصر الحميدي، في ترجمه موسى بن نصير مأخوذ على الاغلب من كتاب معارك ابن مروان ابن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير؛ ينظر: جذوه المقتبس، ص 338.

(5) المصدر نفسه، القسم الموحد، ص 12.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو ما المقصود بالفتنة؟ ... إن الفتنة التي نعنيها في بحثنا هذا هي ذلك الخلاف الذي وقع بين فئتين من المسلمين: البربر من جهة والأندلسيين، وبخاصة منهم أهل قرطبة من جهة أخرى حول منصب الخلافة، وقد أدى ذلك إلى قيام صراع دام بين الطرفين استمر طيلة الفترة الممتدة بين حكم محمد بن هشام ابن عبد الجبار الاموي، وتاريخ إعلان إنهاء الخلافة الاموية بالأندلس...

لقد تميزت هذه الفتنة بتلك الكراهية الشديدة التي كانت بين الاخوة في الدين والشركاء في الوطن البربر من جهة، والأندلسيين من جهة أخرى، تلك الكراهية التي أدت إلى اندلاع حرب شعواء لا تحترم النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، وتجاوز الغضب ذلك؛ فطال العمران إذ هدمت الدور وخربت المباني، وانتهكت حرمة بيوت الله وبخاصة في مدينة الزاهرة التي أزيلت من الخريطة، والزهاء التي طمست أغلب معالمها الحضارية، تلك الكراهية التي جعلت العدو صديقا والأخ عدوا، ويؤكد ذلك استعانة الطرفين المتصارعين بالنصارى، الأعداء الحقيقيين، وتمكينهم من رقاب المسلمين، فاستغل هؤلاء الفرصة، وثاروا لأنفسهم مما جرى لهم على أيدي الفاتحين، وتمكنوا من استرجاع جزء مما فقدوه على أيديهم، وبذلك صار النصارى يتحكمون في مسلمي الاندلس ويوجهونهم حسب ما تقتضيه مصالحهم⁽¹⁾.

أما عن الأغالبة، فنجد أن ابن عذاري لا يشير إلى ابن القطان كثيرا، في (سنة 253هـ / 867م)، قال ابن القطان: [... هذه السنة من أخبار افريقية، فلم يكن فيها خبر مشهور يجتلب⁽²⁾].

لقد كان قيام دولة الأغالبة في افريقية عام (184هـ / 800م) مرتببا ارتباطا وثيقا بما كان يسود بلادها من اضطراب وفوضى وصراع مذهبي وثورات الجند العرب والبربر في الفترة

⁽¹⁾عبد القادر بوباية، البربر في الاندلس.

⁽²⁾ابن عذاري، ج1، ص115 .

المتدة من خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ / 724-743م) إلى نهاية الدولة الأموية (132هـ / 750م)⁽¹⁾.

وفي حقيقة الأمر لم تغفل عينا ابو العباس عن الجناح الغربي لدولة الإسلام، والذي كان يشتمل على (مصر وبرقة وافريقية)، مكتفيا فقط بالاستجابة إلى ما طلبه عبد الرحمن ابن حبيب الذي كان زعيما سياسيا واسع النشاط يعتمد على ما حققه جده عقبة بن نافع من شهرة وسمعة وانجازات حربية، ولكنه في نفس الوقت انحرف عن نمط سياسة جده، فكانت لديه أطماع في الحكم، فلم يقوم بتنظيم أمور دولته كما فعل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (138-172هـ)، ولكن كل همه البقاء في إمارته دون سند شرعي⁽²⁾.

فلما أعلن عبد الرحمن بن حبيب نفسه أميرا على القيروان بعث بطاعته الى أبي جعفر المنصور، لم يكن لدى الخليفة العباسي حينئذ متسع من الوقت للنظر في أمر افريقية بعناية، فأقره ريثما تسمح ظروفه⁽³⁾ بالتفرغ للجناح الغربي من دولته الكبيرة، ثم طالبه المنصور بالمال، وقد فوجئ عبد الرحمن بهذا الطلب لأنه إلى ذلك الحين لم يكن صاحب السلطان على افريقية لكي يستطيع إخراج المال الكافي منها لينفق على إدارتها ومرافقها من ناحية، ثم لكي يرسل ما تيسر له إلى الخلافة.

ولكن بدلا من ذلك قام هذا الأخير بترع شعار السواد، وهو شعار بني العباس، وقطع ذكر اسم المنصور في الخطبة، فهذا أول الأخطاء الكبرى التي وقع فيها عبد الرحمن لأنه ظن أنه يستطيع التغلب على كل منافسيه في ولاية افريقية.

(1) محمود اسماعيل عبد الرزاق، الاغالبية، ص9.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص63، ابن خلدون، العبر، ج4، ص189 190، ونفس المعنى، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص16.

(3) التويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، ص66، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص28، ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص67.

وفي نفس الوقت ربما كان يعتقد أن الخليفة لا يملك قوة كافية لاستعادة السلطان على أفريقية، إذ لم يكن من المناسب له وهو في مرحلة تثبيت أمره أن ينفصل عن الدولة الأم ويحمي نفسه من جيوشها، ثم إن الدولة العباسية كانت شديدة الاهتمام بولاية افريقية، فكانت تعتبر من أهم ولايات الدولة الإسلامية سياسيا وعسكريا وماليا⁽¹⁾.

وإزاء كل الأخطاء والهفوات الأخرى التي وقع فيها عبد الرحمن سواء من ناحية الدولة العباسية أو من ناحية افريقية تخرج مركزه ووقع القتال بينه وبين أخيه إلياس الذي كان يفكر في عزله عن ولاية الجند، فكانت النتيجة أن قتل عبد الرحمن في سنة 137هـ، وفر ابنه حبيب إلى تونس⁽²⁾.

ثم استعان ابنه حبيب هذا بجماعات البربر لاستعادة ملك أبيه في افريقية، ونجح في قتل عمه إلياس، ولكن لم يدم حكمه حتى استولى عمه عبد الوارث على القيروان، ففر إلى قبيلة بربرية كبيرة مستعربة تعرف باسم ورفجومة⁽³⁾.

وعلى أي حال فقد كان آخر أمراء المهالبة لإفريقية الفضل بن روح بن حاتم الذي تولى (سنة 177هـ / 793م)، ولم يمكث في حكمه إلا سنة ونصف تقريبا، فثار على جند افريقية والمغرب لاستبداده بالسلطة، فقام عبد الله بن عبدويه الجارود قائد جند تونس، فتمكن من الاستيلاء على السلطة وقتله سنة (178هـ / 794م)⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ابن الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 134، التويري، نهاية الارب، ج 24، ص 67، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 281، ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 67.

⁽²⁾ الرقيق القيرواني، المصدر نفسه، ص 134، التويري، نهاية الأرب، ج 24، ص 68، الرقيق القيرواني، ص 139.

⁽³⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 80؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي، ص 251، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص 69؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 497.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 106 99؛ سيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 273؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 8، ص 272، التويري، نهاية الارب، ج 24، ص 89.

ولما كانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشؤون ولاية افريقية، والتي ذكرها اليعقوبي الذي زار افريقية في عصر الأغالبة أن منتهى سلطة العباسيين غربا كانت حتى مدينة إربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف⁽¹⁾.

ووسط كل الظروف التي ذكرناها سابقا ظهر (إبراهيم بن الأغلب) على مسرح الحياة السياسية في بلاد افريقية فقد قيل كان ظهوره نتيجة خدمته في جيوش بني المهلب⁽²⁾، وقد ذكر (ابن الأثير) أن إبراهيم بن الأغلب كان بولاية الزاب سنة 180هـ وأنه لاطف (هرثمة بن أعين)، وقدم له الهدايا فولّاه ناحية الزاب، وكانت بلاد الزاب منزل الكثير من التميميين قوم ورهط بني الأغلب فكانت سندا قويا لإبراهيم بن الأغلب فيما بعد⁽³⁾.

وعندما خلع الرشيد هرثمة ابن اعين من ولاية افريقية بدأ إبراهيم بن الأغلب يتطلع إليها بشغف، وهناك ظروف وأسباب مهدت له الطريق للوصول إلى هذه الولاية ولا يوجد مجال للتطرق إليها بالتفصيل، وفوق ذلك كله كانت براعة إبراهيم في القضاء على ثورة تميم بن تميم الذي بث الذعر والخوف والرعب لأهل افريقية كلها، حيث استعان إبراهيم بأهل افريقية وهذه ميزة من ميزات الأغالبة عن اسرة آل طولون وقد اختلف الرواة والمؤرخون حول الدوافع والأسباب التي جعلت الخليفة هارون الرشيد يوافق على إسناد ولاية افريقية لإبراهيم بن الأغلب⁽⁴⁾.

صفوة القول أن كل الأحداث التي مرت بها المغرب جعلت الخلافة العباسية تفكر في إسناد هذه الولاية لرجل يتميز بصفات القدرة على الحكم، والولاء للدولة والإخلاص للبيت العباسي، والذي شجع العباسيين على إسناد هذه الولاية لإبراهيم بن الأغلب تلك التجربة

(1) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص 79، ابن عذاري، ج 1، ص 110، التويري، المصدر السابق، ج 24، ص 96 95 .

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1 ص 112 .

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 154 .

(4) التويري، نهاية الارب، ج 24، ص 99، ابن الابار، الحلة السيرة، ج 1، ص 99، وقد اورد الاستاذ الدكتور (محمد مختار العبادي) نص لرساله موجهه ادريس بن عبد الله الى المصريين يمكن ان نستنتج منها مدى اتصال الأدراسة باهل مصر؛ ينظر: ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ج 3، ص 17، ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 299 298 .

السابقة مع المهالبة وهم بيت من الحكام طالت ولايتهم واحدا بعد واحد على افريقية في طاعة الدولة العباسية، وعلى أي حال تمكن ابراهيم بن الأغلب بفضل ما لديه من كفاءه وشجاعة وذكاء وقوة مؤيديه من أن يقيم دولة جديدة تمثل الدولة العباسية في بلاد افريقية⁽¹⁾.

كما يشير ابن عذاري واصفا موقفه من هذه المسألة -خروج يعقوب بن عبد الله المريني على عمه السلطان أبي يوسف يعقوب⁽²⁾.

ووفقا للمؤرخ ابن خلدون، عندما سيطرت العائلة المرينية على سلا من الخلافة الموحدية، ترمد يعقوب بن عبد الله المريني على عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، وسعى للحصول على مساعدة الملك الفونسو العاشر⁽³⁾.

فشكل روي لوبيز دي ميندوزا أميرال قشتالة أسطولا بحريا للمساعدة في الحروب الصليبية القشتالية على ساحل شمال افريقية. وكانت سلا مركزا استراتيجيا وتجاريا هاما، وكذلك البوابة الى أزغار، منطقة شمال المغرب قبل يوم واحد من عيد الفطر في (عام 658هـ/ 1260م)⁽⁴⁾، تم ارسال 37 سفينة حربية إلى سلا على يد الملك ألفونسو العاشر وفي 02 شوال من نفس السنة نزل محاربون قشتاليون في سلا واغتموا الفرصة للقيام بأكبر مذبح في تاريخ المدينة، حيث كان مواطنو سلا مشغولين بالاحتفال بعيد الفطر، فقتل القشتاليون الكثير منهم، ثم نهب المحاربون الممتلكات ودمروا كل شيء في طريقهم وجمعوا النساء والأطفال والمسنين في المسجد الأعظم في سلا، حيث تم القبض على ثلاثة آلاف منهم وأخذوهم كعبيد لإشبيلية.

⁽¹⁾القلقشندي، صبح الاعشى، ج5، ص 120، ابن عذاري، ج1، ص 117، ابن خلدون، المصدر السابق، ج5، ص 419، السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 289، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 28.

⁽²⁾ابن عذاري، ج1، ص2.

⁽³⁾ابن خلدون، العبر، ج4، ص 224.

⁽⁴⁾محمد بن علي الدكالي، الاتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، ص 28 29.

بقيت سلا تحت سيطرة القشتاليين مدة أسبوعين⁽¹⁾ قبل أن يهرع السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى مساعدة المدينة. وسرعان ما أمر قواته بالسير إلى بوابات المدينة، وأمر بأن يتم قتل جميع الجنود القشتاليين، لكن بعضهم تمكن من الفرار من الهجوم بعد أن قاموا بنهب المنازل وحرق المتاجر ونهبها، وبعد تحرير المدينة أمر السلطان ببناء برج آدموم وجدار مقابلا لأبو رقرق⁽²⁾.

فكان تعقيب ابن عذاري على هذه السياسة بقوله: [وكان تديبرا خاليا من السداد والصلاح مع قضاء الله تعالى وقدره]⁽³⁾.

ثالثا- ربط الأسباب بمسبباتها واستخلاص العبر والعظات منها:

لقد حاول مؤرخنا ابن عذاري في بعض المناسبات استنباط العبر والعظات من أحداث التاريخ، من حيث تغير الأحوال وتبدل الأمور في فترات وجيزة جدا، وكيف انقلبت الأفراح الى أتراح، والسرور والبهجة إلى أحزان.

فمن العبر التي أشار إليها حكم الدولة العبيدية نحو ثلاثمائة سنة، وتملكهم من مضيق سبته إلى مكة قال: [وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده، إذ مكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجار يسومون أولياء الله سوء العذاب والعماد القيامة، والحاكم الله]⁽⁴⁾.

ومن الواضح أن نظام الحكم في ظل الخلافة الفاطمية، كان هو الآخر على غرار الدول الإسلامية الأخرى في العصور الوسطى، نظاما مطلقا يؤثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية والزمنية، وقد سارت الخلافة الفاطمية -الدولة العبيدية- على هذا النحو منذ قيامها.

فمؤرخنا قد ذكر أن العبيديون ملكوا من مضيق سبته إلى مكة -شرفها الله- لأن عماله كانوا يصلون إلى مضيق سبته فيعابنوها، ومن هناك يرجعون. وكان مما يبدو أن العبيديين لم

(1) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، ص22 21 .

(2) ابن القاضي الكناسي، جدوه الاقتباس، ص558 557 .

(3) ابن عذاري، القسم الموحد، ص417 .

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص284 283 .

يسيطروا على مضيق سبتة إطلاقاً، حيث أدرك رجال الخلافة الأموية في الأندلس أهمية موقع سبتة وخطورته بالنسبة للأندلس، فهي لهم ككل مدن العدو المغربية صمام أمان أمام الخطر الشيعي الفاطمي ومشروعهم التوسعي، وهو ما يفسر درجة التحصين التي حظيت بها المدينة في عهد الخليفة الأموي الناصر⁽¹⁾.

ومنذ اليوم لافتتاح مدينة سبتة، كان هذا الاحتراس يصاحب الخليفة الأموي وهو يشيد المدينة [في سنة 319هـ / 931م افتتح الناصر مدينة سبتة فشكلها بالرجال وأتقنها بالبنان، وبنى سورها بالكلدان، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده، وصارت مفتاحاً للغرب والعدوة من الأندلس وباب إليها...]⁽²⁾، والظاهر من رواية ابن عذاري أن الحذر وتوقع المخاطر كان محتسباً في تصور قادة الأندلس.

ولم يكتف الخليفة الناصر بأشغاله في تحصين المدينة من الخطر الفاطمي المتوقع، بل أوكل أيضاً إلى ولاته الاستمرار في إكمال عملية التحصين، [ففي سنة 346هـ / 958م ولى مدينة سبتة والي من قبل الناصر عبد الرحمن وأمره بتحصينها، وبناء سورها فبناه بالكلدان...]⁽³⁾، فقد كان لهذه السياسة الأندلسية آثارها في حفظ المدن من هجمات الفاطميين أو أتباعهم.

فمثلاً [في سنة 347هـ / 959م دخل جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي إلى المغرب، واستولى على مدينة فاس ثم توجه إلى مدينة تيطوان، ووصل إلى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها وقصد بعساكره إلى سجلماسة]⁽⁴⁾.

فلربما كانت هذه التحصينات إحدى عوامل هزيمة الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي على أسوار سبتة في الحملة الفاطمية عليها سنة 348هـ / 960م.

(1) المصدر نفسه، ج2، ص122، 156 .

(2) المصدر نفسه، ج2، ص204 .

(3) ابن عذاري، ج1، ص222 .

(4) ابن عذاري، ج1، ص222 .

ولقد سجل مؤرخنا في روايته هذه الهزيمة ولو بشكل مقتضب، فقال: [... وصل كتاب صاحب سبته إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الناصر، يعرفه بما فتح عليه في عسكر جوهر قائد الشيعي]⁽¹⁾.

وبقيام الدولة الفاطمية سنة 297هـ / 909م، يتغير الصراع ويعنف كما لم يعنف من قبل، وتشتد المحنة على أهل افريقية المالكية، فالعنصر الذي جد في مناهضتهم كان قويا، فبني عبيد إلى جانب كرههم لأهل السنة كانوا حاكمين وعملوا على نشر مذهبهم، لذلك كان على بلاد المغرب أن تواجه هذه الدعوة التي سوف لا تترك وسيلة للنفوذ إلا استنفذتها، وعلى أهلها إذا أرادوا التمسك بمالكيتهم أن يلاقوا التنكيل والترويع والقتل⁽²⁾.

وحاول أبو عبد الله الشيعي في أول أمره أن يقنع العلماء بمذهبه وينظرهم عليه، وفي هذا لما دخل عبيد الله افريقية وملكها أحدث ما لم يعهده السكان السنة، ومن ذلك أنه قطع صلاة التراويح في رمضان وأمر بصيام يومين قبله، وقت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من آذان الصبح [الصلاة خير من النوم]، وزاد [حي على خير العمل ومحمد وعلي خير البشر]، ثم يقول المؤذن: [أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين وجامع شمل الإسلام والمسلمين وأعز سلطانك جانب الموحدين وأباد بسيفك كافه الملحدين وصلى الله عليك وعلى آبائك الطاهرين وأبنائك الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين]⁽³⁾.

وقد فعل أكثر من ذلك، حيث جاهر بسب أصحاب النبي وأزواجه الطاهرة، وحكم بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام ولم يستثن إلا عليا وقليلًا ممن أيده وناصره⁽⁴⁾، ونصب حسينًا السباب لعنه الله تعالى في الأسواق للسب بأسجاع لقنها يوصل منها إلى سب النبي صلى الله

⁽¹⁾ نفسه، ج 1، ص 223 .

⁽²⁾ أبو العرب تميم، الطبقات، مقدمه المحقق، ص 17.

⁽³⁾ ابن حماد، اخبار ملوك بني عبيد، ص 168 .

⁽⁴⁾ ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 159 .

عليه وسلم، كقوله: [العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى]، وغير ذلك، وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على الحوائت عليها قرطيس معلقه فيها أسماء الصحابة رضي الله عنهم⁽¹⁾. ولقد بذل علماء المالكية السنة جهودا كبيرة في الدفاع عن عقيدتهم أمام المد الشيوعي الاسماعيلي الذي اجتاح المنطقة، ووقفوا له بالمرصاد، وستستمر مقاومتهم للشيعة الفاطميين ما بقيت رايتهم تعلو في سماء بلاد المغرب وافريقية.

كما ذكر ابن عذاري عن الدنيا وأنها لن تصفو وتحلو وتدوم لأحد من الناس مهما ملك من الدنيا. ففي حوادث سنة 350هـ / 961م توفي الخليفة الناصر لدين الله ووجد بخطه تاريخ قال فيه: [أيام السرور التي صفت لي من دون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا]، فعدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما.

قال ابن عذاري: [فأعجب أيها الفاضل لهذه الدنيا وعدم صفائها ونخلها بكمال الأحوال لأولائها، إن الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يصف له من الدنيا الا أربعة عشر يوما، فسبحان ذي العزة العالية، والمملكة الباقية، تبارك اسمه وتعالى جده]⁽²⁾.

في تاريخ الأندلس الذي امتد لأكثر من ثمانمائة سنة الكثير من الرجال والأبطال والعظماء الذين سطوروا صحائف من نور بدمائهم وأرواحهم وجهدهم من أجل دينهم وأمنهم، ولقد حفظ لهم التاريخ ذلك الجهد والعمل، ومن هؤلاء عبد الرحمن الناصر الذي تولى الحكم سنة 300هـ / 912م، اهتم به جده عبد الله اهتماما كبيرا وأولاه عناية خاصة لما كان صبيا⁽³⁾، ولعل ذلك عطف وشفقة عليه بعد مقتل أبيه، فنشأ بذلك عبد الرحمن في جو مليء بالأحداث المتتابعة.

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3، ص318 .

(2) ابن عذاري، ج2، ص232 .

(3) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص467؛ ابن عذاري، ج2، ص156؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج8، ص265 / ج15، ص562؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، ص136 .

لقد كان جده يرشحه لمختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه، وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمرا واضحا مقضيا، بل يقال: أن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده، وذلك بأن برئ بخاتمه إليه، حينما اشتد عليه المرض كإشارة باستخلافه⁽¹⁾.

لا شك أن سيرة عبد الرحمن الداخل -الجد الأكبر لعبد الرحمن- كانت تلهمه، كما أن قصة تأسيسه للدولة الأموية بعد عناء وجهاد وإرادة كانت نصب عين عبد الرحمن، وهو يخوض ما يمكن أن نسميه رحلة التأسيس الثانية.

ومن الطرائف التي تندرج في التاريخ أن أحدا من أعمام عبد الرحمن، ولا من أعمام أبيه، حاول أن يعترضه في المنصب أو ينازعه فيه⁽²⁾، بل كانوا أول من بايعوه متى تكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبد الله قائلا: [والله! لقد اختارك الله على علم للخاص منا العام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمه الله علينا، فأسال الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد]⁽³⁾.

إن دراسة كافة جوانب حياة عبد الرحمن الناصر لتحتاج إلى دراسة جادة متأنية، وعناية خاصة تفوق هذه السطور، إلا أن هناك بعض الإشارات العامة رأينا أن نقف أمامها بعض الشيء، فحينما تولى الحكم كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة هجرية⁽⁴⁾، أي إحدى وعشرين سنة ميلادية.

أما الثانية، فإنه يخطئ من يظن أن تاريخ عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- يبدأ منذ هذه السن أو منذ ولايته هذه على البلاد، فقد ربي عبد الرحمن الناصر منذ نعومه أظافره تربية قلما تتكرر في التاريخ.

(1) محمد عبد الله عنان، دوله الاسلام في الاندلس، ج2، ص373 .

(2) رسائل ابن حزم، ج2، ص194 .

(3) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج2، ص374 .

(4) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص467؛ ابن عذاري، ج2، ص156؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج8، ص265/ ج15، ص562؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، ص136 .

والثالثة أن عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- حين تولى الحكم كان على ثقة شديدة بالله، وفي الوقت ذاته على ثقة شديدة بنفسه، وأنه قادر على أن يغير، فلم يدخل قلبه يوماً شك أو يأس أو إحباط من صعوبة التغيير أو استحاله، أو أنه لا أمل في الاصلاح...

وبعد خمسين عاماً من حكمه للبلاد توفي سنة 350هـ / 961م عن اثنتين وسبعين عاماً، وقد وجدوا في خزانته ورقه مكتوب فيها أيام السرور التي صفت له دون كدر فعدوها فوجدوها أربعة عشر يوماً⁽¹⁾.

وعن تقلب الدنيا بأصحابها ذكر أمر منصور بن أبي عامر سجين الوزير جعفر بن عثمان المصحفي حتى قتله بالسجن.

قال ابن عذاري: قال محمد بن اسماعيل كاتب المنصور: [سرت مع محمد بن مسلمه إلى الزهراء لتسليم حسبه جعفر إلى أهله وولده والحضور على إنزاله في ملحده فنظرت إليه ولا أثر فيه، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به، فدعا له محمد بن مسلمه بغاسل، فغسله والله على فرد باب اقتلع من ناحيه الدار وأنا أعتبر من تصرف الأقدار، وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا إلا إمام المسجد المستدعى للصلاة، وما تجاسر أحد على النظر إليه]، ثم قال: [وإن لي في شأنه لخبر ما سمع بتمثله طالب وعظ، ولا وقع في سمع ولا تصور للحظ وقفت له في طريقه، أيام نميه وأمره، أروم أن أناوله قصه كانت به مختصه، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة، لكثافة موكبه، وكثرة من حف به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق، ينظرون إليه ويسلمون عليه، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص، فانصرفت، وفي نفسي ما فيها من الشرق بحاله والغصص، فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور، واعتقله، ونقله معه في الغزوات ذليلاً وحمله.

⁽¹⁾ ابن عذاري، ج2، ص 232، المقرئ، ازهار الرياض، ص282.

واتفق أن نزلت بجليقية في بعض المنازل إلى جانب خبائه في ليلة نهي فيها المنصور عن وقد النيران ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف له خبره، فرأيت والله ابنه عثمان يسفه دقيقا قد خلطه بماء يقيم به أوده، ويمسك به رmqه، بضعف حال، وعدم زاد ومال⁽¹⁾.

كثيرا ما ينتابنا الألم والحسرة على ضياع الأندلس، ونلقي التهم على حكامها المتخاذلين عن الدفاع عنها، فالأندلس التي تغنى بها الشعراء، أصبحت عبارة عن حبر على ورق وأطلال مساجد وقصور وشواهد قبور متناثرة هنا وهناك، ثم نتساءل كيف تاريخ عمره ثمانية قرون يختفي هكذا!

وحتى نضع يدنا على الأسباب الحقيقية وراء ضياع الأندلس علينا أولا أن نتعرف على محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور؛ حيث كان ذا طموح كبير وهمة عالية وذكاء وقاد، وعمل كاتباً للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم، الذي رأى من نبوغه ما جعله يوصي به عند الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، كما ترشح هذا الفتى النابه لأن يكون وكيلاً للأمير عبد الرحمن بن الحكم المستنصر.

ومن المدهش في أمر محمد بن أبي عامر أنه لم يتول عملاً إلا وأداره ببراعة وكفاءة فاقت براعة سالفه، رغم أنه دونهم في السن والخبرة، إضافة إلى أن الدولة كانت في عصرها الذهبي؛ أي أن الأعمال كانت في الغاية من التفنن والدقة، وتتطلب خبرة واتقاناً.

وكان مما ساعد محمد بن أبي عامر على أن يصل إلى هذه المراتب العالية بهذه السرعة - بجانب هذه المواهب النادرة- أنه استطاع استماله أم هشام (صبح البشنكسية)، وجارية الحكم المستنصر بحسن خدمته لها ولابنها وسعة بذله في الهدايا التي كان يهديها دائماً إليها.

كما يقال: أن ابن أبي عامر كان قد استهلك بعض من الأموال؛ ولذلك ذهب إلى الوزير ابن حدير ليسلفه المال الناقص - وكان صديقاً له- فأسلفه هذا الأخير المال الناقص الذي كان

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص271 270 .

ابن أبي عامر قد أخذه من خزينة الدولة، فصرفه على أم هشام ليشاهده الناس جميعاً، في مشهد لم يعهد ولم ير مثله من قبل. على أن الحكم المستنصر لم يكن غائباً عن هذا كله، فيحكي أن هذا الأخير قد ظن بن أبي عامر يتلف السكة المؤمن عليه. فأمره أن يحضر المال الذي عنده ليراه بنفسه ويتأكد من كماله، ثم عرف بعدها أنه قد أساء به الظن، وزاد إعجابه بأمانة ابن أبي عامر وحسن تدييره، ورفع قدره عنده، وبمجرد أن تأكد الحكم من عدم نقصان المال، أعاد ابن أبي عامر إلى الوزير ابن حدير ماله، وهو مع هذا كله يحسن معاملة الحاجب (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي ويداريه⁽¹⁾، ويطلب منه دائماً النصح والمشورة⁽²⁾.

وبعد وفاة الحكم المستنصر، وبعد القضاء على مؤامرة الصقالبة، ثم على قوة الصقالبة ونفوذهم في القصر، صفا الحال إلى حزب هشام بن الحكم المتكون من الحاجب المصحفي، وأم الخليفة وهي الشخصية القوية في القصر، ثم ابن أبي عامر الشخصية التي تتولى العديد من الأعمال والتي يتكئ عليها جعفر المصحفي في كل عمل مهم.

ففي هذه اللحظة من تاريخ الأندلس كان في المشهد ثلاث شخصيات قوية: المصحفي الذي يتكئ على عصبته (المصحفيين)، وابن أبي عامر يتكئ على أم هشام وابنها الخليفة ومواهبه الفائقة (أي ابن أبي عامر)، وصبح التي تتكئ على ولدها الخليفة وعلى ولاء محمد بن أبي عامر ثم يضاف إليها شخصية قوية رابعة والتي تتمثل في فارس الأندلس الزاهر غالب الناصري.

فهكذا بدت هذه الدولة القوية وكأنما ستعاني وتسقط جراء خلافات رجالها، وصغر سن خليفتها، وضعف وتردد حاجبها ومتولي إدارتها. فهنا... نهض للأمر محمد بن أبي عامر، الذي أنف من تصرف المصحفي، ووجد فيها إعلاناً بالضعف والصغار، وكان البلاد قد خلت من الرجال، فلا يجدون رجلاً يقود الجيوش القوية الموجودة بالفعل، فيلجئون إلى تجنب مواجهة

⁽¹⁾ دارى: أي لاينه ورفق به، واحسن صحبته واحتماله له؛ لئلا ينفر منه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص254. مادة: درى.

⁽²⁾ ابن عذاري، البيان، ج2، ص256.

النصارى (الخطة الدفاعية) بعد وفاه الحكم المستنصر الذين شرعوا في الهجوم على الثغور الإسلامية، بغرض الثأر من المسلمين وإضعافهم.

وهنا عرض محمد بن أبي عامر على الحاجب جعفر المصحفي أن يقوم بتجهيز الجيش للجهاد في سبيل الله، لكن هذا الأخير لم يجد رجلا يقود الجيش، فلقد جنوا، فضلا عن استحالة أن يقوم هو بنفسه قياده الجيش، فليست له خبره بالجهاد من قبل.

فبادر لهذه القيادة ابن أبي عامر، وقام باختيار من يخرج معه من الرجال، فاحتاج في تجهيزه للجيش مائة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعض الحاضرين، فقال له ابن أبي عامر: [خذ ضعفها، وامض! وليحسن غناؤك]، فبهت المعترض وسكت -أي المصحفي- عاد ابن أبي عامر من هذه الغزوة سالما غانما. وعاد إلى قرطبة بعد اثنين وخمسين يوما من خروجه إلى الغزو، ففرح الناس بذلك فرحا عظيما، ولم تفتقر همته بعد هذه الغزوة بل سارع إلى استغلال آثارها على كافة المستويات.

أيا ما كان الأمر، لسبب ما أو لكل هذه الأسباب التي عرجنا عليها، فلقد توطدت العلاقة بين غالب الناصري ومحمد بن أبي عامر، إلى الحد الذي تنازل فيه غالب عما أبلاه وجنوده في الفتح، فنسب ذلك كله إلى ابن أبي عامر، فأرسل الرسائل إلى قرطبة تشيد بما كان منه ومن بطولته وجهاده، وعظم الفتح الذي تم على يديه، ثم اتفقا على عزل المصحفي، ذلك الحاجب الضعيف المتردد الرأي، وقال غالب لمحمد بن أبي عامر: [سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصه، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه!] ؛ لأن ابن جعفر المصحفي كان متوليا لقرطبة العاصمة، وعزل هذا الوالي أول طريق عزل المصحفي عن الحجابة، فما كاد يصل ابن أبي عامر إلى قرطبة حتى أمر الخليفة في اليوم نفسه بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن مدينة قرطبة وتولية ابن أبي عامر المدينة؛ حتى أن ابن عذاري المراكشي يصف ما قام به بالنسبة إلى

فعل ابن المصحفي، فيقول: [فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة (أي قرطبة) من سلف من أفراد الكفاءة⁽¹⁾ وأولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله ويكابدون من روعات طرافة ما لا يكابد أهل الثغور من العدو، فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته، وتترهه عما كان ينسب لابن جعفر؛ فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق، والدعارات، حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلجة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحاً كان فيه حمامه⁽²⁾؛ فانقمع الشر في أيامه جملة⁽³⁾.

ولما رأى الحاجب المصحفي ما آل إليه أمر ابن أبي عامر من القوة، بادر إلى استمالة غالب وذلك بخطبة ابنة غالب لابنه، وما أن علم ابن أبي عامر بالأمر، حتى أرسل إلى غالب يباشره العهد، ويخطب ابنة غالب لنفسه، وسانده في ذلك أهل دار الخلافة.

وبعد أن تم عقد القران، زادت حفاوة الخليفة به، وقلده خطة الوزارتين للتسوية بينه وبين صهره، ورفع راتبه إلى ثمانين دينار في الشهر - أي الغالب - وهو راتب الحجابة في ذلك الوقت، ثم قلده الخليفة خطة الحجابة إلى جانب جعفر المصحفي - أي ابن أبي عامر - ثم تغير الخليفة على جعفر وسخط عليه، وأمر بعزله هو وأولاده وأقاربه عن أعمالهم في الدولة، والقبض عليهم، فسارع محمد بن أبي عامر إلى محاسبتهم حتى استصفى كل أموالهم، ومزقهم كل ممزق، وأيقن المصحفي بأنه هالك لا محالة، فحاول استرضاء ابن أبي عامر إلا أن ذلك لم يجد شيئاً، حتى توفي سنة 732هـ في سجنه، وقيل: قتل، وقيل: دست إليه شربة فيها سم⁽⁴⁾.

(1) الكفاءة: الخدم الذين يقومون بالخدمة؛ جمع كاف؛ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص226. مادة كفى.

(2) أي مات من الجلد، وكان قد جلده في حد شرب الخمر.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص266.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص264.

ويعلق ابن حيان على ما آل إليه أمر جعفر المصحفي؛ فيقول: [وكانت لله عند جعفر في إثارة هشاما بخلافته، وإتباع شهوة نفسه وحظ دنياه، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء، فسلط عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه]⁽¹⁾. ومهما تعددت الأسباب، ورغم أن سنوات محمد بن أبي عامر في الحكم كانت سنوات عز وقوة للأندلس، حيث أنه قاد أكثر من خمسين حملة عسكرية ضد الإسبان في أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية، حتى أنه كاد يقضي على وجودهم، وتفسيرنا هنا لحمالاته العسكرية انه رغم قوته وشدة باسه كان ينقصه الشرعية أو المشروعية، فهو أمام العامة في قرطبة عاصي الخلافة ومغتصب للسلطة، لذلك مثلت تلك الحملات العسكرية بالنسبة له الشرعية التي يسعى إليها. إذن نحن لا نهتم بابن أبي عامر بل ننقل الأحداث كما وقعت فحبه للسلطة واستغلاله للظروف وكل هذه الأمور يمكن أن نعتبرها بداية الانحدار بالنسبة للأندلس نحو الهاوية كما أشرنا سابقا.

أما ما آلت إليه حاله المصحفي، فهو بنفسه كتب بعض أبيات الشعر التي تصف حاله قبيل وفاته:

وكانت على مر الأيام نفسي عزيزة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

من عبر الدنيا في أحوال الملوك ما ذكره ابن عذاري عن الرقيق قال: [ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا انه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشر ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء تتمه الشهر وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة وهدم مدينة الزاهرة وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ونصب خليفة لم يتقدم له عهد، ولا وقع عليه اختيار، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وزوال دولة آل عامر، وكرور دولة بني أمية، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة، ونكوب

(1) ابن بسام، الذخيرة، ج7، ص65.

وزراء جلته، ونصب ضدادهم، تقتحمهم العين مجنة وقحاة. وجرى هذا كله على يدي بضعه عشر رجلا من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنافين وزبالين تجاسروا عليه وقد تكفل المقدور، فتم منه ما لم يكن في حساب مخلوق تمامه، فسبحان من هو على كل شيء قدير⁽¹⁾.

لقد أدى الضعف الذي أصاب مؤسسة الخلافة في ظهور شخصيات كان لها دور كبير في الأحداث السياسية التي شهدتها الأندلس، استطاع أولئك الرجال الوصول إلى أعلى المناصب، لأنهم كانوا متنفذين في قصر الخلافة عند وفاة الخليفة الأموي الحكم الثاني المستنصر بالله سنة 366هـ، لذلك كانوا وراء البيعة لولي عهده الصبي هشام الثاني، نتج عن السياسة التي انتهجتها الأسرة العامرية تصفية مراكز القوة في قصر الخلافة وفي مدينته قرطبة وتغيير بنية الجيش وحرس القصر. وتفرد بالسلطات كلها، وأقدم آخر المتنفذين من الأسرة المذكورة، وهو الحاجب عبد الرحمن المعافري، على انتزاع ولاية العهد من الخليفة الضعيف هشام. وبسبب تلك السياسة قامت الثورة في قرطبة، التي تزعمها أحد أفراد البيت الأموي، وتم قتل الحاجب وإعلان محمد المهدي زعيم الثورة عن نفسه خليفة، غير أنه لم ينجح في ضبط المدينة، التي عمتها نزاعات داخلية خطيرة، تراجع خلالها قيام الحكومة المركزية. ومسؤولياتها تجاه البلاد الأندلسية، ونتج عنها إلغاء الخلافة في الأندلس، وظهور ممالك عديدة على مسرح الحياة السياسية في الأندلس، اتسمت علاقاتها بالنزاعات العسكرية، التي كانت جميعها خاسرة فيها.

عندما تولى الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله الخلافة سنة 350هـ أمضى على الحجابة لجعفر المصحفي خلفا للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلي⁽²⁾، وضم له ولاية الشرطة⁽³⁾، فكان لهذا الإجراء الذي اتخذته الخليفة الحكم بداية تصدع الدولة الأموية، فعندما توفي الخليفة الحكم الثاني تنافست مراكز القوه في قصر الخلافة، فظهر فريقان، كل يريد تنصيب مرشحه

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص74.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص2، 235؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص73؛ الخلق سالم عبد الله، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ط1، المدينة المنورة، 2003، ج2، ص932.

(3) ابن الآبار، الحلة والسيرة، ص257؛ ابن عذاري، ج2، ص215؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص511.

للخلافة، كان الناس يترقبون الحال وكانت لهم آمنيات. فأصحاب النفوذ؛ الحاجب عثمان المصحفي وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر والوزراء كانوا يرون أن يتولى ولي العهد هشام الخلافة لضمان استمرار نفوذهم واتساع مصالحهم، وقوة أخرى في القصر مثلها فتیان القصر من الصقالبة والجند كانوا يرون أن يكون الخليفة مكتمل الصفات والرجولة وهذا لا يتوفر في ولي العهد هشام الثاني. ولذلك لما توفي الخليفة الحكم المستنصر بالله، حرص خادماه فائق وجؤذر على كتمان خبر موته، واتفقا على عقد البيعة لأخيه المغيرة⁽¹⁾.

واضح من هذا كله أن بادر الحاجب المصحفي بإرسال محمد بن أبي عامر إلى دار المغيرة لقتله مع فائقة من الجند، عندما وصلوا إليه لم يكن يعلم من أمر الخليفة الحكم شيء، وأعلموه بخبر جلوس ابن أخيه الخليفة هشام للخلافة، فقال: [أعلمهم أي سامع مطيع واف بيعته، فتوثقوا مني كيف شئتم!]⁽²⁾.

يتضح من نصوص أخبار الأحداث التي أعقبت وفاه الخليفة الحكم الثاني، أن الحاجب المصحفي كان يخشى من المغيرة وتأنيب محمد بن أبي عامر على تأخير قتله، وبذلك ذهب هذا الأخير ضحية الصراع على النفوذ بالقصر، وبذلك استطاع الحاجب جعفر المصحفي وصاحب الشرطة الوسطى محمد بن أبي عامر ضمان تولى سلطات الخلافة باسم الخليفة الصبي الذي لم يكن له من الأمر شيء⁽³⁾. وهنا بدأ تأويل مرحلة من مراحل الدولة العامرية في ظل الخلافة الأموية⁽⁴⁾.

كما مكر محمد بن أبي عامر بالحاجب جعفر المصحفي وسجنه، وكان ذلك سنة 367هـ / 977م، وطالبه بالأموال، وقد استمرت نكبه الحاجب المصحفي سنوات، ومن أجل

⁽¹⁾ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 103؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 261؛ النويري، نهاية الأرب، ج23، ص 402 .

⁽²⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 261 .

⁽³⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 251؛ عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 520 .

⁽⁴⁾ ذكر بلاد الأندلس لمجهول، ص 176، 178؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص 200، ابن عذاري، ج2، ص 258 .

التفرد بالسلطة استطاع الوزير محمد بن أبي عامر القضاء على آخر منافسية الحاجب غالب صهره وحليفه بالأمس، ثم استعان عليه بجعفر بن حمدون وقتل بعضهم ببعض⁽¹⁾.

لقد عزم محمد بن أبي عامر أن يجعل أصناف جيشه من مكونات مختلفة حتى إذا همت طائفة بالخروج عليه استطاع أن يقضي عليها بغيرها وقد زاد في عهده عبور البربر من العودة إلى الأندلس بدوافع سياسية واقتصادية لما كانت تمر به المغرب من ضيق اقتصاديا حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس عددا وقوة⁽²⁾.

وتأكيدا لسياسته الداعية إلى المحافظة على سلطانه قام سنة 381هـ / 998م بترشيح ولده عبد الملك لولاية الحجابة من بعده، وشرح أخاه عبد الرحمن⁽³⁾ للوزارة⁽⁴⁾.

ومن شدة خشية المنصور على سلطانه كان يفرط بالسهر في تفقد شؤون دولته ورعيته. ولما سأله أحد فتيانه عن السهر وما قد يجره عليه، أجابه: [يا شعله إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة]⁽⁵⁾.

توفي المنصور سنة 392هـ / 1001م وهو في طريق الغزو إلى مدينة سالم⁽⁶⁾، ودفن في موضع وفاته في مدينة سالم، وقد دامت دولته ستة وعشرين سنة، وقد كان مولده سنة 367هـ / 938م، في الجزيرة الخضراء⁽⁷⁾.

(1) ابن عذاري، نفسه، ج2، ص 267؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 189، المقرئ، فتح الطيب، ج3، ص90.

(2) ابن بلقين، التبيان، ص 16؛ ابن عذاري، نفسه، ج2، ص 279، دوزي، المسلمون في الأندلس، ج2، ص 113؛ سالم عبد العزيز، قرطبة حاضره الخلافة في الأندلس، الإسكندرية، 1979م.

(3) الضبي، بغية الملتبس، ص 356؛ المراكشي، المعجب، ص 39؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص9.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 292.

(5) ابن عذاري، نفسه، ج2، ص 298.

(6) مدينه سالم (Medinaceli) وهي قاعده الثغر الاوسط، والتي اعيد بناؤها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 335هـ، وقد قام بتكليف غالب مولاة في مشروع بنائها. ينظر: ابن عذاري، نفسه، ج2، ص 214، عنان، دولة الاسلام في الاندلس، ج2، ص 256.

(7) ابن بسام، الذخيرة، ج7، ص73؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج4، ص 249؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 201؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 301.

تولى الحجابة بعد وفاه المنصور ولده عبد الملك، وتسمى بالمظفر، وسار على نهج سياسة والده في الحجر على الخليفة هشام، والتلقب بالألقاب الملوكية⁽¹⁾.

ثم تولى عبد الرحمن ابن المنصور محمد بن أبي عامر الحجابة إثر وفاه أخيه المظفر، وبعد شهر ونصف فقط من ولايته لمنصب الحجابة دعتة نفسه بطلب ولاية العهد من الخليفة هشام، فوافق الخليفة المغلوب على أمره على طلبه لضعف عقله وسوء نظره⁽²⁾.

كان لسياسة هذا الأخير _ أي عبد الرحمن شنجول-الرغناء أكبر الأثر في تصدع وانفراط عقد الأندلس، انتهت بقيام محمد بن هشام⁽³⁾ بالثورة على الحاجب عبد الرحمن شنجول بعد أشهر قليلة من توليه سنة 399هـ / 1008م وانتهت باسترجاع الأمويين لنفوذهم القديم⁽⁴⁾.

ومما يؤسف عليه أن هذه الثورة أصبحت شرا على الأندلس، حيث حركت التناقضات المتراكمة والمشاكل العميقة في مجتمع قرطبة، فتحوّلت إلى نزاعات وحروب أهلية، كانت كل الأطراف خاسرة فيها⁽⁵⁾.

كانت العامة، التي ساءت أحوالها المعيشية، أكثر الناس تأييدا لمحمد بن هشام في قيامه على شنجول وعلى الخليفة هشام، لذلك فقد توجهت جموعهم الغاضبة بسبب سوء أحوالهم في ظل الدولة العامرية، إلى مدينة الزاهرة فانتهبوها باعتبارها رمزا للأسرة العامرية، وتفردتها بالسلطة والجاه والمال⁽⁶⁾.

(1) ابن عذاري، ج2، ص3؛ عنان، دولة الاسلام، ج2، ص256.

(2) ابن عذاري، ج3، ص38، 42، دوزي، المسلمون في الأندلس، ج2، ص162؛ احمد بن سوده، المغرب والأندلس، ص210.

(3) محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الداخل الأموي، لقب بالمهدي، تولى امر قرطبة بعد الخليفة هشام المؤيد الى غايه مقتله سنة 400هـ. ينظر: المراكشي، المعجب، ص390؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج12، ص551؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص366.

(4) الضبي، بغية المتتمس، ص44؛ ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص69، 97؛ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص424؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص210.

(5) عبد العزيز سالم، قرطبة حاضره الخلافة، ج1، ص85.

(6) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص200؛ المراكشي، المعجب، ص39؛ عنان، دولة الاسلام، ج2، ص634.

إن المتتبع لأحداث الأندلس السياسية الممتدة من سنة 399هـ إلى سنة 422هـ، يلمس أن الذين شاركوا فيها سواء من بني أمية أو من أسرة بني حمود لم تكن لهم مواقف تذكر، ولا يهمننا هنا السرد التاريخي للأحداث التي شهدتها الأندلس، وإنما نريد الوقوف على الأخطاء السياسية التي ارتكبتها الخلفاء الأمويون والخلفاء الحموديون على حد سواء.

فقد وصلت الحال بقرطبة أن يقتل كل من يشك به أنه من البربر. نقل ابن عذاري ما يدل على هذا فقال: [واشتعلت الفتنة بقرطبة بين البربر والعامّة وأمر ابن عبد الجبار أن ينادي في الناس من أتى برأس بربري فله كذا فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، ...، ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبي نساؤهم وباعوهن في دار النار وقتلوا النساء الحوامل] (1).

إن التزاع والفوضى التي مرت بها قرطبة في فترة الفتنة، كان التزاع القبلي حاضرا فيها، وفيما يبدو أن عدااء الأندلسيين من أهل قرطبة للبربر أصبح عدااء متمكنا، وقد يئس الناس في قرطبة من صلاح الحال إلا بعوده الخليفة المخلوع هشام المؤيد، ظنا منهم أنه سيعيد أجماد الخلافة التي انتزعت منذ أيام المنصور محمد بن أبي عامر، وأخرج الناس ابن عبد الجبار وأحضره عند الخليفة هشام المؤيد فقال له: [يا كلب السوء ستري (وستر) المسلمين، وأهّيت أموالهم وأموالهم] (2).

ولشده الانحطاط الأخلاقي الذي وصل إليه بعض أهل قرطبة، ذكر لنا ابن عذاري عن لسان ابن مامة (3) قوله: [كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم، ... وأما الدين فان أصحابي هؤلاء يعني النصارى

(1) البيان المغرب، ج3، ص81 .

(2) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص200 .

(3) ابن مامة: هو شاذنج بن غرسية بن فردناند قومن قشتالة الذي أطلقت عليه بعض المصادر التاريخية الإسلامية اسم ابن مامة النصراني، وقد استعان به سليمان المستعين سنة 399هـ/1009م. ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص86؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص113؛ الخلف، نظم حكم الأمويين، ج1، ص93 .

يغيرون ويسرقون بغير أمر ثم يأتي أهل قرطبة فيشترون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين ... فليس في القوم عقل ولا شجاعة ولا دين⁽¹⁾.

إن جميع الخلفاء الذين تولوا الخلافة في قرطبة أثناء الفتنة، أضاعوا هيبة الخلافة بسبب سوء سياستهم. فلم يكونوا سوى خلفاء بالاسم فقط، ويؤكد ذلك ما ذكرنا طرفا من سيرهم، بالإضافة لما أورده ابن حيان في مدة خلافة الخليفة المستظهر بقوله: [سبعة وأربعين يوما، لم تنشر له فيها طاعة، ولا التأمت عليه جماعه ولا تجاوزت دعوته قرطبة]⁽²⁾.

إذن لا تقتصر أهمية كتاب الرقيق على النسبة إلى تاريخ شمال افريقية فحسب، بل تمتد هذه الأهمية لتشمل تاريخ الأندلس-أيضا-وفيما يبدو أن الرقيق قد أشار في كتابه إلى أحداث معاصرة له وقعت في الأندلس، ولا سيما بعد وفاة الحاجب المنصور. وابنه عبد الملك المظفر. ونحسب أن مؤرخنا قد اطلع على هذه الروايات ونقلها في البيان المغرب، حيث أسدى خدمة كبيرة لتاريخ الأندلس، لأهمية هذه الروايات ومعاصرتها للأحداث، واعتمادها خاصة على شهود العيان، إذ يذكر عن الرقيق معلومات عن تصرفات عبد الرحمن بن أبي عامر، المعروف بشنجول، بعد استقلاله بالسلطة⁽³⁾.

كما ينقل ابن عذاري إضافة إلى هذا روايات أخرى عن أحداث وقعت في عهد عبد الرحمن ابن أبي عامر، محمد بن هشام بن عبد الجبار، الذي خلع هشام الثاني ابن الحكم المستنصر، وسليمان بن الحكم، إلى (سنة 406هـ / 1015م)⁽⁴⁾.

ولهذه المعلومات أهمية كبيرة، لأن الرقيق يوثقها بشهود العيان الذين عايشوا الأحداث المؤلمة التي وقعت في الأندلس في أعقاب تدهور الخلافة الأموية، ونقلوها إلى شمال افريقية⁽⁵⁾.

(1) البيان المغرب، ج3، ص90.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ج1، ص55.

(3) البيان المغرب، المصدر نفسه، ج3، ص47.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص67، 70، 72، 73، 75، 77، 78، 84، 92، 97، 102، 103، 105، 117، 116.

(5) ابن عذاري، ج2، ص24.

-وذكر في آخر (سنة 538هـ / 1143م) قام تاشفين بن علي بن يوسف بتميز العساكر والحشود والجنود والوفود، فتميزوا وبرزوا وأعجب الناس من كثرة عددهم وعدتهم واحتفالهم بالزينة حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجموع حسنا وجمالا وعدة كمالا، ثم علق ابن عذاري بقوله: [وما من شيء كمل إلا ودنا نقصه]⁽¹⁾.

ومن ضمن الاحتفالات العامة العروض العسكرية التي يقيمها المرابطون سواء كانت استعدادا لحملة عسكرية، أو خروج ولي الأمر على رأس جنوده إلى معركة من المعارك وهذا كما يوضحه المراكشي في قوله: [ثم إن يوسف استعرض جنده على حصن الرقة فرأى ما يسره]⁽²⁾.

كما استعرض [حفيدة تاشفين ابن علي عسكريه سنة 538هـ / 1143م]⁽³⁾، قبل أن يخوض

حربه ضد الموحدين، وهذا ما أشار إليه صاحب الحلل الموشية في قوله: [وأمر أي يوسف بن تاشفين يعرض الجيوش وسائر الوفود والجنود والتسيير عليهم، فعجب أناس من كثرة عددهم وعددهم واحتفالهم في الزينة حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا وجمالا وعدة وكمالا...، وكان ذلك آخر جيش احتفل فيه المرابطون]⁽⁴⁾.

وتتم تلك الاستعراضات برفع الجند للرايات والأعلام والبنود المختلفة الألوان مع قرع الطبول⁽⁵⁾، ومما يلحق بتلك المواكب العسكرية احتفالات النصر بمعركة من المعارك أو ما يعرف بمراسم النصر احتفاءً بانتصار جيوشهم وإعلان ذلك للعامة، وتتجلى مظاهر تلك الاحتفالات بقرع الطبول في المدن التي يتم فتحها إيذانا بالنصر وإعلانا لسلطانهم حلها، ومن

(1) المصدر نفسه، ج5، ص20.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص94.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص94.

(4) مجهول، الحلل الموشية، ص31.

(5) ابن الخطيب، الإحاطة في اخبار غرناطة، ج1، ص252.

مظاهر الاحتفال -أيضا- صلاة الشكر وإخراج الناس الصدقات، وعتق الرقاب شكرا لله تعالى على صنيعه الجميل وفضله⁽¹⁾. ناهيك عما يقيمونه من احتفالات خصوصا إذا ما كان القتيل قائدا، فحسبنا أن ما أدم عليه المرابطين عقب النصر الذي أحرزه [نيتان]⁽²⁾ بن علي سنة 534هـ / 1129م على الروم، حيث يتضح لنا جليا من قول ابن عذاري [وسبق رأس زعيمهم Gaston Del Bearne إلى غرناطة، فنصب على ذروة رمح، وطيف به في الأسواق وشهر يضرب الطبول]⁽³⁾.

كما تمدنا بعض المصادر معلومات عن اهتمام المرابطين بالخيال وركوبه، وحسبنا في ذلك أن الأمير تاشفين بن علي كانت نهايته من على فرسه المسماة عنده ريجانة المشهورة بالسبق، بعد أن هوت به من على حافة⁽⁴⁾.

ومما يؤسف عليه أن المرابطين في بداية دعوتهم قد حاربوا وسائل اللهو، وفي هذا الصدد يقول ابن أبي زرع عن يوسف بن تاشفين لما قدم إلى سجلماسة: [فأقام بها حتى هدنها وأصلح أحوالها وغير ما وجد فيها من المنكرات، وقطع المزامير، وأحرق الديار التي كانت بها بيع الخمر]⁽⁵⁾، وكان عبد الله بن ياسين قد اتبع في ذلك التعاليم الدينية التي كان يدعو إليها بنفسه، إلا أن حدة تلك الشدة التي ظهرت في بداية أيام الدولة المرابطية أخذت تحتفي بعد ذلك، وربما ذلك مرتبط بألوان الترف خصوصا بعد احتكاكهم بالأندلسيين واطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية، مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة التي كان يجيها أبناء الأندلس⁽⁶⁾. كما ذكر في خبر الإيقاع بعبد السلام الكومي في وزارته لعبد المؤمن بن علي قال: [واستفرد

(1) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ص 94 .

(2) أشهر أبناء علي بن يوسف بن تاشفين، ولي علي بلنسية بعد وفاه محمد بن يوسف؛ ينظر، ابن عذاري، المصدر السابق، ج 5، ص 81 .

(3) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 5، ص 81 .

(4) الحلل الموشية مجهول. ص 133 .

(5) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج 4، ص 128 .

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 57 .

عبد السلام بجميع الغنائم والأموال والإنكار لها والكتمان كما نسب هو لابن عطية الباطل والبهتان وكما تدين تدان⁽¹⁾.

لقد اثبت الوزير ابن عطية انه صاحب كفاءة ومقدرة، ومارس دوره أيام الخليفة عبد المؤمن بن علي باعتباره وزيرا مفوضا، وصف ابن الخطيب وزارته بأنها كانت: [زينا للوقت وكمالا للدولة]⁽²⁾.

كان هذا النجاح سببا في حسد الحاسدين، الذين انتهزوا فرصة ذهابه إلى الأندلس لمعالجة بعض الأمور للتدبير والسعي به⁽³⁾، وقالوا ما شاءوا فيه، وبهذا يقول ابن عذاري: [كان أبو جعفر -ابن عطية- لما غاب هذه الغيبة تمكن أعداؤه منه وقالوا ما شاءوا عنه من قبيح المطالبة وصريح المكاتبة فلما وصل الحضرة (مراكش) وجد حاله قد تغير والمطالبة من جانبه قد أثرت وعبد السلام الكومي استكففا بالحال وانتفى سيفه لمطالبته بأعظم نصال]⁽⁴⁾.

فقد كان الأخير كثير السعاية به شديد الحسد لما وصل إليه ابن عطية من مكانة مرموقة وجاه عريض في الدولة، حتى أصبح لا يطيق الصبر عليه ولا إمهاله فيما وصل إليه⁽⁵⁾.

وفي ذلك يقول ابن خلدون في حق الوزير جعفر ابن عطية: [وبعد في الدولة صيته وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها، ونال من الرتبة عند السلطان ما لم يناله أحد في دولته إلى أن ذهب السعاية إلى جهاده الوتير فكان فيها حتفه...]⁽⁶⁾، فكان هذا سببا للإيقاع بابن عطية على الرغم من أن الدولة الموحدية لازالت في بداية نشأتها.

(1) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج5، ص67.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص128؛ الناصري، الاستقصاء، ج2، ص131؛ المراكشي الأعلام، ج1، ص221.

(3) ابن الخطيب، نفسه، ج1، ص129؛ الناصري، الاستقصاء، ج2، ص131 132، المراكشي، المصدر السابق ج1، ص221.

(4) البيان المغرب، ج5، ص35.

(5) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص238.

(6) ابن خلدون، العبر، ج6، ص275؛ وينظر: عقيلة الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص72.

ومن الأمور التي أخذت على الوزير ابن عطية صلته القديمة بدولة المرابطين واصطناع العدو الكثير من اللمتونيين المؤيدين لهم⁽¹⁾، حتى أنه تزوج الأميرة بنت الصحراوية حفيدة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين⁽²⁾، وبذلك يقول عبد الواحد المراكشي: [كان سبب قتله في ما بلغني أنه كانت عنده بنت أبي بكر يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية وأخوها فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف - أيضا - بيحيى بن الصحراوية]⁽³⁾.

كما يضيف عبد الواحد المراكشي - أيضا- أن مما زاد في موقف أبي جعفر أحمد بن عطية سوءا أن الخليفة عبد المؤمن بن علي أفضى إليه بسر أفشاه، وهو ما نصح أخوا زوجته يحيى بن أبي بكر ابن الصحراوية بعدم مقابله الخليفة لعلمه بسخطه عليه، فلقد كان يحيى ابن الصحراوية ذا مكانة رفيعة عند الموحدين، فلم يزل وجيها عندهم مكرما لديهم إلى أن نقلت عنه إلى الخليفة عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أسخطت الخليفة عليه، وقد تحدث الأخير ببعض ذلك في مجلسه وربما زاد القبض على يحيى ابن الصحراوية، فرأى الوزير ابن عطية أن يجمع بين الطرفين من نصح خليفته، وتحذيره صهره⁽⁴⁾.

وحتى لا نطيل في سرد كل الحادثة التاريخية، ولعل الوزير ابن عطية كان يعلم وشايا الحساد والساعين به فضلا عن دسائسهم، فقد كان يتغافل ويتهاون بأمرهم لمكانته عند الخليفة عبد المؤمن بن علي حتى أصابه صرف الزمان وحل به الحدثان.

من هذه الأسباب وغيرها وجد أعداؤه السبيل لذلك، وبدأت خططهم لاستئصال شأفة الوزير ابن عطية ومن الأشعار التي حرّضت عليه ما قال مروان ابن عبد الله ابن مروان (ت):

⁽¹⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 129؛ عباس المراكشي، الأعلام، ج1، ص 221؛ عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص323.

⁽²⁾ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 199؛ عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج1، ص 349؛ احمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص160.

⁽³⁾ المعجب، ص 199.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص199.

578هـ / 1182م) بحضرة الخليفة عبد المؤمن بن علي تثير بعض الشكوك حول موقف البربر ابن عطية وصلته بالمرابطين:

قل للإمام أطل الله مدته	قولا تبين لدى لب حقائقه
إن الزراجين ⁽¹⁾ قوم قد وترهم	وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم سبيل	لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء ثأرهم	ربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم	فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أي ناصح لكم	والحق أبلج لا تخفى طرائقه ⁽²⁾ .

ولما وقف الخليفة عبد المؤمن بن علي على هذه الأبيات البليغة في معناها، حتى أوغر صدره عليه وضم له في نفسه تغييرا⁽³⁾. فاستوزر عبد السلام ابن محمد الكومي عام (530هـ / 1135م)، وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد في التماس عوراته وتتبع سقطاته⁽⁴⁾، وانتهى ذلك كله إلى الوزير ابن عطية وهو بالأندلس، فأصابه قلق وعجل بالانصراف إلى مراكش، فحجب عند عودته، ثم قيد إلى المسجد في اليوم التالي حاسر الرأس، واحضر الخليفة عبد المؤمن بن علي الناس على اختلاف طبقاتهم لإبداء رأيهم في الوزير بن عطية، بما يعلمون من أمره، فأجاب كل بما اقتضاه هواه⁽⁵⁾ باستثناء ابن وزير الذي دافع عنه⁽⁶⁾ فأمر الخليفة بسجنه وأخاه أبا عقيل بن عطية معه⁽⁷⁾.

⁽¹⁾الزراجين: أوالزراجية: اسم يدل على المرابطين استعمله بعض كتاب الموحدين والزراجين جمع زرجان، وهو طائر اسود البطن ابيض الريش، وقد شبه الزعيم الروحي للموحدين محمد بن تومرت به المرابطين لأنهم حسب زعمه بيض الثياب سود القلوب. ينظر: ابن القطان، نظم الحمان، ج6، ص 185، الحلة السيرة، ج2، ص 226، 'هامش2'.

⁽²⁾ابن الآبار، ج2، ص 226/ ج5، ص 36؛ حسن علي، الحضارة الإسلامية، ص 108 .

⁽³⁾ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 131؛ المقري، نفع الطيب، ج6، ص 155؛ الناصري، الاستقصاء، ج2، ص 132 .

⁽⁴⁾ابن الخطيب، حاطه، ج1، ص 131؛ الناصري، الاستقصاء، ج2، ص 132 .

⁽⁵⁾ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص 35؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 130 .

⁽⁶⁾ابن عذاري، نفسه، ج5، ص 35؛ لم تذكر المصادر اسمه.

⁽⁷⁾ابن الآبار، الحلة السيرة، ج2، ص 238، ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 130؛ عباس المراكشي، الإعلام، ج1، ص 218 .

لقد كتب ابن عطية في السجن رسالة إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي يستعطفه ويطلب عفوه ويبلغه أن صدره قد وعز عليه ودفع هذه الرسالة إلى الوزير عبد السلام الكومي الذي حجبها عن الخليفة⁽¹⁾. وحتى لا نفسح المجال لسرد مضمون الرسالة، نؤكد أن الوزير عبد السلام الكومي أدى دورا كبيرا في نكبة ومقتل الوزير ابن عطية عندما احتجب الرسالة التي بعث بها ابن عطية إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي، فلو وقعت هذه الرسالة تحت أنظار الخليفة عبد المؤمن بن علي لكان هناك ربما كلام آخر سوف يذكره التاريخ لإنصافه.

أما الوزير عبد السلام بن محمد الكومي، الذي تولى الوزارة بعد مقتل الوزير ابن عطية بحدود عام (553هـ / 1158م)⁽²⁾، فقد لقي المصير نفسه الذي لقيه ابن عطية، على الرغم مما كانت تربطه بالخليفة عبد المؤمن بن علي من صلة القرابة، حتى انه كان يدعى بالمقرب لشدة ارتباطه بالخليفة⁽³⁾.

ويبدو انه اعتمد على هذه المتزلة الرفيعة في تصرفاته، حيث انه استبد بعمله واستأثر بالسلطة حتى وصف بأنه كان كثير السعاية بالوزير السابق ابن عطية، شديد الحسد له، ولا يطبق الصبر عليه ولا امهاله⁽⁴⁾، لكنه لم ينج من مكائد غيره، والظاهر انه لم يستطع أن يكسب ود الأهواء المختلفة، ورضا اغلب الموحدين، بل تبين لنا بعض الروايات التاريخية مدى الاستبداد والانفراد بالسلطة والاستئثار بالخليفة دون أولاده واستعلائه وتقصيره تجاههم⁽⁵⁾.

وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: [وطال السادات وضايقتهم ونسب إليهم عند أبيهم فضائح الأفعال من الراحة والبطالات بالنهار وطول الليل، وقد كان قد بما ... يقصر معهم

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص37.

(2) البيهقي، أخبار المهدي، ص147؛ ابن القطان، المصدر السابق، ج6، ص147 'هامش1'، ابن الآبار، الحلة السيرة، ج2، ص238.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص198؛ ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، ص238؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص128.

(4) ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، ص238.

(5) ابن عذاري، ج5، ص43.

ويسيء العشرة معهم، فرفع إلى أمير المؤمنين أنهم يشربون الخمر المحرمة، وقرر ذلك وكرر المطالبة لهم هنالك⁽¹⁾.

للأسف لم تظهر لنا المصادر التاريخية سبب هذا الجفاء من الوزير عبد السلام الكومي اتجاه أولاد الخليفة عبد المؤمن، وحتى مؤرخنا ابن عذاري لم يذكر ذلك، لكن وكما يبدو أن أولاد الخليفة كانوا يقظين تجاه نوايا هذا الوزير ومحاولاته الاستئثار بالسلطة، الأمر الذي دعاهم إلى تنبيه الخليفة إلى ذلك، فكان إذن موقف الوزير عبد السلام الكومي سلبيا تجاههم.

حتى أن الخليفة عبد المؤمن بن علي حاول التأكد من حقيقة الأمر فبعث بعض شيوخ الموحدين لمفاجأة أبنائه فقام أولئك الشيوخ بآداء مهمتهم، وأثبتوا له براءة أبنائه مما نسب إليهم⁽²⁾.

وبذلك وكما أن من أسباب نكبه الوزير عبد السلام الكومي إرسال الخليفة عبد المؤمن بن علي على رأس حملة عسكرية إلى قابس من بلاد افريقية، فاستأثر بأموال الغنائم، وفي ذلك يقول ابن عذاري على لسان ابن صاحب الصلاة: [واستبد عبد السلام الكومي بجميع الغنائم والأموال وتتقبل ما شاء من الأنفال، ولم يعلم بما فتح الله من الآمال، وأذل بقرابته ووزارته غاية الإذلال، نسب إليه في الأموال والاحتجان والإنكار والكتمان]⁽³⁾.

يمكن القول أن استغلال الوزير من قرابته من الخليفة في التعالي على أبناء الخليفة، مع الاستئثار بالأموال واستغلاله لمنصبه في تعيين من شاء من أصحابه، ورضاه عن ظلمهم والتستر عن أخطائهم.

وقد تجمعت هذه الأخطاء والسقطات لدى الخليفة عبد المؤمن بن علي، فأمر بجمع المشتكين وبحضور شيوخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضي لسماع أقوالهم⁽⁴⁾، حتى إذا انتهى

⁽¹⁾ تاريخ المن بالإمامة، ص 171.

⁽²⁾ ابن صاحب الصلاة، ص 171؛ ابن عذاري، ج 5، ص 44.

⁽³⁾ ابن عذاري، نفسه، ج 5، ص 67 [نقلا عن ابن صاحب الصلاة].

⁽⁴⁾ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 174.

المشتكون في أقوالهم تغير وجه الخليفة الذي قال متأثراً: [عجبا في هذا الأمر وسعته وقلة ما عندنا من المال على كثرة جمعه، كانت لمتونه إنما يمتلكون إلى تلمسان هذه وأنهم كانوا ينصفون أجنادهم، ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائدا وليس عندنا ما نعطي الموحدين من أعجب العجب]⁽¹⁾. وكان الوزير عبد السلام الكومي واقفا يسمع كلامه، فأمر بالقبض على وزيره وإيداعه في سجن تلمسان⁽²⁾، فمات في ليلته مسموما⁽³⁾.

ومنه - أيضا- وصف بلاد الأندلس واخذ النصارى لقرطبة قال: [وفي سنة 633هـ كان دخول النصارى مدينة قرطبة أعادها الله للإسلام ونزل أذفونش أخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها وضيق عليها وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها وهذا من اجل مصاب وأعظمه، ولكن الرضى بما قدره الله وحكم، إذ هي أم المدائن، وقررة عين الوارد والقاطن، فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي، وتشهد له الجبال الرواسي، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان أول أخذ العدو - قصمه الله- شريقها ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث والعشرين لشوال من السنة فكان بين الحادث في طليطلة والحادث في قرطبة مائة سنة وست وخمسون سنة]⁽⁴⁾.

لقد كانت هزيمة الموحدين سنة 609هـ بالأندلس في معركة العقاب إيذانا باختيار الأندلس. وفي (سنة 633هـ / 1236م) وبعد حصار طال عدة شهور، وبعد استغاثة ابن هود الذي كان قد استقل بدولته جنوب وشرق الأندلس، والذي حسب الروايات التاريخية لم يعر اهتماما لهذه الاستغاثات؛ بسبب كونه منشغلا بحرب ابن الأحمر، ذلك الأخير الذي قد استقل -أيضا- بجزء آخر من بلاد الأندلس وفي كل هذه الظروف سقطت قرطبة في 23 من شهر

(1) المصدر نفسه، ص 174 175؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 5، ص 44 .

(2) الليثي، المصدر السابق، ص 147؛ ابن الأبار، الحلة السرياء، ج 2، ص 239؛ الناصري، المصدر السابق، ج 2، ص 141 .

(3) الليثي، المصدر نفسه، ص 147؛ ابن ابي زرع؛ المصدر السابق، ص 130، الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 76 .

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 5، ص 331 .

شوال لسنة 633 هـ ما يوافق 29 جوان سنة 1236 م⁽¹⁾، وفي يوم سقوط قرطبة تحول مسجدها الجامع الكبير الى كنيسة، ومازال كنيسة إلى يومنا هذا⁽²⁾.

وفي أوائل (سنة 1236م أواخر ربيع الثاني سنة 633هـ) خرجت جماعة من الفرسان القشتالين وهم من أهل الحدود المغاورين المحترفين، ومعظمهم من منطقتهم اندوجر الواقعة شرقي قرطبة، وساروا صوب قرطبة، فاشرفوا عليها حينما دخل الليل، وكانت مدينة قرطبة في ذلك الوقت تنقسم إلى خمس مناطق أو أحياء متعاقبة، وبين كل منطقتهم وأخرى، سور فاصل⁽³⁾. وكانت المنطقة الأولى الواقعة شرقي قرطبة، تعرف بالريش الشرقي أو (الشرقية) وتجتمع باقي المناطق فيما يسمى ب (المدينة)، وهي تقع غربي (الشرقية)، وكلاهما الشرقية والمدينة، تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير.

فلما وصل الفرسان القشتاليون وهم فئة قليلة، لا تحدد لنا الرواية عددها، وربما كانت تضم بضع عشرات -إلى مشارف الشرقية وضعوا في الحال خطة اقتحامها، وهنا تختلف الرواية في شأن الخطة التي تم بها هذا الاقتحام -ففي رواية ألفونسو الحكيم أن الفرسان القشتاليين أسروا بعض المسلمين من الساحطين على زعمائهم، وعلموا منهم أن المدينة محروسة بشدة، واتفقوا معهم على إحداث شغب في سور الشرقية، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يقتحموا السور، وان يستولوا على الأبراج في ليلة حالكة عاتية الريح⁽⁴⁾.

وتحمل الرواية الإسلامية، ذلك العدوان المفاجئ في قوله: [وفيها -أي في سنة 633 هـ- غدر النصارى شرقي قرطبة، وذلك في ثالث شوال، غيشا في غفلة السحار، وسلم الله عز وجل النساء والذراري حتى لحقوا بالغربية، وبقي الناس معهم في قتال شديد]⁽⁵⁾.

(1) ابن الآبار، التكملة، ص202 .

(2) محمد عبد الله عنان، دوله الإسلام في الأندلس، ج4، ص410 .

(3) الحميري، الروض المعطار، ص153 .

(4) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج4، ص418 .

(5) هذه رواية روض القرطاس، ص183 .

ووصل نداء القشتاليين إلى إخوانهم على الحدود بسرعة، وفي الحال هرع قائدان اثنان من قادة الحدود، كل في قواته، وتبعهما أسقف بياسة مع رجاله، ثم أسقف قونقة في قواته، وسار في أثرهم آخرون. وما كادت هذه الأنباء تصل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة، وهو على مقربه من ليون، حتى اهتم لها أيما اهتمام. وكان ثمة من وزرائه ومستشاريه من يرى في الأمر كثيرا من الخطورة والتعقيد، فهو إذ يرتبط أولا مع ابن هود باتفاق الهدنة، وقرطبة تدين بطاعة ابن هود، وهي مدينة عظيمة، ولا يتأتى فتحها إلا بقوات ضخمة، ومن جهة أخرى فان ابن هود قد يضطر إلى إنجادهها بقواته، خصوصا أن قرطبة تعتبر في نظر المسلمين كبرى قواعد الأندلس، ولها في نفوسهم مكانة خاصة⁽¹⁾.

وهذا كله إلى ظروف الجو وقسوة الشتاء، وفيضان الأنهار، ولكن ملك قشتالة لم يلق بالا إلى شيء من هذه الاعتراضات، ولم يكن يرى بالأخص في مهاجمة قرطبة نقضا لعهوده مع ابن هود، إذ كان فريق من أهل المدينة هم الذين استدعوا النصارى، ومن ثم فقد بادر فرناندو الثالث من فورهِ بالمسير إلى الجنوب، ومعه قوة من مائة فارس فقط، وقصد من فورهِ إلى قرطبة. فوصل إليها في اليوم السابع من فبراير، واضطرت الحشود النصرانية المرابطة تحت أسوار المدينة حماسا من مقدمه، وكانت تتضخم كل يوم. بمن يفد إليها من حشود قشتالة وليون، ومن فرسان الجماعات الدينية المختلفة، ونصب ملك قشتالة محلته قبالة قنطره قرطبة التي تؤدي إلى طريق استجة، واخذ في الحال في وضع خطة للاستيلاء على المدينة⁽²⁾.

فمن هنا يحق لنا أن نتساءل ماذا كان موقف القرطبيين إزاء هذا الخطر الداهم؟ وماذا كان بالأخص موقف ابن هود؟ أما عن القرطبيين فليس ثمة شك في أنهم اعتزموا منذ اللحظة الأولى الدفاع عن مدينتهم وحاضرهم، حتى أنه كان من الواضح أنه تنقصهم القيادة الحازمة وكان ينقصهم بالأخص اجتماع الكلمة، وعلى أية حال، فان الرواية الأخيرة - أي

⁽¹⁾عنان، المرجع نفسه، ج4، ص420.

⁽²⁾ M. La Fuente: Historia General de Espana; T. IV. P. 43

الإسلامية- تذكر لنا أن أهل قرطبة لبثوا مع النصارى في قتال شديد⁽¹⁾ حيث لا تذكر لنا اسم الزعيم أو القائد الذي اجتمع حوله أهل قرطبة في تلك الآونة العصيبة، وإن كانت الرواية النصرانية تذكر لنا أنه كان يسمى أبا الحسن.

وأما عن ابن هود، الذي كان صاحب الولاية الشرعية على قرطبة، فقد كان من الطبيعي أن يتجه إليها القرطبيون لإنقاذهم والدفاع عن مدينتهم، فهو في الواقع كان قد هرع في قواته من قطاع مرسية حينما علم بالخطر الذي يحدق بعاصمة الخلافة القديمة، وكان في جيش قوي يبلغ نحو 35 ألف مقاتل، ومعه نحو مائتي فارس من المرتزقة النصارى، فسار مسرعا بقواته صوب قرطبة، وكان أهل قرطبة ينتظرونه بفارغ الصبر، حيث اشتبك مع النصارى في معركة فاصلة، حسب المصادر التاريخية، ولكنه لم يكن ثمة شك أن ابن هود اشتبك بجيشه مع القشتاليين إذ لحقت عليهم الهزيمة، وتركوا المدينة المحصورة وشأنها⁽²⁾. ذلك أن القشتاليين كانوا في قله من العدد، ولم يكن مع ملك قشتالة سوى نحو مائتي فارس من الأشراف، ولم تكن الحشود الواردة من مختلف أنحاء قشتالة، تؤلف قوة ذات شان، لكن الذي حدث هو أن ابن هود لبث جامدا في قواته. وهنا تختلف الرواية في إيضاح سبب هذا الجمود، فيقال طبعا قسوة الطقس، وهطول الأمطار وكذا نقص المؤن، مما جعلت ابن هود يتريث ويحجم عن الهجوم، كما وردت إلينا في تاريخ ألفونسو الحكيم قصة أخرى، مفادها أو خلاصتها أنه كان يوجد في جيش ابن هود فارس قشتالي منفي بأمر ملكه يدعى لورنسو خواريز كان ابن هود يقربه ويثق به ويعمل بنصحه، حيث لما نزل ابن هود وجيشه في استجة والعزم على مقاتلة القشتاليين، فكر هذا الفارس في استعادة رضى ملكه وذلك عن طريق تقديم خدمة عظيمة يؤديها إليه، وهو العمل على خدعة ابن هود ورده عن قتال القشتاليين، وإنقاذ أهل قرطبة، فتظاهر بأنه سوف يتسلل إلى المعسكر النصراني تحت جناح الليل ويقف على مبلغ عدده وعدته، وسار هذا الأخير

⁽¹⁾ روض القرطاس، ص 183 .

⁽²⁾ غنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج 4، ص 421 .

فعلا ليلا مع أصحابه إلى المعسكر النصراني، وتقدم بنفسه إلى خيمة الملك، وطلب مقابلته لأمر خطير، فاقتيد إليه، وكان الملك غاضبا عليه، فلما أن شرح له مهمته وأنه يريد أن يعمل على خدعة ابن هود، وتخوفه من قوة الجيش القشتالي وعدده، وردده عن مقاتلته، عفا عنه الملك، ووعده برعايته، وتفاهم الاثنان على ما يجب عمله. ثم عاد أدراجه ليحذر بشدة ابن هود على عدم المجازفة والاشتباك مع القشتاليين، لأنهم في جيش قوي، حسن الأهبة والعدد، فاستمع ابن هود إلى نصحه وقرر التخلي عن مشروعه في إنجاد أهل قرطبة والاشتباك مع القشتاليين⁽¹⁾.

إذن هذا ما تقرره الرواية النصرانية عن السبب في إحجام ابن هود عن إنجاد أهل قرطبة، وتزيد الرواية -أيضا- على ذلك، حيث أن ابن هود تلقى في اليوم التالي رسالة من صاحب بلنسية أبي جميل زيان يثبته فيها، بأن خايمي ملك أراغون يشتد في مضايقته وإرهاقه، ويطلب إليه الإنجاد والغوث، وأن ابن هود عمل بنصح المستشار المذكور سابقا فقرر السير إلى بلنسية، وقد كان يطمح إلى امتلاكها⁽²⁾، وأنه ترك قرطبة إلى مصيرها، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها، إلى أن يستطيع هو إنقاذها فيما بعد⁽³⁾.

مما لا شك فيه أن هذا النوع من الروايات النصرانية لا تلقي في نظرنا أي ضوء مقنع على تصرف ابن هود، ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية تكاد تلزم الصمت المطبق في هذا الموطن. فكل ما هناك أن صاحب روض القرطاس، يقدم إلينا خلال حديثه عن حوادث سنة 633هـ، وبعد ذكره لسقوط قرطبة، نصا موجزا يقول فيه: [وفيها -أي في سنة 633هـ- انعقد الصلح بين ملك قشتالة وابن هود لأربعة أعوام بأربع مائة ألف دينار في السنة]⁽⁴⁾.

ويبدو من هذا النص أن الهدنة، بين ابن هود وبين فرناندو الثالث، كانت قد انتهت أو انقطع سيرياتها، لتخلف ابن هود عن أداء الاتاوة المشروطة أو غير ذلك من الأسباب، وان

(1) نفسه، ج4، ص421.

(2) عنان، نفسه، ج4، ص422.

(3) روض القرطاس، ص183.

(4) عنان، المرجع السابق، ج4، ص423؛ روض القرطاس، ص183.

التخلي عن إيجاد قرطبة - ربما- كان ضمن شروط الهدنة الجديدة والتي يشير إليها صاحب روض القرطاس وهذا ما يمكن أن يستدل كذلك من سير الحوادث تحت أسوار المدينة المحصورة، ذلك أن فرناندو الثالث شدد في حصار قرطبة، وقطع كل علاقاتها من جهة البر، ومن جهة الوادي الكبير، حتى لا تستطيع أن تتلقى أية مؤونة أو إمداد من الخارج، وحتى لا يستطيع أن يدخلها أو يخرج منها احد. واستمر هذا الحصار المرهق دون هوادة، حتى نضبت موارد المدينة وأقواتها أو كادت.

بعد ذلك اضطر أهل المدينة إلى مفاوضة ملك قشتالة في التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ووافق ملك قشتالة على هذا الشرط، ولكن أهل قرطبة علموا عندئذ أن جيش القشتاليين تنقصه المؤن، وأنه يعاني -أيضا- من قلة الأقوات، فنكلوا عن توقيع عهد التسليم أملا في أن يضطر القشتاليون إلى رفع الحصار، وتنجوا المدينة من السقوط.

وعندئذ شعر ملك قشتالة أن لابن هود يدا في هذا التحول، فبعث في الحال إلى محمد بن الأحمر أمير جيان، وعقد معه عهدا جديدا بالتحالف، وقد كان ابن الأحمر بالرغم من عقد الهدنة مع ابن هود ما يزال هو خصمه ومنافسه في رئاسة الأندلس، وكان فوق ذلك خصيما لأهل قرطبة لأنهم طردوه من مدينتهم، وبعدها شعر أهل قرطبة بخسران قضيتهم وانهميار آمالهم وعادوا إلى المفاوضة في التسليم، على شروطهم السابقة، وكان قد مضى على الحصار بضعة أشهر⁽¹⁾.

إذن أضحى الموقف مستحيلا، خصوصا بعد أن نكل ابن هود عن إيجاد المدينة المحصورة وأحجم عن كل اشتباك مع القشتاليين، وكان بعض الغلاة من صحب ملك قشتالة من الأحرار والأشراف، يرون رفض التسليم واقتحام المدينة، وقتل كل أهلها المسلمين، ولكن هذا الأخير

(1) محمد عنان، دولة الاسلام في الأندلس، ج4، ص423.

ومعه فريق آخر من مستشاريه، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس، وتخريب المدينة، ومسجدها الأعظم، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها.

والظاهر -أيضا- أن ابن الأحمر، حليف ملك قشتالة أو تابعه، كان له يد في إقناعه بقبول التسليم، وتأمين أهل المدينة، وفي نفس الوقت عقدت بين ملك قشتالة، وابن هود هدنة جديدة لمدة ستة أعوام يلتزم فيها ابن هود بأن يدفع إتاوة قدرها اثنين وخمسين ألف مرافيدي على ثلاثة أقساط سنوية⁽¹⁾.

وهنا -أيضا- لا تقدم لنا الرواية الإسلامية، أية تفاصيل شافية عن تسليم قرطبة ودخول النصارى إليها، وذلك حسبما فعلت بالنسبة لسقوط بلنسية، فكل ما تذكره في هذا الشأن كلمات موجزه، مثل: [وتغلب عليها النصارى] أو [كان دخول النصارى مدينه قرطبة] أو [ملكها النصارى] أو ما شابه هذه العبارات من كلمات مقتضبة⁽²⁾.

وهنا -أيضا- يجب أن نعتمد في ذكر هذه التفاصيل على الرواية النصرانية، فانه ما كاد عهد التسليم يعقد بين أهل المدينة، وبين ملك قشتالة حتى ترك أهل قرطبة دورهم، وأوطانهم، وغادروا مدينتهم العزيزة حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم، وقد برح بهم الجوع والحزن، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الأخرى. وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة 633هـ الموافق ل 29 جوان سنة 1236م⁽³⁾، دخل الجند القشتاليون مدينه قرطبة، وفي الحال رفع الصليب على قمة صومعة جامعها الأعظم، ودخل أسقف أوسمة إلى الجامع، وحول في الحال إلى كنيسة؛ وفي اليوم التالي يوم الاثنين 30 جوان دخل في رونالدو الثالث ومن معه من

(1) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج4، ص424.

(2) ابن الآبار، التكملة، ص302؛ البيان المغرب، ج5، ص322؛ ابن خلدون، ج4، ص171؛ روض القرطاس، ص183؛ الحميري، الروض المعطار، ص158، المقرئ، نفع الطيب، ج2، ص585.

(3) ابن الآبار، التكملة، ص202.

الأشراف والكافة قرطبة ثم دخل الجامع، وهناك استقبله أساقفة أوسمة، وبياسة، وقونقه، وسائر رجال الدين⁽¹⁾.

وعن مقتل والي مالقة على يد ابن الأحمر وكذلك الشرف على بناء قلعة غرناطة، قال: [وسيق إليه واليها ابن زنون اشرسون فأذاقه من العذاب أمر ذوق، وكان قدمه عليها ابن هود ثم أعيد إليها بعد عذابه ونكاله فسجن بها واستصفت أحواله فذبح نفسه في سجنه نسأل الله العافية من شر هذه الدنيا ومنحها، وأول مشرف قتله في حمرانه إثر بنائه أبا محمد بن عروس مشرف ألمرية، ضربه بالسياط حتى وافته المنية، وذلك تحت الاصبحية. وكم من مشرف قتل بعده لم يحركه للإبقاء عليه ريح الأريحية عفا الله عنا وعن جميعهم بمنه]⁽²⁾.

من المؤكد أن بنو الأحمر أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، يقول القلقشندي في تأليفه: [لم أقف على نسبهم إليه، ويعرفون ببني نصر وكان كبيرهم آخر دوله الموحدين الشيخ أبو دبوس محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر وأخوه إسماعيل وكان لهما وجاهة ورياسة في تلك الناحية].

ولما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، واستقل بالأمر محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية وقام بالدعوة للدولة العباسية بالأندلس، وتغلب على جميع مشرق الأندلس، فثار محمد بن يوسف بن نصر جد بني الأحمر على محمد بن يوسف بن هود، وبويع سنة 629هـ على الدعاء للأمير أبي زكريا يحيى صاحب افريقية بقيه الموحدين وأطاعته جيان وشريش في السنة الثانية من مبايعته، ثم بايع لابن هود سنة 631هـ عند وصول تقليد الخليفة من بغداد لابن هود، ثم تغلب على اشبيلية سنة 632هـ، واستعيدت منه بعد شهر، ورجعت لابن هود، ثم تغلب على غرناطة سنة 635هـ، وبايعوه وهو بجيان، فقدم إليها ونزلها، وابتنى بها حصن الحمراء منزلاً له وهو المعبر

(1) عبد الله عنان، المرجع السابق، ج4، ص424.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج5، ص306.

عنه بالقصبة الحمراء وهي القلعة، ثم تغلب على مالقة، وأخذها من يد عبد الله بن زنون الثائر بها بعد⁽¹⁾.

ومما نستشفه حسب النص، وحسب ما تم الاطلاع عليه في المصادر التاريخية أن هذا الحدث لم يلق الاهتمام الأوسع عند المؤرخين، سوى الانشغال بالمعالم والأحداث الكبرى نظرا لتسارع الأحداث وتشابكها، فكان هذا الحدث إذا مرور الكرام.

قال ابن سعيد: [ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له (ارجونة)، ويعرف الرجل بابن الأحمر، كان يكثر مغاورة العدو في حصنه، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة إلى أن طار اسمه في الأندلس. وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم، ثم نهض فملك قرطبة العظمى، وملك اشبيلية، وقتل ملكها الباجي، وملك جيان أحسن بلاد الأندلس وأجله قدرا في الامتناع، وملك غرناطة ومالقة، وسموه بأمير المسلمين، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه]⁽²⁾. ومن عباراته التي استخدمها في جانب الوعظ والاعتاظ قوله: [وكان ذلك بمشيئة الله الواحد، ومصائب قوم عند قوم فوائد]⁽³⁾، وكذلك: [إلى أن جرى عليه القدر المحتوم ووافاه، ولم يسلم منه أحد وإن طال أمده]⁽⁴⁾، وكذا: [والإملاء من الله سبحانه يزيدهم طغيانا وكفرا بنعمائه، وجحودا

⁽¹⁾ نشأ بمالقة وكان له ابتداء طلب، ثم انه زال عن القراءة، وبقي محاولا لأموال الدنيا، فلم تزل الأيام ترفعه درجه بعد أخرى، حتى بلغت به من المكانة والرفعة والوجاهة إلى أقصى مبلغ، وكان ابتداء أمره في دولة الأمير أبي عبد الله بن هود، وذلك عندما اخذ القاضي ابو عبد الله بن الحسن رحمه الله عن مالقة وحبس بغرناطة، وكان ابن زنون ممن سعى فيه، ونسب إليه ما كان بريئا منه، فعند انفصال القاضي أبي عبد الله من مالقة، اجتمع ابن زنون وطائفة من أهل البلد، ونسبوا لابن الحسن القيام على ابن هود، فكل ابن الحسن بسبب ذلك، ثم ظهرت براءته. وبقي ابن زنون يشغل بالطائفة التي كانت معه على ابن الحسن إلى أن أفناهم واحدا بعدو واحد، بين النفي والقتل والسجن الطويل، وأبقى البلد في حكمه، فلم يكن ينفذ أمرا من الأمور إلا بمشاورته، وكان ولاية البلد لا ينفذون إلا ما أمر ابن زنون به، ولا يتعدون ما يحدهم، وكانت أوامره تنفذ في البلاد فضلا عن بلده، واخذ فيه مصلحه البلد، فشيدهم الأسوار أتم تشييده، وأصلح الأبواب الخلفية، وبنى الخرجة الكائنة الأمام باب قشتالة، وجدد الباب المعروف بباب الرواح، وجعل عليها بابا لم يكن. ينظر: ابن خميس وابن عسكرك، أعلام مالقة، ص 248؛ وينظر أيضا: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص 251، 252؛ ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 170؛ المقرئ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج 3، ص 426

⁽²⁾ تشكيب أرسلان، خلاصه تاريخ الأندلس، ص 52.

⁽³⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 5، ص 306.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ج 5، ص 308.

لآلائه، واستيصالا للبلاد، وتسلبا على العباد، ليقيم عليها حجته في أخذهم أخذة رابية⁽¹⁾،
[وهكذا جرت العوائد، مصائب قوم عند قوم فوائد]⁽²⁾.

لقد كانت من النتائج التي تعرضت لها قرطبة جراء الفتنة البربرية، والتي جعلت منها مسرحا لها، ظهور دويلات الطوائف بها، وتسببهم في تسليم أجزاء وقطع من ارض الأندلس للقشتاليين، خاصة الجهة الشمالية الشرقية منها، حيث كان الجلاليقة بها يتربصون بالمسلمين، فلما أيقنوا الضعف، والهوان الذي أصاب ملوك الطوائف خرجوا من ثغورهم، وفرضوا عليهم الغنائم والمكوس، ولكن الله لطف بعباده، وجعل ذلك في المرابطين الملتزمين البدويين الذين خرجوا من أقصى الصحراء ومن بلاد السودان لرفع راية الإسلام، والحق بالمغرب الإسلامي، والأندلس وطرد من سولت له نفسه التكالب على ارض المسلمين، من الجلاليقة⁽³⁾ إلى ما وراء اشبيلية⁽⁴⁾، وبلنسية⁽⁵⁾، ولقد كان لهم ذلك.

إذن هنا نستطيع تطبيق المثل المذكور أعلاه [مصائب قوم عند قوم فوائد]، حيث لما انفرط عقد الدولة الأموية، وتفرق شملها تقاسمت دول الطوائف التركة لقرطبة، وذلك لما أصبح أمراء الطوائف يسعون لإظهار عواصمهم كمراكز حضارية، وذلك بتشجيع الثقافة فيها.
فلقد كانت الأندلس -بحق- وحواضرها في عهد ملوك الطوائف مركزا للعلم والمعرفة، فقرطبة واشبيلية والمرية وطليلة وبطليوس وبلنسية⁽⁶⁾ وغيرها عاشت كعواصم ثقافية، ضمت العلماء والمعاهد، كما كانت هي وعموم مدن الأندلس مليئة بالمكتبات الخاصة والعامة، فكل

(1) المصدر نفسه، ج5، ص309.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص390.

(3) الجلاليقة: وهم بقايا القوط والقشتاليين الفارين من الفتح الإسلامي، تحصنوا بجبلجليقية، وهي ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، وصل إليها موسى ابن نصير لما فتح الأندلس، وهي بلاد لا يطيب سكانها لغير أهلها؛ ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص157.

(4) ياقوت الحموي، ج1، ص195؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص257.

(5) نفسه، ج1، ص490؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص373 وما يليها.

(6) محمد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1986م، ص97، المقري، المصدر السابق، ج1، ص441
442؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص11 12.

إمارة من هذه الإمارات حاولت أن تكون بؤرة ثقافة وهالة ورياسة، وان اختلفت نوع الثقافة السائدة.

وعبارة [إلى أن جرى عليه القدر المحتوم ووفاه، ولم يسلم منه أحد وإن طال أمده]، فالموت حقيقة لا بد منها لكل حي، فمهما طال العمر، وتأخر الأجل لا بد من الموت، فلا يغير المرء بطول عمر، وتأخر أجله وفي هذا يقول الأمير عبد الله:

يا من يراوغه الأجل حتام يلهيك الأمل⁽¹⁾.

وفي هذا البيت معنى مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى: [ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون]⁽²⁾، حيث جعل طول العمر، وبلوغ الرغبات الدنيوية وأملهم في ذلك ملهاة لهم إلى أن يحين وقت الحساب ويقول محمد بن عبد السلام الخشني في أمر هذه الدنيا وبيان زوالها وفراق ما فيها:

أخي إنما الدنيا محلة فرقة ودار غرور أذنت بفراق
تزود أخي من قبل أن تسكن الثرى ويرتفع ساق المنشور بساق⁽³⁾.

أراد الشاعر -هنا- أن يعظ الناس ببيان زوال الدنيا وضرورة التزود فيها بكل عمل صالح قبل الموت ولذا وصف الدنيا بدار الغرور، لأنها تغر ابن آدم بفتنتها، وملذاتها لتصرفه عن العمل لدار القرار. والشاعر في ذلك متأثر بوصف الله عز وجل لهذه الدار الفانية، في قوله تعالى: [وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور]⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ابن الآبار، الحلة السيرة، ج1، ص 122؛ ووردت أيضا في كتاب البيان المغرب، ج2، ص 155؛ وقد نسب الدكتور سعد إسماعيل شلبي في كتابه الأصول الفنية للشعر الأندلسي، ص 123، هذه الأبيات والأبيات التي مطلعها: أرى الدنيا تصير إلى فنا، إلى القاضي أحمد بن محمد بن زياد اللخمي مستندا إلى ما رواه ابن عذاري، على الرغم من أن الأبيات وردت عند ابن عذاري للأمير عبد الله في أثناء حديثه عن أخبار هذا الأمير؛ ينظر: البيان المغرب، ج2، ص 155، وقد عاد الدكتور المذكور آنفا في موضع آخر من كتابه ونسبها للأمير عبد الله، ص 208 209.

⁽²⁾ الحجر: الآية 2.

⁽³⁾ جذوة المقتبس، ص 24.

⁽⁴⁾ آل عمران، الآية 185، الحديد: الآية 20.

ومن المشهد ذاته، مشهد التشييع والدفن، يدعو الأمير عبد الله الإنسان إلى تحيل هذه الصورة، وكيف سيحمله الناس إلى مضجعه الأخير، ويغيبونه في الثراء فكأنما لم يكن، لأن ذلك من شأنه أن يدفع الإنسان للتوبة والإقبال على الله، حيث يقول واعظاً:

كأنك قد حملت على سرير وغيب حسن وجهك في الثراء⁽¹⁾.

وكذا: [والإملاء من الله سبحانه يزيدهم طغيانا وكفرا بنعمائه وجحودا لآلائه، واستيصالا للبلاد، وتسلبا على العباد ليقيم عليهم حجته في أخذهم أخذة رابية].

تعود جذور الخلافات والتزاعات الداخلية في الأندلس أثناء عصر الطوائف إلى عهد الحاجب عبد الملك بن منصور ابن أبي عامر (392-398هـ / 1001-1007م) الذي توفي مسموماً من قبل أخيه عبد الرحمن شنجول (398-399هـ / 1007-1008م)، كما توفي الأخير بمؤامرة من قبل (الزلقاء) أم عبد الملك بن المنصور (سنة 399هـ / 1008م)⁽²⁾، وفي هذه السنة تم خلع الخليفة هشام الثاني (المؤيد بالله 366-431هـ / 976-1012م)، ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الرحمن الناصر (المهدي بالله 399-401هـ / 1008-1010م)، إلا أنه لم يظل به المقام في الخلافة، إذ سرعان ما أعلنت الثورة ضده من قبل البربر، وذلك بالتعاون مع النصارى الإسبان وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالمهدية في معركة⁽³⁾.... (سنة 400هـ / 1009م)، ودخول قرطبة عاصمة الخلافة⁽⁴⁾.

بدأ عصر ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة 422هـ / 1030م، وأخذت المدن الأندلسية تستقل على شكل دويلات صغيرة وأطلق رؤساء هذه الدويلات على

(1) البيان المغرب، المصدر السابق، ج2، ص155.

(2) ابن عذاري، نفسه، ج3، ص37؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، صص، 89، 129.

(3) هي موضع شمال شرقي القليعة بالقرب من ملتقى وادي ارملاط بالوادي الكبير، ينظر: ابن الآبار، الحلة السيرة، ج6، ص20.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص78، ابن الخطيب، المصدر السابق، 127؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، صص 38 39.

أنفسهم لقب ملوك، وأخذ هؤلاء الملوك اتباع سياسة توسعية فيما بينهم، ودخلوا في منازعات وحروب اهلية دامية أدت إلى وقوع خسائر كبيرة في الأرواح والأموال⁽¹⁾.

لقد كان لطبيعة ملوك الطوائف أثر كبير في اتباع سياسة التوسع على حساب الدويلات الإسلامية الأخرى، وذلك لأنها لم تكن دولا بالمعنى الحقيقي، بل كانت أقرب إلى وحدات الإقطاع، وأسر ذات زعامات تعمل من أجل مصلحتها الخاصة دون الالتفاف إلى المصلحة العامة للمسلمين، إذ اتصف عصر الطوائف بأنه عصر الأطماع والأناية والمصالح والمؤامرات⁽²⁾.

لم يكن الصراع القائم بين ملوك الطوائف صراعا حزبيا قائما على أساس عرقي كالصراع بين العرب والبربر، أو بين المسلمين والإسبان، إذ أن البربر حاربوا مع بعضهم البعض، فضلا عن قيامهم بالوقوف مع العرب ضد بربر صنهاجة، كما حارب العرب مع بعضهم البعض، كما حدث بين بني عباد وبني جهور حكام (اشبيلية وقرطبة)⁽³⁾.

نتيجة هذه الأعمال، فقد شهدت الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري حالة من الفوضى والتمزق الداخلي، وما آلت إليه البلاد من ضياع وتفكك بعد أن كانت دولة واحدة منظمة ذات قوة وسيادة، تنعم بالأمن والطمأنينة، تحولت إلى أشلاء ممزقة ودويلات متناثرة ومتخاصمة فيما بينها، يسيطر على كل منها حاكم سابق أو زعيم أسرة محلي من ذوي الجاه والعصبية القبلية، متخذين ألقابا تدل على سعة الملك وعظم الشأن على عكس واقعهم يعيشون فيه من الفرقة والاختلاف⁽⁴⁾.

(1) الحميدي، جدوه المقتبس، ص ص 29، 32؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص ص 3، 20؛ عبيدان داوود عمر، بوادر ضعف العرب في الأندلس وسقوط الثغر الأوسط وطليلة، مجلة المورخ العربي، العدد 34، بغداد، 1980، ص 153.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص ص 160، 170؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 144 142.

(3) ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، ص 51 50.

(4) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 144.

لم تتوقف -للأسف- حالة الفوضى في عصر الطوائف على الوضع السياسي فحسب، بل وشمل الجانب الأخلاقي، في بعض دويلات الطوائف، ويظهر من خلال قول الشاعرة ولادة بنت المستكفي بالله التي كتبت على عاتقي ثوبها إذ تقول:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتبه فيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي أعطي قبلي من يشتهيها⁽¹⁾.

لقد كان لهذه الأحداث نتائج سيئة جدا على الوضع العام في الأندلس أدت إلى ضياع وحدة الأندلس سياسيا واجتماعيا، وتعاضم دور الأمراء والحكام واستغلالهم في المدن والأقاليم والكور الخاصة بهم، اتخذ هؤلاء الحكام ألقاب الخلفاء استكمالا لمظاهر السلطان والعظمة⁽²⁾.

أثرت التزعة القبلية تأثيرا كبيرا في علاقات ملوك الطوائف، كما كان لها ظهور في واقع المسلمين السياسي والعسكري، فضلا عن المنازعات والخلافات التي وقعت بسبب المصالح المادية والسياسية، كانت هناك خلافات أوجدتها التزعة القبلية والعرقية التي كان لها أثر كبير في الحروب والمنازعات التي وقعت بين ملوك الطوائف⁽³⁾، وكان لهذه الحروب أثر كبير في استنزاف القوة المادية والعسكرية لملوك الطوائف، مما أضعفت قوتهم، وجعلتهم لقمة سائغة بيد النصارى الإسبان⁽⁴⁾.

في ضوء ما سبق يتضح لنا مدى الوضع المتردي والانحلال الداخلي الذي كانت تعانيه الأندلس أثناء عصر ملوك الطوائف، وما اتصف به هؤلاء من التباغض والتحاسد والأنانية، وتقديم مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للمسلمين، ويرجع سبب ذلك كله إلى ابتعادهم عن منهج الله تعالى، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فكانت النتيجة أن

(1) ابن دحية، المطرب في اشعار اهل المغرب، ص 89 .

(2) المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ص 73؛ ابن عذاري، ج 3، ص 344؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 144 .

(3) ابن عذاري، ج 3، ص 269 270؛ السحبياني محمد بن صالح، الضعف المعنوي واثره في سقوط الامم عصر ملوك الطوائف نموذجاً، ص 209.

(4) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 3، ص 234 236؛ اشياخ، تاريخ الاندلس، ج 1، ص 54 55 .

أخذهم الله اخذة رابية، إضافة إلى ما هو معلوم عند القاضي والدايني من الذل والهوان والصغار، وقد صدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذ يقول: [نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله].

رابعاً- موقف ابن عذاري من النحل والتيارات الفكرية والفرق المذهبية:

عرف المغرب والأندلس بانتشار المذهب المالكي فيهما، في الوقت ذاته كانت قد انتشرت مذاهب أخرى خاصة المذهب الإباضي في المغرب الأوسط وجنوب المغرب الأدنى وجبل نفوسة وما جاوره، ثم حل في المغرب الأدنى وشرق المغرب الأوسط المذهب الشيعي، بالإضافة إلى مدعي النبوة في المغرب الأقصى حميم بن من الله، وصالح بن طريق، فأما الأخير فقد قضى المرابطون على أحفاده، والمذهبيين الآخرين فقد تقلص ظلهم عن المغرب عامة، وخاصة المذهب الإباضي الذي انزوى في مناطق بجنوب المغرب الأوسط وجبل نفوسة وجزيرة جربة، أما المذهب الشيعي الذي تقلص بمرور الزمن عما سيطر عليه في البداية.

وبلا شك فإن الفشل الذي كان يلازم الدولة الأموية في أواخر عهدها، والعهد العباسي في بدايته للقضاء على هذه الكيانات والفرق والنحل عكست المخاض الذي عاشته المنطقة في إطار الصراع بين أهل السنة والخوارج والشيعية، فهو بلا شك صراع يتجاوز المستوى الديني ويعكس تطاحن الرجال من أجل تجسيد نموذج معين للتنظيم السياسي والاجتماعي للدولة، ولذا سنقف في هذا البحث لإبراز مواقف المؤرخين على وجه العموم وابن عذاري على وجه الخصوص من هذه التيارات والفرق المذهبية التي دأبت على أرض المغرب.

4-1- موقف ابن عذاري من الإباضية خاصة والخوارج عامة:

لقد تميز تاريخ المغرب الإسلامي في القرون الهجرية الأولى بالثورات والتقلبات المتكررة، مثل العامل القومي في القرن الأول الهجري محل الصراع، ثم حل الصراع المذهبي في المرحلة الثانية محل العامل القومي ونتج عنه ظهور دويلات استند قيامها إلى المذهبية مثل دولة الصفرية

في سجلماسة ودولة الإباضية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وتمثل الإباضية والصفيرية جزءا هاما من ذلك الصراع الذي دار في المغرب منذ بداية القرن الثاني الهجري.

ولهذا قررت ان أتناول في هذا المبحث ولو باختصار مواقف ابن عذاري من الإباضية والصفيرية خاصة والخوارج عامة، ثم موقفه من الأدارسة.

وقبل الخوض فيما كان لابن عذاري من مواقف الخوارج بصفة عامة والإباضية والصفيرية بصفة خاصة، أود أن أشير فقط الى أن مواقفه تجلّت أكثر أثناء حديثه عن ثورات الخوارج، فهو بلا شك قد أفاض حديثه عنها، وعزف في نفس الوقت عن التأريخ لدولهم في المغرب، إذ اكتفى بإشارات متناثرة عن أمرائهم وسن حكمهم.

والحق أن بلاد المغرب كانت من أهم أقاليم الأطراف التي اتجهت إليها جهود دعاة الخوارج العراقيين⁽¹⁾ فمتى تم ذلك؟ وأي فرق المذهب قدّر لها أن تنتشر في البلاد؟ لا نستطيع أن نحدد في وضوح تاريخ بدء دعوة الخوارج بالمغرب بسبب تضارب الروايات واختلاطها، لكن الظهور الحقيقي لمذهب الخوارج في بلاد المغرب يعود إلى أواخر القرن الأول، وأوائل القرن الثاني الهجريين⁽²⁾.

أما عن فرق الخوارج التي انتشرت ببلاد المغرب، فإنه قد اختلط امر تحديدها على بعض المحدثين الذين أرخوا للخوارج في المغرب، إذ تزعم بعضهم⁽³⁾ أن البلاد شهدت انتشار فرق الخوارج جميعها، وتشكك البعض⁽⁴⁾ الآخر في وجود فرقتي الإباضية والصفيرية على أساس "أن مبادئ الفرقتين ليست مما يجذب البربر، فهما أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين"، مع العلم بأن الصفيرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا.

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص110.

(2) ابن خلدون، نفسه، ج6، ص110؛ السلاوي، الاستقصاء، ج1، ص123؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص116.

(3) الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص118.

(4) حسين مؤنس، مخبر الأندلس، ص148؛ ثورات البربر، ص154155.

معنى هذا أن فرقتين فقط من فرق الخوارج الكبرى ظهرتا ظهورا واضحا في أحداث بلاد المغرب. وهما فرقة الصفرية، وفرقة الإباضية؟

انتهينا إلى أن مذهب الخوارج بشقيه الصفري والإباضي انتشرا انتشارا واسعا في بلاد المغرب حتى صار للخوارج "عدد كثير وشوكة قوية"⁽¹⁾.

والواقع ان ظروف المغرب كانت مواتية لاندلاع ثورات الخوارج (سنة 121هـ/739م) بعد تفاقم مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب.

فعلى الرغم مما عرف به من دربة ودراية بفنون الحكم والسياسة⁽²⁾. كانت سياسته في بلاد المغرب كما ذكر ابن عذاري: [سببا لانتقاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة]⁽³⁾.

ولا شك أن ابن الحبحاب كان راضيا عن سيرة عماله، فقد كان عليه أن يفني بوعوده للخليفة هشام بن عبد الملك بإرسال المزيد من الأموال والسبايا⁽⁴⁾ مما يجلبه هؤلاء العمال، ولعل حرصه على ذلك يفسر عهده إلى حبيب بن أبي عبيدة بقيادة حملة ضخمة جابت بلاد المغرب حتى أقصاها، وأصابت من السبي والذهب أمرا عظيما، وبثت الرعب والفرع في تلك الأنحاء⁽⁵⁾.

وحسبنا أن اندلاع ثورات الخوارج في المغرب واكب اضطراب الخلافة الأموية وانشغالها بالخصومات القبلية والصراعات حول السلطة بين أفراد البيت الأموي⁽⁶⁾، وازدادت هذه

⁽¹⁾ الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، ص109.

⁽²⁾ ذكر الرقيق بن عبد الله بن أبي حسان اليحصبي عن أبيه قال: [رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر في دفتر العطاء، ويملي رسالة، ويأمر بحاجات من ناحية أخرى، ويأمر من خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين]؛ ينظر: تاريخ افريقية والمغرب، ص107.

⁽³⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص52.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص53.

⁽⁵⁾ الرقيق، المصدر نفسه، ص108.

⁽⁶⁾ الحميدي، جذوة المقتبس، ص08؛ الضبي، بغية الملتبس، ص14.

الثورات تأججا وغلبت على بلاد المغرب جميعا بعد موت هشام بن عبد الملك (سنة 125هـ/743م)⁽¹⁾، والذي كان يولي بلاد المغرب عناية خاصة، فوقع الاضطراب بإفريقية»⁽²⁾.

ويكفي أن عبد الرحمن بن حبيب اغتصب حكم افريقية له ولآله من بعده، ففي غيبة الخلافة وعمالها آنذاك بلغت ثورات الخوارج أوجّها حتى غدت القيروان ذاتها ميدانا للصراع بين الإباضية والصفيرية، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله⁽³⁾: [... وأعضل امر الخارجية ورؤوسها]، ولم يكن ذلك إلا [لانشغال بني أمية عن قاصية الثغور]⁽⁴⁾.

فكان من الطبيعي أن تتفاقم ثورات الخوارج ويزداد خطرهما بقيام الدولة العباسية التي اهتمت في عهد السفاح بأمور المشرق أكثر من اهتمامها بأمور المغرب⁽⁵⁾، ثم تغير الموقف تماما في خلافة المنصور، فكانت سياسته على أساس الاحتفاظ بالمغرب، وعدم التفريط فيه⁽⁶⁾، فاختار ولاته من خاصته "من ذوي الرأي الأصيل والخطر الجليل"⁽⁷⁾، كابن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم...

هذا وقد تأثرت ثورات الخوارج بشخصية الولاة وسياستهم وماهم عليه من قوة أو ضعف، وما لسياساتهم من آثار في جمع شمل الجند أو بعثرتها كما كانت ثورات الخوارج تزداد تأججا ونجاحا حين كان الولاة ينشغلون عنها بإنقاذ حملاتهم خارج المغرب، فكانوا يجدون في غياب الجند فرصة مواتية لتعبئة الجهود وإعلان الثورة، وحسبنا أن أولى ثورات الخوارج التي تزعمها مسيرة قامت في الوقت الذي كانت فيه جيوش ابن الحبحاب تغزو في صقلية⁽⁸⁾.

(1) مجهول، اخبار مجموعة، ص36.

(2) الحميدي، المصدر نفسه، ص08.

(3) العبر، ج6، ص11.

(4) المقرئ، فح الطيب، ج1، ص222.

(5) عن الطابع الشرقي للخلافة العباسية واهمال السفاح لشؤون المغرب، ينظر: محمود إسماعيل، الأغالبة، سياستهم الخارجية، ص12.

(6) ابن الأثير، ج5، ص221.

(7) الرقيق، المصدر السابق، ص151؛ ابن عذاري، ج1، ص98.

(8) الرقيق، نفسه، ص109.

ومما يلاحظ ان هذه الثورات كانت قد اندلعت بصورة شاملة حيث "استشرى داء البربر وأعزل أمر الخارجية»⁽¹⁾ في وقت انشغال الجيوش ابن حبيب بغزو سردينية وصقلية⁽²⁾. وقد استطاع ابن الأشعث بفضل كفايته العسكرية⁽³⁾ أن يضعف الخوارج وأن "يضبط افريقية»⁽⁴⁾ ويحصن القيروان وطرابلس وطبنة⁽⁵⁾، ولكن لم يقدر له النجاح في القضاء نهائيا على ثوراتهم بسبب ثورات الجند العربي عليه وطرده من الولاية⁽⁶⁾، فكان القتل من نصيب الأغلب بن سالم لعقده العزم على استتصال شأفة الخوارج ومهاجمتهم في معاقلهم بتلمسان والمغرب الأقصى، فقد ثار عليه جنده وقتلوه (سنة 148هـ/765م)⁽⁷⁾، وأعطوا بذلك فرصة لاستعمال خطر أبي قرة الصفري.

كما ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة الولاة واستقرار أحوال الجند الخلافي، ولا يخفى ما بلغه عمر بن حفص من شجاعة ودهاء وحسن بصيرة، ولعل في رحيله عن القيروان وتحصينه طبنة ما ينم عن إدراك واع لمكمن الخطر في نشاط الخوارج وإفلاته من حصار خوارج المغرب إباضية وصفرية أضاف الكثير إلى قدراته الفذة، وفي نهايته البطولية وموته وهو يقاتل الخوارج وحيدا ما جعل المؤرخين يطلقون عليه -بحق- لقب "ألف رجل» كناية على شجاعته النادرة.

كما استطاع يزيد بن حاتم أن يتصدى لثورات الخوارج، وبفضل كفايته ومقدرته "سكن الناس في افريقية»⁽⁸⁾، وأثمر هذا الهدوء في عهد خلقه روح بن حاتم⁽⁹⁾، ثم قدم هرثمة بن أعين إلى

⁽¹⁾ ابن خلدون، العبر، ج6، ص111.

⁽²⁾ ابن الأثير، ج5، ص116.

⁽³⁾ الطبري، ج7، ص459.

⁽⁴⁾ ابن الأثير، المصدر نفسه، ج5، ص118.

⁽⁵⁾ البكري، المصدر السابق، ص7؛ السلاوي، المصدر السابق، ج1، ص115.

⁽⁶⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص88؛ السلاوي، نفسه، ج1، ص115.

⁽⁷⁾ ابن خلدون، ج6، ص112؛ السلاوي، ج1، ص116.

⁽⁸⁾ ابن الأثير، ج5، ص04.

⁽⁹⁾ المصدر نفسه، ج5، ص38؛ ابن خلدون، ج5، ص194.

إفريقية (سنة 179هـ/795م) ليقضي على ما بقي للخوارج من رمق، وأعاد الحياة الآمنة إلى بلاد المغرب⁽¹⁾.

والحق يقول ابن عذاري أن تلك الضربة الماحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالإباضية تعدّ نهاية لنشاط الخوارج الإباضية في صورته الشاملة المنظمة حقيقة إن حركاتهم لم تحبط بصورة نهائية في عهد يزيد، لكنها كانت تفتقر إلى التنظيم والشمول ومن ثم لم يجد أمراء آل المهلب في إفريقية عناء في قمعها وردعها⁽²⁾.

ولذلك فحسب ابن عذاري أن حركة الإباضيين وعقيدتهم في بلاد المغرب الإسلامي تصنف ضمن نشاط الخوارج، وإذ حُقَّ لابن عذاري⁽³⁾ أن يقول: [تهدنت إفريقية ليزيد بن حاتم]، وإذا كان يزيد بن حاتم قد قضى على ثورات الإباضية في شكلها الشامل المنظم، فإن خليفته داود بن حاتم تمكن من [حصد شوكتهم]⁽⁴⁾، وحسبنا أننا لم نسمع عن أي نشاط للإباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذي امتد حتى (سنة 170هـ/786م)، كما يورد ابن عذاري.

وبلا شك أن هذه الضربات يضيف ابن عذاري أوهنت حركات الخوارج وفتت في عضدها حقاً، لكنها لم تقض عليها قضاء تاماً، فكان الخوارج عقب تلك المحن يدأبون على إعادة التنظيم ولم الشمل سراً بزعامة من سمو بـ "إمام الدفاع"⁽⁵⁾ فإذا ما أنسوا من أنفسهم قوة عاودوا الخروج وأعلنوا الثورة على الولاة، وهذا ما يفسر استمرار هذه الثورات قرابة نصف قرن، فلم تحب نارها حتى حققت أهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالي قومي.

⁽¹⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 89؛ السلاوي، ج 1، ص 121.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 94؛ ابن الأثير، ج 5، ص 04.

⁽³⁾ ابن عذاري، نفسه، ج 1، ص 94.

⁽⁴⁾ ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 113؛ السلاوي، ج 1، ص 120.

⁽⁵⁾ الشماخي، السير، ص 133.

ويتضح هذا الطابع القومي بشكل ظاهر في قيادة ثورات الخوارج، فباستثناء أبي الخطاب المعافري-الذي كان من أصل عربي-تصدرت ثورات الخوارج قيادات من البربر بتراب وبرانيس، فميسرة بن مطغرة، وخالد بن حميد الزناتي من زناتة، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة، وعبد الواحد بن هواري من هوارة، وعاصم بن جميل من ورفجومة، وأبوقرة من مغيلة وكلهم من زعماء الصفرية. أما زعماء الإباضية فقد كان عبد الله بن مسعود التحجبي من هوارة، وكذلك كان الحارث وعبد الجبار، ومن نفوسة تولى إسماعيل بن زياد، وكان أبو حاتم الملووزي من هوارة، ولا شك ان تصدر هذه الزعامات لثورات الخوارج في بلاد المغرب تعبير حي عن شخصية المغرب الإسلامي المستقلة وتجسيد لدوره الإسلامي بعد اعتناق البربر مبادئ الخوارج.

هذا ويضيف ابن عذاري أن حركات الخوارج لم تسلم من نقائص وسلبات، ولعل أهمها أنه لم يكن ثمة تعاون بين فرقتي الإباضية والصفرية، وهي آفة موروثية عن خوارج المشرق، ولا نعتقد انها كانت في المغرب من جراء التجمعات القبلية التي اعتمد عليها كل فريق، ذلك أن المذهبين الإباضي والصفري انتشرا بين البربر واعتنقت بعض بطون القبيلة الواحدة المذهب الصفري في حين اعتنق بعضها الآخر المذهب الإباضي كما هو الحال بالنسبة لزناتة وهوارة.

إنما كان عدم التعاون مرده إلى الخلاف الجوهرى بين عقائد الفرقتين وهو خلاف يحول دون التقائهما فلم يكن قدوم داعيتي الفرقتين إلى المغرب على ظهر بعير واحد يعنى تعاوننا مشتركا، أو توحيدا للجهود كما توهم البعض، بل اتخذت الفرقتان اتجاهها مغايرا، فبينما اتجه الإباضية إلى الأقاليم الشرقية من بلاد المغرب، كانت وجهة الصفرية شطر الأجزاء الوسطى والقصى منه. وإذا كانت بطون زناتة المنتشرة في سائر جهات المغرب قسمة بين الفرقتين، فلم يقدر لها أن تكون همزة الوصل بينهما، بل لا نبالغ إذا قلنا إن إباضية زناتة كانوا معول هدم في حركات الإباضية، وحسبنا دورهم المخرب في ثورة أبي الخطاب المعافري⁽¹⁾، وليس من شك

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 83.

في ان ما حدث من صراع بين الإباضية والصفيرية على القيروان (سنة 140هـ/757م) كان من أهم أسباب اضعافهما ووقوعهما لقمة سائغة لجيوش ابن الأشعث فرقة بعد أخرى. وما يروى عن تعاون بينهما في حصار عمر بن حفص بطبنة (سنة 153هـ/770م) أمر مشكوك في صحته.

ثم إن جوتيبه بين رأيه على أساس أن المؤرخين العرب القدامى ذكروا أن زناتة وحدها تزعمت ثورات الخوارج وساعدت على قيامها، والحقيقة أننا لم نجد مؤرخا واحدا يشير إلى مثل هذا الأمر، بل نجد عندهم من الإشارات ما يدل على عكس ذلك، فابن خلدون⁽¹⁾ مثلا يقول عن ثورات الخوارج في عهد عبد الرحمن بن حبيب: [... فاستشرى داء البربر، وأعضل أمر الخارجية ورؤسها، فانتقضوا من أطراف البقاع، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة].

وقصارى القول أن زناتة أسهمت في ثورات الخوارج الصفيرية مع غيرها من القبائل، وكانت القيادة في هذه الثورات متداولة بين مطغرة وزناتة ونفزة وهوارة ومغيلة على التوالي، بينما يعتبر اسهامها في حركات الإباضية ضئيلا للغاية، فقد تصدرت هوارة دون منازع هذه الحركات من البداية حتى النهاية.

أما فيما يتعلق بالتأريخ لدولهم في المغرب، فقد اكتفى ابن عذاري كما أسلفنا الذكر بإشارات متناثرة عن أمرائهم وسني حكمهم.

فعلى سبيل المثال لا الحصر على أن فكر الخوارج السياسي إذن مصدره الدين وليس العصبية وهو ما عبر عنه ابن خلدون⁽²⁾ بقوله: [... الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن

⁽¹⁾ ابن خلدون، العبر، ج6، ص111.

⁽²⁾ ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص69.

ذلك لترعة ملك ولا رياسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية]، إنما تولد عن "خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية"⁽¹⁾ متعلقة بالإمامة.

وفي المقابل نجد أن الطابع الديني وسمة التطرف في فكر الخوارج السياسي خفت حدتها في أواخر القرن الأول الهجري، فاتخذت مبادئهم حسب الرازي طابعا عمليا وجنحت نحو الاعتدال. وقد ظهر ذلك بشكل واضح في عقائد الإباضية والصفيرية متمثلا في تجويز التقية⁽²⁾.

وباختصار فقد ظل التزام خوارج المغرب بعقائد المذهب في سياستهم ونظمهم خلال السنوات الأولى من حكم أئمة بني مدرار سجلماسة وبني رستم بتاهرت، إذ طغت تعاليم المذهب على دوافع العصبية والعنصرية.

وحسبنا على أن خوارج المغرب لم يلتزموا بالفكر السياسي عند الخوارج، وإذ أن ابن عذاري يؤكد أنهم لم يراعوا تعاليم المذهب وشرائعه بعد انتهاء حكم مؤسس دولتيهما في سجلماسة وتاهرت، ففي سجلماسة برزت النعرات العنصرية والعصبية وتحكمت في مقاليد الحكم ونظم الإدارة. إذ أن الإمامة تحولت إلى ملك وراثي احتكرته قبيلة مكناسة في أسرة بني مدرار⁽³⁾ بعد صراع مع زنوج السودان وتنحية عيسى بن يزيد الأسود وقتله (سنة 155هـ/772م)⁽⁴⁾ ومنذ ذلك الحين درج أمراء البيت المدراري على انتهاك تعاليم المذهب وتقاليد الإمامة حتى أن أحدهم خلع نفسه ليظفر أحد أبناءه بالحكم كيدا في ابنه الآخر⁽⁵⁾، وقد بلغ الخروج على المذهب مداه بتولية الأطفال والنساء مقاليد الحكم، فقد تولى المنتصر سمكو بن محمد الحكم (سنة 332هـ/945م) ولم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره تحت وصاية جدته⁽¹⁾.

(1) ابن خلدون، نفسه، ج2، ص ص179، 178.

(2) الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص51.

(3) ابن عذاري، ج1، ص215.

(4) البكري، المصدر السابق، ص149.

(5) البكري، نفسه، ص150؛ ابن عذاري، ج1، ص216.

(1) البكري، نفسه، ص151.

ولعل ما يؤكد تحول الإمامة في سجلماسة إلى ملك وراثي، اتخاذ أمراء سجلماسة ألقابا على غرار العباسيين كالمنتصر والمعتز، وتخليهم عن حياة الزهد والبساطة التي اتسم بها أئمة الخوارج وإقبالهم على حياة البذخ والثراء واقتناء الاموال⁽¹⁾، والتشبه بالملوك والأمراء. وقد حدث في تاهرت بعد موت عبد الرحمن بن رستم نفس ما حدث في سجلماسة بعد مقتل عيسى بن يزيد الأسود، إذ تحولت الإمامة إلى ملك وراثي⁽²⁾.

والواقع أن بنو رستم منذ إمامة محمد بن الأفلح ضربوا صفحا عن جوهر التعاليم الإباضية التي تدعو إلى "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فلجأوا إلى الأساليب السياسية المتلوية كالتجسس وبذل الرشاوي والخداع فضلا عن الاغتيال السياسي، كما لقي أبو حاتم يوسف بن محمد حتفه على أيدي بعض المتآمرين من أفراد أسرته من أجل الوصول إلى الحكم وهكذا اختفى-تقريبا-أي أثر لفكر الإباضية في نظم الحكم الرستمية بعد موت عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة، وتحولت الإمامة الإباضية إلى ملك وراثي غلب عليه الطابع البدوي، وتأثر بالتقاليد الفارسية وتعاليم الفرق والمذاهب الأخرى غير الإباضية.

ومهما يكن من أمر فقد أسفرت ثورات الخوارج عن قيام دولتين ببلاد المغرب احدهما للصفرية (سنة 140هـ/757م) ومركزها سجلماسة، والأخرى لإباضية وعاصمتها تاهرت (سنة 161هـ/778م)، وكذلك كان قيام دولة الاغالبية في افريقية (سنة 184هـ/800م)، بمثابة رد الفعل العربي لقيام دول من البربر، فقد حرص الرشيد على ضمان استمرار نفوذ الخلافة في افريقية حتى ولو كان هذا النفوذ اسميا، ومن ثم فقد أقر قيام الإمارة الأغلبية لتحول دون زوال هذا النفوذ ولتقف حاجزا أمام خطر الدولة الإدريسية العلوية والدولتين الخارجيتين المدرارية والرستمية.

⁽¹⁾ ابن عذاري، ج 1، ص 216؛ ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ج 3، ص 143.

⁽²⁾ ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص 16، 20.

4-2- موقف ابن عذاري من الأدارسة:

لقد قامت الدولة الإدريسية، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي هرب إلى المغرب، نتيجة ضغط العباسيين، وأسس هذه الدولة⁽¹⁾.

ويرجع الفضل إلى راشد مولى إدريس في وصول إدريس بن عبد الله سالما إلى المغرب الأقصى، والدعاية له بين قبائل البربر لقبول وتبني دعوته⁽²⁾.

وبذلك يؤكد ابن عذاري أنه تم تأسيس الدولة الإدريسية في المغرب، وسميت نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي هرب إلى المغرب نتيجة ضغط العباسيين وأسس هذه الدولة سنة 172هـ⁽³⁾.

كما أن هناك رواية أخرى لابن عذاري يذكر فيها أن دخول إدريس للمغرب كان (سنة 170هـ/786م)، إلا أن الأستاذ سعد زغلول عبد الحميد في "تاريخ المغرب العربي" يقول: [نعتقد أنه يقصد بذلك خروجه من مصر إلى المغرب]⁽⁴⁾

وعندما نزل إدريس مدنية ويلي، نزل على صاحبها الأمير إسحاق بن محمد بن عبد المجيد الأوربي-نسبة إلى قبيلة أوربة البربرية-حيث أكرم إدريس وبالغ في بره، فأظهر له إدريس أمره، وعرفه على نسبه، فوافق على حاله وأنزله بداره، وأقام عنده ستة أشهر، فيقول ابن خلدون في "العبر": [فأجاره وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية، وكشف القناع، واجتمع عليه البربر بالمغرب، فبايعوه، وقاموا بأمره].

وفي يوم الجمعة من شهر رمضان (سنة 172هـ/788م)، جمع عبد المجيد زعيم أوربة اخوته من قبائل أوربة، فعرفهم بنسب إدريس وفضله، وقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص82.

(2) البكري، المغرب، ص122؛ مجهول، الاستبصار، ص4؛ زغلول، تاريخ المغرب، ج2، ص424.

(3) ابن عذاري، نفسه، ج1، ص82.

(4) زغلول، تاريخ المغرب، ص412، وهامش ص4.

وشرفه، وعلمه، ودينه، والفضائل المجتمعة فيه، فقالوا: [الحمد لله الذي أتانا به وشرفنا بجواره، ورؤيته فهو سيدنا، ونحن عبده، نموت بين يديه، فما تريد منا، فقال: تبايعونه، فقالوا: سمعا وطاعة، ما منا يتوقف عن بيعته]، فبايعته قبائل أوربة، وكانوا في ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب، وأكثرها عددا، وأشدهم قوة وبأسا، فكانوا هم أنصاره الأولين⁽¹⁾.

فبويع إدريس سنة اثنتين وسبعين ومائة⁽²⁾، وخطب إدريس بالناس يوم بيعته، فكان مما قال في خطبته [أيها الناس لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا]⁽³⁾.

وبعد انضمام كل هذه القبائل إلى الدعوة العلوية بدأ إدريس في تأسيس الدولة الإدريسية، وذلك حسب الأهداف التي أخذ الإمام على عاتقه القيام بها، والتي تنفق ورسالة آل البيت وهي العمل على نشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله، أما عن مجال هذا العمل فكانت الأقاليم لم ترسخ فيها أقدام الإسلام بعد، أو التي عرف أهلها بالزيغ، وانحراف في العقيدة⁽⁴⁾.

وحتى لا نخوض أكثر في بدايات تأسيس الدولة، ونسب إدريس الأول، وكيفية وصوله إلى سدة الحكم، وكذا طريقة مقتله، لكي نفي هذا المبحث حقه من مواقف ابن عذاري من هذه الدولة.

⁽¹⁾ البكري، المغرب، ج1، ص116؛ الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية، ص215؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص83؛ أما ابن زرع فإنه ذكر أصول إدريس إلى مدينة وليلي كان في غرة ربيع الأول سنة 172هـ/788م؛ ينظر: روض القرطاس، ص7؛ ولم يرد ذكر لتاريخ بيعة إدريس في كتاب ابن خلدون، العبر، ج4، ص24.

⁽²⁾ البكري، نفسه، ج1، ص116؛ ابن عذاري، نفسه، ج1، ص83؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص7؛ ابن خلدون، نفسه، ج4، ص24.

⁽³⁾ الناصري، الاستقصاء، ج1، ص62؛ ابن أبي زرع، نفسه، ص4؛ ابن خلدون، نفسه، ج4، ص24.

⁽⁴⁾ زغلول، تاريخ المغرب، ص416.

إذ كانت من بين الآراء والأقوال الشائعة القول بأن دولة الأدارسة دولة شيعية ذلك لأن مؤسسها وأئمتها كانوا من أهل البيت، وأن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة، لأن الشيعة هم من يتشيعون لهم وهم "الأدارسة"، فهم على سنة جدهم محمد صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾. ولم يعرف الأدارسة في بلادهم غير مذهب المالكية⁽²⁾.

ومن هنا فكما- يبدو - وحسب حسين مؤنس أن إدريس مؤسس الدولة الإدريسية هو سني، لأنه دعا البربر إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ودعا إلى العدل في الرعية، والأمانة، وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم كتاب الله على القريب والبعيد، كما ورد في مطلع عهده إليهم، ثم إن في تقديم نفسه إلى البربر، والشهادة على استجابته هو للدعوة هو تعبير واضح على ذلك، وبايعه البربر على القيام بأمرهم، وولوه صلاتهم، وأحكامهم، وغزوهم، ثم إنه لم يدع لنفسه إلا بعد أن قتل أخوه يحيى الذي له الحق قبله، وصحيح أنه لم يلقب بـ "الإمام"، ولم يصرح به حتى أيامه الأخيرة ولم يكن هناك إشارات تدل على أنه تلقب بـ "الإمام"، غير أن إدريس كان يسمع من يدعو به هذا اللقب، وكان اهتمامه منذ اللحظة الأولى هو نشر الإسلام على نطاق واسع بين مختلف قبائل البربر المغربية، التي كان أغلبها يدين باليهودية والنصرانية، وظل يدعو حتى اسلمت له بلاد تامسنا (تامسنا)، وتادلا (تادلة)، وأرسى أسس دعوته وكذلك في تلمسان.

وكان إدريس قد قال للبربر: [أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى العدل في الرعية، والقسم بالسوية، ورفع المظالم، والأخذ بيد المظلوم]، ثم يختمها بالقول: [هذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله ما لي، وعليه ما علي، ومن أبى فحظه أخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أي لم أسفك دما، ولا استحلت محرما، ولا مالا].

⁽¹⁾ مؤنس، تاريخ المغرب، ص372.

⁽²⁾ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص372.

فكان من الأسباب القوية التي أدت إلى قيام دولة الأدارسة في المغرب هو نصره مذهب السنة والجماعة للأدارسة، وقيام إمامة الأدارسة⁽¹⁾، والوصف الصحيح لهذه الدولة أنها كانت دولة علوية هاشمية⁽²⁾.

وبعد موت إدريس بن عبد الله حلت الإمامة، إذ لم يكن يومئذ لإدريس ولد، إلا أنه ترك جارية اسمها كتر "كنيزة»، وقد ولدت وقام راشد مولى إدريس الأول بجمع واستمالة القبائل، وأخبرهم بذلك، فقالوا له: [أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس فينا حتى تضع الجارية، فإن وضعت غلاما ربنا تباركنا بأهل البيت، وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانت جارية نظرنا (أنفسنا)، فكان ذكرا، وكان ميلاده يوم الاثنين من شهر ربيع الآخر سنة 177هـ/793م]⁽³⁾.

فكانت ولاية إدريس الثاني (سنة 188هـ/804م) وهو ابن إحدى عشرة سنة⁽⁴⁾، وتتفق الروايات على أن إمامة إدريس الأصغر تمت بعد وفاة راشد مولى أبيه إدريس الأول، وقد اتصف إدريس الثاني بعدة مزايا، وصفات يسردها لنا ابن عذاري، إذ يقول: [إن انتساب إدريس الثاني إلى بيت النبوة وآل البيت والاسرة العلوية، وصفاته الخلقية إذ كان يتصف بالتقوى، وحسن التربية، والصلاح، وإيثار العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك كان له دوره في إيجاد المناصرين والمؤيدين له]⁽⁵⁾.

(1) مؤنس، المرجع نفسه، ص372.

(2) نفسه، ص372.

(3) الناصري، الاستقصاء، ج1، ص159؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص25؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص195-196، السنوسي، الدرر السنية، ص80.

(4) البكري في كتابه المغرب، ص23 'يذكر انه تولى الولاية يوم الجمعة 7 ربيع الأول سنة 187هـ، الموافق لـ: 05 مارس 803م؛ ولينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص210.

(5) ابن عذاري، نفسه، ج1، ص84؛ السنوسي، الدرر السنية، ص84؛ زغلول، تاريخ المغرب، ج2، ص441.

وقد أدى ذلك إلى استقبال الاعداد الكبيرة من الداخلين في طاعته، والمتلقين لدعوته من عرب افريقية والأندلس "من القيسية، والأزد، ومدلج، وبني يحصب، والصدف في نحو خمسمائة رجل"⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي كان إدريس الثاني يعمد على تقوية دولته وتدعيم أركانها كانت الدولة العباسية بالتعاون مع حليفها في إفريقية إبراهيم بن الأغلب ينشرون الأكاذيب حول صحة نسب إدريس بن عبد الله⁽²⁾.

فالعباسيون بعد أن قامت دولتهم، أرادوا أن تكون الخلافة مقصورة عليهم دون غيرهم من بني هاشم، وكان بنوا علي بن أبي طالب ينازعون بني أمية وبني العباس في هذا الأمر (الخلافة)⁽³⁾.

ومما تجدر ملاحظته حسب ابن عذاري أن المغرب لم يخلص كله للأدارسة، فلئن استطاع الأدارسة أن يمدوا نفوذهم شرقا إلى تلمسان، فقد كانت ناحية تامسنا خارجة عن ملكهم، يتحكم في شؤونها البرغواطيون وهم قبيلة من البربر، وكان في سجلماسة بنو مدرار وبنو صالح في منطقة تكور وبنو عصام في سبتة⁽⁴⁾.

وهكذا صار الأمراء الأدارسة يتوارثون الحكم في الدولة، فخلف يحيى بن محمد يحيى الرابع بن إدريس بن عمر وحكم مدة خمسة عشر عاما، وكان أقدر ملوك الأدارسة وأبعدهم ذكرا، وأوسعهم ملكا، وأقواهم سلطانا، وأكثرهم عدلا، يقول ابن خلدون: [ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في الدولة والسلطان، إلى أن قضى على ملكه غياب العبيديين الفاطميين بإفريقية فأغرقه]⁽⁵⁾.

⁽¹⁾الناصرى، الاستقصاء، ج1، ص163؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص13.

⁽²⁾ابن خلدون، المقدمة، تحق: احمد حامد الطاهر، دار الفجر الحديث، القاهرة، 2004، ص55.

⁽³⁾الناصرى، الاستقصاء، ج1، ص147148.

⁽⁴⁾ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص246252.

⁽⁵⁾الناصرى، المصدر السابق، ج1، ص182؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص18.

كما كان لابن عذاري موقف على بعض الأئمة الذين ورثوا الحكم في دولة الأدارسة، فيقول: [أما عن محمد فقد توفي بعد أخيه عمر سبعة أشهر في شهر ربيع الثاني سنة 221هـ، وخلفه ابنه علي الذي توفي في رجب سنة 234هـ، ثم خلفه أخوه يحيى، والذي أساء السيرة، وخالف طريق سلفه، فثار عليه الناس، واعتصم منهم بعدوة الأندلس، وانتهى الأمر بانتقال الملك عن بني محمد إدريس إلى بني عمهم عمر بن إدريس⁽¹⁾].

وهذا ما يؤكد الناصري وابن خلدون إذ بعد وفاة يحيى بن محمد بن إدريس في تاريخ غير معروف، وخلفه ولده يحيى بن يحيى، ولم يكن له شيء من الفضل الذي كان لأسلافه، إذ انهمك في ملذاته، فثارت العامة ضده وعزلوه، ومات في ظروف غامضة، وبموته انتقلت الإمامة من بيت محمد بن إدريس إلى عمر بن إدريس⁽²⁾.

ومما يمكن أن نستشفه من هذه الآراء أن التقسيم الذي تلى وفاة إدريس الثاني قد انتهى بالتزاع بين الإخوة، فكان أول من خرج عن طاعة الإمام عيسى هو الذي ولاه، فكتب الإمام إلى أخيه قاسم صاحب سبتة وطنجة يأمره بمحاربه، فامتنع عن ذلك وخالف أمره، بينما أطاع عمر أمر أخيه إدريس، فأوقع بعيسى، وهزمه وولي جميع عمله، ثم أنه سار إلى القاسم، فكانت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم الذي انتهى أمره إلى المسير إلى البحر مما يلي مدينة (أصيلا)، فبنى لنفسه مسجدا، وزهد في الدنيا⁽³⁾، وضم عمر بلاده إلى يده واستمر غاملا لأخيه إلى أن توفي سنة 220هـ وخلف أبناءه أملاكه، إذ خلف علي بن عمر والده⁽⁴⁾.

ويضيف ابن عذاري من حيث أهمية مدينة فاس في ترسيخ سلطان الأدارسة في المغرب، والعمل الحضاري الذي يمثل رسالة الأدارسة الطالبين في بلاد المغرب الأقصى، إذ أن إدريس

⁽¹⁾ البكري، المغرب، ص125؛ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص212، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص51؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص207208؛ ابن خلدون العبر، ج4، ص15؛ زغلول، تاريخ المغرب، ج2، ص ص471477.

⁽²⁾ الناصري، الاستقصاء، ج1، ص178؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص52؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص ص1416.

⁽³⁾ البكري، المغرب، ص24؛ ابن الآبار، الحلة السيرة، ج1، ص33 وما بعدها؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص52 وما بعدها؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص14.

⁽⁴⁾ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص52.

الثاني بعد أن أقام بفاس إلى (سنة 197هـ/812-813م)، خرج في السنة المذكورة لغزو بلاد المصامدة وأخضع قبائلهم، ووصل في غزوهم حتى السوس الأقصى، إذ أخضع مدينة نفيس ومدينة أغمات، ثم عاد إلى فاس⁽¹⁾.

وبهذا تذكر الرواية أنه في المحرم من سنة 197هـ خرج لغزو بلاد المصامدة، فأخضع قبائلهم، وانتهى حتى السوس الأقصى، إذ أخضع مدينة نفيس، ثم عاد إلى فاس⁽²⁾ إذن استطاع إدريس الثاني بحزمه وحكمته إحباط مؤامرات الأغالبة حلفاء العباسيين، ومن ورائهم الخليفة هارون الرشيد، وتمكن من تثبيت سلطانه على قبائل البربر⁽³⁾.

وهكذا بقي حكم الأدارسة ببلاد المغرب قرنين وثلاث سنوات (من 172-373هـ)، فكانت الدولة الإدريسية أول دولة سنوية المبادئ في تلك البلاد، وذلك حسب الآراء والأقوال التي تم عرضها، وكذا وعلى الرغم من انتمائها إلى آل البيت العلوي الحسيني، فهي لم تكن دولة شيعية بالمعنى الشائع كما يُظن ويعتقد، إذ كان لمذهب مالك حضوره الواضح في هذه الدولة، وإدريس الأول نفسه يقول عن مالك [نحن أحق باتباع مذهبه، وقراءة كتابه].

ومما يدل أيضا-على أن الدولة الأدارسة قامت على مبادئ أهل السنة والجماعة، أن إدريس الثاني لما فرغ من بناء مدينة فاس خطب خطبة قال فيها: [اللهم إنك تعلم أي ما أردت بناء هذه المدينة مباحة، ولا مفاخرة، ولا سمعة، ولا مكابرة، وإنما أردت بنائها أن تعبد بها ويُتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، وشرائع دينك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ما أبقيت الدنيا]⁽⁴⁾.

إذن فلقد كان للأدارسة الدور الهام في نشر الإسلام في أجزاء كبيرة من المغرب.

⁽¹⁾ البكري، المغرب، ص123؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص211؛ الناصري، الاستقصاء، ج1، ص169، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص50؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج1، ص201؛ ابن خلدون، ج4، ص13.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص211؛ ابن الخطيب، نفسه، ج2، ص201؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص4، ص13.

⁽³⁾ الناصري، الاستقصاء، ج1، ص171.

⁽⁴⁾ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص49.

4-3- موقف ابن عذاري من قبيلة برغواطة وغمارة وانتحال زعمائها النبوة:

4-3-أ- نسب البرغواطيين: اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة. هل هم زناتة؟ أم خليط

من العناصر. أم أنها تسمية لا تمثل قبيلة بعينها؟

فيرى البكري أن إقليم تامسنا⁽¹⁾ كان مرتعا لقبائل زناتة وزواغة⁽²⁾. ونجم عن هذا

التصور خلاف المؤرخين اللاحقين حول أصل البرغواطيين. فصاحب كتاب الاستبصار يقول

أهم: [كانوا قوما جهالا من زناتة]⁽³⁾. ولم ينسبها ابن عذاري لزناتة وأكد أن برغواطة من

قبائل البربر⁽⁴⁾. كذلك ابن حوقل فإنه قال: [قبيلة برغواطة من قبائل البربر على البحر

المحيط]⁽⁵⁾.

ويرى البعض الآخر، بأنه لم يكن اسما لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد وأب واحد بل

كان اسما لأخلاق من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ادعى النبوة وهو صالح بن

طريف بن شمعون البرباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ فيه وهو برباط بالقرب من شريش

جنوب الأندلس. وسمي من اتبع هذا الدين بربطي نسبة إلى بربط، فعربت العرب هذا الاسم

وقالوا برغواطوبرغواطي وأضافوا إليها هذا الجمع فصارت برغواطة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ تامسنا: كلمة بربرية بلهجة زناتة ومعناها البسيط الخالي، وقد أطلقت على المنطقة الممتدة من الرباط إلى الدار البيضاء. وفي أغلب الروايات من سلا إلى أم الربيع، وكانت أرضا من سدرة وعليق ترعى فيها الأغنام. وما يزال لفظ تامسنا يطلق في صحراء غدامس بمعنى الأرض الفقراء، والبسيط الخالي. ينظر: احمد مختار تاعبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، 1968، ص278، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، الرباط، ج1، ص323.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص134.

⁽³⁾ مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، الإسكندرية، 1958، ص197.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص224.

⁽⁵⁾ ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، 1938، ص32.

⁽⁶⁾ البكري، المصدر نفسه، ص138، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973م، ص130، ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص180، الناصري، الاستقصاء في تاريخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، ج2، ص15، عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص323.

ويضيف ابن دحية أن الاسم الحقيقي بلغواطة، وأن مفردة برغواطة باللام بدل الراء، وأن العامة يخطئون فيها فيقولون برغواطة⁽¹⁾. ويبدو أن هذا المبرر للتسمية جاء من حيث الصورة اللفظية.

ويخالف ابن خلدون هذا الرأي، حيث يعلق على هذه الآراء، فيقول في معرض حديثه على أصل البرغواطين ردا عن نسبهم إلى زناتة، يقول السلأوي: [وقد نقل بعض الناس في نسب برغواطة فبعضهم يعده في قبائل زناتية وهو من الأغاليط البينة، وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة]. ثم يضيف أن برغواطة هم الجيل الأول من المصامدة، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوبا كثيرة متفرقين، وكانت مواطنهم في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفي وآسفي. وكان كبيرهم الأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح.

أما صالح بن طريف فمعروف فيهم وليس من غيرهم ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه دخيل في نسبه⁽²⁾.

ويجسم هذا النص الخلاف حول أصلهم. غير أن قول ابن خلدون أنهم شعوب كثيرة متفرقة وإشارة المؤرخين الآخرين إلى أن برغواطة ليس اسما لقبيلة معينة دفع البعض أمثال عبد الوهاب بن منصور إلى التأكيد بأن الكلمة ليست لها دلالة سلالية، وإنما تدل على نحلة دينية أطلقت على القبائل التي اتبعتها فقبل لها برغواطة كما يقال للشيعية والخوارج والمعتزلة⁽³⁾، وهو رأي جدير بالملاحظة.

⁽¹⁾ ابن دحية الجلي، المطرب في أشعار أهل المغرب، القاهرة، 1954، ص 88389.

⁽²⁾ ابن خلدون، العبر، دار الكتاب اللبناني، 1968، ج 6، ص 428437.

⁽³⁾ عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ج 9، ص 322.

غير ان نص ابن خلدون الصريح واعتماده من قبل عدد من المؤرخين يجعلنا نميل إليه لأنه أقرب إلى المنطق، إذ لا يمكن لهذه القبائل الخضوع لسلطة صالح. كما أن المؤثرات البرغواطية ظلت واضحة في مناطق المصامدة.

ويؤكد ذلك الدكتور إبراهيم حركات بقوله: [إني أرجع تأكيد ابن خلدون لأن البعض المؤثرات البرغواطية ظلت حتى يومنا هذا في بعض مناطق المصامدة الجنوبية مثل: كراهية اكل البيض، ووجود عدد كبير من المتضلعين في العرافة والسحر والاعتماد على التمام والرقمي في العلاج وطرده الشر⁽¹⁾].

ومن الاستشارات الأخرى التي تدفع إلى الاستخفاف برأي البكري⁽²⁾ في إرجاع نسب البرغواطين إلى زناتة هي تلك الإشارة التي تناولتها المصادر بكثرة والتي تفيد أن برغواطة انسحبت من الثورة لما قتل المسيرة المطغري وأسندت القيادة لزناتة⁽³⁾، ويبدو انه ما من داع يجعل برغواطة تنسحب من ثورة تزعمها لو كانت بالفعل قبيلة زناتية.

أما فيما يخص التسمية فقد طغى على الروايات إرجاع أصلها إلى مسقط رأس طريق بواد برباط من حصن شذونة بالأندلس، فقيل أنه أطلق لفظ برباطي على كل من اعتنق هذا الدين، نسبة إلى أصل زعيم الدعوة، ثم حرّفت الكلمة على السنة العرب فقالوا برغواطي⁽⁴⁾.

وبالمقابل نجد ابن خلدون مرة أخرى يواجه الذين تبناوا هذا الطرح بكثير من التساهل، ويؤيده في ذلك الدكتور إبراهيم حركات مؤكدا أن ابن خلدون محق في الاستحقاق حين يرد نسب برغواطة إلى برباط، وربطها بأصل صالح بن طريف، لأن برغواطة قبيلة كبيرة عرفت

(1) الناصري، ج1، ص65، ج1، ص114؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، 1965م، صص 103، 34، عبد الله علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة، 1964م، صص 13، 42؛ إبراهيم حركات، "المجتمع الدكالي والفكر الديني"، مجلة دعوة الحق، 224، غشت 1982، ص72.

(2) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص819823؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، ص197.

(3) ابن عذاري البيان المغرب، ج1، ص223؛ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص819.

(4) ابن ابي زرع، الأنيس المطرب، ص130؛ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص823.

كذلك قبل الإسلام، ويضيف-أيضا-أنه ليست لها علاقة بالباكات «الذين يحتمل أن المقصود بهم بقبوة؛ التي كانت ذات وزن وانتشار شمال المغرب أيام الرومان.

ويجتم كلامه في هذا الصدد بالقول: [والأنسب رد مصطلح برغواطة] إلى -بركوتن بكاف معقودة-التي تعني التنطع والتمرد كما يشير إلى ذلك إبراهيم حركات⁽¹⁾. بينما يشير أحمد توفيق في تعليقه على برغواطة بأن الأصل الصحيح لهذه التسمية هو بلغواطن أو الغواطن وهي صيغة جمع وعند تعريبها تستبدل النون الأخيرة بتاء كما يقال في إزتاكن: صنهاجة، وفي امصمودن: مصمودة، ويضيف أن معنى الغواطن هو المنحرفون⁽²⁾.

4-3-ب- ادعاء صالح بن طريف البرغواطي النبوة: ما من شك أن مثل هذه المواضيع تتضارب وتتعدد فيها الآراء، وتتشعب فيها الحثيات، لما تنفرد به من سمات ومزايا، ولعل أبرزها الغموض والتعقيد، وكذا غياب المصادر لمنتسبها.

فالحديث في هذا الإطار يتضح جليا عند الكلام عن برغواطة التي ظهر فيها صالح بن طريف وزعم أنه نبي وأورث النبوة بنيه من بعده، فبين مصدق لما نسب إليه من زندقة ومروق عن الإسلام وبين مكذب لما روي عنه من أخبار ومنافع عن قبيلته ومهونا من امر بدعته ونخلته.

وبعد الاطلاع على جملة من المصادر والكتابات الحديثة حول هذا الموضوع، تبين لي عدة آراء وجملة من القراءات، وحتى لا أخوض في هذه الآراء بنوع من التفصيل، سأحاول أن أجمع هذه الآراء في رأي واحد والذي يرتكز في أصله على مسألة ادعاء النبوة من طرف صالح بن طريف، وكذا الأصل إلى موقف ابن عذاري، والذي هو محل بحثنا واهتمامنا من هذه المسألة.

ومن المعلوم ان جل الكتابات التاريخية المتقدمة، والتي بين أيدينا جاءت منتقدة لديانة برغواطة، واصفة إياها بالزندقة والخروج عن الإسلام، وهي مصادر منسية في أغلبها، بالمقابل

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص445؛ إبراهيم حركات، معلمة المغرب، مادة برغواطة، ج4، ص1166.

(2) ابن الزيات، التشوف في رجال التصوف، الهامش 37، ص52.

غابت عنا المصادر البرغواطية التي لا أثر لها، الأمر الذي دفع بالكثير من المؤرخين المعاصرين على التشكيك أو حتى نفي الرواية المنسية.

إضافة إلى القول بأنها تبالغ وتتجنى على البرغواطين خدمة لأغراض سياسية ومذهبية. فهل يا ترى اقترب هؤلاء من الحقيقة؟ وهل حقا يمكن القول بأن المؤرخين السنيين قد جنوا على برغواطة ورموها بالزندقة؟

إن القول بأن أراء المؤرخين السنيين تخدم أغراض سياسية ومذهبية معادية لبني طريف وهذا ينطبق على مؤرخنا ابن عذاري، فهو كلام على عواهنه يفتقد إلى الأدلة البينة، فما هي هذه الأغراض التي يسعى إلى خدمتها ابن حوقل والبكري، والذين نقلوا عنهم كابن عذاري وابن الخطيب وابن زرع وابن خلدون، حتى ينسبوا إلى برغواطة دون غيرها من قبائل المغرب الكثيرة الزندقة والكفر؟، ثم أي هدف يسعى إليه هؤلاء للتشفي عن هؤلاء؟

فكان الأولى اذن والأجدر قبل إطلاق عبارات عامة على الذين كانوا الأقرب على واقع البرغواطين خاصة عندما يدور الحديث عن نحلة أو مذهب يخالف اهل السنة والجماعة.

أما ابن حوقل فمن المعلوم انه عاش في القرن الرابع الهجري، وتوفي تحديدا (سنة 367هـ/979م)، هو الذي يقول: [وذلك أن رجلا كان يعرف بصالح بن عبد الله دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلت منزلته في علمها إلى أن قوم الكواكب وعمل على التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه، ثم عاد إلى قومه فدعاهم إلى الإيمان به وذكر أنه نبي ورسول مبعوث إليهم بلغتهم...]⁽¹⁾.

وذكر البكري أن البرغواطين يقول: [يقدمون مع الإقرار بالنبيين الإقرار بنبوة صالح بن طريف وبنيه ومن تولى بعده من ولده، وأن الكلام الذي ألف لهم وحي من الله تعالى لا يشكون فيه، تعالى الله عن ذلك]⁽²⁾.

⁽¹⁾ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص 82، 39.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك، ص 138.

ويظهر من الروايتين أن رواية ابن حوقل أقل من رواية البكري، إذ فيها شيء من الاضطراب والأخطاء في أسماء الامراء وسني حكمهم، إضافة إلى أن صالح بن طريف أراد إيجاد مبرر لديانته ولكونه نبيا على أساس عدم استقامة الحق دون وجود رسول.

وكما نقل الأقدمون من ابن حوقل والبكري على غرار ابن عذاري وابن الخطيب، وابن زرع وابن خلدون الذي يكون قد نقل عن البكري بشيء من التمحيص⁽¹⁾.

فقد جاء عن ابن عذاري نقلا عن ابن القطان وغيره: [وسار... إلى تمسانا، وكانت بلاد بعض قبائل البربر فنظر إلى شدة جهلهم؛ فقام فيهم، ودعا إلى نفسه، فبايعوه وقدموه على أنفسهم، فشرع لهم ما شرع، ومات بعد مدة، وخلف من الولد أربعة، فقدم البربر ابنه صالحا، فأقام فيهم على الشرع الذي شرعه أبوه طريف، وقد حضر مع أبيه حرب مسيرة الحقيير ومغرور بن طالوت الصفرين، فادعى أنه أنزل عليهم قرآنهم، الذي كانوا يقرءونه، وقال لهم إنه صالح المؤمنين، الذي ذكره الله في كتابه العزيز، وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرائعه وفقهه من دينه، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره، وينتشر خبره، فيقتل حينئذ من خالفه وأمره، موالة لأمير المؤمنين بالأندلس...]⁽²⁾.

وحسب ابن عذاري؛ فإن قبائل برغواطة اعتنقت آراء الخوارج، ظهر فيهم صالح بن طريف فأتى بدين جديد، وادعى النبوة زاعما أنه صالح المؤمنين المذكور في سورة التحريم، وكان ذلك في القرن الثاني الهجري، كما عهد إلى ابنه إلياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه في دينه وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوي وآمن، فإنه حينئذ يدعو إلى ملته ويقتل من خالفه⁽³⁾، وغير ذلك من البدع، ولذا فيعتبر ابن عذاري ذلك ارتدادا عن الإسلام.

(1) ابن عذاري، ج 1، ص 226227؛ ابن الخطيب، ج 3، ص 182183.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 56.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 56.

إضافة إلى الناصري الذي يؤكد: [أن صالح رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا، وقدم على المغرب فتزل تامسنا فوجد فيها قبائلا جهالا من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخليهم بلسانه، وسحرهم فصدقوه واتبعوه وادعى النبوة وشرع لهم الشرائع]⁽¹⁾.

وكما نقل الاقدمون من البكري وابن حوقل، نقل المحدثون، واتفقوا على ادعاء صالح النبوة ودعوته لديانة جديدة، عدا محمود إسماعيل وسعد زغلول وغيرهما...

ونختم كلامنا حول ادعاء صالح بن طريف للنبوة، ما وقف عنده مولود عساف بين نفي الزندقة والردة عن برغواطة لادعائها النبوة، وبين اثبات اسلامها الذي ذكر أنه لا يختلف مع الإسلام جوهريا إلا في التحريف والتبديل ووضع المراسيم والطقوس في غير موضعها، وهذا الكلام يحمل تناقضات واضحة، فإذا وقع التحريف والتبديل وغيرت العبادات وحرفت النصوص، وبدلت الأحكام، فهذا يعني دين آخر غير الإسلام الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فيجب إذن تسمية الأسماء بمسمياتها، فالإسلام دين وشريعة برغواطة دين آخر، وهذا ما وقف عنده المؤرخون القدامى، واختلف حوله المعاصرون.

4-3-ج- ادعاء حاميم بن من الله للنبوة: تواصلت الثورات بأشكال مختلفة، وقد استخدم السكان كل وسائل المقاومة العسكرية والعقدية والفكرية، لذلك توالى ظهور مدعي النبوة لاسيما في المناطق النائية والجبلية، فقد ظهرت ديانة غمارة بمثل ما ظهرت به ديانة برغواطة في مجكسة إحدى بطونها في نواحي تيطوان تقريبا⁽²⁾، وأول من أسس هذه الديانة هو: أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجوفال بن وأزروال الملقب بالمفتري⁽³⁾، واسم حاميم مأخوذ من القرآن الكريم، حيث يوجد عدد من السور تفتح بذلك-حم-.

(1)الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج1، 1954، ص15.

(2)البكري، المصدر السابق، ص101.

(3)المصدر نفسه، ص100؛ وعند ابن خلدون، جاسم بن من الله بن حريز بن عمرو بن رجفو بن ازروال بن مجكسة يكتى أبا محمد، وأبو خلف، ينظر العبر، ج6، ص4445.

لا ريب أن أفكار الخوارج الصفرية، والصراعات السياسية بين القبائل الجبلية البعيدة عن مراكز التمدن والتحضر التي تتميز بروح التمرد، حيث شكلت عائقاً أمام انتشار تعاليم الشريعة، والثقافة العربية الإسلامية في هذه المناطق، الشيء الذي أسهم في بقاء التقاليد القديمة قائمة بما فيها المعتقدات الوثنية، وبقايا الديانتين اليهودية والنصرانية، ومن هذه القبائل غمارة «التي ظلت على خشونتها الجبلية غارقة في الجهالة والبعد عن الشرائع والانتباز عن مواطن الخير كما يقول ابن خلدون⁽¹⁾.

وهؤلاء الجبليون كانت سداجتهم في الاعتقاد يضرب بها المثل في كل العصور، كما عرفت المنطقة بالسحر والسحرة، وهي التي ظلت تغذي بلاد المغرب بهذا النوع من الذي مازال متواصلاً حتى زماننا، وتأتي نبوة حاميم وغيره في سياق محاولة هؤلاء إبراز قدراتهم الفكرية، وقولية تعاليم الشريعة الإسلامية وفق طبيعتهم وتقاليدهم وتكوينهم النفسي، وقد قال ابن عذاري في تعليقه عن هذه الديانة: حاميم المفتري الذي تنبأ بجيل «حاميم» والذي سن لأتباعه بعض العبادات قال: [ونحو هذا من الباطل والحماقات]⁽²⁾، فحسب ابن عذاري هذا وصف قدحي، إذ هذه الدعوات كانت تشكل تهديداً واضحاً على مستقبل الإسلام، وهذا إن دل فإنما يدل على استهجان المؤرخين لهذا النوع من الحركات الباطلة.

فالحقيقة التي أراد ابن عذاري صياغتها هي أن هذه الأفكار المزعومة لحاميم بن من الله تدخل في مسألة السفه وبطلان دعوته، وبالتالي فكان لابد من صرف الناس عن هذا النوع من الأباطيل.

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص44.

⁽²⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص192؛ البكري، المسالك والممالك، ص100.

إذن لم يكن الأمر مقتصرًا على برغواطة، إذ نجد ابن خلدون وصاحب الاستبصار ذكروا وجود أمر مماثل وسط قبائل غمارة، حيث كثر المشعوذون وظهر بينهم «حاميم بن من الله» والذي حُرف تعاليم الإسلام، فجعل الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها⁽¹⁾.

وبحسب ما ذكر ابن خلدون، فقد حظيت دعوة حاميم باستجابة كبيرة، حيث أقر العديد من السكان بنبوته، وتعهدوا بمناصرتة ونشر أفكاره. وبالتالي فقد كانت قبيلة غمارة غارقة في الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداءة والانتباز عن مواطن الخير.

ومما ينبغي التأكيد عليه أن كلا من صالح بن طريف وحاميم بن من الله ادعى النبوة، ووضع مذهبًا مستلهما من الإسلام وعلى قدر عقلية البربر ومعبرا عنه في «قرآن» مكتوب باللغة البربرية (ويختلف كل الاختلاف عن القرآن الكريم)، وكلاهما اهتما بتحديد شعائر منظمة أولى من الاهتمام بوضع عقائد متعمقة، وكلاهما تأثر بالسحر والكهانة، كذلك يلاحظ أن الديانتين البربريتين اللتين تحدثنا عنهما في هذا البحث لم تستخدمتا نفس وسائل الدعوة والانتشار وفضلا عن ذلك فإن هذه البدع البربرية المحلية جدا، لم يتسع مداها كثيرا، حتى بعد ظهور أشخاص آخرين سلكوا سبيل ادعاء النبوة على غرار الماوطي أو المارطي، الناصر لدين الله...

4-3-د: ما شرعه صالح بن طريف من قواعد لنحلته المزعومة: تتكون ديانة صالح بن طريف من نية تعبدية مماثلة لتعبد الإسلام: صلاة، صوم، زكاة...، لكنها محورة تحويرا تخضع للموروث الامازيغي السابق للإسلام ويولي حاجة متنوعة، إلا أن ندرة المعلومات النابعة من التهميش تجعل التحليل منقوصا في بعض الأحيان⁽²⁾.

⁽¹⁾ قبائل تشوطن جبال الريف بالمغرب، ويضيف البكري ان هذه الحركة وضعت قرآن باللغة البربرية. ينظر: أبو عبيدالله البكري، المصدر

السابق، ج2، ص351359.

⁽²⁾ المبروك المنصوري، ظاهرة التنبؤ في المغرب الإسلامي وأثرها في الملامح التجربة الدينية إلى نهاية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، تونس، ص19.

يبدو أن الصلاة كانت من أهم الشعائر الأمازيغية، لذلك وصلتنا معلومات دقيقة تمكننا من إعادة ترتيب بنيتها، وقد وجدت خطة في برغواطة اسمها (صاحب الصلاة)، فهل يمارس صاحب الصلاة نفس الوظائف التي يمارسها الإمام، أما المؤذن فلا⁽¹⁾، وحسب رأي ابن عذاري، فإن البرغواطيين لم يكونوا يستعملون الأذان لقوله: [وليس عندهم آذان ولا إقامة وإنما هم يكتفون في معرفة أوقات الصلاة بصراخ الديكة]⁽²⁾، وكان عدد صلواتهم يصل إلى عشرة، خمس صلوات في الليل وخمس في النهار، وبعض صلواتهم دون سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجعات متصلات، ويرفعون وجوههم وأيديهم من الأرض مقدار نصف شبر، ويقرأون نصف قرآنهم في وقوفهم، كما اشترطوا في وضوئهم ترتيباً مختلفاً، والمبالغة في الطهارة خاصة مميزة عند الأمازيغ، ربما تتصل بتقديس قديم للماء، باعتباره أصل الحياة.

أما فيما يخص الصوم عند البرغواطيين فقد خالفوا الديانة الإسلامية تماماً، فقد نقلوا صوم رمضان إلى رجب، كما تجب الزكاة على من له مال زكوي، ففي ديانة برغواطة يأخذون في الزكاة العشر من جمع الثمار ولا يأخذون من المسلمين شيئاً⁽³⁾. كما تم إسقاط فريضة الحج لعدم الإيمان بمكة وقدسيتها⁽⁴⁾، بالإضافة إلى عدم معرفة هذه الشعيرة قبل دخول الإسلام إلى بلاد الأمازيغ عكس ما كان متعارف عليه في بلاد العرب وهذا ما أدى إلى التخلص عليها من هذه الديانة⁽⁵⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 19.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

(3) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار لمجهول، ص 199.

(4) المبروك المنصوري، المرجع نفسه، ص 21.

(5) المبروك المنصوري، المرجع السابق، ص 21.

كما حرم صالح الكثير من الأشياء في ديانة برغواطة وخاصة في الطعام، فقد كثر التحريم في المأكولات أما فيما يتعلق بالحدود والعقوبات، شرع صالح قتل السارق والدية عندهم مائة من البقر⁽¹⁾، كما شرع رجم الزاني ونفي الكاذب⁽²⁾.

لقد كان النص الديني لديانة صالح بن طريف مزيجاً من أسماء الحيوانات وأسماء الأشياء وفي هذا يقول البكري: [وقرأهم الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لادن آدم أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس، وفيها سورة فرعون وقارون وسورة هارون وماروت، سورة طالوت، سورة نمروذ وأشبهها من الأفاصيص]⁽³⁾.

أما ترتيب ابن عذاري فيها سورة فرعون وسورة الملك، سورة الجراد، سورة الحمل، هاروت وماروت، سورة الحشر، سورة غرائب الدنيا وما فيها علم عظيم عندهم⁽⁴⁾، أما عن ترتيب ابن خلدون فقد أضاف سورة نوح الفيل ابليس⁽⁵⁾، وهذه كل السور التي وصلت من ثمانين سورة وعددها 21 سورة.

4-3-هـ- المؤثرات المختلفة على الديانة البرغواطية: كان من الطبيعي أن تتأثر الديانة البرغواطية بالإسلام، بحكم أن مؤسسها كان مسلماً، وأن كان هذا الأثر جاء باهتا وبعد صلة هذه الديانة عن الإسلام، فقد حرق البرغواطيون وشوهوا من قواعده وأسسها. كما يتمثل الأثر الإسلامي في اعتراف البرغواطية بما سبق من الأنبياء، وقتل عيسى عليه السلام الذي اعتبره صالح بن طريف من أصحابه، وموسى كليم الله الذي صالح أنه كلمه ونسب إليه كلاماً كثيراً⁽⁶⁾.

(1) مجهول، الاستبصار، ص 199.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 140.

(4) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 227.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 276.

(6) سحر عبد العزيز، المغرب في العصر الإسلامي من جديد حول برغواطة، ص 52.

وكذلك تأثرت البرغواطية بالتشيع، ربما لأحكامهم بالشيعية الجلية الذين كثر عندهم في مدينة تارودانت ونواحيها من المغرب الأقصى، الذين كانوا يعيشون بالقرب من تامسنا⁽¹⁾. ويظهر الفكر الشيعي جليا في وصية صالح بن طريف إلى ولده إلياس عند رحيله إلى الشرق، فقد أوصاه بعدم إظهار ديانتته إلا إذا أجيب بقوته⁽²⁾: [وتذكرنا هذه الوصية بمبدأ التقية الذي آمن به الأئمة الإسماعيلية الذين عرفوا بالأئمة المستورين]⁽³⁾، وربما كان المذهب الخارجي أكثر المذاهب الإسلامية تأثيرا على عقيدة البرغواطيين وهذا أمر طبيعي، إذ أن مؤسسها طريف كان أصله من الخوارج الصفرية، ويتمثل التأثير الخارجي في مبالغة البرغواطيين في التمسك بعقيدتهم، بحيث أقدموا على محاربة كل الدويلات الإسلامية التي كانت قائمة في المغرب الإسلامي دون هوادة.

أما ما يتعلق بالتأثيرات غير الإسلامية فأولها ما تم اقتباسه من الفكر اليهودي خاصة وأن طريف بن شمعون مؤسس هذه الدولة وواضعه شرائعها يرجع إلى أصول يهودية⁽⁴⁾، ولقد حرص على إبراز هذا الأصل في استخدام شمعون بدلا من الاسم العربي سمعان، ويتضح الأثر اليهودي، ربما في تحريم البرغواطيين أكل البيض...

لقد ظهر الفكر اليهودي في عقيدة برغواطية بصورة واضحة إلى حد أن بعض المؤرخين مثال نجوم سلوتش اليهودي ودفردان يؤكدان أن دولة برغواطية هي دولة يهودية في أسبابها واتجاهها، ونعتقد أنه لا ينبغي الاستهانة بالتأثير اليهودي في العقيدة البرغواطية استنادا إلى الأصول اليهودية لحكامها وقيامها في وسط مجتمعات يهودية، كانت قائمة في المغرب الأقصى.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 652؛ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 194.

⁽²⁾ الاستبصار مجهول، ص 198.

⁽³⁾ سحر بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص 53.

⁽⁴⁾ السلاوي، المصدر السابق، ج 2، ص 14.

ويُلي التأثير اليهودي تأثير مسيحي واضح المعالم، وإن كان أقل بكثير من تأثير اليهودية، فقد وردت بعض المصادر إلى وجود بعض المسيحيين في إقليم فاس في الوقت الذي نزل فيه⁽¹⁾ إدريس بن عبد الله بن الحسن بوليلي⁽²⁾، ولذلك لا يمكن استبعاد الأثر المسيحي في الفكر البرغواطي خاصة بعدما عثر مارسية على وثيقة بمدينة وليلي مضمونها وجود مواطنين من الروم في هذا الإقليم كانوا على الديانة المسيحية، إضافة إلى ما أخبر به صالح ابنه الياس طبقا لما أوردته المصادر أن عيسى عليه السلام صاحبه وأنه يصلي.

وإلى جانب هذه التأثيرات السابقة لا يمكن أن تغفل دور الأفكار المحلية البربرية، والتي ربما يرجع بعضها إلى الوثنية، فقرآن صالح الحديد كان باللغة البربرية وصلاتهم كانت بالبربرية، وقد دفع البعض إلى الربط بين عقيدة برغواطة والديانات الوثنية القديمة، وقد فسروا كلمة ياكش على أنها (ياخوس) إله اليونانيين.⁽³⁾

4-3-و: موقف المرابطين من البرغواطين وقبيلة غمارة: شكّلت دولة المرابطين إحدى التجارب الناجحة في الغرب الإسلامي في ظل انقسام العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية منفصلة عن الخلافة العباسية في بغداد. وقد كانت في بداية أمرها حركة دعوية إصلاحية، استطاعت إعادة نشر تعاليم الإسلام الصحيحة خاصة في بعض المناطق التي عرفت خروجاً صريحاً عن بعض تعاليم الدين أمثال منطقة برغواطة التي استطاع زعيمها اليهودي-المدعي للنبوّة-صالح بن طريف بن شمعون في إقامة دولة بتعاليم منحرفة تماماً عن الدين الإسلامي، فلم يكن الأمر مقتصرًا على برغواطة، إذ نجد ابن خلدون وصاحب الاستبصار ذكروا وجود أمر مماثل وسط قبائل غمارة حيث كان المشعوذون وظهر بينهم «حاميم بن من الله» الذي حرف

(1) سحر عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 54.

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج 1، ص 19.

(3) سحر عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 5455.

تعاليم الإسلام، فجعل الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، كما كان المغرب الإسلامي يخضع لحكم زناتة⁽¹⁾.

إن دولة المرابطين قبل تبلورها كمشروع سياسي لم تكن سوى منهج للتغيير والإصلاح الديني والاجتماعي خاصة الفساد الذي دب وانتشر وسط المغاربة⁽²⁾.

ومن بين هؤلاء الذين نادوا بالإصلاح الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي⁽³⁾ والفقير أبو عمران الفاسي⁽⁴⁾، اللذان واجها برغواطة وزناتة لتظهر ملامح مشروع سياسي بدأ يحيى بن إبراهيم التعريف بمنهجه، حيث صارت العامة تتربى عليه لتقوى بفضل شكيمة الدولة القادمة.

بعد أن لاح مشروع الدولة أحال أبو عمران المثلثين على فقيه بلاد السوس وكان بن زلوان⁽⁵⁾.

ومما يبدو وأنه اختبر الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ليخلف تارشتا» في زعامة صنهاجة، انصرف الاهتمام إلى ما يمكن أن نسميه بالأوضاع الداخلية لهذه القبائل، فأثناء وجوده في بلاد المغرب تردد على مجالس العلم، الأمر الذي دعاه إلى إعادة النظر في أحوال قومه الدينية والاجتماعية المتردية.

ولا شك أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي أثناء حضوره بعض مجالس العلم في المغرب أدرك ما كان عليه قومه من جهل لتعاليم الإسلام، ولما سأله الفقيه أبو عمران الفاسي عن حالة

⁽¹⁾ زناتة هي من أولاد جانا بن يحيى بن صولات بن ورتناج بن ضري بن سنكو بن قيد واد بن بن شعبان بن مادغيس بن هود بن هرسق بن كداد بن مازيغ، ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص65.

⁽²⁾ مجهول، الحلل المشوية، ص1920؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص08.

⁽³⁾ هو يحيى بن عمر بن تكلاكني اللمتوني أبو زكرياء، مؤسس دولة المرابطين في المغرب الأقصى، ينظر: البكري، المصدر السابق، ج2، ص353؛ وورد عند ابن عذارى باسم يحيى بن عمر بن تكلاكني اللمتوني أبو زكرياء، ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص09.

⁽⁴⁾ هو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج العقجومي الفاسي نزير القيروان، وأصله من فاس، تفقه بالقيروان ثم رحل إلى قرطبة، ثم مصر، فيغداد سنة399، ثم عاد إلى القيروان، ينظر: الدباغ، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، تحقق: محمد ماضور، تونس، 1978، ج3، ص159160؛ ابن قنفذ القسنطيني، تذكرة المحسنين بوفيات الاعيان وحوادث السنين، تحقق: محمد حجي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996، ج1، ص299.

⁽⁵⁾ ويذكره صاحب الحلل المشوية باسم واكاك، وفي نسخة أخرى باسم بوجاج، أما أبوه فاسمه زولان حسب صاحب الحلل المشوية وروض القرطاس، أما البكري فيورده باسم زلوي، ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص08، هامش01.

قومه وما ينتحلونه من مذهب في الإسلام، كانت إجابته صريحة، حيث وصف قومه بأنهم أناس غلب عليهم الجهل وليس عندهم من العلم عن الإسلام شيء وليس فيهم من يقرأ القرآن⁽¹⁾.

أقول ليس من اختصاص هذا البحث التفصيل في كيفية قيام حركة المرابطين أو نسبها أو امرائها أو...، إلا انه لا بد هنا من الإشارة بإيجاز شديد إلى تطور أهم الأحداث المتعلقة بمواقف المرابطين تجاه قبائل برغواطة وغمارة، والتي نستشفها مما نقله مؤرخنا ابن عذاري المراكشي. فابن عذاري عذاري على سبيل المثال في حديثه عن مراسيم وداع يوسف بن تاشفين لأبي بكر. قال ما نصه: [..فدعا له الأمير يوسف وشكر وقال: لك علي ألا أقطع أمرا دونك، ولا أستأثر ان شاء الله بشيء عليك]⁽²⁾.

ويذكر-أيضا-أن يوسف بن تاشفين ظل يمد أبا بكر بن عمر بالتحف والهدايا حتى توفي هذا الأخير في جهاد ضد السودان⁽³⁾.

وإن من الدلالات التي يجب الإشارة إليها على ما كان للظروف الدينية والاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد المغرب والصحراء من أثر في قيام حركة المرابطين، فالبكري أورد تفصيلات عن موجة التنبؤ والشعوذة التي عمت جزءا كبيرا من بلاد المغرب الأقصى في الفترة التي قامت فيها حركة المرابطين⁽⁴⁾.

وقد عبر ابن أبي دينار عن هذه الحالة السيئة بقوله: [وقام بالمغرب عدة أقوام من المفسدين وقليل من المصلحين، فقيض الله سبحانه وتعالى دولة المثلثين البربر ويقال لهم المرابطين]⁽⁵⁾،

⁽¹⁾ يؤيده في الرأي ابن خلدون، شكاه له حال قومه كوفهم منقطعين لا يصل إليهم إلا بعض الجهال حرفتهم التجارة وأن قومه حريصون على تعلم القرآن لو وجدوا من يعلمهم؛ ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص374، ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص06.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص25.

⁽³⁾ عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقية، ص105.

⁽⁴⁾ البكري، المصدر السابق، ص134، 141.

⁽⁵⁾ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تحق: محمد شمام، تونس، ص9899.

ويؤكد ابن عذاري حالة الفوضى التي كانت تعيشها بلاد المغرب وشبهها بالحالة التي كان عليها ملوك الطوائف بالأندلس⁽¹⁾.

ومن هذه الدلالات-أيضا-ما حظيت به الحركة وقادتها من ثناء بالغ في المصادر، وربط ذلك بما قدمه أولئك القادة من جهود لرد الناس إلى السنة وقمع الفرق والفئات المنحرفة في المغرب وحمل لواء الجهاد على غرار عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر الذين استشهدوا على أرض المعركة في جهادهم ضد هؤلاء أو غيرهم⁽²⁾.

فالمصادر إذا تعيد قيام حركة المرابطين إلى ظروف دينية واضحة المعالم في كل من المغرب والصحراء، دفعت بالمنشئين الأوائل لها للسعي حثيثا للإصلاح الديني؛ فدخلوا في جهاد على نطاق واسع في هاتين المنطقتين، ففي بلاد المغرب على وجه الخصوص جاهدوا فئة البرغواطيين⁽³⁾ المنحرفة، وقضوا على الشيعة والوثنيين، ودخلوا في حرب مع اليهود هناك⁽⁴⁾.

كما تناقلت المصادر مواقف عظيمة للأمير أبي بكر بن عمر أبرزها تنازله عن السلطة لابن عمه يوسف بن تاشفين، الأمر الذي يؤكد صدق نيته في الجهاد، وزهده في المكاسب الدنيوية⁽⁵⁾.

ويشير ابن عذاري إلى جهود عبد الله بن ياسين في ذلك، فيذكر أن ابن ياسين عمل كل ما في وسعه لإخماد الفتن التي ثارت بين قبائل "المصامدة" وقبائل بلاد "تامسنا" (سنة 450هـ/1058م)، حيث سار من "سجلماسة" وطاف بمواطن هذه القبائل واجتمع برجالها ووعظهم، ولم يغادر حتى أخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للأمير أبي بكر بن عمر،

(1) ابن عذاري، نفسه، ج4، ص10.

(2) ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936، ج2، ص29.

(3) عن البرغواطيين وسبب نعتهم بهذا الاسم؛ ينظر: البكري، المصدر السابق، ص134، 140، ابن أبي زرع، ج2، ص2426؛ احمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، 1978، صص278، 287.

(4) العبادي، المرجع نفسه، صص278، 287.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص2425؛ ابن أبي زرع، ج2، صص32، 35؛ ابن خلدون، ج6، ص184.

وكان مما قاله لهم في إحدى خطبه: [ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية، فإنه من أهل النار] (1).

إذن ولما كان هدف المرابطين الأساس في حركتهم كان رد الناس إلى الإسلام الصحيح، والعمل على نشر الإسلام، كما تبين سابقا: لذا فقد حرصوا على تطبيق السنة في عملية الجهاد، وقد ساروا في ذلكم على مذهب الامام مالك، فالبكري وهو ممن عاصر قيام الحركة يقول عن المرابطين: [وهم على السنة متمسكون بمذهب الامام مالك بن أنس-رضي الله عنه- وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين] (2).

ويذكر ابن عذاري في حديثه عن جهاد المرابطين في السنوات الأولى من قيام الحركة أنه رأى كتابا قديما قد بعث به الفقيه عبد الله بن ياسين إلى أهل الجبل الموالي لبلاد "المتونة" يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان أولئك القوم مشركين حسب ما ذكر ابن عذاري (3).

ويؤيد ذلك ما ذكره ابن أبي زرع في "الانيس المطرب"، وهو أحد المصادر التي اعتمد عليها ابن خلدون، من أن ابن ياسين خطب في أتباعه عند أول خروج لهم ويبيّن أن عليهم أن يبدؤوا بالإنذار والدعوة وإبلاغ الحجة قبل الشروع في الجهاد والدخول في الحرب (4).

وطبق المرابطون مبدأ التبليغ قبل الحرب كذلك مع البرغواطيين الذين عُذّوا أهل كفر وضلال حسب ما أشارت إليه المصادر (5).

(1) ابن عذاري، نفسه، ج4، ص15.

(2) البكري، المصدر نفسه، ص164.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص12.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص14.

(5) ابن أبي زرع، ج2، ص24؛ ابن أبي دينار، ص106.

وكما كان البكري يثني على المرابطين لقطعهم جميع المغارم⁽¹⁾، وكذلك ابن عذاري لم يغفل هذه الناحية في إشارته إلى ما عرف به المرابطون من حرص على تطبيق السنّة⁽²⁾. وبهذا استطاع المرابطون القضاء على مذاهب الزندقة من قبائل برغواطة وحلفائها. وتوحيد المغرب الأقصى تحت راية السنة والمالكية⁽³⁾.

4-4- موقف ابن عذاري من الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية:

لقد شهدت بلاد المغرب خلال العصر الوسيط قيام كيانين بمرجعية ومذهبية هما الدولة الفاطمية (296-362هـ/909-973م)، والدولة الموحدية (515-668هـ/1121-1269م)، حيث ارتكزت هاتين الدولتين على المهدوية كأحد أهم الدعائم الفكرية في إطار تمكينها للمشروع السياسي، لذا ارتأيت ادراج هذا العنصر لمؤلفنا ابن عذاري المراكشي، وإبراز مواقفه الواضحة من أصحاب التيارات الفكرية والفرق المذهبية إضافة إلى كيفية توظيف هذه الأفكار لخدمة المشاريع السياسية في بلاد المغرب.

لقد بدا موقف مؤرخنا ابن عذاري المراكشي عند ذكره للدولة العبيدية الشيعية، وحين وصف مبادئهم وعقائدهم وفضح آرائهم الضالة، وذكر أعمالهم الشنيعة، ويدعو عليهم باللعنة، فقد انزل الاسماعيليون عبید الله المهدي منزلة الإله، وادعوا بأنه يعلم الغيب⁽⁴⁾، كما أظهروا بدعا كثيرة في العبادات والمعاملات والفرائض⁽⁵⁾، ونكّلوا بالعلماء واضطهدوهم⁽⁶⁾.

فبنوا عبيد حسب ابن عذاري إلى جانب كرههم لأهل السنة كانوا حاكمين وعملوا على نشر مذهبهم، فلذلك كان على بلاد المغرب أن تواجه هذه الدعوة التي سوف لا تترك وسيلة

(1) البكري، نفسه، ص164.

(2) ابن عذاري، نفسه، ج4، ص11.

(3) المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحق: حسين مؤنس، ط1، 1997م، ص198.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص160، 186؛ محمد احمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، ص83، 89.

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج6، ص260؛ المالكي، رياض النفوس، ج2، ص240؛ القلقشندي، صحب الاعشى، ج3، ص576؛

المقرئزي، الخطط، ج1، ص490.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص145.

للفنّاذ إلا استنفذتهاو على أهلها إذا أرادوا التمسك بمالكيتهم أن يلاقوا التنكيل والترويع والقتل
(1).

ولما كانت القيروان قاعدة السنة المالكية وصخرتها العتيدة، دخل إليها عبيد الله وصرح أنه
الإمام المعصوم، وجاهر بسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته الطاهرات، وحكم
بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام، ولم يستثن إلا عليا، قليلا ممن أيده وناصره (2)

ونصّب حسين السباب - لعنه الله تعالى - في الأسواق للسب بأسجاع لقنّها يوصل منها
على سب النبي صلى الله عليه وسلم كقوله: [العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى] وغير
ذلك، وعلقت رؤوس الاكباش والحمر على الحوانيت عليها قراطيس معلقة فيها أسماء الصحابة
رضي الله عنهم (3).

وقطع صلاة التراويح وأبطل الآذان السني وأبدله بالآذان الشيعي، وانتهكت حرمت
المساجد في أيامه، فقد روي أن بعض اتباعه أدخلوا خيولهم المسجد، ولما قيل لهم: [كيف
تدخلون خيولكم المسجد]، قالوا: [إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيول المهدي]، فقال لهم
القيم على المسجد: [إن الذي يخرج من المهدي نجس، فكيف بالذي يخرج من خيله]، فقالوا
له: [طعنت على المهدي] وأخذوه ثم قتلوه (4).

وهذا ما دفع علماء القيروان إلى إعلان معارضتهم الصريحة للعبيديين، وقد كان أبي
عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني أول من ناظر أبو عبيد الله الشيعي في أول الامر فقال
له: [القرآن يقر بأن محمد ليس بخاتم النبيين]، فقال له سعيد: [أين ذلك؟]، فقال له: [في قوله
تعالى: ولكن رسول الله وخاتم النبيين] (5)، فخاتم النبيين غير رسول الله، فقال سعيد: [هذه

(1) أبو العرب تميم، طبقات علماء افريقية وتونس، ص 17.

(2) ابن عذاري، نفسه، ج 1، ص 284.

(3) القاضي عياض، المصدر السابق، ج 3، ص 318.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 284.

(5) الأحزاب، الآية 40.

الواو ليست من واوات الابتداء إنما هي من واوات العطف، كقوله تعالى: [هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم] ⁽¹⁾، فهل من أحد غير الله يوصف بهذه الصفات. وتكلم عنده يوماً، فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ الشايخ، وقام إليه بالرمح، فمنعه أبو عبد الله من ذلك، ثم عطف إلى أبي عثمان فقال له: [يا شيخ لا تغضب، إذا غضب هذا الشيخ غضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف] ⁽²⁾.

إضافة إلى سعيد بن محمد كان أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن على رأس المعارضين للعقائد العبيدية، حيث ترك رباطه وأتى القيروان ليسكنها، فسأل عن سبب ذلك، فقال: [كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم، ولم يكن في وقته أكثر منه اجتهاداً في مجاهدة عبيد الله وشيعته، وكان لا يداري أحداً في ذلك] ⁽³⁾، وعندما حضر أول خطبة لهم في جامع القيروان جلس عند المنبر فسمع خطبتهم، فلما سمع ما لا يجوز سماعه قام وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر الباب في الجامع والناس ينظرون إليه وهو يقول: [قطعوها قطعهم الله]، فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعهم، وهو أول من نبه على ذلك ⁽⁴⁾.

وإذا كان أبو يوسف قد سلمه الله من الأذى، فإن أبا محمد بن العباس بن الوليد المعروف بالهذلي قد ضرب عريانا حتى سال الدم من رأسه، ثم أركب على حمار عريانا وطيف به في أسواق القيروان، ثم حبس وترك بعد ذلك، وحدث له بعد هذا وشاية مفادها أنه يفتي بمذهب

⁽¹⁾ الحديد، الآية 03.

⁽²⁾ المالكي، رياض النفوس، ج 2، ص 72.

⁽³⁾ المالكي، رياض النفوس، ج 2، ص 37.

⁽⁴⁾ المالكي، نفسه، ج 2، ص 43؛ القاضي عياض، المصدر السابق، ج 3، ص 247.

المالكية ويطعن على المهدي⁽¹⁾، وسجن حكم بن محمد بن هشام القرشي لصلابته في السنة وانكاره على اهل البدع⁽²⁾ وغيرهم كثيرا.

وحتى لا ندقق أكثر في التفاصيل لأن هذا البحث لا يختص بذكر كل الجزئيات المتعلقة بالعقائد العبيدية، وإنما نريد أن نقتصر على مواقف ابن عذاري الذي يرى كغيره من المؤرخين، والذين يفتنون نسب العبيديين ويكذبون دعواه، فقال: [وقال سائر الناس: إنه دعوي، وان انتسابه للطالبيين دعوة باطلة] وذكروا عن أبي القاسم بن طباطبا العلوي أنه قال: [والله الذي لا إله إلا هو ما عبىد الله الشيعي منا ولا بيننا وبينه نسب]⁽³⁾.

إن سياسة الاضطهاد التي اتبعها الفاطميون في افريقية وبلاد المغرب خاصة على رافضي عقائد العبيديين ودعواتهم أي السنة المالكية وحدهم، بل شملت جميع المذاهب الأخرى، لاسيما الخوارج الذين من أحص صفاتهم الخروج عن الحكام، فهم لا يحتاجون إلى فتاوى كثيرة وتفكير عميق ليفعلوا ذلك، وعلى النقيض منهم أهل السنة والجماعة الذين يضيّقون هذا الباب كثيرا، لذلك فلقد بذل علماء المالكية مجهودا كبيرا في الدفاع عن عقيدتهم أمام المد الشيعي الإسماعيلي الذي اجتاح المنطقة ووقفوا له بالمرصاد وتستمر مقاومتهم للشيعية الفاطميين ما بقيت رايتهم تعلق في سماء بلاد المغرب وافريقية.

ويؤكد ابن عذاري أن الزيريين قد ساروا على السياسة الفاطمية، كما أن المنصور الزيري ترك البقايا للرعايا الفاطميين، وهو ما فعله من قبل المنصور الفاطمي⁽⁴⁾.

وحسب ابن عذاري يرتبط ظهور أسرة بني زيري في أول أمرها في طاعة الفاطميين وتعاونت معهم في صد الاخطار التي تعرضت لها دولتهم ببلاد المغرب، وكان اول اتصال

(1) المالكي، نفسه، ج2، ص265.

(2) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، تحق: إبراهيم الايباري، بيروت، ط2، 1989م، ج1، ص222، ترجمة رقم275.

(3) وقد فضح الباقلائي نسبه في كتاب كشف الاسرار، وهتك الاستار، وذكر أهم قرامطة وأن أبا عبىد الله الشيعي أحدث لهم هذا المذهب ونسبهم هذا النسب؛ ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص138، ويضيف ابن خلكان أن أهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب، ينظر: ابن خلكان، أعيان الوفيات، ج3، ص117.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص245.

بينهما في عهد المنصور الفاطمي، حين قدم زيري بن مناد وأهل بيته وقبيلته لمحاربة أبي يزيد الخارجي في سنة (335هـ/946م) فخلع عليه المنصور، ووصله وعقد له على أهل بيته وأتباعه وقبيلته، فعظم شأنه⁽¹⁾، وصار بنو زيري أعوانا وأتباعا للفاطميين ومن ثم نشب الصراع بين الصنهاجيين وقبائل زناتة، لأن زناتة كانت دائمة الإغارة على ممتلكات الدولة الفاطمية⁽²⁾.
 وحين عزم المعز لدين الله الرحيل إلى مصر في سنة (361هـ/972م) للانتقال إليها بخلافته، وقع اختياره على يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ليتولى الإمارة بالمغرب خلفا للفاطميين.

ومن الواضح أنه برحيل بنو عبيد إلى مصر بقي بعض ملوك بني زيري يخطبون لهم بإفريقية على غرار يوسف بن بلكين بن زيري (362-373هـ/973-983م)، والمنصور بن يوسف بن بلكين بن زيري (373-386هـ/984-996م)، وباديس بن المنصور (386-406هـ/996-1015م)، فكانت فترة باديس بن المنصور هي نقطة البداية لانقسام بني زيري إلى أسرتين: تحكّم احدهما بالمغرب الأدنى في ليبيا وتونس، وتحكّم الأخرى-أسرة بني حماد- بالمغرب الأوسط في الجزائر. ثم تلتها فترة حكم المعز بن باديس (406-453هـ/1015-1061م)، هذا الأخير الذي حدثت في عهده بعض التطورات.

ومع المعز بن باديس كانت لمؤرخنا ابن عذاري مواقف عنه خاصة بعد ان قطع عن دعوة بني عبيد، فقال: [فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم]، وذكر ابن عذاري-أيضا-أن المعز أمر بلعنهم في الخطب وخلعهم، بل حتى أنه قام بإزالة أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عملة وقطع أسمائهم في الرايات والبنود⁽³⁾.

(1) ابن دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص71.

(2) عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجري، ط1، بيروت، دار الشروق، 1982م، ص72.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص296.

كما أنه يورد لنا أخبار المعز بن باديس قال: [قتل الشيعة وقطع دعوتهم من افريقية، ولعن أمراءهم بني عبيد على سائر منابر افريقية، ووفي لكل واحد من الصحابة حقه، وأقام السنة وكانت متروكة منذ مائة وأربعين سنة]⁽¹⁾.

وصلنا إلى الحدث الأكثر أهمية في تاريخ الدولة الزيرية وهو خلع طاعة الفاطميين والولاء للعباسيين وورود العهد إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله⁽²⁾، وذكر على المستوى السياسي، وعلى المستوى الديني إعلاء المذهب السني وجعله المذهب الرسمي بدلا من المذهب الشيعي الذي استمر زهاء قرن ونصف قرن⁽³⁾.

ومما يجب التنويه به هنا أن نتساءل عن الأسباب المباشرة التي أدت بالأمير المعز بن باديس إلى هذا التحول الخطير في خريطة الولاء لدولة بني زيري؟ وهل المصالح السياسية هي المعول في ذلك؟ أم أنه الدور العقائدي فحسب؟

من المعلوم أن الدبلوماسية الزيرية-أي السياسة الخارجية-استمرت بولائها للخلافة الفاطمية بمصر حتى في عهد المعز بن باديس، واستمر المذهب الشيعي كمذهب رسمي للدولة، واستمر المعز في تبادل الهدايا المعهودة مع الخليفة الفاطمي، حتى بعد الذي قام به تجاه الشيعة من قتل وقطع دعوتهم ولعن أمراء بني عبيد.

ففي (سنة 407هـ/1017م) وصل خلع الحاكم الفاطمي إلى المعز بن باديس مع لقب شرق الدولة، وتتابعت الهدايا المنسوجة بالذهب والخلع والأفراس المسترجة⁽⁴⁾.

إلا أن هذا الموقف قد بدأ يتغير شيئا فشيئا خاصة بعد تولي اليازوري الوزارة بالقاهرة (سنة 427هـ/1036م)، وانتقال إدارة شؤون البلاد في ظل ولاية الخليفة الفاطمي المستنصر الذي لم يكن عمره يتجاوز سبع سنوات، فاتسمت المراسلات بين المعز بن باديس وهذا الوزير

⁽¹⁾ ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص 82.

⁽²⁾ سعد زغلول، المصدر السابق، ج 3، ص 379.

⁽³⁾ سعد زغلول، المرجع السابق، ج 3، ص 379.

⁽⁴⁾ المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ص 115.

المذكور أعلاه بالحدة والقدح في شرعية الفاطميين⁽¹⁾، خاصة وأن سلطة الدولة الفاطمية في هذه الأثناء قد وهنت وتقهقرت بسبب المجاعات الشديدة التي لحقت بالبلاد والتزاعات المستمرة بين الجنود المرتزقة بالقاهرة هذا إلى جانب انفصال بعض الأقطار عن الخلافة الفاطمية والاضطرابات العديدة مثل الشام⁽²⁾.

وبلا شك أن هذه الاضطرابات بين الدولة الزيرية والخلافة الفاطمية ماهي إلا مقدمات للانفصال الكامل والرسمي عن التبعية للدولة الفاطمية، والتي اتبعها الأمير المعز بن باديس مع بعض المساعي الدبلوماسية مع الأمويين في الأندلس، وكذلك تبادل الهدايا مع الامبراطور البيزنطي في صقلية⁽³⁾.

ويضيف ابن عذاري إلى أن الذي قام بهذه المساعي الدبلوماسية أحد رجال المذهب المالكي بداية من (سنة 432هـ/1040م)⁽⁴⁾، مما يؤكد اتجاه المعز بن باديس إلى إعلاء المذهب المالكي، وجعله المذهب الرسمي للدولة بعد الانفصال عن التبعية الفاطمية والتي أرخ لها الاخباريون بتواريخ مختلفة تمتد من سنة (433هـ/1041م) إلى سنة (443هـ/1051م).

وحسب ما أورده ابن عذاري فهو بلا شك يؤيد هذا المسمى الذي قام به الأمير المعز بن باديس، خاصة وأنه اظهر الدعوة للدولة العباسية منذ سنة (433هـ/1041م)، ومصادر هامة أخرى ذكرت سنة (435هـ/1043م) كبداية لهذا الانفصال منها ابن الأثير⁽⁵⁾، وأبو الفدا⁽⁶⁾، إلا أن تاريخ (439-440هـ/1047-1048م)⁽⁷⁾، والذي اعتمد المؤرخ الرسمي وشاعره المعروف بابن شرق يكاد يكون الأصوب، وما يؤكد ذلك تلك النقود المضروبة بصورة لا

(1) رحلة التيجاني، ص 19.

(2) المقرئزي، المصدر نفسه، ج 2، ص 19.

(3) ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص 82.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 275.

(5) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 265.

(6) أبو الفدا، المختصر في اخبار البشر، ج 1، ص 263.

(7) اليافعي، مرآة الحيان وغيره اليقضان، ج 3، ص 47.

تدعو إلى الشك، إذ أن الدنانير الزيرية في عهد المعز بن باديس حتى (سنة 438هـ/1046م) من الطراز الشيعي⁽¹⁾.

وعلى أية حال فإن الحدث الأكبر هو أن قطع الدعوة الفاطمية بالمغرب الأدنى كان أمرا واقعا في (سنة 443هـ/1051م)⁽²⁾، وبالتالي القضاء على المذهب الشيعي والرجوع إلى المنهج الصحيح، وهو منهج أهل السنة والجماعة. فكان ذلك واضحا منذ السنوات الأولى لعهد الأمير المعز بن باديس، وقد ساعده على ذلك الاحداث السياسية المتغيرة، والاضطرابات التي تعرضت لها الدولة الفاطمية، فتتابع بعد ذلك ضرب السكة على الطراز السني، مع تمرير وثيقة التقليد من الخليفة العباسي⁽³⁾.

ويؤكد ابن عذاري أنه قرئ كتاب الخليفة العباسي إلى المعز بالجامع الأعظم بالقيروان، ونشرت الاعلام السوداء رمز العباسيين عوضا عن الاعلام البيضاء رمز الفاطميين التي أصبغها المعز بالسوداء⁽⁴⁾.

وقد أحدث انفصال بنو زيري عن الفاطميين صدى عميقا في جميع أنحاء المغرب، ففي طرابلس اقتدى الناس بالمعز بن باديس، من حيث تحريضه العامة على الشيعة، وقطع عبارة «حي على خير العمل» من الآذان، واحراق كافة المنابر التي كان يدعى عليها للعبيديين، وإحراق راياتهم ولعنتهم على المنابر والتبرأ منهم⁽⁵⁾.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص233.

(2) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص280.

(3) ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وآدابهم، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010، ج2، ص236.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص280.

(5) عبد الرؤوف جرار، "سقوط الدولة الفاطمية في المغرب ونبد التشيع"، مجلة جمعية القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد20، 2010، ص131.

هكذا استقل الأمير الزيري عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة، يقول ابن عذاري: حيث جاء بعد رحلة طويلة للامراء الزيريين محاولة الاستقلال، وكللت في الأخير بالنجاح على يد هذا الأمير المعز بن باديس الذي خطب للخليفة العباسي في بغداد على منابر افريقية⁽¹⁾. وإن كان هدف الانفصال هو التحرر السياسي، فإن الأهم والأخطر هو التحرر العقائدي والديني من هذا المذهب المارق عن سنة النبي، وبهذا نكون قد تيقنا أن اهداف المعز بن باديس السياسية والدينية قد اجتمعت في الانفصال عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة.

4-5- موقف ابن عذاري من ادعاء المهدي للمهدوية:

يعدّ التاريخ العقائدي والمذهبي رافدا من روافد التاريخ الإسلامي ككل، نظرا للتنوع الهائل فيه بين مختلف الفرق والمذاهب اعتقادية وعمليا وأثر ذلك على مسار الحضارة الإسلامية، وقد صبغ هذا التنوع بداية على الأساس السياسي البحت، أو حول الحكم وتوابعه، هذا الأخير الذي اتخذ شرعية للصراع بين الحاكم والمعارضة خاصة منها الشيعية، لتندرج تحت هذا الوجه مظاهر متعددة استخدمت فيه وكانت عقيدة المهدي إحداها، وهي فكرة مرتبطة بظهور شخص من ذرية النبي عليه الصلاة والسلام يكون على يديه إعادة العدل بين الناس، والذي جاء ذكره عند السنة والشيعية على حد سواء.

ولهذا ارتأيت إدراج هذا العنصر تحت عنوان مواقف ابن عذاري من ادعاء المهدي والمهدوية، حيث كانت له مواقف واضحة من أصحاب هذه الفكرة وأدعيائها، إضافة إلى كيفية توظيفها لخدمة المشاريع السياسية في بلاد المغرب.

وكون المهديوية تعدّ من اهم الحركات الدينية المذهبية التي برزت في بلاد المغرب الإسلامي، فسنحاول إبراز دور كل من عبید الله (المهدي الفاطمي)، ومحمد بن تومرت (مهدي الموحدين) في ترسيخ هذه الفكرة على مستوى بلاد المغرب، وفيما تمثلت حركتهم؟

⁽¹⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 277 وما بعدها.

لقد عرف سكان المغرب المبادئ الإسماعيلية قبل قيام الدولة الفاطمية، وإشارات المصادر الى وجود عدد من دعاة الشيعة في مناطق بلاد المغرب. لاسيما افريقية الذين نشطوا خلال الحركة الثقافية التي عرفتها بلاد المغرب في عصر الدويلات خاصة في ظل حكم الاغلبة وميزها الجدل الذي كان قائما بين رجال الفرق المذهبية والمذاهب الاسلامية. منهم ابوسفيان والحلواني. وابوعبدالله الشيعي. اللذين عملا على نشر مبادئ المذهب الاسماعيلي. وتعاليمه بين السكان لاسيما بين رجال قبيلة كتامة.

ويشير موسى لقبال الى هولاء الذين كرسوا جهودهم في نشر الدعوة عن طريق التعليم. والى ظهور الدعوة مبكرا في بلاد المغرب، ومن سمات ذلك انتشار القصص الأدبي، الذي يبشر بقرب ظهور المهدي، وقد استخدم الدعوة مختلف الطرق والوسائل للتبشير بالدعوة وانجاحها⁽¹⁾، كما يفيد ابن حماد في هذا السياق أن من بين العلامات التي كرس الاتجاه الشيعي المتطرف، وأبرزت فكرة المهدي أن يمين المستجيبين للدعوة بعد انتصارها هو: [وعالم الغيب مولانا المهدي برقادة]⁽²⁾.

ويبدو حسب ما أورده ابن عذاري أن فكرة المهدي ترسخت ضمن عقائد الإسماعيلية بفعل عدة عوامل من أهمها ذلك التحدي العجيب الذي واجه به الإسماعيليون الضربات الموجهة والمتتالية التي تلقوها من قبل السلطة القائمة، فلم تقض على طموحهم، بل زادتهم إصراراً على المضي إلى الأمام لتحقيق طموحاتهم والوصول إلى أهدافهم. وهو الشيء الذي اضطرهم إلى التستر وهذا من تمام عقيدتهم، إلا أن هذا السعي واجهته إشكالية وجود الإمام، واستمرار الإمامة لدى العامة من الناس، وإبقاء جبل الوصال بينهم وبين الناس، خاصة أولئك الذين استجابوا لهم فأوجدوا فكرة المهدي، أو بالأحرى أخذوا وتبنوا فكرة المهدي، حيث ترى أنه لا

(1) موسى لقبال، دور كتامة، ص 217، 224.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 160؛ ويذكر أن بعض من أحداث أهل القيروان انتقدوا هذا اليمين، فأرسلوا هذين البيتين إلى عبيد الله المهدي من حيث لا يعلم بهم من: الجور قد رضينا*** لا للكفر والحماسة يا مدعي الغيوب*** من كاتب البطاقة

لزوم لظهور الإمام، لكن تجب طاعته وهو لا يبد أنه سيظهر فلذلك أطلقوا عليه اسم المهدي المنتظر الذي سيهدي الناس إلى الطريق المستقيم ويملاً الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

كما عقد ابن خلدون فصلاً كاملاً للحديث عن المهدي، ونقد الأحاديث الواردة في شأنه وقال: [بأن فكرة المهدي مشهورة بين أهل الإسلام، وعلامته خروج الدجال، وأن عيسى عليه السلام، يتزل من بعده، فيقتل الدجال، أو يتزل معه فيساعده على قتله، وياتم بالمهدي، ويذكر أن للمتصوفة طريقة أخرى ونوعاً من الاستدلال] (1).

وقد كان أمر المهدي-يضيف ابن عذاري- أنه أحدث ردة فعل سلبية على المستويين العملي والفكري، فكانت تلك الهزات والثورات التي سبق الحديث عنها، وتحولت مع ذلك عقيدة المهدي إلى مطيئة لتحقيق أغراض سياسية من ذلك أن الذين خالفوا عبيد الله، وثاروا عليه من رجال كتامة جعلت من شاب قبلة يصلون إليه، وزعموا أنه المهدي المنتظر، وكتبوا كتاباً فيه شريعة وزعموا أنها نزلت عليه (2).

ومن المعروف أنه في هذه الفترة بالذات وقبلها ظهر بعض مدعي النبوة بالمغرب، منهم مدعو برغواطة (3)، ولعل فكرة المهدي وبعض عقائد الإسماعيلية حسب ابن عذاري وابن خلدون وكذلك البكري قبلهما شجعت بعض الزعماء لاستخدام نفس الطرق والأساليب للظهور وكسب الأنصار، فبقدر ما كانت عقيدة المهدي إحدى الدعامات الأساسية في نجاح الدعوة الإسماعيلية، وقيام الدولة الفاطمية كانت بالقدر نفسه عاملاً في الدفع بأصحاب الطموح والمغامرين لتحقيق مآربهم.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص555.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص168.

(3) ادعى النبوة عدد من أبناء طريف من بينهم صالح بن طريف خلال القرن الثاني للهجرة؛ ينظر: البكري، المغرب، ص134؛ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص57، 166؛ تاريخ ابن خلدون، العبر، ج6، ص428.

4-6- موقف ابن عذاري من عقيدة المهدوية-بين رحيل الفاطميين وقيام الموحدين-

كان من أثر المهدوية الفاطمية ظهور المهدويات الجديدة وانتشار الفكر المهدوي بين عامة أهل المغرب، وقد ساهمت حد التناقضات الاجتماعية الناتجة عن الظروف السياسية والاقتصادية المضطربة في تهيئة المجال أمام ظهور الحركات المهدوية الجديدة وانتشار الفكر المهدوي بين عامة أهل المغرب.

ومن ذلك يرى بعض الباحثين أن الحركة الموحدية بدأت دينية لا تطمع في شيء، وأن المهدي كان مخلصا في دعوته أشد الإخلاص أو أنه لم يكن يهيمه ملك ولا دنيا إلا بلوغ قصده في محاربة الفساد والتجديد، وعليه فمبادئ مهديوية ابن تومرت كانت إما غاية في حد ذاتها هدف إلى تحقيقها أو وسيلة لتحقيق هذا الهدف أو هذه الأهداف.

كان عبد المؤمن بن علي من الذين آمنوا بالمهدي بن تومرت في ساعة العسرة حينما اشتد على الموحدين أذى المرابطين ومن ورائهم الناس، الذين رموا المهدي بن تومرت بالابتداع فلم يجد الموحدون من ملجئ يحتضون به سوى قرية تنملل النائبة في جبال الأطلس، ثم إنه-أيضا- كان خليفته في حكم الموحدين بوصية منه، ومن الناحية التاريخية يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، فعلى هذا ينبغي أن تكون العقيدة الموحدية راسخة في أعماق قلب عبد المؤمن⁽¹⁾.

وعلى أية حال فبحثنا ليس متعلقا بسيرة عبد المؤمن بن علي وتاريخ نشأة الدولة الموحدية، أو كما يقول ابن عذاري حتى لا يطول بنا الحديث في هذه المسألة، ولأن هذا البحث يختص بالبحث عن مواقف المؤرخ من قيام مهديوية الموحدين وأثرها على سكان بلاد المغرب.

⁽¹⁾ للمزيد حول سيرة عبد المؤمن بن علي وتاريخ نشأة الدولة الموحدية؛ ينظر: صالح بن قرية، عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية، وزارة السياحة، الجزائر، 1985م، عبد الله عنان، دولة المرابطين والموحدين، القاهرة، 1383هـ.

ولا أدل أن عبد المؤمن وجد في هذه الدعوى سبيل لتحقيق أمانيه في الوصول للحكم، وبالتالي فالإيمان بالمهدوية لابن تومرت والقتال تحت رايتها هي السبيل الأمثل للوصول إلى الحكم.

هذا ولم يمض زمن يسير حتى ظهر من الخلفاء الموحدين من لا يؤمن بهذه المهدوية، كالذي اشتهر عن حفيده والخليفة الموحد الثالث يعقوب المنصور من أنه كان من المكذبين بهذا الأمر، ويروي المراكشي عن الشيخ صالح أبو العباس المرى أن المنصور قال له: [أشهد لي أمام الله عز وجل أي لا أقول بالعصمة]⁽¹⁾ -يعني عصمة ابن تومرت- ويروي المراكشي-أيضا- عن الشيخ صالح أنه استأذن المنصور في فعل شيء يفتقر الى وجود الإمام فقال المنصور: [يا أبا العباس أين الإمام أين الإمام؟]، فقال المراكشي: [ولو أردنا لطلال بما هذا التلخيص]⁽²⁾، يريد أن هناك الكثير من الروايات الأخرى التي تدل على تكذيب المنصور بهذه الفكرة، فظهور من يكذب بمهدوية ابن تومرت بهذه السرعة عند الخلفاء الموحدين انفسهم يدل على أن الفكرة في الأساس لم تكن بتلك الرسوخ.

ثم جاء فيها بعد الخليفة المأمون والذي امتلك الجرأة فجهر برده عن العقيدة الموحدية على رؤوس الأشهاد، إذ يروي صاحب روض القرطاس أنه بعد أن دخل مراكش وبايعه الناس صعد إلى المنبر بجامع المنصور وخطب الناس ولعن المهدي وقال: [يا أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالغويّ المذموم إنه لا مهدي إلا عيسى وإنا قد نبذنا أمره النحيس]⁽³⁾.

ثم إنه كتب بيده رسالة إلى كل أنحاء الدولة الموحدية جاء فيها: [...ولتعلموا أنا نبذنا الباطل واطهرنا الحق وأن لا مهدي إلا عيسى... وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحق: خليل عمران المنصور، بيروت، 1998م، ص142.

(2) المراكشي، نفسه، ص142.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، تحق: كارل بومن نوربورغ، ص167-168.

العصمة... وإذا كانت العصمة لم تثبت للعلماء والصحابة، فما الظن بمن لا يدري بأيُّ يأخذ كتابه؟⁽¹⁾

ثم يضيف ابن عذاري، قال: [... اللهم اشهد بأننا تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار ونعوذ بك من فعلهم الرثيث، وأمرهم الخبيث، إنهم في المعتقد من الكفار، وإننا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام: رب لا تذر من الكافرين ديارا، والسلام على من اتبع الهدى واستقام، كما أمر-أيضا-بقطع الدعاء للمهدي وبمحو اسمه من المخاطبات ومن النقش وفي السكة وقطع النداء بعد الصلاة والنداء عليها بالتصليت الإسلام، وهي إقامة الصلاة بالسان البربري، وكذلك سؤدود وناردي وأصبح والله الحمد وما أشبه ذلك مما كان به العمل من أول دولة الموحدين⁽²⁾].

ومما يستشف مما روي عن المؤرخين السابقين أنه بعد وفاة المأمون لم يحاول الخلفاء الموحدون إعادة إحياء رسوم المهدي، مما يدل على أن الكل كان يقر ضمنا بزيف هذه الفكرة اللهم ما عرف عن الرشيد⁽³⁾.

في الحقيقة إذا ما رجعنا إلى تاريخ الدولة الموحدية نجد أن تأسيسها اقترن بسفك مروع للدماء ومبالغ فيه إلى أقصى درجة، إذ أن ابن تومرت منذ أن جهر بدعواه كفر كل من لا يؤمن بمهدويته واستحل دمائهم وأموالهم.

وسرد لنا مؤرخنا ابن عذاري رواية قال فيها: [... حتى بلغ عدد القتلى من المرابطين نيف وسبعين ألفا، وقتل الموحدون كل أمراء المرابطين، ومن بينهم أميرهم إسحاق بن علي بن

⁽¹⁾ المقصود من أي جهة يأتيه متابه يوم القيامة، من اليمين أهل الجنة، أم من الشمال أهل النار.

⁽²⁾ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، 'القسم الموحدى'، تحقق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 287.

⁽³⁾ الرشيد: هو أبو محمد عبد الله الرشيد بويع في مستهل شهر محرم سنة 630هـ، على الرغم من قوته إلا أن عهده امتاز بالكثير من الثورات والاضطرابات، توفي في محرم 638هـ.

يوسف بن تاشفين ولم يشفع له عندهم صغر سنه ولا توسلاته واسترحاماته، أما أميرات المرابطين فقد بيعت إماء في الأسواق⁽¹⁾

ناهيك- يؤكد مؤرخنا- عما فعلوه في المدن المرابطية الأخرى قبلا، فمع أن هذه الأرقام قد تحوي الكثير من المبالغة، لكن هذه المبالغة لم تأت من فراغ.

ويضيف ابن عذاري أنه حينما تمكن عبد المؤمن من السيطرة على كل المغرب الأقصى وبدا كأنما قد خلص له «مما يعني عمليا أن كل الناس آمنت بمهدوية ابن تومرت»، لكن الأحداث أثبتت عكس هذا، حينما ظهر شخص يقال له الماسي في شوال 541هـ، وحاول أن يعيد كربة ابن تومرت جذعه، فادعى بدوره المهدوية وتلقب بالهادي، فانضمت إليه العديد من القبائل التي كانت آمنت بابن تومرت قبلاً كحاحة ورجراجة وزهميرة وهسكورة ودكالة، حتى لم يبق على طاعة عبد المؤمن في جنوب المغرب ووسطه سوى فاس ومراكش فأرسل عبد المؤمن حملة لقمع الخارجين، لكن الماسي نكل بهم، فأعد له المؤمن حملة مختارة ضمّنها خيرة رجاله بل والمرتزة النصرى أيضا وجعل عليها أقرب المقربين إليه وهو أبو حفص الهنتاتي الذي تمكن من هزيمة الماسي وقتله في ذي الحجة من نفس السنة⁽²⁾.

فترى هنا أن المجازر الدموية والتي تجتهد الدول عادة في اخفائها وتبريرها أضحت عند الموحدين شيئا عاديا يكادون يفتخرون به، حتى أن ابن الأثير انتقد عبد المؤمن على هذا المسلك وقال: [إنه كان شديد السفك لدماء المسلمين ولو على الذنب الصغير]⁽³⁾.

كما يظهر هنا بجلاء أن المعارك تدور حول الخضوع والسيطرة لا مكان مطلقا للدعوة بالحسنى والذي على أساسه يمكن أن نتوقع إيمان الناس بابن تومرت.

⁽¹⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، القسم الموحدى، ص28؛ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص393.

⁽²⁾ ابن عذاري، نفسه، القسم الموحدى، ص3031.

⁽³⁾ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص115.

ولذا نجد أنه عبر التاريخ الموحدى لم نجد العامة بتلك الغيرة على هذه الفكرة، فعندما غزا بنو غانية⁽¹⁾ بجاية في محاولة منهم لإحياء دولة المرابطين-والذين لا يؤمنون بالطبع بابن تومرت- ببجاية انضم إليهم العديد من العامة⁽²⁾، وكذلك لما صدع المأمون بنكرانه للمهدي لم يحدثنا المؤرخون عن هبة من العامة لما يفترض أنه مقدس عندهم بل إن ابن عذاري يحدثنا أن الشعراء مدحوا المأمون بما «يتنسم ندا ومسكا وتجعله يعقد نحر ك سلكا».

فمن ذلك قول الكاتب الاجل أبو الحسن الرعيبي قصيدة مطلعها:

تتية بك الدنيا ويزهو بك الملك ويعزى إليك الفضل والدين.

إلى أن يقول:

وما ذاك إلا أن سبقت وقصروا وأدجت إذا بانوا وحققت «إذا شكلوا».

أنال بك الإسلام أقصى مراده وقد سعد التوحيد إذ «شقي الشرك».

وقال محمد بن إبراهيم بن الذرة-أيضا-:

ألا وضح التحقيق وارتفع الشك بأنك ملك لا يقاس به ملك.

إلى أن يقول:

تنيل من الأفراس ما بان عتقه وتعطي من الإبريز ما أخلص السبك.

فأنتم أمير المؤمنين بعد لكم تعزز دين الله وارتفع الشك.

قال ابن عذاري وإن أمداحه لكثيرة جدا لا أحصي لها عددا والكفاية منها ذكرته ولاختصار الكتب اختصرته⁽³⁾.

بلا شك حسب ما أورده ابن عذاري قد يحمل البعض هذه الأشعار على التملق والطمع في الكسب كما هو أدب الشعراء المعروف، لكن ورود بعض العبارات كالشك، شقي،

⁽¹⁾ بنو غانية: أسرة مرابطية تنتمي إلى قبيلة مسوفة وينسبون إلى أمهم غانية، خاضوا ثورة ضد الدولة الموحدية سنة 580هـ، في محاولة منهم لإحياء دولة المرابطين دامت نحو من خمسين وألحقت خرابا كبيرا بالدولة الموحدية وكانت من أهم أسباب سقوطها.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه، القسم الموحدى، ص 181 وما بعدها؛ ابن خلدون، العبر ج 6، ص 288.

⁽³⁾ ابن عذاري، نفسه، القسم الموحدى، ص 288.

الشرك، وتعطي من الإبريز ما خلص السبك، وكثرة هذه الأشعار وجودتها يدل على أن المأمون عبر بهذا عما يتلجلج في نفوس العامة، كما أن هذا يفسر لنا ما اعتبره الكثير من المؤرخين خطأ فادحا ارتكبه المأمون، فقد كان عصره عصر فتن اشتد فيه الصراع على الحكم بين بني عبد المؤمن مما يجعل من الحكمة البالغة تأجيل الجهر برأيه في ابن تومرت، لكن يحتمل أن المأمون أراد بعد وصوله للحكم أن يؤمّن منصبه أكثر بالتقرب للعامة، فلم يجد أحسن من الجهر بالكفر بابن تومرت لما يعمل من الريية التي تتلجلج في قلوب الناس، ويستثنى من هذا الشك قبائل المصامدة التي ينتمي إليها المهدي ابن تومرت والتي ناصرته من أول وهلة أعلن فيها بمهدويته، ونستشف من كلام ابن عذاري أنه كان ينتقد الموحدية على البدع التي أحدثوها أول الأمر، لكنه كان يمدح المأمون الذي عمل على تغييرها وإزالتها.

وختاما نؤكد أن أغلب الحركات المهدوية كان مآلها الفشل عكس ابن تومرت الذي وظف المهدوية توظيفا سياسيا، وحقق من ورائها أهدافا سياسية ذات فعالية تطبيقية مع الظروف الدينية والبنية الاجتماعية المحلية، كما نؤكد أن الدولة الموحدية سقطت وانهارت معها فكرة المهدوية لابن تومرت التي لم يبيك عليها أحد في أوضح دليل على عدم إيمان الناس بها.

4-7- موقف ابن عذاري من خلق القرآن:

لقد عرفت البيئة المغربية كثيرا من الفرق والمذاهب الكلامية كالمعتزلة والخوارج والشيعة، وقد كان لهذه الفرق حضور قوي في إشارة إلى النقاش حول القضايا الكلامية، وإذ كان روح المناظرة والحوار والجدل في أمور العقيدة، لاسيما مسألة القول بخلق القرآن.

وقال ابن عذاري في البيان المغرب عن سليمان بن حفص البراء، المدعو سليمان بن

عصفور: [كان جهميا⁽¹⁾، وكان يقول بخلق القرآن]⁽²⁾.

⁽¹⁾ سليمان بن حفص بن البراء المعتزلي، كان جهميا يقول بخلق القرآن، ودعا الناس إليه فهموا بقتله، وتوفي سنة 269هـ/882م، ينظر: عياش، تراجم، ص469470.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص119.

والواقع-أيضا-أنه قال في وفاة عبد الله بن أبي الجواد⁽¹⁾: [كان يقول بخلق القرآن]⁽²⁾. أما القول بخلق القرآن حسب ابن عذاري، فإن هذا الأمر قد نقل إلى المغرب بتأثير من مركز الدولة وعاصمة الخلافة بغداد، إذ كانت أروقتها تعج بالقائلين بهذا الرأي، وبلغ أوجه في خلافة المأمون، فانتحله أمراء بني الأغلب للتقرب من مركز الخلافة، وقال فيهم فقيه المغرب أسد بن فرات: [ويح لأهل البدع هلكت هو أنهم يزعمون أن الله خلق كلا، أيقول ذلك الكلام مخلوق أنمي أنا الله لا إله إلا أنا]⁽³⁾، وقال يحيى بن سلام: [حدث أسد يوما بحديث الدومة وسليمان البراء المعتزلي في آخر المجلس فأنكر، فسمع أسد فقام إليه وجمع بين طرفيه ولحيه واستقبله بنعله، فضربه حتى أدماه وطرده من مجلسه]، وقيل بل كان يقرأ عليه في تفسير السبب بن شريك [وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناضرة]، وسليمان حاضر، فقال: [من الانتظار يا أبا عبد الله]، فأخذ أسد تبلا بيبه ونعلا غليظة بيده الأخرى، وقال: [يا زنديق لتقولنها أو لأبيض غبيك، تبصر بعينيك]، فقال سليمان: [نعم ننظره]⁽⁴⁾، يعني نعم ننظر ربنا يوم القيامة، وما أثر عن أسد بن الفرات بنفي ما ألم به من القول بخلق القرآن، وهذه الرواية لا أساس لها من الصحة، وقد فندها ابن سحنون وهو أعظم تلاميذه.

ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن الموقف يمكن ان يكون موقفا بالرفض من هذه المسألة، إذ أن ابن سحنون هو أول قاض فرق بين أهل البدع من أصحاب المقالات في الكلام في الجامع، وشرّد أهل الأهواء منه، فكانوا قبله حلقة من الصفرية والإباضية والمعتزلة يتناظرون فيه

⁽¹⁾ يصفه سحنون بفرعون الأمة وجبارها وظالمها، وكان يذهب إلى رأي الكونيين، ويقول بخلق القرآن؛ ينظر: ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص109.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص110.

⁽³⁾ أبو العرب تميم القيرواني، طبقات علماء افريقية وتونس، ج1، ص165.

⁽⁴⁾ المدارك، ص ص474، 475.

ويظهرون زيفهم، وحظر عليهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين لصبيانهم وأمرهم أن لا يجتمعوا، وأدب جماعة منهم خالفوا أمره في هذه الأحكام⁽¹⁾.

وبالتالي فموقف أسد بن الفرات من القرآن يدل دلالة قطعية على انتهاجه أو اتباعه المذهب المالكي، ونفي القول بخلق القرآن⁽²⁾.

أما القاضي اليحصبي، فعندما عرضوا أمامه فكرة خلق القرآن بتأييد من الأمير زيادة الله، أسكت معارضيه باحتقار قائلاً: [وما للملوك والكلام في الدين]⁽³⁾

وذكر الدباغ في معرض كلامه حول ما عانت منه القيروان من الفتنة الدينية، حيث يقول: [وقد امتحنت أهل القيروان بالقول بخلق القرآن في زمن الواصل وعزم محمد بن الأغلب على قتل محمد بن سعيد، فمزالوا على اعتقاد أهل السنة وصبروا على الأذى في دين الله وما زادهم إلا يقينا وبصيرة في دينهم]⁽⁴⁾.

ومن الدلالات الواضحة حول هذا السياق الذي أورده الدباغ أن الاغلبة تبنا فكرة المأمون بخلق القرآن، وحدثت فتنة خلق القرآن من جديد في القيروان، إذ أخذ الأمير أحمد بن الأغلب الذي كانت ولايته (سنة 242-249هـ) يدعو الناس بالقول بخلق القرآن، وقد أمر قاضي القيروان في عهده ابن أبي الجواد بقتل فقيهه القيروان ابن سحنون، عندما سئل عن خلق القرآن، فأجاب بأن القرآن كلام غير مخلوق، قال ابن أبي الجواد: كفر، فاقتله ودمه في عنقي⁽⁵⁾.

إذن لقد كان الرأي السائد عند الفقهاء القيروانيين لا يناسب جرأة أصحاب هذا الرأي بخلق القرآن، فليس من العجب أن يأتي موقف ابن عذاري من الفراغ، وإنما الذي قاله جاء بعد

(1) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص206.

(2) عبد الحميد حمد، المدارس الكلامية بإفريقية، ص53.

(3) أبو العرب، المصدر نفسه، ج1، ص164.

(4) الدباغ، المعالم، ج1، ص25.

(5) المدارك، المصدر السابق، ج2، ص611.

أن وجد الفقهاء والقضاة والعامة المالكيين يقفون صفا واحدا ضد الذين ينادون ويدعون بخلق القرآن أمام ضغط الخلفاء والامراء، ولا شك أن موقف ابن عذاري من هذه المسألة واضح، وهو الذي كان مالكيا، ولم يزل علماء القيروان يناظرون على مذهب أهل السنة ويرون ذلك من أعظم الجهاد حتى ضعفت شوكة أهل البدع والأهواء.

ويتضح لنا بعد هذه الدراسة الوجيزة، أن مسألة خلق القرآن يجدر أن تدرس في ضوء صلاحها بكثير من المسائل الكلامية التي ارتبطت بها، ولئن كانت محنة خلق القرآن نتيجة صراع مذهبي سني اعتزالي، فإنها في بطنها صراع سياسي تبتغي منه كل فرقة احتكار السلطة الدينية، والعلمية في المجتمع، وفرض عقيدتها على المجتمع والنظام السياسي القائم.

خامسا- موقف ابن عذاري من رجال السلطة في عصره :

من الصعب التحديد الدقيق للفترة التي عاش فيها ابن عذاري، ولكن من خلال تتبع قراءة كتابه " البيان المغرب " تظهر بعض الإشارات على العصر الذي عاش فيه، وهو معاصرته لدولة بني مرين والتي خلفت دولة الموحيدين " والغالب أن المؤلف كان مقربا من المرينيين " (1) و الديلي على ذلك ما وجدناه في كتابه " من التنويه والدعاء بالعز والصنر والتأييد للموكها في كل مناسبة " (2)، مثل ما قاله عند ذكره لدولة المستنصر بالله قال " : " ولم أتعرف في أيام دولته إلا ما كان من ظهور بني مرين أعزهم الله " (3) و كذلك قوله: " وكان ابتداء ظهور بني مرين أعزهم الله تعالى في سنة عشر وستمائة، وسأذكر إن شاء الله بعض مآثرهم ومفاخرهم في أيام مدتهم وأعوام دولتهم إن شاء الله تعالى " (4)

(1) محمد بن ابراهيم الكتاني وآخرون، مقدمة كتاب البيان المغرب / قسم الموحيدين، ص 13

(2) المصدر نفسه، ص 13

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج5، ص 266

(4) المصدر نفسه، ج5، ص 266

و وصفهم بعد معركتهم مع زناتة وزعيمهم عثمان بن نصر فقال: " وانصرف عثمان بن عبد الحق واخوته وعشيرته وجيادهم تتسابق في مراح وارتياح، ووجوههم تهلل بالإصباح، ولم يزالوا في بلاد المغرب ظاهرين، وبأعدائهم ظافرين" ⁽¹⁾، و قال أيضا: " وكان موضع نزول بني مرين أعزهم الله" ⁽²⁾

و مملا يلاحظ أيضا ان ابن عذاري كان يمدحهم ويمجدهم كلما ذكر سلوكهم، ولم يكن مدحهم بحيث يزور الأحداث لصالحهم، وإنما كان ينقل أخبارهم وحروبهم ضد أعدائهم كما يفعل بعض المؤرخين من يمدح ملوك وأمراء عصره إما اتقاء لشهرهم أو محبة لهم، والذي يظهر أن ابن عذاري كان صادقاً في مدحه لأمرء عصره .

كما أنه لم يصلنا ما كتبه عن تاريخ بني مرين، وما جاء في كتاب البيان المغرب هو تأريخ لدولة الموحدين، وهو يذكر ضمنها بعض أخبار ظهور بني مرين .

و هذا طبيعي لأنه عاش في ظل دولة بني مرين التي حكمت المغرب منذ زوال حكم الموحدين (668هـ-875هـ / 1268م-1470م)، والتي شجعت العلم والعلماء، وسلكت طريق العلم كمبدأً للآزم منذ نشأتها فكان العلم عاملاً مشتركاً في كل حوادث عصر هذه الدولة، واستنفذ أغلب مجهودات ملوكها، حتى قيل: " انهم لم يوفقوا في السياسة كما توفقوا في نشر العلم" ⁽³⁾، وكانت فاس عاصمة المرينيين من أفضل مدن المغرب من حيث العمران والترف ومستوى المعيشة، حيث كانت بنظر المؤرخ ابن خلدون ⁽⁴⁾ وهو معاصرة للفترة، أرقى حضارة وعمرانا من بقية المدن الأخرى

(1) المصدر نفسه، ج5، ص 351

(2) المصدر نفسه، ج5، ص 355 ؛ وينظر: أيضا: ج5، ص 256، 169، 371، 389، 396، 401، 407، 414، 415، 423

(3) عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ شالة الاسلامية، ص 274

(4) مقدمة ابن خلدون، طبعة دار إحياء التراث العربي، ص 361؛ لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص 172

تميز ملوك وأمراء بني مرين بتشجيع العلم والأدباء⁽¹⁾، وكانوا يصطحبون العلماء معهم في رحلاتهم، لاسيما أبو الحسن علي بن عثمان (731هـ-749هـ / 1331م -1348م)، الذي كان أيضا يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه⁽²⁾، كما تميز أيضا ببناء المدارس والزوايا في فاس وغيرها من مدن المغرب⁽³⁾ و كذلك اشتهر أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني (749هـ-759هـ / 1348م - 1357م) باشتغاله بالعلم ومراسلاته مع العلماء⁽⁴⁾، ويعقد مجالس العلماء كل يوم بعد صلاة الصبح⁽⁵⁾، كما عرف أيضا بعمارته للمدارس والزوايا في فاس وبقية المدن الأخرى⁽⁶⁾ الملاحظة أن الدولة المرينية قد حاولت منذ انطلاقتها أن تضع نفسها في إطار الإصلاح، لوعيتها على ما يبدو بأهمية العمل على هذه الواجهة .

إذا لم يقتصر الأمر على هذين العاملين فقط، بل أن عصر بني مرين تميز بافزدهار الثقافي بشكل عام، ولاسيما العصر المريني الأول، الذي يمتد منذ بداية الحكم المريني عام 668هـ/1268م إلى وفاة السلطان أبي الحسن عام 731هـ /1331م، وهو العصر الذي يهمننا لأنه العصر الذي عاش فيه مؤلفنا ابن عذاري .

يمكن تلخيص بعض العوامل المهمة للإزدهار الثقافي في هذا العصر كما يأتي: ⁽⁷⁾

- أن بعض سلاطين وأمراء هذه الفترة كانوا على جانب من الثقافة وتشجيع العلم، وبناء المدارس وخزائن الكتب، والإنفاق على العلماء والطلبة .

(1) ابن ابي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 308

(2) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ج7، ص 812، 815، 839

(3) محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، ص 405، 407، 409، السلاوي، الاستقصاء، ج3، ص 111، 175، 112

(4) اسماعيل بن الأحمر، فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص 288289؛ اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص 28

(5) ابن بطوطة الرحلة ابن بطوطة، ص 661

(6) المصدر نفسه، ص 664، ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 170؛ السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص 206؛ علي حامد الماحي،

المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني، ص 198 .

(7) محمد المنوني، ورفات من الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص 193197

- عدم تدخل المرينيين في توجيه الفكر المغربي، حيث تركوا الحرية للفقهاء في اختيار المذهب، فاختراروا المالكي، الذي ازدهر فقهه في هذه الفترة .
- حرص المرينيين على إقامة الصلاة مع المشرق الاسلامي بواسطة الوفود، والحج والرحلات للتعرف إلى منهاج ومعارف المسلمين في المشرق⁽¹⁾
- نزوح العديد من الأندلسيين، لا سيما بعد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، فقد توزعوا في المغرب، وساعدوا في رقد النشاط الثقافي للبلاد، بحيث كان منهم الوزراء والكتاب والعمال، وجباة الأموال، والعاملون في أمور الدولة، وكان لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي⁽²⁾ .

- ظهور بعض المراكز المتميزة، ولا سيما في منطقة الجنوب الغربي لمدينة مراكش، حيث قامت إمارة سكسيوة أو سكساوة، التي برزت في العصر المريني، وقد اشتهرت من رؤساء اثنان، حاولا الاستقلال عن الدولة، وهما: عبد الواحد السكسيوي الذي توفي لآعام 680 هـ/1281-1282 م، وابنه عبد الله الذي استمرت ولايته إلى أواخر عام 762 هـ/1361-1362 م . وكان عبد الواحد وابنه مثقفين بالمعارف المتنوعة، وشجعا العلم في منطقة جنوب مراكش، وجمعا الكتب والدواوين، واهتما بفروع الفقه⁽³⁾

ونتيجة لازدهار العلوم في هذه المنطقة، فقد راجت فيها نسخ الكتب، حتى إن أحد أمراء الموحدين وهو أبو زيد بن الخليفة، عمر المرتضى، هاجر إلى هذه المنطقة وعاش فيها على نسخ الكتب⁴ .

(1) محمد المنون، "علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني الأول"، مجلة دعوة الحق، ألسنة الثامنة، العدد 5، ص 6164 .

(2) أحمد محمد المقرئ، نفتح الطيب ج 3 ص 152

(3) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 6، ص 553

(4) البيان المغرب، القسم الموحد، ص 454 .

يظهر من هذا العرض السريع لبعض جوانب الحياة الفكرية في عهد الدولة المرينية، أهمية العصر الذي عاش فيه ابن عذاري، وكثرة المشتغلين بالعلوم على مختلف أنواعها، كذلك توافر المعلومات عن مختلف شؤون البلدان الإسلامية المعروفة في ذلك الوقت .

و قد كان للرحلات، كما أسلفنا، دور مهم في هذا المجال، الأمر الذي سهل تناقل المعلومات واتصال المثقفين بعضهم ببعض، فكثرت المؤلفات التي نالت تشجيع ملوك هذا العصر واهتماماتهم، فأهدى عدد من المؤرخين معظم مؤلفاتهم إلى الحكام والأمراء، مثل ابن أبي زرع (ت 726هـ/1325-1326م)، الذي كتب (الأنيس المطرب بروض القرطاس)، وقدمه إلى أبيه سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب المريني (710-731هـ /1310-1331م)¹، وأبو الحسن علي الجزائري، الذي ألف (جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس) في حدود سنة 766هـ/1364م، والذي أهدها للوزير المريني عمر بن عبد الله الياباني²، وأبو الوليد إسماعيل بن يوسف الأحمر (ت 807هـ/1404م)، والذي ألف (روضة النسرين في دولة بني مرين) وقدمه إلى السلطان أبي سعيد عثمان بن أحمد (800-823هـ /1397-1420م)³، ولسان الدين بن الخطيب (ت776هـ -1374م)، الذي ألف كتابه أعمال الأعلام (للسعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز (774-776هـ /1372-1374م)، وعبد الرحمان بن خلدون (ت 808هـ/1405م) الذي عمل في بلاط المرينيين، وانتهى من تأليفه كتابه (العهر وديوان المبتدأ والخبر) عام 783هـ/1381م⁴

إذن لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام، ولذلك كان من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الحظر النصراني

(1) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 1213

(2) أبو الحسن علي الجزائري، جني زهرة الأندلس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الله بن منصور، الرباط 1967، ص 12 .

(3) إسماعيل ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 8؛ عبيد القادر زمامة، أبو الوليد بن الأحمر، الدار البيضاء، 19، ص 51

(4) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، ص 275 .

على دولة الاسلام هناك، إلا صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسة أكثر منها دينية، وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين، وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعاتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي .

الخاتمة

الخاتمة:

من جميع ما سبق رصده خلص البحث إلى جملة من الاستنتاجات يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1- أن منهج الكتابة التاريخية يتأثر بجملة من العوامل بداية من ظروف العصر وطبيعة المجال الجغرافي وتكوين المؤرخ العلمي، حيث تتظافر هذه العوامل لتشكيل ذهنية المؤرخ أو الذات التاريخية.

2- لا تزال ترجمة ابن عذاري غير واضحة المعالم من حيث مكان ولادته ونشأته وتلقيه العلم وتأليفه للكتاب وتاريخ وفاته، ولكن الذي ثبت بالنصوص أنه عاش إلى أوائل القرن الثامن، حيث أدرك العقد الثامن منه.

3- احتفظ ابن عذاري المراكشي بكثير من النصوص التي تعتبر مصادرها في عداد الكتب المفقودة حالياً، فقد حاول ابن عذاري استيعاب جميع المصادر الأساسية في تاريخ المغرب والأندلس.

4- لم يلق كتاب البيان المغرب العناية الكافية من حيث التحقيق والنشر، إذ الكتاب بحاجة إلى دراسات وأبحاث من جميع جوانبه.

5- أن ابن عذاري يورد ما جاء في المصادر دون مقارنات أو ترجيحات، أو أعمال أسلوب خاص في صياغتها، ويعاب عليه هنا ضعف حسه النقدي لما يعتمد عليه من مصادر وروايات ليبقى بمثابة الجامع للأخبار الناقل لها دون تحقيق أو تعليق.

6- قلة الإشارة لمصادر مجهولة، فلم ألاحظ كثرة استخدامه لدلالات التعميم المبهمة عكس ابن خلدون مثلاً.

7- اعتماده في تنظيم أخباره وعرضها على المزاجية بين النظام الحولي والموضوعي مكنته من إعطاء كل حدث من حوادث الفتح مثلاً تفاصيل أكثر وفق قالب موحد.

- 8- الأمانة التي امتاز بها ابن عذاري في نقله للمعلومات المتعلقة بالأحداث التاريخية وصولاً إلى المصدر الأول الذي كان قريباً من الأحداث أو عاينها، وافترقت إلى الحد الأدنى من الانتقاد والتحليل. والتعليق.
- 9- تأكد من البحث أن كتاب البيان المغرب لازالت به بعض الفجوات والخروم التي تسبب بعض الخلل في تكامل الكتاب، فإن ما كتبه عن المرابطين غير كامل وأن صلة الكتاب التي ذكرها المؤلف غير موجودة.
- 10- رصد ابن عذاري للبعد العلمي للعديد من السلاطين الذين عرفتهم مسيرة الحكم طوال التاريخ الإسلامي، وذلك من خلال أهمية العصر الذي عاش فيه.
- 11- سياسة بعض السلاطين والحكام كانت بمثابة معاول هدم وخراب، إذ تحقيق طموحاتهم في السلطة تحول إلى إعلان تحالف مع الأعداء، وتسليمهم حصون الإسلام بل حتى اعتناق ديانتهم.
- 12- لم تكن الثورات الداخلية حسب ابن عذاري بسبب الفساد أو ظلم الحاكم فحسب، بل كانت تقوم لتلبية رغبات الثائرين للسيطرة على المناطق التي تقوم بها، أو طمعا بالمال، وبعضها للأسف كان نتيجة التحريض من الخارج لزعة الحكم الإسلامي.
- 13- المادة التاريخية المتعلقة بالخوارج في المصادر التاريخية متفرقة ومبعثرة في الحوليات العامة أو التواريخ الإقليمية، وأقدم التصانيف في تاريخ المغرب عبثت بما يد الدهر، فلم يصلنا سوى شذرات متفرقات نقلها المتأخرون لعل أهمها ابن عذاري وغيره.
- 14- شكل المغرب بطبيعته وسعته ملجأً طبيعياً لكل الفرق التي ظهرت في المشرق الإسلامي، إذ في هذا الإقليم حاولت كل فرقة الاستئثار به، ونشر ما تروج له من أفكار.
- 15- ابن عذاري أفاض في حديثه عن ثورات الخوارج، وعزف عن التاريخ لدولهم في المغرب، واكتفى بإشارات متناثرة عن أمرائهم وسن حكمهم، فالمعلومات المستقاة عن

ابن عذاري بخصوص الخوارج والفاطميين لا تختلف كثيرا عن نظائرها في سائر المصادر العامة التقليدية كابن الأثير وابن خلدون والنويري، إذ أنها جميعا تنقل عن الرقيق فيما يرجح.

16- كان موقف ابن عذاري واضحا من عقائد قوم برغواطة، الذين جاؤوا بدين جديدي مماثل للدين الإسلامي، وأدخلوا عليه بعض التغييرات في شرائعه، فكان مذهبهم من مذاهب الخوارج، وهو المذهب الذي يرمي بصاحبه في هاوية الكفر والضلال والزندقة.

17- توالي ظهور مدعي النبوة لاسيما في المناطق النائية والجبلية، على غرار قبيلة غمارة ومدعيها حاميم بن من الله، وهي دعوة لركوب موجات التمرد والردة.

18- تأييد ابن عذاري للمرابطين في جهادهم ضد البرغواطيين وحلفائها، بهدف القضاء على مذاهب الزندقة، وكذا لتوحيد المغرب تحت راية السنة المالكية.

19- اتخذ ابن عذاري موقف إبطال دعوة العبيديين الفاطميين الذين اتخذوا شرائع وعقائد باطلة، ففتح عنها إقامة إمامة مذهبية خاصة، ودولة سياسية شيعية للقضاء على العباسيين.

20- توظيف فكرة أو عقيدة المهدي المنتظر في مشاريع سياسية، إذ تحولت هذه العقيدة إلى عقيدة سلبية هادمة لكل أمل في التقدم والإصلاح، وكذا الإنحراف عن التوحيد الناصح، والوقوع في أودية الشرك والخرافات.

21- كان لابن عذاري موقف واضح في مسألة خلق القرآن، باعتباره مساندا للعلماء السنة المالكية كابن سحنون وغيره في إبطال هذه البدعة المستحدثة في الدين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

(أ) المصادر الأولية:

- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلسي (ت 658هـ / 1260م)
 - 1- الحلة السيرة، تحقيق وتعليق، حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
 - 2- التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره، وصححه، ووقف على طبعة السيد عزت العطار، 1375هـ / 1955م.
- ابن إبراهيم: العباس.
 - 3- الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الإسلام، المطبعة الملكية، 1976م.
- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630هـ / 1233م).
 - 4- الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ / 1987م.
- ابن الأحرر: إسماعيل بن يوسف بن محمد (ت 807هـ / 1404م).
 - 5- روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1962م.
 - 6- نثر فوائد الجمان في نظم تحول الزمان، تحقيق، محمد رضوان الداية، بيروت، دار الثقافة، 1967م.
- الإدريسي: أبو عبد الله محمد (ت 569هـ / 1164م).
 - 7- وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بيرس، الجزائر.
- ابن أبي أطيبة: أحمد بن قاسم (ت 668هـ / 1269م).
 - 8- عيون الأنباء في طبقات الاطباء، تحقيق، نزار رضا، بيروت، 1965م.

- 9- الذيل والتكملة لتاي الموصول والصلة، السفر الأول: تحقيق، محمد بن شريفة، بيروت (د. ت)، السفر الرابع، والخامس/ القسم الأول، والسادس، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964، 1965، 1973.
- ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتري (ت 578هـ/1050م).
- 10- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، إحسان عباس (د. ت)، دار الثقافة، بيروت، 1979م.
- ابن شيكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/1183م).
- 11- كتاب الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد إبراهيم اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م).
- 12- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997م.
- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1194م).
- 13- جغرافية الاندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق، عبد الرحمن علي الحجري، بيروت، 1968م.
- 14- المغرب في ذكر بالذ إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857م.
- البغدادي: إسماعيل بن باشا بن محمد أمين بن مير سليم الياباني.
- 15- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (د. ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- 16- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (د. ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1951.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/992م).
- 17- فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1959م.
- البيهقي: أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 555هـ/1160م).
- 18- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971م.
- 19- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971م.
- التجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت نحو 717هـ/1317م).
- 20- رحلة التجاني، تحقيق، حسن حسين عبد الوهاب، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، 1981م.
- ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (814هـ/1469م).
- 21- النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، تحقيق مجموعة من الأساتذة، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية 1351هـ-1932م / 1392هـ-1972م.
- ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (833هـ/1429م).
- 22- غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. بوجستراسر، طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر 1352هـ/1933م.
- الجزنائي: علي الجزنائي (ت بعد سنة 766هـ/1364م).
- 23- جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط، المطبعة الملكية، 1991م.

- حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله - المعروف بكاتب جلي (1067هـ/1656م).
- 24- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (د. ت)، دار إحياء التراث العربي، طبعة مصورة، بيروت، لبنان ومؤسسة التاريخ العربي.
- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (852هـ/1447م).
- 25- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهرسه، محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، القاهرة (1385هـ/1966م).
- 26- تهذيب التهذيب، الطبعة الأولى، لدار الفكر، بيروت 1404هـ/1984م.
- ابن حزم: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ/1064م).
- 27- جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، 1962م.
- 28- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس (د. ط)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م.
- الحميدي: فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي الأندلسي (488هـ/1095م).
- 29- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثامنة، 1410هـ/1989م.
- ابن حيان القرطبي: حيان بن خلف (469هـ/1076م).
- 30- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (د. ط)، 1390هـ/1971م.

- ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت 529هـ/1135م).
- 31- قلائد العقبان في محاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف حربوش، مكتبة المنار، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1989م.
- 32- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، مصر، مطبعة السعادة، 1325هـ، وطبعة أخرى جديدة، بتحقيق، محمد علي شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982هـ.
- الخشني: محمد بن حارث (ت 360هـ/971م).
- 33- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1372هـ.
- الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (463هـ/1070م).
- 34- تاريخ بغداد، (د. ط)، (د. ت)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 776هـ/1374م).
- 35- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله محنان، القاهرة، 1973-1974م.
- 36- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، منشور مع رسائل ابن الخطيب بعنوان: مشاهدات لسان الدين الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي، الاسكندرية، 1958م.
- 37- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، القاهرة، دار الكتاب العربي (د. ت).
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (808هـ/1405م).
- 38- مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د. ت).

- 39- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956-1961م.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م).
- 40- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968م-1972م.
- الدباغ: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (696هـ/1296م).
- 41- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم عيسى بن ناجي التنوخي، تصحيح وتعليق إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1388هـ-1968م.
- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1382م).
- 42- سير أعلام النبلاء، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1409هـ/1989م.
- الرازي: عبد الرحمن بن المنذر التميمي (723هـ/1323م).
- 43- الجرح والتعديل، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن، 1372هـ/1953م.
- الرقيق القيرواني: إسحاق إبراهيم بن القاسم (نحو 425هـ/1033م).
- 44- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق د. عبد الله الزيدان ود. عز الدين عمر موسى، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
- ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت 741هـ/1340م).
- 45- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.
- السخاوي: شمس الدين عبد الرحمن (902هـ/1496م).

- 46- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، حققه وعلق عليه بالإجليزية فرانتز روزنتال، ترجمة د. صالح أحمد العلي (د. ط) (د. ت)، دار الكتب العلمية.
- السراج الوزير: محمد بن محمد الأندلس (1149هـ/1639م).
- 47- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق أ.د محمد الحبيب الهبله، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي 1985م.
- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع (230هـ/845م)
- 48- الطبقات الكبرى، تحقيق د. إحسان عباس (د. ط) دار صادر، بيروت، 1405هـ.
- ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/1286م).
- 49- اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي، اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، 1400هـ/1980م.
- 50- المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه د. شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، (د. ت)، دار المعارف، القاهرة.
- 51- الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، 1945م.
- السمعاني: عبد الكريم بن محمد (562هـ/1227م).
- 52- الانساب، تحقيق عبد الرحمن اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن 1382-1386هـ/1962-1966م.
- السلاوي: أحمد خالد الناصري (1315هـ/1897م).
- 53- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م).

- 54- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، 1966م.
- 55- لب اللباب في تحرير الانساب، نشر: Henrico Engelina Weijers، ليدن، 1860-1862م.
- 56- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الاولى، دار إحياء الكتب العربية، 1387هـ/1967م.
- ابن شاکر الکتبی: محمد بن شاکر (764هـ/1363م).
- 57- فوات الوفيات (والذيل عنها)، تحقيق، د. إحسان عباس (د. ط)، (د. ت)، دار صادر، بيروت.
- ابن صاحب الصلاة: أبو مروان عبد الملك بن محمد (ت 595هـ/1189م).
- 58- المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تحقيق، عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، 1964م.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن إيبك.
- 59- الوافي بالوفيات، طبع باقتناء هلموت ريتز، ومجموعة من المحققين، دار النشر، فرانز شتايز يفسبادن، 1381هـ/1962م
- الضبي: أحمد بن حيان بن أحمد بن عميرة (599هـ/1203م).
- 60- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ/1989م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م).

- 61- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف 1387هـ/1968م.
- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (ت 463هـ/1070م).
- 62- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البجاوي، القاهرة، مطبعة نهضة مصر (د. ت).
- ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد سنة 712هـ/1312م).
- 63- البيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، ج 1 و 2، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن 1948-1951، ج 3، نشر ليفي بروفنسال، باريس 1930، ج 4، نشر، أميروي هويسي ميرنדה، 1960م. وقد أعادت دار الثقافة نشر هذه الأجزاء الأربعة في بيروت عام 1967م.
- 64- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب / القسم الموحد، عني بنشره: أميروي هويسي ميرنדה، مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، تيطوان، دار كريماويس للطباعة، 1960م، وطبعة أخرى جديدة بعنوان: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1985م.
- أبو العرب القيرواني: محمد بن أحمد بن تميم (333هـ/944م).
- 65- طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافعي، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
- ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد (1089هـ/1678م).

- 66- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (د. ت) منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.
- عياض: القاضي اليحصبي (544هـ/1149م).
- 67- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق، د. أحمد بكير محمود، (د. ط) (د. ت)، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا.
- الفاسي: محمد بن أحمد الحسيني أبو الطيب (832هـ/1428م).
- 68- العقد الثمين في تاريخ البلد الامين، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق محمد حامد الفقي، (د. ط)، 1378هـ/1985م.
- ابن فرحون: المالكي (799هـ/1396م).
- 69- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق د. محمد الأحمدى أبو النور، (د. ط) (د. ت)، دار التراث، القاهرة.
- ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد (ت 403هـ/1013م).
- 70- تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، الدار المعربة للتأليف والترجمة، 1966م.
- ابن القاضي: أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (1025هـ/1613م).
- 71- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (276هـ/885م).
- 72- الغمامة والسياسة (المنسوب له)، تحقيق، طه محمد الزيني، (د. ط) (د. ت)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
- القضاعي: محمد بن سلامة بن جعفر (454هـ/1062م).

- 73- تاريخ القضاء "عيون المعارف وفنون أخبار الخلائق"، دراسة وتحقيق د. جميل المصري، نشر معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1415هـ/1995م.
- ابن القطان: محمد بن حسين بن عبد الملك.
- 74- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق د. محمود مكي، الطبعة الاولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
- ابن كثير: إسماعيل بن عمر (774هـ/1373م).
- 75- البداية والنهاية، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف، بيروت، 1979م.
- مجهول: (من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد).
- 76- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، 1958م.
- مجهول: (مؤلف أندلسي من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد).
- 77- كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979م.
- مجهول: (كاتب مغربي ألفه في حدود سنة 712هـ/1312م).
- 78- نبذ تاريخية في أخبار القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، اعتنى بنشرها وتصحيحها، ليفي بروفنسال، الرباط، 1934م.
- المالكي: أبو بكر عبد الله بن محمد (بعد 453هـ/بعد 1061م).
- 79- رياض النفوس، حققه بشير اليكوش، راجعه محمد العروسي المطوي (د. ط)، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/1983م.
- مخلوف: محمد بن محمد.

- 80- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى 1349هـ بالمطبعة السلفية على نفقة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- المراكشي: عبد الواحد بن علي (ت 647هـ/1249م).
- 81- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعيد، (د. ط)، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي. بمصر 1383هـ/1963م.
- ابن مرزوق: محمد بن أحمد بن محمد التلمساني (ت 781هـ/1379م).
- 82- المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- مسلم: بن الحجاج القشيري (261هـ/874م).
- 83- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (د. ط)، نشر عيسى الباي، 1374هـ/1954م.
- المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (1041هـ/1631م).
- 84- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، د. إحسان عباس، بيروت (د. ط)، بيروت، 1968م.
- 85- أزهار الرياض، طبع تحت إشراف النخبة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.
- النباهي: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت كان حيا في 793هـ/1390م).
- 86- كتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ قضاة الأندلس، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر (د. ط).
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت 385هـ/995م).

- 87- الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978م.
- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله (626هـ/1228م).
- 88- معجم البلدان (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1986م.
- 89- معجم الادباء، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م.
- اليافعي: عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليماني (768هـ/1367م).
- 90- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الطبعة الثانية، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1390هـ/1970م.
- اليفراني: محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله.
- 91- نزهة الحاوي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية الشيد هوداس، الطبعة الثانية مكتبة الطالب، الرباط (د. ت).

(ب) المراجع الثانوية:

- إسماعيل: عثمان عثمان.
- 92- تاريخ شالة الإسلامية، بيروت، 1975م.
- باسيه: رينيه.
- 93- مادة ابن عذاري، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، الطبعة الأولى.
- بالثيا، أنخل جنثاليث.
- 94- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة، حسين مؤنس، القاهرة، 1956م.
- بروفنسال: ليفي بروفنسال.
- 95- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة، السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة نشر مكتبة نهضة مصر، 1956م.

- بروكلمان، كارل.
- 96- تاريخ الأدب العربي، ج3، ترجمة عبد الحليم النجار، ج5، ترجمة رمضان عبد التواب، ج6، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، دار المعارف، 1977.
- البشري، سعد عبد الله.
- 97- الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الاندلس 422-488هـ، الطبعة الاولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية 1414هـ/1993م.
- الحجي: عبد الرحمن علي.
- 98- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، الطبعة الثالثة، دار القلم، 1409هـ/1987م.
- حركات إبراهيم.
- 99- المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984م.
- الزركلي: خير الدين.
- 100- الاعلام، أشرف على الطبعة الرابعة زهير فتح الله، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م.
- زمامة: عبد القادر.
- 101- أبو الوليد بن الأحمري، الدار البيضاء، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1979م.
- سر كيس: يوسف اليان.
- 102- معجم المطبوعات العربية والمعربة (د. ط) (د. ت) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- سزكين: فؤاد.

- 103- تاريخ التراث الغربي، ترجمة د. عرف مصطفى، مراجعة د. محمود حجازي ود. سعيد عبد الرحيم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1403هـ/1983م.
- السلمي: د. محمد بن صامل.
- 104- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، دار طيبة الرياض، 1406هـ/1986م.
- ابن سرده: عبد السلام بن عبد القادر المري.
- 105- دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، 1960م.
- طه: د. عبد الواحد ذنون.
- 106- دراسات في التاريخ الاندلسي، الطبعة الأولى، 1987م.
- عباس. د. إحسان.
- 107- رسائل ابن حزم الأندلسي (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها)، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م.
- عبد الحميد: سعد زغلول.
- 108- تاريخ المغرب العربي، الاسكندرية، 1979م.
- ابن عبد الله: عبد العزيز.
- 109- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، المغرب / مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1975م.
- علام: عبد الله علي.
- 110- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، دار المعارف، 1971م.

- عنان: محمد عبد الله.
 - 111- تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1390هـ/1970م.
 - 112- فهارس الخزانة الملكية (فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات)، (د. ط)، الرباط، 1400هـ/1980م.
 - عويس: عبد الحليم.
 - 113- ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الطبعة الثانية، 1409هـ/1988م.
 - كحالة: عمر رضا.
 - 114- معجم المؤلفين، دمشق، 1957-1958م.
 - كنون: عبد الله.
 - 115- النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1961م.
 - الماحي: علي حامد.
 - 116- المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1986م.
 - المراكشي: عباس بن إبراهيم.
 - 117- الاعلام بمن حل بمدينة مراكش وأغمات من الاعلام، فاس، 1936م.
 - مؤنس: حسين.
 - 118- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1967م.
- (ج) المصادر والمراجع الأجنبية:

- Bosch-Vilà. Jacinto.

119- The Encyclopaedia of Islam, new edition, Vol III, Article: Ibn Idhari –

▪ Dun Lop, D.M.

120- “Ibn Idhari’s Account of the Party Kings”, Glasgow University Oriental Soc, Trans, 1957.

▪ Brockelmann (Carl)

121- Geschichter der Arabischen Litterature: G, A. L 2ed, Leiden, Brill, 1937-1944, 2Vol+ 3Vol de supplement.

(د) الأبحاث والدراسات:

▪ ابن حزم:

122- رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق، شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب،

جامعة فؤاد الأول، المجلد 13/ج2، 1951، ونشرت أيضا ضمن مجموعة رسائل

ابن حزم الأندلسي، ج2، بيروت، 1981م.

▪ زمامة: عبد القادر.

123- "اكتشاف نص جديد من كتاب البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس

والمغرب يتعلق بتاريخ الموحدين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة

محمد بن عبد الله، العددان: 4 و5، فاس 1980 – 1981، ص 295-319.

▪ طه: د. عبد الواحد ذنون:

124- "نشأة التدوين التاريخي في الأندلس – دراسة تطبيقية عن أحمد محمد الرازي".

مجلة دراسات العلوم الإنسانية، المجلد السابع، العدد الأول، الجامعة الاردنية،

عمان، 1980م.

125- "موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقية من الفتح إلى بداية عهد

المرابطين"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس والثلاثون، الجزء الرابع،

بغداد، 1985م.

126- "موارد تاريخ ابن عذارى المراكشي عن الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع والثلاثون، الجزء الرابع، بغداد، 1986م.

127- "موارد تاريخ ابن عذارى المراكشي عن المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع والثلاثون، الجزء الرابع، بغداد، 1989م.

■ عباس: إحسان.

128- كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة لابن عبد الملك المراكشي المتوفي سنة 703هـ/ دراسة في المنهج والمضمون العلمي، رسالة دكتوراه، أجزيت في جامعة الموصل/ كلية الآداب في 02/11/2001م.

■ عبد الحميد: سعد زغلول.

129- "فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن الحكم"، بحث ضمن كتاب: "دراسات عن ابن عبد الحكم"، القاهرة، 1975م، ص 153-196.

■ عبيد الله بن صالح: عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم (القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد).

130- "نص جديد عن فتح العرب للمغرب"، تحقيق ليفي بروفنسال، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، العدد 02، مدريد، 1954م.

■ الفاسي: محمد.

131- "نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الأدبية"، مجلة البينة، العدد الثامن، السنة الأولى، الرباط، 1962م.

■ محمد: مزاحم علاوي.

- 132- الدولة المرينية في عصر أبي الحسن علي بن عثمان/ دراسة حضارية: رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1985م.
- مكّي: محمود علي.
- 133- "مراجعة للقسم الموحد من البيان"، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان 09 و10، مدريد، 1959-1960م.
- 134- "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين"، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان 07 و08، مدريد، 1959-1960م، ص 109-198.
- 135- ابن عذاري المراكشي وكتابه البيان المغرب، تحقيق أمبروسي هويسبي مراندة مع مساهمة محمد بن تويت ومحمد بن إبراهيم الكتاني، طبعة تيطوان 1960م (نقد وعرض)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بـمدريد، المجلد 9-10-1961-1962م.
- الكتاني: محمد إبراهيم.
- 136- "العثور على خمس مخطوطات من البيان المغرب بمكتبة القصر الملكي بالرباط لم تكن معروفة من قبل"، مجلة تيطوان، العدد التاسع، 1964م.
- 137- "العثور على الورقات الأخيرة من البيان المغرب لابن عذاري المراكشي"، مجلة تيطوان، العدد العاشر، 1965م.
- المنوني: محمد.
- 138- "علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني الأول"، مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة الثامنة، المحمدية.
- 139- "المصادر العربية لتاريخ المغرب"، ج1، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983م.

140- "ورقات عن الحضارة المغربية عصر بني مرين"، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1979م.

▪ مؤنس: حسين.

141- "نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين"، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، مدريد، 1955، ص 97-140.

142- "سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين"، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، ج 1 و 2، مدريد، 1954، ص 55-84.

▪ Emille Fricaud.

143- Ibn-Idari Al Marrakusi, Bilan d'un siècle et demi de recherches, sur Al – Bayan Al Mugrib.

فهرس المحتويات

المقدمة أ

الفصل الأول:

التعريف بابن عذارى المراكشي ولحة عامة عن عصره وقيمة كتابه التاريخية

تمهيد..... 23

أولاً- التعريف بابن عذارى المراكشي..... 24

أ. لحة عامة عن حياة ابن عذارى المراكشي..... 25

ب. اسمه ونسبه..... 29

ج. دراسته وسعيه في طلب العلم..... 33

د. وفاته 35

هـ. مؤلفاته 37

ثانياً- لحة عامة عن عصر ابن عذارى المراكشي..... 43

أ. الأوضاع السياسية والثقافية لعصر ابن عذارى المراكشي..... 43

ب- معالم الكتابة التاريخية بالمغرب والاندلس خلال القرنين السابع والثامن الهجري..... 49

ثالثاً- القيمة التاريخية لكتاب البيان المغرب..... 58

أ- التعريف بكتاب البيان المغرب (مخطوطاته، طبعاته، ترجماته، محتوى الكتاب)..... 58

أ-1 مخطوطات كتاب البيان المغرب..... 58

أ-2- طبعات كتاب البيان المغرب..... 61

أ-3- ترجمات كتاب البيان المغرب إلى اللغات الأجنبية..... 70

-الترجمات إلى اللغة الفرنسية..... 72

-الترجمات إلى اللغة الإنجليزية..... 73

-ترجمة الكتاب إلى اللغة الإيطالية..... 74

- أ-4- ترتيب خطة الكتاب ودواعي تأليفه 74
- ب- أهم المصادر التي اعتمدت على البيان المغرب ونقلت عنه 78
- ج- منهجه في تدوين وتوثيق المادة التاريخية 80
- ج-1- أسلوب الحوليات 81
- ج-2- قطع الأحداث والعودة إليها 85
- ج-3- الاهتمام بإيراد المكتبات والرسائل 88
- ج-4- منهجه في إيراد التراجم 89
- ج-5- اهتمامه بذكر الوفيات ومنهجه في ذلك 90
- ج-6- اهتمامه بأحداث المشرق الإسلامي 91
- ج-7- نقده لبعض الأحداث وتفسيره لها 92
- ج-8- اهتمامه بالأحوال الاقتصادية والظواهر الطبيعية 93
- د- قيمته التاريخية 94

الفصل الثاني:

مصادر ابن عذاري في البيان المغرب وطريقته في التعامل معها

- أولا- قائمة المصادر المكتوبة وبيان أهميتها 98
- أ- كتب المغاربة والأندلسيين 101
- أ-1- الكتب التاريخية 101
- ب- الكتب التاريخية المشرقية 180
- ثانيا- كتب التراجم 196
- ثالثا- كتب المسالك والجغرافية 214

الفصل الثالث:

طريقة ابن عذاري في التعامل مع المصادر والتعليق على المادة التاريخية

- أولاً- منهج ابن عذاري في التعامل مع المصادر.....236
- أ- أسس انتقاء المادة التاريخية.....236
- ب- طريقته في التوثيق والاقْتباس من المصادر.....241
- ج- طريقته في الإحالة على موضوعات سابقة أو لاحقة.....245
- د- طريقته في نقل مشاهداته.....251
- ثانياً- منهج ابن عذاري في عرض المادة التاريخية.....253
1. منهجه في عرض أخبار الدولة الواحدة وعلاقتها بغيرها من الدول.....253

الفصل الرابع:

نزاهة ابن عذاري في النقل وعرض الحقائق، وموقفه من المنشقين والثائرين عن السلطة

المركزية

- أولاً- إلى أي مدى كان ابن عذاري ملتزماً بالنزاهة في النقل وعرضه للحقائق:.....332
- ثانياً- نماذج مقارنة من نصوص ابن حيان وابن صاحب الصلاة وابن القطان مع ما نقله عنهم ابن عذاري مع بعض الملاحظات عليها.....363
- ثالثاً- مواقف ابن عذاري من المنشقين والثائرين عن السلطة المركزية.....369

الفصل الخامس:

منهج ابن عذاري في نقد وتقويم الأحداث والوقائع

- أولاً- تقويمه للمصادر ونقده للأخبار سندا ومنتنا:.....409
- ثانياً- نقده للمواقف وتصرفات الأشخاص.....435
- ثالثاً- ربط الأسباب بمسبباتها واستخلاص العبر والعظات منها.....457
- رابعا- موقف ابن عذاري من النحل والتيارات الفكرية والفرق المذهبية.....495

- 495 1-4- موقف ابن عذاري من الإباضية خاصة والخوارج عامة
- 505 2-4- موقف ابن عذاري من الأدارسة
- 512 3-4- موقف ابن عذاري من قبيلة برغواطة وغمارة وانتحال زعمائها النبوة
- 529 4-4- موقف ابن عذاري من الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية
- 537 5-4- موقف ابن عذاري من أذعياء المهدي للمهدوية
- 540 6-4- موقف ابن عذاري من عقيدة المهديوية- بين رحيل الفاطميين وقيام الموحدين
- 545 7-4- موقف ابن عذاري من خلق القرآن
- 548 خامسا- موقف ابن عذاري من رجال السلطة في عصره
- 555 الخاتمة
- 559 قائمة المصادر والمراجع:

فهرس المحتويات

ملخص الأطروحة

Résumé de la thèse

Thesis summary

ملخص الأطروحة:

على الرغم من الانتكاسات السياسية التي حلت بالعالم الإسلامي في المشرق والمغرب، والتجزئة السياسية التي ضربت المغرب العربي والأندلس، نقول على الرغم من كل هذا، فإنّ هذا العصر يمثل انعطافاً إيجابياً بالنسبة إلى انتعاش الحركة العلمية والثقافية، ولاسيما في المغرب العربي حيث برز علماء أفذاذ كان لهم مكانة مرموقة بين نوابغ الفكر العربي، ومن هؤلاء ابن عذاري المراكشي، إذ كان له حضور فعال في مجال الثقافة العربية الإسلامية الذي يشير إلى قوّة هذه الامة وحيويتها.

ويتبوأ ابن عذاري المراكشي مكانة مرموقة بين أولئك النوابغ الذي أُنجبتهم الامة خلال ذلك العصر العصيب، بالنظر إلى ما يمثله من تراث حي، لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تاريخ المغرب والأندلس، ونقصد بذلك كتابه القيم الموسوم: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

فلقد عاش ابن عذاري في ذلك العصر، وتشرّب الثقافة العربية الإسلامية التي كانت سائدة في المشرق والمغرب، واهتم بهذه الثقافة، واطلع على أصولها، فكان حصيلة ذلك كله وعصارة فكره النير، سفراً جليلاً، قدّمه للأجيال التالية، ليكون نبراساً في التعرف إلى تاريخ المغرب العربي بل الشمال الإفريقي كلّهُ بالإضافة على الأندلس وذلك منذ السنوات الأولى للفتوح الإسلامية والتحرير والى نهاية دولة الموحدين.

لقد تضمنت هذه الأطروحة دراسة شخصية ابن عذاري، ومنهجته في التأليف وأسلوبه، وقد تم تخصيص حيز واسع من هذه الأطروحة لدراسة التقويم والنقد الذي اعتمدهما ابن عذاري، وذلك لأهمية هذا الموضوع الذي يكشف عن المصادر التي كانت بتصرف هذا المؤرخ.

Résumé de la thèse :

Malgré les revers politiques qui ont frappé le monde islamique en Orient et au Maghreb, et la fragmentation politique qui a frappé le Maghreb et l'Andalousie, nous disons que malgré tout cela, cette époque représente un tournant positif pour la renaissance du mouvement scientifique et culturel, en particulier au Maghreb, où ont émergé d'éminents savants qui avaient une position de premier plan parmi les génies de la pensée arabe, y compris Ibn Adhari Marrakchi, qui avait une présence active dans le domaine de la culture arabo-islamique, ce qui indique la force et la vitalité de cette nation.

Ibn Adhari Marrakchi occupe une position de premier plan parmi les génies qui sont nés par la nation pendant cette période difficile, compte tenu du patrimoine vivant qu'elle représente, dont on ne peut se passer dans l'étude de l'histoire du Maroc et de l'Andalousie, et par là nous entendons son précieux livre étiqueté: Al-Bayan Al-Maghrib dans les nouvelles de l'Andalousie et du Maroc.

Ibn Adhari a vécu à cette époque, et s'est imprégné de la culture arabo-islamique qui prévalait en Orient et au Maghreb, et s'est intéressé à cette culture, et connaissait ses origines, donc le résultat de tout cela et le jus de sa pensée éclairée, un grand voyage, présenté aux générations suivantes, pour être un phare dans l'identification de l'histoire du Maghreb arabe, mais toute l'Afrique du Nord en plus de l'Andalousie, depuis les premières années des conquêtes et de la libération islamiques et jusqu'à la fin de l'État almohade.

Cette thèse a inclus une étude de la personnalité d'Ibn Adhari, et son approche de la paternité et du style, a été consacrée une grande partie de cette thèse à l'étude du calendrier et de la critique adoptée par Ibn Adhari, en raison de l'importance de ce sujet, qui révèle les sources qui étaient à la disposition de cet historien.

Thesis summary :

Despite the political setbacks that befell the Islamic world in the East and the Maghreb, and the political fragmentation that hit the Maghreb and Andalusia, we say that despite all this, this era represents a positive turning point for the revival of the scientific and cultural movement, especially in the Maghreb, where distinguished scholars emerged who had a prominent position among the geniuses of Arab thought, including Ibn Adhari Marrakchi, who had an active presence in the field of Arab-Islamic culture, which indicates the strength and vitality of this nation.

Ibn Adhari Marrakchi occupies a prominent position among those geniuses who were born by the nation during that difficult era, given the living heritage it represents, which cannot be dispensed with in the study of the history of Morocco and Andalusia, and by this we mean his valuable book tagged: *Al-Bayan Al-Maghrib in the news of Andalusia and Morocco*.

Ibn Adhari lived in that era, and imbibed the Arab-Islamic culture that was prevalent in the East and the Maghreb, and was interested in this culture, and was acquainted with its origins, so the outcome of all that and the juice of his enlightened thought, a great travel, presented to the following generations, to be a beacon in identifying the history of the Arab Maghreb, but the whole North Africa in addition to Andalusia, since the early years of the Islamic conquests and liberation and until the end of the Almohad state.

This thesis has included a study of the personality of Ibn Adhari, and his approach to authorship and style, has been devoted a large space of this thesis to the study of the calendar and criticism adopted by Ibn Adhari, because of the importance of this topic, which reveals the sources that were at the disposal of this historian.

People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research

Amir Abd-el-Kader University
of Islamic Sciences Constantine



Faculty of Arts and Islamic Civilization

Department: History

Registration number:.....

Serial number:.....

*The Sources of “The Amazing Story of the History of
the Al-Andalus and Maghreb” of Ibn ‘Idari al-
Marrakushi: A Critical Study*

Thesis submitted to obtain a doctorate of science in Islamic sciences

Specialization: History and Islamic civilization the city and urban life in the Islamic West

Submitted by:
Bareche Bouaza

Supervised by:
Prof. Muhamed Fergani

The discussion jury members

Name and First Name	Function	Scientific Rang	Original University
Pr. Ibrahim ben Mahiya	Chairman	Professor	Amir Abdelkader University
Pr. Muhamed Fergani	Supervisor and Reporter	Professor	Amir Abdelkader University
Pr.Nacira azroudi	Membre	Professor	Amir Abdelkader University
Pr.AbdelMalek Bekay	Membre	Professor	Université Mohamed Lamine Debaghin Sétif02
Pr/ Massoud Barika	Membre	Professor	Université Mohamed Lamine Debaghin Sétif02
Pr.Ataher Touil	Membre	Professor	Université Hajj Lakhdar, Batna1

University year: 1444 -1445h / 2023-2024